كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر

لأحمد المنصوري

تحقيق: الأستاذ محمد بن لحسن

تقديم: الدكتور مصطفى الكثيري

منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير

كباء العنبر
من عظماء زيان
وأطلس البربر

لأحمد المنصوري

تحقيق: الأستاذ محمد بن لحسن
تقديم: الدكتور مصطفى الكتيري

منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير

طبع هذا الكتاب بدعم من

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الـكـتـاب : كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر

الـنـاشـر : منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين

وأعضاء جيش التحرير

تحقيق وتقديم : الأستاذ محمد بن لحسن

الطبعة الأولى : 1425هـ/2004م

الـمـطـبـعـة : مطبعة الكرامة – الرباط

الإيداع القانوني : 2004/1594

ردمـك : 9954-0-5018-3

تقـــــــديم

كشـــف البحث العلمي الجاد والمسؤول الذي تضطلع به اللجنة العلمية الاستشـــارية المنضوية بالمندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير عن مـــنجم زاخـــر بالافادات والسرديات التاريخية التي تكتنزها المخطوطات القابعة في الـــرفوف بـــربائد الخزانات الوطنية والخاصة في انتظار تحقيقها ونشرها واصدارها وتداولهـــا بين المهتمين وبين العموم باعتبارها من المرجعيات الاساسية المتميزة ذات الحمولة الوازنة في الحركة الثقافية والفكرية والمعرفية التي يشهدها ويعيشها وينخرط فيها قطاع المقاومة وجيش التحرير ويدعمها بعزم والتزام ووفاء خدمة للتراث الوطني وللرصيد التاريخي وللمعرفة العلمية والانسانية.

وإن اصدار هذا المخطوط بعنوان : **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر** الذي ألفه الفقيه احمد بن قاسم المنصوري وليد بلاد زيان وحققه الاستاذ محمد بـــن لحســـن يـــأتي استجابة من المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحريرلتوصـــية اللجـــنة العلمية الاستشارية من ناحية وعلى نسقية صيانة الذاكرة الوطنـــية الجماعـــية من ناحية ثانية والتعريف بفصول امجادنا التاريخية الزاخرة بالعبر والعظـــات والطافحة بالملاحم والبطولات ، ورصد حقب وفترات من تراثنا الوطني الذي لايمكن باي حال من الاحوال اغفاله او تناسيه او التغاضي عنه باعتبار ان هذا الـــتراث تجذيـــر لثقافتـــنا وباعث لنهضتنا وتحصين لهويتنا ووعاء لاستشراف آفاق مستقبلنا الواعد.

وتكمن أهمية هذا المخطوط القيم والمفيد في رغبة المؤلف أحمد المنصوري وحرصـــه على الكشف عن الاصول الحقيقية البربرية واصراره لدحض الطروحات المغرضـــة لـــلمؤرخ الكولونيالي المتجهة الى تحريف الحقيقة وزحزحتها عن موضعها ولذلـــك يـــنطلق المؤلف في مخطوطه من معالجة اشكالية ازمة تفكير في الخروج من المـــأزق ومن المعضلة السياسية التي عرفها المغرب في العقد الاول من القرن الماضي ويؤسس تحليله الرصين المتميز على ثلاث فرضيات هي:

1- الاخضاع التدريجي للمغرب وذلك بتدمير نظامه الحضاري الاسلامي وابتلاع منشآته وإلحاقه بالخسائر الفادحة في الارواح؛

2 - استغلال الانسان و الارض ؛

3 - احداث التغيير الشامل الكفيل بادماجه وحشره في النظام الحضاري اللاتيني.

في هذه الظروف يعتلي العرش السلطان مولاي عبد العزيز، ويقدم على اتخاذ التدابير و الاجراءات الجبائية الاصلاحية بالغاء الضرائب القديمة (الزكاة – العشور..) واحــداث نظام الترتيب الملزم لأوسع الفئات الاجتماعية وهو ما لم يستوعبه الرأي العــام فنجم عن ذلك الاستياء العميق والاصطدام بالمقاومة العنيفة الشيء الذي ادى الى خلع السلطان مولاي عبد العزيز ومبايعة أخيه مولاي عبد الحفيظ سلطانا للجهاد (1325هـــ-1907م) بما تمثل عبارة الجهاد من بعد ديني في بناء الاسلام، الى ان حــلت فاجعة 30 مارس 1912 التي اعتبرت خيانة للمغرب وللاسلام سواء بسواء خصوصــا بعدمــا تعرضـــت مدينتا وجدة والدار البيضاء لهجوم 1907 كمؤشر للاكتســــاح الغــربي والاجتياح المسيحي ونشوب الثورات والانتفاضات الشعبية للقــبائل والعشائر بدءا بالمجاهد احمد الهيبة والمجاهد موحا وحمو الزياني و المجاهد عبد المالك الفشتالي والمجاهد الشريف امزيان و البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي بالريف و المجاهد عسو باسلام بآيت عطا بالجنوب الشرقي من البلاد.

امــام هذه الوضعية وما اصبحت تعانيه الامة والرعية برزت مواقف العلماء الداعــية الى مواصلة الجهاد واشعال جذوة المقاومة التي انطلقت من مدينة فاس بعد توقــيع عقد الحماية. ولذلك ستبادر السلطات الفرنسية الى اسكات صوت الفقهاء ورجــال الدين والعلماء وتقدم على اصدار الظهير البربري في 16 ماي 1930 لخلق التفرقة والشقاق والنيل من العقيدة الاسلامية وانشاء مجتمع ينبذ دينه وماضيه وأصالته اعــتقادا من المفكرين الاستعماريين ان هذه السياسة الاستعمارية سوف تنطلي على الانســان المغــربي لاسيما الامازيغي. ولاجل ذلك ،خصص المؤلف الجزء الهام من مخطوطــه للبحث الدقيق والمستفيض في المعالم الاسلامية بالاطلس المتوسط واولاها اهــتماما بالغا، ليستدل على اسلامية ايمازيغن . والواقع ان ما من فكرة طرحها الا ودعمها بالحجة والبرهان مما أضفى على معلوماته وافاداته القيمة العلمية الرصينة.

وقــد اعــتمد المؤلف في رصد هذه الظاهرة (أي اسلامية امازيغن) على المصــادر العربــية الموثوق بها كابن خلدون وأبي علي الحسن اليوسي ، وابي القاسم الــزياني واحمد بن خالد الناصري وغيرهم ممن لايتسع المقال للتطرق لجميع الاسانيد الــتي اعتمدها لاثبات تشبث الامازيغ بالاسلام والاستدلال على الحوافز التي دفعت المواطنين المجاهدين المغاربة الى المقاومة ورفض الاحتلال الفرنسي كاحتلال حضاري

واستعماري كـان يهدف الى محو أمة واحلال اخرى بديلة عنها. بما سوف يتيح للقارئ الكريم ان يتجول فيه بين طيات هذا الاصدار ويستزيد من المعرفة في مضامينه التي لاتخفى اهميتها الموسوعية في حفظ التراث وتثمينه وتأهيله.

ويجـدر التنويه بما بذله المحقق الاستاذ محمد بن لحسن الذي استنفرجهوده وطاقاته العلمية لاخراج هذا العمل القيم وفق ضوابط التحقيق العلمي الرزين والتعليق عليه ومسك هوامشه وحواشيه بما تتطلبه عمليات الاخراج من خبرة وتقنية وتدقيق ومقابلـة وامانة علمية وصدقية لان جنس تحقيق المخطوطات جنس منوع لايركبه ويكسبه الا من أوتي حظا وفيرا من المكونات الفكرية والادبية والتاريخية.

ونحن في المندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير اذ نسجل للسـيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية استجابته التلقائية الكريمة وغيرته الوطنية والعلمـية لدعـم طبع هذا الاصدار، نثمن مساهمته القيمة في هذا الانجاز العلمي والتوثـيقي الـذي سينضاف الى رصيد الخزانة الوطنية ويعزز مجهود صيانة الذاكرة الوطنية .

واملنا ان نكون بهذا الاصدار الجديد قد عملنا على اضافة لبنة من لبنات نشر المعارف والمدارك في اوساط الشباب والناشئة والاجيال الصاعدة للاغتراف من معينها وينابـيعها ولاستكشـاف واستقراء مراحل من تاريخ وجهاد الاسلاف والأجداد والآباء في كافة الميادين وراجين ان يكون هذا الكتاب ينبوعاً تكرع من نميره ناشئتنا واجيالنا الصاعدة والقادمة.

والله تعالى الموفق

والسلام

المندوب السامي لقدماء المقاومين
واعضاء جيش التحرير

د. مصطفى الكتيري

مقدمة الكتاب

1- عصر المؤلف :

تميزت الظروف التاريخية التي عاصرها أحمد المنصوري (1897-1965) بأوضاع مختلفة ومتباينة . ففي العقد الأول من القرن العشرين، تأزمت الأوضاع الداخلية غاية التأزم ، حيث كان المغرب يتخبط في أزمة متعددة الجوانب (سياسية، اقتصادية، اجتماعية، فكرية..) ، وأكثر من ذلك أزمة التفكيرفي الخروج من الأزمة . ثم جاءت الفاجعة التي وقعت في 30 مارس 1912، لما فرض المستعمر الفرنسي ، مع شريكه الإسباني وجوده فرضا ، وسقط المغرب تحت الاحتلال الفرنسي المباشر، لأول مرة منذ ثلاثة عشر قرنا خلت . وأثناء مرحلة الحماية والحجر التي دامت قرابة نصف قرن ، تعرض المغرب لمحاولة تفكيك وتغيير مركّبه الحضاري . ويمكن تحديد هذه المرحلة في ثلاثة أطوار :

1- اخضاع المغرب بالقوة العسكرية على مراحل ، وما ترتب عن ذلك من تدمير في المنشآت الإقتصادية والاجتماعية ، وخسارة في الأرواح البشرية .

2 - استغلال الإنسان والأرض .

3 - تأسيس تقنيات لإحداث التغيير الفكري والثقافي والقانوني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي ، بشكل يساعد على تفكيك النظام الحضاري الإسلامي للمغرب ، ويعمل على دمجه في النظام الحضاري اللاتيني .

1- بعد ولادة المؤلف بثلاث سنين ، أي سنة 1900، توفي الحاجب الملكي أحمد بن موسى الذي اشتهر بترهيب الناس ، وبوفاته سقط نظام الدفاع السياسي الذي كان يعتمد عليه المغرب ، في سياسة التوازن لمقاومة التدخل الأجنبي ، كما انفجر الوضع الداخلي وتحول الى ًفوضىً (1) عارمة ، بلغت في بعض الجهات حدا لا يطاق ، وكان مما يذكيها زيادة الضغط الأروبي الذي بلغ أوْجه، في هذه الظروف ، يقول محمد بن الحسن الحجوي :

وإذا أحمد بن موسى قد توفي والحبل على الغارب ، والأحوال تضطرب وإذا بالجيوش الفرنسية تتقدم في الحدود لتفاقم الوضع ، فاحتلت بقية توات ، ثم شرعت في احتلال فجيجً (2)

دخل المغرب إذن ، في العقد الأول من القرن العشرين في عهد تميز بتبدل كل شيء: مخزن ضعيف وعاجز ، ومجتمع مضطرب ومتفكك . ومن أجل الخروج من الأزمة ، أعلن السلطان عبد العزيز عن نظام جبائي جديد - تحت تأثير

---

1 - اللفظ لمحمد بن الحسن الحجوي ، ويعني به نقيض النظام ، أنظر الرحلة الوجدية أو انتحار المغرب بيد ثواره ، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم ح 123، ص. 65 .

2 - محمد جعفر الكتاني ، نصيحة أهل الإسلام ، مكتبة بدر-الرباط 1989، ص 27 .

الأجانب - يلغي الضرائب القديمة (الزكاة ، العشور) ، ويقرر ضريبة واحدة (الترتيب)، تلزم جميع فئات الشعب بدون استثناء ، الا أن هذا الإعلان كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، اذ قوبل الترتيب باستياء عميق ، واصطدم بمقاومة عنيفة ، سواء من لدن المنتفعين من الأوضاع القديمة ، كالقواد والبشوات الذين حرموا من فرص استنزاف القبائل ، او من قبل الذين رأوا في هذه الضريبة مخالفة لتعاليم القرآن .

والحق أن هذه المحاولة الإصلاحية لم تكن موجهة بصفة واعية ضد الأزمة ، ذلك أن السلطان ارتكب غلطة قاتلة بإحلال ضريبة ، أوحي له بها من قبل أعداء المغرب ، وفي وقت كان المجتمع كله مستعدا للوقوف في وجه المطامع الأجنبية . قال صاحب «نصيحة أهل الإسلام» ، عن سؤال وضعه عليه السلطان عبد العزيز: وهل يساعدنا الناس على محاربة العدو ؟ فأجاب :

" إن علم الناس أن كل ما يدفعونه ، سيصرف في سبيل اعلاء كلمة الله، وحفظ المغرب ، وإن دفعتم أموال المسلمين لمن يستحق القيام عليها، ويصرفها في مصارفها ، فأموالنا وأموال المسلمين كلها لله ولرسوله ولكم ... وإن كانت أموال المسلمين ستدفع لمن يستعين بها على معصية وما لا يرضاه ، فسوف لا يعطى أحد شيئا " (1) .

كانت إذن ضريبة الترتيب سببا في اندلاع الفتن والإضطرابات ، حيث أصبحت حركة الانتفاضة عامة في مجموع البلاد وامتدت من سوس (2) إلى ضواحي طنجة (3) في الشمال ، مرورا بسهول دكالة وسايس والغرب (4) .

يقول المؤلف الذي نؤرخ لعصره :

" عند هذا الحد اضطربت القبائل وهاجت وماجت في بعضها ،
وفقد الأمن في جميع السبل ولأدنى سبب تطاح بالنفس
البريئة برمية رصاصة ، وتصبح القبيلة غنية ،
فتمسي فقيرة ، وقد تأيمت نساؤها وتيتمت أبناؤها ،
بغارة قبيلة أخرى عليها ، وعم هذا في سائر القبائل
المغربية ..." (5) .

1- نفسه.

2- محمد داود ، مختصر تاريخ تطوان ، تطوان 1955 ، ص 220 - 222 .

3 - علال لخديمي التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ، افريقيا الشرق 1991، ص 34

4 - نفسه .

5 - أحمد المنصوري ، كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر ، ج 1 ، ص 145.

وكان أشهر هذه الفتن بروزا ،تمرد بوحمارة (1) من أجل الوصول إلى العرش (2) فقد تمكن من السيطرة على شرق البلاد ، بمساندة قبائل ممر تازة ، فكسر بذلك وحدة المغرب الجيوسياسية ، وأكثر من ذلك هو الشرخ الذي أحدثه في وحدة المجتمع المغربي ، الذي كان من الممكن أن تتحد كل شرائحه وفئاته وقبائله لمواجهة الغزو ، والاستعمار الأروبي .

وازداد الوضع تأزما ،لا فحسب بسبب الإضطرابات في القبائل والهزائم تلو الهزائم التي منيَ بها الجيش أمام بوحمارة ، بل كذلك لأن بيت المال كان أنقى من كف اليد :

" وكانت النتيجة – يقول ابن الأعرج – خراب العمرا ن

وهلاك الرجال ، ونفاذ الأموال وارتباك الأحوال" . (3)

ومن هذه الثغرة (فراغ الخزينة) نفذت فرنسا الى مالية المغرب ،واخضعتها لمراقبتها (4) ، ثم تسلسلت المواثيق لإحكام الخناق على المغرب ، فمن الأحلاف الثنائية ، والمعاهدات بين الدول الأروبية (فرنسا ، اسبانيا، إيطاليا ، المانيا)، الى مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906) ، الذي مهد الطريق لفرنسا واسبانيا الى احتلال المغرب .

" وهكذا - يقول الحجوي – عقدت الأوفاق المجحفة

بالحقوق وباستقلال البلاد ، والقروض العظيمة باسم الأمة ،

والأمة لاعلم لها ولا رأي ، واعطيت المشاريع العمومية

الكبرى للاجانب ، الذين لم يكونوا يحلمون بنوال أقل جزء منها ،

فصارت لهم مهداة" (5) .

قادت هذه الفوضى العارمة الى خلع عبد العزيز ومبايعة أخيه وخليفته في مراكش المولى عبد الحفيظ ، ففي فاتح ذي الحجة 1325 هـ ـ1907 م ،أعلن هذا الأخير نفسه سلطانا

---

1 ـ هو الجيلاني بن محمد الزرهوني اليوسفي الدفعي من مدشر أولاد يوسف، أحد مداشر زرهون من فخذ أولاد بن دفعة . لُقِّب بالروكي كسلفه الثائر الذي كان ينتمي إلى قبيلة رواكة من سفيان الغرب . ولفظة الروكي تعني الفتان، ومن ثم أصبح كل متمرد يلقّب بالروكي كما هو الحال بالنسبة للجلاني الزرهوني، انظر عبد الوهاب بنمنصور، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية ، ج 1، ص 303.

2 – ادعى بوحمارة العرش على أساس أنه مولاي محمد أخو السلطان عبد العزيز الأكبر .

3 – محمد بن الأعرج السليماني ، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ – مخطوطة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 3657، ج 2 ، ص 36.

4 – في سنة 1903 استقرض المغرب من فرنسا 000 500 22 فرنك ، وفي سنة 1904 استقرض 000 500 62 فرنك ، وفي سنة 1910 ، 100 مليون فرنك .

5 – الرحلة الوجدية ، المصدر السابق ص : 54-55 .

للجهاد ، ضد الأجانب وضد الأوضاع الفاسدة ، وتنفس الشعب الصعداء حيث رأى فيه رمزا وأملاً (1) معا لتحرير المناطق المحتلة في الشاوية وشرق البلاد . ولكن السؤال الذي يبدو ملحا هو هل استطاع عبد الحفيظ أن يتدارك الموقف لإنقاذ المغرب من الأزمة ، خصوصا وأنه انطلق من أسس إسلامية ؟

يبدو أن السلطان وضع أصبعه على رغبة الشعب عندما أعلن نفسه ، منذ البداية سلطان الجهاد ، وقد أحاط الغزو الاستعماري بالمغرب من جميع الجهات ، والجهاد في القيم والمبادئ الإسلامية المغربية كان يمثل جزء من بناء الإسلام (2) .

وباعتبار أن العقيدة المهاجمة لا يردها الا عقيدة مدافعة ، ولا يمكن درء العدوان ورد الهجوم إلا بواسطة الجهاد ، ولأن المغرب كان قاعدة لنشر الإسلام وتوسيع رقعته في ربوع أفريقيا والأندلس ، وحارب الإيبريين ، عندما هاجموا سواحله ، في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، ومن ثم ورث جذوة الجهاد جيلا عن جيل .

تأججت هذه الجذوة في بداية القرن العشرين ،بسبب تهديدات المستعمر وكانت مشعلا وهّاجا أضاء طريق الكفاح أسلوبا للمقاومة .

غير أن السلطان عبد الحفيظ لم يضع الجهاد في إطاره الحقيقي . إذ كان يتوجب عليه - إن هو أراد أمة قوية سليمة من الأمراض والعاهات وقابلة للتطوير باستمرار - إعادة تشكيل المجتمع وفق النهج الإسلامي ، في صورته الشمولية ، وربطه بالأهداف السياسية والاقتصادية ، والإجتماعية والفكرية ، ربطا واعيا ، يكون في النهاية خير أمة اخرجت للناس .

وهنا قد يثار اعتراض مفاده أن المغرب كان متشبثا بالإسلام ولم ينحرف أبدا عن عقيدته ، ولكن كيف يمكن تفسير تفكك المجتمع ؟ لماذا كانت القبائل تتقاتل فيما بينها ؟ لماذا ساد النهب والقتل دون رادع ، أو وازع ، حسبما تتحدث عنه المصادر؟

لا جدال في أن انحراف المجتمع عن الإسلام هو الذي جعله يسقط في هذه الفوضى القاتلة ، ولا جدال في أن المغاربة كانوا على غير استقامة كاملة بالإسلام ، وإن كانوا حتى تلك الفترة لا يزالون في دائرة الإسلام لأنهم كانوا - في أقل الأحوال - يصلون ويزكون ويصومون ... الخ .

غير أن هذا الإنحراف لم يكن وليد العصر الذي نتحدث عنه ، ولكنه كان قديما ، فالمجتمع

---

1 - سعيد بنسعيد العلوي ، الاجتهاد والتجديد ، دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب ، الطبعة الأولى ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، 1992 ، ص 49 .

2 - أضاف النبي صلى الله عليه وسلم الى الأركان الخمسة ثلاثة أسهم : الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، انظر أحمد علي الإمام ، المستقبل للاسلام ، كتاب الأمة عدد 46 ، السنة 1416 هـ ، 1995 م ، ص 73 .

المغربي كان مجتمعا قبليا ، وخير دليل على ذلك أن السلطان المولى الحسن قضى معظم حياته على صهوة جواده من أجل إخماد الفتن ، واخضاع القبائل المتمردة لسلطة المخزن .

النتيجة إذن أن السلطان مولاي عبد الحفيظ انحرف عن الأهداف التي بويع من أجلها(1) ، وفشل في تحقيق عملية الإنقاذ التي أصبحت بسبب فشله عملية مستحيلة، ومن ثم لم ينجح في الحيلولة دون وقوع الفاجعة التي وقعت في 30 مارس 1912 . وبقبوله المعاهدة المشؤومة التي اعتبرها المغاربة خيانة للاسلام، وللمغرب ، سقطت البلاد في أزمة أخرى وهي أزمة الاستعمار .

أمام هذه الوضعية الجديدة ،لم تجد معظم قبائل المغرب حلا للمشكلة الاستعمارية ، ودفع شرور فرنسا ، إلا عن طريق إعلان الجهاد بنفسها . فقد اشتعلت نار المقاومة في فاس – التي شهدت مراسيم التوقيع – وضواحيها وامتدت الى الجبال الأطلسية ثم الى الريف ، مرورا بالسهول الداخلية ، وانتهاء بالجنوب مع أحمد الهيبة الذي أخذ يزحف نحو مراكش . وكان شعور انتصار الصليب على الإسلام ، يذكي حماس المجاهدين الذين اعتبروا الجيش الغازي ، ليس مجرد قوة استعمارية تبحث عن مكاسب مادية ، بل أيضا جيشا مسيحيا يريد القضاء على الإسلام ونشر المسيحية محله (2) .

غير أن أحداث هذه الثورة الصارمة قد سبقتها صفحة أخرى من المقاومة ، يعود تاريخها الى دخول الجيوش الفرنسية مدينتي الدار البيضاء ووجدة (1907) . فقد خاضت المقاومة المسلحة أكثر من معركة . ففي عام 1909 توسع الإسبان في شمال المغرب باحتلال الناضور، وسلوان وتطوان ، وفي عام 1910 توسع الفرنسيون في شرق البلاد ، واحتلوا تاوريرت ، ومن قبل ، توغلوا في الشاوية وخاضت القبائل المغربية ضد هؤلاء وأولائك حربا ضروسا . وفي سهول سايس ، كانت المواجهة عنيفة مع قبائل الشراردة ، وبني مطير في شمال وجنوب مكناس ، واستمرت المقاومة بعد سنة 1912، وتحمل المجتمع المغربي كله، وفي شروط غير متكافئة ، أعباء حرب حديثة ببطولة ، ولكن بتضحيات كبيرة ضد القوات الاستعمارية ، على مدى أربع وثلاثين سنة ، في جميع انحاء المغرب بجباله وسهوله وصحاريه .

ولا يسع المجال هنا ذكر تفاصيل هذه المعركة ، ولكن ما يسترعي الانتباه هو أن المغرب أدى ثمنا باهظا نتيجة مقاومته ، وكانت البادية التي وقفت أمام الغزاة لمدة لا تقل عن نصف مدة الحماية ، هي التي تعرضت لشراسة الجيوش الفرنسية وفظاظتها ، فقد ظلت تمثل رمز استمرار المغرب المستقل سياسيا واقتصاديا وعسكريا في عز الاستعمار ، وكان ثمن

---

1 ـ انظر، عبد الله العروي، الأصول الإجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912 (بالفرنسية) ، ماسبيرو،1977، ص، 401.

2 - F. weisgerber, Au seuil du Maroc moderne, Rabat 1947 , p.

ذلك معاناة جماهير الفلاحين من آلام مبرحة تراوحت بين تدمير القرى ونهب الحبوب (1) ، وبين تسميم الآبار، وحصر المواشي في الجبال ، بين الثلوج تموت من زمهريها أيام الشتاء . ناهيك عن حرق المزروعات وإبادة القطيع ، وحرمان المنتجعين من تموين السهول ، وفصلهم عن مراعيهم الأزغارية . وباختصار ، فقد عاث الجيش الفرنسي في الدماء والدمار، حتى أقفرت القرى وعم الهلاك ، وكان هذا كله باسم نشر المدنية الأوروبية في المغرب المتخلف ، وباسم تخليص شعبه المقهور من نير العسف، والجهل . يقول أحد الضباط الفرنسيين :

"إن القرى والقصبات التي تختزن فيها المحاصيل الزراعية ،
والتي يأوي إليها الجبليون في أيام الشتاء القاسية ،
وكذلك المساحات المزروعة وقطعان الأبقار والخرفان ،
والماعز ، والدواوير والبساتين ، ومراكز الإستسقا والأسواق ،
ظلت تمطرها طائرتنا ومدفعيتنا بلا هوادة" (2) .

2- مع مطلع الثلاثينات من هذا القرن ، وبعد حوالي ربع قرن من الاحتلال الفرنسي للمغرب ، تم تفكيك المقاومة المسلحة ، وبسطت إدارة الحماية نفوذها العسكري على مجموع البلاد ، ولكن لكي تهيمن هيمنة مطلقة ، وتضمن لنفسها البقاء ، كانت قد شرعت في غرس آليات التفكيك الحضاري للمغرب ، ومحاولة إدماجه في الخصوصية الحضارية اللاتينية . لقد أدركت فرنسا منذ احتلالها للجزائر أن الإسلام هو العقبة الكأداء في طريقها ،لإخضاع القبائل لسلطتها .

فالإسلام في نظرها يحرض على الجهاد ضد المسيحيين ، ويساعد على تماسك المقاتلين وانسجامهم ، وهو بذلك يهدد وجودها ، ولذلك دعت إلى القضاء عليه بأي شكل من الأشكال ، ولكنها لا حظت أن ذلك لا يتأتى إلا بإسكات العلماء.

إن العالم في المغرب - كما هو الشأن في العالم الإسلامي - هو المسؤول على سلامة العقيدة ، وهو الحارس الأمين على التراث الحضاري الإسلامي ، وضمان انتقاله من جيل الى جيل ، سليما من كل شائبة ، وهو الوصي على مصالح الأمة وانطلاقا من هذا الدور الخطير، قام علماء المغرب بخلع السلطان عبد العزيز، وتولية أخيه عبد الحفيظ، ليتزعم الجهاد ضد فرنسا . ولكن عندما أهمل هذا الواجب ، أصبح من حق العلماء أن يحلوا محل الأمير ، ويدعوا إلى محاربة العدو، بأي وسيلة من الوسائل .

وبعد توقيع معاهدة الحماية ازداد اهتمامهم بالسياسة ، وتطور موقفهم من الدخلاء ، الى أن وصل مستوى الدعوة للمواجهة العلنية، وهذا ما يفسر لنا تخوفات إدارة الحماية وخاصة ليوطي

---

1 - Général Gouraud, Au Maroc (1911-1914), souvenirs d'un africain Plon, Paris 1949, p 34-35 .

2 - Capitaine Vallerie, Pénétration militaire au Maroc, Domat mon Chréstien, hachette, Paris, 1938, p175.

(مقيمها العام) ، الذي كان يتخوف من مقدرتهم على تحطيم نفوذ فرنسا بالمغرب ، حيث قال :

"لا أخاف على وضعيتنا ، الا من أصحاب هذه الجلابيب ، والبرانس ، الذين يترددون على القرويين ، ليتحلق الطلبة حولهم ، فيبثوا فيهم من روحهم الإسلامية المتعصبة ، قبل أن يلقنوهم دروسا في الشريعة الإسلامية" .

وقد أدى هذا الحقد على العلماء الى تدخل الحماية في شؤون القرويين حيث ألحقتهم بالتعليم العالي الإسلامي ، بوزارة الأوقاف ، وفتحت قنوات الاتصال مع الذين لم يكونوا رافضين للتعاون معها(1) و هكذا استطاعت تهميشهم أوإدماجهم في الدولة ، بعيدين عن كل تفكير في قضايا المجتمع (2). ما يوضح ذلك هو أنهم وافقوا على خلع السلطان محمد الخامس سنة 1953 ومبايعة ابن عرفة ، ومباشرة بعد عودة الملك من المنفى ، عادوا لمبايعته(3).

بعد احتواء العلماء وتطويق مؤسستهم ، انتقلت ادارة الحماية الى المرحلة الثانية التي أشرنا اليها آنفا ، وهي محاولة إدماج الآخر في الحضارة اللاتينية وقد وجد أساطين الاستعمار، أن ذلك يواتيهم في الأمازيغ أكثر مما يواتيهم في العرب . وفي إطار هذه السياسة ، صدر ما يسمى "بالظهير البربري" (16 ماي 1930) الذي أراد تقسيم المغرب الى شطرين، أحدهما "بربري" يكون فيه الحكم باسم الشرع الإسلامي ، ظاهريا وباسم القانون الوضعي الفرنسي حقيقة . وبصدور هذا الظهير تعرض المغرب لغزو آخر أشد تأثيرا وأكثر خطورة من المدفع والطائرة وهو محاولة إذابة شخصية المسلم وتحطيم كبريائه . كانت فرنسا تهدف من ورائه الى إبادة الحياة الإسلامية ، وتراثها وتاريخها ، من المناطق الأمازيغية، وتعمل جادة على استتباعها فكريا للحضارة الأروبية وأخلاقيتها(4) ، تمهيدا لإنشاء مجتمع – في أرض الإسلام – ينبذ دينه وماضيه، حتى إذا تفرنس المغرب كله ، الأمازيغ أولا، والعرب ثانيا، تصبح البلاد كلها قطعة من الجمهورية الفرنسية كالجزائر .

3- أما في الميدان الاقتصادي والسياسي فإن المغرب لم ينج من العنف كذلك . ففي الميدان السياسي وضعت إدارة الحماية مجموعة من الإجراءات

---

1 – محمد عمراني، جامعة القرويين فيما بين 1919- 1934، رسالة جامعية غير منشورة كلية الآداب الرباط 1988 ، ص 143 .

2 – الزاهي نور الدين ، الحركة الوطنية وإعادة هيكلة الحقل الديني والسياسي ، أبحاث : العدد 33 السنة 1994 ، ص 33 .

3 ـ عبد الله العروي، المصدر السابق، ص، 413.

4 – عثمان أشقري ، المركز والهامش في الفكر الوطني المغربي من خلال كتاب النقد الذاتي لعلال الفاسي ، أبحاث ، العدد 30 ، السنة 1990 ، ص 96 .

التشريعية والتنظيمية ، لمنع أي تطور للمجتمع المغربي، كما عملت على تقليص حرية تكوين الجمعيات ، والحد من حرية التعبير والرأي ، وصعدت القمع على جماهير الشعب في البوادي والحواضر، منذ أواخر سنة 1937 الى بداية سنة 1940 (استسلام القوات الفرنسية أمام الجيش الألماني) ، وفي آخر المطاف أقامت حالة الحصار، بإغلاق بوابة الأطلس المتوسط بعد حوادث مكناس، وبوابة الأطلس الكبير بعد حوادث مراكش ، وبهذا تكون إدارة الحماية قد عزلت البوادي عن الحواضر عزلا تاما عن العالم الخارجي (1).

وفي الميدان الفلاحي وقع المغرب تحت قبضة الاستغلال المزدوج : الإقطاعي المحلي من جهة ، والإستعماري من جهة أخري ، فقد تطور الاستيطان الزراعي بشكل خطير، منذ رحيل اليوطي (1925). فعلى سبيل المثال وضع خلفه (Stegue) 400 000 هكتارا ، تحت تصرف المستوطنين الفرنسيين الذين بلغ عددهم ثلاثة أضعاف ما كان عليه أيام اليوطي (2) ، وبعد تراجع المقاومة المسلحة ، كثف الاستعمار جهوده في اغتصاب الأرض الخصبة في المناطق الأطلنتيكية والداخلية (الشاوية ، دكالة ، عبدة، سايس ...) واستمر هذا الاغتصاب إلى نهاية الحرب العالمية الثانية ،حيث استولى المعمرون الفرنسيون على أكثر من مليون هكتار، خصّص انتاجها لتزويد السوق الأوروبية (3) .

يضاف إلى ذلك أن الأراضي الموجودة في حوزة الإقطاع المحلي ، كانت تتوسع تدريجيا على حساب الفلاحين المتوسطين والصغار.و كان التهامي الأكلاوي ، باشا مراكش ، يملك 16000 هكتارا في منطقة مراكش وحدها (4) . وكان العيادي ،قائد الرحامنة قد استولى على 45000 هكتارا (5) ، أما في منطقة زيان التي يتحدث عنها المؤلف ، فقد جمع القائد أمهروق تراثا عقاريا بلغ 56000 هكتار(6) .

---

1 – أحمد تافسكا ، الجذور الاجتماعية للمقاومة الشعبية المغربية، أبحاث ، عدد 2 ، ابريل يونيو 1983 ، ص 54 .

2 - Général Lyautey , choix de lettres (1882-1919) , A.Colin , Paris 1947 , P. 325

3 – أحمد تافسكا ، الجذور ...، المصدر السابق ص 51 .

4 - J. Waterbury le commandeur des croyants, la monarchie Marocaine – et son élite, P.U.F, Paris 1975, p 136.

5 – أحمد تافسكا ، الجذور ... مصدر سابق ، ص 53 .

6 – نفسه .

ومن ثم كان خراب الاقتصاد المغربي ، وفقر الفلاحين الذين وجدوا أنفسهم في بقع أرضية قاحلة ، ومثقلين بالضرائب ، ودون أي مساعدة من الدولة (1)، هذا بالإضافة الى قمعهم وإخضاعهم التام للسلطة الحاكمة ، وذلك من أجل إبعادهم عن التنظيم السياسي الوطني (2) ، وكان من الطبيعي أن يؤدي كل هذا الى الهجرة نحو المدن ، وتكوين أحياء قصديرية أوما عرف بأحزمة البؤس .

أما في الميدان الصناعي ، فإن السياسة الاستعمارية لم تكن ترمي الى تصنيع حقيقي ، يوفر إمكانيات تشغيل أولئك الذين طردوا من أراضيهم ، بل على العكس من ذلك ، اتجهت الى خدمة حاجيات المتروبول ، بتصدير الثروات المعدنية ، على شكل مواد خام . صحيح أن إدارة الحماية قامت بتجهيز بعض الموانيء ، وبناء السكك الحديدية وتعبيد الطرقات ، وانتاج وتوزيع الطاقة ، ولكن هذه المشاريع كانت تزكي وتدعم اختياراتها (3) . وما قيل في ميدان الفلاحة يقال في ميدان الصناعة . فقد تم التحالف مرة أخرى بين المغاربة (4) وبين الفرنسيين الذين كرسوا جهودهم لإرساء صناعة تمكنهم من نهب خيرات البلاد ، وربط اقتصادها بالسوق الرأسمالية العالمية. وقد استحوذوا على القطاعين الصناعي والتجاري ، وتضاعف تأثيرهم ، طوال الحماية ، وخاصة مع المقيمين العامين الجنرال جوان والجنرال كيوم ، لدرجة أنهم هيمنوا على الإقامة العامة التي تحولت ،الى نقطة التقاء لصالح الإقطاعيين المغاربة ، ورجال الإدارة والمال والصناعة الفرنسيين .

في ظل هذه الظروف التي أخضعت فيها الرأسمالية الفرنسية مقومات ، وموارد البلاد لحاجيات السوق الأوروبية ، مستغلة الإنسان المغربي والأرض باطنا وظاهرا ، أدركت الفئات الاجتماعية المغربية أن خلاصها يكمن في تفكيك الحماية . فقد وجدت فئة التجار نفسها

---

1 - حمادي أشبان ، انعكاسات الأزمة الاقتصادية العالمية على المغرب (1929)، مجلة أبحاث ، العدد 27 ، السنة 1991 ، ص47.

2 - فتح الله ولعلو، الحماية وتطور التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية بالمغرب، المشروع، العدد 13/5 ، ص 62-63 .

3 - R. Gallissot , le Patronat européen au Maroc et nord africain , Rabat - 1964 , P 19 .

4 - برز التهامي الأكلاوي على رأسهم حيث ، بلغت حصة مشاركته مليارين من الفرنكات ، بالإضافة الى الأسهم في عدة شركات ، مثل ألومنيوم نورأفريكان ، والشركة المعدنية بونزير ... الخ ، أنظر : G. Maxwell, el Glaoui , dernier seigneur de l'Atlas (1893-1956) Fayard, Paris 1968, p 158 .

مهددة في وجودها بفعل المنافسة الأوروبية ، وإقصائها من النشاط الصناعي والتجاري ، وشعر الفلاحون أنهم الضحية الأولى ، بسبب تمركز الأرض ، بين أيدي أقلية صغيرة من الإقطاعيين المحليين وقوات الاحتلال، وبسبب مختلف الأزمات والكوارث الطبيعية، كما شعر العمال ، في المدن بالتهميش بالنسبة للاقتصاد الحضري ، وبلغت الأزمة في ميدان التربية أوجها ،بسبب التمييز الذي مارسته إدارة الحماية ، للحيلولة دون وصول المغاربة الى التعليم (1) .

غير أن تفكيك الحماية لم يكن أمرا هينا، فقد واجهت الدولة الحامية مشاعر الشعب بازدراء ، وتجاهل تام، عندما تقدم بطلب الاستقلال (1944) ، بل حاولت القضاء عليها. والحالة هذه أن المغرب ساندها في حربها ضد الألمان(2)، وعلق جميع أنشطته الكفاحية ،استجابة لنداء السلطان محمد الخامس الذي قال :

" من اليوم والى أن تتوج جهود فرنسا وحلفائها بالنصر،
يجب أن نقدم لها كل عون وبدون تحفظ ، لن نبخل بأي
من مواردنا ولن نتردد في بذل أي تضحيــــــــة" (3).

غير أن فرنسا أبت إلا أن تكون المرحلةالأخيرة من حمايتها مرحلة اصطدام دموي ، حيث أثارت حربا عوانا على كل من ينبس بكلمة الحرية. وهكذا عادت وسائل القمع تصب شرورها وغضبها على المجاهدين الذين سجنوا وعذبوا ، ونفوا ، وقتلوا ، وأهينوا وشردوا. وصمد الشعب أمام كل هذه الويلات وكان هذا الصمود بفضل الإسلام وعن طريقه ، وبواسطته استنهضت الهمم ، وتوالت التضحيات ، وسالت الدماء ، لتحرير الأرض الإسلامية من يد الغاصبين . قال المؤرخ الأمريكي روم لاندرو :

" مهما بلغ نموذج التاريخ المغربي من الاضطراب ،
فان عنصرا واحدا ظل واضحا فيه كل الوضوح ،
وهو الذي صاغ أحداث التاريخ فيه: إنه ديناميكيته
الد ينية التي أشعلت ثوراته وحركت غالب إصلاحاته"(4) .

---

1 - بلغ عدد الحاصلين على شهادة الباكالوريا طيلة الحماية 1155 مغربيا ، من بينهم 625 يهوديا في مقابل 7353 فرنسيا ، أنظر :

J. Lacouture, le Maroc à l'epreuve, ed. seuil , Paris 1958, p.248

2 - شارك المغرب ب 300 000 جندي الى جانب الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية . انظر: روم لاندرو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة ، بيروت 1980، ص 264 .

3 - نقلا عن - G.Spillmann,Du Protectorat à L'indépendance du Maroc,1912 1929- ,Plon,Paris1967,p.245.

4 - روم لاندرو، تاريخ المغرب في القرن العشرين ص 175 .

وهكذا مضى الجهاد يشق طريقه ولم يتوقف إلا يوم 16 نونبر 1955.

والخلاصة أن العصر الذي عاشه أحمد المنصوري هو عصر انقلاب من عهد الى عهد ، وأكبر انقلاب خلقه الاستعمار، هو انتاجه لفئة شعبية عريضة تمتد في كل الشرائح : فئة أصبحت تعتمد على المرجعية اللاتينية أساسا في جل المشاكل ، والتشكيل الحضاري البديل للحضارة الإسلامية ، وهي فئة ساعد الاستعمار على اتساعها ، حتى بعد جلائه العسكري عن البلاد، وظل- الى الآن - يدعمها بكل الوسائل من أجل حصار الإسلام من العودة من جديد . وكان هذا أكبر انقلاب عرفته البلاد ، وأعمق تحول في وضعها الثقافي والحضاري عموما ، وما زال يشكل عرقلة حقيقية ، أمام الإنطلاقة الحضارية الإسلامية الجديدة .

2 - حيـاة المؤلـــف :

هو أحمد بن قاسم بن محمد المنصوري أصلا ، المكناسي دارا وإقرارا، الزياني منشئا ، ولد بقرية خنيفرة ببلاد زيان حوالي سنة 1315 هـ ، 1897 م، يقول عن نفسه :

" قدر لي وإن كنت مكناسي الدار، منصوري الوجار أن أنشأ في ثنايا الأطلس ، في ذروة تلك الجبال ، أشم المعطس وأنمو في ترابها ، وأربي في شعابها وهضابها ، فهي وطني منذ نعومة أظفاري ، إلى أن كان يظهر عذاري ، ومن غضاضة إهاني الى ريحان شبابي" (1) .

ثم يضيف عن أصله ونسبه في رسالة خطية الى العلامة المرحوم عبد الله كنون، يقول فيها:

" أصلنا من المنصوريين ، أولاد أبي عبد الله محمد بن منصور، دفين جزيرة البسابس من الغرب ، على نحو 35 كلم شمال مدينة القنيطرة ، وينتسبون شرفاء حســـنييـن إدرسيين .... وسكن أسلافنا عاصمة مكناس، وكانوا في عداد الجيش المخزني ... وأظن أن قدومهم على مكناس كان أيام السّـــلطان المــولى سليمان" (2) .

أ - نشأتـه وتعـلمـه :

يخبرنا عن والده ، فيذكر أنه نشأ في أحضان السلطان مولاي عبد الرحمن العلوي (1822-1859) ، اذ كان بعد حفظه لكتاب الله ، يتابع دراسته في فنون الحساب ، والتوقيت

---

1 - كباء العنبر ... ج 1 ، ص 5 .

2 - الرسالة ضمن أرشيف العائلة .

والهندسة ، مع ولده الأمير محمد ، قبل أن يلتحق بخدمة السلطان المولى الحسن ، فلزمه في الحل والترحال ، الى أن عينه رئيس الجند الذي زود به القائد موحا وحمو الزياني لاستتباب الأمن في تلك المناطق سنة 1879م.

يتبين من هذه الإشارات أن المنصوري نشأ في وسط عائلي ، وصف بالتقوى والورع والفضل .

تتلمذ أولا على والده الذي أخذ عنه مبادئ اللغة العربية والحساب ، وطرفا من كتاب الله ، قبل أن يلتحق بالكتّاب حيث أتم حفظ القرآن على يد الفقيهين أبي عبد الله محمد بن علي الحسناوي ، والصفاعي العبدلاوي ، كما حفظ بعض المختارات من الأراجيز التلقينية(1) . ولا يخفى أن دور الكتّاب أو"المسيد" في هذا العصر لم يكن ، في المجتمع المغربي يقتصر على التعليم ، فهو يتضمن مسلسلا من التنشئة الاجتماعية للأطفال ، الذين يفصلون لأول مرة عن العالم النسوي للأمهات والجدات ، كما يتضمن تعليم مبادئ الأخلاق والمروءة .

وبعد حفظه للقرآن تحقق ما يصبو إليه والده حيث أظهر الطفل نبوغا متميزا واهتماما خاصا باللغة العربية وآدابها ، وأقبل يدرسها ويحفظ متونها ، فقرأ على علامة زيان آنذاك أبي زيد عبد الرحمن النتيفي (2) الذي كان صاحب ثقافة واسعة ، وتكوين جيد ، والذي أصبح فيما بعد قاضيا في الدار البيضاء ، ومن المعلوم أن هذا المنصب لا يسلم إلا للفقهاء النبهاء .

كان الشيخ النتيفي يحظى باحترام كبير وتقدير خاص في قبائل زيان عامة ، وداخل الأسرة الأمحزانية (أسرة موحا وحمو) خاصة ، وكان الطلبة يتوافدون عليه من كل المناطق المجاورة . وقد أخذ عنه صاحبنا الأجرومية ، والألفية والمختصروالتفسير، وجمع الجوامع والشمائل الترميذية ، ومختصرالبخاري لإبن أبي جمرة ، وانكب على دراسة بعض كتب التاريخ مثل الاستقصا للناصري وفتوح الشام للواقدي ، وكانت هذه الدراسة التاريخية قد فتحت ذهنه على ما كان يجري من

---

1 - انظر، الشيخ التاودي ،قبيلة الزعير 1986 ، ص، 296ـ 300.

2 ـ هو الحاج عبد الرحمان بن محمد بن ابراهيم النتيفي الجعفري، ولد عام 1303هـ 1885م بقرية المقاديد بقبيلة هنتيفة. بعد حفظه لكتاب الله ، سافر إلى فاس، فأخذ عن عدة مشايخ كالعلامة محمد التهامي كنون والعلامة محمد بن جعفر الكتاني ... وفي عام 1323هـ ، حضر معارك الشاوية ضد الغزو الإستعماري الفرنسي، وخاصة موقعة تادّرت. وبعد احتلال البيضاء، قصد الشيخ النتيفي مدينة خنيفرة ، عاصمة قبائل زيان ، فأقام بها وأنشأ مدرسة للعلم ، تخرج منها جماعات من أهل العلم كأخيه قاضي مراكش الشيخ محمد النتيفي ، والقاضي الأديب الشاعر أحمد بن قاسم المنصوري مؤلف ، "كباء العنبر... " من مؤلفاته " الإلمام في ردّ ما ألحقه مبتدعة زيان من العار بالإمام" و"الدرة الوهاجية في فضل ليلة القدر على ليلة الميلاد"... توفي الشيخ النتيفي رحمه الله عام 1385هـ 1966م ، انظر، عبد الرحمان النتيفي ، ترجمة شيخ الإسلام أبي زيد الحاج عبد الرحمان النتيفي الجعفري ، 1979.

استعدادات في قبائل زيان ، لمقاومة التدخل الفرنسي في الدار البيضاء سنة 1907 .

هذه التنشئة الأولى صقلت فكره وروضته على صوغ الكلام وتحبيره ، حيث بدأ يقرض الشعر، ويتذوقه ، ويحفظه ، ويتابع أخبار الأدباء . يقول عن هذه المرحلة :

" ففي هذه الأوان ، انفتق اللسان عن شيء ظننته شعرا ، ولكنه هذيان ، بيد أن فاله كان علي يمنا ، وكان كساعد لي فيما حاولته منه يمني ".

ثم يضيق في مكان آخر :

" كان أول شعر لفقه جنابي ، فنطق به لساني ، شعر استحييت أن أذكره أو أسطره ، وقد مر عليه زهاء أربعين سنة ، الى أن قرأت للأخ " الوزير، سيدي محمد المختار فذلكة من ترجمة الشاعر السوسي ، شوقي سوس ، بل المغرب ، سيدي الطاهر الأفراني، أن أول شعر قاله :

إلا أن خير الخلق طهرا محمد وخير كلام العالمين كلامــــه

به يشتفى من كل داء وعلـــة ويبلغ للقلب المعني مرامه".

ثم قال الأخ سيدي المختار : وبهذه المناسبة أذكر أول ما قلته في هذا الطور وهو مضحك :

"الله أكبر وهو الرحمان الرحيم وهو السميع الخلاق العليــــم "

"وهنا تنفست الصعداء، وضحكت حتى استلقيت ، وعجب من ضحكي من كان في البيت ، فقد ضحكت أولا على الشعر المبتكر، وضـــحكـــت من جـراء القصة ".

ب ـ زياراته ودراســته :

ومنذ هذا التاريخ تطلع الى مزيد من العلم ، وكانت رحلته إلى مكناس حيث بعثه والده لبيع دار لهم هناك ، مناسبة فتحت أمامه آفاق المستقبل ، وأثناء عودته الى زيان عرج على فاس وزار جامع القرويين ، يقول عن هذه الزيارة :

« هذه السفرة لفتت نظرنا للحضارة ، وغضارة عيشها، واقباس علمها ، ونبهت للحياة الجديدة التي ينعم بها أهل الحضر» .

كان ينظر الى التعليم العالي في القرويين، أنه يكسب المهابة ويجلب الأنصار والأتباع ، ويؤهل لولوج دواليب الإدارة – قبل الحماية طبعا – ، فالمناصب المخزنية (كتاب ، قضاة ،

أمناء ...) . كانت تسند لأناس متمكنين من العلوم الدينية ، وكان العلماء في مقدمة المؤهلين لتقلد هذه المناصب ، وكان الحصول على الاعتراف بدرجة عالم ، يخول صاحبه الترقي في سلم المجتمع المغربي ، من حيث ولوج وظائف حكومية ومن حيث كسب الحظوة والاحترام .

تركت زيارة القرويين أثرا عميقا في نفس المنصوري ، ولما عادت الأسرة الى مكناس ، بعد احتلال خنيفرة (يونيه 1914) شد الرحلة الى فاس ، وسنه يومئذ نحو الثامنة عشرة سنة .

ولج الجامعة في شوال من نفس السنة في وقت عرف التعليم في القرويين انبعاثا واضحا قياسيا لما كان عليه في نهاية القرن الماضي ، من ركود فكري وهزال ثقافي ، فقد تعطلت بعض الكراسي ، وانخفض عدد الطلبة وقلت الصلات التي كان الأساتذة يتوصلون بها (1) ، وكان الناس على وعي تام بهذا الضعف ، ولذلك طالبوا برفع المستوى في المعاهد عامة وفي القرويين خاصة .

فلا عجب إذن أن تأتي ثلة من العلماء ، تخرجوا من الجامعة نفسها أو من جامعات الشرق العربي ، ورثوا نشاط الحركة السلفية (2) وتأثروا لحركات الإصلاح في الشرق العربي الإسلامي ، لينفثوا من روح هذا الإصلاح في التعليم العالي الذي تمثله جامعة القرويين . يضاف الى ذلك الظروف الجديدة التي سادت في المغرب. فقد تأزمت الأوضاع في العقد الأول من القرن العشرين ، واحتل الجيش الفرنسي مدينتي وجدة والدار البيضاء ، وبدأ في غزو المغرب بأكمله (ما عادا الشمال الذي منح لأسبانيا) ، بعد فرض الحماية على السلطان عبد الحفيظ . وكرد فعل ، أخذ العلماء ينظرون الى فرنسا ، ليس فقط كقوة تريد استنزاف خيرات البلاد ، بل أيضا كقوة تريد القضاء على الإسلام ، ونشر المسيحية محله ، ومن ثم نشأ الخطاب السلفي كمحاولة للدفاع عن الحضارة الإسلامية.

وليست المرة الأولى التي تظهرفيها السلفية بالمغرب ، فقد انتشرت أفكارها في التسعينات من القرن الماضي على يد عالم مغربي ، يدعى عبد الله ابن إدريس السنوسي ، ولكنها لقيت معارضة من قبل بعض العلماء ، ولا سيما شيوخ الزوايا وزعماء الطوائف الدينية.

كان من الدعاة الرواد للسلفية في القرويين الشيخ أبو شعيب الدكالي (1878-1937). . درس في الأزهر بالقاهرة ، وتأثر بالفكر الذي نشرته دعوة محمد عبده (1849-1905) . وعلى العكس من دعوة السنوسي التي لقيت إعراضا في الجيل السابق ، فإن

---

1 - انظر : A. Laroui , les origines sociales et cultirelles du nationalisme marocain (1830-1912) , François maspéro, Paris , 1977, pp 130- 190 .

2- يرادف مفهوم السلفية مفهوم الإصلاح الديني ، أي استعادة صفاء الإسلام وفقا لما كان عليه أيام السلف (جيل الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين الأوائل) ، مما يعني تنقيته من البدع والتخريفات . وفي هذا المستوى يستطيع المجتمع الإسلامي استيعاب الأفكار والتقنيات المستقاة من الغرب إذ لا تناقض بين الإسلام والعلم ، وبعد ذلك يمكن من انتعاش حياته المادية والفكرية ، وبالتالي يكون قويا لرد الهجمة الإستعمارية ، أنظر كمال عبد اللطيف، السلفية في المفهوم والسياق ، أبحاث ، العدد 29/28 - السنة 1992 ، ص 59-67 .

ظروف مغرب الحماية كانت مواتية لإقبال الطلبة على دروس الدكالي ، الذي طار صيته لدى الخاص والعام ، وعرفه القريب والبعيد بنظراته السلفية البعيدة المدى ، حتى إن علماء عصره اغترفوا من علومه ، وأقروا بتبحره ، في فنون الحديث والتفسير في مروياتهم الحديثية. يقول أحد تلامذته ، وهو أحمد معنينو، في حفلة تأبين عبد الحميد بن باديس ، أحد أقطاب السلفية في الجزائر ، يقول :

" أما في المغرب الذي يبكي الفقيد اليوم في مهرجانه الخال فقد لقيت دعوته آذانا صاغية وقلوبا واعية ، وتضاعف الدعوة للرجوع الى العقيدة السلفية ونبذ الخرافات ، والبدع المنكرة ، بجهود مفخرة المغرب ، العالم السلفي الحافظ الحجة محيي السنة شيخنا أبي شعيب الدكالي ، قدس الله سره، ذلك العالم الفذ الذي لم يترك مدينة ولا قبيلة ولا مد شرا ، ولا قرية بارض المغرب ، الا ونفخ فيها من روحه وبث فيها من شعوره " (1) .

ومن أبرز التلاميذ الذين استقطبهم ، والذين انتصرت على يدهم السلفية في القرويين ، محمد ابن العربي العلوي (2) ، الأستاذ الفذ الذي اضطلع بأعباء الرسالة السلفية سواء في أوساط الجامعة أو في أوساط جيل المغاربة الذين اكتسبوا وعيا سياسيا في العشرينات .

في هذا الجو المفعم بأفكار السلفية ، تابع صاحب الترجمة دراسته ، وتكون على يد شيوخ أجلاء ، من أشهرهم الشريف محمد بن العربي العلوي السالف الذكر ، والقاضي محمد بن رشيد العراقي (3) ، والعلامة الوزير عبد الرحمان بن القرشي (4) ، وشيخ الجماعة أحمد بن الخياط (5) ، ورئيس المجلس

---

1 – نقلا عن الشيخ التاودي، مصدر سابق الجزء 2 ، ص 226 .

2 – ولد سنة 1305 هـ – 1880 م بقبيلة مدغرة ، إحدى واحات تافيلالت ، في بيئة متشبثة بمكارم الأخلاق الفاضلة ، وبعد حفظه لكتاب الله ، انتقل الى مدينة فاس حيث تابع دراسته بالمدرسة المصباحية ، ثم بجامع القرويين . توفي الشيخ محمد بن العربي العلوي سنة 1964 ، أنظر : محمد الوديع الآسفي، السلفي ... الشيخ محمد بن العربي العلوي، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء 1986 ، ص 25-26 .

3 – هو محمد بن رشيد بن محمد ادريس الحسيني ، أبو عبد الله ، المعروف بالعراقي من أهل فاس مولدا ووفاة ، من مؤلفاته : « أحكام مسجلة » في ستة مجلدات و«شرح الهمزية للبصيري ، ورسالة في «الإمامة الكبرى» و «الذهب الابريز في مجالس المولى عبد العزيز» ، أنظر ، الاعلام للزركلي ، دار العلم للملايين، ط 6 ، بيروت 1984 ، ص 125 - 126 .

4 – دفين بطحاء خارج باب بريمة بفاس ، أنظر ، عبد الرحمان ابن زيدان ، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط 1933 ، ج 5 ، ص 293 .

5 – هو أبو العباس أحمد بن الخياط الزكاري ، ذكره ابن زيدان ، أنظر ، اتحاف أعلام الناس ... المصدر السابق ، ج 2 ، ص 50 .

العلمي أحمد الجيلاني (1) ، والشيخ المهدي الوزاني (2) ، ومولاي عبد الله الفضيلي (3) . والعلامة محمد أقصبي (4) ، وكان يحضر أيضا دروس أبي شعيب الدكالي الذي وجده الحال منفصلا عن القرويين (1911) ، ولكنه استمر يشغل الأندية العلمية والثقافية لا في داخل المغرب فحسب ، بل وفي خارجه أيضا .

مكث المنصوري في القرويين ستة أعوام يتلقى من علمائها حتى نال منهم الإجازة ، التي كانت يومئذ تقوم مقام الشهادات العلمية في الوقت الراهن . كما أجازه فيما بعد جماعة من كبار علماء المشرق بمكة المكرمة كالشيخ العربي التباني بن الحسين المغربي ، والشيخ حسن المشاط ، ومن علماء المدينة المنورة المحدث عبد القادر توفيق بن عبد الله الشلبي الطرابلسي ، والشيخ أبو حفص عمر حمدان ، وإمام الحرم النبوي صالح الزغيتي المدني ... الخ ، ومن علماء تونس والجزائر الذين رافقوه في رحلة الحج ، مفتي المالكية محمد البشير النيفر التونسي ، ومفتّي الحنفية أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن أحمد الخوجة .

وفي سنة 1920 غادر القرويين وتوجه الى مدينة وادي زم حيث منح كرسي مسجدها لمباشرة التعليم ، يقول في هذا الصدد :

" وفي سنة 1340 هـ بارحت القرويين نهائيا ، فوجهني الشيخ أبو شعيب الدكالي وزير العدلية والمعارف آنذاك لمدينة وادي زم ، للتدريس بمسجدها الـذي فرغت يد البناء منه ، فلازمت التدريس ، ثم الخطبة وإمامة الخمس ، ثم درست بالمدرسة العربية الفرنسية " .

لا غرو أن هذا التعيين يدل على أن المنصوري اعتنق تعاليم السلفية وتشبع بفكرها ، الشيخ الذي جعل باعث السلفية في المغرب ، الشيخ الدكالي ينيطه بمهمة التدريس ، وهي الطريقة المثلى لا لإيصال الخطاب السلفي الى الجماهير المغربية ، والحق أن غالبية كتابات المنصوري ، لا تكاد تخلو من إعجاب وإشادة بالسلفية وكتوجه أصوب ، فضلا عن عشرات القصائد والخطب التي كان يلقيها في المجامع المختلفة ، طيلة حياته العلمية . يقول في إحدى زيارته لمدينة مكناس :

---

1 – هو أبو العباس أحمد بن الجيلاني الفيلالي الامغاري الناقد الخبير ، ذكره ابن زيدان في اتحاف أعلام الناس ... نفسه ، ج 1 ، ص ، 461 .

2 – هو أبو عيسى المهدي الوزاني العمراني ، مفتي الديار الفاسية نفسه ، ج . 1 ، ص 461 .

3 – هو أبو سالم مولاي عبد الله ابن الشيخ الفقيه أبي العلاء مولاي ادريس بن أحمد العلوي الحسني الشهير بالفضيلي . ولد بفاس عام 1291 هـ – بعد حفظه لكتاب الله ، أم جامع القرويين ، وأخذ عن فحول علمائها أمثال أحمد بن الخياط وأحمد بن الجيلاني الأمغاري ومحمد كنون . توفي مولاي عبد الله الفضيلي في شوال 1363 هـ ، انظر : محمد الفاطمي السلمي الشهير بابن الحاج ، من أعلام المغرب الأقصى ، مطبعة الجديدة ، الدار البيضاء ، 1992 ، ص390 .

4 – هو محمد ابن عبد المجيد بن عبد الرحمان أقصبي ، ولد حوالي عام 1295 هـ . ولج القرويين سنة 1311 ، ودرس على فقهاء أجلاء أمثال محمد التهامي الوزاني ، ومولاي أحمد بن المامون البلغيثي ، وأحمد بن الجيلاني الأمغاري وغيرهم . أنظر عبد الله الجراري، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين، الرباط وسلا، ج 2 ص 173

" وفي هذا التاريخ (1348 هـ) حضرت ليلة ميلاد العيد النبوي بمكناس ، وشاهدت موسم الطائفة العيساوية ، الذي يقوم على ضريح الولي الشهير سيدي محمد بن عيسى ، وما يجري فيه من بدع ومناكر تأباها الشريعة الإسلامية ، بل وحتى المروءة الإنسانية ، من اختلاط الرجال بالنساء ، ورقص على دف ومزمار ، صباح مساء ، وافتراس شياه وكباش، وأكل لحومها نيئة ، تتجاذ بها الأوباش ، مما يندى له الجبين ، ويضحك من جرائها إبليس اللعين " .

بقي إذن وفيا لدروس شيوخه في القرويين ، وأحاديثهم في بعض مجالس المسامرات التي كانت تدور حول محاربة الزوايا والطرقية ، وحول البدع والتبديع ، ولما ذاع صيته ، استدعته الوزارة وعينته نائبا عن قضاء مدينة وادي زم في الأحكام الشرعية سنة 1930 . ولا يخفى أن وظيفة القضاء ، كانت سامية في تراتيبية المخزن ، ولا تسند الا للفقهاء النبهاء المعروفين بورعهم وعلمهم ، ويكفي أن نذكر أن قاضي الجماعة هو الذي كان يعين الأساتذة في القرويين ، باقتراح منه أو من المخزن ، أو يتم التراضي بين الطرفين ، وذلك الى حدود سنة 1906 ، وهو تاريخ وفاة آخر قضاة الجماعة حيث أصبح المخزن هو الذي يعين في هذه الوظائف (1). بعد عشرة أعوام بوادي زم ، نقل صاحب الترجمة الى تاوريرت ، قاضيا على المغرب الشرقي ، ثم نقل الى قضاء أحواز الرباط (1942)، فلم يمارسه إلا عاما واحدا ، حتى نقل الى قضاء الجيش بأحواز مراكش (1943) ، وتشير المصادر(2) أنه - في هذه الناحية - كان يزاوج بين مهمة القضاء ومهمة التدريس ، نتلمس هذا في الديوان حيث يقول :

" وفي تاريخ يناير سنة 1944، عند حوادث طلب الإستقلال كان ولدي عبد اللطيف بثانوية مولاي يوسف ، وقام التلاميذ فيها بمظاهرة يطلبون الإستقلال، مما أوجب طرد بعضهم ، وسجن بعضهم ، وسحق البعض ، فكان عبد اللطيف ممن سجن بضعة أيام ، فتعطلت الدروس التي كنت ألقي بمسجدالمواسين ، حيث ذهبت لأستفسر عنه ، وعما جرى بالرباط، ولما رجعت وذهبت للدرس افتتحته مخاطبا تلاميذي معتذرا عن التعطيل الواقع ارتجالا :

أبطأت عن درسي وعن ذا النادي   أي فاعذروني نخــــبة الأولادي
خلفتكم وذهبت أطلب واحـــــدا   هـو صنوكم يا فلذة الأكباد (3)

---

1 - روجي لوطورنو ، فاس قبل الحماية ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1987 ، ج 2 ، ص 657 .

2 - الرسائل الموجودة ضمن أرشيف عائلة المؤلف .

3 - مقدمة الديوان الشعري .

يتعلق الأمر هنا بطلبة جامع بن يوسف بمراكش ، الذين اعتادوا – كلما استعصت عليهم مادة دراسية من المواد التي يدرسونها بالكلية – اللجوء الى أحد العلماء ليلقنها لهم بالمجان طبعا ، إذ لم تكن هناك ساعات إضافية بالمقابل كما هو الشأن في أيامنا هاته .

ومن مراكش نقل الى دكالة بسيدي بنور (1946) ، ثم الى الغرب بسوق الأربعاء ، ومشرع بلقصيري (1949) ، حيث استمر يمارس مهنة القضاء الى أن جاء الاستقلال ، وأحيل على التقاعد، وبقي في ميدان التأليف الى أن توفي سنة 1965 .

ج – انتاجه الفكري

على أن وظيفة القضاء التي شغلها مدة ستة وثلاثين عاما ، ما كانت لتصرفه عن الكتابة والتأليف ، فقد ترك مؤلفات عديدة جلها في الأدب كما يتضح من العناوين التالية :

1– مشموم الجبل والسهل ، من مناظرة بين العلم والجهل .

2– المبادىء السامية لأصول الطب في الشريعة الإسلامية .

3– الأبحاث الرشيدة عن الآداب بين جبال دبدو ورشيدة .

4– مسامرة الشعراء لحديث الأدباء والشعراء .

5– الآثار المستطابة من رحلتي لمكة وطابة .

6– ديوان شعر يحتوي على ثلاثمائة قصيدة من « جيد الشعر وغرره مرتبة على حروف الهجاء ، الشيء الذي لم أره لأحد غيره ، مما يدل دلالة واضحة على عارضته الشعرية المتفتقة » (1) . هذا بالإضافة الى سلسلة من المحاضرات ألقيت بإذاعة الرباط ، وعدة مقالات نشرت في الجرائد .

أما في ميدان التاريخ فالذي بين أيدينا هو :

7– مخطوطة حول تاريخ بلدة خنيفرة ، في حوالي ثلاث وعشرين صفحة ، وهي عبارة عن محاضرة ألقاها في المؤتمر التاسع للمعهد العلمي بالرباط (12 ماي 1937) ، وقد قام بتحقيقها الأستاذ محمد أمحزون (1986) .

8– مخطوطة « كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر » ، توجد نسخة مصورة منها بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 946 ، والنسخة الأصلية في حوزة ابن المؤلف الأستاذ عز الدين المنصوري بالبيضاء ، وهي المخطوطة التي نسعى الى دراستها وتحقيقها.

انطلاقا من هذه التآليف، هل كان المنصوري واعيا بالأزمة التي كان المغرب يمر بها عقب إخضاعه للاحتلال الأجنبي؟.

---

1 – الشيخ التاودي ، ... المصدر السابق ، ص 300 .

نجيب على هذا السؤال بالإيجاب ، ذلك أن فقيهنا اتخذ ، من خلال كتاباته ، موقفا واضحا من الاستعمار ومن مؤسسة الحماية ، فقد نذر نفسه منذ بداية الاحتلال ، للدفاع عن الإسلام وحضارته ، وذلك عندما تبين له أن النزعة الصليبية موجودة في أعماق الغزاة الوافدين على المغرب . لقد وجد أثناء زيارته لمدينة مكناس سنة 1913 ، وهو لم يتجاوز بعد الثامنة عشرة من عمره ، أن عملية التنصير قد بدأت ، حيث كان الرهبان يوزعون منشورات على الأهالي ، تدعو الى اعتناق المسيحية (1) ، وقد احتفظ بعينة منها حتى عاد الى خنيفرة في نفس السنة ، وسلمها لشيخه عبد الرحمان النتيفي ، الذي أخذ توّا بتحسيس القبائل الزيانية بأن الحرب التي تشنها فرنسا على المغرب إنما هي حرب صليبية جديدة ، وأن عليهم أن يعدوا العدة لمواجهة المسيحيين ، إن هم أرادوا المحافظة على هويتهم الإسلامية (2) .

وبعد مرور ثلاثة وعشرين عاما على احتلال المغرب ، نجده في المؤتمر التاسع للمعهد العلمي ، يتصدى لمزاعم أحد المتمزغين الفرنسيين وهو François Reynier الذي كان يلح على سطحية " الإسلام الأمازيغي " ، ويحاول تفنيد ادعاءاته الباطلة ، وقد كتب المنصوري في هذا الصدد يقول :

«وقد تعرضت من بعض الاستعماريين للانتقادات حينما
ألمحت لما لهذا الجبل البربري من ديانة إسلامية (...)
وقد اختمرت فكرة تفرقة العنصر والديانة أي اختمار ... » (3) .

لم تكن الروح الصليبية وليدة نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي ، وإنما ظلت تضرب بعروقها في أعماق التاريخ ، وبالضبط عندما ظهر الإسلام ، وبسط نفوذه على جزء كبير من العالم المسيحي ، ومرة أخرى عندما أصيبت أروبا بالخيبة في الحروب الصليبية التي دامت ، مع انقطاعات ، مائة وخمس وسبعين سنة . منذ هذا التاريخ ، وأروبا تشعر بعقدة نفسية ترسخت في أعماقها بارادة الرهبان والقسيسين ، ومنذ هذا التاريخ وهي تضمر الحقد الأسود ضد الإسلام (4).

ومن ثم كان العدوان الأروبي على الأقطار الإسلامية في العصر الحديث ، ذا نزعتين : نزعة تعصبية قديمة تذكر بالروح الصليبية ، التي ظلت متوهجة في أعماقهم طوال تلك الحقب ، ونزعة مادية تنشر السيطرة والكسب وفتح الأسواق والاستيلاء بالقوة ، والسطو على حقوق

---

1 - كباء العنبر ... ج 2 ص 13 .
2 - نفسه .
3 - نفسه ، ج 1 ص 2 .
4 - نجيب الكيلاني ، الإسلامية والقوى المضادة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1984 ، ص 32 .

الغـيـر، دون أن يكون لذلك مـا يبـرره من دين أو قـانون أو عـرف . من هـذا المنظور لـم تنتـه الحروب الصليبية ، بل جاءت تحت جبة الكاهن وغطاء العالم المستشرق ، وتحت بزة الجندي المدجج بالسلاح الفتاك ، يقول أحد المستشرقين :

« إن أروبا لا تستطيع أن تنسى الفزع الذي ظلت تزاوله خمسة قرون متوالية ، والإسلام يهاجمها من الشرق والغرب والجنوب ، ويستولي في كل يوم على قطعة من أجمل قطاع الإمبراطورية الرومانية (...) لقد كان انتصاره (أي الإسلام) كاسحا لا في الأرض فقط ، لكن في عالم القيم والمبادئ أيضا ، إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يدخل من النصارى عشرات من الملايين ، وهو الذي نظر الى المسيحية التي تعتز بها أوروبا نظرة اشمأزاز وتقزز ، على أنها دين شرك » .

ويضيف في موضعه آخر :

" هذا الفزع لا يشابهه شيء في العصر الحديث ، ولا فزع أروبا من استيلاء الشيوعية على التشيكوسلوفاكيا سنة 1948 " (1)

وبالأمس القريب قال NIXON ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق بعد عودته من رحلة الى أفغانستان ، عن سؤال : ماذا وجدت هناك ؟ قال :

" وجدت أن الخطر هو الإسلام ! وينبغي لنا أن نصفي خلافاتنا مع روسيا، في أقرب وقت . فروسيا – على أي حال – بلد أوروبي ، والخلافات بينـــنا وبينها قابلة للتسوية ، أما الخلاف الذي لا يقبل التسوية فهو الخلاف بيننا وبـــين الإسلام" (2).

وإن دل هذا الكلام على شيء فإنما يدل على أن الروح الصليبيـة كما تفوه بها رئيس الولايات المتحدة الأمريكية مازالت قائمة الى يومنا هذا .

أما فيما يخص المغرب ، فإن هذا البلد هدد العالم المسيحي سياسيا ودينيا قرونا طويلة . فمنه

---

1 – وهو المستشرق الكندي : ولفد كانتول سميث ، الإسلام في التاريخ الحديث ، أكسفورد 1966، الطبعة الرابعة ، ص 105 .

2 – عن جريدة لوماند الفرنسية عدد 3589 سنة 1992 .

انطلقت الجيوش الإسلامية لتنشر لواء الحضارة الإسلامية في جزيرة الأندلس وفي جنوب إيطاليا ، ومنه انطلقت المقاومة لصد الحملات الصليبية التي شنتها عليه البابوية عن طريق الإيبريين في القرن السادس عشر. كانت الكنيسة تظن أن بإمكانها نشر المسيحية بالمغرب بدون عناء كبير ، لكونه مجاورا لأوروبا ولكون قبائله متشبثة ، بتقاليدها وأعرافها المغايرة - في نظرها - لمقتضيات الشريعة الإسلامية ، كما كانت تظن أن المغرب سيصبح قاعدة لنشر المسيحية في ربوع أفريقيا . غير أنه سفهت أحلامها بفضل الجهاد الذي ظل متحكما في عقلية المغاربة .

الغرب إذن لم ينس هذا كله ، ولذلك أعاد الكرة في نهاية القرن الماضي ، فأرسل بعثات تنصيرية تستكشف مكونات المجتمع المغربي ، وتطلع على تبايناته المختلفة . ويمثل الراهب شارل دي فوكو، الضابط المتخصص في " المكاتب العربية " قبل أن يترهّب " قديس الاستعمار " بلا منازع . فقد طاف البلاد متجسسا وملتقطا المعلومات السوسيولوجية واللسنية وخرج بمؤلف (1) ، مهد فيه الطريق للجيش الفرنسي بعد أربعة وعشرين سنة . كان عمل الرهبان مكملا لعمل العسكريين كما يشير إلى ذلك اللورد بالفور :

" إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات في أمور هامة ،
ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيرا من العقبات " (2) .

المسألة الثانية هي أن الإسلام عنصر الوحدة ، والتماسك ، ومنه يستمد المسلمون قوتهم الجبارة . ويكفي أن نذكر بالقتال البطولي والمقاومة الفذة اللذين واجه بهما الجزائريون ، تحت زعامة الأمير عبد القادر، واحدة من أقوى الدول النصرانية ، وما صمد المغاربة إلا بالجهاد المقدس الذي حرك الفلاح في أقاصي جباله وصحرائه والذي قاتل " الكاوري " لكفره قبل أن يقاتله لكونه مستعمرا .

نخلص من هذا الى القول بأن الوثبة الجديدة على المغرب لم تكن تطلعا استعماريا بحتا ، وإنما امتزجت بها الروح الصليبية التي تنشد الرفعة والسيطرة للمسيحية ، وتضمر العداء والشر للإسلام . وبصورة شمولية هناك ترابط بين المقاصد السياسية والاقتصادية وبين الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستعمار ، هذه السياسة التي تهدف إلى حمل المغاربة ، الأمازيغ أولا والعرب ثانيا ، لا على قبول ذهنية الغرب فقط ، بل كذلك على قبول ذهنية الاستسلام والاحتواء من داخل الفكر الوافد .

لقد حز في قلب المنصوري أن يبقى مكتوف الأيدي أمام هذا التهديد الحضاري ، وفي عنقه أمانة كشف الحقيقة ، والدفاع عن الإسلام (3) ، ولذلك ظل يقاوم تأثيرات

---

1 - charles de Foucault ,Reconnaissance au Maroc(1883-1884) Chalamel ; 1888.

2 - لوشاتوليي ، الغارة على العالم الإسلامي ، ترجمة محب الدين الخطيب ، مكتبة أسامة بن زيد بيروت ، بدون سنة ، ص 48 .

3 - كباء العنبر ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 3 .

الحضارة اللاتينية ، حتى لا تقتل الأمة في أعز مقوماتها ، وحتى لا تخرج من دائرة قيمها، وأصالتها، ومزاجها النفسي . وقد أكد على تشبث إيمازيغن بالإسلام وثقافته ، التي أثروها بمنجزاتهم الضخمة (1) وانتمائهم للتاريخ الإسلامي ومشاركتهم في صناعة أحداثه (2) .

إذا كان هذا هو موقف الفقيه المنصوري من التدخل الأجنبي ، وبالتالي من كل ما ترتب عن هذا التدخل من تطورات ، فهل كان له صدى في الحركة الفكرية لدى العلماء في هذه المرحلة ؟

الحركة الفكرية المتعلقة بمقاومة الغزو الأوروبي موضوع واسع يدخل في إطاره ما كتبه المنصوري هذا ، ولذلك نكتفي هنا بإعطاء بعض الأمثلة عن هذه الحركة محاولين من خلالها استجلاء مواقف بعض العلماء المعاصرين للمنصوري، لنركز بعد ذلك على ما كتبه هذا الأخير، كجزء من عمل هذه الحركة .

ربما يجب التفريق بين صنفين من العلماء ، صنف عبر عن مواقف واضحة، تعتبر امتدادا لنفس الموقف الذي عبر عنه شيوخهم في القرويين في المراحل السابقة للتدخل الأجنبي ، ويمكن تلخيص هذا الموقف في الدعوة الى مقاطعة الدخيل في كل شيء . وقد تطور هذا الموقف فيما بعد إلى خوض المعركة المسلحة ضد الغزاة عن طريق الجهاد .

لا شك أن مثالا يمكن التركيز عليه ، والذي يمثل الموقف السابق ، هو مثال الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني . فقد بدأ أولا بالدعوة الى مقاطعة السلع الأجنبية حيث يقول :

" فإن لله على ضعف إيماننا حتى تركنا الشعائر الإسلامية ،
وأقمنا الوظائف الرومية . فكيف لا يغلبون علينا وقد هجرنا
سنن نبينا ، وعمرنا أوقاتنا بسننهم ، وآلاتهم وبضائعهم ،
وزخارفهم ومحدثاتهم، التي تشغل القلوب والأبصار ... " (3) .

ولكن لما رأى الأوضاع تزداد تأزما باحتلال الدار البيضاء ، ووجدة ، جاهر بالجهاد ، ثم دعا الى عزل السلطان عبد العزيز، وبيعة أخيه عبد الحفيظ ،الذي التزم بالدفاع عن استقلال المغرب . وفي حماس متزايد وغيرة دينية ، عقد مؤتمرا بمدينة مكناس سنة 1908 حضره أعيان قبائل الأطلس المتوسط ، وخاطبهم بضرورة نسيان خصوماتهم ، وجمع كلمتهم ، استعدادا لخوض الحرب ضد المحتلين (4). ونظرا لنفوذه الواسع ، والتقدير

---

1 – نفسه ، ص 57 .

2 – نفسه ص 61 .

3 – نقلا عن محمد المنوني ، مظاهر يقظة المغرب الحديث ، مطبعة المتوسط ، بيروت 1985، ج 2 ص 373 - 374 .

4 – نفسه ، ج 2 ، ص 363 .

الذي كان يحظى به في المناطق الأمازيغية على الخصوص ، استجابت له القبائل ، واشتعلت نار المقاومة في بني مطير ، وبني مكيلد وزيان ... وبدأت وفود المتطوعين تصل الى ضواحي الدار البيضاء لمؤازرة قبائل الشاوية ، وتنتشر على مشارف سهول سايس في محاولة لإيقاف الزحف العسكري الفرنسي نحو فاس (1) .

وفي نفس الاتجاه ، هناك مؤلفات أخرى تناولت كلها موضوع الجهاد نكتفي بذكر ثلاثة منها :

- «تنمية الاتحاد في مسائل الجهاد » ، لمحمد بن عبد القادر السوسي الباعقيلي المتوفي سنة 1918 .

- « سبيل المحسنين الى فضل الجهاد في سبيل رب العالمين » ، لمحمد ابن ادريس بن محمد القادري الحسني المتوفى سنة 1941 .

- « الترغيب في بعض ما أعده الله للمجاهدين في سبيل الله » ، للشيخ مربيه ربه ،ابن ماء العينين المتوفي سنة 1942 .

ظهرت هذه التآليف - على شكل رسائل - في وقت كانت جهود الأمة المغربية مبعثرة بسبب الفتن من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان العدو يعتزم إسكات صوت الإسلام ، ويضلل جهاد المغاربة ، ويحتوي حركتهم باسم " تهدئة " البلاد لصالح السلطان ، أما محتواها فيتلخص في أن الجهاد أصبح فرض عين ، وحق على كل مسلم أن يجعله نصب العين ، كتب مربيه ربه يقول :

" واعلم أن الجهاد من أفاضل المكاسب وأماثل الحرف ،
فلا ينبغي للعاقل أن يتركه أو يترك التحدث به ، فإن مات
ولم يغز ولم يحدث به نفسه ، فقد مات ميتة جاهلية " (2) .

هذا بالإضافة الى تزويد المجاهدين ببعض التقنيات الضرورية كاعداد العدة وتنظيم الجيش ... وكل ذلك بالاعتماد على آيات قرآنية وأحاديث نبوية . من هذا المنظور طرح الجهاد كحل حاسم لمشكلة الاحتلال .

على أن ثلة من علماء آخرين ، رأوا أن هناك ميادين أخرى لا تقل أهمية عن المجابهة المسلحة ، ونظرا لأن المجال لا يتسع لدراسة كتاباتهم ، آثرنا أن نهتم بأحمد ابن المواز ، ومحمد بن الحسن الحجوي - تمثيلا لا حصرا - بوصفهما عالمين بارزين ، وموظفين مخزنيين ساميين .

---

1 - Lettre de Lyautey,à Lang, rapporteur du budjet , 1-6-1913 in Lyautey l'Africain (1912-1913) , plon , t 1 , p 85 .

2 - نقلا عن ماء العينين النعمة علي ، الشيخ مربيه ربه العالم المجاهد ، انظر، ملحق الفكر الإسلامي ، جريدة العلم ، العدد 1660 ، 8 دجنبر 1995 .

ما يبرر هذا الاختيار، هو الخصائص والصفات التي تميز بها هذان المفكران ومنها قدرتهما على قراءة الأحداث قراءة ذكية أيام السلطانيين عبد العزيز وعبد الحفيظ , وبعد سقوط المغرب تحت الحماية الفرنسية، ومنها أيضا أن رؤيتهما مستمدة من الفكر السلفي (1) .

فإبن المواز عالم كبير (2) ، وموظف سامي شغل عدة مناصب ، وذهب في رحلات عدة الى أروبا ، وأقام في اسبانيا مدة طويلة ، ربما قصد الدراسة . ولنترك محمد بوجندار يعرف به :

" احمد بن المواز الفاسي ثم الرباطي الوفاة ، قاضي القضاة ، وأحد الفحول الوعاة ، وأبطال الأدب الكماة ... تقلب في عدة وظائف علمية ومخزنية ، أيام الدول الأربع : الحسنية والعزيزية والحفيظية واليوسفية من الكتابة الى السفارة ، الى العضوية بالمجلس التحسيني بكلية القرويين الى قاضي القضاة ، ورئيس المجلس الاستئنائي القضائي بالرباط ، حيث استوطن أخيرا الى أن توفي به عام 1341 هـ " (3) .

أما العلامة محمد الحجوي ، فقد فاقت شهرته تلك التي كانت لزميله ابن المواز، حيث اجتمع له الوظيف المخزني الذي ولجه منذ سنة 1889 ، وتقلب في أسلاكه الى أن وصل أعلى المراتب (ممثل السلطان ، وزير، سفير ...) ، مع العلم الواسع ، حيث اشتهر بغزارة الانتاج ، وتنوعه بين التاريخ والأدب ، والمذكرات والتقاييد ، وأهم هذه التآليف على الاطلاق " الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي " .

ركز الحجوي وابن المواز في كتاباتهما على تحديث المجتمع المغربي والدولة معا . ومفهوم التحديث ، عندهما ، يشتمل على إعداد البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لتدخل في المعاصرة العالمية . فإذا كان المغرب - في رأيهما - قد انهزم أمام فرنسا المتطورة ، والمتفوقة بتنظيماتها وتقنياتها ، فلأنه كان في حالة جمود وتراجع . وبحثا عن القوة، كقانون في التوازن والمماثلة، طرحا مشروع التحديث كحل لتجديد هياكل البلاد ، وتطوير أوضاعها وأنظمتها المختلفة . وهكذا يكون مسلكهما مخالفا لما سلكه أولائك الذين نادوا بالجهاد.

---

1 - سعيد بنسعيد ، الاجتهاد ... المصدر السابق ص 49 .

2 - إبن زيدان . الدرر الفاخرة بأثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة المطبعة الاقتصادية ، الرباط 1937 ص 133 .

3 - الاغتباط في تراجم أعلام الرباط ، تحقيق عبد الكريم كريم ، الرباط 1978 ، ص 93 .

تتلخص رؤيتهما في مهادنة الوضع الجديد ، والالتزام ببنود الحماية ، ومطالبة السلطات الفرنسية بما وعدت به ، من اصلاحات ، تمكن المغرب من التطور السريع ، نحو وضع يسمح له بتسيير شؤونه بنفسه .

وعليه لم يدع أي منهما الى إثارة الناس ضد التدخل الأجنبي على غرار ما فعله بعض زملائهم من العلماء ، لا لكونهما ظلا وفيين لسلك الموظفين فقط ، ولكن أيضا إيمانا منهما بأن المقاومة لا طائل من ورائها ، وأن نظام الحماية – في نظرهما – إنما هو أداة الاصلاحات ، ومفتاح التحديث . لقد التزمت فرنسا بموجب " العقد " بتنفيذ سياسة إصلاحية في ميادين الاقتصاد والإدارة ، فلمَ لا يجب أن نضع ثقتنا فيها ، سيما وأنها معروفة باحترامها للقوانين والأعراف الدولية (1). ولا يمكن أن تتنكر بين عشية وضحاها لما أمضته من عقود والتزمت به مـــن عهود (2).

حقا إن الغزو الأجنبي للمغرب بدأ بتلك الصفحة العنيفة التي سبقت الإشارة إليها ، وأن سياسة ليوطي ، لم تخل من الحرص على استخدام أسلوب القوة في حالة فشل الأسلوب السلمي ، ولكن ألم يقطع هذا الغزو دابر الفتنة (3) ؟ ويقضي على الفوضى العارمة (4) التي كان المغرب مسرحا لها، حيث عم الأمن والاستقرار «العنبري المسكي، وقد بعد عهده به »(5) .

ويضيف ابن المواز :

" والفضل في هذا كله ، إنما هو للحكومة الجمهورية المحترمة الساهرة على مصالح الوطن والأهالي ، والمجتهدة في أعمال التحسين "(6) .

إن فكرة التحديث عند الفقيهيين لم تكن وليدة الحماية، بل استبدت بفكرهما منذ وفاة السلطان المولى الحسن ، فابن المواز مكث في اسبانيا مدة طويلة حسبما استفدناه من قراءة "حجة المنذرين" ، ورأى ما وصلت اليه هذه الدولة من رقي وازدهار ، والحجوي وقف – على

---

1 – أحمد ابن المواز ، حجة المنذرين على تنظم المنكرين ، طبعة حجرية فاس ص 45 .

2 – نفسه .

3 – أحمد ابن المواز ، خطوة الأقلام في التعليم والتربية في الإسلام 1336 هـ ، ص ، 85 . (صورة من المخطوطة زود نا بها الأستاذ محمد المنونى رحمه الله).

4 – محمد الحجوي ، تقرير تاريخي عن حال المغرب بعد الحماية ، مخطوط في الخزانة العامة بالرباط ، ج 254 – ص 24 .

5 – نفسه .

6 – خطوة الأقلام ... المصدر السابق ، ص 86 .

غرار المبعوثين المغاربة أمثال: محمد الصفار (1) ومحمد العمراوي (2) واالطاهر الفاسي (3) ... الذين زاروا أوربا بعد هزيمة إسلي (1944) – أمام الاختراعات التكنولوجية والتنظيمات السياسية والعسكرية ، التي احدثت ثورة في حياة الأوروبين (4) ، ولم ينظر الى هذه الثورة نظرة احتقار وازدراء أو من باب : " **زخارف الدنيا وبهرجتها وسرابها الزائد" (5)**، بل نظرة تنم عن قناعة بجدوى الحضارة الأروبية وبالتالي الاقتباس من نبراسها ، ولذلك قال :

" النظام الذي تسير به الدول الإسلامية من أقدم أعصارها قد هدم ونخرت عظامه ، وتشوه وجهه بالأخلاق السافلة الفاشية ... والنظام الذي أسسته الدولة العصرية ، وجرى مفعوله في العالم ، وسمعته حتى حيتان البحر ، وطيور الجو وأسد الاجام ، وتشوقت إليه ، لا وجود له ، ولم تتوفر في المغرب أسبابه ومعداته(6) .

وكان يرى أن من حقه ، كفقيه له مؤهلات في ميادين الإدارة والجيش والمالية ، حنكته التجربة ، أن يتقدم بمقترحات إصلاحية للسلطان عبد العزيز ، وحتى عندما باءت محاولات هذا الأخير بالفشل – إذ كيف يمكن لدولة ضعيفة، وبلا جيش قوي قادر على حماية البلاد أن يفرض اصلاحات عميقة على «رعية جاهلة وبسيطة التفكير » (7) ، لم تستطع استيعاب كنه الإصلاحات ، ورفضتها اعتقادا منها أنها مملاة من قبل العدو – لم يسلم الحجوي القياد لليأس بل ظل وفيا لمنهج الفقهاء، والعلماء الذين من واجبهم الديني تقديم النصح الى أولي الأمر (8) سواء كان هؤلاء وطنيين أم محتلين .

---

1 – رافق محمد الصفار السفارة المغربية الى فرنسا سنة 1845 وكتب في ذلك مذكرة ، تحمل إسم" رحلة الصفار" وهي مخطوطة الخزانة الحسنية رقم 113.

2 – ادريس بن محمد العمراوي ، رحل الى فرنسا سنة 1860 ، وكتب في ذلك مذكرة سماها : "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" فاس 1909 .

3 – رحل الى إبريطانيا في سنة 1860 ، وكتب في ذلك مذكرة تحمل اسم « الرحلة الإبريزية الى الديار الإنجليزية »، الرباط 1963 ، تحقيق محمد الفاسي .

4 – محمد الحجوي ، الرحلة الوجدية ، مصدر سابق ، ص 10 .

5 – رحلة الصفار ، مصدر سابق ، ص 122 .

6 – الرحلة الوجدية ، المصدر السابق ص 8 .

7 – نفســـه ص 22 .

8 – نفسه ص 117 .

غير أن ما حدث في الساحة من اجتهاد ، في باب الإصلاحات ، ما هو الا تكريس للوضعية الموروثة ، ورعاية لمقومات الدولة الحامية ، فتم استنزاف خيرات البلاد ، واستغلال الرجال أثناء الحرب ضد ألمانيا ، كما تم نزع الأراضي الخصبة من يد الفلاحين وإصدارما سمي ب « الظهير البربري » لتمزيق الأمة المغربية ... وخاب ظن ابن المواز والحجوي في حسن نيتهما ، وتأكد لديهما أن ما كان يحلم به المغرب من أن الحماية ستأخذ بيده ، وتساعده على النمو والتطور ، إنما هو مجرد سراب ، غير أن هذه الخيبة لم تبلغ درجة الرفض والتمرد ، بل انحصرت – حسب الحجوي –، في تذكير فرنسا بالتزاماتها "واصلاح" ما تم افساده كالتعجيل بإيقاف نزع الملكية الا لمصلحة عامة ، وإصلاح العدلية والغاء « الظهير البربري » (1) كما انحصرت –حسب ابن المواز – في الاستمرار بالوثوق في" أقوال فرنسا المشرفة للاسلام وأهله" (2) ويضيف ابن المواز مبالغا في هذه الثقة قائلا :

" والدولة الحامية حيث هي للأهالي والمعمرين معا كالأخ العطوف ، فلا تكون عندها تفرقة بين الجانبين : لا في أحكام المساواة ، ولا في اعتبار الإخاء ولا في امتياز الحرية ، بل تحفظ لكل جانب طرائقه ، وتعرف لكل فريق حقائقه»(3).

نستخلص من هذا الحديث أن الحجوي وابن المواز ينتميان إلى فئة الإصلاحيين المتفتحين على العصر، والداعين الى ضرورة تحديث المغرب ، ولو تحت حكم الأعداء . فقد ظلا ملتزمين في تعاملهما مع الفرنسيين حسب مقتضيات "العقد" وبنوده ، اعتقادا منهما أن المغرب لا يستطيع تغيير هياكله الإدارية والاقتصادية بالاعتماد على نفسه .

وهذا الموقف هو نفسه الذي عبرت عنه « البورجوازية » التجارية ، بعد فشل التجربة العزيزية ، فقد كانت تجسد فكرة استحالة إنجاز سياسية إصلاحية دون الخضوع لوصاية ، أو حماية دولة من الدول الأوروبية القوية ، وبالتالي فإن التدخل المجبر للأجنبي ، هو الكفيل للنهوض بالبلاد والخروج من النفق (4) .

---

1 – تقرير تاريخي ، المصدر السابق ، ص 45

2 – حجة المنذرين ، ص 78 .

3 – نفسه ، ص 63 .

4 - D. Rivet , Lyautey et l'institution du protectorat (1912-1925),L'Harmattan, 1988, t 1 pp, 87-88 , t1 , pp 87-88 .

هل يمكن القول إن ابن المواز والحجوي تأثرا بالعقلية الميركانتيلية ؟

لا غرو أن يكون ابن المواز والحجوي قد تأثرا بهذه العقلية الميركانتيلية ، خصوصا وأن هذا الأخير لم يفارقه الشعور بالانتماء الى الفئة المتميزة من التجار . فقد ظل يشتغل بالتجارة بين الفينة والأخرى ، كلما انقطع عن العمل المخزني ، بسبب الاستعفاء أو الإعفاء ، ولكن هل غاب عليه أو عليهما كل ما كانت تفعله فرنسا وتؤسسه لضرب الحضارة الإسلامية ؟ هل غاب على الفقهين أنها جاءت الى المغرب لاستغلال البلاد والعباد ، ونشر العداوة والبغضاء بين عناصر الأمة لضمان بقائها ؟ وحتى لو فرضنا – جدلا – أنها جاءت لتجعل المغرب يستفيد من تقدمها في الميادين الاقتصادية والفكرية ، فلماذا لم تكتف بالوسائل السلمية لايصال هذه الحضارة ؟

لا شك أن إبن المواز والحجوي حادا عن الأطروحة السلفية المألوفة ، وتوقفا عن التحرك فكريا وايديولوجيا من داخل دائرة مرجعيتهما ، فقد ذهب بهما الركون الى الاستعداد لقبول ما عند "الآخر" ، ظنا منهما أن ذلك هو سبيل الحصول على المعرفة التكنولوجية ، وأكثر من ذلك وجدا نفسهما في حالة المصالحة ، في حين أن المنصوري لا يتصور التحديث تحت نظام ، أحكم قبضته على البلاد اقتصاديا وسياسيا . من هنا لا نلمس أي تشابه بين منظورالرجلين (الحجوي والمنصوري)، فالحجوي مثلا يبلور نظريته حول التفاهم مع المحتل ، بينما بنى المنصوري مفهومه على الدفاع عن الحضارة الإسلامية ، كمرتكز أساسي للانطلاق في عملية التحرير، كما بنى مفهومه على الدفاع عن الاستمرارية التاريخية ، وإبراز مقومات الهوية الدينية مقابل حملات التغريب ومسخ الشخصية الذاتية عن طريق الغزو، فلا يتأتى للأمة استرداد الحق ومقاومة الاحتلال في جميع صوره وأبعاده إلا بالتشبث بالذات في بعدها الروحي الإسلامي ، عندئذ – وهذا هو الانشغال الأساس لدى السلفية – تكون قوية لتحرير البلاد أولا وقبل كل شيء، وبالتالي تحديثها . فهذه النظرية لم تزد مع تقدم سنه من جهة ، وتراكم المعلومات من جهة أخرى ، إلا نضجا واختمارا ، فكانت ثمرتها كتاب "كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر" .

يتضمن الكتاب (السفر الأول والثاني) الذي يضم 350 صفحة من القطع المتوسط ، دراستين ، تعالج الأولى المركب الحضاري بكل ما تعنيه هذه العبارة من أصول عقدية ، وتشريعية وأخلاقية ، وما تشتمل عليه من مرتكزات جغرافية واقتصادية وإنسانية. وهذا المناخ –حسب المؤلف – هو الذي ينبغي حمايته من أخطار الفكر الوافد . وتعالج الثانية منحاه السياسي، وهو تسليط الأضواء على المغزى الجهادي للمقاومة الزيانية ، في

نوع من التكامل ، واستعادة التوازن مع مضامينها الدينية والفكرية .

هذا ويشير المؤلف إلى قطب رحى هذه المقاومة ، وهو القائد موحا وحمو الزياني الذي سبق له أن مارس الحكم ، وساعد الدولة في استتبات الأمن في ربوع الجبال الأطلسية ، وتدرب على أعمال القتال .

تكمن فضيلة هذا المجاهد المغوار -كما يرى المؤلف - في عبقريته الاستراتيجية التي كشفت عن نفسها ، خلال قتاله ضد المستعمر الفرنسي ، حيث استطاع أن يوحّد القبائل ، ويجمع حوله مجموعات من المتطوعين المؤمنين بقضية الجهاد ، هؤلاءالذين شكلوا النواة الأولى للمقاومة ، والقوة الرادعة في مواجهة المحتلين ، بدءا من سنة 1908 في بلاد الشاوية ، حتى استشهاده سنة 1921 . كما تكمن في كونه ، خلال دفاعه عن الإسلام ، استطاع أن يغرس روح التضحية والفداء ، عندما رفض جميع المساومات والإغراءات ، الأمر الذي جعل المقاومة تستمر بعده وتتخذ أشكالا ، أشد صلابة وأكثر مناعة .

لقد واجهتناعدة صعوبات ، وعلى رأسها وجود نسخة فريدة من المخطوطة، مما جعلنا نتساءل : هل يمكن القيام بتحقيق نص لا نتوفر فيه إلا على نسخة واحدة ؟ لقد اختلفت المواقف في هذه المسألة ، فهناك من الباحثين من يرفض ذلك ، وهناك من يقبله ، ومنهم فضيلة الشيخ الأستاذالمرحوم باذن الله محمد المنوني الذي زرناه في نهاية التسعينات .

وبعد المشاورات مع باحثين آخرين تمكنا من التغلب على المشكل بالتعامل مع هذه المخطوطة انطلاقا من هذه الخصوصية المفروضة علينا . أما الصعوبة الثانية فتتجلى في عسر قراءة نسخة الميكروفيلم المسجلة تحت عدد 946 بالخزانة العامة بالرباط ، نظرا لهوامشها المتداخلة ، وإحالاتها التي لا يكتنفها الوضوح دائما ، ونظرا لخروم كثيرة جعلتها صعبة الانسجام . ولم نتنعّم برؤية النسخة الأصلية والظفر بنسخة مصورة منها ، إلا بعد سنتين من البحث ، حصلنا عليها من ابن المؤلف ، الذي دلنا عليه فضيلة الأستاذ محمد المنوني رحمه الله رحمة واسعة .

وبالنسبة لتحقيق النص أدرجنا بعض الطرر الطويلة ضمن المتن ، نظرا لتناسقها مع سياق النص ، وحتى يستقيم المعنى . وقد وضعنا الكلمات والفقرات المدرجة التي رممنا بها النص بين معقفين : [...] ، كما صححنا بعض العبارات التي وقع فيها التصحيف والتحريف ، مع الإشارة إلى ذلك في الطرة أحيانا ، وقد ميزنا في الهامش تعليقات المؤلف بعلامة : (*) .

أما الاقتباسات التي اقتبسها المؤلف من المصادر التي اعتمد عليها ، فقد رجعنا إليها في أصولها وحققناها ، ولاحظنا على ذلك في الهامش .

ومع كل هذا ، فإننا لا نزعم أننا قد استطعنا أن نتجنب في هذا العمل كل الأخطاء , والراسخون في البحث العلمي يدركون جيدا المشاق التي يتحملها المحقق .

الأستاذ محمد بن لحسن

بني ملال في زوال يوم السبت 12 ذي الحجة 1420،

موافق ل 18 مارس 2000

الجزء الأول

[illegible]

زالت المدائن ... [illegible] ... الاسلام [illegible]

[illegible] ... انه لا [illegible]

لمسا رجال ... والمسا ... [illegible]

[illegible]

للعلم ... [illegible]

[illegible] ... لله [illegible]

[illegible]

اسرع ... [illegible] ... اهل الله ... [illegible]

[illegible] ... ذهبه ولا ... [illegible]

[illegible]

[illegible]

الناس ... ثلاثة : [illegible]

[illegible] : ذهبه و[illegible]

[illegible] كتبه [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد الرسول الأمين وآله وصحبه الأكرمين

في فاتح ربيع النبوي 1356هـ يوافق ماي 1937، انعقد المؤتمر التاسع بالمعهد العلمي بالرباط ، وكان موضوعه التحدث عن الجبال المغربية ، فكنت ممن شارك بمحاضرة في الجبال الزيانية ومنتوجاتها الطبعية .

حاضرت في بلدة نشأت فيها وعشت بين مغانيها وروابيها ألا وهي بلاد زيان ، معقل الفرسان والشجعان ، وموطن الايمان بكامل الايقان .

وكانت محاضرتي كلها إشادة بديني وسلطاني ، ومفاخر بما تحويه من كنوز جبال أوطاني ، وكان من دواعي الأسف والحسرة أن يحاضر فيها الأجنبيون بكثرة ، وبنو وطني ، كأنهم غرباء فيها ، يكتفون بالاستماع وإلقاء النظرة ، فالكثير فوق الكراسي قابعون ، والقليل بالقليل ، من الحديث عنها قانعون .

وقد تعرضت من بعض الإستعماريين للانتقادات ، حينما ألمحت بما لهذا الجيل البربري من ديانة إسلامية واعتقادات (1) ، وكما كانت سمتي غير سماتهم ، فكذلك نغمتي غير نغماتهم ، فهم باغمون وأنا صادح أو هم قادحون وأنا مادح ، إذ هم يستطلعون لما وصلت لهذا الأطلس يد الاستعمار. وقد اختمرت فكرة تفرقة العنصر والديانة أي اختمار (2) ، وأنا أبحث عما لهذه الجبال الأطلسية من آثار ، وما لهذا الجيل العامر من فخار إلى ما يتسمون به

---

1 – تتلخص الأطروحة الاستعمارية الفرنسية في أن "الأمازغيين" يشكلون كتلة منفصلة ، نظرا لفتورهم الديني وضعف تأثرهم بالإسلام . ولذلك حافظوا على أصالتهم ، أي أنهم ، حسب هذه المزاعم ، بقوا متشبثين بلهجاتهم وعاداتهم وأعرافهم ، واستقلالهم ، حيث لم ينقادوا أبدا للمخزن . وقد ادعى أحد رواد هذه الأطروحة "أن القبائل الأمازيغية ، ما عرفت في يوم من الأيام سلطة أحد سلاطين المغرب "أنظر تقرير فرنسا وسياستها البربرية بالمغرب الأقصى ، المقدم إلى المؤتمر الإسلامي بالقدس سنة 1931 ، والمنشور بتصدير لمحمد المكي الناصري بالقاهرة سنة 1932 . ومن هنا جاءت فكرة تطويرهم بمنأى عن العرب والحضارة العربية الإسلامية . هاته السياسة (أو ما يسمى "بالسياسة البربرية") ، لا تسعى إلى تكوين دولة مغربية قوية ، وخلق كيان واع بذاته بل على النقيض من ذلك ، تسعى إلى التفرقة بين عناصر الأمة المغربية للقضاء على وحدتها،أنظر:

E. Michaux-Bell aire," L'organisme marocain "'Rev. du Monde Musulman, - sept.1910, p.1-43

2 – منذ سنة 1913 ، غداة وصول الفيالق الفرنسية إلى الجبال الأطلسية(بني مطير ، بني مكّيد ...)، كتب الجنرال هنريس – الذي كان يستعد للإنقضاض على مدينة خنيفرة–لليوطي ما يلي:"يظهر لنا بوضوح أنه سيكون من غير السياسة ، عدم وضع الحالة الخاصة لهذه القبائل التي سنواجهها في الحسبان " أنظر :

Ageron(CH.R.),"La politique bèrbère du Protectorat Marocain de 1913 à 1934" , Revue d'histoire moderne et comtemporaine, TXVIII, Janvier-Mars 1971,p. 62.

من جود وكرم وشجاعة وشمم ، وما يتقلدونه من عقيدة إسلامية . ويعقدون عليه خناصرهم من تقاليد سياسية مع ملوكنا الأشراف العلوية ، فكان لسانهم يقول : إنها محاضرة عن موضوعنا خارجة ، فيرد عليهم لساني :"أردتم عمرا وأراد الله خارجة".

ولعمري لم يكن رائدي في ذلك إلا الإخلاص لله والغيرة على الدين والشريعة التي نحن بها ندين . وهم ، من وراء ذلك يرمون لتفرقة بين الصفوف ، وبث بغضاء بين الجيلين العربي والبربري ، بوجه صفيق ، مكشوف ، وتنفير لهؤلاء من الأعتاب الشريفة ، وملوكنا الأمجاد المنيفة ، وأنا قد عشت بين أولئك البربر ، وشاهدت من تعلقهم بملوكنا الأوفر الأكبر. وماكان قائدهم محمد وحمو عند السلطان المولى الحسن (1) إلا كابنه الأبر .

وقد كانت المحاضرة أطول من وقتها فاضطررت لنحتها كما كانت لاستعجال الوقت غير متناسقة الترتيب ، ولا متناسبة التبويب ، فقلت ماذا عسى يكون يا ترى إن الحقت بها طررا تكون في جبينها غررا تلم بتاريخ هذا البربر إلمامات وتلوح في وجوه شجعانهم وبعض علمائهم وأعيانهم كالشامات ظلت في خدورها مخبوئة كأسرار النبوءة لسطوة الإستعمار وجاسوسيته ربما حتى من رفيق أو جار . حتى أطلع الله صبح الفرج القريب وتنسمنا أرجه العجيب ، جزاء إخلاص الملك الفذ الغريب ، من ضرب بالشجاعة بعطن ، وضحى بكل غال ونفيس لإنقاذ الوطن وسلك السبيل الأقوم مع ربه المستحسن، مولانا محمد بن يوسف بن الحسن أيده الله بتأييد منه والظفر المكين ، وزاده مهابة من لدنه وأعزه بالنصر المبين .

أما استقصاء تاريخ هذا الجيل من البربر في هذا الأطلس المتوسط منه والأكبر، فهو اللج الذي لا يعبر ، ولكن من ألم ببعضه ، فقد أبر ، وذلك خير من أن لا يعرج عليه بحال فيقبر .

وقد كانت المحاضرة ببعض شؤون قبائل زيان فقط ملمة ، وجاءت بأثرها وظيفة القضاء المهمة ، فشغلت الأوقات بفصل القضايا ، والعدالة والعدول ، وبعدما كانت العزيمة مشرئبة لإبرازها ، في تاريخ الأطلس ، حصل فتور عنه ، وعدول . ولما تفرغنا من تلك الشواغل وهجرنا السماط ، وصرنا كما قال إبن خلكان بعد أن كنا أشغل من ذات النحيين ، أفرغ من حجام ساباط وانقشعت سحب الحماية المخيمة، وأمكن لكل مؤرخ أن يكتب ما رآى ، أو ما سمع ، من جهاد ، وبطولة شجعان، يفرج بذلك كربه وهمه ، فرأيت أن لابأس بتعميم

---

1 – هو الحسن بن محمد بن عبد الرحمان بن هشام الحسني ، من سلاطين الدولة العلوية بالمغرب الأقصى ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه عام 1290هـ–1873م . عرف بالحزم والمثابرة على العمل للنهوض بالبلاد . فقد كرس حياته ، وهو على ظهر جواده لاستتباب الأمن وتوحيد القبائل تارة باللين ، وتارة بالشدة . توفي عام 1311هـ–1894م. ترجم له ابن زيدان ... م .س . ج 2 . ص 115.

تلك المهمة ، ولو بإشارة حسب الإمكان ، إلى مقاومة جهادية ، لرد غارة العدو ، عن هده الأوطان ، وخصوصا منهم آيت أمالو (1) الذين هم عمد هذه الأطلس والأركان .

وهم أولئك الذين لم يزالوا من الاحتلال الفرنسي على أوخار . وكلما ساومهم في الإستسلام اعتصموا بأطلسهم الجبار وعثنونه فازازا* فكانت لهم بذلك المكانة السامية والمرتبة العظمى في الذب عن حوزة الإسلام ومكانته العالية بدمائهم النفيسة الزاكية وأموالهم الطائلة الكثيرةالغالية ، في استماتة لأقصى حد ، وصبر على مضض عيش ، لغاية جهد حتى ذبلت منهم الوجوه وتغيرت البشر ، وبلغوا غاية لا يستطيع العيش معها عادة البشر ، مما يأتي تفصيله ولا يستبعد منى الآن تهويله .

أما رجال الأقلام والمحابر ، وفطاحل الدفاتر ، وخطباء المنابر ، في هذا الجيل الحاضر من هؤلاء البرابر ، فقد درج ركبهم منذ سنين ولم يبق يسمع للعلم في ديارهم إلا الأنين ، واستبدلت فيه جدة العلم بالبلا ، منذ غور معين تاستاوت الدلاء ، غرب خنيفرة على نحو 70 كلمترا ، وقد نشأ فيها أولاده وأحفاده علماء أجلاء ، وعلى رأسهم أبو العباس أحمد بن عبد القادر التستاوتي الشهير . وسنستوفي تراجمهم في محله إن شاء الله ، والدلاء إشارة إلى الزاوية الدلائية المعروفة الآن بزاوية آيت إسحاق على 35 كلمترا ، جنوب خنيفرة في الطريق المؤدية إلى مراكش . هذه الزاوية التاريخية الأثرية علما وأدبا ، وصلاحا وكرما وشجاعة ، شدت لها الرحال من عواصم المغرب للإرتواء من معين علمها ، واستجداء سحائب كرمها ، حتى قلب لها الدهر ظهر المجن وتناوبتها كوارث الإحن والمحن. وسنوافي القراء ببعض آثارها العلمية ونتف من تراجم أقطابها الحلة . وقد ألف العلماء فيهم ، وذكروهم استطرادا وقصدا .

وأجمع ما ألف فيهم "البدور الضاوية في الزاوية الدلائية" سيدي سليمان الحوات" .فرغ من تأليفه شهر الحجة 1233 . ومن ألطف ما ألف أخيرا فيهم ، نبذة بقلم صديقنا الأستاذ

---

1 – تطلق هذه اللفظة على صنهاجة الظل الواقعة في منحدرات الأطلس الشمالية التي تواجهها الشمس مواجهة تامة . وتشتمل الاتحادية على قبائل كثيرة (زيان ، اشقيرن ، آيت إسحاق ...). وتتمركز مواقعها الحالية في حوض أم الربيع ، ووادي العبيد بالأطلس المتوسط ، والمناطق الفاصلة بين الأطلس والحوض الأسفل لنهر سبو . أنظر : ابن خلدون ، كتاب العبر ، المصدر السابق ، ج6 ص 205 . 310 والبيذق ، كتاب الانساب في معرفة الأصحاب ، الرباط 1971 ، ص . 46 .

*" جبل فازار : يكثر المؤرخون من ذكر فازار ولكنهم لا يعينون موقعه بالضبط ، وكل من تكلم على حادثة أو معركة في هذين الأطلسين الكبير والمتوسط ، يقول في جبل فازاز، بحيث يعسر عليك أن تعرف موقعه . وهذا ما جعلني أبحث عنه بالضبط ، حتى يتحقق لي أو كاد موقعه مما سأبنيه قريبا إن شاء الله ." اهـ مؤلفه .

سيدي محمد بن عبد الله حجي مندوب في التربية الوطنية بالدار البيضاء ، فقد كتبها أطروحة (1) جاءت من أمتع ما كتب خصوصا وقد تناول فيها علائقهم السياسية والدبلوماسية مع بعض الدول ، وزينها برسوم للزاويتين الأولى والأخيرة . وقد ترافقنا للوقوف على بعض هذه الآثار مرارا . وفي رحلتنا لهما بتاريخ 25 حجة متم 1381 يوافق 30 ماي 1962، أنشدت قصيدة ضمنتها وصف هذه الرحلة، وما وقفنا عليه من آثار،هاجت ذكريات أيام زيان باستنشاق أريج تلك الديار.

تذكرت والذكرى تهيج على الفتـــى ومـن عــادة المـحـزون أن يتذكـــــرا

وهذه هي القصيدة

ذكرت الصــبا وعهـــده بمرابـــع مضت بـــين هاتيك الرُّسوم الروائـــع
عشية مرَّت بـــي النجائب خلْســـةً خــلال ثنـــايا شاهـــقات الطوالـــع
ثنايا "بكَرض الخير*"تسمْى وأسْده ثنـــايا زيـان لا النَّـــقا والأجــارع
فعادت بي الذكرى لأيامها الأولـــى مضت . وليـال ما تـــرى برواجـــع
زمــان شبابـــي ينثــني بمرابــع سقتهاغوادٍ بالغيـــوث الهوامـــــع
مـــرابعُ كان الجود يَهْمي حيالهـــا بمغنــى "الـــدلاء" يالــها مـــن مرابـع
وينهمـر العـرفـان مـن جُدرانهـا انْهمـار رُبَــاها مـــن غزيـر الينابـــع
وينـصبُّ رقْراقُ المحـابر دفـقـــةً كمـــا انصـــب رقـراق المياه الدوافـع
ولمـــا أتيـت اليوم شـوقا أحــجُّها وفي حجَّتي "حجِّي" جميــل الطبائـــع
وقـــد خلّد التاريخ ذكـرى رجـالها رجال يَرا ع أو رِمــــاحٍ شواشــــع...
وقلت إذا ما فـــاتني من زمانهـــا لقـاءٌ ففي تلك القـــباب السُّواطـــــع
بهـــا قد ثوى المجد الرفيع يســـاوق العلى والمعالي وهـــي جـــدّ روائـــــع
يفوح شذاها من أبي بكر ألرضـــى وقطب رحى ذا البيت دون مصـــــارع
محمد من قد طبق الأُفْقُ صَيْتُـــه بعلــمٍ وجــودٍ فهو جـــمُّ الصّنائـــــع

ولم يبق إلا رسوما وأطلالا وبعض أضواء تشع حينا لكنها لا تتلألأ ، لذلك كانت عنايتي أكثر برجال الجهاد والكفاح الذين شفع لهم ما عبق من أرج دمائهم لله وماح. فاستحقوا بذلك تخليد آثارهم وترديد أخبارهم ، على أني قد ذكرت لهؤلاء البرابر من علمائهم ما فيه مقنع لبعض النفوس ، وإن كان ليس كالمرتع الخصب من شلوح سوس . فهؤلاء من يقال فيهم "لاعطر بعد عروس" . فقد جلى لنا الأخ العلامة الوزير المؤرخ النحرير ، سيدي محمد المختار من تلك الآثار ما ذهل اللب فيه واحتار .

1- وهي رسالة السلك الثالث التي نوقشت بتاريخ 8 أبريل 1963 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت عنوان :"الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي" . طبعت سنة 1964، وأعيد طبعها سنة 1988، مطبعة النجاح ، الدار البيضاء ، 1988 .

فليعذرني من رآني أني مقصّر ، أو في بعض من إحدى الطائفتين مختصرا ، لأن هذا الجيل الذي أؤرخه ، بالكتب غير مهتم ولا ميال . فجل ما فيه كما قال ابن الطيب الشرقي ، مما علق بالبال وعلق في قرطاس بال ، وإني لم أسمع ولم أر منذ قديم ، في هذا الموضوع من طرقه ، ولا عثرت على من كتب في تاريخهم ، ولا ورقة ، ولا من أنفق في ذلك ذهبه ولا ورقه .

مما ذكرني فيما كان ينشده شيخنا وزير العدلية العلامة المصلح المحدث سيدي أبو شعيب الدكالي (1) رحمه الله في تفريق الناس إلى أقسام ثلاثة فيقول :

الناس هـــم ثـلاثـــة	فـــواحـد ذو درقة
وذو علـــــوم دارس	كتبــــه وَوَرَقَــه
ومنفـــق فــــي واجب	ذهَبــه ووَرِقَـــــه
ومـــا سواهــــم همـج	لا وَدَك ولا مَــرَقـــه

نشأتي بزيان وهو وطني الثاني(2) .

قدر لي وإن كنت مكناسي الدار ، منصوري الوجار أن أنشأ في ثنايا الأطلس، وفي ذروة تلك الجبال ، ألشُم المعطس وأنمو في ترابها وأربّى بين شعابها وهضابها، فهي وطني ، منذ نعومة أظفاري إلى أن كاد يطرٌ عذاري ومن غضاضة إهابي إلى رعيان شبابي :

أحب بـلاد الله مـــا بـــين مَنعِــــج	إلي وسلمى أن يصــوب سحابهـــا
بلاد بهـــا حــــل الشبـــاب تمائمـــي	وأول أرض مـــس جلـــدي ترابـــها
وحـب أوطــــان الرجــــال إليهـــم	مـــآرب قضـاها الشبــاب هنــالكـا
إذا ذكـــــروا أوطــــانهـــم ذكـرتهـم	عهـــود الصبـا فحنـــوا لذلـكـــا

---

1 - هو أبو شعيب الدكالي ابن عبد الرحمان . ولد عام 1293هـ ببلاده بالصديقات من قبيلة الغربية بدكالة ، بعد حفظه القرآن والمتون المتعارفة إذ ذاك (الأجرومية ، الألفية...) . انتقل إلى مراكش، وعمره لا يتجاوز عشرة أعوام . وفي هذه المدينة استقبله السلطان مولاي الحسن ، واختبره في فن القراءات . ثم انتقل بعد ذلك إلى فاس لاستكمال دراسته بجامعة القرويين . وفي عام 1896 توجه إلى مصر ومكث بالأزهر الشريف حتى حصل على الإجازة من شيوخها الكبار . ومن مصر سافر إلى مكة المكرمة بطلب من حاكمها . وبقي بالديار الحجازية زهاء 15 سنة ، يلقى دروسه العلمية بالحرم المكي حتى اشتهر أمره وتزوج ابنة أحد الوزراء . وعند عودته إلى وطنه لاحظ الجمود الذي كان يخيم على علماء عصره ، فتصدى لنشر العقيدة الصحيحة ونبذ الخرافات والبدع. وكان منهجه في حلقات دروسه التي كان يلقيها في مدن وقرى المغرب ، يعتمد على الكتاب والسنة . وبذلك كان المؤسس الأول لبناء الصرح الجديد الذي ينبذ الشعوذة والمشعوذين . وهكذا بقي يجاهد في إحياء السنة والدعوة على ما كان عليه السلف الصالح حتى أدركته منيته بالرباط يوم الخميس 18 جمادى الثانية عام 1356هـ/1937م . وقد خلف لنا : 1- المسامرة في أول تدوين الحديث 2 - المسامرة الأدبية في الأخلاق المرضية. انظر الشيخ الناودي ، المرجع السابق ، ص 219-227 ، وكذلك عبد العزيز بن عبد الله ، الموسوعة المغربية ، دار النشر 1976 ج 3 ص 38 .

وليس بمستنكر حنين الناب إلى عطنــه والمرء إلى محـل نـشأتــه ووطنــه

كــم منـزل فـــي الحي يألفـــه الفتـى وحنينــــه أبـــدا لأول منــــــزل

إلا أنها على حبي لها، جاءت في وسط لا يمت بصلة ولا لها بالعلم وكُتبه مرتبط ، وإنما هو جيل من البربر هائج ، وفي غمرات حروبه رائج مائج ، اعتزازه بصارمه(1) المبير(2) وفرسه المغير ، فخره بالشجاعة والإقدام إذا افتخر غيره بالمحابروالأقلام .ورغم ما تدفق في ديارهم من معين علمي ، وبحر عرفان ، وأدب يهْمي، لم تكدره العزالي فضلا عن الدلاء . وناهيك أن"عاصمة العلم"كانت تستقي من بحرتلك"الدلاء". فقد غاض ذلك المعين وجفت حياضه ، وذبلت أزهاره وصوحت رياضه ، فخلف من بعدهم خلف لا دأب له إلا التألب على بعضهم بعضا وربط الحلف ، وترويعهم في كل سبيل ، واصطيادهم على كل مرعى وسلسبيل ، فلا أمن لأحد في حل ولا ترحال ، فأشفق ملك الوقت المولى "الحسن" على رعيته من تلك الحال ، فرماهم بجيش جعله تحت إبطهم ليتمكن من حسم شر عتاتهم وربطهم ، وندب والدي (3) لرئاسته ، ووكـــله إلـــى حكمته ، وأنـــاتــه وسياسته ، وزوّده -بعد الدعاء له- بمدافع ومكاحل. جاء ينطع بها المهامه والمجاهل ، حتى حل بجحفله المريع على ضفة نهر أم الربيع في أرض مقفرة . تلك هي بقعة "خنيفرة" ، فظهرت سطوة الله في جيش الملك المهيب ، وأمن الضعيف ، وتأنس به الغريب :

وما الملك إلا الجيش شأنا ومظهر ولا الجيش إلا ربه حبين ينشب

نعم قد ساند هذا الجيش في أداء المهمة ، ووقف معه كل مواقفه المدلهمّة ، قائد قلبه بحب ملكه المذكور ريّان هو "محمد وحمو" وقبيلته "زيان" . فقامت خلال ذلك الأطلس معامع سمع للسلاح فيها قعاقع . وفي هذا المعسكر وفرسان الوغى بين مفر ومكر ، كانت نشأة العبد هذا . ولا يقال : لقدر الله لماذا ؟ فإن أنا أحببت زيان ودعوني الزياني فهو وطني الثاني ، وحب وطني من إيماني . ولست بقائل :

دعاني الغواني عمّهن وخِلْتَني لي إسمٌ ألا أُدعى به وهـــو أوّلُ

ولكن أقول :

---

1 – الصارم ج. صوارم : السيف القاطع ، نفسه ، مادة صرم .

2 ـ مهلك يسرف في إهلاك الناس ، ابن منظور ، المصدر السابق ، مادة بور.

3 – هو قاسم بن محمد المنصوري ، من أولاد الشيخ محمد بن منصور ، دفين جزيرة البسابس بالمغرب . ولد بمكناس سنة 1250هـ ، وتعلم الحساب والتوقيت ، والهندسة مع ولد السلطان سيدي محمد (1859– 1873) . وعلى عهد السلطان مولاي الحسن ، عين قائدا للمحلة الزيانية (1290هـ) . ولما استولى الجيش الفرنسي على خنيفرة عاد إلى مسقط رأسه حيث توفي عام 1330هـ . ترجم له عبد الرحمان بن زيدان... م. س ، ج .5 ،ص. 53 .

دعوني الزياني وهو فخري لأنهم   كـرام فـــي الهيجـا عليهم يعوَّلُ

والآن فلنسق المحاضرة كمقدمة ، مع ما فيها من تحوير وإلحاقات كما قدمنا متممة ثم نتطرق .

تاريـخ خنيـفرة

هـذه القرية أو العاصمة الزيانية كانت إلى حدود سنة 1290 شيئا لا يذكر ، أو عبارة عن مدشر ، وبدأت عمارته حوالي سنة 1297 يوافق 1880 مسيحية . بدأت بالجيش الذي وجهه السلطان المولى الحسن لإعانة القائد محمد وحمو الزياني لإرضاخ سكان تلك الجبال لطاعته ، من آيت سخمان واشقرن ومن إليها من أصحاب الوقائع العظيمة كوقعة السلطان مولانا سليمان (1) وغير ذلك مما يأتي تفصيله .

فحلتها تلك المحلة ، مزعمة المقام إلى النهاية ، واستعدت للأماتة ، حاملة في وجه العدو الراية ، واستوطنتها بعد أن ملكتها بالقوة ، وطردت المتمرد وأزالت عتوه ، واستتب الأمن بها بعد عناء وجهاد ، فصارت عاصمة البربر مقصد التجار والوراد ، وكانت من الحبة قبة ، إلى أن هاجمتها القوة الفرنسية سنة 1914 يونيه . فتركتها يبابا وتهدم غالبها وصار خرابا ثم عاودتها العمارة كما ترى الآن في أحسن زي وشارة . وهي تبعد عن الدار البيضاء بنحو 300 كلم شرقيها ، وعن عاصمة مكناس الزيتونة ب 150 كلم . وخنيفرة علم عليها من غير اعتبار أي اشتقاق . هذا ما نعرفه عنها .

نعم قد وجدنا أصل هذه اللفظة جاءت في أحد جدود البرابر ، فقد ذكر إبن حزم في جمهرته عند سياق نسب زناتة أن أحد جذورها يسمى خوينفر، بضم الخاء وفتح الواو والفاء ، كذا شكله صحيفة 461 . فهل يكون من هذا الجد قديما كان هذا الإشتقاق ، فكرة تناقش .

هذا ما كان عندنا أيام عشناها بخنيفرة وزيان بل أعواما ، ولكن ربما يعاب علينا عدم إطلاعنا أن رأينا بعض جهابذة القاهرة، يفاجئنا في كتابه حول زيارته للأطلس ولهذه المدينة ، أن لها اشتقاقا من لفظة بربرية في حكاية طريفة . وهي أن الشيخ حسنا الباقوري ، وزير الأوقاف المصرية لما زار المغرب بعد الإستقلال سنة 1956 ، زار في جولته إلى الأطلس هذه المدينة . فاحتفل البرابر الكرام بأخيهم المصري العزيز . وكان من جملة من زاره في الحفلة أخونا الفقيه العالم عبد الرحمان بن محمد بن الحاج ، أحد رفقائنا في المكتب القرآني

---

1 - بويع مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل سلطانا على المغرب بفاس عام 1206هـ/1791م . وقد اشتهر بمحاربته للبدع والخرافات وإحياء السنة باعتناقه الوهابية التي تدعو إلى منهج السلف الصالح . إلا أن الفقهاء الصوفيين الذين رأوا مصالحهم مهددة عارضوه وألبوا عليه القبائل الأمازيغية في انتفاضات كثيرة . وقد توفي عام 1238هـ/1822م . أنظر ابن زيدان في " الدرر الفاخرة لمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة" ، طبعة الرباط 1937 ، ص . 67 .

والدرس العلمي . فأنس به الوزير المصري وبمذاكراته العلمية ، فألقى عليه أسئلة من جملتها أنه سأله عن سبب تسمية "خنيفرة" بهذا الإسم ، فأجابه الفقيه بأنها مشتقة من لفظ "خَنْفَر" . يقال "خنفر أرياز" بالبربرية ، أي خذ الرجل بشدة وقوة . فذهب بها الوزير المصري في مذكرته حتى يخرجها لنا ناصعة في رحلته . واشتقاق الفقيه في عهدته .

وهي [أي خنيفرة] جاءت في فسيح محاط بالجبال والروابي ، وأرضها حمراء اللون كأنها مفروشة بالزرابي ، شرقيها جبل يسمى "أقلال" ، قد أقام عليها كالحارس تطال قد احتضن جبيلا يدعى "ثغاط" أي المعزي كذا يفسر بالعربية ويعزى ، ويسارا منها جبل يدعى "أباحيّاتي" لا أنسى خياله طول حياتي . قد امتد كعمود الخيمة. حَوت نِعما عَمِيمة ، وغربيا منها جبل يدعى "أبا موسى"كم أزال في الصغر بؤسا، وأراح من ضيق المكتب نفوسا ، حيث كان مأوى مسرحنا ، وملقى فرحنا ، ومرحنا ولاسيما إبان الربيع ، والجالس على قمته ، يشرف على خنيفرة ونهر أم الربيع .

" نهر أم الربيع"

ويشق خنيفرة من الشمال إلى الجنوب ، نهر أم الربيع المحبوب ، وما أبهاك يا نهر أم الربيع ، وأجمل منظرك المنساب البديع ، أول نهر تذوقت ماءه النمير ، وأنا طفل غرِّير وعانقت تياره المنساب كالأفعوان ، وأنا في عنفوان ، وتارة لجته الصائلة كالأسد أو الثعبان ومرحت في جوانبه ، وتفسحت بين ضفافه ، وعلى مناكبه ، ومتى استوحشت بي البلاد فهي لي كما يقول ابن عباد :

سلام سلام أنتما الأنس كله — وإن غبتما "أم الربيع" هي الأنس*

تجهم وجه الأفق واعتلت النفس — لآن لم تلح للعين أنت ولا الشمس

فإن كان هذا منكما عن توافق — وضمكما أنس فيهنيكما الأنس

"منبع هذا النهر"

منبع هذا النهر الغزير عن يسار خنيفرة بنحو 45 كلم . وهو ذو منابع عديدة . يقال إنها أربعون . تتفجر هذه المنابع في منخفض من الأرض يميل إلى الجنوب ، وقد اكتنفها جبلان عظيمان ، وعلى الجبل جبل أشمخ ، وعلم أرسخ ، يدعى جبل الخدود تشبيها لحمرته بلون الخدود . وهو عبارة عن صخرة صماء حمراء ، ومن بين سفح هذين الجبلين المتقابلين تتدفق هذه المياه المتهاطلة والأمواج المتقاتلة المقدرة بأربعين يترو في الثانية ، ويعسر على أي كان أن يصل هوية المياه العاتية عند مصدرها من منابعها دهشا وفرقا من تلاطمها وتدافعها

---

*-"البيت من أبيات للمعتمد بن عباد . اصطبح يوم غيم مع "أم الربيع" واحتجب عن ندمائه فكتب له ابن عمار".

وهي ذات أنواع ، منها كالشلالات الصاخبة ، ومنها كالتيارات الجاذبة ، ويتكون من الجميع هدير وجدال ، ويشب بين الماء نفسه عراك وقتال ، ثم يطأطئ الجميع رأسه ، ويلقي إلى العنان انقياده ومراسه فيصبح وقد تكون منه نهر عظيم متين ، يجري بماء أصفى من عين الديك معين . غير أنه ما كاد يفارق منبعه ويبارح بيسير مضجعه ، حتى انقض عليه لسان من ماء مالح بوجه كاشح ، كاد يغير سحنته ومذاقه ، ويشوب بملوحته نواقه . إلا أن جيش أم الربيع كافره ، فاحتضنه في وسطه وغمره .

يجري هذا النهر في مآزق ومضايق وأخاديد ومزالق . فتسمع له هديرا ، وآونة ضوضاء ، وخريرا ، ثم إذا وصل منبسطا من الأرض سكن هيجانه ، وبرد غليانه ، حتى ليطمع فيه الغرير ، والصبي الصغير ، ولكنه نهر جبّار ، كم عليه للأنفس البريئة من ثأر .

يتجاوز الهري "معسكر عسكري" على 14 كلم شرقي جنوب خنيفرة . يتجاوزه بقليل فيصب فيه نهر "سرو". نهر سرو هذا ، منبعه بقبيلة بني مجليد في فرقة آيت إلياس على نحو 65 كلم شرقي أزرو ، في طريقك لميدلت ثم تافيلالت ، بعد جوازك على مركز "تمحضيت" التي تبعد عن أزرو ب 40 كلم . فإذا تجاوزت "تمحضيت" هذه ب 25 كلم ، وصلت إلى أعلى قمة الأطلس المتوسط بموضع يسمى فج "الزاد" ، جبل يعلو على سطح البحر ب 2178 مترا ، فعلى يمين هذه القمة ب 5 كلم ، يوجد منبع وادي سرو هذا . فيهبط بين جبال بني مجليد ثم جبال زيان تحت مركز كروشن شرقي خنيفرة بنحو 40 كلم، ثم ينحدر حتى يلتقي بنهر أم الربيع تحت زاوية الدلاء .

على هذا المنوال يجري هذا النهر من جبل حيان "أصل منبعه" فيمرّ على مدينة خنيفرة ، ثم يمرّ على قرية يقال لها "تامسكورت"، على نحو كلمترات من خنيفرة ، مدفن العلامة الكبير أبي عبد الله محمد بن ناصر المدعو الكبير ، ثم يسير حتى يسامت الزاوية الدلائية من أسفلها ، ثم يسير حتى يصل قصبة تادلة ، ثم يخرج لبسيط بني عمير ، ثم بسيط بني موسى ، ثم من بعد ، يصب فيه نهر وادي العبيد . وهو نهر تجدر من جبال آيت حديدو وحنصالة .

ثم يسير الجميع فيصب في سيدي علي معاشو مركز الكهرباء الكبير ، ثم يسير إلى أن يمر على ثغر أزمور فيندمج في المحيط ، ويصبح ، وقد قطع مسافة تقدر ب 400 كلم ، من أول منبعه إلى مرقده الأخير ومضجعه .

هذا النهر العظيم الذي قلنا إن قدر مائه في أصل منبعه يقدر ب 40.000 ليترو في الثانية ، دون ما صب فيه من الأودية ، يمرُّ ضائعا ، ولا يطعم بحبة ضعيفا ولا جائعا الخ....

الأنهر أو الأودية بهذا الأطلس

وما دمنا نتحدث عن نهر أم الربيع فمن المفيد أن نلم بأنهر هذا الأطلس ونسوق نتفا عنها ، فبعد نهر أم الربيع بتراب زيان :

نهر شبوكة أو وادي شبوكة

نهر شبوكة هذا منبعه بفرقة آيت بومزيل ، من قبيلة زيان ، بمحل يقال له إيريغ على نحو 35 كلم شرقي خنيفرة بين مدشرجنان أماس ، ومدشر بومززيل . يجري من هناك ، فيتصل بماء جنان أماس . ويسير إلى أن يسامت جبل عميرة بمحل يسمى شبوكة ، فيطلق عليه إسم نهر شبوكة ، على نحو 20 كلم شرقي خنيفرة ، ثم يسير حتى يلتقي بنهر سْرو ، فيسمى نهر سرو ، وينمحي إسم شبوكة ثم نهر سرو ينمحي نهر أم الربيع عندما يلتقيان كما قدمنا .

نهر سرو أو وادي سرو

ونهر سرو هذا منبعه بقبيلة بني مجليد في فرقة آيت إلياس على نحو 65 كلم شرقي أزرو في طريقك لميدلت ثم تافيلالت بعد جوازك مركز تيمحضيت ، التي تبعد عن أزرو ب 40 كلم . فإذا تجاوزت تيمحضيت هذه ب 25 كلم وصلت إلى أعلى قمة الأطلس المتوسط بموضع يسمى "فج الزاد" بالتضخيم ، جبل يعلو على سطح البحر ب 2178 مترو ، فعلى يمين هذه القمة ب 5 كلم يوجد منبع وادي سرو. فيهبط بين جبال بني مجليد، زيان تحت مركز كروشن ، شرقي خنيفرة بنحو 40 كلم ثم ينحدر حتى يلتقي بنهر أم الربيع ، تحت زاوية الدلاء "زاوية آيت إسحاق" .

نهر وادي العبيد ، شرقي خنيفرة على نحو 150 كلم . هو في الحقيقة وادي العبّاد، قرب المحل المعروف بتازكَراوت المحل الشهير الذي كان به الإستسلام الأخير سنة 1352 . وقد جاء هذا المحل بين الأطلسين المتوسط والكبير ، أو من خلال هذا المحل إنبثق نهر وادي العبيد فسار نحو الجنوب حتى صب في نهر أم الربيع . كما انبثق منه نهر ملوية ، فسار نحو الشمال حتى صب في البحر الأبيض المتوسط. وفي سفح جبل معسكر من الأطلس الكبير ، عين تسمى "تغلياست" في الطريق من تونفيت إلى قرية سيدي يحيى ويوسف بتراب آيت يحيى . يقول أهلها إن منها يبتدئ نهر وادي العبيد ، وتمر على أعين أخرى إلى أن تصل لمنبعه الحقيقي .

وأيا ما كان ، فإن الوادي صار له شأن وأي شأن ، فعليه أنشئ سد"بين الويدان" الشهير جنوب بني ملال على نحو 40 كلم منه ، وهو سد عظيم وجعلت له هندسة عجيبة إذ خرقت اليد الماهرة الجبل العظيم ، الذي تجتمع فيه تلك المياه المقدرة مساحتها ب 40 كلم ، و أصعد بها الجبل من خلف بالهندسة الماهرة ، حتى أطلت من أمام على سهول الأرض التادلية ومدت لها قنوات كبار ، فترى المياه العذبة الباردة ، المثلجة ، تنسكب من ذلك الجبل كبحار متدفقة ، إلا أنها عذبة صافية ، تمر على قبائل في مقدمتها بربرية ، ثم تادلية من بني موسى ، وبني عمير الآن ، ثم إلى بني مسكين، والشاوية ، ودكالة بعد ، وقد سارت هذه المياه تسقي بعض الحقول . ولكنها قليلة ، بالنسبة للماء الهابط من الجبل دائما وأبدا ،

شتاء ، وربيعا ،وصيفا ، وخريفا . أنت تراه هابطا يجرف ما يراه أمامه حتى يصب في نهر أم الربيع ، قرب سيدي عيسى من تراب بني موسى . وبودي لو وجدت من ينصح للحكومة بالإهتمام باستغلال هذه المياه الضائعة في مئات الآلاف من الهكاتر التي يمكن الإنتفاع بها من أراضي طيبة جيدة ، هي من أخصب أراضي تادلة وهي أراضي جماعية ، بين القبائل التادلية من ورديغة اهل وادي زم ، وبني أهل وادي زم ، وخريبكَة ، وبني زمور ، أهل أبي الجعد ، وبني معدان أهل بني ملال ، وبني عمير أهل الفقيه ابن صالح ، وبني موسى أهل دار ولد زيدوح ، وآيت الربع أهل قصبة تادلة ، وبني مسكين أهل البروج وما إلى هؤلاء . فهذه الأراضي كلها يمكن سقيها بماء "بين الويدان" وماء أم الربيع ، فيوزع منها ما يوزع ويفضل الكثير والكثير جدا، يستغله المخزن بدون أن يحتاج إلى توزيع أراضي مملوكة للغير ، مما يسمونه الإصلاح الزراعي المثير لسخط الكثير والكثير أيضا ومخالفة للشريعة المطهرة من اغتصاب الناس ما ملكوه شرعا ، فالدين الإسلامي يقول نبيه محمد صلى الله عليه وسلم "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ألا هل بلغت"(1) . وهي من آخر أقواله يوم حجة وداعه الذي أنزل عليه فيه "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"(2) . ولنقف عند هذا الحد الآن في الإنتفاع بماء وادي العبيد ، ونلفت نظرة أخرى إلى نهر.

وادي ملوية

نهر ملوية أو وادي ملوية هو من الأودية العظام أيضا بهذا الأطلس ، ومنبعه من عين تسمى "عين سيت" في الأطلس الكبير ببلاد آيت يحيى ، مركز تونفيت ، في سفح جبل يسمى "توجيط" ، جنوبا من مركز تونفيت . هذا مبدأ منابعه ، فيهبط ماؤها نحو الشمال ويتلقى بعيون أخرى تتكون منها أودية صغار ، منها وادي "تاوالت" فوادي "إنزكمير"، الكل في دائرة ميدلت ، فيهبط الجميع قاصدا الشمال ، من تحت مدينة ميدلت على نحو 50 كلم منها ، وهنا يظهر تضخمه ثم يقصد الاقصابي شمال ميدلت ثم مركز ميسور ، على 80 كلم من ميدلت ، ثم مركز "أوطاط الحاج" ، ومنه يدخل تراب المغرب الشرقي ، فيصل إلى مدينة كَرسيف ، حيث تطل عليه جبال رشيدة ، مقر الأديب الشهير القاضي الشاعر أبو العباس أحمد الحبيب اليعقوبي .

هذا النهر عظيم جدا لا يقل عن عظمة نهر أم الربيع ، ويستغل من أوائل منبعه في قبائل بربرية من دائرة ميدلت كآيت يحيى ، وآيت عياش ، وآيت يزدك ، وشرفاء الأقصابي ، ثم عرب ميسور ، وأوطاط الحاج ، وكرسيف . وهنا يتسع استغلاله في المغرب الشرقي ، في

1- أخرجه الترميذي في أبواب البر وأهله .

2- سورة المائدة : 3.

دائرة كرسيف ـ تاوريرت ، حيث يمر على قبائلها حيث يلتقي بنهر وادي زا المنبثق من مركز بركم ، جنوب وجدة ب 60 كلم ، ويخرق جبل تاوريرت ، وبلاد أولاد عمرو ، واولاد احميد ، وبني كولال ، ويمرشاقا مدينة تاوريرت ، فمركز كامبرطو ، ويصل مركز كامبرطو ثم يسير ، فيصب في مركز بركان ، ثم البحر الأبيض المتوسط. والمخزن شارع في اتخاذ سدود عليه بمشرع قليلة حمادي ، ومشرع قليلة وغيرهما.

القناطر والآثار على نهر أم الربيع

على هذا النهر مما نعلمه، قناطر ثلاثة قديمة مخزنية . أولها بمحل يسمى البرج قبل مدينة خنيفرة بنحو 8 كلم في طريقك من مكناس . وهذا البرج هو عبارة الآن عن أطلال ، من برج كان متخذا كحراسة على هذه القنطرة . وهو في مضيق مطل عليها ، بحيث لا يمر أي أحد إلا كان بمرأى ومسمع من البرج ، ومحتل البرج ، وهو والقنطرة من الآثار الإسماعلية ، لذلك أن السلطان المولى إسماعيل (1) لما دوخ هذا الأطلس واستتب به الأمن ، رأى من الحكمة بناء هذه القنطرة على نهر أم الربيع ، هذا ليسهل طريق المواصلات على الأطلسيين أيام انتجاعهم الشتائي من الجبل لأزغار، ورأى أن تكون بالجبل حراسة لا يمر بها ألا من كان عنده جواز معنوي وهو الردوخ للمخزن ، ومن لا فلا يمكنه التعيش بالأراضي الجبلية المثلجة حيث تضيق المعيشة ، على الأنعام بالخصوص .

وبقصبة تادلة قنطرة أخرى مخزنية ، كان الناس يذكرون أنها من بناء المولى إسماعيل والصواب أنها من بناء السيدة أم الملك أبي العباس أحمد المنصور السعدي اللهم إلا أن يكون المولى إسماعيل أدخل عليها بعض الإصلاح وهو"غيربعيد".

وهناك قنطرة ثالثة عليها ، وهي التي في مدينة خنيفرة ، وهي والمسجد الكبير بها من الآثار الحسنية ، ذلك أن المولى الحسن لما وجه المحلّة المذكورة لزيان ، وجعلت معسكرها بخنيفرة ، رأى قوادها أنه لابد من قنطرة راسية تصل ما بينهم وبين قصبة محمد وحمو ، و من مسجد لأداء صلاة جمعاتهم وجمعهم ، فكتبوا بذلك للكهم المذكور، فوجه مالا للمهمتين وهي والمسجد هندستهما من تخطيط الوالد رحمه الله .

وقد مرت على هذه القناطر السنون والأعوام بل المآت منها وهي كما هي لم تتأثر بالأيدي الهادمة ، والتخريب الذي يعم أيام الفتن القاتمة . وكأنها قطعة حجر من أرض لا

---

1 – هو: إسماعيل بن الشريف من سلاطين الدولة العلوية بالمغرب الأقصى . بويع بمكناس عام 1082 هـ 1672م بعد وفاة أخيه مولاي رشيد . قضى على الفتن الداخلية وثورات الأمراء العلويين وحرر بعض الثغور (طنجة ، المهدية ، العرائش ، أصيلا) وامتد نفوذه إلى تخوم السودان الغربي ، وما وراء النيجر وتلمسان . توفي سنة 1139هـ 1727م . أنظر ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ دار الرشاد الحديثة ، 1985 ، ج3 ، ص 32-46 .

تعرف الهدم ولا النقص ، ولا تخضعها المياه وأمواجها ، وإن سدت أقواسها وأبراجها . وقد يغلط البعض ، فيذكر أن هذه القناطر من الآثار الرومانية أو البرتغالية . وقد نشرت صحيفة السعادة مقالا حوالي 1930 لبعض اللبنانيين ، تجولوا في هذا الأطلس وأوا مدينة خنيفرة وتحدثوا عن هذه القنطرة فذكروا أنها من آثار البرتغال وهو غلط ، وجهل بالتاريخ ، فالبرتغال لم يتجاوز الشواطئ ومرة توجه لناحية مراكش فانهزم ورجع لشواطئ الجديدة وأزمور (1).

وقد رددت على الكاتب بمثل هذا ، وبينت له أن هذه القنطرة من الآثار الحسنية، أسست حوالي 1278هـ ، ونشرت الرد السعادة أيضا . وقد بنى السلطان محمد الحاج الدلائي على أم الربيع قناطر ثلاثة ذكرها الحوات في البذور الضاوية 276 ولم يبينها . وأظن أن إحداها هي التي بمحل يسمى "خلاضة" قرب الزاوية الدلائية . وهناك أخرى تسمى "تاحيزونت" بالبربرية ومعناها العرجاء ، وهي أيضا بقرب الزاوية الدلائية ، وذكر الحوات أن سيدي أبي بكر بنى قنطرة "أمسدل" ، وقنطرة "مزض إلفان" ، أي مطحنة الخنازير . كل هذه على وادي أم الربيع ، ولكنها في غير الطريق الرئيسية بين مراكش وفاس ، بل هي في طريق ثانوية ، تخرج بالمنتجعين من الأراضي الجبلية الأزاغيرية . فلذلك لا تعرف إلا عند الأهالي .

1298 هـ

الجبال الزيانية أو الأطلسية

الكلام عن الجبال الأطلسية المتوسطة والكبيرة فيها طويل وطويل جدا . ولكن نلم بشيء من أحاديثها . في إحصاء رسمي نشر بصحيفة آخر ساعة تاريخ 19 صفر 1383 يوافق 12 يوليوز 1963 قالت : الجبال في المغرب أربع سلسلات جبلية ، الريف وأرفع قمة تبلغ 2456م . والأطلس المتوسط وأرفع قمة فيه 3190م ، والأطلس الكبير وأرفع قمة فيه 4165م ، وهو خزان الماء ، والأطلس الصغير . ويلاحظ عليه أن الذي أعرفه وشاهدته في الجبل المتوسط أن أعلى قمة فيه هي المحل المسمى فج الزاد حيث تشرف على بسيط ملوية بين آزرو وميدلت علوه ، وأعلى قمة في الأطلس الكبير العياشي وفي المحل المسمى توبقال 4165م .

وخنيفرة هي الحد الوسط بين الأراضي الجبلية عند الزيانيين وبين الأراضي الأزغارية ، أو الحد الفاصل لانتجاعاتهم الشتائية والصيفية . فمن خنيفرة شرقا، الأراضي الجبلية ، وهي منتجعاتهم الصيفية . ومنها غروبا الأراضي الأزغارية ، وهي منتجعاتهم الشتائية . وأريد أن أتحدث عن الأراضي الجبلية لأنها أخصب مرعى وأعم نفعا ، وطرق الجميع يستدعي طولا ، تأخذ من هذه المحاضرة فصولا .

1- كان ذلك سنة 1514 عندما أمر الملك البرتغالي عمانويل-بعد فشله في استمالة الأمير الهنتاتي مولاي الناصر أبو علي-القوات البرتغالية المرابطة في أسفي وأزمور بمحاصرة مراكش . أنظر د. عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد السعديين ، الرباط 1978 ، ص 43 .

تاريخ تشييد القنطرة ليس 1278هـ بل 1298 هـ لأن الحسن الأول قد تولى الحكم سنة 1290 هـ

بعد الجبال المحيطة بخنيفرة ، سلسلة جبال وفقرات وتلال ، جبل يدعى أروكَو ، قبلة من خنيفرة بنحو 10 كلم . هذا الجبل كله عيون متدفقة تنبعث من خلاله في عذوبة ، وبرودة ، لا يكاد الضمئان يتم بها من شربته المثلجة . وبه مدشر يسكنه شرفاء علويون ومرابطون ومنه أخذ السلطان المولى رسماعيل إمامه أبا الحسن علي وإبراهيم ، جد المؤرخ الأكبر أبي القاسم الزياني (1) مدرسة قرآنية وعلمية وأخيرا صارت قرآنية . إلى تاريخ الاحتلال ، لم ينقطع عنها الطلبة المسافرون . وسنتحدث عنها في القسم العلمي لهذا التاريخ .

ويتكون من هذه العيون ، نهر صغير تسقى به بعض محصولات القبائل المحيطة به و المنحدرة تحته ، وعن يمين المستقبل منه جبل آخر يدعى عميرة . وهو أقل ماء من الأول ، به ربوة تدعى"الكَارة" هي القلعة البربرية التي تسمى "قلعة فازاز" . وكان المتولى بها مهدي بن تولي اليحفوشي الزناتي . وهذه القلعة هي التي حاصرها يوسف بن تاشفين (2) مدة تسع سنين ، ولم تخضع لسلطنته ، ولا رضخت لسلطته ، وما خضعت إلا صلحا بعد اللتى واللتيا سنة 465 .

وعهدي بأطلال هذه القلعة قائمة إلى حدود سنة 1328 ، قبل مغادرتنا زيان . وجبل عميرة هذا مطل على بسيط يسمى أدخسان وبه القصبة الإسماعلية العظيمة التي كان لها شأن في استتباب الأمن لهذا الأطلس أيام المولى إسماعيل ومن بعده .

وأول من أسس هذه القصبة هو يوسف بن تاشفين ، أيام حصاره قلعة فازاز . ولكن جددها السلطان إسماعيل سنة 1099 . ثم ألحق بها السلطان المولى الحسن حامية أخرى بعد الأولى التي أنزل بمعسكر خنيفرة ، ولم تزل باقية بها إلى الاحتلال الفرنسي سنة 1332هـ-1914م . وهذه القصبة ، وما اتصل بها من مياه عذبة ونظرة جذابة في بسيط منفسح ، وغالب

---

1 – هو أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم من قبيلة زيان ، ولد بفاس سنة 1147هـ-1734م . بعد حفظه لكتاب الله ، اشتغل بطلب العلم ، وأخذ على شيوخ المدينة ، وبوجه خاص على أبي حفص عمر الفاسي المتوفى سنة 1188 ، أشهر فقهاء فاس آنذاك . قام برحلة إلى الشرق العربي (1169هـ-1755م) ، أدى [illegible]اسك الحج مع والديه ، ثم التحق بخدمة المخزن (كاتبا وسفيرا ووزيرا) تحت حكم السلطانيين سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) ومولاي سليمان (1792-1822) . ورغم هذه المهام الإدارية الكثيرة وتقلبه في المناصب العديدة ، اعتكف أبو القاسم على التأليف ، وترك لنا عددا لا يستهان به من المؤلفات ، جلها في التاريخ والجغرافية . وأهمها "الترجمان المعرب عن دول الشرق والمغرب" ، و"البستان الظريف في دولة أولاد علي الشريف" و"الترجمانة الكبرى" . توفي أبو القاسم يوم الأحد 4 رجب 1241-17 نونبر 1833 بفاس عن سن تناهز مائة سنة . نفسه ، ص 102.

2 – يوسف بن تاشفين بن ابراهيم المصالي الصنهاجي اللمتوني ، أكبر سلاطين المرابطين بالمغرب ، وأول من دعي بأمير المسلمين ، امتد نفوذه إلى الأندلس بالإضافة إلى المغرب الأقصى والمغرب الأوسط . من أعماله الشهيرة بناء مدينة مراكش ، توفي عام 500هـ 1106م ، ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 365 .

مياهها تستغل . كان يستغله الجند الحسني الملازم به، وقائدا فيلقه الأول القائد الحبيب ، ثم أخوه القائد التهامي . وكان يصلح به البرتقال والتين والتفاح ، وما إلى ذلك كالذرة بجميع أنواعها . وشرقا من أروكو جبال بسفحها مداشر كمدشر آسول ، ومدشر جنان أماس ، وكلها عيون عذبة مثلجة لأقصى حد ، وخصوصا الأخير ، وهو مدشر له تاريخ . يذكر متفيقهة البرابر ، أنه كانت به حركة علمية كبيرة ، وأن أمّاس هذه إسم امرأة عالمة ، تحفظ كثيرا - قالوا حتى المدونة ، وأظنه من الأساطير - لكن الذي لا شك فيه أن هناك كانت حركة علمية أوائل القرن الثاني عشر بهذا المدشر ، أو بقريب منه المسمى بوسادر ، فقد وجدنا من العلماء المؤلفين في القراءات ، علامة جليلا يسمى أبا محمد عبد السلام بن محمد التازناقتي المضغري . كان علامة أخذ عن سيدي إدريس المنجرة ، وسيدي مسعود جموع ، وله تآليف في القراءات ، ألفها في شوال 1131 ، بالمحل المسمى بوسادرآيت سعديان وهم آيت عمو عيسى، أصحاب هذه البلاد. وسنوافي القراء بترجمته وما إليه في القسم العلمي من هذا التاريخ .

وجنان أمّاس مركب من لفظتين عربية وبربرية ، الأولى عربية والثانية بربرية، معناها الوسط ، وكذا فسرت الكلمة عند إلقائي المحاضرة . ولاحظ المستعمر روكس (1) الذي كان يرى أن لا أصل للعربية في هذا الأطلس قائلا : "الكلمة كلها بربرية لأنها "جن ألماس" ، جن بمعنى نم ، وألماس بمعنى وسطه ، أي نم وسطه . فرددت عليه بالمثل المشهور "أهل مكة أدرى بشعابها" ، أنا أدرى لأن نشأتي زيانية ، وعشت معها ، وعرفتها وكيفية النطق بها الخ ...

وجنان أماس هذا ، وكل الجبال المحيطة به تنفجر منه عيون تشق الأرض شقا ، كأنها سبائك الفضة . ويتخلله الهواء الطيب البارد صيفا ، ويصفق فيه النسيم الذي يطيح بلفح الحر أيام الصيف . ولا أدل على ذلك إلا أن بعض ذوي السلطات الفرنسية ، أصحاب معسكر خنيفرة ، قد يختارون الإصطياف به ، من رحلتهم لفرنسا وطنهم الغالي وباريزهم العزيز .

وهكذا كل هذه الجبال الأطلسية الزيانية وغيرها مما لا نطيل بذكره . ومياه هذه العيون ، غالبها يستغل ولكنه استغلالا بسيطا ، كثيره في الذرة خريفا وبعض الخضر وإذا كان بعض جفاف ، يستغل في حبوب القمح والشعير ولكنه بقلة *.

وكل هذه الجبال أيام الشتاء ترى عليها تيجان الثلوج ، ولا يمكن للحال بها دخول

---

1 - Arsène Roux ، أحد المتمزغين الفرنسيين (Bérbérisant) الذين درسوا ودونوا القصيدة الأمازيغية إبان المقاومة المسلحة ، أنظر محمد شفيق ، الشعر الأمازيغي والمقاومة المسلحة في الأطلس المتوسط وشرقي الأطلس الكبير (1912-1934)، مجلة أكاديمية المملكة المغربية ، عدد 4، نونبر 1987 ، ص 73 .

*- "وفي هذه السنين الأخيرة قد جرب البعض إستغلال الفواكه كالتفاح والإجاص والبرقوق والمشمش وأشباهها . فجاءت شيئا عجيبا كبرا وحلاوة . فقد يوزن في الإجاصة والتفاحة نصف كيلو". اهـ مولفه .

ولا خروج . وقد وصف جبال الأطلس وصفا جميلا وأجاد في علوة وبياض ثلوجه الأديب إبن عمنا محمد بن أبي عسرية المنصوري ، أحد كتاب السلطان مولاي سليمان ، في رحلته معه سنة 1210 . فقال عند نزولهم تحت الأطلس في طريقهم من مراكش لمكناس قال :

" أمامها بانت جبال الدير . شاهقات متصلات الوعـرة
ترى بياض الثلج فوق رأسها ينور وقت صبحها وأمسها .
لأنـــه كشقـــة القصـــــار نشـرها على سطوح الدار
ضاع لها السلوم والدروج قد هدمت فامـتنع العـــروج
سبحان من خلقها كذلك عـزا لكـل خاذف مـن مالـــك
فيها قبائل كثيرة العدد من البرابـر وقـــــوم لا تعــــد
فكم مضى مع الملوك غمرات لأهلها ، وكم مضى من حسرات
فمضـــــت المـــــلوك والجـــبال باقـــية وما لهـــا زوال
حتـى إذا ما جـــاء وعد ربـي جعلها دكا وذاك حســـــبي".

ومن أطرف ذلك قول العلامة سيدي محمد بن العربي الأدوزي السوسي، قال من رحلة رحلها من سوس إلى مراكش عبر الجبال الأطلسية ابان ثلج :

والثلج لاح لعيون مـــــن درن كأنه الزنجي شـاب وأســـان
يحسـبه الجاهـل ما لم يعلما شيخا على كرسـيه تعـــمما

الغابات

وكل هذه الجبال ذات غابات ملتفة ، وتشد من أروكو وأسول وجنان أماس وتبتدئ منه غابات الأرز الجميلة منه إلى بومزيل ، ثم تمتد جنوبا ويسارا إلى تراب بني مجليد، مركز عين اللوح وأزرو ، شرقا بزيان ويترز شرقا وإلى جبال ايت يحيى بمركز تونفيت . وبها أنواع أخرى من الأشجار غير الأرز كالعرعار، والسنديان وشجر البلوط وغيرها .

وهذا الأرز عظيم جدا قد يستخرج من الواحدة عدة أحمال . وقد أخبرني من يستغله تجارة من غاباته ، أن الأرزة الواحدة يستخرج منها 90 حملا . وكان بمدينة خنيفرة به قبل الحماية روجان لإصداره إلى مدن أبي الجعد ، والدار البيضاء ، ومراكش خصوصا . وكان يصل إلى هذه المدينة بسهولة ، وفي أقرب مدة بالنسبة لسفر البهائم ، فقد كانوا يعمدون إلى الأحمال التي يراد وسقها لمراكش ، فيربطون بعضها بحبال ، ويلقونها في نهر أم الربيع ، ويركبها راكب ، أو يرقبها من ضفتها . فلا يزال يقذف بها الوادي وهو يسايرها ... حتى تصل إلى مشرع بن عبو ، من بلاد الرحامنة ، قريبا من مراكش ، فتخرج عند ذاك من الوادي وتحمل على البهائم إلى مراكش .

والأرز بهذه الجبال رفيع جميل، مرتفع الأعنة، برؤوسه الحواد كأنها الحراب والأسنة .

في جبال ذات شمم وإباء معتزة بعظمتها كأنها الزباء ، عيونها دائمة التسكاب ، ولاتزال على رؤوسها تيجان السحاب ، وهي لأهلها جنات عذاب ، لكنها لغيرهم من الصحراويين عناء وعذاب . وتذكرني فيما أنشدنيه صديقنا علامة سوس ، وشاعرها أبو عبد الله محمد ابن أحمد المنوزي ، وقد جرت بيني وبينه مذاكرة ، في الموضوع ، وهو ضيف عندي بوادي زم ، في صفر الخير 1355 ، فقال :

أرض بها حرب الرياح الأربع — وجبالها صيفا ذوات البرقع

أما الشتاء فإنها كجهنم — عنها ارتحل إن كنت ممن يعي

فشطرتها بقولي :

أرض بها حرب الرياح الأربع — والرعد يقصف في السماء كمدفع

والبرق يخطف كالحرا ب اللمع — وجبالها صيفا ذوات البرقع

أما الشتاء فإنها كجهنم" — وجليدها كالزمهرير المفجع

ليست لغير أناسها بمخيم — عنها ارتحل إن كنت ممن يعي

ثم ذيلها بقوله :

لولا الزياني أحمد الحبر الذي — قد قام مثل غضنفر متمنع

لقضت علي بخيلها وبرجلها — فالفضل أجمعه لهذا الألمعي

وزيادة على الأرز الجميل الذي هو بكل سروركفيل ، توجد أشجارمختلفة الألوان والأشكال . لأول مرة في حياتي ، رأيت مدينة جميلة في وسط غابة من الأرز ، جلبت مني أعظم السرور ، وأثارت بكامل الشعور . وتلك هي مدينة إفران ، المصطاف المستحدث بعد الحماية . فقد استدعاني شقيق الروح العلامة سيدي بن زيدان بتاريخ 20 شعبان 1360 يوافق 1941م ، للإصطياف معه بالحاجب . فنزلت أولا بهذه المدينة الجميلة وكلّمته بالهاتف منها بقطعة لشعر في المدينة المذكورة مباسطة ، ثم واصلت السير للحاجب ، فقضيت بضعة أيام معه ، ثم رجعت من الحاجب إلى إفران ، وأمعنت النظر فيها ، وفي غاباتها، وكان ذلك بأثر بناء القصر العامر الملكي من جلالة الملك المحبوب ، سيدي محمد بن يوسف أعزه الله .
وقد جلست عشية بمقهى تجاه القصر، فجرى على لساني هذا الشعر ارتجالا :

لله في كل الأمور مظاهر — ما أعظم الربَّ العظيمَ الشان

بينا الأمور مجاهلٌ مكتومة — فإذا لها في الكون أعظم شان

فانظر عجائب صُنْعه في غابة — كانت مسارح شاة أو غزلان

نظر الإلاه لها بعين عناية — فقضى لها بالأُنْس والعمران

وأتاحت الأقدارُ خيرَ عمِارة — فأضاءَتْ الأرْجاء من إفران

فتبأرّجت غاباته وتفتحت — أكمامها بالنور من أغصان

وشدت به الأطيار حسْن ترنُّم — وشذى بها أرِجٌ بكل مكان

وتعممت أفنانه بثلوجه البيضاء ثم تلوح كالتيجان

وتمايلت أرزاتُه تيها على قمم الجبال الشم كالكثبان

كتمايل الغَيْداء في أفراحها تشدو بَطار أطيبِ الألحان

في رقصة الحَيْدوس من نشَّادها مازيغها ومطيرها "وزيان"

ماست كما ماس القضيب مع النسيم يفوح في الأرْدان كالريحان .

في روضة من حسنها في وردة من خدها في لحظها الفتان

في بسمة من ثغرها في لذغة من شعرها المسبول كالثُّعبان

وتزينت وديانه وجباله بمليكنا المحبوب فرد زمان

يا حبذا عصر بدت آياته في القصر وهو الشامخ الأركان

ما شئت من ظرف ومن نقش ومن صنع بديع الشكل في إتقان

قد أبدعت فيه الصنائعُ حسنَها وزهتْ به الأنقاش من فنان

حتى إذا أنهى المليك رغائبا فيه من الإبداع والإتقان

ساق النفائس من وثائر جمّة وأسرّة قد زُخْرفت بجمان

فأهنأ أمير المؤمنين بمستوى طال السّماك وجلَّ عن كيوان

وتبوّأنْه مهنأً بسلامة وممتَّعا بالأهل والولدان

فيهم "ولي العهد" ثم شقيقه تاجا الإمارة في سما العرفان

[كما] توجد (اي في إفران) أشجار أخرى كالعرعار والساج وهي "تاقا" بالبربرية والبلوط والسنديان والطرفاء والخرنوب والبطم ، والزبوج وغيرها كثير ، ولا ينتفع بشيء غالبا بعد الأرز إلا في آلة الحرث والوقود ، ورعي الماشية أيام الضيق والجذب . وقد كانت النار، ويد البشر يعملان في تخريب الغابة جهد المستطاع أيام الحصار ، الذي ضرب على زيان عند الاحتلال من 1329 إلى 1350حيث أجفلت القبائل إلى رؤوس الجبال ، ولم يبق لهم منتجع لأزاغار . فضاقت بهم الأرض الفلاحية كالمرعى أيضا . فكان إذا هاجم الشتاء والثلج ، لا يستطيع بهائمهم الحركة ولا الخروج . فيعمدون إلى الأفنان الصغيرة من الأشجار، فيقطعونها لماشيتهم وبهائهم على حد قول الشاعر :

ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوَّح نبتُها رُعي الهشيم

ثم في الصيف يأتون إلى بقعة من الأرض ، فيقطعون جميع أشجارها صغارها وكبيرها ، فيتركونها حتى تجف وتيبس ، فتضرم فيها النيران ، فتصبح تلك البقعة التي كانت أشجارا باسقة وأفانين متعانقة ، بلاقع من جحيم ، وأكداسا من رماد الحميم . ثم يعمدون إلى تلك البقعة المحروقة فيحرثونها بذلك الرماد ، يزعمون أنه لها كالسماد فتغل كثيرا . وفي الحقيقة أنهم انتفعوا بالغابة أيام عنتهم وطوال محنتهم . نعم لو طال الأمر لأصبحت الغابة في خبر كان .

تربة الأرض

وهذه الأراضي كلها الجبلية أو الأزاغارية صالحة غاية للإزدراع ، بل غاية في الحبوب شعيرا وقمحا وذرة ، وقمحها جيد رزين ، وذو دقيق كثير . يشبه القمح الرطب "فرينة" . وتنتج الأرض الجبلية مرتين في السنة ، تحرث شعيرا فيحصد ، ثم بعد حصاده تحرث ذرة . وهذه الذرة لا تصلح إلا سقوية "بخلاف ذرة السواحل ، فإنها "بورية" .ثم هذه الأراضي أيضا كسيبة ، تصلح بها الماشية جدا ، كالغنم والمعز بكثرة ، والبقر أيضا . وبهذه الأسباب التي هي كفيلة بالغنى ، كان عهدي بالأطلسيين أغنياء جدا ، لأن طبيعة الأرض مساعدة لهم على كل شيء .

عهدي بالزيانيين قبل الحماية بأنهم يكسبون الأنعام كثيرا . وقد يكسب الواحد عشرين ألف رأس ، ما بين غنم ومعز وخاصة عائلة إمحزان ، أسرة محمد وحمو . وكان بعض أهل تادلة يقاربون هذه الأسرة . كما يذكر عن القائد عبد الله بن جابر العميري . فهذا كان لا يعرف مقدار ما عنده من غنم . وهذا الشيء الذي أعرفه إلى حدود سنة 1330 قبل الحماية ، قل بكثير في هذه السنين . وقد نقص الكسب بكثير، مما كان عليه قبل الحماية ، وفي وسط القرن التاسع عشر .

ولا أدل على ذلك مما ذكره شارل لامارتينز في كتابه "مسألة المغرب". فقد ذكر أن عدد رؤوس الغنم فقط بلغ في سنة 1859 ثمانية وأربعين مليونا . في حين نجد الإحصاء الرسمي لسنة 1963 يقدر بخمس وعشرين مليونا "أي نصف ذلك" من جميع المواشي ، توزع على الشكل الآتي : الضأن اثنا عشر مليونا ، الدواب لعله المعزي ستة ملايين ، البقر ثلاثة ملايين ، الحمير مليون ، الخيل مئتان وستون ألف ، البغال مئتان وأربعون ألف ، الجمال مئتان وخمسة وثلاثون ألفا ، الخنازير سبع وأربعون ألفاالخ... (من صحيفة آخر ساعة ، 19 صفر 1363 ، ويوليوز 42 .

أما زيان فيستخدمون البقر في فلاحتهم ورحيلهم . ولا تكسب الإبل إلا زينة وتفاخرا . فهي لا تعمل عندهم شيئا ، وأكثر اكتسابهم واستعمالهم للبغال . أما الخيل فهي موجودة بكثرة وقل من لا يكسبها إلا الضعاف منهم ، وهي أكثر من الإبل ، وخيلهم جيدة ، وشديدة الجري والسباق والتحفز والوثوب ، قادرة على تسلق الجبال ، إلا أنها لا تعظم ولا تسمن كخيل السهول والحوز .

المعادن لهذه الجبال الأطلسية

وجبال الأطلس لا تخلو من معادن ، ففي جنوب خنيفرة على نحو 6 كلم جبل الحديد ، وبالبربرية بوزّال ، وقد نقبت عليه السلطة الفرنسية ، واستفادت من تحليلاتها ، أنه ذو ثروة عظيمة، بل من أغنى المعادن المغربية ، إلا أن استخراج كبريته وغلته يستدعي نفقات باهضة ، إذ تستدعي استيراد أضخم الآلات ، وآخر ما انفصل عليه رأيها في مذاكرتي سنة 1930 وسنة 1932 أنها ترجيء العمل فيه لوقت آخر . كما يوجد معدن عوام على نحو 40 كلم من

خنيفرة غروبا من مركز مريرت في الطريق لمكناس ، وهو من المعادن العظيمة ويستغل الآن جيدا . ويذكر المؤرخون أن مركزه كان يسمى قصر المعدن ، وكانت له شهرة أيام أبي الحسن المريني الذي كان له به اعتناء زائد ، ويذكرون أنه كان يضرب به السكة "العملة".

زار الأخ القاضي العلامة سيدي محمد النتيفي (قديما هذا المركز ، فكتب لي من ذلك وصفا لابأس بإيراده . قال مريرت 25 حجة 1351 ، 16 أبريل 1933 "أسطره إليكم بعد رجوعنا من زيارة قصر المعدن لأبي الحسن المريني ، الذي يبعد عن "مريرت" بنحو 7 كلم . فقد زرناه صباح البارحة ، وخيمنا فوق جبل عوام . فكنا نرى الأرض منه كطائر حلق في قبة فوق السماء . فتجاذبنا فوقه أطراف الحديث ، واستوردنا من ألطف الروايات ، كل قديم وحديث . بعدما تسلقنا على الصخور وتعجبنا من أشراق أحجارها ، ككريم منها في قلائد النحور ، ثم نزلنا لزيارة المعدن ، فدخلنا لأحد كهوفه المدهشة ، فلم نر فيها إلا الظلمة ، فتحولنا بعد لزيارة كهف الخدمة ، ومصدر الثروة والنعمة ، ولكن المكلف الطلياني المافون . منعنا من الدخول لرؤية الكنز المدفون ، خشية افتضاح السر المكنون . فوقفنا نرقب ما وراء الباب ، فرأينا جدولا من ماء خارجا من داخل الأعتاب . وقد ذكر لنا التاريخ أن السلطان أبا الحسن المريني هو الذي أنبعه . ولكن خوف تعطيل الأشغال سد منبعه ، كما ذكر أن المعدن لذهب وفضة، وإثمد تستخرج خالصة ، فتنقل لتضرب في القصر . وكانت عدة آلات للضرب ، حيرت دول الشرق والغرب. ورأينا بباب الغار عدة كدى من الأحجار ، تكاد تخطف الأبصار ، ولما سألنا المكلف الطلياني ، أي المعادن فيها باختتصاص ، أجاب في شيء من التكتم بأنه الرصاص . ثم ذهبنا لزيارة إغرم أوسّار، الذي جاء عليه البلا وسار ، ولم يبق إلا بعض أطلال وأنقاض، لم يأت عليها الإنقراض . طوله نحو كيلومتر ، وعرضه نحو 300 متر ، وحوله مقبرة هيجت المشاعر ، وأيقظت عبرة الناثر والشاعر ، لم تخلقها يد البلا، ذكرتنا في قول أبي العلا :

صاح هذه قبورنا تملأ الرحب	فأين القبور من عهد عاد
خفِّف الوطءَ ما أظن أديم	الأرض إلا من هذه الأجساد

ويتحدث المؤرخون عن معدن عوام من القرن السادس . فذكره ابن الزيات، صاحب التشوف حين ترجم لأبي صالح عبد الحليم بن هارون بن سعيد الهسكوري من أهل تجنيت من أهل تادلا . صاحب التشوف حين ترجم لأبي صالح ، فذكر أنه كان مرة قرب معدن عوام . قال صاحب التشوف : "حدثني عبد الله بن موسى ين يحيى بن بطان الرفروفي قال: سمعت أبا صالح يقول : أتاني آت في الثلث الأخير من الليل ، وأنا ببلد رفروفة فقال لي قم ، فمشيت معه إلى أن وصلنا وادي وانسيفن فتوضأنا منه ومشيت معه إلى أن طلع الفجر، فصلينا صلاة الصبح ثم غاب عني فإذا أنا قريب من معدن عوام فمشيت إلى المعدن فوجدت الرفاق

مجتمعة، فقالوا إلي وقالوا لي : يا أبا صالح لنا ثلاثة أيام ننتظرك ، فقلت لهم : قد جئتكم مكرها، غير طائع فتقدمتهم حتى أوصلتهم المأمن الخ... توفي أبو صالح ببلاد تادلة سنة 593 هـ .

كما يحدثنا التاريخ على أن عمارة ، كانت هناك أيام ازدهار المملكة المغربية أيام يعقوب المنصور الموحدي ، يدل لذلك الاختيار الذي كان يقع على القضاة الذين يتولون منصب القضاء الشرعي بذلك المركز أو "المدينة فنجد من قضاتها الأعلام محمد بن عبد الرحمان بن محمد الرعيني السرقسطي ، أبو عبد الله الملقب بالركن. وكان فقيها متحققا بعلم الكلام ، متقدما فيه يناظر عليه ، في الارشاد لأبي المعالي وغيره . قاله في التكملة . قال ولي قضاء معدن عوام بمقربة من مدينة فاس أخذ عنه أبو الحسن بن خروف ، وأبو سليمان بن حوط الله لقيه بمالقة سنة 587 . قال وتوفي على ما ذكر لي سنة 598 .

وانتخاب هذا القاضي العلامة الأندلسي السرقسطي من عاصمة سرقسطة من وراء البحار لهذا الجبل الزياني لدليل على ما لهذا القصر أو المدينة من الأهمية أو العمارة العظيمة آنذاك . كما يدلنا على الديانة الإسلامية في هذه العناصر البرابرية وتمركز الشرع الإسلامي فيها من قديم . ولنا عودة للموضوع عند تحدثنا على الديانة الإسلامية في هذه الديار الأطلسية إن شاء الله .

وقد ذكرنا مواضع للمعادن من بلاد زيان مما كان يشير به طلبة البرابر ويشيعونه ذهبا وفضة ويواقيت . ولكن الظن أن ذلك من الأساطير لأن الوجدان وعدمه هو دليل الوجود وتحقيقه أو تكذيبه . فرأينا من التطويل بلا فائدة سرد كل ذلك وتسطيره هنا . ولعل من الأفيد أن نذكر بعض الإحصاءات لإنتاج المعادن سنة 1952 حسب تقرير بعض الفرنسيين . وهو ما جاء في مجلة "فرانس دوتمير" البارسية . فقد قالت ، بلغ إنتاج المعادن في المغرب خلال سنة 1952 الأرقام الآتية :

الفحم الحجري	460.000 طنا
الفوسفاط	9.953.000 طنا
البترول	0.101.000 طنا
الحديد	0.850.000 طنا
المنغنز الحديدي	0.012.000 طنا
المنغنز المعدني	0.0383.000 طنا
الخفيف	0.0115.000 طنا
الزنك	0.0051.000 طنا
الانتموان "الكحل"	0.0001.490 طنا
الكوبالت	0.0009.136 طنا

وصف هؤلاء البرابر

وأخلاق هؤلاء البرابر ، شجاعة وإقدام ، وجود واكرام ، واحتفاء بالضيف وإنعام يمتدحون بالكرم والجود لا بآباء وجدود ، ويفتخرون بالشجاعة والاقدام لا بالمحابر والأقلام .

والنساء شريكات الرجال في خدمة الأضياف ، يتلقينهم إذا قاربوا الأرياف . وخيامهم كفيلة بأنواع الراحة ، ولا يقال فيها " أنقى من الراحة"* لا يكاد يستقر بالضيف الجلوس حتى تقام في الأنعام "حرب البسوس"* ويقرونه بالشواء ، وأبي اللفائف* ، ويفرشون له بسطا من الحصائر المرقومة والقطائف . ويسقونه من الشراب شايا . ولا يعرفون "فانا" ولا "شامبانيا" . هذا الغالب من أوصافهم في أعيانهم وأشرافهم . وقد تجد فيهم ، ولكن نادرا من يفوق في بخله "مادرا"* فيعبس في وجه الضيف . ولربما إذا سمعه قام لحربته أو السيف كما قال الشاعر :

رآى الصيف مكتوباعلى رباب داره فحـــرفه ضيفا فقـــام إلــــى السيف

فقلنا لـــه خيـــرا فظـــن بأنـــنا نقـــول لـــه خبزا ، فمات من الخوف

لباسهم القميص والبرنس . وشعارهم إسبال اللحى وحلق الأرؤوس وطعامهم غالبه الكسكس ، يعتمون العمائم العظام على عظيم الهام .

قال الإمام اليوسي في المحاضرات ، قد وجدت في بعض التقاييد ، لو رآى أرسطو قدر البرنس في اللباس ، والكسكسون في الطعـــام ، والحلـــق بالموســــى ، لاعترف للبربر بحكمة التدبير الدنيوي ، وأن لهم قصب السبق في ذلك اهـ. وقد كتبت الكوسكوسنون على ما وجدته مكتوبا خلاف ما ينطق به الناس وبالنون . حدثنا الرئيس الأجل أبو عبد الله محمد الحاج المتقدم الذكر ، قال :"ذهب رجلان فاضلان من بلاد المغرب وأظنه قال إخوان ، فدخلا بلاد الشام ، فمرض أحدهما ، وطال به المرض، حتى يئسوا منه ، فرآى الآخر النبي صلى الله عليه وسلم فقال :"أطعموه الكسكسون" بهذه العبارة ، فاستصنعوه له فأكله فبرئ" . وهذا إما خصوصية لهذا الطعام ، أو بذكره صلى الله عليه ، فيثبت له الشرف ، ويستدرك بذلك ما فاته ، من كونه لم يأكله صلى الله عليه وسلم في حياته . صحيفة 66 من المحاضرات .

---

*- "أنقى من الراحة مثل يضرب لمن لا خير فيه . والراحة الكف ، فكمالا شعر على الكف فكذلك من لا شيء عنده"اهـ مولفه .

*-" حرب البسوس دامت أربعين سنة بين بكر وتغلب . بسبب ناقة للبسوس ، خالة جساس ، كسرت بيض حمام أجاره كليب ، فرماها بسهم في ضرعها فوثب جساس على كليب فقتله ، فتسعرت نار الحرب بينهم"اهـ مؤلفه .

*- "أبو اللفائف هو المسمى عند المغاربة بولفاف" اهـ مؤلفه .

*- " مادر أحد رجالات العرب المشهورين بالبخل ، يضرب به المثل فيقال "أبخل من مادر" اهـ مؤلفه.

أما النساء فأسيلات الخدود ، جميلات العيون السود ، ربعيات القدود غير سمينات ولاعجاف، ولكنهن ثقيلات الأرداف شديدات الجاذبية والانعطاف ، غريرات كالضباء والغزال ، ويذبن عشقا ، قبل ذوبان الرجال . فمعذور الوزير محمد بن إدريس العمراوي الذي يقول في بنات قومه ، نساء زمور اللائي هن ، وبنات عمهن الزيانيات سواسية.

أنساء زمور سلبتم مهجتـــي | بقنا الخدود وصــارم اللّحظات
وهتكتم بالقهر حصن تنسـكي | فأخذتم الألباب فـــي الثـارات
كفوا لحاظكم الكحيلة واردعوا | اسلاب الباب علـى المهجـات
ألاء للشفاء شفاءهـــــــــا | ولتستـحلوا لثـم في الوجـنات
قالت أفي شرع الغرام تحكـم | أرأيـت مـن حكم الفـتيـات
نحن الملوك على الملوك وإنمــا | أحكامـنا بالقهـر والغلـبـات
الجورعدل عندنا والظلم حـــق | بيـــننا والـذنـب كالحسـنـات

هذا ما قاله الأديب الزموري في بنات قومه نساء زمور .ويقول كاتبه الزياني بمناسبة مساجلة جرت مع الأخ الشاعر الصالح سيدي الحسن البونعماني، من قصيدة ستأتي كاملة إن شاء الله في محلها . يقول الزياني ، والشعراء يقولون ما لا يفعلون :

وإذ ذكرتني عهـدا تـــــولى | "أيــا حُسنــــا وأيام التصــابي
وذكــــراي الكــــواعب واغتبـــاقي عـــلى نقـــر المثــــالثِ والرَّبـــاب*
وحــولي من بنات "بني زيـــان" | كـــواعـب زاريـــات بالـــرِّباب*
ظبـــاء فـــي نفــار أو شمـاس | ويفــــتن ابتعـــادا كاقــتـــراب
غـــزال البـــربر الفتان حُسنـا | وقــــدا في اعتدال واقتــــضاب
جئــــادرُ أو بـُـدورٌ طالعـــاتٌ | قـــواتلُ إن سَفَرن عن النِّقـــابْ
وكـــل مهــــاةٍ إن لمعت فبـــدْرٌ | عليـه تكشَّفَت ســـجف السـحاب
وإن ماست فغصن البان تحكي | وثغـــر فـــي بيـاض كالحـــبـاب
" أيا حسنا " غواني من غانـــي | بديع الحسن في لينـــ الجـــواب
ولاكنــــي حـفـظت على وقـاري | وقار العلم من عــــهد الشـــباب

سكنى هؤلاء الأقوام

وسكنى القوم الخيام السود الرفيعة العمود . ويزيد في حسن الخيام خرجات الأنعام

---

*- "الرَّباب بفتح الراء آلة الطرب" . اهـ مؤلفه .

*- "الرِّباب الأخيرة بكسر الراء العهد والاصحاب . فعلى الأول زاريات بالعهد ، فلا عهد لهن ولا وفاء شأن النساء ، وعلى الثاني زاريات بأصحابهن وأصدقائهن ، لا يعبأن بهم ، ولا بعهودهم سموقا بحسنهن ودلالهن "اهـ مؤلفه.

والأغنام ، لأن القوم ذوو أنعام ، وماشية وحلل موشية ، في حلل سندسية . وبمثل ما يعجبون بسكنى المخيط، يأنفون من سكنى الحائط المحيط . وقد كان السلطان المولى عبد الحفيظ (1) ، أراد أن يكافئ محمد وحمو ، في معاضدته الأولى ، ومناصرته له فاستصحب معه ، في طريقه على زيان من مراكش لفاس ولده المسمى حوسا (2). وبمجرد ما وصل بفاس نصب "حوسا" هذا باشا على فاس عاصمة الحضارة والعلم ، وناهيك بها مرتبة ، وأسكنه من قصور التازيين أجمل قصر وعتبة ، ولكن البربري لم يزل من ذلك كله يتملص ، ويدبر الأمور مع سلطانه، ركوعا وسجودا ليتخلص ،حتى أذن له في الإياب ، فخرج لا يلوي على الاعقاب . فبات بأول محطة خارج مدينة الحضارة فاس ، وتنفس الصعداء ، واطمأنت له الأنفاس ، واستراحت نفسه مما كان همها . فأخذ فضلة معزة وفركها ، وشمها وقال "شم فضلة المعزي . ولا قصور التوازي" وكان لسان حاله ينشد إذا نحن جاوزنا مدينة واسط ... لا نخاف عقابا.

ولا تظن أن في ما حكيته عن هذا البربري مبالغة أو ذاك منه على سلطانه إفتيات ، أو مراوغة لأن هؤلاء في واد والناس في واد. فلا ألذ عندهم من سكنى خيامهم ، والتمتع برؤية ماشيتهم ، وخيلهم وأنعامهم والاصطياد في رؤوس الجبال ، ومطاردة الذئاب والغزال ، والانتجاع بحللهم في الهضاب والشعاب ، مع الكواعب ، وللناس فيما يعشقون مذاهب . وما أجمل الخيام عند اجتماعها ، والهيام بها عند انتجاعها ، في خرجات الربيع ، والأنوار وروائح العشوب والأزهار حيث :

تلقى الخيام وقد صفت بها فغدت مثل السماء زهت بالأنجم الزُّهر

قال الأُلَى قد مضوا قولا لا يصدِّقه نقل وعقل ومـــا للــحقّ من غيرَ

الحسن يظهر في شــــأن رونــقه بيت من الشعر أو بيت من الشعر

الأبيات من قصيدة للأمير المجاهد والشاعر الأمير عبد القادر محي الدين الجزائري (3). ذلك أن الأمير لما كان بمدينة أمْبواز بفرنسا ، تنازع بعض الضباط الفرنسيين في التفضيل بين البدو والحضر ، فبعثوا له بسؤال في ذلك ، فحكم لمفضل البادية وأجابه بالقصيدة التالية :

1- عبد الحفيظ بن الحسن بن محمد الحسني العلوي من سلاطين الدولة العلوية . كان خليفة لأخيه عبد العزيز في مراكش ، ولكنه أخذ - بعد موتمر الجزيرة 1906 - ينتقد أخاه كرد فعل ضد الهيمنة التي صارت للأوروبيين في البلاط السلطاني ، ويتهيأ للإطاحة به . وفي 16 غشت 1907 بويع في مراكش وأعلن الجهاد ضد الجيش الفرنسي الذي احتل الدار البيضاء ووجدة . ترجم له ابن زيدان ، "الدرر... م.س. ص117.

2- اختصار لاسم الحسين ، وهو الولد البكر الذي أنجبه موحا وحمو .

3 - هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري . ولد في القيطنة (قرية من قرى ولاية وهران) وتعلم في وهران . تولى أمر الجهاد وقاتل الفرنسيين خمسة عشر عاما . وكان في معاركه شجاعا مقداما ، يتقدم جيشه ببسالة عجيبة . استسلم للفرنسيين في سنة 1847 . من آثاره العلمية "ذكرى العاقل" وهي رسالة في العلوم والأخلاق و "ديوان شعره" . توفي بدمشق سنة 1271هـ . 1854م ، خير الدين الزركلي ، الاعلام ، المصدر السابق ، ص . 45 -46 .

يا عاذرًا لامرئٍ قد هام في الحَضَرِ وعاذلا لمحب البدو والقفر
لا تذْممَنَّ بيوتا خف محْمِلُه وتمْدحنَّ بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذُرُني لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقبا بساطِ رمل به الحصْباء كالدُّرر.....

وإن من أروع ما قيل في الخيمة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفه عرضها ستون ميلا . في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين" رواه البخاري عن عبد الله بن قيس عن أبيه . ومثله في مسلم ذكره ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى "حور مقصورات في الخيام"(1) .

برابر الأطلسيين أو برابر جبل فازاز

أطلق المؤرخون قديما وحديثا على برابر الأطلسيين برابر جبل فازاز، وكل واحد يطلقه إذا تحدث على قبيلة أو حادثة وقعت فيهما على أنها في جبل فازاز ، بحيث لا يمكن لأحد ضبط هذا الجبل المسمى فازاز ، أين هو من خلال كلامهم كيف ؟ وقد يطلقه المتحدث عن برابر الأطلس الصغير ، بأن القبيلة التي تحدث عنها هي أو الحادثة ، وقعت في جبل فازاز ، أو من سكان فازاز . وكذلك يطلقها المتحدث عن برابر الأطلس الكبير ، ان تحدث عنهما أنها في جبل فازاز . وهذه بعض أقوال المؤرخين في "فازاز" يقول ابن خلدون "إن يوسف بن تاشفين نازل قلعة فازاز وبها مهدي بن تولى اليحفوشي الزناتي ثم ارتحل عنها" الخ . فهذا المحل هوببلاد زيان على نحو 25 كلم شرقي خنيفرة والجبل الذي به القلعة يسمى الكَارة .

ويقول الناصري :"وفي أيام الرشيد بن المامون بن المنصور الموحدي سنة 633 ، ولى وزيره أبا محمد إلى غمارة ، وفازاز لجباية أموالهما . وهذا إطلاق متسع لا يدرك منه محل هذا الجبل .

ويقول في صحيفة 278 جزء 4 ." وفي آخر هذه السنة خرج السلطان مولاي الحسن "من مراكش فاتح قعدة من السنة 1311 غازيا قبائل البربر الذين بجبال فازاز ، ولا سيما آيت سخمان . فهذا الاطلاق متسع لأن البرابر الذين وقعت الواقعة السليمانية معهم آيت أمالو زيان ، وبني مجليد ، وآيت سخمان ، واشقيرن ، وغيرهم ، وهؤلاء هم أصحاب الأطلس المتوسط ، وجبالهم كثيرة طويلة وعريضة . فعلى أي جبل أو قمة منها ، يمكنك أن تطلق عليه هذا الاسم "فازاز"؟ وقال في صحيفة 274 جزء 4 . وفي سنة 1305 غزا السلطان الحسن أيت أمالو برابرة "فازاز"، وهم بطن من صنهاجة يشمل زيان ، وبنو مجليد واشقيرن ، وآيت سخمان وآيت يسري . وهذا إطلاق كالذي تقدم قبله بل أوسع .

وقال في صحيفة 154 جزء 4 لما تكلم على آل أمهاوش فأمر أمرهم عند أهل "فازاز" واعتقدوهم الخ . وهذا الاطلاق قريب من سابقيه .

1- سورة الرحمان : 71.

ويقول الشيخ أبو علي اليوسي في محاضراته صحيفة 125 ولما كنت بمراكش سنة 1073 . وقد بقيت الأملاك في خلفون، والكتب وما معها في مكناسة ، وبقيت العلائق في جبال "فازاز" الخ .

فهذا الاطلاق يوشك أن يكون مراده بجبال فازاز ، هي جبال قبيلة أيت يوسي ، وهي في الاطلس المتوسط ، ولا يستفاد منه تعيين جبل دون آخر .

ويقول ابن غازى في الروض الهتون لما تكلم على وادي أبي العمائر، وأصله والله أعلم من جبل "فازاز" . ويقول الشريف شقيق الروح سيدي ابن زيدان في تاريخه الاعلام صحيفة 54 جزء 1 ، بعدَ نقله لكلام إبن غازى، مع تفصيل له. وهذا المحل لا يعرف اليوم ببني فازاز ، ولا الجبل المذكور "ويعني به جبلا ببني مطير"يسمى "مزَّ عْتِوال" . أما في غابر الازمان فقد كان يطلق فازاز على تلك الجبال كلها حتى جبل أزرو الشهير المعروف ، والمحل الذي يعرف اليوم بفازاز عند تلك القبائل البربرية ، بينه وبين الجبل الذي يخرج منه الماء المذكور ، مهامهُ فيحٌ تنيف على 70 كلم الخ .

وإن تتبعنا كلام المؤرخين وإطلاقاتهم ، لطال علينا الميدان ، والمقصود أن إطلاقهم لا يستفاد منه تعيين جبل أو قمة لهذا الإسم ، "فازاز" . وعلى طول تعيشنا بزيان واتصالاتنا بكبرائهم وأعيانهم ، لم نجد من يعين لنا هذه القمة بعينها ، بل قد تنوسي هذا الاسم عندهم فلا يعرفونه ولا يذكرونه ، ولا يذكر إلا في كتب التاريخ

على أن شاعر المرينيين محمد بن عبد الرحمان الملزومي يجعل فازازا إحدى قبائل المغرب التي كانت لها سطوة وقوة آخر أيام الموحدين ، ومثلهم رياح وهذا ما ذهب إليه في أرجوزته نظم الملوك .

فهو يقول عند ابتداء ظهور أولاد عبد الحق (1) المريني لما أراد إحياء الورى وأن يؤمن البلاد والقرى ، من بعد ما كانت بها القبائل في الغرب لا تردها القنابل ، قتل النفوس عندهم مباح لاسيما فازاز ، أو رياح ، قد اوقدوا في المغربين النار ولم يجد خلق به قرارا . ومثله في الاستقصاء خلال كلامه على مدة المامون بن المنصور الموحدي (2) . فقد قال " وبلغه في طريقه ان بني فازاز ومكلاته قد حاصروا مكناسة " . صحيفة 204 جزء 1 . وقد شدهت * متعجبا ،

1- هو عبد الحق بن أبي سعيد (823 - 869 ه / 1420 - 1464 م) آخر سلاطين بني مرين ، تولى الملك وهو صبي ، لم يبلغ اكثر من سنة . وفي عهده بدأ النفوذ الوطاسي .

2 - هو ابو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور ، أحد سلاطين الموحدين . بويع في اشبيلية سنة 624هـ-1226 م ولقب بالمامون . وهو أول من استعان بجيش نصاري الاندلس لاسترجاع مراكش من يد ابن اخيه يحيى بن الناصر . وفي ايامه انتشرت الفوضى واضطربت الاحوال وفقد المغرب بلاد الاندلس .

توفي المامون سنة 629 ه - 1231 م . الاستقصا 42 ص 236 - 240 ، المصدر السابق .

*- "شده كدهش" .

وأنا أسمع جماعة من البربر أصحاب الأطلس يتحدثون بهذا الاسم ، ويشيرون إليه من بين ثنايا أطلسية وهم لا يريدون ما يتحدثون عليه ، فقلت ما تقولون ؟ أين هو فازاز ؟ فقالوا ذاك الجبل ، وأشاروا لقمة من القمم الأطلسية الكبيرة ، قمة لا تبعد عنا إلا يسيرا ، من المكان الذي كنا فيه .

فهذا الجبل الذي يسمى عندهم فازاز هو بتراب ايت يحيى، مركز تونفيت شرقي خنيفرة على نحو 150 كلم منها . فإذا جئت من خنيفرة قاصدا مركز إمي لشين بتراب أيت حديدوا وصلت إلى مركز تونفيت تراب أيت يحيى .

تسير شرقا ، نحو 30 كلم ميترا ، فتصل مركز أموكَر ثم تسير نحو 10 كلم ، فتصل جبلا يسمى أقدار. ثم جبل فازاز المذكور الشهير بهذا الإسم . وهو الأطلس الكبير على علو يقدر ب 3037 ميترو ، وهو متصل في الشمال بجبل أقدار ، ومن اليمين بجبل ماوطفوط. ومن هنا تفرقت المياه الزطلسية ، فالماء السائر إلى اليمين في المحيط ، والماء الذي يسير منه إلى الشمال ، يمر على ملوية وغيرها ، ويصب في المتوسط ، والماء السائر منه إلى القبيلة يمر على وادي زيز وغيره ، ويصب في الصحراء . هذا ما سمعته من أهل هذه الجبال الأطلسية ، أيت يزدك وايت يحيى وأيت حديدو ، في رحلة لي رحلتها إلى هذه الجبال الأطلسية الكبيرة من ميدلت إلى إميلشين بتاريخ الخميس 21 ربيع الثاني 1360 ، يوافق 13 من أكتوبر 1960 . في هذا التاريخ ، لأول مرة سمعت لفظة "فازاز" ، من البرابر الأطلسين المتوسط والكبير ، على طول معاشرتي بهم ، في الصغر وعنفوان الشباب . ثم بعد مفارقتي لزيان ، كانت إتصالات ، واتصالات معهم ، ولم أسمعه إلا هذه المرة مع تعيين المحل . لا أدري هل هذا المحل هو الذي يسمى "فازاز" فتوسع في إطلاقه أو توسع جل من لم يعرفه بالضبط .

وإن كان هذا الجبل في اطلاقه أو توسع جل من لم يعرفه بالضبط وإن كان هذا الجبل هو المسمى بفازاز بالضبط ، فما السبب في التوسع في إطلاقه على كل جبال هذه القبائل . هل سبب شهرته ، هو من حيث إفتراق المياه للجهات الثلاثة ؟ أو هذا الجبل يسمى عند هؤلاء بفازاز ، كما أن غيرهم كثيرا لهم فازازهم ؟ الله أعلم . وإن يكن فغير معثور عليه بالضبط ، وإنما هي تخامين وكفى ما ذكرناه . وللآتي بعدنا أو من معنا أن يقول كلمته للتاريخ في تعيين هذا الجبل الشهير بهذا الاسم "فازاز" .

ووجد بعض العلماء الأسر في فاس والأندلس تنسب الفازازي ، ولا أدري لم هذه النسبة ، ومن الأندلسيين الفاضل الكاتب أبو عبد الله محمد الفازازي . وأخوه الشاعر الشهير الكاتب الكبير أبو زيد عبد الرحمان الفازازي ، صاحب الأمداح النبوية من رجال العلم والآثار والحديث . رحل في طلبه وأخذ عن شيوخه بالأندلس وتلمسان ومراكش . وكانت ولادته بعد الخمسين وخمسمائة ، وتوفي بمراكش سنة 637هـ ، نفح الطيب ج 6 صحيفة 110 – 112.

سكان جبل فزار أو الأطلس المتوسط والكبير .

سكان هذين الجبلين أربعة أقسام أو أربعة شعوب ، والشعب القوم المنتسبون لأصل واحد ، وهو مجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الافخاذ ، والفخذ يجمع الفصائل . قال الله تعالي :"إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(1) .

وقد نظم هذه التفرقة العلامة محمد بن عبد الرحمان الغرناطي فقال : الشعب ، ثم عمارة فعمارة ، بطن وفخذ والفصيلة تابعه .

فالشعب مجتمع القبيلة كلها ،ثم القبيلة للعمارة جامعة ، والبطن تجمعهالعمائر، والفخذ تجمعه البطون الواسعة . من نفح الطيب ج .6.ص 44 [وهؤلاء] هم ايت أماوالذين من حملتهم زيان ، وآيت يدراس ، وآيت يفلمان ، وآيت عطا.

فايت أمالو بضم الهمزة أو أمالو بفتحها ، معناه الظل ، يرفع نسبه إلى صنهاج . وهذا المؤرخ الزياني أبو القاسم وزير الدولة العلوية ، وسفيرها ، وعالم زيان يرفع نسبه الزياني "ورب البيت أدرى بما فيه" ، فيقول في كتابه "الترجمانة" أنا أبو القاسم ابن أحمد بن علي بن ابراهيم بن أحمد بن ننوح النسابة ، بن ابراهيم بن علي بن الحسن بن قاسم بن يحيى بن علي ويحيى هذا زبو فخذنا من قبيلة زيان ، بن نوح به فاضل بن علي بن زيان ، وهو أبو القبيل - ابن مالو وهو جماعة أيت مالو بن يحيى، بن زكا ، وزكا هذا زبو زمور وبني حكم، ابن دهمان ابن علي بن عجلان بن واحي و بن حامد، بن حمدان ابن أوس ، به اليسع ، الذي زسلم على عهد عبد الملك ، بن مروان (2) . وقبيله إذ ذاك بالقزان من أرض الصحراء قبل أن يدخلوا لسجلماسة (3) ابن مدرار بن غلوان بن سابور من سجفوا بن قرماط ابن ناجي ، بن سليمان ، بن بخت بن علوان بن ناجح بن سجفوا ابن صنهاج جد قبائل صنهاجة كلها ، وهذا العمود من اليسع الذي أسلم . إلى صنهاج ذكره سابق به سليمان المطماطي في تاريخه في ذكر من زسلم من قبائل صنهاجة . وعنه نقل الجد علي* بن ابراهيم ومن الجد إلى

---

1 - سورة الحجرات : 13

2 - خامس خلفاد بني أمية ، ولد حوالي 646 وتولى الخلافة سنة 685 ، وتوفي سنة 705 .

3 - مدينة قديمة بمنطقة تافيلالت ، على الضفة اليسرى لوادي زيز ، وهي اليوم زطلال . شيدها بربر مكناسة سنة 758م ، وحكمها بنو مدرار (771م-772م) ، وسجن فيها أبو عبد الله الشيعي ، موسس دولة الفاطميين ، أيام اليسع المدراري ، واستولى عليها جوهر الصقلي قائد جيوش الفاطميين سنة 958 -959م ، ثم وقعت في قبضة عبد الله بن ياسين داعية المرابطين .

*- " الجد علي بن ابراهيم هذا هو الشيخ والإمام الذي أخذه السلطان مولاي إسماعيل من أروكو في رحلته سنة إلى قبيلة زيان . وهو جد المؤرخ أبي القاسم الشهير . فهو أبو القاسم بن أحمد بن علي ابن ابراهيم" . اهـ مؤلفه .

مالو من إملاء نقلته من خطه سنة سبعين ومائة وألف . ومن صنهاج بن عاميل إلى كنعان بن نوح مشهور مقرر في كتب التاريخ ، كابن خلدون في العبر ، وابن حزم في الجمهرة عن الطبري شيخ المؤرخين إلى آخر كلام الزياني .

"تقسيم هذه الشعوب وبيان بعض مراكزها "

"الشعب الأول" أيت أمالو وهو من أعظم الشعوب وتحتها قبائل : وهي زيان ، اشقرن ، ايت سخمان ، أيت يسري ، بني مجليد ، وزمور ، وبني حكم ، ملحقان بأيت أمالو لأنهما عمان لزيان .

زيان وبعض مراكز سلطتها

مركز زيان الأعظم ، وعاصمتها هي خنيفرة ، على مائة وخمسين كلم ، من عاصمة مكناس في الطريق المؤدية منها لعاصمة مراكش ، عبر الأطلس المتوسط ، وعلى مائة كلم من قصبة تادلة ، وثاني مراكزها قرية تاغية (1) ، مدفن الولي الشهير مولاي أبي يعزى (2) ، وهو غروبا من خنيفرة ، بنحو 80 كلم في خلال الأطلس المتوسط .

ثالث مراكزها ، ولماس ، محل منبع الماء المعدني الشهير ، في الحدود بين قبيلة زيان وقبيلة زمور ، على نحو 140 كلم غروب خنيفرة .

رابع مراكزها الحمام على نحو 45 كلم منها في الطريق المؤدية لعاصمة مكناس .

خامس مراكزها كروشن ، شرقي خنيفرة في حدودها المتاخمة لقبيلة بني مجليد على نحو 50 كلم .

سادس مراكزها زاوية أيت اسحاق ، المسماة قديما بزاوية أهل الدلاء ، جنوبا من خنيفرة ، على نحو 35 كلم منها ، في الطريق المؤدية لمراكش . هذه مراكز قبيلة زيان ، ويشتمل كل مركز على عمائر وبطون وأفخاذ ، لا نطيل بذكرها لأنها لا تهم الرأي العام .

---

1 – كلمة أمازيغية تعني الأخاديد والأماكن التي تضيق فيها الأودية . ومن أشهر الأماكن التي تحمل هذا الإسم قرية الشيخ أبي يعزى التي ستأتي ترجمته فيما بعد . أنظر ابن الزيات ، التشوف م.س. ص.50 .

2 – أبو يعزى يلنور (معناه النور) بن ميمون ، أكبر المشايخ الصالحين الذين عرفهم المغرب في أواسط القرن السادس الهجري ، وضريحه معروف في ناحية خنيفرة في قرية تسمى :مولاي بوعزة ، توفي سنة 572هـ –1177م. ترجم له أبو العباس العزفي :"رسالة في كرامات الشيخ الولي الصالح يعزى" ، مخطوطه الخزانة الملكية في الرباط ضمن مجموعة 9447 . وترجم له كذلك أحمد الشعبي : "المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى" ، مخطوطة الخزانة الملكية في الرباط رقم 517 .

قبيلة اشقيرن (1) وبعض مراكزها

مركزها الأعظم القباب ، شرقي خنيفرة على 35 كلم منها. وثاني مراكزها المسيَّد .

قبيلة ايت سخمان (2)

مركزها الكبير أغبالا شرقي خنيفرة على نحو 100 كلم منها عبر الأطلس .

قبيلة أيت يسري (3)

مركزها الكبير قصبة موحا وسعيد ، شمال بني ملال على نحو 50 كلم منها. وثاني مراكزها تاكلفات ، على نحو 100 كلم منها عبر الأطلس المتوسط . وثالث مراكزها واويزغت على نحو 70 كلم من بني ملال شرقا منها . ورابع مراكزها تيلوكَيت على نحو 80 كلم شرقا منها . وخامس مراكزها زاوية الشيخ ، على نحو 70 كلم من بني ملال غروبا منها في الطريق المؤدية لمراكش . وسادس مراكزها فم العنصر على نحو 15 كلم شمال بني ملال . وتاكَزيرت على نحو 20 كلم من بني ملال وأنركَي على نحو 150 كلم من بني ملال .

قبيلة بني مجيلد (4)

مركزها الكبير مدينة أزرو ، على 70 كلم من مدينة مكناس في الطريق المؤدية لتافيلالت عبر الأطلس ، وكذلك إلى مراكش عبر خنيفرة ، فبني ملال . وثاني مراكزها عين اللوح جنوب أزرو إلى خنيفرة على نحو 25 كلم . وثالث مراكزها تيمحضيت شرقي أزرو في الطريق المؤدية لتافيلالت وميدلت على 40 كلم . رابع مراكزها إيتزر، على 141 كلم ، من مدينة مكناس ، في الطريق المؤدية لتافيلالت .

خامس مراكزها بوميا "أبو مائة" ، على نهر ملوية ، على نحو مائتي كلم من قصبة تادلة في الطريق المؤدية لتافيلالت ، عبر ميدلت وعلى 45 كلم من هذه غروبا.

---

1 – قبائل صنهاجية تنتمي إلى اتحادية أيت أمالو ، وتشتمل على ثلاثة بطون : إيمزّناتن ، وأيت يعقوب أوعيسى و أيت عمرو أوعيسى . أما مواقعهم الحالية ، فتوجد في السلسلة الغابوية الممتدة من الحوض الأسفل لوادي سرو إلى أعالي ملوية . أنظر الزياني ، الترجمان ، المغرب ، المصدر السابق ص 22-23 ، وكذلك الاستقصا . 72ص . 71-72 .

2 – تنتمي الاتحادية إلى تجمعات أيت أمالو ، وتتكون من أربعة قبائل : أيت عبد اللولي ، وأيت أم البخت ، وأيت ورًا ، وأيت محاند . وتوجد مواقعهم بين أم الربيع شمالا ووادي العبيد جنوبا ، الزياني ، المصدر السابق .

3 – وهي الصيغة العربية لآيت مكَيلد الأمازيغية الصنهاجية النازحة من الجنوب المغربي . أما حدودها فتقع بين قبائل بني مطير شمالا وأيت يحيى وأيت عياش ، وأيت يزدكَ جنوبا ، وزيان وإشقيرن وايت احند غربا ، وايت يوسي شرقا .

4 – اتحادية كبرى تنتمي إلى تجمعات صنهاجة ، وتقع مواقعهم بين قبائل بني حسن شمالا ، وزيان جنوبا ، وزعير غربا ، وكَروان شعرقا .

قبيلة زمور وببي حكم (1).

زمور وحكم إخوان ، وزيان ابن عم لهما، كما تقدم للمورخ أبي القاسم الزياني، والجميع يجمعها أصل واحد يسمى زُقًا، فهم من أعلى آيت زما. كذا لزيان ، وكلهم يرجعون لآيت أمالو ، وعلى هذا فهم من آيت أمالو على شرطنا في تقسيم هذه الشعوب .

ومركز زمور الكبير الخميسات ، على 70 كلم من الرباط ، في الطريق المؤدية لمكناس . وثانيها تيفلت على نحو 40 كلم من الرباط في الطريق المذكورة وثالثها تيداس على يمين الخميسات بنحو 30 كلم .

الشعب الثاني من شعوب برابر فازاز أيت يفلمان

وهم قبائل آيت يزدكَ ، وآيت وفلا ، وآيت عياش ، وآيت يحيى ، وآيت حديدو وآيت مرغاد، ولكل قبيلة مراكزها .

قبيلة ايت يزدكَ أو إيزدكَ .

وأكبر مراكزها ميدلت ، على نحو 191 كلم من مكناس ، في الطريق المؤدية لتافيلالت ، عبر أزرو ، في الأطلس المتوسط ، وعلى 194 من تادلا ، وهي مفتاح باب الصحراء ، وجاءت في حصن جبل العياشي، الأطلس الكبير. وقد أوغلت قبيلة ايت يزدكَ في قصور تافيلالت ونواحيها ، ففيهم عمائر بمركز الريش ، على 70 كلم من ميدلت في الطريق المذكورة ، وفي مركز قصر السوق (2) ، وهي عاصمة تافيلالت ، وفيه استقرار العمالة ، وهي على 338 كلم من مكناس .

وفي مركز بوذنيب (3) ، يسارا من قصر السوق ، في الطريق المودية لعين الشعير ، ثم إلى الحدود الجزائرية .

قبيلة ايت وفلا .

مركزها ميدلت أيضا ، وبعضهم يجعلها عمارة من قبيلة ايت يزدكَ .

قبيلة أيت عياش .

مركزها ميدلت أيضا ، وهناك فرقة من أيت عياش بناحية فاس مركزها بأحواز فاس . وهذه دخلت لناحية فاس من هذه التي بميدلت .

---

1 – قبائل صنهاجية من صميم زيان ، توغلت في الشمال ، وهي الآن تعيش حول والماس على الفلاحة أنظر التقي العلوي مجلة البحث العلمي ، المصدر السابق ، ص . 73

2 – مدينة الراشدية حاليا.

3 – اشتهرت هذه المدينة على الحدود الشرقية للمغرب بمقاومتها المستميتة للاحتلال الفرنسي في بداية هذا القرن العشرين، كما سيأتي تفصيل ذلك في الصفحات القادمة .

قبيلة ايت يحيى .

مركزها الأكبر تونفيت على 50 كلم شمال ميدلت . ثم أموكًر، على 30 كلم من تونفيت شرقا .

قبيلة أيت حديدو .

مركزها الكبير إميلشيل على 180 كلم شرقي خنيفرة وبووازمو .

قبيلة أيت مرغاد .

مركزها الكبير كًلميمة ، جنوب قصر السوق على 70 كلم منه ، وعلى نحو 400 كلم من مكناس ، وتينجداد ، على 25 كلم من كًلميمة جنوبا منها ، وأسول نسيدي بويعقوب على نحو 150 كلم من ميدلت . وتاديغوست على نحو 25 كلم من قصر السوق يمينا ، وأغبالو انكردوس (1) .

الشعب الثالث من برابر فازاز أيت يدراسن .

وهم قبائل بني مطير ، وبني سادن ، وأيت يوسي (2) ، وايت سغروشن ، وبين وارين ، ومرموشة ، ولكل قبيلة مركزها أو مراكزها .

قبيلة بني مطير .

مركزها الحاجب ، على 27 كلم شرقي مكناس وإفران على نحو 20 كلم من أزرو.

قبيلة بني سادن .

مركزها باحواز فاس .

قبيلة أيت يوسي .

مركزها الكبير صفرو على نحو 27 كلم من مدينة فاس ، والإنجيل على نحو من صفرو وبولمان على نحو 100 كلم من فاس. وموزًار على 35 كلم شرقي فاس، وبه خليط من أيت السبع وغيرهم .

قبيلة أيت سغروشن .

مركزها الكبير بركين على 180 كلم شرقي فاس ، وتاهلا(على نحو 80 كلم من فاس ، وموزًار نمرموشة على نحو 80 كلم . وهرمومو (3) ، وفيه خليط من أيت سغروشن نسيدي علي ، وأيت زكوط وإغزران . مركز مغراوة وفيه ايت عبد الحميد أهل الجبل ، وأهل الثلث وأيت عبد العزيز .

---

1 – إحدى جماعات دائرة كًلميمة في إقليم الرشيدية ، ومعتقلا كبيرا لرموز الوطنة 1952-1954.

2 – قبائل من فصيلة ايت يدراسن ، جاءت من أقصى الجنوب المغربي . فأبو علي اليوسي يؤكد لنا في المحاضرات أن أسلافه الأولين ، كانوا يعيشون في واحة فركلة . وقد بدأوا يفدون إلى مواقعهم الحالية في الأطلس المتوسط ، بحوض كًيكًو ، وضواحي مدينة صفرو ، منذ القرن الحادي عشر الهجري إلى حوالي منتصف القرن الثالث عشر الهجري ، على عهد السلطان العلوي سليمان . أنظر كتاب المحاضرات ، ص 125 وكذلك :

A.G.P Martin, Quyatre siécles d'Histoiire Marocaine . Au Şahara de 1504 à 1902 . Au Maroc de 1894 à 1912, Paris 1923

3 – رباط الخير حاليا

هذه الشعوب الثلاثة هم برابر فازاز أو برابر الأطلسين المتوسط والكبير ، وبقي علينا الشعب الرابع وهمم ايت عطة.

الشعب الرابع أيت عطة

وهذا لا يعمر كثيرا إلا السهل بصحراء تافيلالت ، وامتد إلى ضواحي درا (1)ولا يهمنا منه ما يهمنا من الشعوب الثلاثة السالفة الذكر لذلك فإننا إن تحدثنا عنه يسيرا فعلى حسب الاستطراد .

وقد كنا ذكرنا لكل قبيلة بعض عمائرها وبطونها وأفخاذها ، ثم رأينا أن ذلك فيه تطويل فحذفناه اختصارا .

هل هؤلاء البرابر أصل أو تحدر لهم من جرثومه عرق أو نسل؟

قلت في المحاضرة وأصل زيان ، من أيت أمالو ، وهم فريق من برابر فازاز ، وهؤلاء بطن من صنهاجة ، والظن أنهم "زيان" جاؤوا من الصحراء ، بعد شق قبيلة زعير (2) ، الذين هم من عرب معقل ، الطريق إليهم ، من الصحراء إلى حيث مقرهم الحالي .

وعلى كل حال فكلهم يفخر بربريته ، ويتخذها دليلا على عبقريته ، وقد تقدم رفع نسب المؤرخ أبي القاسم الزياني إلى صنهاج ، أي قبيلة صنهاجة ، ولكنه يذهب إلى أن صنهاجة برابر ، فيعقب على ذلك النسب بقوله : "قال علي بن ابراهيم يعني جده في التقييد المذكور أن السبب الحامل على رسم هذا العمود ، إلى صنهاج ، ثم إلى نوح عليه السلام ، ما رأيته من بعض طلبة الوقت الذين عرفنا أصولهم ، وفروعهم ، ينتمون إلى النسب العربي . وهم ليسوا منه ، وما نفوه من الانتساب البربري . ويقولون إن صنهاجة من حمير (3) وهم من صميم قبائل العرب ، كما أن زناتة (4) البربر ، يرفعون نسبهم إلى القيسية (5) ، من مضر (6) وهم من صميم قبائل البربر.

---

1 – أراد به وادي درعة.

2 – حاولت الدولة المرابطية تشجيع هجرة قبائل صنهاجة من الجنوب إلى الشمال ، من أجل توطيد حكمها ، ولكن الذي فتح الباب على مصراعيه هم عرب بني معقل ، ولاسيما بني حسن وزعير ، أنظر G.S.Colin, Origine Arabe des grands mouvements de population berbères dans le Moyen Atlas, Hesperis, t.XXV, 1938,p.266.

3 – يعتقد بعض المؤرخين كابن قتيبة وابن حزم ، وابن خلدون ، أن صنهاجة من العرب . ومن هنا جاءت الأسطورة التي مفادها أن إيمازيغن حميريون ، جاءوا من اليمن .

4 – من أكبر شعوب إيمازيغن على الإطلاق الذين تسنموا ذروة الملك في المغرب ، مع بني مرين وفي الجزائر مع بين عبد الواد . أنظر البيذق ، المصدر السابق ، ص .14-15 .

5 – نسبة إلى قيس بن عيلان، وهو جد جاهلي من مضر ابن نزار من عدنان ، تفرعت منه قبائل كثيرة منها ، هوازن ، سليم ، غطفان ..الخ .

6 – الجد الأعلى لفريق من القبائل العربية العدنانية ، منها قيس عيلان وجندوب .

سبب هذا الغلط .

وسبب انتساب صنهاجة إلى حمير دخول طائفة من حمير في البربر ، كان تركهم أفريقش (1) الحميري في مدينة قرطاجنة ، بإفريقيا مع طائفة صنهاجة فلما غلب الروم وأخرجوهم من قرطاجنة توجهوا مع البربر وأقاموا معهم إلى أن انقرضوا ، وانقرض عقبهم ، فلم يبق لهم ذكر . وبقي الجهلة ينتسبون لهم ، ويقولون إن أصلهم من حمير ، هذا اعتمادهم في انتساب صنهاجة لحمير ، ما جاء عن الزياني في الترجمانة .

ويؤيد ذلك بما طالعه من عدة كتب للمؤرخين ، فيقول : "ولما نزلت تلمسان (2) ، قصدت العباد بجوار أبي مدين ، فانهال الطلبة علي ، وأتحفوني بما عندهم من الكتب فأتحفني خطيب مسجد أبي مدين بتاريخ الإمام أحمد بن يحيى البلاذري في ستة أسفار ، وطالعت ثمة تاريخ سليمان بن سابق المطماطي ، وتاريخ هاني بن يصدور الكَومي ، وتاريخ كهلان بن أبي لؤى الأوربي ، في أنساب البربر وأيامهم في الجاهلية والاسلام ، لأنهم كانوا نسابة البربر ، وتاريخ العقباني في دولة بني زيان ، فهو بهذا يؤكد بأن ما ذهب إليه من أن صنهاجة وزناتة من البربر هو الحق ، وهو يقلد في ذلك المؤرخ ابن خلدون ، وابن خلدون يقلد ابن حزم الذي سبقه إلى ذلك بثلاثة قرون . ولكن جمهور النسابين يجنحون ، إلى أن صنهاجة عرب ، من ولد صنهاج الحميري . وممن ذهب إلى ذلك الطبري، والجرجاني، والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي ، ويقولون إن صنهاجة وكتامة من قبائل حمير من حامية خلفها أفريقش الحميري ، عند غزو المغرب وكتب اللغة مع هؤلاء

ففي القاموس للفيروزبادي ، صنهاجة قوم بالمغرب ، من ولد صنهاج الحميري وهو بالفتح أي فتح الصاد ولا يعرف غيره .

ويقول أخونا العلامة البحاثة المورخ الشريف سيدي عبد الله كَنون (3) ، في ترجمة

1- هو أفريقش بن قيس من ملوك التبابعة ، الذي افتتح إفريقيا بقبائل العرب . وهو الذي أطلق - حسب بعض المصادر - إسم بربر على سكان شمال أفريقيا أنظر ، عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص . 318 .

2 - يزعم أبو القاسم الزياني أنه اطلع -- عندما كان لاجئا بضريح أبي مدين بتلمسان - على كتب نسابة البربر مثل سابق ، ويقول إنه قيد عمود نسبه ، الذي يرفعه إلى صنهاج ، التي تنتسب إليها قبيلة زيان أنظر ، الترجمانة ، المصدر السابق ، ص . 548 .

3 - العلامة الأديب و الكاتب المغربي ، ولد بفاس سنة 1908 ، وعاش بمدينة طنجة حيث اشتغل بمهنة التعليم تدريسا وإدارة .

من أشهر مؤلفاته : «النبوغ المغربي» و«ذكريات مشاهير رجال المغرب» و«واحة الفكر» الى غيرها ، توفي بطنجة سنة 1963 ، انظر أحمد الشايب ، الدراسة الأدبية في المغرب الأستاذ عبدالله كنون نموذجا ، منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة ، ص327-336.

سابق البربري ، بعد سياقه لقطع من شعره العربي الفصيح الرقراق ، بلاغة وإبداعا وبيانا وحكما ، يقول : "وهذا النبوغ المبكر على إثر اتصال البربر بالعرب* ، إن دل على شيء فإنما يدل على صحة انتساب هذه القبائل المغربية إلى الشعب العربي، وصدقِ النسابة الذين يرجعون البربر إلى أ صول عربية ، من عدنانية وقحطانية الخ .

وما دمنا نتحدث عن زيان وأصلهم، وعربيتهم أو بربريتهم ، يطيب لنا أن نذكر سؤالا من العلامة المؤرخ الأكتب ، أبي الفضل سيدي جعفر الناصري ، سؤالا جاء منه في هذا الصدد ، فأجبته بما عندي في ذلك . قال من كتاب طويل : "حيث كان جنابكم مشتغلا بتدوين تاريخ القبيلة الزيانية ، وأنتم أعلم بماضيها وحاضرها ، وأحق من يكتب فيها لإطلاعكم ، على جميع أحوالها ، فقد كانت تحدث لي أثناء مطالعتي لأخبارها استشكالات ، فأرجوكم أن تميطوا اللثام عنها بحلها" .

"وموضوع السؤال والإشكال ، هل لفظ زيان عربي أم بربري ؟ وهل هو علم لأب القبيلة ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، ففي أي زمن عاش هذا الرجل الذي صارت القبيلة لا تعرف إلا بإسمه ؟ وبأي إسم كانت تعرف قبل وجوده؟ لأننا لا نجد إسم قبيلة زيان إلا أواخر الدولة السعدية (1) وما بعدها ، ولا وجود لهذا الإسم بين القبائل البربرية التي نص عليها إبن خلدون ، وهل زيان تنتمي إلى جذم البرانس (2) "وهل يوجد في أرضها مشاهد تذكر بالفتح الإسلامي كمشاهر رجال رجراجة (3) ومسجد عقبة (4) ، بوادي نفيس ، ومسجد شاكر بالشياضمة ."هذا ما جاء في سؤاله باختصار .

---

*- "ذكر هذا في كتابه "خل وبقل "، صحيفة 12 . " اهـ . مولفه.

1 - أسرة عظيمة حكمت المغرب والسودان من سنة 1510 إلى سنة 1658 . من أشهر ملوكها أحمد المنصور الذهبي ،(1574 -1603) .

2 - أجمع المؤرخون على أن إيمازيغن ينقسمون في أصولهم إلى جذمين عظيمين : البرانس والبتر . ففي نظر النسابين يرجع البرانس إلى أبيهم برنوس ، والبتر إلى أبيهم مادغيس الملقب بالأبتر ، وهذان الرجلان ينحدران من أب واحد وهو برًا .

وتنحدر صنهاجة التي تنتمي إليها قبائل زيان من بني برنوس ، ولكن نظرية تقسيم إيمازيغن إلى برانس وبتر ، لا تساير المنطق السليم ، فمن الصعب جدا ، إن لم نقل من المستحيل إقامة الحجة على وجود عرق واحد يربط بين هذا الشعب وذاك . فالتقسيم المزعوم اصطلاحي فقط ، كما يقول الأستاذ التقي العلوي . انظر مجلة البحث العلمي ، عدد 20-21 ، المصدر السابق ص . 75-76 .

3 - فخذ من قبائل مصمودة ، وهو أشرفها لما له من السبق في اعتناق الإسلام والجهاد في سبيل الله. روي أن أجدادهم زاروا النبي صلى الله عليه وسلم ، في مكة المكرمة ، وأسلموا بين يديه صلى الله عليه وسلم . وقد تلاشت هذه القبيلة في قبائل سوس والسراغنة ، ولم يبق منها إلا فئة صغيرة في الشياضمة . أنظر عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، المصدر السابق ، ج 1 ص 324 .

4 - هو عقبة بن نافع (621-683م) ، القائد العربي ،الذي ولي إفريقيا سنة 622م ، وأسس القيروان سنة 670م . عزله الخليفة معاوية سنة 675 ، ولكن يزيدا عينه واليا على المغرب سنة 681م ، وواصل فتوحه حتى ساحل المحيط الاطلنتكي .مات مقتولا سنة 683 .أنظر الزركلي ، المصدر السابق ج 4 ، ص . 241 .

فكان الجواب ما يلي : الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله .فضيلة العلامة النحرير ، الحائز قصب السبق في التحرير والتحبير ، المؤرخ النقاد ، ذو الذهن الثاقب ، والفكر الوقاد ، سيدي أبو الفضل جعفر الناصري ، سلام عليكم ، يعبق نسيمه ويخضل تسنيمه ، والرحمة والبركة ، تفاوح أنديتكم ، ما تعاقب السكون والحركة . وبعد فقد ألقي الي من لدنكم كتاب كريم ، ينم عما يحمله ذلك القلب الطيب السليم ، من صفاء حب وود ، وعض بالنواجد على أواصر العهد . شكر الله سعيكم ، وتولى رعيكم. وعليه جوابكم مستوفيا ترجمة جدكم من الأم الشريف ، وأعطائكم له ما يستحق من بيان وتعريف . فلله أبوكم ، ونتيجة ما غرسه جدكم وأبوكم . وفيه سؤالكم عن لفظ قبيلة زيان ، أعربي هو أم بربري ؟ وهل هو علم لأب القبيلة ؟ وإذا كان ، ففي أي زمن عاش هذا الرجل ؟ وبأي رسم كان قبل وجوده ، لأننا لا نجد رسم قبيلة زيان في حوادث التاريخ المغربي إلا أواخر الدولة السعدية ، وما بعدها ولا وجود لهذا الرسم بين القبائل البربرية ، التي نص عليها ابن خلدون ، وهل زيان ينتمي إلى جذم البتر ؟ أم إلى جذم البرانس ؟ وهل يوجد في أرضها مشاهد تذكر بالفتح الإسلامي كمشاهد رجال رجراجة ومسجد عقبة بوادي نفيس ، ومسجد شاكر بالشياضمة ، ما فيه بما هو خارج عن موضوعنا .

فقلت في نفسي عجبا ، لقد طال بك الأمد حتى صار البحر يستسقي من الثمل . أوَ ليس الناصري هو العمدة في التاريخ والمعتمد ؟ ولكن جريا مع الواقع هاك برضا وإن كان غير ناقع .

زيان هو إسم لأب القبيلة "زيان" الشهيرة ، التي عاصمتها خنيفرة ، يحدها شرقا قبيلة بني مجيلد ، مركز يتزر ، وغروبا مركز والماس ، ذو الماء المعدني الشهير ويسارا قبيلة بني مجيلد ، مركز عين اللوح ويمينا قبائل تادلا كبني زمور ، وما إليهم. وزيان من جذم برنس ، الذي يقال لأحد شعوبه أيت أمالو . وأيت أمالو من صنهاجة ، كاد الاتفاق يكون على ذلك ، وأيت أمالو هم قبائل زيان واشقيرن ، وأيت سخمان ، وأيت يسري ، وبني مجيلد ، وهم سكان جبل فازاز الذي تردد ذكرهم عند المؤرخين قديما من لدن الفتح الإسلامي ، إلى تاريخنا هذا اليوم وقد ذكر أيت أمالو وجبل فازاز وصنهاجة فضيلة والدكم المقدس ، عند تحدثه على وقائع سكانه مع الملوك السالفين ، وخصوصا ملوكنا العلويين ، فنجد ذكرهم في صحيفة 31-152-274 من الجزء الرابع من الاستقصاء . وفي هذه الصفحة الأخيرة ، ذكر جبل فازاز وسكانه ، وهم قبائل زيان واشقيرن ، وأيت سخمان ، وبني مجيلد ، وايت يسري وهؤلاء هم أيت أمالو بالضبط .

وكما لا يوجد لزيان ذكر بين القبائل البربرية التي نص عليها ابن خلدون ، كذلك لا يوجد ذكر لأخواتها من القبائل المذكورة ، من آيت أومالو ، وهم قبائل عظيمة جدا ، وتحتها عمائر وبطون ، وأفخاذ شتى ، وفصائل لا تجد فيها من الأسماء التي ذكر ابن خلدون ولا غيره . وإذا عرض للمؤرخين قديما ذكر لهذه القبائل ، فإنما يقولون بلاد فازاز .

فعندما تحدث المؤرخون القدماء على تقسيم أولاد المولى إدريس (1) لأقالم المغرب بينهم ، بعد وفاة أبيهم سنة ثلاث وعشرين ومائتي، ذكروا أن المولى أحمد (2) بن ادريس اختص بمدينتي مكناسة وتادلا وما بينهما من بلاد فازاز . وهاته بالضبط هي قبائل أيت أمالو . وقد ذكره والدكم صحيفة 75 جزء 1. وكذلك لما تحدثوا عن الفتح الإدريسي ، الذي شمل قبائل البربر سنة 172 هـ ذكروها ببلاد فازاز. وممن ذكرها ببلاد فازاز، أبو العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي (3) في كتابه الدر النفيس ، في سياق القبائل البربرية التي فتحها ، فقال :

"أما بلاد فازاز ، فاشتملت من الإسلام بالإكبار والاعتزازالخ... ، وما حدثت هذه الأسماء زيان واشقيرن وآيت سخمان وغيرها إلا في العهد الذي ذكرتم " .

وأما سؤالكم عن لفظ زيان أعربي هو أم بربري ؟ الظاهر أن هذا الإسم زيان عربي لأننا نجد جل أسماء أصول هذه القبيلة وفروعها عربية ، فهذا الزياني القح الذي يقال فيه هنا "لا يفتى ومالك بالمدينة" ، وهو مؤرخ الدولة العلوية ، وسفيرها ، ووزيرها العلامة ، أبو القاسم الزياني يعرف بنفسه وبنسبه فيقول : "أنا أبو القاسم ابن أحمد بن علي بن ابراهيم بن أحمد بن نوح النسابة ، ابن ابراهيم بن علي بن لحسن بن قاسم بن يحيى بن عيسى ، ويحيى هو أبو فخذنا من قبيلة زيان بن نوح بن فاضل بن علي بن زيان . وزيان هو أبو القبيل " ثم يستمر في رفع نسبه إلى صنهاج جد قبائل صنهاجة إلى آخره . فها أنتم ترون كل أسماء هذه الأصول عربية وكذلك نجد جل فروعها أسماء عربية . فنجد في عمائر قبيلة زيان ،

---

1 – هو إدريس بن عبد الله الكامل ، بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ، من فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام . جاء إلى المغرب فارا من بطش العباسيين ، فأسس –بمساندة القبائل الأمازيغية وخاصة قبيلة أوربة – دولة الأدارسة سنة 172 هـ –789م . ولما اغتيل من قبل هارون الرشيد (177هـ–793م) خلفه ابنه ادريس الثاني ، فسار على نهج أبيه في تأسيس دولة كبيرة تنافس دولة بني العباس في المشرق ، ولكنه فاجأته المنية سنة 213هـ –828م . وبموته دب الخلاف بين أبنائه الاثنى عشر ، وتجزأ المغرب إلى عدة ولايات . أنظر عبد الوهاب بن منصور ، أعلام المغرب العربي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 22.

2 – هو أحمد بن ادريس الثاني الحسني ، أمير من الأسرة الإدريسية التي حكمت المغرب عام 172هـ. ولاه أخوه محمد بن ادريس على مدينة تادلا والأطلس المتوسط ، ولكنه نكث العهد فاستبد بالأمر إلى أن مات ، نفسه ، ص .222 .

3 – هو سراج الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي، المنشأ والدار ، الفاسي الرحلة والدار ، الأديب المتضلع في النظم ، وفن المقامات . استقر بفاس سنة 1080هـ –1670م .

من مؤلفاته : "الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب الإمام إدريس بن إدريس " ، الذي جلب عليه عطف شرفاء العاصمة العلمية .

توفي بفاس عام 1120هـ–1708م، أنظر لفي برفنصال، تاريخ الشرفاء، المصدر السابق، ص203 ، 204 .

أيت الأحسن وسعيد ، أيت بوحماد ، ايت عمو وعيسى ، أيت الأحسن ، أيت معي . نعم ونجد بعضا آخر بربريا مثل آيت بومزوغ ، وآيت بومزيل .

وكما نجد الأسماء عربية في أصولهم وفروعهم ، نجدها عربية حتى في الأصول الثابتة التي فيما قبل التاريخ، من بعض جبالها ووديانها . فهناك جبل أبي موسى ، وجبل أبي حياة ، وجبل الحديد ، وجبا عميرة ، وكهف النسور ، ونهر أم الربيع الشهير. وهذه كلها أسماء عربية صحيحة ، وجلها محتف بمدينة خنيفرة .

وهذا مما يجنح بالمتأمل إلى القول بعربيتهم . وقد جنحت لهذه الفكرة أزيد من خمس وعشرين سنة ، في محاضرة القيتها بالمؤتمر التاسع للمعهد العلمي المنعقد في الرباط بتاريخ ماي 1937. وقد تناولت في هذه المحاضرة شتى نواحي هذا الأطلس المتوسط ، كديانة برابرة الاسلامية ، والقضاء الشرعي بينهم ، وحفظهم للقرآن واتخاذ الجوامع والتحبيس عليها ، مما جعل الموقف يتأزم عند بعض الحضور المستعمرين ، الذين كانوا يحسبون أن المغرب كله لهم برابر بأصوله وفروعه ، وجباله ولغته ، وكانت من بعضهم إعتراضات فاشلة .

أما سؤالكم هل يوجد في أرض زيان مشاهد تذكّر بالفتح الإسلامي ؟ فإني لم أعثر على شيء من ذلك ، ولا أعلم بوجود شيء منها ، لا في قبيلة زيان ولا غيرها من قبائل آيت أمالو ، ولكن لا نشك في أقدمية إسلامها لأنها من جملة البلاد البربرية التي فتح مولانا إدريس الأكبر(1) رضي الله عنه سنة 172. وقد جاء في الدر النفيس لأبي العباس الحلبي ، عندما ساق في نظمه لبعض القبائل التي وفقها الله لاستجابة دعواه قوله :

واستغاثت غياثة فأغيثت	بطريق إدريسنا المسنونة
وبلاد فازاز فازت باشرا	في شمائل درّة مكنونة
من كإدريس درة في بلاد الـ	مغرب قد أشرقت به الكينونة

هذا ما عند أخيكم ، فإن عثر بحثكم الجاد على شيء غير هذا ، مما يتعلق بهذه القبيلة وناحيتها ، فأفيدوه ، والدر من معدنه ، وفي الأمثال العامية "ولد المعلم عنده نصف الصنعة" ، فأحرى من كان مثلكم إطلاعا وبحثا ، ونبوغا كثر الله أمثالكم .

وقد جاء في عدكم للمشاهد التي تذكر بالفتح الإسلامي قولكم "كمسجد شاكر بالشياضمة" ، والذي أعرفه أن مسجد شاكر ببلاد حمير . هذا ومقصودنا من هذا كله هو إقامة البرهان على ما لهذا المغرب من جميع شعوبه ، من مفاخر إسلامية وتاريخية خلدت له الذكرى الباقي إلى الأبد ، رغم أنف مناوئيه ، وشانئيه والله يبقي مُجادتكم ، ويكلل سعادتكم والسلام .

---

1 – فتح إدريس الأول جبال الأطلس أو ما كان يسمى ببلاد فازاز سنة 173 هـ–789م أي سنة فقط من بيعته .

فكرة عروبة البربر قديمة .

فكرة عروبة البربر قديمة ، وأن العرب والبرابر إخوان ، في اللحمة والدين . فهذا أبو عبيدة بن قيس يقول :

ألا أيها الســـــاعي لفـــرقة بيننـا	تـــوقف هـداك اللـــه سبل الأطايـب
فأقسم أنـــا والبـرابـر إخـــوة	تنـــاولنـا جــــد كـــريم المناســب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى	لـــه حــرمةٌ تشْفــي غليـــل المحارب
وبربـر قيـس عصبــةٌ مضـــريةٌ	وفـــي الفــرع من أحسابهـم والذوائب
فنحـــن وهـــم ركـن منيـع وإخوة	علـى رغــم أعــداء لِئَــام المنــاقـب .

وقد أكثر المؤرخون من اختلافاتهم في عروبة البربر ، أو بقائهم على بربريتهم. وممن طرق الموضوع في عصرنا هذا ، والذي قبله بيسير ، الناصري في الاستقصا ، وسيدي ابن زيدان في تاريخه الأعلام ، وسيدي عبد الله كَنون في "خل وبقل" .

ومن أبدع ما جاء في ذلك ما كتبه الأستاذ شرف الدين محمد رضى من بغداد ، وقد جاء بدعوة من وزارة الخارجية المغربية ، بتاريخ السبت 14 أبريل 1957 ، وخرج من المغرب الخميس 26 أبريل ، وجاء بصفته مندوبا لجريدة اليقظة في جملة من مندوبي الصحف ، بمناسبة افتتاح المعرض الدولي بالدار البيضاء ، فألقى محاضرة بنادي العروبة بالبحرين . وقد ألف في زيارته هذه للمغرب كتابا في 228 صفحة ، وقد أيد نظرية عروبة البربر بأدلة قريبة من التعقل في حسن عبارة ولطف إشارة .

ويذهب بعض علماء وشعراء الدولة من الملثمين (1) ، على أنهم عرب من حمير ، فهذا شاعرهم الأندلسي يحيى بن سهل اليكي (2) يمدح الملثمين فيقول :

قوم لهم شرف العلى من حمير	وإذا انتمـــوا لمتونــة فهـم هـــم .
لما حووا إحـــراز كل فضيلـة	غلــب الحيــاء عليهـم فتلثَّمـــوا.

ويقول أبو عبد الله بن حبوس (3) أحد شعراء الدولة الموحدية في الوزير ابنَ عطية (4) :

---

1 – وهي الدولة المرابطية التي انقرضت سنة 593 هـ /1144م ، بعدما حكمت المغرب الأقصى والأوسط ، والصحراء والأندلس ، قرابة مائة عام . من أشهر ملوكها يوسف بن تاشفين وابنه علي.

2 – هو يحيى بن عبد الجليل بن سهل اليكي من أهل «يكة» ، أحد حصون مرسية بالأندلس ، شاعر هجاء ، كثير الهجاء للمرابطين ، سماه أكثر مترجميه "«يحيى بن سهل» نسبة إلى جده . توفي حوالي 560 هـ /1165م . أنظر الزركلي ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص 250 .

3 – هو أبو عبد الله محمد بن حبوس الشاعر الأديب ، ولد بفاس سنة 500 هـ/ 1106م ، وتوفي سنة 570 هـ /1174م ، أنظر عبد الله كَنون ، النبوغ المغربي ، المصدر السابق ، ص 167 .

4 – هو أبو جعفر بن عطية القُضاعي ، وأصله من عرب طرطوشة . اتخذه عبد المومن وزيرا سنة 545هـ/1150م خلافا لما جرت عليه العادة من أن الوزراء يعينون من المصامدة . نهض ابن عطية بأعباء الوزارة حتى أحبه الناس ، ولما توجه إلى الأندلس وجد حساده السبيل إلى التدبير عليه حتى أوغروا صدر الخليفة عبد المومن عليه ، فقتله . أنظر أحمد المقري ، نفح الطيب ، المصدر السابق ، جزء 7 ص 182 .ترجم له عبد الوهاب بن منصور في أعلام المغرب العربي ج 3 . ص276

أندلســــي ليس مــن بــربــر ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ يختلـــس الملـــك مـــن البربر
لا تسلــم البــــربر ما شيّدت ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ بالــملــك القيسي من مفــــخر.

ولنكتف بهذا القدر في عروبة البربر لأن تتبع كل ما جاء في ذلك يطيل بنا الحديث ، مما لهم وعليهم في القديم والحديث .

قولة ابن خلدون في أخلاقهم .

وقريب مما قدمته في وصف هؤلاء البرابر ، هو ما ذكره ابن خلدون ، وقد قلت ما قلته فيهم عن معاينة ومشاهدة قبل أن أقف على ما وصفهم به ابن خلدون ، بأزيد من عشرين سنة . وهذا قول ابن خلدون فيهم نقلا عن المؤرخ الزياني في الترجمانة الكبرى .

" أما تخلقهم البربري بالفضائل الإنسانية ، وتنافسهم في الخلال الحميدة ، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم ، ومرقاة الشرف ، والرفعة بين الأمم ، ومراعاة المدح والثناء ، من الخلق ، من عز الجوار ، وحماية النزيل ، والأُدْمة والوسائل، والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكاره ، والثبات في الشدائد ، وحسن الملكة ، والإغضاء عن العيوب ، والتجافي عن الانتقام ، ورحمة المساكن ، وبر الكبير وتوقير أهل الدين ، وحمل الكل ، وكسب المعدوم ، وقرى الضيف ، والإعانة على النوائب ، وعلو الهمة وإباء الضيم ، ومشاقة الدول ، ومقارعة الخطوب ، وغلاب الملك . وبيع النفس في الله في نصر دينه ، فلهم في ذلك ، آثار ينقلها الخلف عن السلف ، لو كانت مسطورة يحفظ منها ما يكون إسوة لمتبعيه من الأمم ، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها ، واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز ، وأربت بهم على ثنايا الملك ، حتى علت الأيدي أيديهم ، ومضت في الخلف بالبسط ، والقبض أحكامهم ، وكان منهم مشاهر في كل طبقة من طبقات الإسلام بعد إسلامهم .

ففي الطبقة الأولى منهم بإفريقيا مناد الصنهاجي وولده زيري (1) ، وإبنه بلكين (2) بن زيري الصنهاجي أميرها ، ومحمد بن خاراز ، وابنه الخير ابن محمد ، بالواسطة وعروبة بن يوسف الكتامي القاسم بدعوة عبيد الله الشيعي ومصالة الكتامي .

---

1 – هو زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر المغراوي ، استولى على المغرب الأقصى ، واتخذ فاس عاصمة ملكه (369هـ/980م). وتمكن من ضم منطقة كبيرة في المغرب الأوسط ، امتدت من تلمسان إلى الزاب ، وفي غشت سنة 383هـ/993م ، اختط مدينة وجدة ، وجعلها عاصمة دولته لكونها تتوسط مملكته الواسعة . ولما علا أمره وعظم سلطانه ، استقل عن بني أمية بالأندلس ، واكتفى بالدعاء للخليفة وحده فوق المنابر ، ولكن المروانيين جهزوا إليه جيوشا وهزموه ، فانسحب إلى المغرب الأوسط حيث توفي محاصرا سنة 323هـ/1002م . أنظر الزركلي ، مصدر سابق ، ج 3 ، ص . 63 .

2 – عينه المعز الفاطمي سنة 358هـ/968م – بعد انتقاله إلى القاهرة– واليا على إفريقية . فبقيت أسرته تتعاقب على الحكم حتى جاء المعز بن باديس فقطع الخطبة باسم الفاطميين وحولها إلى خليفة بغداد سنة 440هـ-1048م .

وبالصحراء أبو بكر بن عمر اللمتوني(1) ، وبالمغرب يوسف بن تاشفين اللمتوني وولده علي بن يوسف (2) وعبد المومن ابن علي الكَومي (3) ثم إلى يعقوب بن عبد الحق المريني (4) وبنوه (5) .

فقد كان لهم من الاعتناء بالعلم والجهاد ، وتشييد معالم الدين وسد الثغور وبذل النفس في ذات الله ، وإنفاق الأموال في سبيل الخيرات ومخالطة أهل العلم ، وترفيعهم مكانتهم في مجالسهم ، ومفاوضتهم في الاقتداء بالشريعة ، والانقياد لانداراتهم في الوقائع والأحكام ، ومطالعة سير الأنبياء ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخبار الأولياء ، وسرد ذلك بين أيديهم ، وأواوين ملكهم ، ومجالس أحكامهم وقصورعزهم ، وجلوسهم بالمقاعد لشكوى المظلومين ، وإنصاف الرعايا من العمال ، والضرب على أيدي أهل الجور ، وتحصين ثغور المسلمين بالبنيان وآلة الحرب وتجهيز الكتائب لدار الحرب ، وإنفاق الأموال العريضة .

شهدت لهم بذلك آثار خلفوها بعدهم وظهور الكمل منهم ، فقد كان فيهم من الأولياء والمحدثين أهل النفوس القدسية ، والعلوم الوهبية ، أقوام ورجال إلى آخر كلامه بل درره الساطعة في هؤلاء البرابر ، مما يخلد لهم مجدا عظيما وفخرا جسيما .

قال الزياني بعد هذا ، وما وصف به ابن خلدون هذا الجيل البربري من الأوصاف الحميدة ، والمناقب السنية العديدة معلومة للعرب في الجاهلية والإسلام.

---

1 – هو أبو بكر بن عمر ابن تلاكَيكَين اللمتوني أمير المرابطين من صنهاجة الصحراء . تولى الإمارة سنة 448هـ/1065م ، فاستولى على جبال المصامدة وشمال الأطلس الكبير بما فيها أغمات التي طرد منها أميرها لقوط بن يوسف المغراوي ، ثم غزا القبائل البرغواطية ذات العقيدة الفاسدة في نواحي تامسنة ، وعندما توجه إلى الصحراء استخلف على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي أصبح أمير المسلمين فيما بعد وبنى مدينة مراكش . استشهد أبو بكر في إحدى المعارك في الصحراء سنة 480هـ/1087م ، أنظر عبد الوهاب بن منصور أعلام المغرب العربي ، المصدر السابق، ج 1 ص . 228 .

2 – هو علي بن يوسف بن تاشفين (477-537هـ) بويع بعد وفاة والده العظيم وخاض معارك كثيرة في الأندلس ، حالفه فيها الظفر . وفي أيامه ظهر المهدي بن تومرت الهرغي.

3 – هو عبد المومن بن علي بن مخلوف ، بن يعلى الكَومي (487-558هـ) . بويع بعد وفاة شيخه ابن تومرت ، ويعتبر بحق المؤسس للإمبراطورية الموحدية التي امتدت من مصر شرقا إلى البحر المحيط غربا ، ومن قلب الأندلس شمالا إلى السودان جنوبا . أنظر العباس بن ابراهيم ، الإعلام ... ج 8 ، ص . 391 .

4 – سادس ملوك الدولة المرينية (659-685هـ) .

5 – وهم أبو يعقوب يوسف ، وعامر أبو ثابت ، وأبو الربيع ، وسليمان بن عبد الله بن يوسف ، وأبو سعيد عثمان بن يعقوب .

هل هؤلاء البرابر حواريو(1) النبي صلى الله عليه وسلم .

إذا اعتبرنا الأوصاف الحميدة التي قام بها هؤلاء البرابر ، من نصرة هذا الدين ، والذب عن كيانه ، وحماية شريعته ، ومساندة العطرة الطاهرة ، من ذريته صلى الله عليه وسلم ، كأوربة (2) ، وكبيرها عبد الحميد (3) ، في إيواء المولى إدريس رضي الله عنه ، وسجلماسة في إيوائها المولى الحسن الشريف (4) ، إذا اعتبرنا ذلك ، لاشك أنهم بذلك أنصار الله ، وهم بهذا المعنى حواريون لمحمد صلى الله عيه وسلم ، لأن الحواري هو الناصر أو ناصر الأنبياء كما في القاموس . وهذا ما حكاه الله في كتابه العزيز عن عيسى وحوارييه "وإذ قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله"(5) .

أما ما جاء في ذلك بلفظ حديث مروي عن فاطمة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنفس لا تطمئن إليه من الطرق الصحيحة الحديثية . وها نحن نسوق ما جاء في ذلك على ما هو عليه وفي عهدة صاحبه .

والذي جاء في ذلك هو ما في نزهة الحادي للوفراني يقول: "وفي دخول مولاي الحسن ، يعني جد الأشراف العلويين للمغرب وإكبابه عليه كإكبابهم على التاج إدريس رضي الله عنه تصديق للحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال في الجمان : "روي أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطت جارية لها صدقة بعد وفاة رسول الله صلى الله

---

1 - يقصد: الذين بالغوا في نصرة الدعوة الإسلامية ، تشبيها بالحواريين (أي الخلفاء) الذين ناصروا عيسى عليه السلام ، ابن منظور ، المصدر السابق ، مادة حور .

2 - قبائل أمازيغية يعدها النسابون من البرانس . كانت أوربة ذات قوة عظيمة ، وبأس شديد إلى عهد الفتح الإسلامي . يمتد نفوذها من طرابلس إلى طنجة وقد وصلت إلى ذروة الإمارة أيام بني أمية ، وبني العباس ، إلى أن آوت إدريس الأول وبايعته بمدينة وليلي سنة 172هـ/789م . تعرف اليوم بوربة فقط ، وهي في ناحية تازة ، أنظر عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، المصدر السابق ،ج 1، ص 313 . وكذلك الناصري ، الاستقصا ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص . 138-141 .

3 - هو إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي على ما عند ابن خلدون ، أو عبد المجيد على ما عند غيره . كان رئيس قبيلة أوربة ، عندما نزل بها إدريس بن عبد الله الكامل (الأول) . وكان إسحاق أول من استجاب لدعوة هذا الأخير عندما طالب من إيمازيغن أن يناصروه . أنظر عبد الرحمان ابن خلدون ، العبر ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص . 24-26 وكذلك الناصري الاستقصا ، المصدر السابق،ج.1 ص . 140-149.

4 - هو الحسن بن قاسم جد العلويين ، يتصل نسبه بنسب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، جاء من ينبوع النخيل (الحجاز) إلى سجلماسة أواخر المائة السابعة (1301م) ، ومات في تاريخ غير معروف بسجلماسة ، أنظر الوفراني ، نزهة الحادي ، المصدر السابق ، ص .287-294 .

5 - سورة الصف : 14.

عليه وسلم ، وقالت لها إمضي إلى السوق بها ، وقولي من يقبل صدقة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن قبلها منك فأتني به" . فمضت الجارية إلى السوق وقالت : من يقبل صدقة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجل مغربي أنا موضع صدقة آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطته الصدقة ، وقالت له : أجب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها نعم ، فلما بلغ الباب سألته من أنت ، فقال لها ، أنا رجل من المغرب ، فقالت من أين أي المغرب؟. فقال من البربر ، فبكت فاطمة ، وقالت : "قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل نبي حواري ، وحواري ذريتي البربر ، سيقتل الحسن والحسين ، ويفر أولادهما إلى المغرب ، فلا يأويهما إلا البربر ، فيَاوَيْحَ من فعل بهم ذلك ، وطوبى لمن أكرمهم وأعزهم" انتهى .

هذا ما جاء في هذه الرواية التي لم يبين ناقلها طريقها، ولا أساندها ، بل وحتى مخرجها ، مما يجعلها في نظر المحدثين حديثا ، لا يعتد به . نعم هناك حديث نبوي قريب من هذا المعنى ، وهو ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، بعد نهايته من فتح مكة ، جاءته وفود من جميع الجهات ، وكان فيها وفد يشتمل على أشخاص المغرب ، تقدموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألهم ، وقال لهم :"لماذا جئتم ؟ قالوا جئنا لنومن بك ونصدقك ونحن رسل أناس من ورائنا . قال : أبشروا ستحاربون صنفا من الروم وستغلبون عليهم " (1) انتهى .

مازيغ يوصي أولاده .

وما قيل في حديث البرابر حواريي النبي صلى الله عليه وسلم متنا وسندا وعلة، يقال في الوصية المأثورة عن مازيغ لأولاده، وما دمنا نتحدث عن البرابر ، ونضع لمفاخرهم المنابر ، فلا بأس أن نثبتها هنا لغرابتها ونوردها برمتها لطرافتها . وقد ذكرها كثير ممن أرّخ للبربر ، واخترنا هنا سياقها بلفظ مؤرخ المغرب وعلامته ، صديقنا وأخينا سيدي عبد الله كَنون ، مع تعليقه عليها الممتع الفياض ، غيرة وحماسا على محاولي التفرقة بين العنصرين البربري والعربي ، قال : "ذكرواأن الشيخ مازيغا أي جد إيمازيغن لما حضرته الوفاة جمع أولاده العديدين ، وقال لهم : يا بني إني تارككم ، وذاهب إلى ربي . وسأعهد إليكم ببعض الأمور ، ففقهوا عني ما أعهد إليكم به، ولا تضيعوا منه شيئا ، فتجفوني ، وتكفروا حقي عليكم . إنه لآ إله إلا الله وحده ،ربكم ورب آبائكم الأولين ، خلقكم ورزقكم ، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون وأتاكم من الحول والقوة ما لا قبل لأحد معه بكم ، فاعبدوه واشكروا الله له اليه ترجعون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، فإنكم بهذه العدوة بمرآى ومسمع من أولا ئك الأروام ، أعداؤكم الابديون (2) ، وأنهم متى آنسوا منكم ضعفا ، أو رأوا بينكم تجادلا ، إنقضوا عليكم ،

---

1 ـ لقد وهم المؤلف لأن هذا الحديث غير موجود في صحيح مسلم.

2 – لعله يشير إلى اليهود والنصارى أعداء الإسلام الأبديين .

ولم يفلتكم . واعلموا أن هذه الارض ليست هي منبت أبائنا الاولين ، وموطن اجدادنا الاقدمين السابقين، وإنما طوحت بي إليها المقادير، وساقتني إليها المشيئة ولا راد لقضاء الله وارتضاه.

مشيناها خطًى كتبت علينا — ومـــن كتبت عليه خطـى مشاها

وأرزاق لنــــا متفرقـــاتٌ — فمـــن لـــم تئـته حقـــا أتـــاها

ومن كتبت منيته بـــــأرض — فليـــس يمـوت فـي أرض سـواها

أما أرض الاسلاف فنا حية الشرق ، حيث ينزل هذا الشعب من أبناء إسماعيل، أهل قرباكم وذوي رحمكم : فـأياها فتـيمموا ، وإليهـا ، فـاستقبلوا ، وبالقوم هناك فـاعتضلوا ، وعليهم فاجتمعوا ، فالخير كله من ثم مأتاه ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

فمات «مازيغ» وأقام أبناؤه في مـأتمه مجتمعين ، عدة أسابيع ، ثم تفرقوا في أحيائهم وقراهم ، على أن يجتمعوا للنظر في عهد أبيهم بعد الفراغ من أعمالهم الفلاحية ، وقضاء مصالحهم الحيوية .

وقد اجتمعوا وتداولوا الرأي بينهم . فمـا أعلم من بنين كـانوا أفهم لغرض أبيـهم، وأحرص على نفاذ عهده بقسميه الإداري والسياسي منهم . لقد حموا هذه الأرض ، من أن تطأها قدم أجنبي ممن ذكر في وصية أبيهم . فما دخلها قط إلا في إدبار دولتهم وانتقاص من سلطانهم . وأول * ما عملوه في هذا السبيل ، عند بلوغ الدعوة الإسلامية إليـهم ، أن خرج ستة نفر منهم حتى وفدوا على عمر (1) ، بالمدينة المنورة . وهو يومئذ أمير المؤمنين ، فقال لهم : من أنتم قالوا : نحن بنو مازيغ ، فقال عمر لجلسائه: هل علمتم قط بهؤلاء ؟ فقال شيخ من قريش : يا أمـير المؤمنين هؤلاء البـرابر ، من ذرية بربن قـيس بن كـهلان ، خـرج مغاضبا لأبيه وإخوته ، فـقالوا : بربر ، أي أخذ البرية فـقال لهم عمر رضي الله عنه : ما علامتكم ؟ بلادكم ؟ قالوا نكرم الخيل ونهين النساء ، فقال عمر ألكم مدائن ؟ قالوا : لا . قال : ألكم أعلام تهتدون بها ؟ قالوا :لا . قال عمر : والله لقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في بعض مغازيه ، فنظرت إلى قلة الجيش وبكيت . فقال لي رسول الله صلى الله عليه

---

1 - ثاني خلفاء الراشدين ، تولى الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سنة 13هـ ، وتوفي سنة 63هـ .

*- "قصة النفر الستة الوافدين على عمر تناقلها المؤرخون قديما وحديثا ، ومن المتأخرين صاحب الاستقصا ، وسيدي بن زيدان عن كتاب الجمان في أخبار الزمان للشطيبي(2) ، قال ابن زيدان ، هي غريبة جدا ، فهي في عهدته ، والشطيبي وهو العلامة المؤرخ الأجل المشهور بالشطيبي" اهـ مؤلفه .

ملحوظة :

2 - هو أبو عبد الله محمد بن علي الأندلسي الشهير بالشطيبي المتوفى سنة 963هـ/1555م بتازغدرة ببني زروال أنظر محمد القادري ص. 89 .

وسلم : يا عمر ، لا تحزن ، فإن الله سيعزز هذا الدين بقوم من المغرب ، ليس لهم مدائن ولا حصون ، ولا أسواق ، ولا علامات يهتدون بها في الطرق . ثم قال عمر : فالحمد لله الذي منَّ علي برؤيتهم . ثم أكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم من الجيوش القادمة عليه .

وإذ ترامت إليهم هذه البشارة ، ازدادوا بينة من أمرهم ، فلم ينشب أحدهم وهو طارق بن زياد (1) ، أن جمع جيشا يحتوي على إثنا عشر ألف مقاتل ، من أبناء إخوته وعمومته ، وعبر بهم بحر الزقاق (2) إلى بلاد الأندلس الجميلة ، ثم حرق الأجفان ، التي عبروا عليها ، قطعا لأملهم في الرجوع ، وخطب فيهم ضاربا على وتر وصية أبيه فقال :"أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام ، في مأدبة اللئام " . فما حاصوا حتى قتلوا ملك القوط ، ودوخوا أرض الفرنج ، فبلغوا ضفاف اللوار(3) ، ناشرين من هناك أعلام الحضارة الإسلامية ، ومؤسسين دولة الثقافة والعلم والأدب واللغة العربية . وما أن سوّل الغرور لقشتالة (4) وملكها (5) ، وما أن لاح سناء النور المحمدي على تراب القبيلة البربرية ، قبيلة أوربة * شمال مدينة مكناس عند

---

1 – طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو الأمازيغي الأصل ، فاتح الأندلس . لما تم لموسى فتح طنجة ولى عليها طارقا (89 هـ–92هـ) وفي سنة 92 هـ عبر البحر إلى الأندلس على رأس جيش قوامه 12.000 جندي ، فقتل الملك روذريق وافتتح إشبيلية وقرطبة ومالقة ، وطليطلة عاصمة الأندلس. ثم توجه شمالا ، فاستولى على عدة مدن أخرى ، وعاد إلى طليطلة (93هـ) ، فالتقى مع موسى بن نصير ، وكان هذا الأخير قد حذره من التوغل في الفتوح والمغامرة بمن معه ، فعاقبه بالعزل من القيادة ، ولكن الوليد بن عبد الملك أعاده إلى منصبه . وهكذا استأنف غزاواته واتجه نحو الشرق، حتى وصل نهر التاجة (Le Tage) ، فافتتح سرقسطة وطرطوشة وبلنسية . وفي سنة 96م استدعاه الوليد إلى الشام مع موسى بن نصير . أنظر أحمد المقري ، نفح الطيب ، المصدر السابق ج 1 ، ص 108 .

2 – اسم عرف به مضيق جبل طارق .

3 – أطول أنهر فرنسا (100 كلم) ينبع من السيفن Cevennes ويصب في المحيط الأطلسي ، وعلى ضفافه وقعت معارك دامية بين المسلمين والمسيحيين (القرن الثامن الميلادي) .

4 – منطقة في وسط إسبانيا ، نشأت فيها ، منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، إمارة ، عاصمتها برغس التي انضمت إلى مملكة ليون (1230م) . وأخذت تتوسع على حساب الإمارات العربية . وفي سنة 1469 اتحدت مع الأراغون ، بعد زواج الملكة ايزابيلا الثانية وفرديناند الأراغوني .

5 – يتعلق الأمر ب Rodrigue ، وهو آخر ملوك القوط بإسبانيا . قتله طارق بن زياد في معركة نهر وادي بكة في سنة 711م .

*– "أوربة . يزعم فخذ آيت وربيل من زمور أنهم من أوربة هذه ، وأن عبد الحميد منهم ، ولهم ظواهر تدل على شيء من ذلك ، ومنها محبتهم لمولاي إدريس وإقامتهم المواسم العادية على ضريحه" . اهـ.مؤلفه .

المدينة الرومانية «وليلي» (1) التي تحمل إسما بربريا إلى الآن وهو وليلي أي «الدفلة» .

فما أن لاح عليها ذلك السناء غرة ربيع الأنور ، سنة اثنين وسبعين ومائة ، على تلك القبيلة البربرية الخالدة المجد ، الثابتة العز ، حتى مدت يدها تصافح حامل ذلك النور ، وتعانق من جاء به عن جده الأكرم ، وترحب بما جاء به من دين وشريعة محمدية عن طواعية ورضى ، وترحب بالنبعة المحمدية والسلالة الطاهرة المضطهد من أبناء عمه . ذلك هو الشريف الأظهر المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه ، فما أن وطئت قدمه الثرى البربري بجوار رئيس قبيلتها وشيخها وعظيمها ، عبد الحميد حتى تناسى عظمته ، ورياسته . والرياسة آخر ما يخرج من قلوب العارفين بالله ، تناساها هذا البربري ، وتنازل عنها للبضعة الطاهرة ، والفسيلة الزاهرة ، ويكون له خير معين، وأعز نصير على نشر لواء الإسلام ، وبث دعوة جده الرسول عليه أفضل الصلاة، وأزكى السلام ، فيالها منقبة ، لهذا البربري وقبيلته البربرية ، تضاف إلى مناقب البربر ، ويدهم على الإسلام في أراضيهم ، جبالها وسهولها . فما أجدرهم بالمدح وأحقهم بالثناء ، وهذا ما نرى يوفيهم إياه مادح النبي صلى الله عليه وسلم ، وعاشق حضرته أبو العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي الأصل ، الفاسي الدار فلنستمع إليه إذ يقول :

إن مدحت المادحين أوربة ... وجد القلبُ بمدح أرْبَهَ
مدح من أيَّد إدريس الرضى ... ابن طه المصطفى ما أطيبه
ورضى مولى الموالي استوجبوا ... إذ أجابوه بما قد طلبه
وامتثال الأمر منهم فيهم ... كل فرد منهم قد أوجبه
وأحمده" عبد الحميد "المرتضى ... إذ دعاهم وإليهم حبَّبه
قاتلوا بين يديه جملة ... طالبين بره أو قُرَبَهَ
ليس منهم من فتى عند الوغى ... عن قتال خوفَ موت حجبه
بل لقد كان إذا مات الفتى ... منهم ألْفَى بموَت طربه

---

1 - يبدو أن هذه المدينة الواقعة على بعد 30 كلم شمال مكناس ، كانت موجودة أيام ملوك إيمازيغن مثل يوبا الثاني وبليموس. ثم أصبحت في العهد الروماني مقرا للولاة الرومانيين بموريتانيا الطنجية . وقد بلغت قمة مجدها أيام الإمبراطور بروبرس . (276-681) . ولكنها تدهورت وتخربت بعد ذلك . ولما جاء إدريس بن عبد الله الكامل إلى المغرب نزل بها وبدأ ينشر دعوته بمساندة عبد الحميد الأوربي . غير أن المدينة لم تعرف ازدهارا يذكر بل على العكس من ذلك انقطع عمرانها . ثم جاء زلزال سنة 1755 فدك ما بقي منها .

وفي سنة 1915 شرعت مصلحة الآثار بإظهار معالمها ، مستخدمة أسرى ألمانيين جيء بهم من الجبهة الأوربية . وتوبع العمل بعد ذلك حتى تم رفع الأنقاض عن مساحة تبلغ 15 هكتارا من مجموع الأربعين هكتارا التي يغطيها مسطح البلد . أنظر ، ابن غازى ، الروض الهتون ، مصدر سابق ، ص . 13.

ليس منهم ماجد إلاّ غدى	لعدو بحسام ضرَبه
فأحمده أنصار إدريس الرضى	حمدهم قول المحب استوجبه
فعل أنصار بِطَـهَ فعلوا	مع إدريس الكرام أوربه
ربنا ارحمهم وأدخل جمعهم	جنة الفردوس ذات المرتبه

ويقول بعض المؤرخين أن أوربة هذه ، قبيلة بربرية ، نزحت من جبل أوراس بالقطر الجزائري ، ولهم نظرية في سبب هذا النزوح . ذلك أن أمراء هذه القبيلة عندما اضطروا إلى مغادرة بلادهم ، وكانوا قد ألفوا النظم الرومانية ، وحضارتهم فيها منذ سنين ، قصدوا جبل زرهون ، حيث المدينة الرومانية ، أو أعظم مدن الرومان بالمغرب ، "وليلي" ، لما كانت تشتمل عليه في ذلك الحين ، من بقايا الحضارة الرومانية، من بنايات ، وطرق وقنوات ماء وما يتبع ذلك .

وشاعرنا هذا ، يمجد قبيلة أوربة وكبيرها ويسميه عبد الحميد ، وهو بالحاء قبل الميم ، وبعضهم يقول إسحاق بن محمد بن عبد الحميد .

وقد أغرب الكاتب الحسن بن صديقنا العلامة ، القاضي السائح ، في مقالة عنوانها "البربر والعروبة" ، في تسميته عبد المجيد ، واستدلاله على ذلك بوجود قبيلة تحمل هذا الإسم ، فقال : "وقد يمّم أي مولانا إدريس جهة المغرب ، لإقامة دولة عربية ، فآوته القبائل البربرية وبالأخص قبيلة عبد المجيد يخطىء بعض المؤرخين ، فيقول عبد "الحميد" والغالب عبد المجيد ، بدليل وجود هذه القبيلة إلى يومنا هذا " انتهى قوله . فنراه استدل على تسمية كبير أوربة بعبد المجيد بالميم والجيم ، بوجود قبيلة ثمة ، تسمى قبيلة عبد المجيد . ولا نعرف قبيلة بربرية في جبل زرهون، تحمل هذا الإسم ، بل ولا في قبيلة زمور ، وخصوصا فخذ آيت وربيل . والذي نجده في قبائل البربر ، يحمل قبيلة عبد الحميد ، لكن ليس في قبائل زرهون ، أو زمور، بل نجد قبيلة عبد الحميد في ضواحي تاهلة بعمالة فاس ، من دائرة تازة ، وكذلك بمغراوة من الدائرة المذكورة . ونشكر كاتبنا إن دلنا على القبيلة التي تحمل هذا الإسم عبد المجيد بزرهون أو زمور.

ثم بعد قبيلة أوربة ، تتابعت أمم أخرى من البرابر العباقرة ، حماة التنزيل ، وأباة الضيم ، وفرسان الهيجاء ، وغوث الطريد ، وكهف الشريد ، في نصرة إدريس الرضى ، وعونه على نشر دعوة الإسلام .

وهم ، سماهم شاعر الحضرة المحمدية وذريتها أبو العباس الحلبي في هذه القطعة فقال :

جـزى الله بالخيرات قوما بربرا	اطاعوا الإدريس من نورزهت ومنابرا
سينصب ذو العرش الكريم لهم غدا	كراسي من نور زهت ومنابرا

أطاعوا الرضى إدريس عن طيب أنفس ... وسروا بإدريس الإمام خواطرا
وهم نفْزَة مكْناسَة وغمَارَة ... وغيَّاثة ، حازو العلى والمفاخرا
وسْدارَة ولُمايَة ولُواتَة ... وزْوَاوَة ، جاءوا وكانوا أكابرا
زواغة ، ماقد زاغ منهم موفق ... عن المرتضى إدريس ما كان آمرا
هنيئا لهم قد شاهدوا نور وجهه ... كما شاهد الرائي الرياض الزواهرا
ومالُوا إليه ميل طير لوكرها ... وكل فؤاد منهم كان طائرا
وقد وجدوا في قرب إدريس بهجة ... كما وجد الروض الفضا والأزاهرا

بل وقبل وفود المولى إدريس رضي الله عنه ، ما كادت تطأ حوافر فرسان العرب الفاتحين ، بقيادة عقبة بن نافع الصحابي الجليل(1) ، رضي الله عنه ، ما كادت تطأ أرض أفريقيا ، موطن أبناء مازيغ حتى أسلسوا له قيادهم ، وطأطأوا له الرؤوس ، إذعانا لسطوة الحق واتباعا لساطع نور القرآن ، الذي جاؤوا به ، تحمله يمينهم ، مع شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعاليمها الباهرة ، متناسين الضغائن والأحقاد ، التي مرت بين الآباء والأجداد ، وتوارثها عنهم الأبناء والأحفاد . تناسوا كل ذلك ، وأحنوا رؤوسهم الشامخة بعد جماحها تحت لواء الشريعة الإسلامية ، وطي جناحها .

وهذا ما أشرت إلى بعضه من قصيدة ميلادية ، رفعت لحضرة صاحب الجلالة ، سيدي محمد بن يوسف أيده الله ، ليلة عيد ميلاد سيد الكائنات عام -1352، يوافق يتيه 1933، من مدينة وادي زم ، عندما كانت براكن الغيرة الوطنية ، تلتهب ، حفاظا علي الشريعة المحمدية التي سيمت آنذاك بكيد في رمز التفرقة ، بين العنصرين بل الأخوين المواطنين ،العرب والبربر، باستصدار الظهير البربري (2) . فعمدت فيها إلى أبيات منها قصداً ، أذكيت فيها حماس الأمة حول القضية ، وألهبت من شعورهم حتى لا يخنسوا . وألمعت إلى أن العنصرين العربي والبربري ، إخوان متحدين ، وحدهم بين الدين والقرآن ، والأبيات منها هي هذه :

---

1 - لقد وهم المؤلف عندما عدّ عقبة بن نافع الفهري من الصحابة. قال الحافظ الإمام شمس الدين بن أحمد بن عثمان الذهبي في سير أعلام النبلاء: " هو عقبة بن نافع القرشي الفهري الأمير نائب افريقية لمعاوية وليزيد (62 هـ) ، وهو الذي أنشأ القروان وأسكنها الناس ، وكان ذا شجاعة ، وحزم ، وديانة ، لم يصح له صحبة ... " ج 3 ص532ـ 533.

2 - صدر في 16 ماي 1930 ، ولم يكن إلا حلقة متطورة ضمن "السياسة البربرية" ، التي نهجتها فرنسا منذ أن غزت جيوشها بلاد بني مطير سنة 1914 ، مع الجنرال هنريس . وتتلخص هذه السياسة في سلخ إيمازيغن من الأمة المغربية وتطويرهم بمنآى عن العرب ، والحضارة العربية الإسلامية . ففي ميدان العدلية مثلا تم التخلي عن الشريعة الإسلامية لصالح المحاكم العرفية ، وفي ميدان التعليم قال أحد المتمزغين : "علموا كل شيء للبربر إلا العربية والإسلام " .

وكانت فرنسا تهدف من وراء هذه السياسة إلى محو الشخصية المغربية من أجل الوصول إلى التحكم في البلاد والعباد ضمانا لبقائها في المغرب . أنظر الحسن بوعياد ، الحركة الوطنية ، دار الطباعة الحديثة ، الدار البيضاء 1979 ص . 5-6

تبــوأ كــرسي الخلافــة عصبـة بطيبــة وهــي ســنا المجد ناضره
تضـيء سبيل الفتح منـها لصيتهم وهــنـد يحيــى بالبشــائـر زائره
وأعلامــهم تهتــز نحــو جزيرة وأنــدلس تــدني إليــهم منابــره
ومغــربنا للشرق يرقــص غبطة ويــرخي لعقبــان الحجـاز ظفائره
بنـو العـرب أبناء العروبة زوَّرٌ تنيلهم الترحــاب شـم البرابره
ومن عجب مــن كان منهم مناويا أصــارهـم الإســلام قربى عشائره
ووحدهــم فــي الله ديــن وملــة ووطــد قــرآن لديــهم شعائــره

هذه هي الأبيات في الموضوع ، وشذى الغيرة ، وإذكاء الحماس منها يضوع وتلبية لاقتراح بعض الأصدقاء والإخوان ، عشاق الأدب في نشر القصيدة كلها ، إحتفاظا بها للتاريخ ، وكدليل على ما يكنه هذا الصدر من غيرة للدين والوطن ، ها هي برمتها . تتمة في ديوان المؤلف ومطلعها:

أهِبْ بلبل العصر الذي ظل شاعره وصُغ من عقود الشعر وأنْضم جواهره
وحلّ به جيد الزمــان الــذي أتى بنــور كنــوْز زان نشــر أزاهــره
ففيه يطيب المدح والقــول والثنـا وذو الشّعر يرْضـي فكره وضمائــره

الدافع على إنشاء هذه القصيدة .

ويعلم الله أن الدافع الذي دفع بي لإنشاء هذه القصيدة بذلك التاريخ على هذه الوثيرة* ، التي كلها حماس ، والتهاب غيرة دينية ووطنية ، وإذكاء جذوة الشعور القومي ، في الجيلين معا العربي والبربري ، ردًا على المحاولة الدنيئة التي قصدها المغرضون من الاستعماريين ، آنذاك باستصدارهم الظهير البربري الدنيء ، وهذا ما جاء في القصيدة كلها تلويحا ، وفي الأبيات الأربعة :

ومغربنا للـشرق يرقص غبـطة ويرخــي لعقـبان الحجاز أظافره

ثم استلفتُّ نظر صاحب الجلالة أيده الله ووفقه ، إلى شريعة جده التي يرومون الكياد لها بالتفرقة ، بين أبنائها ، وأن أسلافه الأماجد ، لم تزل حارصة كل الحرص على إقامة شعائرها والتحاكم إلى كتابها منذ كانت ولازالت ، فهي :

ملوك بغير الدين والشرع لم تَهَم ولــم تحَمْ إلا وِرْدَه ومصــادره
ولمــا تــرِدْ إلا مَعــينَ حِياضِه ولــم تَرْتَع إلا روْضَــه وأزاهــرَه

وسيدنا أعزه الله ممن لا يقعقع له بالسنان في هذا الشأن . وهذا ما كان يأمل فيه وهو ما كان يقع من بعض الموظفين ، آنذاك .

وهذه غيرتهم وهذه آثارهم ، فقل للآلاف غيرهم ، المتبجحين بوطنية ست وخمسين وتسعمائة

*- " الوثيرة بالتاء مهملة ، الطريقة " .اهـ مؤلفه .

وألف ، أين كانوا في سنة 1933، يوم كانت الأفواه ملجمة ، وهم خشب مسندة ، وأشخاص ماثلة كالأجمة ، اللهم إلا أفرادا قليلا ، برزوا بوطنية صادقة لم تأخذهم في الله لومة ، ففضلهم لا ينكر وقتئذ ، حين ذاك كانت هاته القصيدة أمام صاحب الحضرة العلية ، ثاوية بين سدته السَّمية .

ولم تقف هذه القصيدة وأثرها عند هذا الحد ، بالقصر الملكي الذي لاقت فيه قبولا ورضى ، وجاءتني من صاحب الجلالة هَلّة ، دلت على كرم وعطف سيدنا توصلت بها من يد الفقيه الكاتب السيد أحمد إبن فقيرة رحمه الله، بل تسربت إلى أندية العلماء والأدباء والطلبة ، كنادي شقيق الروح الشريف الأريحي ، سيدي ابن زيدان بمكناس، والقاضي العلامة سيدي محمد السائح ، الذي وجده الحال عند إنشائها بوظيفة القضاء بوادي زم ، والقاضي الأديب الكبير سيدي محمد بن اليمني الناصري، ونادى شيخنا العلامة الأكبر ، سيدي الحاج عبد الرحمان النتيفي بالدار البيضاء . فهؤلاء كلهم لهجوا بها آنذاك . ولا أدل على وقعها ، وفي بعض هذه الأندية ، من الكتاب الذي جاء من أخي شيخنا الحاج عبد الرحمان شقيق الروح سيدي محمد النتيفي ، ولابأس بإثباته هنا ليشهد التاريخ ، وكرد على أقوال المغرضين كفانا الله شرهم . قال الأخ ، الحمد لله :

"الحمد لله وحده ، الدار البيضاء في 22 جوي 1933 ، يوافق 28 ربيع النبوي 1352 . عزيزي شاعر العبقرية والنبوغ وأخي ، بلبل العصر ، الذي ظل شاعره وموقظه لأجل الأخلاق والفضائل ، حيث الأرض من عليا الفضائل شاغرة ، وشقيقي موقد زند الشعور في النفوس ، لو أن النفوس شاعرة ، أبا العباس سيدي أحمد بن قاسم ، سلام عليك من أخيك ، وتحيات تترا ، وألف شكر على ما قمت به نحو أولائك العظماء أبطال الحق ، وأسد العالم ، حيث بدا التاريخ معيدا نفسه على لسانكم في قصيدتكم الغراء ، التي ضمنتها بعض أسمائهم وقليلا من كثير أعمالهم ، ولقد أرسلت يا عزيزي جزءا من فكري يسبح في مذلهمات العصور ، على نبراس ما حمله الينا التاريخ الضئيل ، فرأيت الإسلام وعظمته ، ورأيت الإسلام ومجده والإسلام وعزته ، والإسلام واعتماده على أبناء جنسه في كل الأمور، والإسلام وصولته، والإسلام وعناءه بأبطاله ، وفرسانه ، فأرى ما شئت أن أرى ، من شجاعتهم وقوتهم وإبائهم ، وشدة شكائمهم ، وأرى الشرذمة منهم لا تكاد تبلغ العقد الثالث ، يقودها الفارس الواحد من سراتها ، وكلهم سراة "ثم يلقي بهم الجيش اللجب والخميس العرمرم، وبذلك كل طريق صعب فيزعزع بها كيان القياصرة ، ويتل بها عروش الأكاسرة ، ويخضد بها شوكة الجبابرة ، حتى لم يمض على ذلك الدين الذي أختاره الله لكافة خلقه نصف جيل ، حتى خالطت بشاشته قلوب البرابرة ، في مجاهل إفريقيا ، حيث انثالت على الانضمام إليه أفئدة الأوربيين من وراء البحار .

وما شئت أن أراه من خصال البر وحسن الوفاء ، والعهد والصدق والإخلاص والشجاعة وعلو الهمة ، وخلال الخير إلا رأيتها في الإسلام وذويه .

ثم أراه اليوم وقد ضربت على أبنائه الذلة ، والتصقت بهم المسكنة ، فأرى الالف من أبنائه الذين يقول لهم القرآن " ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مومنين" (1) ،ولكن أين الإيمان ؟ أو بالأحرى أين الإيمان الصادق ؟ يقودهم الأجنبي ، ويجردهم من كل ما يملكون شيئا فشيئا ،حتى اذا لم يبق بين أيديهم إلا تلك الغَرفة من ماء الشرف ، والأخلاق والدين، ضايقهم فيها وشدد عليهم ،حتى يريقها قطرة قطرة، فذلت النفوس ، وجبنت القلوب ، وجمدت الهمم ، وخارت العزائم، حتى صرت ترى المسلم الآن يضحي بنفسه ليقتل أمته ، وكل مايرجوه من وراء حياته أن يعيش ليأكل ، بعدما كان المسلم يضحي بنفسه لحياة أمته ، ويأكل ليعيش لنفع أمته بعد ما أرى نفس المسلم العتيق ، طبعت على الفطرة الدينية المحضة ، وتحلت بمكارم الأخلاق وأجلّ الشمائل ، فصفَت حتى صارت كالمرآة الشفافة ، يرى باطنها من ظاهرها ، فلا كذب ولا زور ولا بهتان . ولا لوم ، ولا جبن ولا خيانة ولا، ولا .

وبعده ، علمت أنه مادامت نفس المسلم في حضيضها الأسفل ، ولا يمكنها أن تترقى لبلوغ نفس المسلم الحقيقي ، فلا سبيل إلى بلوغ غاية المسلمين . غير أن كثيرا من زعماء الإصلاح يملؤون الدنيا صياحا ، والفضاء عويلا ، على هذه الأمة المسكينة المفجوعة في أبنائها الحقيقيين ، لترجع إلى سالف عهدها والحرص على دينها . وقليل من بينهم ، وقليل من بينهم المصلحون حقا . هذا ما كشفه التاريخ حقا وكشر عنه نابه الزمان . فأظهر الله ما كانوا ينطوون عليه من حقد ، وحسد ولهف على الدنيا ، واختلاسها بأي طريق كان . ولم يتورعوا على حطامها بشيء أصلا، إلا قليلا منهم تصديقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "من أسر سريرة ألبسه الله رداءها"، ويرحم الله :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تُعلم .

فكم حضوا على الألفة والإخاء ، وعدم التنازع ، وترك التخاذل ، وحضوا على الزهد في الدنيا ، والقناعة بالقليل عندما كانوا من الزمان بمؤخر الركب . فلما أصبحوا بمقدمة ، ظهر أن ذلك كله غثاء كغثاء السيل ، فهم كما يقول أبو العلاء :

إذا انتصبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول خالفه الفعل
وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما يدرّ لها ثْعل .

والمصلحون حقا ، والصادقون الذين انطبعت على أفئدتهم تلك المبادئ أولا ، فمن ذلك القليل النادر ، كان عملكم هذا ، جزاكم الله عن هذه الأمة المفجوعة خيرا ، وأعاننا وإياكم على خدمة الله والنصيحة في سبيل الله ، والموت لأجل الله ، والحياة تحت ظل راية الدين وعلم الوطن المحبوب ، هذا واعلم أخي أن سبب تأخير جوابكم هو محاولة الأمر المشار إليه .... وأما قصيدتكم فقد تليت على الطلبة في المسجد ، في محفل لابأس به ، بحماسة مناسبة

---

1 - سورة آل عمران : 139 .

الموضوع ، فأخذت مأخذها اللائق ، بموضوعها من القلب ، وأن أولى ما يصرف فيه الإنسان أريحيته ، خدمة أمته ، وترميم قوميته ، من دون أن يبالي بأي شيء ، وقبح الله من شغلته معيشته عن كل شيء حتى عن الشعور بدائه الكامن بين جوانحه ، ولْيَمُتِ الخونة المارقون ، وليحيى ذو النفوس الأبية ، والشعور الحي وكفى والسلام ، أخوكم محمد النتيفي" .

الأخ القاضي النتيفي ، يتحدث بهذا سنة 1933 ، والاستعمار ضارب أطنابه على سائر الأقطار الإسلامية : مصر والشام ولبنان والعراق وأندونيسيا والهند وتونس والجزائر والمغرب والسودان وغير ذلك . وهو يرى أن ذلك من عدم تمسك المسلمين بمبادئ دينهم وتخاذلهم فيما بينهم . فلذلك حمل حملاته على المسلمين غيرة منه عليهم ليرجعوا إلى دينهم الحقيقي . ففيه وحده الخلاص من نير الاستعمار ، وقد شدد حملته على مسلمي ذلك التاريخ بألفاظ الاليق الآن حيث خلص الله الإسلام والمسلمين من يد الاستعمار .

هذا ما كان من القصيدة ، وأثرها سنة 1933 ، وقد ركدت خيول المستعمر أيام الحرب العالمية الثانية ، بل رقدت عيونهم عن الوطنية والوطنيين . ولكن لما انتهت ، وتنفست دولة الاستعمار الصعداء "عادت لعترها لميس*" إذ بدأت تضايق الوطنيين ، فظهر لي على حد قولهم : "إن عادت العقرب عدنا لها ، وكانت النعل لها حاضرة" . فرأيت من المناسب أن أعمل شيئا ، فما رأيت أنسب من نشر هذه القصيدة بعدما أدخلت عليها تعديلات وزيادات ، وقدمتها لحضرة صاحب الجلالة ، بمناسبة احتفاله بعيد ميلاد جده صلى عليه وسلم ربيع سنة 1366 يوافق 4 فبراير 1947 . وأذعتها من مذياع الرباط في نفس تلك العشية .

ولنرجع لحديثنا عن آيت أمالو رتمسكهم بديانتهم ، فنقول :

دين هؤلاء البرابرة الأطلسيين .

جاء في المحاضرة ، والبرابر من أشد الناس تمسكا بدين الإسلام ، وإن اعتصم الغير بسواه ، فهم به شديدو الاعتصام ، وإن اختصم أحد إلى غير الشريعة ، فهم لقضاة الشرع يحبون الاختصام، لا يتخذون إلا الدين المحمدي لله ذريعة، ولا يرضون بغير شرعه شريعة ، يصلون غالبا لا يتركون، ويصومون ويحجون ويزكون. ومن لم يصل فهو عندهم عاص وتارك ، ومن لم يزك فهو عندهم كذلك . أما الصيام فلا يستطيع أحد أن ينتهك حرمته أو يهتك سوره ، ويحتل حوزته . والقرآن في صدور كثير منهم محفوظ ، وعلى حقيقته من شفاههم ملفوظ ، وكتاتيبه في المداشر والخيام وهم به شديدو الغرام والهيام ، ويشترطون الطلبة لمساجدهم ، لإقراء أولادهم القرآن ، ويحلقون عليهم عند الفراغ من أشغالهم لتعلم الدين وبعض الأركان . واشتراط الطلبة عند البرابر أنفع ، وهم عندهم بنشب ومال أمتع ، لجودة خيمة المسجد الذي

---

*- "عادت لعترها لميس : مثل يضرب لمن يرجع إلى عادة سوء . العتر الأصل ، ولميس إسم امرأة" اهـ مؤلفه .

يسمونه سيدنا جبريل ، ولمتانتها تقيهم من قر الثلوج ، وحر الشمس في ظل ظليل ، ولتوفرها على القطيفة الحمراء ، والثور الذي يحملها يوم الرحيل *.

ولهم أحباس وافرة من أغنام وبقر ، وقليل من الأراضي والعقر ، تقوم بكل مقتضيات الأمور الدينية ، من مسجد وإمام وطلبة ، في شؤونهم التغذية ، وقد ينتفعون ببعضها في أحوالهم الاجتماعية . فيقرون بها الأضياف ، ويعطون منها لبعض العلماء ، والمتزورة من أبناء الزوايا ، أو الأشراف ، وقد يشترون منها بعض السلاح إن اقتضى الحال ، عند الشدائد لحروبهم ، وكثرة الأهوال ، ولا يستطيع ناظر أوقافهم أن يبدل في ذلك قلامة ظفر . فإن الاقتراب لمال الأوقاف عندهم من أشد الكفر وهكذا كان منذ تقادم الزمان .

هذا ما كنا نعرفه أيام تعايشنا مع هؤلاء البرابر الزيانيين ، وأقربائهم من احتفاظهم بمالية الأوقاف . فلا يستطيع المحبسون ، أو كبراء الجماعة ، أو الناظر الذين يعينونهم من طرفهم على الحبس ، ولا يتضرفون في هذه المالية إلا على حسب شروط محبسيها المعروفة ، عندهم من الأمور التي قدمناها ، وبذلك سرعان ما تنمو وتزكو هذه الأموال المحبسة ، حتى ليكون عند المسجد الألوف من الأنعام . وقد أصابت هذه الأحباس نكسة بل مصيبة عند بزوغ فجر الاستقلال ، كادت تأتي على الطم والرم (1) ، من هذه المالية المتوفرة ، ذلك بأن سولت بعض النفوس فكرة لا ندري أشرا أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدا . فكروا في جمع مالية أحباس البرابر من باب سلا إلا حدود صحراء تافيلالت ، فجمعوها فشتتوها شذر مذر (2) ، بيعا بثمن بخس ، لا يعرفون لها قيمة . لعلهم كانوا يريدون وضعها في صندوق واحد أو غير ذلك ، فقامت ضجة البرابر أني سمعت ، من بعضهم مقالا في تذمر وسخط على الاستقلال ، إن كانت هذه مبادئه ، مما جعلنا نأسف لهذه الحال التي بصرناهم بأن هذا ربما يكون لمصلحة لا يفقهونها ، ولكن لم يقنعهم ذلك . وقد ارتفع صراخهم لعنان السماء حتى وصل لحضرة صاحب الجلالة ، فأمر بترقيع الخرق وذلك برد ما أخذ من ذلك لأربابه ، فرد منه التافه الذي لا يسمن ولا يغني من جوع .

---

* " عادة البرابر الذين رأيناهم وعاشرناهم ، من زيان وقربائهم ، أن أحباسهم على مساجدهم كثيرة من الأنعام ، لغنم ومعز ، ومسجدهم مكوّن من خيمة متينة متقنة فسيحة . فقد تكون من أحسن خيام تلك الحلّة ، فتقي الطلبة أيام القر من البرد ، والثلوج حين يحمى بداخلها كانون عظيم ، يحتفون حوله ، وهذا المسجد يسمونه سيدنا جبريل ، ويشترون له فرشا وفيرة من قطائفهم الزيانية . وتكون غطاء لطلبتهم أو ضيوفهم ، ويكون لهذا المسجد ثور من ثيران الأحباس ، يعد لحمل سيدنا جبريل يوم الرحيل ، وهذا كشرح لما في الاصل " ، اهـ مؤلفه .

1 - الرطب واليابس ، ابن منظور ، المصدر السابق ، مادة طمم .

2 - ذهب في كل وجه ، نفسه .

الشريعة الإسلامية في الجبال الأطلسية .

من المكابرة أو العناد أن يقول قائل ، إن البرابر عامة وبخاصة آيت أمالو الذين الحديث حولهم كانوا يتحاكمون إلى غير الشريعة الإسلامية استبدالا لها بقواننينهم العرفية كدين يخرجون به عن سنن المهتدين . لكنهم ، كغيرهم لبعض النظم قد يهرعون ، وفي بعض الأحكام الموافقة لأعرافهم يتدرعون ، حيث لا يمكن فيها تتبع الشريعة بتدقيق ، كما هو الشأن في جميع الأقطار المغربية بل الأقطار الإسلامية . فهل تقطع يد السارق ويقتل الزاني المحصن ، رجما بالحجارة ، وتقطع يد ورجل قاطع الطريق ، ويقتل المتمالؤون وإن مائة ، إلى غير هذا من الأحكام المنصوص عليها بنص القرآن . فإن هذه وأمثالها متعذر عن رجال الحكم ، منذ قديم الأعصر .

وهل ما جاء عند الفقهاء من الأعمال والأعراف التي جرى بها العمل ، ونظمها الفقهاء وألفوا فيها إلا من هذا القبيل ؟

وأيضا الأحكام التي يباشرها أصحاب الحسبة والبشاوات بالمدن ، والقواد بالبوادي المنصوبون من قبل المخزن ، لا في خصوص أيام الحماية بل منذ كانوا في عهد الدولة الشريفة العلوية ، أو من قبلها كلها من هذا الباب .

فأحكام هؤلاء وأضرابهم ، في الأمور الجنائية كالسرقة ، والقتل ، والزنا ، ومضاربة القبائل ، كلها على وثيرة الأعراف البربرية . فهل كانوا يحكمون فيها بمقتضى الشريعة ؟ كلا لتعذر ذلك مع الظروف المانعة من تنفيذها، منذ زمان (1) . فهل يقال لأهل مدينة فاس أو مراكش وقبائل دكالة وغيرها أنهم كفار لأنهم لم يحكموا بالشريعة الإسلامية (2) ؟ حاشا ومعاذ الله .

ومسألة الرجوع إلى عوائد أهل المدينة ، أو عوائد قبيلة معروفة ، معروف ما عند الفقهاء فيها ، فالبرابر كغيرهم في مثل هذه الأمور لهم عوائد ، وأعمال يتبعونها ويجرون عليها أحكامهم والعلة واحدة .

---

1 ـ حاول المؤلف أن يعتذر للإمازيغين لعدم تطبيقهم الشريعة ، وإحلالهم العرف مكانها لظروف مانعة. لكن لم يبين هذه الظروف المانعة ، وليس هناك ظروف منعت الناس من تطبيق الحدود وأحكام الشريعة في المجالات المختلفة إلا الأهواء والشهوات والإنحراف عن هدي الله.

2 ـ هل يتعلق الأمر بردّ اوامر الشرع وعدم قبولها ، أو نعت الشريعة بالجمود ، وأنها لا تناسب العصر ؟ أو أن الأمر يتعلق بعدم تطبيق أحكام الشريعة مع الإعتراف بالذنب ؟

تعليق "بعد كتبي هذاسنة 1380، ظهر كتاب"سوس العالمة" للأخ الوزير العلامة سيدي المختار السوسي ، وفيه ما يقرب من تعامل قبائل سوس بمثل هذا . فقد قال في كلامه على علماء المدارس ، ووصفهم بأنهم الذين يفصلون بين الناس في منازعاتهم فقال :"اللهم إذا كانت القضايا سوسية من جنس ما تتمالا عليه القبيلة في عوائدها كعادتهم في قسمة الماء ، وما يؤخذ من المفسدين من غرامات مالية ، أباحها من قديم بعض العلماء . ففي هذه وأمثالها ما يطلقون عليه الأعراف ، ومثل هذا لا يخلو منه بلد حتى فاس وهي ما هي " صحيفة 27 .

أما فيما سوى ذلك ، فإننا نجدهم من أشد الناس تمسكا بالدين الحنيف فمساجدهم عامرة بطلبة القرآن ، خياما ومداشر ، بل في بعضها مدارس علمية وأخرى قرآنية ، علمية ، كما سيبين في محله إن شاء الله ، وتجتمع الجماعة في مساجدهم الوبرية ، والطينية ليلا على طلبتهم ، وإيمامهم عند فراغهم من أشغالهم اليومية . ويستفتون فقهاءهم في ديانتهم وعبادتهم من وضوء ، واغتسال ، وصلاة ، وزكاة ، وصيام ، وفي الأحوال الشخصية من زواج ، وطلاق ورضاع وتحليل ، وفي الذبائح . وما يطرأ في الزكاة ، وعلى الأنعام من ضربة أو ترد ، أو غير ذلك على الصيادين في منفذ المقاتل وغيره ، مما يحتاج لزكاة وما لا يحتاج لها ، وتجدهم في أمثال هذه الأمور على بال . أما قراهم أو مدائنهم الصغيرة ، فمساجدهم في الصلوات عامرة ، ولا تخلو من تعليم دين ، يقوم بعض الفقهاء ، إن قليلا أو كثيرا ، هذا ما عشناه معهم وعاشرناهم عليه. فشأنهم في هذا الباب شأن إخوانهم المغاربة، بادية ومدنا ، ولا أذهب بعيدا إذا قلت إنهم في بعض هذه الأمور الدينية أشد تمسكا من غيرهم .

ثم بعد هذا ، نراجع التاريخ ، ونتساءل متى كان هؤلاء البرابر الأطلسية يتحاكمون لغير القضاة الشرعيين ، فنجوس في خلال حللهم ، ومداشرهم جميع المداشر والحلل ، كل زمان ، قضاة شرعيين منذ القديم . فقد وجدنا قاضيا شرعيا في قبيلة زيان البربرية القحة في مدشر من مداشرها الذي لا يبعد عن خنيفرة إلا بنحو 40 كلم . وإن شئت قلت في عاصمتها القديمة ، قبل ظهور عاصمتهم الحادثة خنيفرة ، تلك هي قصبة أو قصر المعدني معدن عوام ، القريب من مركز مريرت ، الذي جاء عن هذا المركز غروبا منه ، بنحو 10 كلم . ومريرت هذه جاءت في طريق مدينة مكناس ،خنيفرة على . كلم من هذه وجدنا قاضيا شرعيا إنتخبه من علماء الأندلس السلطان الأعظم يعقوب المنصور ، ولا يبعد أن يكون جاء به من قدمته الأخيرة في غزوته الشهيرة (1) للأندلس سنة 591 ، وفتحه العظيم لها ذاك القاضي هو العلامة محمد ابن عبد الرحمان بن محمد الرعيني السرقسطي الملقب بالركن . وقد تقدم ذكره لنا في هذا التاريخ وسنعود لترجمته عند القسم العلمي من هذا إن شاء الله .

وكذا نجد أيام السعديين قد اختاروا لهذه القبائل البربرية ، قاضيا من أعلام سوس ، ذلك هو العلامة القاضي يوسف بن أبي القاسم الجزولي ، قاضي أدخسان . وقد وجد ذكره هذا القاضي بأدخسان ، في آخر كتاب مختصر "البرزلي" ، استنسخ له نسخة 1997 الخ ، ذكره الأخ الوزير سيدي المختار السوسي جزء 2 صحيفة 84 وأدخسان هذه قصبة مخزنية من أيام السلطان يوسف بن تاشفين .

1- وهي معركة الأرك في تاسع شعبان ، التي انتصر فيها يعقوب المنصور الموحدي على ملك قشتالة بالأندلس .

وجدد عمارتها ونضارتها السلطان المولى اسماعيل، ولها ذكر ذائع في كتب المؤرخين . وهي شرقي خنيفرة بنحو 10 كلم .

ولندع هذا كله لنتحدث عن أثر الزاوية الدلائية ، وماذا كان لها من سلطان العلم أيام ازدهارها وعظمتها . فهل كانت تحكم بأزرف (1) حاشا وكلا . وقد كان مبدأ عمارة هذه الزاوية أو المدرسة العلمية أواخر ، المائة الثامنة ، في عنفوان دولة بني مرين ، زمن عبد العزيز (2) بن أبي الحسن المريني ، أو ابنه أبي زيان محمد السعيد(3) ، عندما نزح لها من ملوية الجد الرابع لقطب رحاهم عمر (4) ، رابع الآباء لقطب رحاهم ، وشمس ضحاهم الشيخ سيدي أبي بكر(5) بن محمد بن سعيد بن أحمد بن عمر بن أحمد .

لاتزال بعض أطلال هذه الزاوية ماثلا إلى العيان لتاريخ كتب هذه ، فأما الزاوية الأخيرة التي نقل سيدي محمد الحاج العمارة إليها المسماة الآن زاوية آيت إسحاق فقد رأيتها قديما ، ورأيت مسجدها الصغير الباقي لصلاة الجماعة ، والجمع . وقد كان مسجد عظيما ، وتهدم ولكن بقيت صومعته وسوره العظيم ، فلما احتلته الجيوش الفرنسية سنة 1920 ، ترامت بعض الأيدي الأثيمة منهم ، فهدموا سوره ، وبنوا بأنقاضه مكتب المراقبة ، والذي تولى كبر هذه الجريمة ضابطان ،

---

1 – تدل هذه الكلمة على الأعراف والقوانين التي تنظم المجتمع ، ولا تستمد بالضرورة أصلها من الشرع . وقد كانت هذه الأعراف ، قبل إنتشار تعاليم الإسلام تشمل أغلبية سكان المغرب .

وفي فترة الحماية حاولت السلطات الفرنسية العودة إلى واقع أزرف في المناطق الأمازيغية (الهضبة الوسطى ، الأطلس المتوسط ، ملوية العليا ، الأطلس الكبير الشرقي) كخطوة لسلخ هؤلاء السكان من الأمة المغربية . أنظر معلة المغرب ، المصدر السابق ، ج 1 ص . 636 .

2 – هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن . بويع سنة 767 هـ /1365م بعد موافقة الوزير عمر بن عبد الله المستبد بالحكم . من أعمال السلطان أبي فارس أنه استرجع من يد النصارى الجزيرة الخضراء (770هـ) والمغرب الأوسط (772هـ) . أنظر ابراهيم حركات ، المصدر السابق ، ص . 58

3 – هو السعيد بالله أبو زيان محمد بن أبي فارس عبد العزيز . بويع صبيا ، لم يبلغ الحلم بعد . وتولى الوزير أبو بكر الوصاية عليه . في عهده تدخل إبن الأحمر في شؤون المغررب . تنازل السلطان أبو زيان عن الحكم سنة 776هـ/1372م . نفسه ، ص . 53 .

4 – هو عمر بن الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي الأديب الشاعر والشجاع الباسل . درس بالزاوية البكرية وقاد الجيوش الدلائية إلى أن مات في إحدى المعارك ضد الحياينة بضواحي فاس ، عام 1055 هـ/1645م .أنظر محمد حجي ، الزاوية الدلائية ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1988 ،ص. 142 .

5 – عالم صوفي مغربي من قبيلة مجاط الصنهاجية . ولد بقرية الدلاء (أيت إسحاق) سنة 943 هـ/1536م . أسس الزاوية الدلائية التي تخرج منها أنبغ علماء المغرب ، وأدبائه في القرن الحادي عشر الهجري . وقد أصبحت هذه الزاوية فيما بعد عاصمة سياسية للدلائيين . توفي الشيخ أبي بكر الدلائي عام 1021هـ/1412م ، أنظر عبد الوهاب بن المنصور ، أعلام المغرب العربي ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص. 257-258 ، ترجم له الوفراني في نزهة الحادي .

كبير وصغير . فالكبير الذي كان متولي الحكم ، يسمى برومبيت Prombt ، وأما خليفته الصغير ، فيسمى دي بوا . فاسمعوا لانتقام الله غيرة على بيوته من هذين . فقد حكى لي ابن عمتي ، وكان كمترجم بهذه الزاوية بعد احتلالها ، وحين هدم بقية هذا المسجد ، وبناء مكتب المراقبة. قال حضرت لهذا كله ، وكنت أتألم من ذلك ، ولكن ما فتئ الله أن إنتقم من الضابط الكبير ، وذلك بأن سلبه الله جوهرة عقله ، فحمق وأخذ إلى المستشفى ، فذهبت مرة لرؤيته ، فوجدته ، وهو أشبه بالأسد المفترس . هذا ما جرى للأول . أما ما جرى لخليفته دي بوا ، فهي عقوبة في شكل آخر . فإنه لم يبرح من الزاوية حتى تزوج بإحدى المغربيات ، من وادي زم ، وكأن حكومته لم ترض له ذلك الاقتران ، فطردته من الوظيفة ، وجرّدته من التقاليد العسكرية ، فنزح بها إلى وادي زم في حال فقر مدقع . فكان يحترف في شاحنة كبيرة ، بالية ، فتقع لها آفات ، فينزل في ثياب رثة متسخة لإصلاحها ، وعرقه يتقاطر ، ثم يأوي لخربة مهدمة ، لا يتمتع بسكنى ولا بأكل ، ولا لباس ، فيأكل الخبز من الشعير القفر والماء . وهكذا مرت عليه سنون حتى التفتت إليه دولته بعد تأديبه، فوظفته بالرباط . ولكن لم يتمتع بشيء لا هو ولا قرينته . فكل ما يأخذ ، يأتي به لقرينته ، وهي تقتر عليه ، وعلى نفسها . فلا تزال تتردد على خيام أقاربها ، أو ديار جيرانها لتتناول ما تجده من طعام . وإذا حضر هو معها ، يتناول الموجود عند الناس ، وإذا اضطر إلى تناول غذاء أو عشاء في دارهما فبخبز وبسمن ، أو طعام قفر ، هذا الغالب . وقد جمعا بهذه الكيفية بعض مال ولكن بلا تمتع . وأخيرا أصيبت القرينة بداء في أمعائها ، فعملوا لها جراحة توفيت منها ، فجاء القرين كأنه مفلوج . وما جمعا من المال لم يدر كيف يفعل فيه ، فكل من بيده شيء إستولى عليه ، وهو لا يزيد على قوله "الله يسامح" ، غنما وبقرا . وأما الناض ، فلم يدر أين وضعته قرينته واتهم به ناس ، ولكن ، من يبحث ، أو يحقق هو القرين ، وهو كأنه فاقد العقل لا يفكر في شيء ، وبعد بضعة أشهر ، ذهب إلى مقر وظيفته بالرباط فعثر عليه في بيته ، وقد خنق نفسه .

هذه المدرسة أو الزاوية التي خرج من ضيضئها عشرات من أساطين العلماء والأدباء والشعراء ، والقضاة المتشبعين بالكتاب والسنة ، وأصول الدين ، وحفظ مذهب مالك ، إلى الباع الطويل ، العريض في اللغة والنحو والبيان ، والبديع ، وقرض الشعر، والحساب ، والتوقيت ، والهيئة . وفاض معينها حتى ارتوى منه علماء العواصم، فاس ومكناس ومراكش ، فضلا عن باديتها ، فطبق علمهم المغرب والمشرق . وكانت ركاب العلماء من كل ناحية إليهم تحج. ومدرستهم بالعلم ورجاله تزخر وتعج ، ويكفي أكبر شاهد وحجة على ذلك ، ما قاله أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن شيخ الجماعة بفاس أبو محمد عبد القادر الفاسي:" إنما أحيى العلم بالمغرب ثلاثة سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي بالزاوية الدلائية ، وأبو عبد الله محمد بناصر الدرعي بدرعة ، وأبو محمد عبد القادر بفاس ، ومحمد بن أبي بكر هذا ، هو من هو في المحافظة على الشريعة والسير

على مناهجها والتدقيق في مسائلها ، والمباحثة مع فطاحلها ، أسئلة وأجوبة لا في قطره المغرب فحسب بل يتجاوزه إلى المشرق ، وعاصمة العلم به مصر القاهرة . وها نحن نراه يتوجه بأسئلته في بعض الأقضية الجنائية لعلماء مصر . فنراه يبعث بواسطة تلميذه ومفخرته ، بل مفخرة المغرب والمشرق العلامة أبي العباس أحمد المقري المغربي (1) .

يبعث له بالسؤال عن إثنى عشر مسألة جنائية وغيرها ، جاء في الحادية عشرة منها :

"سؤال عن حكم القاضي في الضمان في الأنفس والأموال بعد الإذن في ذلك ، فيتجاوز المأذون في الأمر حتى يحصل هلاك النفس أو ضياع المال ". وفي الثانية عشرة منها يسأل عن أحكام جنائية ، وإقامة الحدود ويستدل بحديث "قم يا علي فاجلده"، وهي مسائل مهمة أخذ أجوبتها له من علماء مصر أبو العباس المقري . وليس محلها هذا . وربما نوردها في القسم العلمي إن شاء الله من هذا التاريخ . فهل يكون اهتمام هذا الإمام بهذه الأحكام إلى حد يبعث به إلى علماء مصر ، عبثا ، أي لأنه في بلده وقطره وقبائله يتحاكمون إلى طاغوت "أزرف" ؟

حاشا وكلا ثم كلا . لأنه حامل راية الشريعة وناصرها في أمته وقومه الذين يأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه ، وهم أقحاح البرابر زيان وإشقرن ، وأيت سخمان وبني مجيلد ، وغيرهم وغيرهم . وكتب أبناء هذه الأسرة في الأحكام الشرعية فتاوى وأحكاما كثيرة ، ويحدثنا التاريخ عن الأمير الشهير سيدي محمد الحاج بن محمد ، أن من اعتنائه بالشرع ، وقضاته ، أنه لما توجه إلى تافيلالت في الحرب (2) ، التي كادت يَشب أوارها بينه وبين الأمير مولاي محمد

---

1 - هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني . ولد بتلمسان سنة 1000هـ 1591م حسب ليفي بروفنصال في دائرة المعارف. انتقل الى فاس لتحصيل الدرس ، وبقي يتردد عليها إلى أن أصبح من علمائها المرموقين حيث تولى خطة الإفتاء . ولكن المقام لم يطب له بهذه المدينة رغم تألقه في مناصب عليا ، فارتحل إلى المشرق العربي ، وتنقل بين القاهرة ودمشق ، دارسا ومدرسا إلى أن وافته منيته عام 1041هـ/1631م .

ترك لنا المقري مؤلفات عديدة نذكر منها على الخصوص : -

أ- أزاهر الرياض في أخبار عياض .

ب- روض الآس ، العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور .

ج- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي . أنظر نفح الطيب، المصدر السابق ، ج 1 ، ص . 8 .

2 - كانت سجلماسة وسائر الجنوب المغربي تابعة لأبي حسون ، أمير سوس . وكان سكان هذه المناطق يئنون-حسب الوفراني - تحت ثقل الضرائب ومن جهة أخرى ، كانت عداوة بين الشريف بن علي العلوي وبين أهل تابوعصامت ، أحد حصون سجلماسة ، أدت الى مواجهة مسلحة ، فاستنجد الشريف بأمير سوس ، كما استنجدت تابوعصامت بالدلإيين . ولكن تدخل العقلاء حال دون وقوع الحرب بين محمد الحاج وأبي حسون السملالي (1023هـ-1633م) أنظر ابراهيم حركات ج 2 ص . 294 .

الشريف (1) بن علي ، فانفصلت بصلح بينهما ، ورجع لزاويته . رجع بالعلامة مولاي الحسن بن محمد بن عبد المومن بن محمد بن الحسن بن محمد بن مولاي علي الشريف . رجع بهذا العلامة قاضيا بزاويته ، على قبائله البربرية يفصل بين الخصوم ، ويخاطب على الرسوم في القبائل التي كانت منضوية تحت لوائه ، من وادي العبيد إلى سايس وما بعده . وبقي قاضيا في منصبه إلى أن توفي بالزاوية المذكورة بعد استيلاء (2) المولى الرشيد (3) عليها .

وهذا القاضي هو جد الشرفاء العلويين المحمديين ، أهل الهري على 14 كلم من خنيفرة . وقد طالت عمارة هذه الزاوية من أواخر المائة الثامنة ، وما طويت صحيفتها بزيان إلا في 8 المحرم سنة 1079 هـ ، حيث نقلهم السلطان المولى الرشيد من زاويتهم بزيان إلى فاس ثم إلى تلمسان (4) . ولكن طويت صحيفتهم بزيان ، فنشروها في تلمسان ، وفي فاس قاعدة العلم والعلماء . فكان لواؤهم منشورا في هاتين العاصمتين ، وانتشر ورفرف بأيدي أساطين منهم، أسكتوا المتطاولين منهما بما لم يبلغوا فيه شأنهم . فكان منهم الخطباء المصاقع ، والقضاة السواطع ، الذين كادوا يملكون في زمانهم منابر المساجد بفاس ، تدريسا وخطبا ووعظا وإرشادا . واستمروا على ذلك بفاس إلى وسط القرن الثالث عشر .

ومع كونهم قد بارحوا زاويتهم ، فإن العلم الذي زرعوا بذوره ، والشريعة التي حصنوا حقولها ، لاتزال تؤتى أكلها ، بتلك القبيلة آيت إسحاق التي تنسب إليها الزاوية المذكورة ، بعد أن تنوسيت نسبتها لأهلها الأصليين الدلائيين .

فكان من آثار هذه الزاوية ، عالم قبيلته آيت إسحاق وهو العلامة الشرقي الإسحاقي الذي بلغ مرتبة وزير أيام السلطان مولاي عبد الله (5) بن اسماعيل ، وترأس ركب أم السلطان

---

1 – أحد إخوة ثلاثة من مولاي علي الشريف ، الذين تعاقبوا على الحكم في المغرب ، وهم محمد هذا (1640-1658) والرشيد وإسماعيل .

2 – في ثامن محرم 1079 هـ-1668م .

3 – ثاني سلاطين العلويين (1664-1672) الذي قضى على الزعامات المحلية وأعاد ، خلال بضع سنين ، الوحدة إلى وطن كبير حيث لم يمت حتى كان المغرب يمتد من وادي نول إلى قرب الأغوات بالمغرب الأوسط ، ولم يخرج عن نفوذه إلا الموانئ المحتلة .

4 – سمح السلطان المولى إسماعيل لأولاد محمد الحاج بالعودة إلى فاس بعد وفاة مولاي رشيد . أنظر محمد حجي ، مصدر سابق ص . 258

5 – بويع أربع مرات (1729-1736-1740-1741) ، وكانت أيامه حروبا بسبب الصراع على الحكم بينه وبين إخوته ، وبسبب استبداد الجيش البخاري بالسلطة ، حيث كان قادته يعينون ويعزلون السلاطين على غرار ما حدث أيام العباسيين بعد الخليفة المعتصم . أنظر ابراهيم حركات ، مصدر سابق ، ج. 3 ص. 67 .

المذكور ، خناتة (1) بنت بكار للحج سنة 1143 . نرى هذا العالم الإسحاقي البربري المتمسك بأهداب الشريعة ، والمتحقق بقوانينها ، نراه يتعجب من تأخر الشرع ، وعلمه بالأحكام الشرعية التي هي عنده من العلوم الضرورية في المغرب الأوسط . فقد حكى أنهم لما حلوا ببسكرة (2) ، من القطرالجزائري ، ترافع إلى قاضي الركب العلامة السيد أبي القاسم بن سعيد العميري (3) متنازعان في فرس ابتاعها أحد الأعراب من آخر ، فهلكت بعيب قديم ، وأراد المشتري الرجوع على البائع بالثمن . فأمر القاضي المدعي بإتيانه ببّينة تشهد له على دعواه ، قدم العيب ، فجاء ببيّنة ، فطلبه في تزكية أحدها ، فجاء بشيخ يدعى أبا الضياف ، فسأله القاضي عما يقول في هذا الشاهد ، وسماه له ، فقال الشيخ : إني أعرفه رجلا جيدا من خيار قومه ، ما عندنا ما نقول فيه ، أغار معنا على العرب كم من مرة ، وما رأينا فيه عيبا . قال : فانظر إلى هذه الجهالة، زكاه من حيث جرحه (4).

وكما بارك الله في أبناء رجال الزاوية الدلائية ،بارك في تلاميذها من البرابر، وغيرهم ، ويكفي من ذالك الإمام أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي البربري الذي تربى في هذه الزاوية ، وارتوى من معينها ، فإنه بعد مبارحته الزاية ، إثر نكبتها(5) ، سنة 1079، تطوف ماتطوف ، في بلاد المغرب ، حواضره وباديته ، فكان في فاس ، وفي مراكش ، وفي تاغية،

---

1 – هي خناتة بنت بكار بن علي ، بن عبد الله المعقلية ، زوجة السلطان مولاي اسماعيل ، وأم السلطان عبد الله السالف الذكر . نفسه ، ص . 68 .

2 – تقع هذه المدينة الجزائرية (3200 نسمة) ، في ولاية الأوراس .

3 – أبو القاسم بن سعيد العميري ، العالم الأديب المغربي . ولد بفاس عام 1103هـ/ 1691م . أخذ عن عدد من علماء العاصمة العلمية أمثال عبد القادر إبن شقرون وأحمد الولالي . كان يجيد صياغة النثر ويحسن نظم الشعر .

نشأ في رفاهية عيش واحترام جانب ،وعز بيت بسبب اتصال أبيه بالسلطان المولى إسماعيل . وكان في ركب خناثة بنت بكار للديار المقدسة سنة 1143 هـ . وفي عهد السلطان عبد الله بن إسماعيل ، تولى قضاء مكناسة الزيتون . من مؤلفاته : فهرسته بإسمه و"التنبيه و الاعلام بفضل العلم والإعلام " و " الورد الندي " . توفي القاضي العميري بمكناس يوم الجمعة 29 جمادي الثانية عام 1178هـ / 1764 م . انظر الزركلي ، الاعلام ،المصدر السابق ،ج 5 ،ص 176 .

4 – جرحه من حيث لا يعلم حيث قال : " أغار معنا على العرب ... " ، وزكاه حيث قال : "وما رأينا فيه عيبا ... " ، وهذا دليل أنه لا يفقه علم التعديل والتجريح .

5 – لما إنتصر السلطان مولاي رشيد على الدلائين (1668) ، هدم زاويتهم ، وفرق أهلها في جبال الأطلس ، باستثناء العلماء منهم ، وعلى رأسهم ، أبو علي الحسن اليوسي،الذين نقلهم إلى مدينة فاس . انظر محمد حجي ، الزاوية الدلائية ، المصدر السابق ، ص . 260 .

وفي تاساوت (1) ، وفي خلفون بزيان ، وفي الزاوية الناصرية ، فــي تامكروت (2) ، وفــي قـبـائل آيــت إدراسن ، بآيت يوسي ، وتافـيــلالت ، وجـبــالة (3) ، ثـــم في المشرق بالحــرمين الشريفين ، وفـي مـصـر القـاهرة ، حيث حج هـو وولده مـحـمـد (4) . وهذا الرجل العظيم ، الذي كان يفتخر بتلميذيته لشيوخه الدلائيين ، لا نرى من تتلمذ له ، من مصر القاهرة . فيقول ولده هذا عنه أنه لم يجد بمصر من يتلمذ له . وما كنا نسمعه قبل مشاهدتنا وحضورنا هذه البلدة، "يعني مصر" من إفشاء العلم ، والحث عليه ، وكثرة العلماء والمتعلمين ، وتعاطي الفنون ومداولتها ، لم نر شيئا من ذلك . إما لدثوره ، وانقراضه ، بموت أهله وإما من مجازفة المارين بهذه البلاد ، فهدرهم *.

فهل تكون هذه القبائل البربرية التي هو من فصيلتها ، طينا ودينا ، يتحاكمون للقوانين البربرية ، ويتركون الشريعة المحمدية ، وهو بين ظهرانيهم ، وبمرأى منهم ومسمع ، فيلزم الصمت ، وهو الذي نراه مملوءا ، غيرة وشجاعة على الشريعة ، فنراه لا يهاب السلطان الأعظم المولى إسماعيل ، حينما يراه ، ربما قد انحرف عن شريعة جده، في بعض التوافه ، فيكتب له الرسالة المعلومة (5) ، والكتاب الشهير الذي طار بحديثه الركبان كل مطير . وقد جاء في بعض فصوله :" فليعلم سيدنا أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له ، والناس عبيد لله سبحانه ، وإماء له وسيدنا واحد من العبيد . وقد ملكه الله عبيده ، ابتلاء منه وامتحانا ، فإن

---

1 – توجد هذه الزاوية في المحل المسمى بتامسنا . وكانت مقرا للعلم والعرفان ، أيام الشيخ محمد بن امبارك التاستاوتي السالف الذكر . وقد استقى منها علماء أجلاء أمثال أحمد الدرعي ، ومولاي عبد الله أمغار ،ومولاي علي الشريف ،ومحمد الشرقي البجعدي ، وغيرهم ممن اشتهر بالصلاح . ولها فروع في سلا والرباط ، ومكناس ، انظر الشيخ التاودي ، قبيلة زعير ،المصدر السابق ،ص، 91 .

2 – أسسها ناصربن ناصر الدرعي (1011- 1085هـ) ،وذاع صيتها في أواخر السعديين ، وأوائل العلويين ، حتى انتشرت في أنحاء المغرب ، أنظر الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة ، لمحمد المكي الدرعي .

3 – تبلغ مساحة هذه المنطقة ضعف مساحة الريف ، وتضم إثنين وخمسين قبيلة . اشتهرت بمقاومتها المستميتة للتدخل الأجنبي ، أواخر القرن الماضي ، وبداية القرن الحالي ، ويقول موليراس في كتابه " المغرب المجهول" ، إن جبالة كانت تجند ثلاثمائة ألف محارب لمقاتلة الأوربيين ، أنظر محمد داود ، تاريخ تطوان ، ج 2 ص .94 .

4 – هو محمد بن الشيخ الحسن اليوسي الفقيه المتوفى سنة 1358هـ /1739م صاحب الرحلة الصغيرة التي ألفها خلال زيارته للحج مع والده ، أنظر العباس بن ابراهيم ، الاعلام من حل ... المصدر السابق ، ج6 ، ص . 5-6 .

*- "من رحلة ولده محمد للحرمين الشريفين ، وقد اختصرها القاضي صديقنا سيدي عباس بن براهيم في كتابه الإعلام ."اهـ مؤلفه .

5 – كتب ليوسي هذه الرسالة الطويلة عندما أقدم السلطان ، المولى إسماعيل على تجريد القبائل الأمازيغية من السلاح والأموال (1687) . وهذه الرسالة نشرها الناصري في الاستقصا ، ج 7 ، ص. 82 .

قام عليهم بالعدل والرحمة ، والإنصاف والإصلاح ، فهو خليفة الله في أرضه ، وظل الله على عبيده . وله الدرجة العالية عند الله تعالى . وإن قام بالجور ، والعنف ، والكبرياء ، والطغيان ، والإفساد ، فهو متجاسر على مولاه في مملكته الخ ، ومتسلط ، ومتكبر في الأرض بغير الحق ، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه الى آخركتابه الطويل ، وله كتاب آخر أطول من هذا .

أفلا يدل هذا على أن هؤلاء العلماء يستحيل في حقهم أن تكون قبائلهم يتحاكمون لغير الشريعة ، ويسكتون عنهم ، أو يقرونهم على ذلك ؟ وإن صح هذا ، وجاز فأيسر جواب الملك له على الحقيقة ، لا المجاز ، قول الله تعالى في كتابه المكنون "أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون"(1) ، بل ولا يبعد أن يقرعه ويهدده ، بعد أن ينشده :

يــــا أيهــــا الرجل المعلم غيره ـــــ هـــــلاً لنفسك كـــان ذا التعليـــمُ

ابـــدأ بنفســك وانهها عن غيِّها ـــــ فإذا انتهـــت عنـــه فأنـــت حكيمُ .

فسطوة إسماعيل الصاعقة لا تخضعها إلا لوامع سيوف الحق البارقة ، وشموس الشريعة الشارقة .

ولعل ما سقناه في الزاوية الدلائية أوالمدرسة الدلائية بزيان كاف في الدلالة على تمسك برابرها بالشريعة ، والترافع إلى قضاتها . هذا في شرقي خنيفرة عاصمتهم . فلنلتفت مرة أخرى إلى غربيها عسانا نجد مثل ذلك ، علما وشرعا ، أو قريبا منه ، فنجد مدرستين بين قبائل زيان ، الأولى هي مدرسة أو زاوية الشيخ أبي يعزى ،في قرية تاغية ، على نحو 70 كلم غربي خنيفرة . وإن من اعتناء ملوكنا الأشراف العلويين بشريعة جدهم صلى الله عليه وسلم ، نرى السلطان المولى إسماعيل يختار من علماء بساطه ، بل من وزراء بساطه ، العلامة النقاد المشارك السيد أبا القاسم بن سعيد العميري . يختاره لينصبه قاضيا على قبائل زيان في تاغية ، مدفن الولي الصالح مولاي أبي يعزى* .

وقد كانت تاغية ولم تزل تعج بالعلماء المجاورين والنازحين من عهد الشيخ أبي يعزى . وفي أيامه يوخد ذلك ، مما حكاه العارف بالله سيدي أبي مدين الغوث (2) في إحدى زيارته

---

1 - سورة البقرة : 44 .

*- "عن القاضي أبي ألقاسم العميري نفسه في فهرسته" اهـ مولفه .

2 - عالم صوفي كان في أول أمره يرعى الماشية لاخوته بضاحية اشبيلية التي ولد فيها عام 515هـ ، 1121م ، لكنه شديد الميل إلى العلم والدين ، ففر من مسقط رأسه إلى طنجة ثم إلى سبتة ومراكش ، ولكنه لم يجد مبتغاه إلا في مدينة فاس ، التي أخذ عن علمائها وعلى الخصوص الشيخ علي ابن حرزهم ، وعلي بن خلف ، بن غالب القرشي ، كما أخذ الطريقة الصوفية على الشيخ أبي يعز يلنور .

توفي ابو مدين بتلمسان سنة 594هـ/1198م ، وبنى الخليفة محمد الناصر بن يعقوب المنصور ضريحا على قبره . أنظر، ع. بن منصور أعلام المغرب العربي ، المصدر السابق ج 2 . ص .15 .

لهذا الولي الصالح . قال كنت أتردد لزيارة الشيخ أبي يعزى مرارا فقال لي جماعة من الفقهاء المجاورين لأبي يعزى ، قد ثبت عندنا ولاية أبي يعزى ، ولكنا نشاهده يلمس بطون النساء ، وصدورهن ويثفل عليهن فيبرأن ، ونحن نرى أن لمسهن حرام . فإن تكلمنا في هذا هلكنا ، وإن سكتنا حرنا . فقلت لهم أريتم لو أن ابنة أحدكم أو أخته أصيبت بداء لا يطلع عليه إلا الزوج ، ولم يوجد من يعاينه إلا طبيب يهودي أو نصراني . ألستم تجيزون ذلك ، مع أن دواءه مظنون ، ودواء أبي يعزي ، أنتم على يقين منه . فبلغ كلامي أبا يعزي فاستحسنه* .

وبجوار زاوية الشيخ أبي يعزى ، زاوية أخرى آثارها العلمية زاخرة وباهرة أكثر من زاوية الشيخ أبي يعزى. هذه الزاوية هي زاوية الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن مبارك الزعري ، بقرية تاساوت ، من قبيلة زيان . فقد أخرجت هذه الزاوية أو هذه المدرسة من أبناء ابن مبارك علماء أجلاء، أمثال أبي العباس أحمد بن عبد القادر ، حفيد الشيخ ابن مبارك المولود حوالي سنة 1048 والمتوفى ليلة الأربعاء فاتح رجب 1127 وأخيه العياشي وأولاد الأول ، المامون والشريف ، وإبن عمهم يعفور ، وغيرهم . وقد كان لهؤلاء ، وخصوصا أحمد بن عبد القادر تمسك بالشريعة وتحقيق ، وتدقيق في أحكامها . يظهر ذلك من مراسلاتهم مع علماء فاس، ومراكش وسلا، والرباط والزاويتين البكرية الدلائية والناصرية ، وتردد الفتاوى بينهم ، في عويصات المسائل الفقهية والقضائية ،دليل على تعمقهم في فروع الشريعة والتّقاضي إلى فطاحل قضاتها .

وقد جاء في بعض استفتاءات أبي العباس ابن عبد القادر ، لعلماء عصره ، في بعض أحكام قضاة قريته تاساوت ، ما يدل على بعد غورهم ، وتجربتهم وتحريهم في أحكام الشريعة . وهذا نص لأحد الأسئلة الكثيرة التي أوردها في كتابه "نزهة الناظر وبهجة الغصن الناضر" .

ونصه بعد الحمدلة ، والصلاة على رسول الله ، من أحمد بن عبد القادر، كان الله له ، إلى الأخ في الله ، السيد محمد بن عبد الله ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد، فإني زوجت العياشي من آمنة، ثم بعد تزويجه بها، سأل قاضي تاغية ذاكرا له نازلتها ، حسبما وقعت ، فأفتاه برد عتقها . وإن ما فعلته يبطله الشرع لأني عتقتها ، وعلي مائة مثقال دينا ، قال القاضي فلا يصح إيقاع هذا العتق شرعا ، عازيا ذلك للتتائي شارح الرسالة ، عند قوله ، ولا يجوز عتق من أحاط الدين بماله قال ما لم يسكت الغرماء ويطول ، وحد الطول أربع سنين . ثم إني راجعت القاضي ، وذكرت له أن ما كان من

---

*- " كذا نقل صاحب الاستقصاء هذه الحكاية ص.188 ج1 ، وساقها في التشوف بقوله " قيل له أي أبي يعزي أن فقهاء فاس أنكروا عليك لمس صدور النساء والنظر اليهن . فقال اليس يجوز عندهم أن يلمس الطبيب تلك المواضع ، ويراها للضرورة . فهلا عدوني واحدا من أطبائهم ؟ وإنما ألمس ذوات العاهات للتداوي صحيفة 196" اهـ مؤلفه .

الدين قضيته كله ، فقال لابد من تجديده ، بل تتوانى حتى تقضيه ، ثم إن شئت فاعتقها ، واتركها على حالها . فاعلم السيد الحسن – يعني اليوسي – بذلك وشاوره في أمرها ، وأعلمني بما أصنع بها إذ لا أرْب لي فيها إلا أن أكره مخالفة الشرع والسلام .

فأجاب الإمام اليوسي بما نصه ، بعد البسلمة ، والصلاة ، ليس معنى كون عتق المِديان (1) لا يجوز ، إنه باطل لا عمل عليه بل هو غير لازم ، يتوقف الأمر على الغرماء . فإن لم يبطوله فهو جائز على أصله . وفي المدونة ، إن أعتق في عسره ، فلم يقم عليه حتى أيسر ، نفد عتقه ، ثم إن أعسر بعد ذلك قبل القيام عليه ، لم يرد عتقه انتهى . فإن كانت النازلة هكذا فهذا النص كاف فيها ، وإن كان ثم شيء آخر ، فأعلمنا والسلام عليكم ، وعلى أهل الدار كلهم رحمة الله وبركاته ، وكتبه عبد الله تعالى الحسن بن مسعود اليوسي وفقه الله .

فمن يتعمق في هذا المسائل ويتحرى فيها ، ويستفتي ويستفتى فيها ، بين تلك الجبال الأطلسية الزيانية ، يقال في حقهم برابر ، كانوا يتحاكمون لغير قضاة الشرع وهذا سؤال آخر يوجه لعلماء فاس هذا نصه : "بعد الحمدلة والصلاة ، سيدنا ابن سيدنا وابن مولانا أبو عبد الله سيدي محمد (2) بن عبد القادر الفاسي أجلسك الله على كرسي معرفته ، وسقانا وإياك من شراب محبته ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فمن فعل فعلا إذا رفع للحاكم ، لم يزد عليه سواه ، يكفيه ذلك مع الله . والبالغ المهمل إذا كانت له أمة أو فرس، شاركه في ذلك إخوته الذكور ، والإناث ، ومنهم من لم يبلغ ، ووهب الأمة أو الفرس ، وهو لا يملك غير ذلك أو يملك معه ما قل ،هل هذا من السفه الذي يضرب فيه على فاعله ؟ وإذا ذهبنا على مذهب أبي القاسم(3)، واعتبرها مصلحة الأيتام ، وقومنا الأمة بأزيد مما تساوي ، رغبة في المصلحة ، أيكفي ذلك مع الله ؟ وإن استولدت ، هل تقوم مع ولدها ؟ وهل يعذر وإن ادعى الجهل ؟ وإن كان مثله لا يجهل لجواز الغفلة ، على الإنسان ، وحينئذ إنما لهم ثمنها فقط ، أم كيف هو الأمر في ذلك ؟ والسلام.

---

1 – الذي يقرض أو يستقرض كثيرا، ابن منظور، المصدر السابق، مادة دان.

2 – هو أبو عبد الله محمد بن الشيخ عبد القادر الفاسي الفقيه العالم . ولد بفاس سنة 1042هـ/1632م . أخذ عن والده والشيخ اليوسي وغيرهما ، له تآليف منها :

– شرح الحص الحصين لابن الجوزي .

– شرح شواهد ابن هشام .

– شرح نظم نخبة ابن حجر في المصطلح ... الخ .

توفي سنة 1116هـ/1704م . انظر محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية ، المصدر السابق ، ص . 329 .

3 – لعله يقصد أبا القاسم التنملي الفاسي ، الفقيه المالكي المتوفى سنة 811هـ / 1408م ، أنظر الزركلي ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص . 178 .

فأجاب بما نصه : "الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ، مسألة من فعل فعلا إذا رفع للحاكم ، لم يفعل سواه ، قد ينتفي الإثم في بعض صورها ، ولنا جزئيات ، قد تختلف أحكامها ، ونعني بعدم الإثم أن الفاعل المذكور لا يلزمه شيء فيما بينه وبين الله .

والهبة بمجردها ، لا يثْبُتُ بها السفه في المرة الواحدة . ولم ندر ما مرادكم بمذهب ابن القاسم ، فلم نتحقق المبني عليه ، فإن كان المراد مذهب ابن قاسم في كون تصرف السفيه قبل الحجر محمولا على الرد ، فإذا رد فعله فما موجب التقويم ؟ فإن كان مرادكم أنها تباع بحاجتهم إلى ثمنها لنفقة مثلا فلا بأس ، ولاسيما إذا بيعت بأزيد مما تساوي ، فإن ذلك مخلص مع الله إن شاء الله . قال تعالى "ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير"(1) . وكذا إن كان سبب التقويم استيلادها، إن كان المستولد هو الشريك لهم فيها ، فالحكم ما أشار له صاحب المختصر بقوله : "وإن وطئ شريك فحملت، غرم نصيب الآخر ، فإن أعسر خير في اتباعه يوم الوطء، أو بيعها كذلك ، وتتبعه بما بقي بنصف قيمة الولد . وقال في باب الشركة ، وإن وطئ جارية للشريك بإذنه أو بغير إذنه ، وحملت قومت . وإلا فللآخر إبقاؤها ، ومقاومتها اهـ . وقوله وحملت قيدٌ ، راجعٌ لقوله أو بغير إذنه ، فيتعين تقويمها ، حملت أو لا . وقوله وإلا أى ، إن لم يأذن ، ولم تحمل والله أعلم . وكتبه العبد الفقير إلى رحمة ربه محمد بن عبد القادر غفر الله له ولوالده"اهـ ، من نزهة الناظر . وفيها من الفتاوى والأحكام الشرعية . فهؤلاء البرابر التي يوجد فيها عالم يدقق هذه المسائل العويصة ، ويحتار في الحكم فيها هذه الحيرة ، حتى يرفعها إلى من هو أعلى منه علما ، وأقوم قيلا ، طالبا في ذلك وجه الخلاص فيما بينه وبين مولاه . هل يمكن أن يقال فيهم إنهم يتحاكمون لغير الشرع الإسلامي ، أو للعوائد البربرية والأعراف القبلية ؟

لاومعاذ الله ، وقد كانت عمارة هذه المدرسة والزاوية ، التاستاوتية في ممفتتح القرن الحادي عشر ، واستمرت عمارتها بأحفاد وليها الأول الشيخ محمد بن مبارك إلى ما بعد وفاة عالمهم الأشهر أحمد بن عبد القادر سنة 1127 ، وهذه السنون هي سنو مملكة السلطان المولى اسماعيل ، الذي حكم كل بلاد المغرب ، سهولها وجبالها . فلا يمكن لأي كان أن تسول له نفسه التحاكم لغير الشريعة .

وإذا تجاوزنا أيامه فماذا نرى ، هل تبدلت الحال في هذه القبائل؟ لا لا ، فإن الشريعة هي الشريعة ، وحكامها هم قضاتها المنصوبون من قبل ملوكهم العلويين . فهذا ظهير من السلطان المولى عبد الله ابن اسماعيل ، يمكنه لقاض ، ينصبه في الأطلس الكبير على كافة قبائل ملوية بتاريخ منتصف ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائة وألف ، والقاضي هذا من ذرية المولى الصالح سيدي يحيى ويوسف ، من ضواحي مركز تونفيت من قبيلة آيت يحيى .

---

1 – سورة البقرة: 220

وهذا نص الظهير الذي يحمل الطابع الكبير المذهب ، والكتاب مذهب كذلك نصه:"الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه ، كتابنا هذا، أسماه الله ، وأعز أمره ، وأطلع في سماء المجد شمسه وبدره . يتعرف منه بحول الله وقوته ، أننا أقررنا حامله العالم الأفضل الزكي الأمجد ، الزكي الأبجل ، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمان المرابطي ، استنادا على نسبه الشريف ، وعلمه الظاهر الحنيف ، حسبما أقره الله عليه ، عمنا سيدنا ومولانا الرشيد ، ووالدنا سيدنا ومولانا اسماعيل ، أسكنهما الله عليين مع النبيئين والمرسلين . وكتبه في ظهائر بيده لجده عالم عصره ، ومريد دهره ، أبي عثمان سيدي سعيد الشاوي ووقرناه واحترمناه ، زيادة على ما به من التوقير والاحترام ، والرعي الجميل المستدام ، وحاشيناه وأولاده وولدي عمه السيد أحمد ابن كذا القاسم ، والسيد محمد بن إبراهيم عما ينوب قبيلة المرابطين وغيرهم من العوام رعيا لنسبه ، ووجه الله العظيم . وأذناه له في خطة القضاء بقبائل ملوية ، ونواحيها بدوا وحضرا . كما نأمر من تولى الأمر من أصحابنا أن يفرضوا له على قبائل ملوية مائة مثقال بايض وعلق المؤلف باض اكلته الأرضة ، نصفها قمحا ، ونصفها شعيرا ، وأربعة قناطر سمنا . فعلى الواقف عليه العمل لمقتضاه ولا يتعداه، وفي منتصف ذي الحجة متم سبعة وأربعين ومائة وألف " اهـ .

وهذا القاضي هو من أسرة زاوية علمية تسمى سيدي يحيى ويوسف ، ولا تزال بها مدرسة علمية كثمرة تفور، وتقور تارة وتارة بطلبة القرآن وطلبة العلم لحد الآن. وسنوافي القراء ببعض ما علمناه عنها وعن أسرتها العلمية ، مما سمعناه أو عايناه فيها في القسم العلمي إنشاء الله .

ومن أعظم الزوايا العلمية ، أوالمدارس أيضا بالأطلس الكبير ، مدرسة أبي سالم العياشي ، وقد بدأت عمارتها وامتدت ، وإلى تاريخنا هذا ، لايزال فيها بصيص من العلم . وقد ملأ علم هذه المدرسة جميع القبائل المحتفة بها كآيت عياش ، وآيت يزدگ ، وآيت حديدو وآيت مرغاد وتافيلالت وغيرهم من برابر الأطلس الكبير أو المتوسط . وما ظنك بمدرسة يحمل لواءها العلمي ، والشرعي الشيخ الأشهر ، والإمام الأكبر ، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، وولده حمزة، وحفيده محمد بن حمزة، وحفيذه محمد، وأسرته العديدون . ونرى هذه المدرسة تفيض بالعلوم الصحيحة من كتاب وسنة ، وحديث وآثار ، وأصول ، وبيان ، وبديع ، وشعر وتزدوج المآخذ بينهم وبين أسرة الزاوية الفاسية (1) بفاس فيتدبجون (2) ، كالشيء الواحد ، يشدون الرحال لبعضهم بعضا ، كما كانت تشد الرحلة للأولى ، بالخصوص من جميع أقطار المغرب وشدّها أبو سالم العياشي إلي عواصم المغرب،

---

1 - ربما يقصد بها المؤلف الزاوية الدرقاوية ، أو الكتانية التي كان لها صيت كبير في الأطلس .

2 - يتزينون ، والمقصود يكمل بعضهم بعضا ، ابن منظور ، المصدر السابق ، مادة دَبَجَ .

بل إلى عواصم المشرق ، كالحرمين الشريفين ، ومصر ، والقدس . ومكثه في هذه الرحلة تسعا وعشرين شهرا فيعمر كل المواضع ، حضرية ، وبدوية بالعلم إفادة واستفادة ، مما حدثنا به رحلته العجيبة البديعة . ويتلقى بأكابر العلماء الشرقيين ، ويأخذ ، وتؤخذ عنه العلوم الأصلية ، والفرعية ، كتابا ، وسنة ، وأصولا ، وأدبا وشعرا .

وقد كانت ولادته سنة 1037 ووفاته سنة 1090 ، وخلفه في مرتبته أولاده ، وحفدته ، وإن لم يدركوا شأوه ، إلا أنهم صانوا حوزة مدرستهم طويلا من ذلك التاريخ ولحد الآن لازال بصيص علم في رجالها ، وآثار هذه الزاوية العلمية في الفتاوى ، والأقضية حجة قائمة على رسوخ الشرع الإسلامي والتحاكم إلى قضاته ، بدون ريب ولا خلاف .

وفي أيام السلطان سليمان ، نرى في قبيلة زيان ، في مدرسة مدشر أروكَو ، شرقي خنيفرة بنحو 20 كلم ، قاضيا يحكم بين الخصوم ، ويخاطب على الرسوم ، منصوبا من قبل السلطان المذكور . ذلك هو العلامة الشريف مولاي عبد الله بن محمد الحسني العلوي . وهذا رسم مؤدى عليه ، مؤرخ لمنسلخ صفر عام 1212. ولنسق نص هذا الرسم كدليل على معرفة هؤلاء العدول وقضاتهم بقوانين التوثيق ومسطرته ، وللتاريخ أيضا . وهذا نصه :"الحمد لله وهب محمد بن محمد ضما الشبوكي لأولاد وَلَدِهِ ، محمد ضمّا المكنى ابن عبد الكريم . وهم محمد المكنى ابن أحمد ، ومحمد ضما المكنى ابن علي ، والحسين ، والعياشي ، كلهم إخوة ، وهم أولاد محمد ضمّا ابن عبد الكريم المذكور، جميع داره المعلومة والمنسوبة له بأركَو شبوكة ، شهرتها بالمحل المذكور، أغنت عن التحديد ، ماعدا بيتا أبقاها لنفسه ، عن يسار الداخل ، ويمين الخارج ، قريبة مــن الباب . وباقي الدار عاينها شهيده ، خالية من أشغاله وأثقاله وأسبابه ، مفاتحها بيد محمد بن أحمد المذكور ، وابن علي المذكور ، حازها بمعاينة شهيده لأنفسهما ، وللحسين وابن العياشي لصغرهما .

ووهب لهم أيضا جميع جزء من رحى الماء ، قرب الدار المذكورة ، وجميع تَفْزَ ونصفه بتيكَ ْمزُّوغْ ، والجنان الذي هو الآن فدان بقرب المدشر المذكور ، وهو الهري ، وجميع ما يملكه ، وما ينسب إليه ، من الأملاك بإزاء المدشر المذكور . ولم يبق شيئا منها على ملكه كيفما كان ، وأيا كان ، إلا وأخرجه عن ملكه ، وأبانه عنه ، ووهبه لهم ولم يبق إلا البيت المذكورة أولا . وما عداها من الفدادين قريبة المدشر ، أو نائية عنه ، إلا وهبها لمن ذكر . وشهرة الجميع أغنت وكفت عن التحديد ، شهرتها بأروكَو المذكور ، شاعت واستفاضت ، يعرفها وحدودها البادي والحاضر ، لجميع ما لها من المنافع ، والمرافق والحرم ، وكافة الحقوق الداخلية فيها ، والخارجية عنها ، هبة بتة بنوله إبانها مبتولة يتولى عن ملكه ، وصيرها لهم ملكا خالصا لهم ، يتصرفون فيه كيف شاؤوا . قصد بذلك وجه الله العظيم ، والدار الأخيرة وإعانة ، لهم على ما كان عليه سلفهم من القراءة ، وتعليم الدين وفقّهم الله تعالى . والا يكن ذلك منهم فيستعينوا به على معيشتهم ، وكفهم عن السؤال ، والله حسيب

من نازعهم من بناته وولده وأقاربه حساب انتقام . ومن تصدى لنزاعهم ، من ورثته ، فقد رام عندهم ظلما فحسب ، وحضر لدي شهيديه محمد بن أحمد المذكور ، ومحمد بن علي المذكور ، وقبلا ذلك منه قبولا تاما لأنفسهما ، وقبلا عن الحسين وابن العياشي لصغرهما ، وطافا مع شهيديه على جميع ملكه كله الموهوب لهما ، ولأخويهما تطوفا تاما ، وعاينه خاليا من عمارة الواهب ، وحازاه بمعاينته لأنفسهمابياض وعلّق عليه المؤلف بقوله : بياض لتخريم به بقدر كلمتين ولعله (ونيابة عن الصغيرين) وبحضرتهما . أذن الواهب لهما في الحيازة لهما ، فحازا الجميع معاينة حوزا تاما ، مستوفيا لشروطه ، إلى أن يبلغ الصغيران المذكوران الحلم، ويحوزان لأنفسهما . عرف الواهب والحائزان المذكوران قدره . شهد عليهم وهم بأكمله ، وعرفهم مع معرفة الصغيرين المذكورين ، بعدم بلوغهما ، في منسلخ صفر الخير عام اثنين وعشرين ومائتين وألف ، محمد بن عبد المالك الحسني السجلماسي وفقه الله وأصلحه ، بالسطر الخامس جزء من عبد ربه محمد بن أحمد الشرعي لطف الله به آمين . الحمد لله أديا بمضمنه ، فقبلا ، وأعلم به عبيد ربه تعالى عبد الله بن محمد الحسني السجلماسي وفقه الله .

فلنتأمل هذا الرسم وما جاء في توثيقه من عدليه الدال على معرفتهما بصناعة التوثيق الدقيقة ، التي يعزب علمها وعلم بعضها عن الكثير من عدول وقتنا هذا . فنراه ينص على التحويز للمالكين أمر أنفسهما ، والقاصرين يحوّز لهما أولياؤهما ، والاشهاد الأكملية الأتمية على الأولين الراشدين ، وخلوها من القاصرين ، ووصف البيت المستثنى من الهبة ، والاشهاد على الموهوب لهم بالحيازة والقبول إلى غير ذلك .

ومدشر أروكَو هذا من المداشر التي به مدرسة قرآنية لم تزل عامرة بطلبة العلم والقرآن ، وبه شرفاء علويون ، ومنه أخذ السلطان مولاي اسماعيل إمامه الشيخ سيدي علي وابراهيم ، جد المؤرخ الشهير أبي القاسم الزياني ، وذلك مما يدل على عمارته بالعلم آنذاك . كما يدل عليه ما جاء في الرسم بقوله "إعانة لهم على ما كان لسلفهم من القراءة وتعليم الدين" . وكما يؤخذ تمسكهم بالشرع نسبة أحد عدولها بالشرعي ، نسبة لآيت الشرع ، فخْذٌ من عمارة تسمى إهبّارن ، من قبيلة زيان .

ولننتقل من قبيلة زيان لقبيلة بني مجيلد ، ولندع القاضي العلامة قاضي فاس 40 سنة أحمد بن سعيد المجيلدي ، فربما يقال إنه كان قاضيا بعاصمة فاس ، وأبا الحجاج يوسف المجيلدي ، أحد مفاخر علماء بني مجيلد بفاس ، المتوفى بفاس ، حوالي 1145. فهذان ربما لا تقام بهما حجة على القضاء الشرعي بقبيلتهما بني مجيلد ، لأنهما صارا فاسيين . فلننظر ماذا كان بعاصمتهم أزرو ، فهل كانت هناك أحكام شرعية أو قوانين أزرف العرفية ؟

ذكر العلامة الشريف سيدي سليمان الحوات ، قصة ترافق اثنين من خواص تلاميذ الزاوية الدلائية هما الإمام أبو علي اليوسي ، والعلامة الشريف أبو العباس أحمد بن عبد القادر القادري ، وكلاهما ممن حضر وقعة الزاوية الدلائية .

ذكر أنهما ترافقا مرة لزيارة الشيخ أبي يعزى ، وفي رجوعهما من زيارته ، عرجا على قرية أزرو . فتلاقهما أهلها ، وتعرضوا للإمام اليوسي ، وطلبوا منه أن يشرفهم بالنزول عندهم ، ليكرموا ضيافته ويجلوا وفادته ، فساعدهم على ذلك ، وأنزلوه بروضة بمن معه ، وطال المقام ولم يأتوا بطعام . ثم جاء القاضي ، قاضي أزرو، ومعه أعيان القرية ، فلم يأتوا بشيء أيضا ، فأخرج الإمام اليوسي سويقا من زاده ، وبثه للجميع ودعاهم ، فأكلوا واستفضلوا . قال العلامة أحمد بن عبد القادر ، فلما رأيت ذلك تذكرت قول الشاعر أبي العباس أحمد الدغوغي في قرية أزرو وهي :

قرية لا قِرى لابــــن السبيل بها	تبّـا لهـــا ولأرجــاس بها اجتمعوا
لولا أفاردهـــا يقـــرون واردَهـــا	مــن ســؤر باردها في ضمنه وجع
لقلت من زار أزرو وزار مقْبــرةً	ورب مقـبــرة زوّارُهــــا انتفعـــوا

قــال وقــلت تذييلا لـها فــي الحــين بحضرة سيدي الحسن ومن معه :

وإن حللت بها فأنزل بروضتـهـا	ولا تــرجً نــدًى فالخيـــر ممتنـــع
لقد أتيناهم يوم الخميس ضحى	فلــم يــر منهـــم قــوتٌ ولا شبَع
قالوا القضاة أتوا قلنا لتكرمونا	إذا بهم في سَويق الشيخ قد طمعوا .

ونحن نحكي القصة للاستدلال على ما نحن بصدده ، من كون أقحاح البرابر الذين لم يزل الشرع عندهم هو قانون تحاكمهم ، ورصيد تخاصمهم ولا يهمنا إلا هذا ، أما الطعام والإكرام ، فعارضان يفوران ويغوران . على أن المعروف من رجال البرابر هو الإكرام ، وقرى الأضياف ، من ذبائح الأنعام ، والأغنام كما قدمنا سالفا .

ولاشك أن هؤلاء القضاة ، كانوا أواخر القرن الحادي عشر ، لأنه الوقت الذي يظن فيه تهيأ هذا الشريف لرفقة الشيخ اليوسي ، لزيارة الشيخ أبي يعزى ، فهو من مواليد 1050 وقد توفي سنة 1133هـ .

هذا ما رأيناه من الآثار الشرعية في هذه القبائل الأطلسية البربرية ، من عهد الدولة الموحدية ، وآخر ما نراه ، نرى القاضي الشرعي الموجه من طرف السلطان المولى الحسن مع المحلة المخزنية ، التي جاءت لإعانة محمد وحمو الزياني ، وعسكرت بخنيفرة حوالي سنة 1297 .

وقد ولاه السلطان المذكور قضاء شرعيا ، يخاطب فيه على الرسوم ويفصل بين الخصوم ، ذلك هو الشريف مولاي إدريس بن محمد بن سعيد ، من أولاد أسرة بن سعد التلمساني المهاجرين لفاس ، وتازة ، بعد احتلال تلمسان . وقد كان منهم علماء وعدول بسماط القرويين بفاس وتازة . وانتخب منهم مولاي إدريس هذا قاضيا بالتاريخ المذكور 1297

وبقي في وظيفته القضائية بخنيفرة إلى آخر سنة 1311، عند وفاة المولى الحسن فظهرت منه التفاتة إلى الغير عندما كلفه قواد المحلة ومحمد وحمو بقراءة ظهير نصر السلطان مولاي عبد العزيز (1) فتلكأ في قراءته ، فأنزلوه من أعلى المنبر ، وكادوا يبطشون به ، لولا تدخل بعض العقلاء ، كالوالد ، رئيس المحلة رحمه الله، وأشار عليه بالانزواء في عقر داره ، فانسل لداره . ولما أرخى الليل سدوله تسلل لواذا إلى ناحية سيدي علي أمهاوش ، حيث كانت معه مصاهرة وهناك توفي .

وتولى مكانه من بعده أخوه مولاي علي بن سعد ، وبقي يمثل الخطة إلى أن هاجمتنا قوة الاستعمار في رجب 1332هـ . ففر الجميع وهو من جملة الفارين إلى قبائل إشقرن ، وأمهاوش ، حتى أدركته منيته هناك حوالي سنة 1334 . ولا ننكر أن سلطة هذا القاضي ضعفت في الأيام الأخيرة ، عندما اضطربت الأحوال في كل بلاد المغرب ، أو اخر أيام المولى عبد العزيز ، وعندما شارك أولاد محمد وحمو ، وأبناء أخيه شيئا ما في السلطة ، وسنتحدث عن ذلك في محله .

وقد كان قبل هذين القاضيين المذكورين الموجهين من طرف السلطان المولى الحسن ، قضاة منصوبون بزيان وإشقيرن ، وآيت سخمان إلا أن موليهما من الملوك لا ندريه .

فقد زارني الفقيه السيد مبارك بن العربي بن حماد الخلوفي السرغيني ، وكان كقاض لقبائل آيت يسري ، مركز زاوية الشيخ ، يترافع إليه في القضايا الشرعية . زارني بوادي زم بتاريخ 18 ربيع الثاني عام 1350 يوافق شتنبر 1931 ، وهو من معارف شيخنا العلامة سيدي الحاج عبد الرحمان أيام زيان ، وكان يسكن خلفون* "مدشر الوادي" على نحو 6 كلم من زاوية الشيخ . وكانت هذه الزيارة بأثر ضجة الظهير البربري الصادر في سنة 1930، الذي طن طنينه آنذاك بين الأندية المغربية ، وحول البرابر الذين ابتلوا به ، فراجت المذاكرة مع الزائر ، قاضي البرابر ، في الموضوع ، فحدثته عما أعلمه في زيان من ديانة وشريعة ، والقاضيين المنصوبين في عاصمتهم خنيفرة. فأخبرني هو بأنه كذلك يعلم قضاة بهذاالأطلس ، قبل مفتتح القرن الرابع عشر . فقد كان بزيان قاض شغل مدة القضاء نحو سبعين

---

1 – عبد العزيز بن الحسن بن محمد الحسني العلوي ، من سلاطين الدولة العلوية بالمغرب الأقصى ، بويع سنة 1894 ، وعمره لا يتجاوز 13 سنة . لم يكد يتولى الحكم حتى ثار أبو حمارة في شرق المغرب والريسوني في الشمال ، واندلعت اضطرابات في مختلف البلاد ودخلت جيوش فرنسا منطقة وجدة والدار البيضاء ، واضطر عبد العزيز على التخلي عن الحكم لصالح أخيه مولاي عبد الحفيظ (16 غشت 1907) .

*– "خلفون إسم قريب من زاوية الشيخ ، وكان هذا المحل يسكنه الشيخ اليوسي ، وله به مدرسة ، وكم غنى بهذا المحل ، وكتب ، وسنوافي هذا في محله العلمي إن شاء الله . ولعل أن إسم مدشر الوادي ، خلف هذا الإسم خلفون "اهـ مؤلفه .

سنة ، هو العلامة سيدي محمد والأحسن التدغي* ، وكان معاصرا للعلامة القاضي سيدي محمد واعزيز المحاوي ، وكان بظهير علوي ، ثم انتقل لزاية تامكروت ، وبقي هناك مدة إلى أن أعفي ، فرجع لبلاده ، آيت ماحة ، مركز زاوية الشيخ ، وهناك توفي ، وكان بإمهواش بآيت ورّا ، مركز القصيبة ، قاض ، وهو الفقيه السيد الأحسن نايت حمو المهاوشي . وسألت محدثي القاضي المذكور عن قضائه ، ماذا كان يشمل من القبائل ، فقال كان يتولى قضاء جميع آيت البخت وهم آيت هودي ، وآيت كطيف ، وآيت عبد النور ، وآيت ماحة ، أي جميع مركز زاوية الشيخ . وحدثني أنه حكم ذات مرة بعدم الشفعة للأخت من بيع أخيها ، لأن الأخ هنا كوكيل عرفي .

قال ، فقامت ضجة من مفتي فقهاء البرابر وقضاتهم ، أو شبه قضاتهم* ، بهذا الأطلس ، فرفعت القضية لقاضي آيت إيحند (زيان) ، وهو أبو العباس أحمد بن محمد صاحب مدرسة أروكَو ، ثم للفقيه العلامة سيدي الحاج عبد الرحمان بخنيفرة ، ثم للفقيه العلامة المفتي سيدي الأحسن الآسفي بأبي الجعد .

ثم قال ولم نعرضها على قاضي خنيفرة ، مولاي علي بن سعد ، لأنه كان لا يحب أن يتدخل في مثل هذه القضايا ، انتهى . ثم نرى ، ولا نزال نرى ، ما يدلنا على تمسك هؤلاء البربر . وآخر ما نرى هذه الرسالة من أحد أبطال هذا الأطلس المجاهدين ، ورؤساء الجهاد الذي كان يقود المعارك العظام لصد غارات الجيش المحتل ، ذلك هو الفقيه سيدي عبد المالك بن الفقيه المرشد الداعي إلى الله سيدي الطيب الهواري *.

فقد كتب سيدي عبد المالك ، أيام الجهاد ، حوالي 1338 أو 1339 ، لبعض القبائل، التي يتولى قيادتها باسم الجهاد آنذاك ، يقول : "بعد الحمدلة والصلاة على الرسول، قبيلة أهل الله ، آيت ويرّا كافة ، أخص منهم جماعة آيت يكو ، وآيت ومنصف ، وعلي وابراهيم ، وآيت سعيد ويشو ، وآيت وسعد ، وآيت عسو ، وآيت حسين ، "أحسن الله عاقبتنا وإياكم ، وسلام عليكم ورحمة الله . أما بعد فقد أحببناكم أن تزْرُبوا* على إيمانكم وإسلامكم بزرب الشريعة ، واتركوا عنكم «أزرف» والخيام (كذا). فذلك ذأب من

---

*- " تدغة قبيلة عظيمة وبها كان علماء وقضاة ، وهي من عداد إقليم مراكش ، ومركزها «تينغير» وهي في حدود تافيلالت . ومن قضاتها العلامة سيدي المهدي ، من أكابر العلماء المشاهير"اهـ مؤلفه .

* كانت قبائل اشقيرن وآيت سخمان ، والكثير من قبائل آيت يسري خاضعة ، أو متمسكة بأهذاب الطريقة الدرقاوية ، التي يرأسها سيدي علي بن المكي أمهاوش . وكان هو كرئيس لهذه القبائل يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ، حربا وسلما ، وكانت له مواقف مشهورة ، مع القائد محمد وحمو الزياني ، وقبيلة زيان ، حروبا سنين طويلة، لم يطفأ أوارها بينهم إلا عندما عاينوا الجيش المهاجم ، جيش الاحتلال يساومهم على دينهم ووطنهم ، مما سنشرحه في محله إن شاء الله .

* – زرب يزرب زربا المواشي أدخلها للزريبة . وهي تتعدى بنفسها . وفي اللغة الدارجة يعدونها بعلى كما هنا"اهـ مؤلفه .

تهاون بدينه ، ووصلّوا لأشياخكم أن تتركوا عنكم ذلك ، وبرّحوا بشريعة نبيكم صلى الله عليه وسلم . فإن أصل الخير كله والفتح كله ، والنصر كله والحفظ كله فيها ، وكذلك العكس في الإدبار عنها . واعلموا أن أبوكم (كذا) وأبونا (كذا) سيـــدي عبـــد الواحد ، بعثناه بكتابنا هذا ، فكونوا على نظره . وإياكم أن تخالفوه . وعارْكم ضوء بلدكم الفقيه سيدي محمد بن علي المهاوشي ، ونطلب الله أن يؤلف بين عباده المومنين ، أينما كانوا ، ويشتت شمل أعداء الله ، حيثما كانوا ، ونحن على عهد الله ما دمتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، والسلام . عبد المالك بن الطيب دبر الله أمره ."

انتهى وكفى .

ولعلني بهذه ألإمامة القصيرة ، التي ألمت فيها بالتدليل على ما كانت عليه هذه القبائل البربرية ، من تمسك بدين وقضاء شرعي متين ، لم يبقى شك لأحد أن دينهم الإسلام وتقاضيهم محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن أجلها قاوموا الستعمرزهاء ثلاثين سنة ، وشهّروا عليه أسلحتهم والأسنة ، وهاجروا عزيز الأوطان وفقدوا الأبطال وضحوا بالشجعان .

وغلاة المستعمرين الذين دبوا بينهم بالتفرقة قد يعلمون بعض هذا ، ولكنها الأهواء عمت فأعمت . فهذا الضابط سعيد كَنون الذي كان أحد ضباط الجيش الفرنسي لمراكز لهذا الأطلس ، خنيفرة ، أيت إسحاق ، والمسيد وغيرها ، فقد ذكر في كتبه "الجبل البربري" ، عند تعرضه لذكر مدينة خنيفرة ، بأنه كان فيها قاضيا شرعيا وعدولا . ولنقف عند هذا الحد ، وإلا فالدليل على القضاء الشرعي بالبربر ليس له عد شجاعتهم وبطولتهم .

شجاعتهم وبطـولتهم

وهؤلاء البرابر من أشد القبائل شكيمة ، وأصعبهم إنقيادا ، وانفهم نفسا ، وإباية للضيم ، لا تهتك لهم حرمة ، ولا تخفر لهم ذمة ، إذا عرفنا أنهم من شعب صنهاجة .

ما شيء من مأتاه لاستنكر .

فذكر صنهاجة خرق الآفاق لا في المغرب فقط ، بل تجاوزه إلى الأندلس . فقد كان لهم ولإخوانهم زناتة الأثر الأكبر في دولة بني عباد عموما والمعتضد خصوصا . وهذا شاعر المعتضد أبو الوليد أحمد بن عبد الله المعروف بإبن زيدون ذي الوزارتين ، ينوه بفرسان صنهاجة . كان دخول صنهاجة للأندلس مع البربري الفاتح طارق بن زياد ، سنة 92 هجرية ، يوافق 711 مسيحية ، ومنهم بنو عبد الوهاب باسبونة ، وهم من ولد ميمون بن أبي جميل ابن أخت طارق بن زياد .

ومنهم بنوغليظ دراج أصحاب مدينة قسطلة دراج ، التي منها الشاعرالشهير ابن دراج، كاتب المنصور بن أبي عامر وشاعره . وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج . ولم يزل

ابن دراج يفخر بقومه البربر ، في شعره الفينة بعد الأخرى . ومن أبدع ما قاله فيهم ، من قصيدة لسليمان بن عبد الحكم ، قصيدة بديعة رنانة ، جاء في صفة رجال حربه منها قوله :

وقــد لـمعت حوليك منهـم أسنة | يخيـل أن الحـــزن والسهل نيـران
أســـود ُهياجٌ مـــا تزال تراهم | تطيــــــر بهـم نحـو الكريهـة عقبان
وأقمـــار حـــرب طالعاتٌ كأنما | عمـائمهم فـــي موقـع الرّوْع تيجان
وكـــل زناتي كـــان حســـامُه | وهامـــة مـــن لاقـاه نـــارٌ وقربـــانُ
وأبيـــض صنهـــاج كـان سنانه | شهـاب إذا أهـــوى لقـرن وشيطـان .

ديوان ابن دراج جزء 12،صحيفة 57 .

وكانت صنهاجة معروفة بمحبة الذرية النبوية ، ومشيعة لسيدنا علي ، وذريته من قديم . ومن المعلوم أن الدولة في الأندلس كانت أولا لبني أمية . فلذلك لم تستكثر منهم هذه الدولة عكس زناتة الذين كانوا يميلون للدولة الأموية ، لكن لما ركز المنصور ابن أبي عامر قدمه في الأندلس ، أواخر القرن الرابع الهجري ، استقدم من الصنهاجيين البرابر ما رجّح به كفته على بني أمية وشيعتها البرابر الزناتيين ، مما تسبب في استضعاف دولتهم ، بل وأخيرا القضاء عليها .

كان ابن زيدون ينوه بفرسان صنهاجة وزناتة في اقتحام المعارك تارة ، وفي الأمانة والإخلاص ، ومنحهم وداده الصافي تارة . فانظر لقوله من قصيدته الطويلة العجيبة في مدح المعتضد التي مطلعها :

ليهن الهدى إنجاحُ سعيك في العدى | وأن راح صنعُ الله نحوك واغتدى

إلى أن يقول :

يُراجَـــم مـــن صنهــاجة وزناتة | بمثـــل نجـوم القذف مثْنـــى ومَوْجَـدا
هــــم الأولياء المـا نحوك صفاءهم | إذا امتـــاز مصـْـفي الودِّ ممّن تـــوددا
لهـم كل ميمـــون والنقـيبة بـــازل | كـفيـل بـأن يستهـزم الجمعَ مـفـردا
يســـرّك فـي الهيـجا إذا جرّ لامةً | ويُـرضـيك في النادي إذا اعتمَّ وارْتَدا .

وإذا كانوا بهذه المثابة عزة نفس وإباية ، فلا يستغرب ما حدثنا به التاريخ من مقاومة لمن ناواهم أو ساومهم خسفا واستكانة ، وقد تقدم لنا أن السلطان يوسف بن تاشفين ، وناهيك بمدوخ المغربين ، ومالك القطرين ، لما نازل المهدي بن تولي اليحشفي، قاومه رغم محاصرته له تسع سنين في قلعته «القارة» بتراب زيان ، ولم يخضد شوكته ولا مس بسوء صولته ، حتى تنازل معه لصلح اتفقا عليه كند لمثله وكما يتحدث التاريخ ببطولة أصحاب هذه القلعة ، يتحدث برجال علم فيها . ففيها كان عالم جليل يكنى أبا زكرياء ، ورحل إلى المشرق فنزل الإسكندرية* .

---

*- "من مفاخر البربر لإبن عبد الحليم صحيفة 63"اهـ مولفه .

آثار الدولة العلوية في هذا الأطلس .

وقد تحدث المؤرخون بكثرة عن وقائع هؤلاء الأطلسيين وهي كثيرة . ومن تحقيق المثل السائر " قاتل بسعد والا فدع " ، ماوقع للسلطان المولى الرشيد من فتح الاهي في هذا الأطلس ، ودولته لازالت في عنفوانها ، فإنه لأول حرب وقعت بينه وبين الأمير محمد الحاج الدلائي ، انتصر عليه انتصارا باهرا ، وكان في وسط قبائله الأطلسية ، آيت أمالو ، وهم أشد هؤلاء القبائل شجاعة وثباتا .

ويعزو المتفلسفون هذا الانهزام الأولي إلى ما آلت إليه هذه الدولة الدلائية من كونها دولة المحابر والأقلام ، ففقدوا بذلك صورة الشجاعة والإقدام . ونحن الذي عشنا وسط هذه القبائل ، فإننا نرى من رؤسائهم إجماعا متفقا عليه ، أن الطالْب «صاحب القلم والورقة» ، لا فائدة فيه . ولو كان على العكس من ذلك شجاعة وثباتا ، فإنما هي عندهم عادة تخلفت ، ومحمد وحمو الزياني ، ممن هو أيضا على هذه الفكرة ، فلا يوجد الطالب في أسرته «امحزان» فيما أعلم . ولعل هذه الفلسفة في تعليل انهزام الجيش الدلائي صحيحة ، وهذه النظرية يؤيدها الواقع .

فلنراجع التاريخ مع هؤلاء الأطلسيين لنرى الحقيقة . فالغزوة الأولى هي غزوة المولى الرشيد لزاوية الدلاء وأميرها محمد الحاج في الجمعة سنة 1078 بالمحل المعروف ببطن الرمان . . فانكسر جيش الدلاء ، فاحتلت الزاوية ، وانقرضت دولة الدلائيين . وقلنا ذلك من حسن حظ الرشيد . فلا كلام والسلام .

الغزوة الثانية ، غزوة السلطان مولاي إسماعيل 1088، لما اجتمعوا على حفيد محمد الحاج ، وهو الأمير أحمد بن عبد الله الدلائي . وكانت معارك تدور ما بين الزاويتين الدلائية والشيخية ، "زاوية الشيخ " ، إلى تادلا ،بل كانت إلى وادي العبيد . وكانت جنود الأمير أحمد بن عبد الله الدلائي ،من وادي العبيد إلى سايس ومع ذلك فعرق الطلْب والأدب الموروث من أسلافه دسّاس . فإنه بمجرد ما توجه إليه السلطان إسماعيل بنفسه ، آخر مرة انهزم ، وانكسرت محلته ، وطاحت دولته ، وفر إلى جبال هسكورة حيث قتل مسموما بتدبير كبيرآيت يمور علي بن بركة ،وكبير آيت مقداد ابن راحة من هسكورة.

الغزوة الثالثة ، غزوة المولى إسماعيل أيضا سنة 1095) . وقد خرج إلى جبل فلزاز ، فانهزموا إلى ملوية ، وكان توجهه إليهم من مكناس ،عبر قبائل بني مجيلد ، فأسس قلعة عين اللوح ، وقلعة أزرو .

الغزوة الرابعة سنة 1096، وكان توجهه على قبائل آيت إدراسن ، عبر مدينة صفرو ، وأسس قلعة أعليل ، وأسس أخرى بوادي كَيكَو من أسفله ، وأخرى على وادي سكورة ، وأخرى على وادي تشوكت ، وأخرى بدار تيشوكت الطمع ، وأخرى بتمايوست ، وأخرى بقصر بني مطير ، وأخرى بأوطاط أولاد الحاج ، وأخرى بالأقصابي .

الغزوة الخامسة سنة 1099، فنزل بقصبة أدخسان ، ومكث هناك حتى وفدت عليه قبائل زمور ، وبني حكم ، برياسة كبيرهم ، أمير الأمراء ، علي بن يشي القبلي وعلي بن بركة اليموري ، بقبائل آيت يمور . فهذه هي الغزوة الكبرى ، التي خضد فيها شوكة هذه البرابر الأطلسية ، وهد كيانهم ، ومنعهم من كل حركة بانتزاع ما عندهم ،من خيل ، وسلاح ، فأراح واستراح ، وكان عدد الفرسان الذكور عشرة آلاف ، وعدد المكاحل ثلاثين الف مكحلة.

وقد بنى خلال هذا الأطلس ، من تافيلالت إلى أقصى السوس أزيد من سبعين قصبة . وهذه هي الغزوة الكبرى والأخيرة (1) لهذه الجبال الأطلسية . وفيها استأصل شفتهم وخضد شوكتهم ، وهد كيانهم ، ومنعهم من كل حركة ، بانتزاع ما عندهم من سلاح، وقدره ثلاثون ألف مكحلة ، ومن ذكور الخيل ، وقدرها عشرة آلاف فرس . وترون أن السلطان المولى إسماعيل لم يظفر بهذا الانتصار الباهر إلا بعد غزوات كبار : وأخذ كل مسلك، ومنفذ عليه ، بتضييق الخناق عليهم شيئا فشيئا في الغزوات الست السالفة ، ومع ذلك لم يأمن على نفسه من ثورتهم ، واستعصائهم ، إلا بتجريدهم من السلاح بل ومن الخيل أولا وثانيا .

فاستقامت الأمور وسكنت الرعية وهدأت البلاد ، ولم يبق في هذه المدة ، من سنة 1099 إلى سنة 1139 ، أي أربعين سنة ، لم يبق فيها سارق ولا قاطع طريق ، فكانت تخرج المرأة واليهودي من وجدة إلى وادي نول بسوس الأقصى ، فلا يجدان من يتعرض .

القصبات الاسماعلية بالأطلس صحيفة 133 الكناش الأصلي .

أزرو وعين اللوح سنة 1095 ، قصبة أعليل وقصبة وادي كَيكَو من أسفله . وأخرى بوادي سكورة وأخرى علي وادي تيشوكت . وأخرى بدار الطمع ، وأخرى بتاميوست ، وأخرى بقصر بني مطير ، وأخرى بأوطاط الحاج .

وقال الزياني في الروضة (2) ، بنى إسماعيل السلطان نحو سبعين قصبة من تافيلالت إلى سوس :

1- قصابي تافيلالت. 2- والأقصابي بملوية، وهي قصابي صغار بناها مولاي إسماعيل . وأخيرا هدّمها مولاي الحسن وبنى قصبة كبيرة وشحنها بجند وعسكر. 3- أوطاط الحاج. 4- ميسور. 5- أعليل. 6- وادي كَيكَو من أسفله . 7- تيشوكت بجبال آيت سغروشن ، وبني وراين . 8- بجبل العياشي بمحل يقال له دار الطمع . 9- إتزر . 10- تاميوست. 11- قصر بني مطير ،

---

1 - بل انفجر الوضع من جديد سنة 1104هـ/1692م . واستعمل السلطان في إخماد الثورة الأطلسية المدفعية والمهارس وأطلق يد الجيش للنهب والقتل لمدة ثلاثة أيام .أنظر إبراهيم حركات، م.س.ج. 3 ، ص41-42

2 - عنوان هذا الكتاب : «البستان الظريف في دولة أولاد علي الشريف» . وقد سماه أيضا «الروضة السليمانية في ذكر ملوك الدولة الإسماعلية ومن تقدم من الدول الإسلامية» . والكتاب يحتوي على أخبار سلاطين الدولة العلوية ، علاوة على شذرات أدبية ، نثرية وشعرية .

قريب من قصبة أعليل . 12- بآيت يوسي وبني علاهم . 13- بوادي سكورة من ناحية كَيكَو .14
- بالمهدومة . 15- باب الخميس . 16- الجديدة . 17- أكَراي . 18 الحاجب .19- أدخسان ،
وكان بها من الجنود أربعة آلاف فارس . 20- الدلاء . 21- تادلا . 22- آيت هودي ، من الروضة
السليمانية . 23- أزرو ، وأنزل بها ألف فارس . 24- عين اللوح وأنزل بها 500 فارس ./98/
25- وتينتغالين على يمين الذاهب من خنيفرة لتادلا ، أنزل بها ايت يمور بألف فارس . 26-
والدلاء . 27- وفي المغرب الشرقي تاوريرت بين تازة ووجدة على 108 كلم من وجدة ، وأنزل بها
مائة فارس من العبيد . 28- والركادة سنة 1090 ، وأنزل بها القائد العياشي ابن الزوين الزراوي
ب 500 فارس من زرارة والشبانات إخوان كروم الحاج . 29- والعيون . 30- وقلعة أخرى ثمة
على ملوية . 31- وقلعة مسون ، جوار القديمة . 32- وتازة ، وأنزل بها 2500 فارس من العبيد .
33 - والكَور ، وأنزل بها مائة فارس من العبيد . 34- وبني ملال . 35- وتمارة . 36- وبوزنيقة .
37- والمنصورية . 38- وفضالة . 39- مشرع الرملة . 40- مشرع الحضر . 41- اللويزية .
42- قصبة موحا وسعيد المعروفة بالقصيبة . 43- قصبة وادي زم ، ذكرها في الاستقصاء . 44-
قصبة بوفكران . الاستقصاء سنة 1159 إيالة مولاي عبد الله . 45- قصبة ابن أحمد بالشاوية .
46- قصبة ابن رشيد بها أيضا . 47- قصبة سطات .

وقد سكت التاريخ عن برابر آيت أمالو من رجب 1139 إلى سنة 1143 ، حيث استقر السلطان المولى عبد الله بمكناس الزيتون ، وتفقد حال البربر .

وجدها قد عادت إلى حالها من ركوب الخيل ، واقتناء السلاح . قال الناصري في الاستقصاء وبذلك «عادت هيف لأديانها»*.

فخرج السلطان لغزو آيت يمور . وكان آيت يمور بملوية ، فعثوا فيها ، فتمالا عليهم آيت أمالو ، فأخرجوهم من ملوية ، ونزلوا بتادلا فأوقدوها نارا ، فغزاهم المولى عبد الله ، فلما أحسوا به فروا لبلاد ايت يسري ، فتبعهم وأوقع بهم على وادي العبيد .

وفي سنة 1146، جهز المولى عبد الله جيشا لبرابر فازاز، يشتمل على 18000 مقاتل ، وتوجه بها لمحاصرة برابر فازاز ، ونزل الجيش بقصبة أدخسان ، ثم صعدوا لجبالهم الأطلسية ، فتبعهم الجند ، فسدوا الثنايا عليه ، ونشبوا القتال ، فرجع الجند منهزما ، فلم يجد مسلكا ، فاستولوا على الجند بما فيه ، وجردوه من السلاح ، وبجميع ما معه ، وأطلقوا سراحهم ، ولم يقتلوا أحدا .

وفي سنة 1149 ، خرج السلطان علي ابن إسماعيل ، المعروف بالأعرج ، لقتال برابر فازاز ، فكانت هزيمة شنعاء ، أكثر من التي وقعت سنة 1146 .

---

*- "المثل المعروف "ذهبت هيف لأديانها" والهيف ريح حارة تأتي من ناحية اليمن ، تجفف كل نبت وتيبسه . ولأديانها أي لعادتها. يضرب لكل من لزم عادة ولم يفارقها " اهـ مؤلفه .

وفي سنة 1150 ، وقعت مقاتلة بين الأميرين مولاي عبد الله ومحمد بن عربية ابني اسماعيل ، وفر الأول إلى آيت أمالو ، ناحية ملوية ، فتبعه الأخير ، فلم يحصل على طائل ، لاستعصامه ببرابر آيت أمالو ، وجبلهم فازاز .

وفي سنة 1159، لما استعصى الأمر على مولاي عبد الله ، من جهة إخوانه المشاغبين عليه ، استدعى محبه المخلص كبير آيت ادراسن ، محمد واعزيز المطيري، وفاوضه في الاتيان له بالبرابر وإقناعهم بأنه أحق بالملك من إخوانه ، فامتثل ، وأتى له بنحو مائة فارس من رؤسائهم ، وهو بقصبة أبي فكران .

فلما وصلوا إليه هم بقتلهم جميعا ، فقال له واعزيز "أغدرا بعد أمان؟ والله لا أرجع بعدهم ، فإما قتلا وأنا أولهم ، وإما فداء وأنا منهم " . فأكبرها له السلطان ، شجاعة وثباتا . والتفت حاجبه عبد الوهاب اليموري وقال له : "لا خير في الرجل يقول للرجل يا أبت ثم لا يشفعه في جماعة قبيلته".

وهنا سكت التاريخ [1] عن ايت أمالو وجبل فازاز سبعا وعشرين سنة إلى سنة 1186 حيث استقام الأمر لسيدي محمد بن عبد الله [2] ، وناهيك به سلطانا ، علما وعملا وهمة . فأراد أن يصفى له الجو بإذعان آيت أمالو برابر فازاز .

وكان لبلقاسم الزموري [3] ، نفوذ عظيم على السلطان المذكور ، وهو ينافس آيت أمالو عامة ، وزيان خاصة ، حتى أن الكاتب الأشهر أبا القاسم الزياني ، يحس بعداوة تضطرم في صدره عليه . يفسرها ما جرى في هذه الغزاة ، ولأنه كان ولي عليهم ، فلم يقبلوه ، وطردوه . ترأس السلطان سيدي محمد بن عبد الله هذه الحركة بنفسه ، وتولى تدبيرها أبو القاسم

---

1 – بل وقعت حروب أخرى على عهد السلطان عبد الله بن إسماعيل . فعلى سبيل المثال قام هذا الأخير بغزوهم سنة 1161 هـ/1748م . ثم اتفقوا مع جيش البخاري لخلع السلطان ومبايعة نجله سيدي محمد الذي كان خليفة في مراكش ..."الخ . أنظر ابراهيم حركات ، ج 3 ، ص . 79-80

2 – هو محمد بن عبد الله بن إسماعيل الذي بويع بالإجماع سنة 1171هـ/1757م . كان نائبا عن والده في جنوب المغرب . قضى على الفتن ، وعمل على نشر الأمن والطمانينة ، داخل البلاد . وحرر مدينة الجديدة من الاستعمار البرتغالي (1182هـ/1769م) ، وبلغت الثقافة في عهده غاية الازدهار ، وكان هو نفسه عالما كبيرا . فقد ترك لنا عدة مولفات نذكر منها :

- الفتوحات الإلاهية في أحاديث خير البرية .
- مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان .
- رسالة في منهج التعليم ...الخ .

توفي السلطان في 25 رجب 1204هـ/11 أبريل 1790م . نفسه ، ص. 86 .

3 – أحد قواد الجيش السلطاني .

الزموري . فخرج السلطان من مكناس ، واستنفر القبائل ، وكان بلقاسم الزموري قد نزل في بسيط كَريكَرة * بعد فراره من ايت أمالو ، الذين رجعوا إليه من جبالهم بعد عبوره وادي أم الربيع ، من ناحية تادلا . فجاء السلطان ونزل كَريكَرة ، وحفز السلطان سيدي محمد للإنتقام من خصومه المذكورين . قال الزياني : "وكنت في ركب السلطان ولكن في حيز الإهمال . فلما استقر السلطان بكَريكَرة ، أشار عليه بلقاسم بتقسيم الجيوش إلى ثلاثة أقسام . ثلث ينزل بتاسماكت * . وثلث بزواية أهل الدلاء ، وثلث يذهب معه على طريق تيقط*، ويتقدم السلطان في عساكره حتى ينزل أدخسان . فكان التقسيم ، وتقدمت كَروان الجيش ، وساروا إلى أن وصلوا أدخسان ، فلم يجدوا أمامهم نافخ نار . وسار السلطان إثرهم حتى لحق بهم . فقال "أين هؤلاء ؟ فقالوا ما رأينا أحدا ، وهذه قصبة أدخسان . فأمر بنزول الجيش وبقي على فرسه متحيرا ، فاستدعى أبا القاسم الزياني . قال : " فأسرعت إليه ، فقال لي أتعرف هذه البلاد ، قلت : نعم أتم المعرفة . فقال : أين أهلها ، قلت في جبالهم . قال : أوليس هذا جبلهم وهذا أدخسان . قلت لا هذه قصبة المخزن ، والجبل من وراء تلك الثنايا السود فما خلفها . وأريته الثنايا . فقال : وأين الزاوية التي صار الجيش إليها ، مع قدور بن الخضير ومسرور . قلت هي عن يمين الثنايا في البسيط . قال وأين تسْماكت التي سارت إليها أمم البربر ، مع ولد محمد واعزيز ، قلت بيننا وبينها مرحلتان . قال : ومن أين يأتي القائد بلقاسم ، فأريته الثنية التي يطلع منها . وقلت له : إنه لا يصل إلينا إلا غدا إن سلم . قال : وما صنعنا هنا . قلت : ضربا في حديد بارد . فإن الذي بالزاوية لا يجدي ، والذي بتاسْماكت لا يجدي ، وأيت أمالو متحصنون بالجبل ، وبلقاسم رجل مشؤوم عفى الله مولانا من شؤمه . قال : فظهر للسلطان خلاف ما سمع من بلقاسم وتحقق فساد رأيه ، وعلم أنه قد أخطأ فيما ارتكبه من التغرير بالمسلمين . قال : كم بينت له السبب الذي نفّر به أيت أمالو عن بلقاسم حتى عرفه .

قال السلطان أكتب لي إلى قومك زيان ، ليقدموا علينا ، فإني قد سامحتهم ، فكتبت إليهم ، وبعثت بالكتاب ، من أدخسان مع بعض الأشراف ، واثنين من أصحاب السلطان، فخاضوا إليهم الجبل ، واجتمعوا بهم . ومن الغد أصبح عندنا أربعة منهم ، فهديتهم ، فدخلت

---

*-"كَريكَرة . وتدعى اليوم تيكَريكَرة ، وهو البسيط الذي بعد أزرو ، في طريقك لخنيفرة على نحو 8 كلم ، من مدينة أزرو بني مجيلد " .اهـ مؤلفه .

*- "تاسماكت : هذا الإسم ورد كثيرا في حروب الملوك العلويين مع هؤلاء البرابر ، وهو ببلاد بني مجيلد بعد مدينة أزرو ، في الطريق الذاهبة منه إلى تافيلالت . فبعد أن تتجاوز أزرو بنحو 45 كلم ، تعطف على اليمين ، كأنك ذاهب إلى المركز المسمى البقريث ، وبعد أن تسير في طريقك للبقريث بنحو 5 أو 6 كلم ، تجد الربوة المسماة تاسماكت" اهـ مولفه .

*-" تيقط ، ربوة في طريق خنيفرة إلى مكناس على نحو 20 كلم من هذه ".اهـ مؤلفه .

بهم على السلطان ، فأكرمهم وقبل هديتهم . وقال : إني سامحتكم لوجه كاتبي فلان ، وردهم مبشرين لإخوانهم . وباتت العساكر تلك الليلة بلا تبن ولا علف" . إلى آخر ما حكى .

ولكن على كل حال ، أنقذ الموقف الكاتب الزياني بسياسته ، وحسن إشارة ملكه . وهذه الوقعة كأختها [1] التي جرت لمولاي سليمان ، لولا لطف الله . وما السبب في ذلك إلا سوء التفاهم الواقع بين المتنافسين ، من رؤساء البرابر [2] .

ولولا تبصر السلطان بالعاقبة والإهابة للهم بأهل بلواه . وهـــو كاتبه الصنديد الخريت الزياني ، أخو القوم الذي بصره بعاقبة الأمور ، ووضع الدواء في موضع الداء ، باستجلاب كبراء القوم باللين واللطف ، وحسن الخلق ، لتسع الخرق ، ولم يعد يفيد الرتق مثل ما جرى في :

واقعة السلطان سليمان.

وما جرى للسلطان سيدي محمد بن عبد الله في هذه الحركة مع ايت أمالو ، فسلم الله الموقف مثله ، هو الذي جرى للسلطان سليمان سنة 1234 في الواقعة المسماة بواقعة زيان ، غلطا والصواب واقعة بني مجيلد ، لأنها وقعت في ترابهم .

المؤرخون جميعا يقولون إن واقعة سليمان بزيان ، والصواب بني مجيلد ، وإن كان جميع آيت أمالو ، حضروا فيها . ويقول سيدي ابن زيدان أن الهزيمة ، وقعت في منبع عين سر ، والصواب أنها وقعت في عين أغبالو نتسردان ، وهي عين في الطريق من ميدلت لتادلا ، على نحر 70 كلم من ميدلت ، ويؤيد ذلك أن الرجل الذي أنقذه مجيلدي، من هذه الناحية . وهذا ما ذهب إليه سيدي ابن زيدان في تاريخه عند ذكره لرحلة السلطان الحسن لهذه الناحية . قال : "فنزل في أغبالو نتسردان ، ووجد فيها المهراس الصيني ، الذي بقي ثمة من واقعة سليمان" .

فالسلطان جاء من مراكش في رجب 1234 ، ونزل بزيان أولا ، ثم مر على أزرو ، فإتزر ، وجدد للشرفاء ظهيرا مؤرخا ب 5 شعبان 34 ، ثم تقدم لمحل المعركة .

فالسبب في كل واحد هو تنافس البرابر فيما بينهم . فالواقعة الأولى كان التنافس فيها بين كبير زمور بلقاسم وزيان. فكان ما كان . وواقعة المولى سليمان ، كان التنافس فيها بين قبائل زمور وبني مطير وكروان ، مع آيت أمالو أيضا ، فأوغر الأولون صدر السلطان عليهم ، فجهز جيوشه ، جندا وعسكرا ، عربا وبربرا ، وتوجه لغزوهم ، وسار معه ولده ، وفلدة كبده ، المولى إبراهيم ، حتى توغل في بلادهم .

---

1 – وهو انهزام الجيش أمام سكان الأطلس المتوسط في سنة 1234هـ/1818م . وقد توفي نجل السلطان مولاي ابراهيم في هذه المعركة وأسر السلطان نفسه .

2 – يريد بهم محمد بن الغازي ، كبير زمور ، والحسن ابن حمو واعزيز ، كبير آيت يدراسن اللذان كانا يتنازعان زعامة الأطلس المتوسط (1234هـ/1818م) ، أنظر ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص. 139 .

ولكن ما كاد يلتقي الجمعان ، حتى حصل تنافس آخر بين كبيرين من رؤساء البربر المستنجدة بالسلطان، هما بلقاسم كبير زمور، والحسن بن حمو واعزيز ، كبير آيت إدراسن ، فجرا الهزيمة على السلطان وجنده ، وذهب كل ما بيديه ولديه ، وأعزها ولده إبراهيم ، فلذة كبده وتفرقت المحلة ، وتشتت شذر مذر ، وكاد يذهب سلطانها بنفسه ، السلطان الصالح ، لولا ما يحمله هؤلاء البرابرمن عطف وولاء ، ومحبة لملوكهم العلويين ، وإن وقع شيئ من النفور ، فإنما هو من تسلط البعض ، واستيلاء من لا يليق ، وتولّي غير المستحق، وصدق صلى الله عليه وسلم حيث قال : " إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[1] . وهل هي ساعة القيامة ، أو ساعة تلك الدولة ، أو الحكومة ، لعل هذا التفسير أنسب .

ونرى كل المفكرين ، والساسة المتشبعين بروح النقد والتنقيب ، وفلسفة التاريخ، أن تحدثوا عن سبب سقوط الدولة ، وفساد نظامها ، يجعلون في أوائلها ، تولية غير المستحقين .

ولم يأخذ السلطان اسماعيل أمور المملكة المغربية من أقصاها إلى أدناها بيد من حديد حتى كان الذمي والعجوز يخرجان من وجدة إلى وادي نول، فلا يجدان من يعترض سبيلهما ، ولا من يسألهما ، لتولته الأكفاء ذوي النجدة، والشجاعة، والصدق والأمانة . ثم حصلت النكسة [2] المشهورة بعد وفاته وتولية ولده المولى أحمد [3]، فجاء القتل على الاكفان عموما ، وخصوصا الأربعة [4] المشهورين .

قال العلامة الناصري : "وقد سقطت هيبة الخلافة ، وانحل نظام الدولة بالمرة ، فما دهاها من قتل رجالها القائمين بأمورها ، فقد كان علي بن يشي [5] الزموري القبلي ، أمير الأمراء وررئيس البربر وغيرهم ، وكان أحمد بن علي [6] أمير جبال مرموشة وبني وراين ، وعرب الحياينة ، وبرابر غياثة ، والجبال . فكان رديف علي بن يشي، ومباريه في نصح الدولة

---

1 – رواه البخاري في كتاب العلم .

2 – يريد بها أزمة العرش (1727-1757) التي انفجرت غداة وفاة المولى اسماعيل . فقد شهدت هذه الفترة تنصيب عدد من أبناء هذا السلطان دون أن يكون لأي منهم القدرة على إقرار النظام، وحل الأزمة السياسية . أنظر ابراهيم حركات ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص . 64-73 .

3 – هو أحمد الذهبي بن إسماعيل ، بويع سنة 1139هـ/1727م بمكناس ، وخلع من قبل الجيش في شعبان 1140هـ/أبريل 1728 . ثم عاد هذا الأخير إلى بيعته في حجة من نفس السنة ، وبقي في الحكم إلى 4 شعبان 1141هـ/1729م . نفسه ، ص . 64 .

4 – وهم أحمد الذهبي السالف الذكر ، عبد الله بن اسماعيل ، علي الأعرج ، ومحمد بن اسماعيل المعروف بابن عربية . نفسه .

5 – أكبر العمال بالأطلس ، قتله السلطان أحمد الذهبي بإيعاز من الجيش . نفسه 64 .

6 – عامل أحواز فاس شرقا ، قتل هو أيضا من قبل الجيش . نفسه ، ص . 64 .

وجباية الأموال ، وكان ابن الأشقر ، أمير الزراهنة وعلى يديه أعشار القبائل كلها ، من أهل الغرب ، وبني حسن وغيرهم ، رديفا للأولين . وكان القائد مرجان صاحب بيوت الأموال ، وبيده دفتر الدخل والخرج ، عارفا بقدر ما يدفع العمال كل سنة .

فلما أتى القتل بإغراء العبيد عليهم، خف على الرعية ما كانوا يحملون من ثقل وطيتهم . فاستراحوا ممن كان يحول بينهم وبين الفساد ، ويزجرهم عن القبيح ، خصوصا البربر ، فقد كانوا في أقماع من النحاس ، فخرجوا منها لمهلك علي بن يشي الخ . وهذا ما نراه في واقعتي سيدي محمد بن عبد الله ومولاي سليمان . فالأولى بسبب الداهية أبي القاسم الزياني سلم الله المحلة والسلطان ، وقد كان في أشد الأخطار ، والثانية جاءت على الطمِّ والرَّم ، والسبب هو سوء تدبير المتولين . وإلا فالبرابر لا تحمل حقدا ولا بغضا لسلاطينهم .

فزيان لما أبلغهم أخوهم الزياني عطف السلطان وسماحه ، جاءوا منقادين ، ولم يتلكأوا طرفة عين ، عن استجابته .

والمجيلدي محمد ولحاج ولهْرو المسعودي* لما خلص السلطان سليمان ، وتحقق بأنه هو في الهزيمة ، أردفه على فرسه ، وركض لا يلوي على عقب ، متحققا بأنه ظفر بالغنيمة الدنيوية والأخروية. ولم يقف به إلى أن أدخله خيمته وسط حلّته، أيت بوبكر، من آيت مسعود ، وهنالك نادى في قبيلته هلموا ، فقد جئتكم بالذر الثمين ، من الكنز الدفين ، فهرعت القبيلة ، نساء ورجالا يتمسحون ، ويتحلقون ، ويقبلون الأيدي والأرجل ويصفقون ويرقصون ، ويقيمون الولائم لسلطانهم ، ويكفرون عن ما وقع لسوء تدبير بعض المتولين . وهكذا ظلوا يترضّون سلطانهم بكل ما يقرّ عينه ويذهب حزنه أياما . وأخيرا يرجو منهم أن يوصلوه لعاصمته مكناس الزيتون ، فركبوا أمامه وخلفه يركضون ، إلى أن وصل لقصبة أكَوراي في عزة ورفعة شأن .

أليس هذا دليل الحب والإخلاص من هؤلاء البرابرة ، الذي تعقد عليه الخناصر ؟ إنه كذلك الحب إلى الأبد وحسن النية فيهم والمعتقد .

---

* " منقذ السلطان، مولاي سليمان هو محمد ولحاج ألهرو المجيلدي من بني مجيلد من آيت مسعود ، فرقة أيت بوبكر من أهل ملوية أهل أغبالو نتسردان ، على نحو 70 كلم من ميدلت ، في الطريق المؤدية منها إلى مراكش عبر بني ملال . ولم تزل خيمة هذا الرجل وأسرته ذا عناية وتقدير ، من السلطان المذكور يوليه آلاءه ، الفينة بعد الأخرى ، ومن آثار ذلك ركاب سرج ، منهم من يقول أنه ذهب كله ،، ومنهم من يقول إنه مذهَّب "وهذا هو الظن" ، وبقيت هذه الخيمة في مرتع خير من ذلك التاريخ ، حتى سني الجهاد والهجرة ، فضاقت دنياهم ، ولما رجعوا من الهجرة رجعوا صفر الكفين ، فأخرجت الحاجة منهم ذلك الكنز الثمين ، وهو الركاب الأثري ، خرج منهم للحاجة .

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك　　　　نفايسٌ من رب بهن ضنين

خرج هذا الركاب وتسرب إلى أسرة امحزان الشهيرة . هذا ما حدثنا به الاشياخ والمسنون من هذه الغرفة ، في رحلاتنا إليهم سنوات 1379 ، 1380، 1381 مرات " اهـ مؤلفه

تغاضي الملوك العلويين عن هؤلاء البرابر .

ونرى بعد واقعة المولى سليمان ، كان هؤلاء الملوك تغاضوا عن هؤلاء البرابر ، وأعرضوا عنهم ، فما السبب في ذلك ؟

لم يعش مولانا سليمان بعد هذه الواقعة إلا حوالي أربع سنين . وقد اضطربت الأحوال فيها . قال الناصري :"وقد توالت الفتن على السلطان سليمان وانفتقت عليه الفتوق ، وصار الناس كأنهم فوضى ، فلا سلطان لهم . فقامت فتن أهل فاس ، وفيها كتب كتابه الشهير ... وهذا نصه "بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم :

"إلى أهل فاس السلام عليكم ورحمة تعالى وبركاته وبعد ، فإن العثماني [1] باسطنبول وأمره ممتثل بتلمسان ، والهند ، واليمن ، وما رأوه قط . ولكن أمر الله يمتثلون .

"يا أيها الذيمن آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم" [2] وكان صلى الله عليه وسلم لا يجزي بالسيئات السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، واعلموا أن العمال ثلاثة : عامل أكل السحت ، وأطعمه الغوغاء والسفلة ، وعامل لم يأكل ، ولم يطعم غيره ، إنتصف من الظالم ، وعامل أكل وحده ولم يطعم غيره . فالأول تحبه العامة والسفلة ، ويبغضهم الله ، والسلطان والصالحون ، والثاني يحبه الله ويكفيه ما أهمه من أمر السلطان ، والثالث كعمال اليوم ، يأكل وحده ويمنع رفده . ولا ينصر المظلوم. فهذا يبغضه الله ورسوله والسلطان ، والناس أجمعون . وهذا معنى حديث «إزهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» [3] . وحديث العمال ثلاثة الخ" ، فلو كان للصُّفار مائدة خمر ، وطعام يأخذه من الأسواق ويتغذى عنده ، ويتعشى السفلة والفساق ، ويدعو اليوم ابن كيران ، وغدا ابن شقرون ، وبعده بنيس وابن جلون ، ويفرق عليهم من الذعائر [4] لأحبوه ، وما قاموا عليه ، ولو أردتم النصيحة لله ولرسوله ولأمره ، لقدم علينا ثلاثة منكم ، أو ذكرتم ذلك لولدنا مولاي علي أصلحه الله ، فأخبرنا بذلك وقل للصُّفار : الكلاب لا تتهارش إلا على الطعام والجيف ، فإذا رأت كلبا بباب دار سيده ، ولا شيء أمامه ، لم تعرج عليه ، وإن رأته يأكل ، فإن هو

---

1 – وهو محمود الثاني الذي حكم الامبراطورية العثمانية ما بين 1808 و1839 .

2 – سورة النساء : 58 .

3 – رواه ابن ماجة في كتاب الزهد .

4 – اتهم أهل فاس عاملهم محمد الصفار بالفسق والدعارة وثاروا عليه . وكان السلطان قد طلب منهم أن يتصلوا بخليفته مولاي علي ، أو أن يرسلوا وفدا عنه إلى القصر الملكي ، قبل إقدامهم على إثارة الاضطرابات في المدينة . انظر ابراهيم حركات ، م. سابق ، ص،142 .

تعامى ، وأشركهم فيما يأكل ، أكلوا معه ، وسكتوا وإن هو قطّب وجهه وكشّر عن أنيابه ، تراموا عليه ، وغلبوه على ما في يده ، وهذا الصفار لم يتق الله ، ويزهد الزهد الذي ينصره الله به ، ولم يلاق الناس بوجه طلق ويطرف مما يأكله ، فسلطهم الله عليه.

ولما رأى يوسف بن تاشفين النعمة التي فيها ابن عباد قال : أَكُلُّ أصحابه وأعوانه مثله ؟ قالوا : لا . فقال : إنهم يبغضونه ، ويسلمونه للمكاره لاستبداده دونهم ولتغيير المنكر شروط وما يعقلها إلا العالمون .

وكم من مرة قلنا لكم " العلماء * ،هم الذين ينكرون ما ينكر ، ويعلمننا مما كان"، ولكن الجلوس بلا شغل ، والفراغ ، وعدم الحمد ، حملكم على ما يحرم عليكم الكلام فيه.

إن الشباب والفراغ والجدَه مفسده للمرء أي مفسدة .

وأما بيت مال الله [1] ، والاحباس فالله حسيب من بدل ، وقد كنتم تتكلمون على المكس [2] والحرير والغشْنية وغير ذلك ، فأرى حكم الله من ذلك . وانظروا لمن تعرفونه من العمال . وأما الفسق فهو عادة وديدن كل من قام في الفتنة ، وكم مرة رمت قطعه [3] فلم أجد إليه سبيلا ، لأن جل كبرائكم بالمصاري والعرصات . وإنما أولي عليكم البراني لأنكم لا تحسدونه . وإن أكل وحده ، والحاسد يريد زوال النعمة عن محسوده ، و لأن التاجر لا يطمع في مال أحد ، ويكفيه الرفعة والجاه لنماء ماله. أنظروا ما أجبتكم به وما كتبتم لنا به ، وأعرضوه على فقهائكم ، فمن قال الحق منا ؟ ومن قال الباطل ؟ " الخ .

فلينظر بعين التأمل إلى مغزى هذه الرسالة ، وعمق ما بلغ الهم فيه إلى السلطان الصالح المنيب . وإنها دالة على مبلغ تأثره بالأحداث ، فمع سعة حلمه ، وطول تجربته في ملكه الذي سابر فيه الناس ،، وزراء وكبراء وقوادا، يرى أن الناس غالبهم غثاء كغثاء السيل . وكل يجر النار لقرصه إلا تحلة القسم من نادر النادر الذي يرى ماله، وما عليه ، ويعمل

---

* " كان السلطان سليمان متمسكا بشريعة جده أشد التمسك ، فكان يقتدي بالعلماء في كل شي . ويستفتيهم فيما يعده من مشاكل الدولة ، فيأخذ بفتواهم . وكان يأمر القواد أن لا يحكموا إلا بمشورة القضاة ، كذا نقله الضعيف في تاريخه ."اهـ مولفه .

1 – فقد مولاي سليما ثقته في أهل فاس وأمر بعدم إيداع الأموال العمومية بها كما يقول محمد داود ، أنظر تاريخ تطوان ، الجزء 8 ص . 54 .

2 – ضريبة فرضت في عهد السلطان محمد بن عبد الله ، على أبواب المدن والأسواق ، وتخص السلع والغلال وعشبة الدخان والجلد . وكانت تغطي تكاليف الجيش النظامي ، ولكنها أسقطت في عهد مولاي سليمان. أنظر أبو القاسم الزياني ، البستان الظريف ، المصدر السابق ، 185.

3 – عرف مولاي سليمان بالسعي إلى رد الناس إلى النهج الإسلامي القويم ، والفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية ، غير أن أصحاب الطرق الصوفية الذين كانوا يرون أن دعوة السلطان خطرا على مصالحهم وامتيازاتهم ألبوا عليه اتباعهم وحاربوه . أنظر بلدة خنيفرة ، المصدر السابق ، ص . 43 .

لرضى الله ورسوله ، وفيما يرضي السلطان من رعاية المصلحة العامة ، في نطاق ما كلف به وما وظف من أجله .

ثم نرى السلطان الصالح لايزال يتشبث بتعاليم جده وما جاء به القرآن . "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" [1] . فيرى العلماء هم القدوة في كل شيء ، واليهم المرجع فيما ينكر وما يقر . أما الرعاع فحسبهم الاتباع ، لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم.

ولا سارة اذا جهالهم سادوا.

فمتى شذ الناس عن هذا وتولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هيان بن بيان [2] ، وتدخل في شؤون الخاصة ، أو بعبارة أصح في شؤون الدولة السوقة ، والحشاشون ، أو لكاع بن لكاع [3] ، فلا يبالي الله في أي واد أهلكهم . ثم هذه الرسالة تدلنا على ما وصلت إليه الحال من الاضطرابات ، والفتن ، لا في البادية فقط بل في المدن وعاصمة العلم فاس . فتنقض على عاملها الصفار وبينهم وبين السلطان بمكناس ستون كلم ، فلا يتحرك إليهم إلا بجرة قلم ، ويبلغ به الأمر أن خرج من فاس تاركا كل شيء حتى مضاربه ، وقد زاده الكبر ضعفا إلى ضعف ، حتى هم أن يتجرد لعبادة ربه ، ويترك الحبل على الغابر بتوليته الأمر لابن أخيه [4] .

كل هذه الأمور تجعلنا ندرك السبب الذي من أجله لم يعد يلتفت إلى هؤلاء البرابر، بغزو ولا غيره ، من واقعة "زيان" وبني مجيلد سنة 1234 إلى أن وافته المنية في 13 ربيع الثاني عام 1238 .

فيتولى ابن أخيه مولاي عبد الرحمان [5] ، وتطول مدة ولايته من سنة 1238 إلى سنة 1276 ، أي مدة من تسع وثلاثين سنة ، يخيم فيها السكون على هؤلاء البرابر ، عن خيرها وشرها معه . ولكن من علم ما انتاب المغرب أيام هذا السلطان مولاي عبد الرحمان ، وقبله بيسير من فتن [6] فرنسا التي كانت في حرب مع الجزائر ، وتكالب الاستعمار على افريقيا عامة ، وقد ضاق المخزن المغربي ذرعا بما حل بالجزائر المجاورة ، وذاق خطة من محنها ،

---

1 - سورة النحل : 42 .

2 - مجهول ، لا يعرف هو ولا أبوه ، نفسه ، مادة بيى .

3 - لئيم بن لئيم ، ابن منظور ، المصدر السابق مادة لكع .

4 - هو ابراهيم بن اليزيد الذي بويع في 24 محرم 1236هـ/1820م.

5 - أسندت له الولاية من قبل عمه مولاي سليمان . ولما توفي هذا الأخير ، بويع عام 1822/1238

6 - أقدم السلطان مولاي عبد الرحمان على قبول بيعة أهل تلمسان بعد دخول القوات الفرنسية الجزائر (5 يوليوز 1830) ، ومساندة الثورة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر . غير أن فرنسا لم تقف مكتوفة الأيدي ، بل وجهت جيشا لاحتلال وجدة (19 يونيو 1844) ، وحركت أسطولها لقصف مدينتي طنجة والصورية . نفسه ، ص . 184 -185 .

وما واقعة وادي اسلي [1] بهينة على المولى عبد الرحمان . كل هذا وأشباهه لم يدع فراغا للمولى عبد الرحمان ، يتوجه فيه لبرابر الأطلس ، ولاسيما وقد وجد الدولة هرمت أو أشرفت . فكأنما جاء ليبعثها من جديد . وهذه بعض مكاتبه في شأن تولية أحد القواد على الغرب ، الذين هم أسهل الناس ، وأسلس إنقيادا للمخزن . هذا الكتاب هو شبه استعطاف لقبوله لا إلزام لهم به. ونصه: "ولد عمنا الفقيه البركة سيدي عبد الجليل بن أحمد من شرفاء وزان" .

ثم جاءت دولة السلطان سيدي محمد [2] . وهي دولة فتية ، فلم يقع له معهم ذكر أيضا كوالده طوال مدة سلطنته، من 1276 إلى يوم وفاته رجب 1290. وهكذا طويت صحيفة برابر آيت أمالو ، من أيام المولى سليمان وواقعة سنة 1234 ، إلى أيام تولية السلطان المولى الحسن سنة 1290 .

الالتفات إلى آيت أمالو من المولى الحسن .

لم يكد يظهر السلطان الحسن في الميدان السياسي ، حتى وجه محلة لناحية الحاجب في المحرم 1291 ، ثم وجه أخرى لناحية آيت سغروشن .

ثم رأى السلطان المحنك الداهية ، ما وصل إليه أهالي هذا الأطلس من العتو، والاستطالة بالخيل والسلاح ، بسبب الراحة التي امتدت عليهم ثلثي قرن ، وهم ممتعون بأطلسهم المنيع المسالك ، الواصد بابه على كل سالك ، فاستطالت صولتهم ، واعصوصبت شوكتهم ، فهان عليهم ارتكاب كل جريرة . فلم يتورعوا عن صغيرة ولا كبيرة . وفي سنة 1295 قد وقعت حرب بين اشقرن وآيت سخمان من جهة ، وآيت إسحاق من جهة . فحاصرتا آيت اسحاق في مدشرهم المسمى معمّر ، حتى ضاقت بهم المعيشة ، فتوسلوا لهم بكل رحم ، فلم يفرجوا عنهم حتى أكلوا الجياف ، من أنعامهم ، وأخيرا اقتحموا عليهم المدشر وفتكوا بهم إلا من ندّ ندّ البعير ، او اختفى في دهليس أو بئر . وتماطى عتاتهم إلى الإغارة في السبل وعلى الضعاف من اللاجئين إليهم كبعض الأشراف . وقد كان بجوارهم يساكنونهم شرفاء علويون من سكان لهري ، أو من سكان تاسكارت ، فكانوا يهاجمونهم ، ويخطفون أنعامهم ، وماشيتهم. وفي بعض الأحيان حتى نساءهم . يدل على ذلك ما في كتاب ، من الشريف البركة ، شيخ الطريقة الدرقاوية، بتافيلالت، الشريف سيدي محمد العربي المدغري ، جاء فيه خطابا لهؤلاء الشرفاء أهل لهري ، "وها نحن كتبنا لآيت أحمد وعيسى ، ووصيناهم عليكم ليعظموكم ويوقروكم ، ويردوا اليكم الشريفة التي نهبها بعضهم" الخ . يحمل هذا الكتاب تاريخ 7 قعدة 1296 هـ .

---

1 – جرت هذه المعركة بين الجيش المغربي والجيش الفرنسي يوم 14 غشت 1844 ، وانهزم فيها المغرب انهزاما كبيرا .

2 – هو محمد بن عبد الرحمان بن هشام ، بويع سلطانا على المغرب بعد وفاة والده سنة1176هـ/1859م .

وأمثال هذه الحوادث بلا شك ، كانت تزعج السلطان مولاي الحسن ، وخصوصا أمثال اختطاف الشريفة العلوية . وهؤلاء الشرفاء يرتكبون كل خطر للوصول لعتبة السلطان ، لتبليغ شكواهم إليه . ولا شك أن السلطان فكر وقدر ، ثم فكر في سد هذه الثلمة ، فقد اشتدت منها الأزمة . وليس لها إلا نبعة من تلك الأرومة لاستئصال تلك الجرثومة . أو ليس للبازي الأشهب إلا ذاك النسر الأصهب.وما ذلك إلا

محمد وحمو في الميدان ومعه الجيش الحسني .

تحدث المسنون والأشياخ من زيان وغيرهم أن أحمد أمحزون ، وهو الأب الرابع لهذا القائد ، كانت له يد بيضاء في واقعة مولاي سليمان ، وأنه كان ممن صد ورد بعض الغارات الشعواء ، على المحلة والحريم . وبلا شك أن هذه الأحدوثة ، وصلت لآذان السلطان الحسن ، ثانيا أن محمد وحمو كانت فيه وداعة ، فلم يكن فظا ولا غليظا ، وكان فيه حب للشرفاء المتساكنون معهم ، والنازحون إليهم من تافيلالت بقصد الزيارة . ومن المظنون أن بعض هؤلاء الشرفاء مثلوا أمام السلطان فبلغوه ذلك . ثالثا ، وهذا ظن قوي ، أن ممن دلل على محمد وحمو هو الشريف المقدام المحنك الحسين الشبوكي . هذا الشريف من شرفاء شبوكة الذين هم بضواحي خنيفرة ، وقرب قصبة أدخسان . وكانت لهم أقارب بمكناس الزيتون ، يترددون إليهم. وكان هذا الشريف من الاقدام بمكانة، وله اتصال بدار المخزن ، وتدخل مع السلطان ، فمن دونه، وكان كعين المخزن لهذه القبائل ، كما تدل لذلك وثائق ، ومكاتب بينه وبين الدوائر المخزنية .كا سيأتي بعضها إن شاء الله . ويدل على ذلك أيضا اتصاله بالقائد المذكور ، حتى كان كخليفة له ، لا يصدر إلا عن رأيه مما سبب له عداوة كبيرة مع أقرباء محمد وحمو ، في الأخير أطاحت ببعض أقرباء الشريف ، وكادت تسعر بين أسرة محمد وحمو حربا ، بل سعرتها . ذهب ضحيتها مغاوير من الطرفين ، إلا أن حنكة محمد وحمو أسرعت لإطفائها . هذه الأسباب أو بعضها مع غيرها ، هي التي نظنها دلت على اختيار محمد وحمو أو أضاءت السبيل إليه . ولا شك أن الاختياروقع في محله من أبناء هذا الأطلس كلهم .

فقد تشبث بذيل المخزن ، وتمسك بغرره ، لآخر نفس ، في أيام شديدة الاضطراب حالكة الإهاب ، وحافظ على العهد ، وراعى المحبة والود ، لا مع السلطان الحسن نفسه بل ومع أولاده من بعد ، حتى جاء المحتل داهما ، وتراءى في أطراف المغرب مهاجما .

متى نصب هذا القائد .

لا يعرف بالضبط متى نصب هذا القائد على هذه القبائل . فقد قدمنا أن التاريخ سكت عن هذه القبائل وحوادثها ، مع المخزن حربا وسلما أزيد من نصف قرن، حتى ظهر ذلك جليا ، عندما رأينا الجيش الحسني يحتل خنيفرة لمعاضدة هذا القائد ومساندته حوالي 1297 . ويظهر أن تنصيب هذا القائد سبق قدوم الجيش ، بل بلا شك ، لأنه لا يطمئن السلطان لتوجيه جيش

منظم ، بعدته وعدده ، مكاحل ومدافع وعسكرا ، إلا بعد أن يأنس منه الثقة الكاملة ، بعد تجربة سنتين أو ثلاثة ، فيكون تنصيبه حوالي سنة 1294 . وهذا ما جنح له الضابط كَنون في كتابه "الجبل البربري". فقد ذكر أن تنصيبه كان سنة 1877 ، سبع وسبعين وثمانمائة وألف وسنُّه نحو عشرين . وسنة 1877 توافق في آخر سنة 1294 هـ . والظن أن السن الذي نصب فيه قائداً أكثـــر من عشرين سنة ، بل يكون في نحو أربعين . فيكون مولده حوالي 1254 .

وأول كتاب عثرنا عليه من المولى الحسن لهذا القائد ، هو بتاريخ ربيع 1298 . نصه ، بعد الحمد لله والصلاة على رسول الله "خديمنا الأرضى ، القائد محمد وحمو الزياني ، وفقك الله وسلام عليك ، ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فقد وصلنا كتابك في شأن الشرفاء الشبوكيين القاطنين بزيان ، وعلمنا ما ذكرت منهم . فقد جددنا لهم الظهير الشريف ، وأبيقناهم على عادتهم وأسلافهم ." وفي 15 ربيع 1298 انتهى . وهؤلاء الأشراف الشبوكيون لهم شأن ، لا في خـصـوص المغـرب بل وفي الأندلس علمـا وأدبا ، وفي هـذا الأطلس . وسنوفي تراجم البارزين منهم كل في محله إن شاء الله في القسم العلمي . ولندع تاريخ التنصيب لنودي لهذا القائد المجاهد الشهيد بكامل حقه أو بنصيب .

أصله ونسبه .

جاء في أصل المحاضرة ، وأصل زيان من آيت أمالو ، أهل جبل فازاز ، الذين يعدون أن من انتسب لهذا الأطلس فقد فاز . وسواه من البربرية العتيقة على أوفاز . وكلهم يفخر بربريته ، ويتخذها دليلا على عبقريته ، ولا يوجد في زيان غير البرابر إلا دخيلا ، أو من اتخذ للعيش ، بتجارته ، أو حرفته إليها سبيلا . ومن عجيب الزمان انتحال الشرف لمحمد وحمو ، وعائلته امحزان ، وهم لا ينتحلونه ، ولا يتحلونه ، ويرفع نسبه إلى فصيلة آيت سعيد ويشو . فيقول هو ممحمد وحمو (الواو بمعنى ابن) ابن عقى بن أحمد المدعو أمحزون بن موسى ، بن سعيد ، بن عبد الرحمان ، بن موسى بن لحسن ، بن سعيد ويشو . وهذا ما يحققونه وما فوقه يقال فيه(كذب النسابون). ولكن كان والعايدي ابن أخ محمد وحمو ، البطل المجاهد المهاجر في سبيل الله ، كان هذا يداخل بعض طلبة العلم ، ويتحبب للتاريخ والمؤرخين وهو ممن رافق السلطان مولاي عبد الحفيظ لفاس ، ومكث به شهورا مع «حوسا » ، ولد محمد وحمو ، باشا فاس . كان ولعايدي هذا يستشرف لما يلقيه بعض الطلبة في أذنه من أن «امحزان شرفاء» ، وكان بعض الشرفاء الوزّانيين في ركابه . وربما كانوا يحدثونه بذلك . وفي عنفوان دولته ، وصولته ، بعد رجوعه من فاس ، استصدر فتوى من علماء فاس بشرف امحزان . ولكن أقول إن هؤلاء لا يحتفظون بكتاب ولا بورقة ، فضاع منهم . وفي أيام إقامته الإجبارية بمكناس ، زرته مرة حوالي سنة 1359 ، فسألته عن هذه النسبة، فأجابني بأنهم شرفاء حقا ، ورفع لي نسبه إلى سيدي محمد بن يعقوب . هكذا بعد سعيد ويشو قائلا : بن

عبد الرحمان بن موسى بن محمد بن يعقوب دفين تارمتّاد من بلاد تادلا * .

قائد طلع في زمان الدولة الحسنية ، بـدرا وفيّ بالعهود ، لا يعرف نكثا ولا غدرا ، قارع أبطال ذلك الأطلس الخارجين وفلهم ، وخضد شوكة المتمردين أو جلهم.

إن حمل السلاح فللأمن ، والإصلاح ، وإن قاد الجحافل فكأنما يختال في المحافل ، ثم هو فارس تلك القبائل ، لما مدت فرنسا لصيدها الحبائل ، فقد كان في وجهها سدا ، وأولاها عنادا وصدا ، وذاقت من حربه إياها وبالا ، وزادت من حملاته ارتباكا وخبالا ، وواجهته العناية الإلاهية في كل مواقفه المتوالية، فكانت له عزا وفتحا، وساقت لطرق الرشاد له سرحا ، وأصابت رصاصته من الكفار المقاتل ، ولم تغنهم المعدات الحربية ، ولا تحصين المعاقل .

وهكذا ظل أمره يعلو ، وسعره بين هاتك القبائل يغلو ، من يوم توليته القيادة الزيانية ، حتى وافته على الشهادة المنية ، وهي غاية الأمنية ، صبيحة الأحد سابع عشر رجب 1339 موافق 27 مارس 1921.

مع الأسف هذا القائد المخلص المجاهد الشهيد ، الذي لم تزل حرارة إيمانه وفوران دمه الزكي الطاهر ، ينضح قريبا ، وقد طالته يد المحتل الغاشم ، لا يزال مجهولا تاريخه ، عند كثير من أبناء وطنه ، حتى من الشباب المثقف ، الذي يجول في ميادين السياسة ، والتنقيب بقلمه ، وفكره صحفا ومجلات ، وكلما عنَّ لكاتب في صحيفة أو مجلة التحدث عنه ، إلا وتحدث عنه حديثا مشوها ، هو السخرية أقرب منه إلى الحقيقة .فقد كتبت صحيفة العلم بعدد 2064 قائلة "إنه أي محمد وحمو ، ظل يقاوم الحملة الفرنسية ، مدة خمسة عشر عاما ، واعتصم بقلعة خنيفرة ، مدة أطول من عشر سنين . ولم يستسلم إلا بعد أن صوبت

---

* – محمد بن يعقوب دفين تارمتاد من تادلا ، ذكره صاحب الأنساب المسمى السيوطي ،وهو كتيب في نحو 40 صفحة ، ذكر فيه أنسابا شريفة ، يرفعها إلى مولانا ادريس ، ومن جملتها محمد بن يعقوب هذا ، ويرفع نسبه إلى مولانا ادريس ، فيقول : " محمد بن يعقوب ، بن عبد الله ، بن موسى ، بن صفوان بن يسار ، بن موسى بن سليمان ، بن يحيى ، بن يوسي بن عيسى ، بن إدريس ، بن ادريس بن عبد الله الكامل . وسيدي محمد بن يعقوب دفين تارتماد بتادلا .

هذا السيد موجود ، وكان عليه ضريح وتهدم . وهذه تارمتاد ، بلاد في تراب بين بني معدان ، وايت الربع ، في يمين الطريق الجائية من تادلا ، لبني ملال ، في الحادي عشر لبني ملال ، فتميل على طريق ثانوية ، وتسير نحو 3 كلم نحو ذلك الضريح المتهدم . هذا ما عاينته بنفسي في أكتوبر 1962 والسيوطي هذا إسمه أبو بكر بن محمد المكناسي ، والسيوطي لقب له . كذا ذكر العلامة سيدي محمد بن جعفر الكتاني في السلوة . وليس هو السيوطي الإمام المشهور .

وقد ذكر هذه السلسلة صاحب الدرر البهية ، مولاي ادريس الفضيلي . ولكن ببعض مخالفات يسيرة «وأنهم الشرفاء المعروفون بالعرهبين نسبة لجدهم عرْهب . ثم ساق نسبه هكذا ، عرهب بن محمد بن يعقوب بن عبد الله بن صفوان بن ميمون المدعو سيار بن موسى ، بن سليمان بن يحيى ، بن موسى بن محمد ، بن موسى ، بن عيسى بن ابراهيم ، بن موسى ، بن عيسى ، بن ادريس الأزهر ." صحيفة 146جزء ثاني " اهـ مؤلفه.

جنود الفرقة الأجنبية بنادقها عليه ، أثناء خروجه مخترقا صفوف الجيش المحاصر ، فأصابته الطلقات ، وخر صريعا ." فهذا الحديث ليس فيه ما يتفق مع الحقيقة ، ولا جملة واحدة منه صحيحة كما سيتضح .

وكتبت مجلة المشاهد ، بعدد وتاريخ يناير 1960 بقلم الأستاذ عبد الحق المريني تحت عنوان : "تاريخ ما أهمله التاريخ" : "لما كان السلطان المصلح مولاي الحسن قدس الله سره ، متبوئا عرش المغرب ، كان موحا وعقه قائدا عسكريا لقبيلة زيان ، التي عاشت فوق قمم أطلس مغربي كبير ، تحمي حماه ، وتصوب أسهما حادة إلى صدور أولائك الذين سولت لهم أنفسهم الاستيلاء على أرض جبلية ، طبيعتها خلابة، وكنوزها غالية . وما أن اختطفت المنية موحا وعقه الباسل حتى خلفه في عهد المولى عبد العزيز ابنه حمو ، الجندي الماهر ، والفارس المغوار . فكان من شأنه ما كان ، الرجل الذي صمد في وجه الشدائد صمود الجبال ، والقائد المحنك ، والحاكم العادل ، ومحرر الأطلس المغربي الكبير .

فلما استولى على كرسي مشيخة قبيلة زيان ، وحد صفوفها ، ونظم جيشا يردُّ به الغاصبين على أعقابهم منهزمين ، وبنى قصبة تكون مركز القيادة العامة ، تدرس فيها الخطط الكبرى ، لقضايا الأطلس المدنية منها والعسكرية . فكانت مدينة خنيفرة الحمراء .

ولما عزمت فرنسا على دس الأطلس الكبير بحفير خيولها ، أعد «موحا وحمو» عدته وتأهب للطرّاء ، فرتب جيشه كتيبة كتيبة ، وسلح كل واحدة بأسلحة مختلفة. وما أن التقى الفريقان حتى التف الساق بالساق ، ودارت معركة حطمت فيها أسلحة الحق أسلحة الباطل ، في كل جبل من جبال الأطلس الكبير . وعلى كل ضفة من ضفاف وادي أم الربيع الرقراق ، ولما كانت القوتان غير متكافئتين لا في العدد ، ولا في العتاد ، ولا في التجهيز ، رجحت كفة الخصم العنيد ، ودخلت فرنسا قصبة موحا وحمو ، تريد أن تفوز به ، ولكنها هيهات ، لقد طار موحا وحموكالنسر إلى حصن الجبل الشاهق ، وتحصن به لينظم جيشه من جديد ، وينفخ في جنوده روح الدفاع عن أرض الأجداد ، ومهد البطولة البربرية ، التي تحدثت بها الركبان . ثم بعد ما تم له ما أراد ، رتب كتيبة من أبطال جيشه ، وأسند إليها مهمة إيقاع كتائب العدو المتحركة في الكمائن ، فراحت الكتيبة تتربص الدوائر بكتائب العدو ، حتى توقعها في الفخ ، وتسلب منها سلاحها ومعدتها الحربية . وهكذا دواليك حتى جيش موحا وحمو ، فعوَّل على توجيه ضربة قاضية إلى العدو ، فأعلنت الحرب من جديد ، ونزل الجيش المغربي من الجبل ، وصار ينازل خصومه حيثما وجدهم ، ويطاردهم من موقع إلى موقع ، وينتزع منهم الأطلس المغصوب ، رقعة رقعة ، فعجزت جيوش المستعمرين عن الصمود في وجه المجاهدين الأحرار ، وكتب الفوز لموحا وحمو على أعدائه الذين أضافوا هزيمة جديدة إلى هزائمهم المنكرة . ودخل موحا وحمو إلى قصبته وسط الأهازيج ، وقرع الطبول تخفق فوقها

الأعلام ، ويضحك لها جو الأطلس الصافي . ولكن ما لبث العدو المرتجف أن طلب النجدة ، واستغاث استغاثة الغريق ، فوصلت النجدات إثر النجدات ، فأفرغ موحا وحمو القصبة على الفور ، واعتصم بالجبل ، وبدأ يشن من أعلاه الغارات إثر الغارات . فكان رد الفعل قويا ، حيث أمطر العدو الجبل بالنيران من أعلى طائراته ، فاستشهد كثير من الزيانيين الأبرار ، وحاول العدو التخلص من خصمه اللدود باغتياله . ولكن المؤامرة فشلت ، ورجع مدبروها بخفي حنين . وسعى أخيرا لكـي يستسلم بطـل الأطلس ، وينال منه ما أراد .

ولكن سعيه بالخيبة المريرة ، أن ضمير موحا وحمو الحر يأبى عليه ذلك . فالبطل لا يموت وفي رجليه القيود ، ولكن البطل من يموت بين بريق الرماح ، وقعقعة السيوف ففكر محرر الأطلس مليا ، وفي آخر الأمر انتصب واقفا كالعلم فوق صهوة جواده، على قمة الجبل ، وفتح صدره لرصاصات سامة ، صوبها إليه بيد شريفة ، أبت أن تصافح الكافر الغاصب . فسقط موحا وحمو على الأرض وتدحرج إلى أسفل الجبل ووصل إلى أيدي الأعداء جثة هامدة ، لا حراك فيها ، فكان موحا وحمو بطل التحرير . وما أكثر الأبطال المجهولين في ثورات التحرير ." انتهى

هذا ما كتبه عبد الحق المريني ونشرته المجلة المذكورة . وهو لا يتفق مع الحقيقة ، في قليل ولا كثير ، كما لا يتفق أيضا مع ما نشرته صحيفة «العلم» .

وقد وقع تبيين الحقيقة لكل من صحيفة العلم ، في إبانه وكذا المجلة «المشاهد». أما الأولى فقد ضربت صفحا عن القضية بالمرة ، وأما «المشاهد» فقد نشرت ما كتبت لها بتاريخ أبريل 1960 عدد 39 . ثم كتبت رسالة خاصة شكرت فيها على بيان الحقيقة.

وهذا نص ما أجبت به «المشاهد» تحت عنوان «ما لم يهمله التاريخ» . كتبت مجلة المشاهد في عدد 36 تاريخ يناير 1960 ، تحت عنوان " تاريخ ما أهمله التاريخ" كلمة عن بطل الأطلس الزياني . ولعل صاحبها أراد أن يتحدث عن القائد الكبير ، والبطل الشهير ، محمد وحمو الزياني . فوقع له اختلاط ولم يحرر المناط . فذكر أسماء لرجال آخرين ، مع أن الذي يستحق أن يطلق عليه قائد الملوك العلوية ، وقاهر الجيوش الفرنسية بذلك الأطلس ، هو محمد وحمو وحده .

فقد ذكر أن موحى وعقه، كان قائدا عسكريا لقبيلة زيان أيام السلطان مولاي الحسن . ولما اختطفته المنية ، خلفه ابنه حمو ، أيام مولاي عبد العزيز ، وأن حمو هذا بنى قصبة لتكون مركز القيادة ، فكانت خنيفرة الحمراء الخ .

والحقيقة أنه لم يكن موحا وعقى قائدا عسكريا أيام السلطان مولاي الحسن ، ولم يخلفه ابنه حمو أيام مولاي عبد العزيز ، ولا كان حمو باني قصبة خنيفرة .

ثم تحدث عن مقاومة بطل الأطلس للجيش الفرنسي فقال : ولما عزمت فرنسا على دسّ الأطلس ، أعد موحى وحمو عدته ، ورتب جيشه الخ . وهنا جاء ذكر إسم جديد عفوا، هو

محمد وحمو لأنه لم يتقدم له ذكر . وإن كان صاحب هذا الإسم هو بطل الأطلس الحقيقي. ثم ختم كلمته بقولة تؤسف أشد الأسف حيث قال :"وفي آخر الأمر انتصب موحا وحمو على صهوة جواده ، وفتح صدره لرصاصات سامة صوبها بيد شريفة ، أبت أن تصافح العدو الكافر الغاصب ، فسقط على الأرض ، وتدحرج حتى وصل إلى أيدي الأعداء جثة هامدة " . فقد يستفاد من هذا أن موحا وحمو ختم أنفاسه بيده ، وهي وصمة في وجه التاريخ ، لأنه مات شهيدا مدرجا بدم الشهداء ، إذ أصابته رصاصة حقيقية ، ولكن من يد أثيمة ، مدت له من القوة الفرنسية الغاشمة وأذنابها . وهو يناضل عن دينه ووطنه، ثم عن حريمه وماله ، فخر شهيدا، يشخب في دم ينضح دما ، وهو عند الله مسك أذفر ، وحمل بأيدي سفرة كرام بررة ، وعلى أعناق بعض أولاده وأنصاره الأبرار ، ولم تمسه أيدي الأرجاس الكفار .

ولأجل الاحتفاظ بالتاريخ ، وصونا له عن التشويه ، وهو تاريخ محفوظ غير مهمل بل مدون من رجال التاريخ الذين جنى عليهم الإهمال والازدراء ، وفقدان الروح المشجعة ، هاهي الأمور تنجلي على حقيقتها وتجلّى كالعروس على منصتها .

إن بطل الأطلس الذي دوّي التاريخ بإسمه وأقضّ مضاجع فرنسا، والذي أخلص حبه ، وأسلس قياده لملكه مولاي الحسن والذي قاوم الاستعماريين سنين طويلة ، حتى خر في ميادين الشرف سنة 1339 ، وهو موحا وحمو الزياني .

إن موحا وحمو هذا كان قائدا لقبيلة زيان أيام السلطان مولانا الحسن . وكانت هذه القبائل البربرية المسماة آيت أمالو ، شديدة الشكيمة ، لم ترضخ لأي نفوذ ، ولم يرضخها إلا السلطان المولى اسماعيل . رضخت له بعد جهاد شديد ، وحصار مديد ، ومن أجله قاسى المخزن منهم تعنتا وتمردا ، ووقعت لهم معه وقائع أعظمها واقعة المولى سليمان . ولما تبوأ عرش المملكة المغربية مولانا الحسن ، وكان خادمه المخلص محمد وحمو ، قائدا على قبيلة زيان ، رأى رأيا سديدا ، له فائدته العظمى ، ذلك أنه رأى أن يساند قائده المذكور بمحلة تسدله تلك الثغرة . وتكون تحت إبط أولائك البرابر كالنعرة ، فأتم الله له ما أراد . وحوالي سنة 1297هـ/1879 مسيحية ، وجه محلة كبيرة مركبة من جيش من القبائل الحوزية ، ومن عسكر جرار منظم ، معظم قوامه 4215 . وجهزها بمعدات حربية ، من مدافع ثقيلة وخفيفة ، فعسكرت بخنيفرة التي كانت يومئذ عبارة عن مدشر حقير . فسدت على المتمردين التسرب للانتجاع . وحمي الوطيس واشتد النزاع ، وتسعرت على قمم الأطلس حرب ضروس ، قيل فيها لا عطر بعد عروس*.

---

*- "لا عطر بعد عروس ، مثل أرسلته أسماء بنت عبد الله العذرية . توفي زوجها الأول المسمى «عروس» وخلفه عليها آخر بخيل لئيم ، فمرت بقبر الأول وجلست تبكيه ، ثم نهضت فسقطت منها قارورة عطر ، فقال لها ، خذيها فقالت «لا عطر بعد عروس».اهـ مؤلفه .

ثم استعد السلطان بنفسه لرؤية نتائج محلته الموجهة ، فرحل من مدينة مكناس بتاريخ 15 رمضان عام 1305 ، 18 ماي 1888م ، فتلقاه ، على أبواب مكناس ، قائده المخلص محمد وحمو ، في أزيد من ألف فارس ، من فرسان قبيلته وقواد محلته . واستمر في رحلاته عبر الأطلس ، حتى حل بقبيلة زيان ، وخيم في قصبة جده المولى اسماعيل «أدخسان» شرقي خنيفرة ، على نحو 10 كلم منها . وهناك أدركه عيد الأضحى . ولما التئم عقد الهيئة المخزنية ، نادى على قائده المذكور ، وعلى رئيس المحلة المذكورة الفقيه السيد قاسم «بن محمد والدى» ، وعلى قواد المحلة فمد يده وآخى بينهم، وعاهدهم على الذب عن حوزة الملك والذياد عن حماه . فلاحظتهم بهذا العهد عناية عزيز مقتدر . فكانوا كما قال الله «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر"[1] .

واستراح المخزن من تشغيب عتاة البربر ، طيلة أربعين سنة ، ونام على جانب من الراحة بتلك الناحية ، واستطاب وسنه ولما أجاب داعي ربه السلطان المذكور استمرت العلائق كذلك مع ولديه المولى عبد العزيز ، ثم المولى عبد الحفيظ [2] . ولم تزل المؤن والامدادات تصل إلى المحلة المخيمة بزيان الفينة بعد الأخرى ، وكان أخرها تلك التي وصلت أيام السلطان مولاي عبد الحفيظ ، بتاريخ 8 حجة 1325هـ/1907م .

هذا ما يتعلق بمحمد وحمو من الناحية المخزنية وعلاقاته السياسية مع ملوكنا العلوية .

أما ما يتعلق به من ناحية مقاومته لجيش الاحتلال ، وجهاده الذي برَّ فيه الابطال فيتلخص فيما يأتي :

هو أن محمد وحمو قاوم جيش الاحتلال ، هو وقبيلته زيان ومن انضاف إليها ، زهاء 27 سنة من يوم احتلال الدار البيضاء عام 1325هـ/1907م إلى عام 1352هـ/8 غشت 1933م بعد ، حيث استسلم آخر بطل من البرابر الأطلسية .

ذلك أنه لم يكد يصل إليه نبأ هذا الاحتلال حتى أخذته حمية بربرية في غيرة دينية ، فطار على فرسه وراءه قبيلته زيان ، ومن انضاف إليهاحتى أناخ ، على أبواب الدار البيضاء وسط قبائل الشاوية . وهناك وجد بربريا من مجاوريه الأطلسيين ، قد سبقه إلى ساحة الوغي . ذلك هو القائد موحا وسعيد الوراوي من قصبة موحا وسعيد ، على نحو 50 كلم شمال بني ملال ، وكان هذا الفارس المغوار ، قد خاض معارك مع الجيش الفرنسي ، في بعض من خاضها من قبائل الشاوية ، كالمذاكرة برئاسة كبيرهم المجاهد الغيور الأحمر بن

1- سورة الاحزاب : 22

2 - هو عبد الحفيظ بن الحسن بن محمد الحسني العلوي من سلاطين الدولة العلوية بالمغرب الأقصى ترجم له ابن زيدان ، الدرر...م.س. ص . 117 .

منصور [1] رحمه الله ، الذي نهض نهضة الأبطال المغاوير ، بنية صالحة في ثلة من قومه المذاكرة . ولكن دبت في صفوفهم الدسائس الاستعمارية .لذلك لم يكد يلتقي البربريان حتى لم يختلف لهما رأيان في أن بعض المقاتلين لا يصدقون اللقاء ، ولربما فيهم من لاحت عليه علامة الشقاء، فارتأيا الرجوع بإخوانهما البرابر ، قانعين من غنيمة بالرجوع بالسلامة . ومن ذلك الوقت اتفقا على كلمة هي «أن لا جهاد إلا على الحريم والأولاد» .

ثم لما عقدت الحماية سنة 1330هـ/1912م ، أخذت فرسان زيان برياسة قائدهم، تغزو الجيوش الفرنسية كلما سنحت لهم فرصة بذلك ، فهاجموها على أبواب مكناس قرب قصبة أكَوراي على نحو 35 كلم من مكناس ، ومرة بوادي بهت بتراب قبيلة زمور ، فرقة آيت سْبير على نحو 40 كلم من مكناس ، مرة أخرى ، ثم بقبيلة زعير ، قرب مركز الزحيلكَة ، على 60 كلم غروب مدينة وادي زم ، في طريق الرباط، ثم بقبيلة السماعلة ، بمحل يقال وارغوس على نحو 40 كلم من وادي زم وهكذا مرات . وأخيرا استعدت المحلة الفرنسية المعسكرة لمكناس لغزو قبائل الأطلس عموما، وزيان خصوصا ، في عقر ديارهم ، واحتلال خنيفرة عاصمتهم .وفي فصل الربيع من سنة 1332 يوافق 1914 ، تحركت بقضها وقضيضها من مركز تابدوت ، وهو معسكر حرب عظيم ، كان بين مدينتي الحاجب وأزرو ، على نحو 14 كلم من هذه . فاخترقت قبائل بني مطير ، وبني مجيلد ، وخيمت على تراب قبيلة زيان ، بمحل يقال له «أفود الجامع»* ، على 50 كلم من خنيفرة ، في طريق مكناس . فاستطار لها خبر يؤذن بشر ، وما يوم حليمة بسر * ، فاستنفر محمد وحمو قبيلته عن بكرة أبيها ، وطارت بين عشية وضحاها ، حتى صمدت في وجه العدو المهاجم . فالتحمت بين الفريقين الملاحم [2] .

---

1 – تزعم المقاومة المسلحة في قبيلته المذاكرة وأولاد علي ضد الاحتلال الفرنسي منذ معركة الدار البيضاء (غشت 1907) . واستمر يخوض المعارك تلو المعارك ، حتى سيطر المحتلون على أرض قبيلته ، ثم التحق بالمجاهدين بالأطلس المتوسط ، قبل أن يعود إلى بلاده ويلقى منيته في الثلاثينات من هذا القرن . أنظر علال الخدمي ، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ، المصدر السابق .

*– «أفود الجامع ، كتب في الجواب أفود أحمري" اهـ مولفه .

*– "وما يوم حليمة بسر ، مثل يضرب ليوم كانت فيه وقعة عظيمة بين العرب ، قتل فيها المنذر بن ماء السماء ، من طرف الحرث بن أبي شمر ، وحليمة هذه بنته ، طيبت الجيش الموجه لغزو المنذر بطيب" اهـ مؤلفه .

2 – كان الجنرال ليوطي –بعد فشله في استمالة موحا وحمو الزياني إلى الجانب الفرنسي – قد قرر الاستيلاء على خنيفرة لإخماد نار الثورة الزيانية . ولهذه الغاية أعطى أوامره للجنرال هنريس لمهاجمة العاصمة الزيانية من ثلاث جهات : من مركز أفوغال ، قرب مولاي بوعزة بقيادة الكولونيل كَرو ، ومن مركز تبادوت ، قرب الحاجب ، بقيادة الكولونيل كلوديل ، ومن مركز أبي الجعد ، بقيادة الكولونيل دوبليسيس . وكان عدد هذه القوات 15000 جندي و360 ضابط . وفي بداية الأسبوع الأول من شهر يونيو ، انطلقت المجموعات الثلاثة في آن واحد ، في اتجاه خنيفرة وقد تعرضت المجموعة الأولى إلى مقاومة عنيفة ، قادها كل من موحا وعقى ، ابن أخ الزعيم الزياني وقائد قرية سيدي محمد بن مبارك . في حين تولى موحا وحمو بنفسه الهجوم المضاد على المجموعة الثانية الآتية من الجهة الشرقية (الحاجب وأزرو) ، ودارت معارك طاحنة أيام 6 و7و8 و9 يونيو على وادي إفران ، الحد الفاصل بين زيان وبني مجيلد ، وعلى هضبة امريرت . أنظر :

M. Le Glay, les sentiers de la guerre et de l'amour, 1930, p.145 -352,

واستمر القتال بضعة أيام ، وكان يستعد فيها للهجوم التام ، وفي فجر يوم الأربعاء 14 رجب 1332هـ يوافق 11 يونيه 1914م ، كان منها النفير العام قاصدة احتلال خنيفرة ، فصدتها فرسان زيان [1] ، الأبطال واستحر القتال في كثير من الرجال ، ثم زحزحتهم عن مراكزهم إلى بسيط وفضاء، لم يثبت فيه إلا ذو عزيمة ومضاء . وبينما هم على أحر من الرمضاء ، وللمعدات الحربية صليل وضوضاء ، إذا بأحد الفرسان كالنذير العريان ، يندرهم بالخطر الداهم ، ويصيح بأن جيش الاحتلال من ورائهم على الحريم والبنين بخنيفرة هاجم . ففزعوا لهذا النبأ أي مفزع ، وهيهات لم يبق في القوس منزع ، وعندئذ حومت الفرسان كالنسور طائرة ، وإلى معاقلها غائرة ، حتى وصلوا لعاصمتهم ، يفرغونها من الأولاد . والأموال ، وطار بها الى عوالي الجبال [2] . وفي الساعة الخامسة من عشية غده الخميس ، دخلت القوة الفرنسية خنيفرة ، ولكنها وجدتها يبابا ، ومن محاسنها خرابا . وقد انطمست زينتها ، وكسفت بهجتها ، فانحازت لضواحيها ، واتخذت معسكرها بنواحيها ، ومن الغد لاحقت الفرسان من كل ناحية ، فأصلتها بنارها الحامية . ثم تصايحت صيحتها البربرية ، فهاجمتها مهاجمة المستميت [3] ، تود أن تموت أو تميت ، غير عابئة بمعداتها ، ولا بقواتها ونجداتها ، خائضة غمار الموت بين أطنابها ، منكلة برؤوسها وأقطابها .

وعند ذاك ، استطلعوا بكيفية مدققة ، على أن مقاتلة المحتل لا تكون إلا غارات متفرقة وهجمات موفقة [4]، ثم خيمت زيان على المحلة بكل ثنية ، فضيقوا عليها الخناق، وكابدت من ذلك أهوالا ومشاق، فكان لا يتحرك لها ساكن ، إلا ثار في وجهه كامن،

---

1 – حاول زيان الذين استولوا على المرتفعات المطلة على خنيفرة عرقلة تقدم مجموعة كلوديل . وقد استمر القتال يومي 11و12 يونيو 1914 ، في منخفض خنيفرة ، حيث تكبد العدو خسائر فادحة حسب تقارير الضباط الفرنسيين . أنظر :

882, G., Lyautey, à diplomatie, Tadla, 7 Octobre 1914, caton :Rapport n 56, A.A.E. 1584-7 : :n

2 – نظرا للتفوق العسكري للجانب الفرنسي ، كانت استراتسجية الزعيم الزياني ، هو إخلاء مدينة خنيفرة ، واللجوء إلى الجبال المجاورة لإعادة تنظيم المقاومة المسلحة ، من أجل خنق الفرنسيين داخل قواعدهم ، وإرغامهم على الجلاء . أنظر : . **J. Le Prevost, op.cit, p. 120**

3 – قرر موحا وحمو تحويل خنيفرة المحتلة إلى **Presidio** ، أي محاصرتها حتى يغادرها الغزاة . ولهذا تواصلت الهجومات على المدينة السليبة ، طيلة الحرب العالمية الأولى . أنظر :

Said Guennoun, la montagne berbère, op.cit, p.11. cf aussi J.Pichon, El Herri, op.cit, p.50 .

4 – وهي حرب العصابات التي دشنها موحا أوحمو لأول مرة في تاريخ المقاومة المسلحة المغربية.

وهكذا استمرت الحرب سبع سنين ، شابت فيها النواصي ، عصمهم من ويلها أطلسهم الأشم ، وما به من صياصي . كان محمد وحمو قطب رحاها ، وفارس هيجاها ، يمدهم بآرائه ، وماله امدادا ، ولا يدخر عنهم نفسا ، ولا عتادا ، ولا يتأخر ، على كبر سنه عن حضور المعارك ، ويتمنى أن تكون الخاتمة هنالك .

وبينما هو ذات غداة ، آمن في سربه ، لا يفكر في عدو ولا في حربه ، إذا بكبكبة من الخيل تهاجمه ، بين حريمه وأولاده ، فارتمى على صهوة جواده ، وتسابق لرد غارات العدو المنازل ، الذي كاد يصل إلى الخيام والمنازل ، ويروع النساء الغوازل ، وخب فيها شيخ التسعين ووضع ، وصوّبها طلقات ، وهو يقول خذوها "وأنا ابن الأكوع [1] ، واليوم يوم الرضع" ،ولكنها كانت له خاتمة المطاف ، في تلك المصاف ، ليحصل له أجر الشهادات . فهو شهيد دون أهله ، شهيد دون ماله ، لحديث النبي صلى الله عليه وسلم "من مات دون أهله فهو شهيد ، ومن مات دون ماله فهو شهيد" [2] . ثم الشهادة الكبرى في ساحة الوغى ، لقوله جل ثناء :"ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء" [3] .

فقد أ صيب بطلقة نارية ، صادفته في صدره ونحره ، دليلا على أنه مات وهو مقبل ، ولم يمت وهو مدبر . أصابته من يد ، ولكنها غير شريفة ، بل يد أثيمة قذرة . فخر شهيدا ، بطل المعركة ، مذيق الجيش المحتل كل الأحن ، وساقيه سنين طوالا كأس المحن . وحمل بأيد كريمة غير مهينة ، من رجاله وأبنائه المجاهدين ، يذرفون عليه الدموع السخينة ،ويودعونه بقلوب حزينة . لا أسفا على موته ، إذ هي الشهادة التى طالما أمّلها ، ليقابل بوجهه الطاهر النقي ، وجه حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، كما كان يعبر عن ذلك طول حياته. ولكن كانوا يذرفونها لفقدانهم سدا كان يسندهم، وبآرائه وكل ما يملك ، كان يمدهم .

استشهد رحمه الله ، صبيحة الأحد 17 رجب 1339، يوافق 27 مارس 1921، بمحل يسمى تاوْجْكالت ، شرقي خنيفرة ، في ثنايا الأطلس المتوسط ، على نحو 35 كلم منها . ودفن بمحل يقال له تاملاوكت . هذا ملخص ترجمته الطويلة الذيل بالمفاخر العارمة السيل بالمآثر .

---

1 – رجل أكوع : عظيم الكوع ، ابن منظور ، المصدر السابق ، مادة كَوَعَ .

2 – رواه الترمذي في كتاب الديات .

3 – سورة آل عمران : 168 .

ويتتبعها يظهر جليا أن بطل الأطلس واحد هو "محمد وحمو" . هذا وهو* قائد زيان من قبل مولاي الحسن ، وهو * المخلص لملكه ، وأن القصبة * خنيفرة بناها العسكر الذي أمده به ، وهو * المقاوم المجاهد لآخر نفس في حياته ، وأنه * أصيب في ميادين الشرف وأنه لم يصل ليد أعدائه أبدا .

نعم كان هناك موحا وعقه ، ولكن هو ابن أخ محمد وحمو ، وهو من المجاهدين الذين يضرب لهم المثل في الشجاعة ، واستشهد مجاهدا ولكنه لم يكن قائدا عسكريا . وكذلك لم يكن له ابن يدعى حمو . وهناك مجاهدون آخرون أمثاله من أبناء إخوانه وأعمامه ممن أبلوا البلاء الحسن ، من والعايدي ، ومعمّي ولد الحاج حدو ، ومعمي ولد الفاسية بن محمد وحمو . فهؤلاء كلهم جاهدوا وهاجروا ، ونفوا قرابة 40 سنة ، وليس هذا محل بسط الكلام عنهم ، فقد بسط في غير هذا المحل من هذا التاريخ .

والمقصود من هذا هو بيان الحقيقة من تاريخ بعض أبطالنا المجاهدين ، الذين لازالت آثارهم خالدة ، وهم غير بعيدي العهد منا ، وهم كآبائنا ، وليس من اللائق أن يكتب عنهم تاريخ مشوه ، إن اطلع عليه الناقد البصير ، رمانا بالتقصير مع أن من مؤرخينا من كتب في هذا الشأن "ما يقعقع له بالشنان"* انتهى .

وقد جاء هذا الجواب كترجمة مختصرة لمحمد وحمو ، وكمقدمة له في هذا التاريخ الذي مداره على رجال الجهاد والكتائب أكثر منهم على رجال المدارس والمكاتب ، وإلا فترجمة هذا الرجل سنوفيها حقها استيفاء ، ولا نبخسها أشياء . ولنعد إلى ما نحن بصدده ، من ترجمته ومتعلقاتها .

المحلة الحسنية بمعسكر خنيفرة .

تبين مما قدمناه ، أن هذه القبائل البربرية ، لم تزل في حلق الأمن سجا ، وفي ضوء مصباحه دجى، حتى رماهم السلطان المولى الحسن برصيد من الأجناد ، ليركز فيهم الأمن بأغوارهم والاتحاد ، وليسند قائده المخلص ، محمد وحمو ، ويعينه على ضرب أطناب الراحة والسلامة بتلك الجبال الشامخة بآنافها الراسخة .

وما قيل في جهل تنصيب القائد محمد وحمو ، يقال أيضا في تاريخ توجيه هذه المحلة إليه . كل ذلك لعدم اعتناء هذا الجيل البربري بالتاريخ ، ولا بالكتابة . والرجل الوحيد الذي

*****- "هذه خمسة أغلاط فادحة جاءت في ما كتبه الأستاذ المريني في ترجمة محمد ووحمو " اهـ مولفه .

*- "ما يقعقع له بالشنان ، مثل يضرب لمن لا يتَّضع لحوادث الدهر ، ولا يروعه ما لا حقيقة له ، والشنان ج شنٍّ وهي القربة ، وفي رواية بالسنان ، بالسين المهملة والمراد به السلاح " . اهـ مؤلفه .

يمكننا أن نستفيد منه هذه التواريخ ، وما إليها هو رئيس تلك المحلة الوالد . ولكن بالأسف فارقناه والنفس لا تستشرف لهذا ، والكنز الثمين الذي كان محتفظا به من مكاتب ، ووثائق ذلك الأطلس المخزنية ، والقبائلية طيلة قرابة 40 سنة أغرق في اليم يوم الاحتلال من شدة الهم كما سيأتي .

ومع ذلك فقد دلتنا البقية الباقية من آثاره بكناشة المؤن الموجهة من قبل سلاطينها ، من عهد المولى الحسن إلى عهد المولى عبد الحفيظ ، دلتنا بعض الشيء كما ذكره شقيق الروح في ترجمته من تاريخه الأعلام جزء 5 صحيفة 532 .

فقد أفادنا عثوره على كناشة ، وفيه تاريخ مؤن المحلة الموجهة لزيان بتاريخ 11 قعدة عام 1298 ، وآخر ما فيه مؤونة من مولاي عبد الحفيظ ، مؤرخة ب 7 حجة متم 1325 ، وذكر أن بعض أوراق هذا الكناش ساقطة ، مما جعلنا نظن أن توجيه هذه المحلة ، كان قبل ذلك بيسير . وبقينا على شكنا هذا سنين ، ولكن من حسن الصدف عثرت على ورقة بها حساب مؤونة هذه المحلة بخط الوالد ، مؤرخة بالأحد 5 صفر الخير عام 1297 .

وغالب الظن أن هذه هي أول مؤونة لهذه المحلة ، إن لم يكن تحقيقا ، فيكون توجيه هذه المحلة من السلطان مولاي الحسن مفتتح هذه السنة 1297هـ . ومما يرجح هذا الظن، أن قاضي المحلة الشرعي ، الموجه معها من لدنه ، كان يختم شكله ب 97 كدليل على تاريخ تسميته قاضيا لهذه المحلة . وهذه فكرة يتخذها بعض حذاق المخزن ، إشارة منهم لحفظ تاريخ توليتهم ، وإن ذهبت أعيانهم . ومن جملة من كان يتخذها –ولعله من عنده أخذوها– السلطان مولاي الحسن .

فقد اطلعت له على مكاتب بطابعه فيها تاريخ تولية 1291 ، بإسقاط كسر سنة 1290 التي تولى فيها .

فمن ذلك كتابه من سوس لباشا مكناس ، حمو بن الجيلاني يصف له ما لقيه من احتفاء وأتمه من أعمال بذلك القطر السوسي ، وهو مؤرخ بفاتح رمضان 1299 بطابعه الكبير ، داخله الحسن بن محمد ، بن عبد الرحمان الله وليه ، 1291 وبدائرته "ومن تكن برسول الله نصرته" . وكذلك نجده بكتاب آخر له ، كتبه للباشا حمو أيضا باشا مكناس ، في رحلته من تافيلالت ، لمراكش بطابعه الكبير أيضا داخله "الحسن بن محمد بن عبد الرحمان الله وليه 1291هـ" . وأيا ما كان ، فقد جاءت هذه المحلة ، ونزلت على الضفة الغربية من نهر أم الربيع بخنيفرة . وكانت هذه عبارة عن مدشر حقير يقابله في الضفة الشرقية قصبة محمد وحمو .

وتتركب هذه المحلة من جيش وعسكر . فالجيش من القبائل الحوزية التي كانت تسمى جيشا ، ولازالت تحمل هذا الإسم ، بضواحي مراكش . وهذا ما نجده في كناشة مؤونة هذه المحلة . وهي هكذا : دوبلال ، المغافرة ، المنابه ، حربيل ، تكنة ، أولاد دليم ، وهؤلاء كلهم

بنظر القائد ابراهيم الدوبلالي . وآيت يمور ، وكانوا إلى نظر قائدين منهم ، القئد صالح اليموري ، والقائد أحمد اليموري . وعبدة ، وكانوا إلى نظر قائدين منهم ، وهما ابن التمار العبدي ، وابن عمر العبدي (وهل بن عمر العبدي هو القائد الشهير «عيسى بن عمر» الذي طار صيته في المغرب عموما ، وفي أيام السلطان عبد الحفيظ خصوصا ، وكان تولى وزارة الخارجية والله أعلم) . ومن أحمر ، أو حمير إلى نظر قائد لهم لم يسم ، ومن مجاط إلى نظر قائد منهم أيضا لم يسم .

أما العسكر * فيتركب من أربعة فيالق إلى نظر أربعة قواد ، الفيلق هو الارحى بعبارة المخزن ، القائد الأول الحاج أحمد المومني الفاسي ، القائد الحاج محمد الزروالي الفاسي ، القائد محمد بن الفائدة الرحالي ، الفقيه السيد قاسم بن محمد ، رئيس فيلق الطبجية ، والهندسية ، وهو رئيس المحلة .

ويشتمل الجيش على أربعة عشر مائة وخمسة وخمسين ، والعسكر على الفين وسبعمائة وستين الجميع = 4215 .

هذا ما جاء أولا ، ثم لما تحقق المولى الحسن إخلاص هذا القائد، وفائدة المحلة الموجهة إليه ، واطمأن من ناحية برابر هذا الأطلس ، استنجد القائد منه أيضا قوة أخرى ، فألحق بالمحلة فيالق أخرى .

وحوالي سنة 1300 عندما كانت هذه المحلة في توطيد مركزها ، أو مركز محمد وحمو بناحية مريرت ، أو بأزغار في معركة ، مع قبائل من زيان ، وبني مجيلد يتزعمها الشريف مولاي عبد الواحد الامراني ، وجه له السلطان محلة أخرى يرأسها القائد الحبيب البخاري . وهذه هي التي عسكرت بالقصبة الإسماعيلية أدخسان ، وعدد رجالها سبع مائة ، وبقيت فيها بقية قائد فيلقها القائد التهامي خلفا عن أخيه القائد الحبيب المتوفى ثمة .

وكانت محلة بلقباب على نحو 35 كلم جنوب خنيفرة ، قائد رحاها يسمى القائد المحجوب . فالتفت عليها جموع اشقيرن ، وضايقوها ، وقتل قائدها المحجوب المذكور. فلم يستطيعوا أن يخرجوا لدفنه ، فبلغ الخبر السلطان ، فأمر محمد وحمو وقواد المحلة بزيان أن ينقذوها، فتوجهوا لاشقرن، ووقعت بينهم معارك ، اضطر فيها اشقرن للنزوح لأعالي جبالهم ، وأفرج عن المحلة التي بلقباب ، فرحلت للمحل المسمى لهري على 14 كلم جنوب خنيفرة ، وعين السلطان قائد فيلقها السيد لحسن المزميري وبقيت بقيتها إلى أن هجم جيش الاحتلال ، وعدد رجالها ستمائة .

وفي أيام السلطان مولاي عبد العزيز ، وجه محلة أخرى ، قائد فيلقها السيد الحاج عبد الله الكَركَوري ، فنزلت على أختها بمعسكر خنيفرة ، وعددها خمسمائة ، وبقيت بقيتها أيضا إلى الاحتلال .

بعض أعمال هذه المحلة بخنيفرة

لما استقرت هذه المحلة بخنيفرة ، كان لزاما على قوادها ، ورئيسها بالخصوص، وهم القواد * المتدينون ، أن يفكروا أول ما يفكرون في المسجد المناسب الذي يصلون به جماعتهم وجمعهم . هذا من الناحية الدينية ، وأما من الناحية الاجتماعية فتبنى لهم قنطرة راسخة تربط ما بين معسكرهم وقصبة محمد وحمو ، على نهر أم الربيع . فكتبوا بذلك للمكهم ، فلبى الطلب ، ووجه المال الكافي للمهمتين العظيمتين . وللحين شرعت الهندسة المتقنة في تخطيط وتصميم المسجد ، وأخذ سمت القبلة ، وكذا في القنطرة الماثلة للعيان التي تتحدى هندسة العصر الحاضر ، وكل ذلك بهندسة الوالد وتحقيق هيئته .

وكم رأينا من قناطر عظيمة فخمة أسست في عهد الحماية ، على أودية سهلة متواضعة لا تلبث أن يجرفها السيل ، وتصبح في خبر كان ، بخلاف هذه القنطرة العظيمة الراسخة على طول الزمان وفيضان الأنهر المتحدرة من الجبال الأطلسية الجارفة أيام الأمطار المتهاطلة ، ناهيك أن منبع وادي أم الربيع، يتدفق وينبعث من منبعه بما قدره أربعون ألف لتر في الثانية * فما ظنك به إذا انضافت له السيول الجارفة بحيث ترى أقواس القنطرة كلها عائمة في المياه ، حتى يعلو الماء سطح القنطرة ، وهي هي ، لا تتحرك ولا تتزحزح ، وكأنها قطعة جبل راسخ ، أو أكوام من فلاذ شامخ ، لا تخضعها صولة المياه والأمواج ، لذلك ظن بعضهم أنها من صنع الأعلاج.

وقد تجول أحد اللبنانيين إلى ناحية الأطلس ، أيام كان هذا الأطلس كالطلسم ، لا يعرف له سر ، وإنما هو كالعنقاء ، يسمع ولا يرى ، وذلك حوالي سنة 1927 ، وزار مدينة خنيفرة .

فلما رأى هذه القنطرة ، وتحدث له الناس عن رسوخها ، أعجب بها كل الإعجاب، وعندما رجع تحدث عما رآه في ذلك الأطلس من العجب العجاب ، ومنه هذه القنطرة وذكر أنها من بناء البرتغال . ونشرت له صحيفة السعادة ذلك المقال ، فرددت عليه ، وبينت له الحقيقة ، ونشرته السعادة أيضا تحقيقا للتاريخ .

وممن درج على أن القنطرة من صنع البرتغال الضابط كَنون ، صحيفة 197 . ولما كانت اليد عاملة في القنطرة ، كانت الأخرى عاملة في مسجدهم الجامع ، وما هي إلا أيام حتى تم الجميع ، في شكله البهيج البديع ، الذي يرى عليه لحد هذا التاريخ ، وانتهت المهمة

---

*- "كان غالب هؤلاء القواد الاراحي متدينين ومتمسكين بالطريقة التجانية" .اهـ مؤلفه .

*- "الوالد رحمه الله كان من علم الهندسة والهيئة والتوقيت بمكانة ، عظمت أيام السلطان مولاي الحسن . وحدثني أنه ممن توجه لتخطيط قبلة ضريح سيدي عبد القادر العلمي بمكناس" .اهـ مؤلفه.

وبنيت للمسجد عمارة حوله حبسية مؤلفة من قيسارية وحوانيت كانت تسد بها حاجات الموظفين الدينيين .

وبقيت باسم الحبوس ، يتصرف فيها من يتولى أشغاله ، كناظر حبسي ولكن ، احتسابا لله ، بحيث لم يتسرب لجيبه من ذلك أدنى قيراط ، عوضا عن أشغاله . وكان والدي رحمه الله هو المتولي لشبه هذه النظارة ، زيادة على كلفته المخزنية ، وحروبه مع القبائل الزائغة ، وبقي في هذه المهمة كناظر من يوم بناء المسجد إلى سنة 1329، حيث تخلى عن ذلك إخلادا للراحة ، واستراحة من الأشغال الشاقة ، ولكبر سنه ، فتولى شبه نظارته من بعده ، أحد أعيان خنيفرة ، والذين استشهدوا في سبيل الله ، بعد احتلال خنيفرة ، وهو المسمى قدور بن احماد وعقى رحمه الله . واستمر المسجد يؤدي مهمته بحبوسه من يوم بنائه ،إلى أن احتلت الجيوش الفرنسية خنيفرة ، فتهدمت وكان من جملة ما تهدم الاملاك الحبسية ، وصان الله المسجد ، فبقي ماثلا بحفظ الله ، الى أن رجعت مدينة خنيفرة عمارتها ، فرجع كل شيء لاصله . وفكر سكان خنيفرة الحديثون في زيادة وتوسيع المسجد ، فكان ذلك .

من عبر التاريخ أو مصداق قول الله "ليظهره على الدين كله" [1] .

في هذا التاريخ الذي زيد في المسجد هذه الزيادة ، كانت الكلمة فيها لذوي السلطة الفرنسية ، وخصوصا في هذه الناحية ، وتولى تسيير هذا الإصلاح مباشرة ، ضابط كان ثمة يسمى لولبا ، وإن كان الأمر في ذلك ظاهرا لباشا زيان آنذاك ، الحسن بن محمد وحمو .

ولكن هذا إنما يطل من بعيد . وكان من تفكير هذا الضابط عن قصد ، أو عن غير قصد ، بني بإذنه المسجد ، أن جعل فيها فوهات من جوانبها الأربع ، كما تفتح في صوامع الكنائس ، ليعلق فيها الناقوس ، ونقش بجوانب الصاري المصنوع من خشب المحفول لهذه الصومعة ، نقش عليه هذه العبارات الفرنسية «أورتوتوكس Orthodoxe، وهي كلمة تنبئ عن شعار ديني مسيحي . فهل يكون هذا الاجراء كنية لهذا المسيحي ، على أن يوما ما ، يرجع هؤلاء البرابر متدينين بالدين المسيحي ، فيرجع هذا المسجد كنيسة أوكاتيدرالية ، يعلق ناقوسها في تلك المأذنة المسلمة المحمدية، كما رجعت كثير من مساجد بالأندلس ، وبالجزائر أو ما هي نية هذا الضابط ، في هذه المأذنة المفتحة الأبواب ؟ .

الظاهر الذي تدل عليه هذه القرائن هي تلك النية .

"سبحانك لا إله إلا أنت [2] وتمت كلمة ربك الحسنى": [3] على أن دين محمد صلى الله عليه وسلم هو النعمة العظمى . ومن تمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإن تقلبات

---

1 - سورة التوبة : 31 .

2 - كذا ورد والصواب "لا إلاه إلا أنت سبحانك" سورة الأنبياء :86 .

3 - سورة الاعراف : 136 .

الأزمنة بالدول من عهودها الأولى ، كل ذلك دليل على باهر قدرته ، وعزيز سطوته ، وكمال آياته . وهذا ما نرى وهو عبرة الدهر لما جرى كيف جرى .

استولت الدولة الفرنسية على القطر الجزائري بتاريخ يوليوز 1830 ، وملكته 132 . فبدلت ما بدلت ، من محاسنها الإسلامية ، وآثارها الدينية ، ومن جملة ذلك مساجدها ، فغيرت معالمها ، وطمست جمالها المحمدي ، باستبدال بعضها كنائس وبعضها كتدرائيات ، ظانة أنها ملكت زمام الأمر لآخر الدهر . وما علمت أن الدهر قد يرمق بعين الإعزاز من رمقه السفن ، وأن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن ، وهذا بالذات ما جرى لأعظم مسجد بعاصمة الجزائر . المسجد المسمى كتشاد ، الذي حولته القوة الفرنسية كاتدرائية عظيمة مدة احتلالها للجزائر . وقضى الله باسترجاع المغصوب بعد 132 سنة .

ففي فاتح يوليوز 1962 ، حازت الجزائر استقلالها وقوضت القوة الفرنسية منها خيامها ، وحددت الديانة فيها رسومها ، واستعادت جلالها واحترامها . وفي يوم الجمعة جمادي الثانية 1382 يوافق 2 نونبر 1962 ، كان يوما أغر في تاريخ الإسلام الحديث ، حيث دشنت فيه الجمهورية الجزائرية افتتاح مسجد «كتشاد» ،فاحتفلت احتفالا بهيجا ، حضره رئيس الجمهورية الجزائرية المجاهد السيد أحمد بن بلة ، وجميع أعضاء الحكومة ، وقواد الثورة ، وذلك بمناسبة أداء أول صلاة جمعة فيه . وقد أمَّ الناس ، وخطبهم الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي ،رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

وهذا نص الخطبة. الحمد لله ، ثم الحمد لله تعالت أسماؤه، وتمت كلمته صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته ، جعل النصر يتنزل من عنده ، على من يشاء من عباده ، حيث يبتليهم ، فيعلم المصلح من المفسد ، ويعلم صدق يقينهم ، وإخلاصهم بنياتهم وصفاء سرائرهم ، وطهارة ضمائرهم ، سبحانه وتعالى ، جعل السيف فرقانا ، بين الحق والباطل . وأنتج من المتضادات أضدادها ، فأخرج القوة من الضعف ، وولد الحرية من العبودية ، وجعل الموت طريق إلى الحياة . وما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقا ، وبايعه عباده المومنون الصادقون على الموت ، فباؤوا بالصفقة الرابحة ، واشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم لأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن .

سبحانه تعالى جده ، تجلى على بعض عباده بالغضب والسخط ، فأحال مساجد التوحيد بين أيديهم إلى كنائس التثليث ، وتجلى برحمته ورضاه على آخرين ، فأحال منهم كنائس للتثليث إلى مساجد للتوحيد . وما ظلم الأولين ولا حافا الآخرين ، ولكنها سنة في الكون ، وآيات في الآفاق ، يتبعها قوم فيفلحون ، ويعرض عنها آخرون فيخسرون .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، شرع الجهاد في سبيل الله ، وقاتل لإعلاء كلمة الله ، حتى

استقام دين الحق في نصابه ، وأدبر الباطل على كثرة أنصاره وأحزابه . وجعل نصر الفئة القليلة على االفئة الكثيرة منوطا بالإيمان والصبر . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، وكل متبع لهداه ، داع بدعوته إلى يوم الدين . ونستنزل من رحمات الله الطيبات ، وصلواته الزاكية الطيبة لشهدائنا الأبرار ، ما يكون كفاء لبطولتهم في الدفاع عن شرف الحياة ، وحرمات الدين ، وعزة الإسلام وكرامة الإنسان ، وحقوق الوطن . واستمد من الله اللطف ، والإعانة لبقايا الموت وآثار الفناء . فمن ابتلوا في هذه الثورة المباركة بالتعذيب في أبدانهم ، والتخريب في ديارهم ، والتحيف لأموالهم . وأسأله تعالى للقائمين بشؤون هذه الأمة ألفة تجمع الشمل ، ووحدة تبعث القوة ، ورحمة تضمد الجراح ، وتعاونا يثمر المنفعة ، وإخلاصا يهون العسير ، وتوفيقا ينير السبيل ، وتسديدا يقوم الرأي ، ويثبت الأقدام ، وحكمة مستمدة من تعاليم الإسلام ، وروحانية الشرق وأمجاد العرب ، وعزيمة تقطع دابر الاستعمار من النفوس بعد أن قطعت دابره من الأرض .

ونعود بالله ونبرأ إليه من كل داع يدعو إلى الفرقة والخلاف ، وكل ساع يسعى إلى التفرقة ، والتمزيق ، ونحيي بالعمار والثمار ، والغيث المدرار ، هذه القطعة الغالية من أرض الإسلام ، التي نسميها الجزائر ، والتي فيها نبتنا ، وعلى حبنا ثبتنا ، ومن نباتها غذنا ، وفي سبيلها أوذينا .

أحييك يا مغني البلاد بواجب وأنفق في أوصافك الغرِّ أوقاتي

يا أتباع محمد عليه السلام ، هذا هو اليوم الأزهر ، الأنور . وهذا هو اليوم الأغر المحجل ، وهذا هو اليوم المشهود في تاريخكم الإسلامي بهذه الشمال .

وهذا اليوم هو الغرة اللائحة في وجه ثورتكم المباركة ، وهذا هو التاج المتألق في مفرقكم ، والصحيفة المذهبة الحواشي والطرر من كتابها .

إن هذا المسجد هو حصة الإسلام من مغانم جهدكم، بل هو وديعة التاريخ في ذمتكم . أضعتموها بالأمس مقهورين ، غير معذورين ، واسترجعتموها اليوم مشكورين غير مكفورين ، وهذه بضاعتكم ردت إليكم . أخذها الاستعمار منكم إستيلابا ، واخذموتموها منه غلابا ، بل هو بيت التوحيد عاد إلى التوحيد ، وعاد إليه التوحيد . فالتقيتم جميعا على قدر .

إن هذه المواكب الحاشدة بكم من رجاَل ونساء ، يغمرها الفرح ، ويطفح على وجوهها البشر ، لتجسيم لذلك المعنى الجليل ، وتعبير فصيح عنه . وهو أن المسجد عاد إلى الساجدين الركع من أمة محمد ، وأن كلمة لا إله إلا الله ، عادت إلى مستقرها منه . كان معناها دام مستقرا في نفوس المومنين . فالإيمان تترجم عنه كلمة لا اله إلا الله ، هو الذي أعاد المسجد إلى أهله ، وهو الذي يأتي بالعجائب ، وخوارق العادات في هذه الثورة .

وأمَا والله لو أن الاستعمار الغاشم أعاده إليكم عفوا من غير تعب ، وجيئة منه إلى الحق دون نصب ، لما كان لهذا اليوم ما تشهدونه من الروعة والجلال . يا معشر الجزائريين

إذا عدت الأيام ذوات السمات ، والغرر والثبات في تاريخ الجزائر ، فسيكون هذا اليوم أوضحها سيمة ، وأطولها غرة ، وأثبتها تمجيدا . فاعجبوا لتصاريف الأقدار . فقد كنا نمر على هذه الساحة مفرقين ، ونشهد هذا المشهد المحزن منطوين على مضض ، يصهر الجوانح ، ويسيل العبرات , كأن الأرض تلعننا بما فرطنا في جنب ديننا ، وبما أضعنا بما كسبت أيدينا من ميراث إسلامنا . فلا نملك إلا الحوقلة ، والاسترجاع ، ثم نرجع إلى مطالبات قولية ، هي كل ما نملك في ذلك الوقت، ولكنها نبهت الأذهان ، وسجلت الاغتصاب وبذرت بذور الثورة في النفوس ، حتى تكلمت البنادق . أيها المؤمنون : قد يبغي الوحش على الوحش فلا يكون ذلك غريبا لأن البغي مما ركب في غرائزه ، وقد يبغي الإنسان على الإنسان فلا يكون ذلك عجبا لأن في الإنسان عرقا نزاعا إلى الحيوانية ، وشيطانا نزاعا بالظلم . وطبعا من الجبلة الأولى ميالا إلى الشر ، ولكن العجيب الغريب معا ، والمؤلم المحزن معا ، أن يبغي دين عيسى روح الله وكلمته على دين محمد الذي بشر به عيسى روح الله وكلمته على دين محمد الذي بشّربه عيسى روح الله وكلمته .

يا معشر المؤمنين إنكم لم تسترجعوا من هذا المسجد سقوفه ، وأبوابه وحيطانه ولا فرحتم باسترجاعه ، فرحة الصبيان ساعة ، ثم تنقضي ، ولكنكم استرجعتم معانيه التي كان يدل عليها المسجد في الإسلام ، ووظائفه التي كان يؤديها في إقامة شعائر الصلوات ، والجمع والتلاوة ، ودروس العلم النافعة على اختلاف أنواعها من دينية ، ودنيوية . فإن المسجد كان يؤدي وظيفة المعهد، والمدرسة ، والجامعة . أيها المسلمون إن الله ذم قوما فقال : "ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها إسمه "(1) ، ومدح قوما فقال "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولائك أن يكونوا من المهتدين " (2) . يا معشر الجزائريين إن الشيطان الذي قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم : "إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك (3) . فهو قد خرج من أرضكم ، ولكنه لم يخرج من ألسنتكم ، ولم يخرج من قلوبكم، فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه ، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها .

يا معشر الجزائريين إن الاستعمار والثورة قد تركت في جسم أمتكم ندوبا لا تندمل إلا بعد عشرات السنين ، وتركت عشرات الآلاف من اليتامى ، والأيامى والمشوهين الذين فقدوا العائل ، والكافل ، وآلة العمل ، فاشملوهم بالرعاية ، حتى ينسى اليتيم مرارة اليتم ، وتنسى الأيم مرارة الثكل ، وينسى المشوه أنه عالة عليكم، وامسحوا على أحزانهم بيد العطف والحنان ، فإنهم أبناؤكم ، وإخوانكم ، وعشيرتكم .

---

1 – سورة البقرة : 113

2 – سورة التوبة : 18

3 – رواه مسلم في كتاب المنافقون .

ويا إخواني ، إنكم خارجون من ثورة التهمت الأخضر واليابس ، وإنكم اشتريتم حريتكم بالثمن الغالي، وقدمتم في سبيلها من الضحايا ما لم يقدمه شعب من شعوب الأرض ، قديما ولا حديثا، وحزتم من إعجاب العالم بكم ، ما لم يحزه شعب ثائر ، فاحذروا أن يركبكم الغرور ، فيستزلكم الشيطان ، فتشوهوا بسوء تدبيركم محاسن هذه الثورة ، أو تقضوا على هذه السمعة العاطرة . إن حكومتكم الفتية منكم ، تلقت تركة مثقلة ، بالتكاليف والتبعات ، في وقت ضيق لم يجاوز أسابيع ، فأعينوها ، بقوة وانصحوها فيما يجب النصح فيه ، بالتي هي أحسن ، ولا تقطعوا أوقاتكم في السفاسف ، والصغائر ، وانصرفوا بجميع قواكم إلى الإصلاح ، والتجديد ، والبناء ، والتشييد . ولا تجعلوا للشيطان بينكم وبينها منفذا ، يدخل منه ، ولا لحظوظ النفس بينكم مدخلا .

وفقكم الله جميعا وأجرى الخير على أيديكم جميعا ، وجمع أيديكم على خدمة الوطن ، وقلوبكم على المحبة أبناء الوطن ، وجعلهم متعاونين على البر والتقوى ، غير متعاونين على الإثم والعدوان . قال تعالى :"وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا "[1] . أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم وهو الغفور الرحيم ".

ولكن ماذا كان بعد . كان ما هو معجزة القرآن ، وهو أن هذا الصاري المعد لينقر به ناقوس المسيحية ، لم يمر عليه بضع سنوات حتى هيأ الله لهذا المغرب استقلاله ، وأزاح عن جسده المنهوك اعتلاله ، وخمدت للمستعمر رياحه ، وفكت من الصاري ألواحه ، فحملت لداخل مسجد المسلمين الأقحاح البرابر ، فركزت في قبلته بمسامير، وطرحت على جدرانه كمساطير عليها النعال ، توضع من عمار بيوت ، أذن الله أن ترفع بفئة فيه سجدا ركعا .

أعمال المحلة في استتباب الأمن بالأطلس .

تكلمنا في الأصل بتفاصيل أعمال هذه المحلة في استتباب الأمن بالأطلس تنفيذا لخطة ملكها ، من أول يوم وضعت أقدامها بمعسكر خننيفرة، حوالي 1297 ، إلى آخر يوم زحزحت عنه باحتلال الجيش الفرنسي سنة 1332هـ ، حيث لم يبق منها إلا من لم تلهه زينة الدنيا وزخرفها . وأخذت تفاصيل تلك الأعمال الطويلة السنين الأربعينية ، من هذا التاريخ جناحا مهما . وعلى أن ذكرها يثير حزازات وهما. وقديما قد قيل «ذكر ما فات يكدر الأوقات» . فعدلنا عن تلك التفاصيل

1 – سورة النور : 54

بالاختصار ، وذكرنا بعضها ، أشار، فأشار، حيث جمع الله شمل تلك القبائل البربرية ، يوم دهمتهم من جيش الاحتلال البلية ، ووحدت صفوفهم التي كانت متفرقة ، لوامع سيوفه المتألقة :

ووحدهم في الله دين وملة ووطد قرآن لديهم شعائره .

عندما نزلت هذه المحلة بهذا الأطلس ، وجدت جيله البربري في أشد هيجانه ، وثورة غليانه ، من الفتن القاتمة ، والأهوال العائمة ، لا في زيان بالخصوص ، بل وفي غيره (1) من الفترة التي تأخرت بها سطوة المخزن عنه ، ووجدت المحلة بعض أقرباء القائد نفسه يناهضونه ، وهم من فصيلته ، بل من عشيرته كآيت خوي ، وآيت بوهو . لذلك كان أول عملها أنها توجهت لهؤلاء ، وهم لا يبعدون عن خنيفرة بكثير ، فكانت معركة أو معركتان ، فاذعنوا وانضووا تحت لواء أخيهم القائد المذكور . ثم تحولت المحلة لقبيلة آيت شارط على نحو 10 كلم فكان العمل كالأول .

ثم توجهت لفصيلة آيت بوحماد على نحو 30 كلم فكانت معارك طالت بعض الأيام ، والتجأوا لمدشرهم الكبير «تلهنات» ثم استلسموا .

وباستسلام آيت بوحماد تمت الهدنة ، في قبيلة زيان ، في هذه الفترة ، من الناحية الشرقية . ثم توجهت لآيت عبد الكريم من ايمزيناتن وهم قوم وسط ، بين زيان واشقرن . فنشبوا معارك أكثر من سابقاتها ، وتحصنوا بمد شرهم بوغروم ، وقاوموا حتى هدموا عليهم المدشر المذكور بالمدافع .

ثم كانت معارك أخرى مع ايت يسري ، وخصوصا ايت هودي ، منهم أهل زاوية الشيخ ، على 50 كلم من خنيفرة ، وتحصنوا في قصرهم «مدشر الوادي» ، وأخيرا تصالحوا مع محمد وحمو ، فرجع إلى خنيفرة ، ورجعت المحلة بعدما دوخت هذه القبائل ، وجعل البربر يحسب لمحمد وحمو حسابه . وقد طالت هذه الحرب نحو ثلاث سنين .فارتاع لذلك هذا الأطلس ، واستلفت أنظاره . وهنا اشرأبت القبائل القريبة التي يرأسها مولاي عبد الواحد ، واستشرف هذا الشريف معهم ، فخمد ثائرته وخضد شوكته .

من هو مولاي عبد الواحد هذا ؟

هذا من الشرفاء العلويين الأمرانيين الشهيرين بمكناس وفاس ، أصهار الملوك، وأصل هؤلاء الشرفاء من زاوية الأمراني بسجلماسة . وأول من حل بإفران ، الشريف سيدي محمد ابن سيدي عبد الواحد بن العربي ، بن محرز ، بن علي بن يوسف ، بن مولانا علي الشريف .

1- كانت قبائل اشقيرن لا ترى بعين الرضى صعود ايت حركات وتألق نجم موحا وحمو في سماء سياسة الأطلس المتوسط ، بالإضافة أنها كانت تكن لزيان عداوة قديمة . ومن ثم نشبت بينهم حروب ، لم تنته إلا بعد تدخل المخزن بتعيين موحا وحمو قائدا ، F,Berger، م.س. ص . 24 .

نزل بإفران الذي هو بين زيان وبني مجيلد * ، وهنا توفي . وأقطعه أرض إفران الأمير محمد الحاج الدلائي ، وأقره على ذلك المولى الرشيد .

واستطارت أحدوثة هؤلاء الشرفاء ، بمصاهرتهم لملوكنا العلويين ، من مولانا سليمان فما دون ، واعتقدهم البرابر زيان ، وبني مجيلد وبني مطير وغيرهم .

ومن جملتهم هذا الشريف مولاي عبد الواحد . وكان شجاعا ، وبطلا جماعا ، تسمع كلمته في هؤلاء البرابر ، وكان ذا ثروة عظيمة ومنتجع متسع ، بين القبائل المذكورة ، من محل قراره المسمى «بالتغزاز» قرب أكَوراي ، ببلاد كَروان ، على أبواب مكناس إلى ولماس ، على حدود إقليم الرباط . وكان إنضم إلى حوزته القبائل الآتية : كَروان الشرقية ، وبني مجيلد الغربية ، ومن زيان ايت رحو ، وآيت عمرو ، وآيت عبد الله ، والنصف من آيت موسي ، وآيت بلحاج ، من آيت اسكَوكَو ، وآيت مْعي ، وآيت بوخيو ، وكما كان له محل بالتغزاز من بلاد كَروان ، كان له محل آخر ببلاد زيان يسمى «الثرثرة» ، بأمسرسر .

فاتسعت ثروته وماشيته ، وصنع خيمة طنبها من الحرير . وهذه أسباب يطغى بها الإنسان فينزلق بها اللسان . وتحدثوا بأنه من هذه ، حنق المخزن عليه ، لأنه كان يشم منه رائحة الائتمار ، مما استلفت له الأنظار ، فنازلته المحلة الزيانية وقائدها محمد وحمو الدار ، فوقعت معارك كثيرة بناحية مريرت . وذلك بعد رجوعهم من الجهة الشرقية حوالي 1300هـ . وبينما المعارك دائرة رحاها في هذا البسيط ، توجه محمد وحمو للسلطان مولاي الحسن ، وهذا الأخير ببلاد السماعلة في أوبته من مراكش . وكانت ملاقاة سرية * ، وقصيرة ، وما كاد يستقر السلطان بعاصمته مكناس، حتى وصل عليه محمد وحمو ، وأمين المحلة ، السيد أحمد بن عباس الشامي . وهنا زود القائد المذكور بمحلة أخرى ، هي التي كان قائد فيلقها ، السيد البوخاري ، واستقرت بأدخسان .

وفي هذه السفرة ، تزوج محمد وحمو زوجته ، زينب للفاسية ، أم معمّي الذي يدعى ولد الفاسية . وبمجرد ما رجع محمد وحمو بهذه المحلة الجديدة ، وبسلاح جديد ، ونزلت بمحل المعارك مريرت ، دهش مولاي عبد الواحد ، والقبائل التي معه ، فانهزموا ، ورجع

---

*- "افران هذا هو مدشر بين حدود زيان وبني مجيلد ، ولكن عندما كانت الحماية ضمته السلطة الفرنسية لبني مجيلد ، فهو في مركز عين اللوح . وقد جاء على يمين الذاهب من خنيفرة لمكناس بعدمجاوزتك مريرت بنحو 15 كلم تميل إلى اليمين ، ونزله هؤلاء الشرفاء العلويون في عهد الأمير محمد الحاج الدلائي ، وهو الذي أقطعهم أرض إفران هذه . كذا ذكره الفضيلي في الدرر، ولم تزل به مدرسة عامرة بطلبة القرآن إلى هذه العصور الأخيرة ." اهـ مؤلفه .

* – "هذه الملاقاة ذكرها الأخ سيدي محمد المختار السوسي في المعسول " اهـ مولفه .

الشريف إلى مركزه بأمسرسر . وخلف جميع ما معه من متاع وزاد ومال وخيمة عظيمة ، حار في وصفها الواقفون عليها ، "وأفلت هو بجريعة الذقن" * .

رجع مولاي عبد الواحد لأمسرسر ، ثم جعل يفتل لبرابره في الحبل والغارب ، حتى تألفوا عليه ، كما كان أو أكثر . ولما سمع محمد وحمو بالجموع التي تألفت عليه، وأخذ عدته ، وبادره قبل أن يدنو منه من محل المعارك الأولى «مريرت» ، فيتقوى حزبه ويشتد أُلبه ، فبادره إلى امسرسر ، فهاجمه مهاجمة عنيفة ، واستمر القتال بين الفريقين ، ، فأصيب الشريف برصاصة مميتة ، وفر عنه ذووه ، وقبائله ، وأدرك ، وهو يجود بنفسه ، فلما عاين محمد وحمو مقبلا ، مد يده لكسائه ولف وجهه ، حتى لا تتراءى أعينهما ، فأشار محمد وحمو بعدم الإجهاز عليه ، ولكن بعض أتباع ابن أخيه والعايدي أجهز عليه . وكانت المعركة بمحل يسمى تاكسارت أُفْرِدَنْ .

وبهذا تمت صفقة الشريف مولاي عبد الواحد الأمراني بتلك الناحية ، وكانت وفاته حوالي سنة 1301هـ . وخلف أولادا وراءه ، أعرف من بينهم مولاي علي ، وكان ممن جاهد عند هجوم جيش الاحتلال بمقره بكَروان الشرقية ، وضواحيها ، ثم هاجر إلى زيان ، ونزل في كنف القائد محمد وحمو وأولاده ، وبروا به ، واعتنوا اعتناء كبيرا ، وتناسوا ما كان بينهم ، وبين والده من حزازات وفتن . ولم يلبث بزيان إلا يسيرا ، ورجع لبلاده وبها توفي حوالي 1373هـ. كما أعرف منهم أيضا مولاي العربي، وهذا تأخر. وبعد وفاة االقائد علي ولد حادة ، قائد كَروان الشرقية ، خلفه من بعده ، ولكنه لم يطل في هذه التولية حتى أخر . وبعد الاستقلال نالته شظيات من نيران حوادثه بدعوى أنه كان قائدا استعماريا ، فأهين في شوارع مكناس ، من بعض الفضوليين ، فحز ذلك في نفسه أشر حزازة ، حتى فاضت روحه بسبب ذلك ، آخر سنة 1376 يوافق 1956 .

كان مولاي عبد الواحد هذا بطلا مغامرا لا يعرف قلبه الوجل ، وكان لا يتأخر عن أي معركة معركة . وكان له أخ يتبرك به وكان ينهاه عن هـــذه المغامـــرة ، فيجيبه: «لا تخف علي» . فكان من أجوبة أخيه له الأخيرة : « الله الله يا أخي الثور الفحل الذي يساوم عليه ، في كل سوق لابد يباع في أحدها » . وفي هذا اليوم قال قد بيع الثور الفحل .

وهنا انتهت معارك الشريف مولاي عبد الواحد ، لتبتدأ من جديد مع آيت اسكَوكَو ، «مركز الحمام» ، برياسة قائدهم محمد أقبلي . فقد شهرها هذا القائد في قومه وتحصن بقصره تيطوين ، فحاصرته المحلة ، ومحمد وحمو ، حتى أذعنوا للصلح ، فاصطلحوا ، ونهضت المحلة راجعة

---

* – يقال أفلت فلان بجريعة الذقن، وأفلت جرعيعة الذقن، وجريعة تصغير جرعة، كناية عما بقي من روحه. فإن كان منصوبا فهو منصوب على الحال. وأفلت يتعدى، ويكون لازما، ويقال أيضا بجريعاء الذقن. الأمثال للميداني ص.14 .ج.2 ¯ اهـ مؤلفه.

لمعسكرها بخنيفرة . فلما كانت بتراب المرابطين ، إعترضوا سبيلها ، وناهضوها ، حربا فتحصنوا بمدشرهم «عزيزة» ، فحاصرتهم به وضربت المدشر بمدافع ، فحطمته وأذعنوا للصلح .

غــدرة برئيس الــمحلــة .

ثم واصلت المحلة سيرها للمعسكر ، فلما وصلت لآيت خوي ، استقبلتها هذه االفصيلة بإظهار الأفراح والزينة ، وطلبتهم بالاستراحة عندهم ، وتناول الغذاء ، وقصدها من ذلك كله الفتك بقوادها ، ولم تكن إلا المحلة جيشا وعسكرا ، ولم يكن فيها محمد وحمو ، ولا القبائل التي معه ، فساعفت المحلة رغبتهم ونزلت على اقتراحهم ، ففرقوها على عادة البرابر ، في الضيافة ، وتعاقدوا على أمارة بينهم ، يجعلونها ، فيفتك كل فريق بمن عنده ، وهكذا كان . بمجرد ما تراءت الأمارة بينهم ، شرعت كل فرقة تفتك بمن عندها من الجيش والعسكر .

ومن لطف الله بالوالد ، أنه كان داخل المدشر ، وبمجرد ما سمعوا هذا الفتك خرج من البيت الذي به، فاعترض سبيله أحد المخلصين المحبين، الذين سبقه خيره إليه ، وأدخله لبيته ، وفيه خزانة مملوءة صوفا ، فأخفاه فيها . ولما هرعوا إلى من في المدشر ليجهزوا عليهم وعليه بالخصوص ، لم يعثروا عليه ، فبحثوا ونقبوا أشد البحث ، والتنقيب ، فلم يعثروا له على أثر . فوصلت الصيحة لمحمد وحمو وللمعسكر وقامت ضجة وهيعة عظيمة ، حيث قتل كثير من الجيش والعسكر . والباقي لازال مشردا بين الهضاب والشعاب . ومن جملة الباقي ، رئيس المحلة الذي لم يعثر عليه ، لا حيا ولا ميتا. فقام المعسكر وقعد ، وبعث الطلب في البحث الجاد علانية وخفية ، وبث الجواسيس معهم بطاقات بإمضاء أمير المعسكر ، صديقه المخلص ، السيد أحمد الشامي فيها " إذا وصلك كتابي هذا وأنت على قيد الحياة سالما فطمّن أفكارنا بخط يمينك" . وهكذا ذهب أحدهم ممن لا يشكون فيه حتى دخلوا المدشر وتجسس ، فاتصل بهذا الرجل نفسه فائتمنه ، وأقر له بالواقع ، وأدخله على الوالد ، فمكنه من الكتاب ، فوقع عليه "إني بخير ، وإذا عسعس الليل ركبت مطية" ، وهكذا كان .

ووصل إلى المعسكر ليلة ذلك النهار ، بعد أن مكث ليلتين ، أو ثلاثة مختفيا . وكان الذي أخفاه يقال له احماد أمجوظ . وقد عرف له الوالد هذه اليد ، فأخرجه من ذلك المدشر ، وأسكنه بخنيفرة . ولم يلبث إلا يسيرا فتوفي ، وعندما أدركت ، وجدت ولدين له ، كأنهما من أقربائنا ، برورا ، واحتفاء بهما ، وبأسرتهما جميعا . وبقيا على تلك الحال حتى جاء الاحتلال .

بعد هذه الماجريات ، بين المحلة والقبائل الزيانية ، ومجاوريها ، ظهر لهؤلاء البرابر أن يرضخوا للمخزن ، ويطلبوا مودته عن طواعية . يظهر هذا من هذا الكتاب السلطاني للشريف المتزعم السيد الحسين الشبوكي ، جوابا عن كتاب منه في الموضوع ، والسبب في هذه الاستكانة ما عاينوه ، في جانب محمد وحمو من قوة بالمحلة السلطانية ، وخضد شوكة كل من رام مناواته ، أو معاندته . ثم ها هو من حين لآخر ، يتصل بسلطانه . فقد اتصل به لما

كان بتادلا ، في قبيلة السماعلة . وها هو يلتقي به مرة أخرى في أبي الجعد في رحلته من مراكش لمكناس ، في 8 شعبان 1304 وأقام سنة العيد ، عيد الفطر بالزدانية ، من بلاد بني عمير ، ثم دخل لأبي الجعد ، فوصل عليه هناك . وهذا نص الكتاب الذي يشرح المقصود .

بعد الحمدلة والصلاة على رسول الله والطابع الصغير ، محبنا الشريف الأرضى، السيد الحسين الشبوكي ، أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد : فوصل كتابك ، معلما بما أصاب بني مجيلد ، ومن معهم من زيان ، من الرعب والخوف ، بسبب ما أظهره الله من الفتح والظفر ، فيمن أكثر منهم قوة ، وازدادوا هما بالقحط الحال ببلادهم ، وأشرت بالمرور عليهم في الإتيان من الرباط ، والتخييم بالمواضع التي عينت لأخذها بمخانقهم ، واعتدرت عن التنبه على ذلك بكون الحامل له عليك ، هو مزيد المحبة والنصح وصار بالبال .

أما كتابك بهذه الإشارة فلم يرد إلا بعد العيد بستة أيام ، ونحن بمكناس ، من مدة عشرة أيام ، وكان من حقك أن تنبه على ذلك، حيث كنت بحضرتنا الشريفة ، مع الخديم محمد الزياني ، ونحن ببوجعد ، وعلى كل حال ، فلتبين لنا العمل في كيفية أخذهم الآن ، بعد الدخول لمكناس . وعجل بالجواب لكونهم كرروا الكتابة بطلب الأمان، وتولية العمال ، وإظهار مآثر المخزن ببلادهم ، مظهرين الاذعان والانقياد ، وألحوا في طلب ذلك . ونحن نسوفهم ، ريثما نعرف ما عندكم .

وقد كتبنا بمثله للخديم محمد وحم ، فعجلوا لنا بالجواب ، ليظهر ما يكون في أمرهم بحول الله ، وأما اعتذارك عن التنبيه على ذلك ، بأن الحامل له عليك هو المحبة فذلك المعروف فيك ، والظن بك ، ولا تعتذر ، إلا إذا كنت على خلاف هذه الحالة . سددك الله والسلام . في 16 حجة عام 1304 " إنتهى .

ظهور مصداق هذا الكتاب وأثره بعد .

يظهر أن البقية التي بقيت تناغي في هذه القبائل الزيانية ، والمجيلدية ، أسلست القياد في هذه الفترة من آخر سنة 1304 إلى آخر سنة 1305 ، وأن ما كتب به هذا الشريف ، وربما حتى محمد وحمو ، صادف من السلطان محلا فتربص في عاصمة الملك مكناس الزيتون سنة ، يستعد للتوجه لهذه القبائل ، ويستطلع بنفسه آثار محلته ، وإخلاص خدامه ، محمد وحمو وقوادها فكانت :

رحلة مولاي الحسن لآيت أمالو .

لم يكد يصل اليوم الخامس عشر من رمضان عام 1305 حتى رأينا السلطان بمحلته العظيمة ، يتحرك من مكناس متوجها لهذا الصدد الشاق من مقاومة برابر هذا الأطلس ، فيتلقاه قائده المخلص محمد وحمو ، في أزيد من ألف فارس . ومعلوم أنه لا يتيسر له هذا القدر من الفرسان إلا إذا كان تحت قيادته جميع قبيلة زيان على الأقل . ولما لهذه الرحلة من العلاقة الشديدة بهاته القبائل ، وما لها من أحداث جلى ، نحب أن نسطرها هنا نقلا عن مؤرخ

الدولة العلوية شقيق الروح سيدي بن زيدان ، ونعلق عليها تتميما لفائدتها قال (ج.2.ص.255):
"ثم نهض المترجم ، يعني السلطان المولى الحسن من العاصمة المكناسية في التاريخ المذكور يوم الأحد 15 رمضان 1305 ، بجنود لا قبل لهم بها . ولما حل بجنوده بالمحل المسمى ب سيدي بورمان * ، وجد في استقباله هناك القائد محمد وحمو الزياني ، فيما يزيد على الألف فارس من إخوانه . ولما أشرفت الجلالة السلطانية عليهم ، وأشرفت أنوار محياه بحيهم ، ترجل المذكور ، وأدى التحية المخزنية كما يجب ، وقبل الركاب كبقية إخوانه ، وأعلنوا بالسمع والطاعة ، والتمسوا صالح الأدعية ، وخامرهم من الفرح، والارتياح ما لم يكن في حساب، وأحدقوا بالموكب الشريف ، يتمسحون ويتعلقون بالأذيال ، حتى حالوا بين السلطان وبين جل الخاصة من حاشيته .

والسلطان يهش ، ويبش في وجوههم ، ويظهر من الانشراح والتنازل مازادهم إغراء وإغراقا في التهتك في حبه ، والميل بالقلب ، والقالب إليه . ثم بعد قضاء وطرهم ، من التبرك واستجلاب صالح الأدعية ، امتطوا ظهور خيلهم ، وتقدموا أمام المحلة السلطانية ، إلى أن حلوا بالمحل المعروف تيكَريكَرة . فخيم السلطان هناك إلى أن أقام سنة عيد الفطر .

وبعد انتهاء حفلة عيد الفطر ، في غاية الأبهة ، والفخامة ، نهض السلطان في جنوده المجندة ، إلى أن حل بالمحل المعروف بإمين خنيكَ . والبرابر يقولون إمين خنيكَ أي فم خنيكَ ، وهو شعب منه يبتدأ في صعود لقمة تسمى فج الزاد وهذه الشعبة هي المعروفة بحْجِيرت ، ومنها يصعد في جبل به تعاريج ، ومرتفعات بها غابة من الأرز الجميل الذي يغمره الثلج أيام فصل الشتاء ، وتنقطع فيها السبل بسببه أياما ، وعند انتهاء الصعود ، يجد الصاعد نفسه في أعلى قمة ، بهذا الأطلس المتوسط بجبل يقال له "فج الزاد" ، علوه الفان ومائة وثمانية وسبعون مترو ، وبعد هذه الغابة تخرج إلى فسيح ، وهو بسيط ملوية الشهير ، وفي سفح ذلك الجبل جاءت قصبة الأشراف ، وهي المعروفة بيترز . والأشراف هم أولاد سيدي بوموسى ، وهي على 150 كلم من مكناس ، وعلى 50 كلم من ميدلت. وحدثني أعيان هؤلاء الشرفاء ، أنه لما نزل عليهم خرجوا برأسهم نقيبهم آنذاك ، مولاي عبد الرحمان بن عثمان ، فتطارحوا عليه ، وشكوا مما يلحقهم من ظلم بعض البرابر ، فأجابهم أني ما أسعى إلا لمصالحكم وإصلاحكم. ثم بعد رجوعه ، أمر بنقلهم للعواصم ، فأنزل طائفة بمكناس سيدي أبي زكرياء ، وطائفة بصفرو . وسيأتي تفصيل ما لهم ، عند الكلام على قريتهم إن شاء الله .

هناك ، باشا مكناس القائد حم بن الجيلاني في محاله . إذ كان المترجم " يعني المولى الحسن " ، مقدمه أمامه ، فوقعت بينه وبين بعض العتاة، مناوشة بالبارود ، انجلت عن قتلى وجرحى من الفريقين . ولولا أن المترجم أمدهم بأبطال وفرسان محلته سعيدة الطالع ، لكانت الهزيمة على المحال الباشوية ،

---

* - "لا يعرف محلا يسمى بورمان إلا المحل الذي وقعت فيه معركة مولاي الرشيد ومحمد الحاج أمير الدلائيين على نحو 15 كلم من خنيفرة ...." اهـ مؤلفه.

ولبقي هو أسيرا لديهم ، إذ قد ضربوا فرسه . ولما بقي راجلا أحدقوا به ، فأدركته خيل المحلة وشتت جموع البغاة. ولما مثل بين يدي السلطان ، وبخ وقبح فعله ، إذ كان مراده أن لا يخرج بارود من المحلة المخزنية ، ولو إبتداهم أهل الزيغ بالضرب ، حتى يحيط بهم محاله الوافرة العدة ، والعدد ، إحاطة السوار بالمعصم . ثم لما كان الغد نهض السلطان ، ونظم الجيوش ، أبدع نظام ، ودخل شعبة كبيرة شديدة الوعر ، وسط غابة عظيمة ، وجعل العسكر على يمينه وشماله بأعلى تلك الشعبة ، بحيث لا يغيب عنه كمين ولا آت . وأدخل المال والذخائر مع راية عبيد البخاري ، وأحدقت بالجميع خيول الجيش من مسخرين وشراردة ، ووداية . وقدم أمام الكل قبته وأخبيته مع فرسان ، ورماة القبائل التي كانت في معيته ، كزيان وكَروان ، وجعل وراء الجميع ، في الذَّنَب ، رئيس عساكره ، خاله أبا عبد الله محمد الصغير ، مع العساكر التي إلى نظره من خيل ورماة وعدد عديد من المدافع ، ثم سار السلطان في تلك الشعبة الطويلة العريضة حتى اقتطعها ، وخرج في فسيح متسع الأكناف ، وضربوا الأخبية واستراحوا ، ونزل السلطان تحت جدار قصبة هناك لبعض الأشراف ، ومدت فيهم أيدي السلب والنهب ، ووقع الضرب بالبارود ، ظنا منهم أنهم من أهل العصيان ، فخرج المترجم مسرعا ، وأمر بكف العسكر ، وسب وجدع ، وجبر كسر المبغوتين بافاضة سجال العطايا ، التي غمرتهم ، وصيرت الشرور في الحين لديهم سرورا . أما الخيل التي وجهها لإعانة كبير العساكر ، فإنها ما سارت غير قليل حتى وجدت العساكر مولية وجهها للمحال السلطانية ، ظافرة منصورة ، بعد أن طمع فيها البغاة المتمردون . وحسبوا أن ذلك الذنب كله طعمة لهم باردة ، فعند مبارحة السلطان بما كان معه من العساكر ، والخيول ، والرماة «طبق وصفنا» ، تلك الشعبة المذكورة أشرف المفسدون على ذنب الجيش من قنن تلك الجبال . ثم إن رئيس العساكر لما عاينهم أمر من معه من العسكر بسلوك تلك الشعاب. ولما رأى البغاة العسكر ينزل من الأعالي ، ظنوا أنه ذاهب لحال سبيله ، فصاروا ينزلون إليه من صياصي الجبال ، كأنهم جراد منتشر ، فهجموا عليهم ووقع القتال ، بين الفريقين ، وسار العسكر يتأخر ، كأنهم منهزمون ، فازداد طمع العدو فيهم، فلم يشعروا حتى قطع العسكر من خلف ، وصار الكور ينصب على البغاة ، ودهمتهم الخيول ففروا ، ووجدوا رماة العسكر قد عمروا سائر المسالك، فاثخنوا طعنا بالرماح ، وضربا بالسيوف ، وتشتتوا شذر مذر ، فسر المترجم بذلك سرورا ، ليس عليه من مزيد وحمد الله وشكره .

على ما منح من الفتح والظفربمن حاد الله ورسوله ، وطغى وفجر. وكتب بذلك الظفر لسائر أقطار رعيته . وإليك نص ما كتب به لباشا مكناس : "بعد الحمدلة والصلاة والتحلية ، حمو بن الجيلاني وبعد ، فإننا بحول من بيده الفتح ، والنصر ، والظفر ، والتمكين ، والحول ، والقوة ، والطول المكين . لما نهضنا من بعض المرحلات التي بغضون جبال فساد بني مجيلد ، وخرجت المحلة سالمة من شعب غاباتهم الصعبة ، زاغ من أراد الله هلاكه منهم ، في هاتك الشعبة ، فناوشوا بعض من بقي مع أثقال المحلة ، بقتال فاشل " الخ ، ما جاء في هذا الكتاب المؤرخ ب 15 شوال 1305 صحيفة 152 جزء 2 .

ثم قال سيدي بن زيدان متمما رحلة السلطان : " ثم نهض المترجم في جنوده وسار إلى أن وصل إلى المحل المعروف ببولعجول* ، مدشر كبير محصن ، غاية التحصين ، أمامه عدة مداشر متفرقة ، في بسائط ذات خصب ، وعيون دافقة ، وحراثة متسعة . وهناك أوقع بتلك القبيلة الشاردة عن الطاعة ، المشوشة للراحة العامة ، المعدمة الأمن في السبل ... ثم وصف كيفية الإيقاع بهم ، إلى أن قدموا الطاعة ، وأذعنوا لإعطاء ما وظف عليهم ، فعفا عنهم الخ ، وكتب السلطان بذلك لصنوه مولاي إسماعيل ، خليفته بفاس ، بتاريخ 18 شوال 1305 ، يقول فيه : إنا لما خيمنا "بملوية" بالدار بالمرحلة الثالثة ، عرجت المحلة على قصور الصلحاء من بني مجيلد ، فعمدت لأكلها ، ظنا أنها من قصور الفساد ، وأنها المقصود من ذلك الناد فوجهنا من جيشنا السعيد من كفهم عن ذلك ، حتى صيرناهم في ظلال الأمن قائمين ، وفي قصورهم مطمئنين ، وفي أثناء ذلك توجهت الطوبجية أمام فساد بني مجيلد ، فوصلوا إلى قصر من قواهر قصورهم ، سمي إغرم حسب ابن زيدان ، يقال له بولعجول. وبه نزلت المحلة السعيدة ، وبالقصر المذكور مدخراتهم ، وأموالهم وأمتعتهم . فناوشوهم بالمضاربة ، وأعلنوا بالمحاربة ، فتضاربوا معهم ، من ذلك القصر . ولما بلغنا ذلك ، وجهنا لهم المدد من العساكر المنصورة ، وجيوش الله الموفورة ، فأذاقوهم المرائر ، وأرهقوهم بالقسر ، وقطعوا منهم رؤوسا ، واستأصلوا منهم نفوسا ، وقبضوا على مساجن ، وأذاقوهم مرارة الحيْن في الحين . وصاروا يأتون بالرؤوس ، والمساجين إلى أن جن الليل ،فأمرنا هم بالرجوع إلى الصباح ليرتب أمر ضربهم على مقتضى الكفاح ، فإذا بمن بقي في مكامن القصر ، فر منه ، وتركه ، بلقعا ، ولم يبقوا منه فردا ولا جمعا . فأمرنا بهدمه ، فهدم حتى صار دكا ، ولم يترك له صورة ولا تركيبا مرتكبا . وأبقيناه عبرة لمن اعتبر ، ولكل من له عقل مزدجر ، في كل ورد وصدر . وذلك بعد أن أخرجت دخائره ، واغتنمت أوائله ، وأواخره فكان بحمد الله فتحا مبينا وظفرا ، وتمكينا . هذا ولم يكن لنا غرض في قتالهم في ذلك اليوم ، لولا ابتداؤهم به ، ولكن الله خذلهم ، ومزقهم ، وبددهم ، ونحن على نية استئصالهم بحول الله بعد القبائل التي أمرنا باجتماعهم عليهم ، وهم خدامنا زيان ، وشقرن ، وآيت يحيى ، وآيت يزدكَ ، وايت يحمد ، وآيت احديدو ، وأجلناهم بذلك أجلا ، كاد إلى الانصرام "الخ . ما به من ختم بالدعاء والتسليم وفي 18 شوال 1305* ثم قال سيدي بن زيدان: "ثم نهض المترجم من

---

*- "بولعجول من قصور بني مجيلد، على نحو 135 كلم من مكناس ، في طريقك لتافيلالت عبر آزرو ، على 40 كلم من ميدلت ، في طريقك لمكناس ، ومنه تخرج لبسيط ملوية ، وهو ما يعنيه بقوله :"بسائط ذات خصب" ولكن عيون الماء بها قليلة" اهـ مولفه .

*- "يظهر من هذا الكتاب نكسة الكتابة والأدب في هذا التاريخ أو نكسة الكتبة. فهذا الأسلوب في هذه الرسائل أسلوب بارد ، فأين أنت من أسلوب أمثال أكنسوس وابن ادريس ، وأشباههما الذين كانوا بالحضرة الملكية آنذاك."اهـ مؤلفه

بولعجول ، وسار إلى أن خيم بعين سرور* التي كانت بها واقعة السلطان مولاي سليمان ، فتقدمت له من قبيلة اشقيرن فرقة يقال لها آيت سخمان ، تقدمت له فطلبت منه أن يرسل معها شردمة من الخيل تستوفي منهم ما بذمتهم من الواجب الشرعي . وقد أظهروا من الطاعة ما لا مزيد عليه . وهم علي دخل مصممون على الغدر ، والأخذ بالثأر لإخوانهم بني مجليد ، فأسعف المترجم رغبتهم، وعقد لابن عمه البركة المفضال مولاي سرور بن ردريس بن سليمان السلطان . ثم نهض السلطان إلى أن حل بالمحل المعروف باغبال تسردنت وهناك وجد المهراس الصيني الكبير ، الذي كان بقي ثمة من عهد السلطان سليمان ، في الوقعة المنبه عليها آنفا ، فأمر المترجم بحمله لمكناس ، ثم نهض وسار إلى أن خيم بالمحل المعروف بجنو*.

وهناك بلغته واقعة مولاي سرور . ذلك أن مولاي سرور ، لما ذهب معهم ، أظهروا من الفرح والابتهاج ما أدلوه به ، ومن معه من الجيش بغرور ، ففرقوا الجيش ولم يبق مع الشريف إلا نفر قليل . ولما جن الليل ، قتل كل من عنده ، وقتل الشريف وفروا إلى معقلهم الخ . ما في تاريخ ابن زيدان .

وذكر بعدها ، كتابا من السلطان لخليفته ، وصنوه مولاي إسماعيل ، يبين له الحوادث وكيف جرت . استغنينا عن ذكرها ، لأنه كتكرار للقصة ، وصرح في الكتاب بأن هذه الفعلة كانت بإيعاز من سيدي علي بن المكي أمهاوش .

غدرة أيت سخمان بالشريف مولاي سرور .

عندما ظهر محمد وحمو في ميادين المخزن، وحظي بعناية من السلطان المولى الحسن ، كان بالطبع أن يستلفت نظر غيره من قبائل آيت أمالو سواء من إخوانه ، قبائل زيان أو غيره ممن ينافسونه . وكان غرض السلطان ، أن يهنأ باله من هذه القبائل المعصوصبة ، التي لم يخضد شوكتها ، إلا أبو النصر إسماعيل بعد التي واللتيا . وقلنا سالفا إن هذا مما جعل السلطان الحسن ، يشد يده على محمد وحمو . ولكن من أين له أن تجمع الكلمة كلها عليه ، والقبائل شديدة الشكيمة ، فيجب التفكير في شيء . فهل يمكن ضم كل هذه القبائل : زيان ،

---

*- قوله "خيم بعين سرور" لا ندري ما المراد بعين سرور هنا . هل المراد عين وادي سرو ، الشهير ، وهو الظاهر أو المراد بها غيرها . فإن كان الأول ، فهو لا يتفق مع الواقع ، لأنه إذا وصل إلى بولعجول ، فقد خلف عين سرور وراءه بنحو 25 كلم " . اهـ مؤلفه .

*- "بعد البحث الشديد وبجال هذه البلاد ، عن موقع هذا الرسم ، وتطوافي بهذه المواضع ، لم أعثر على المحل الذي يسمى بهذا الرسم جنو . وغاية ما عثرت عليه محل يسمى "أجْنون" ، محل ببلاد اشقرن ، بعد ما تتجاوز أغبالو اسردان بنحو 25 كلم ، متجها لبلاد اشقرن ، في الطريق ، هذه التي سلكها المولى الحسن ، متجها نحو خنيفرة، أو قصبة أدخسان التي نزلها بعد . وهذه طريق الآن معبدة جائية من خنيفرة على القباب ، وإن شئت على تادلا ، وعلى بني ملال نحو تافيلا لت، عبر الأطلس ، ومدينة ميدلت ، وهذا المحل في مرتفع عالي ، قرب أعلى قمة الأطلس المتوسط ، تسمى تيزنْتانوت أفيلال ، أي كدية الفيلالي علوها 2070 ".

بن مجيلد ، إشقرن ، آيت سخمان ، يمكن ضم هؤلاء كلها لراية محمد وحمو ، وانضوائها تحت كلمته ؟ .

الظن أن ذلك عسير ، ولكن يمكن أن يكون شيء آخر تدريجيا ، وهو أن يجعل لهم قوادا صغارا ، يُستشار في شأنهم محمد وحمو ، ويؤخذ رأيه فيهم عسى أن يظنوا به خيرا ، أو أن له يدا في تسميتهم ، فيكونون عند إشارتهم ، وهذا ما كان .

استشار السلطان قائده [1] المخلص ، فيمن يوليه على هذه القبائل ، فأشار عليه بتولية القائد بوعزة ، على آيت عبد الكريم ، والقائد اسماعيل ، على ايت مشان ، والقائد علي على آيت بويعقوب ، والقائد غودان على آيت احماد وعيسى ، والقائد موح وبوعزه على ايت إسحاق ، والقائد ابن زياد على ايت إيحند ، والقائد الحاج مزوغ على ايت هودي . وهذه قبائل مهمة ، لكن بقيت فخذ من اشقرن ، لم ينضم إلى هذا الحلف ، وهو فخذ ايت يعقوب وعيسى . وكانت كلمته لزعيمهم حدو والعريف . كما بقيت قبيلة ايت سخمان أهل أغبالا ، بقيت كلها لم تنضم لهؤلاء . فانتهزها فرصة محمد والعريف، فانضم لقبيلة آيت سخمان ، فبقيت حزازات بين هؤلاء ومحمد وحمو . وفي هذه الرحلة الحسنية ظهر أثر هذه الحزازات .

ذلك أن السلطان ، قبل أن يحل بملوية ، وجه محلة لآيت يعقوب وعيسى ، وآيت سخمان ، يرأسها العربي بن حمو ، فنزلت على تخوم القبيلتين ، بالمحل المسمى المسّيد فوقعت معارك طفيفة ، وأخيرا تقدموا لرئيس المحلة ، مظهرين توبتهم ، وقاصدين المثول أمام السلطان ، فجاء معهم لمحلة السلطان ، وهو مخيم بملوية فجاءوا ، ومثلوا أمام السلطان ، وأظهروا توبتهم وندامتهم ، وهنا ظهرت أزمة أخرى ، وهي أن مثولهم أمام السلطان ، كان على غير يد محمد وحمو ، وكان في مثولهم أمام السلطان إظهار توبة نصوح ، وإذعان لأداء ما وظف عليهم .

فوعدهم السلطان خيرا . وعندما تذاكر مع محمد وحمو في هذا ، لم يرقه شيء منه ، وقال للسلطان إنهم يبيتون على غدر، ولا يوثق منهم بكلمة . ومن الغد مثلوا ثانيا أمام السلطان بالصفة المتقدمة ، فقبل منهم السلطان قولهم ، وأحالهم على الوزراء ، في تقدير الموظف ، وكيفية استخلاصه . فقدرت الحكومة الموظف بعشرة آلاف ريال . وهنا ظهر لهم أن هذا شيء ثقيل جدا ، وأن لمحمد وحمو يدا في هذا التشديد، فطلبوا أن يوجه معهم ممن يستخلص منهم الموظف ، من بعض قواد المحلة ، إظهارا لسلطةالمخزن وإرهابا لمن يستعصي عند الأداء ، وإسراعا به للسلطان ، الذي استعجل النهوض من ملوية ، بل مغادرة هذه القبائل لتعييد عيد الأضحى للعاصمة المخزنية .

---

1 - بالإضافة إلى مهمة المستشار للسلطان في "شؤون الأطلس المتوسط " ، كان القائد موحا وحمو يعين ويعزل القواد بإسم السلطان ، أنظر سعيد كنون: La montagne berbère, op.cit, p. 81

وهنا توقف الأمر على مشورة محمد وحمو ثانيا ، في توجيه بعض القواد ، فصمم على أن لا يوجه أي واحد معهم ، وهنا وقف السلطان كالمحتار في الأمر ، وأخيرا أظهروا غاية من الخنوع ، والخشوع والتوبة النصوح . فرأى السلطان أن المصلحة هو تلبية طلبهم ، وأراد أن يجعل الحجة عليهم قائمة بجنوحهم لطلبتهم ، بعدم تولية أي قائد ، ربما لا يتفق مع فكرتهم . فرأى أن يلطف صعبهم ، ويلين قناتهم ، شريف مرموق كبيربعين الإحترام والمهابة ، ذلك هو عمه مولاي سرور بن ادريس بن سليمان فكان من قدر الله توجيهه معهم ، في جند يسير . فلما رأى محمد وحمو هذه التلبية بهذه الكيفية ، وكذلك قواد المحلة الخنيفرية ، رأوا هذا الشريف متوجها معهم ، غصوا بريقهم ، وجرى المقدور على الشريف ، والمحلة التي معه . فإنهم ، بعد ما وصلوا بهم إلى قبيلة ايت سخمان ، فكروا تفكيرا سيئا قبيحا جدا ، فكروا في اغتيال الشريف ومن معه ، وهذ ما كان .

وصل الشريف ومن معه، فدبروا المكيدة، وقسموا الجند الذي مع الشريف الى أقسام ، كل طائفة ذهبت بثلاثة ، أو أربعة ، بقصد الضيافة ، وتواعدوا على وقت معين بالفتك بهم ، كل يتك بمن عنده ، ونفذوا الخطة رميا بالرصاص . وكان مولاي سرور كبش الضحية ، رحمه الله رحمة واسة ، وذالك بأغبالا آيت سخمان . وقد تزعم هذه الفعلة القائد سعيد ولد تا حمّاد ، والقائد وهنين ، وهما من كبار أيت سخمان .

وعندما وصل السلطان للمحل المسمى "أكنون" المشار إليه ، بلغته الفعلة الشنعاء، فاستاء استياء عظيما ، وخصوصا باغتيال عمه ، واغتم لذلك عما كان ينفث فيه روحه . وهنا تبين له ، زيادة على ما تقدم ، نصح محمد وحمو وإخلاصه ، وبعد غور نظره ، مما زاده فيه غبطة ، واستمساكا برأيه .

وكان رأيه المرجع في كل هؤلاء بعد ، فحنق حنقا شديدا على أنداده أيت يعقوب وعيسى . فأشار على السلطان بتأديبهم ، فتوجهت لهم المحال إلى خيامهم ، ومداشرهم فقتلت ، وأسرت ، وقطعت رؤوسا منهم ، فكانت نكاية عظيمة لهم . أما أصحاب الفعلة قبيلة آيت سخمان فقد فروا [1] ، إلى الأطلس الكبير ، وأوغلوا في جبل العياشي ، وداخلوا آيت حديدو ، وآيت مرغاد ، وساروا حتى أطلوا على صحراء تافيلالت ، فلم ينلهم من هذه العقوبة الصارمة أذى ، وجاء قول الشاعر :

---

1 – ذكر الجنرال كَيوم أن الحملة التي جهزها السلطان ضد آيت سخمان ، انهزمت بالمكان المسمى "المعراض نسيدي علي" ، وأن موحا وحمو الذي كان من المقرر أن يمر بالمسيِّد ويحتل أغبلا ، قبل أن يلحق بالمحلة السلطانية ، اعتذر للسلطان ، ولم يشارك في هذه الحرب . وبعد ذلك أوكل السلطان مهمة تأديب أيت سخمان لموحا وسعيد الوراوي ، فخرج هذا على رأس محلة يسانده جيش آيت الربع ، وكبد أيت سخمان خسائر فادحة في وادي أغزيف . وعلى إثر هذه المعركة عين موحا وسعيد قائدا على آيت يسري . أنظر
Les Bérbères ... op.cit, pp 52-53.

بجبهة العير يُفدي حافر الفرس*

كانت هذه الفعلة أواخر قعدة الحرام 1305 ، وبقي السلطان بضعة أيام ومحلته تعاقب آيت يعقوب وعيسى. وبلغ إلى أقصى حدودهم بالمسيد ، وأخذ منهم مساجين ، ثم انقلب راجعا ، سالكا طريق القباب ، "مركز آيت مشان" ، أوائل الحجة ، ومكث ثمة إلى أن عيّد عيد الأضحى به ، وتشرد ما بقي من آيت يعقوب وعيسى إلى تادلة ،حيث تجمعوا بمحل يقال له «غفو» على ضفة نهر أم الربيع الغربية ، قرب قصبة تادلة ، وقبالة لها . وفي الأيام التي كان السلطان بأدخسان ، جاءت فرقة من ايت يعقوب وعيسى ، تتشفع في المساجين ، فلم تجد أذنا صاغية .

توجيه المعسكر الزياني لآيت سخمان واشقرن .

عندما أنهى السلطان شعائر العيد ، وعزم على الارتحال ، نحو عاصمته الإسماعيلية ، جمع عليه محمد وحمو وقواد المحلة الزيانية ، يرأسهم والدي . وقد تبين له إخلاص محمد وحمو ، وقواد المحلة التي معه ، فجمعهم وتذاكروا في الشؤون السياسية ، وحادثة مولاي سرور الشنيعة . وشكر لمحمد وحمو إخلاصه ونصحه ، وصنيعه . وكذا قواد المحلة ورئيسها ، الذي لا يألو جهدا في إخماد نار كل حرب وحسيسها ، وعرف جلية أمرهم ، حيث حذروه من توجيه عمه مع الفئة الغادرة أشد الحذر ، ولكن لا ينفع حذر من قدر ، فذهب الشريف ضحية من بيت على مكيدته بمكره، حتى كانت منيته على غير فراشه ، وفي غير وكره ، في شواهق من جبال عوال ، مما يؤذن بكساد الفضائل ، والمعالي . وإزراء [1] الوضيع [2] برفيع النسب ، وعريق المجد العالي . وفي هذا الحال ، والدمع ترقرق في عين الكل أو سال ، مد الملك يده لذلك الجمع وآخى بينهم ، وعاهدهم على الذب عن حمى الملك العلوي ، والدفاع عن رايته الشريفة . فشدوا عليها يد الظنين [3] ، وكانت عهودا مسؤولة في أعناقهم . عرفوا عقودها الموثوقة ، بيمين ملكهم الشهم ، فرجعوا بها لا يعرفون إلا الوفاء لها ، أو الموت دونها ، وهكذا كان ممن لهم ضمير حي وعقيدة راسخة ، لم تزحزحهم عنها زخارف الحياة الدنيا ، ولا ملذات النعيم ، ولا الوظائف المثرية ، بالمراسي بالعتبة المخزنية ، واقتعاد الكراسي ، التي طغت فكرتها آخر أيام هذا السلطان نفسه ، وكل أيام السلطان عبد العزيز . ألا تدرون من بقي على هذا العهد بهذا الوصف من أولائك القواد ، قواد الأراحي ، قواد الفيالق ؟ لم يبق من ذلك إلا محمد وحمو ، بطبيعة الحال ، الذي هو مقره ومركز عزته ، ولم يبق من غيرهم

---

*- " البيت لأبي الطيب المتنبي ، يمدح عبيد الله بن خرسان وتمامه : " يفدي بنيك عبيد الله حاسدهم بجبهة العيْر ." يريد ما شرف في الحقير يفدي أحقر ما في الخطير." اهـ مؤلفه .

1 – التهاون والاحتقار ، ابن منظور ، المصدر السابق ، مادة زرى .

2 – الخسيس الدنيء ، نفسه ، مادة وضع .

3 – البخيل ، أراد به هنا التمسك بإخاء من يتمسك بإخائك . نفسه ، مادة ضن .

قواد الفيالق القادمون إلا رئيسهم ، والذي الذي لم يبارح المعسكر الزياني إلا عندما احتلت الدولة الفرنسية خنيفرة ، سنة 1332، فكان ممن صدق عليه قول الله تعالى : «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر» [1] . أما رفقاؤه ، قواد الفيالق القادمون معهم ، فقد توفي منهم البعض في هذه البلاد الزيانية ، وهم اثنان أو ثلاثة ، أما الآخرون فكلهم رجعوا لطرق الأبواب المخزنية للوظائف العالية .

فلله أرباب القلوب الصافية ، ذات العهود الوافية ، والضمائر النقية ، في الهمم العالية ، التي صبرت وصابرت ، ورابطت في سبيل الله ، وثابرت لأن ذلك يرونه من حقوق الله ، التي يجب بها القيام ، ويراها دفاعا عن راية الإسلام المتمثلة في الخليفة الإمام . وقد نقل سيدي ابن زيدان هنا كلام الأئمة الأعلام في الموضوع. وأن هذا من القتال المشروع ، تركناه اختصارا . فليراجع في محله من تاريخه الأعلام جزء ثاني صحيفة 258 .

بعد هذه المعاهدة ، ارتحل السلطان قاصدا عاصمته الإسماعيلية ، فارتحل من أدخسان ، إلى تانفنيت بقرب تراب المرابطين ، على نحو 20 كلم من خنيفرة ، ثم إلى مريرت على 30 كلم من خنيفرة ، ونزل في محل بها يقال له «ألوزْكَر» ، [2] ، أي قلب الثور ، ثم إلى أمغاص [3] على نحو 55 كلم من خنيفرة ، ثم إلى أداروج [4] على نحو 90 كلم منها ، ثم إلى أكَوراي على 35 من مكناس ،ثم إلى عاصمة مكناس .

رحل السلطان الحسن وترك مراجل القبائل الأطلسية تغلي : محمد وحمو وقبائله الموالية للسلطان ، والمحلة التي معه من جهة ، وقبائل أيت سخمان ذات الفعلة النكراء ، وقبيلة إشقرن الموالية لها ، وخصوصا أيت يعقوب وعيسى التي نكبت بسببها من جهة أخرى . وما كاد السلطان يستقر بمكناس، حتى شبت حرب شعواء بين القبائل المذكورة .

وبقدر ما كانت قبائل زيان شديدة الشكيمة ، شجاعة وثباتا ، يعضدهم المحلة المخزنية بخنيفرة ، بقوة مسلحة وعتاد جديد ، بالقرطوس ومدافع أربعة : ثقيلان لا يتحركان إلا في الأيام الصعبة ، ومدفعان صغيران ، يتحركان مع المحلة غالبا إذا تحصن الند بمداشره .

بقدر ذلك كانت القبائل الأخرى لا تقل عنها شجاعة ، ورزانة ، وثباتا . وكانت معاقلها الجبلية حصينة ومنيعة ، وكان لهم وفيهم رجال يقودون المعارك . وهم القواد الذين كان عينهم السلطان الحسن أولا قبل حدوث هذه النفرة . فإن جلهم والوا إخوانهم اشقيرن للحلف الذي

---

1 - سورة الأحزاب : 22

2 - هضبة من الهضاب المحيطة بمريرت .

3 - يوجد هذا المكان على بعد 15 كلم من مريرت على الطريق الثانوية المؤدية إلى مكناس عبر أداروش .

4 - كذا ورد والصواب أداروش ، وهو منخفض كبير في بلاد بني مكَيلد ، تقدر مساحته ب 11.000 هكتار ، وقد أصبح الآن مزرعة كبيرة لتربية الأبقار .

يعقدونه بينهم ، كالحلف الذي كان يعقد بين القبائل العربية الذي يسمنوه الحمالات (1) كذاك الذي كان بين عبس وذبيان ، عندما عقدوا شروط الصلح بينهم بواسطة هرم بن سنان (2) والحارث بن عفو (كذا) ، فكانت حمالة بينهم وهو ما يتحمله الرجل . وكذلك كانت هؤلاء القبائل الأطلسية تتحالف ، ويسمون ذلك التحالف "تيكسة" أو أميدار . ويذكر عن هؤلاء البرابر حلف معقود أيام الشيخ اليوسي ، والعلامة محمد بن محمد المرابط الدلائي (3) ، وشمل جميع برابر فازاز. ولكن يستبعد أن يكون ذلك بموافقة الشيخين المذكورين ، لما فيه من مخالفة للشريعة . ولعلنا نسوقه بمناسبة لأن فيه فوائد تاريخية ، كمعرفة بعض رجالات أولائك البرابر، ورؤسائهم أنذاك .

بهذا الحلف ، كانت كلمة أولائك البرابر تتفق وبه وأمثاله ، استماتوا أمام محمد وجمو ، والمحلة السلطانية المرتكزة بخنيفرة ، فقاوموا أشد مقاومة ، واستبسلوا أصلب بسالة . وطالت الحرب أكثر من ثلاثين سنة ، لا يسكت فيها القرطاس ، إلا فينة فينة . فعندما تخضد شوكتهم ، وتضعف قوتهم ، يصالحون على أنفسهم عاما ، أو عامين ريثما يعاودون حياتهم الإقتصادية والاجتماعية . فتثار الحبائض وتتحفز الحقائد ، فتعود الحرب بينهم جذعة ، ثم تقرب الديارّ الديار من الديار ، وتطلق الرصاصة الأولى ، فإذا الحرب قد انتشر له الأوار والتهب في كل مرتفع لها نار ، وترجع من جديد حربا فتية ، لا ينفع فيها حذر ولا تقية ، تغري كل جهول منهم ، وطرير ، بمحياها المخبوء ، في وسمه الغرير ، حتى إذا تكشفت عن حقيقتها ذهب الغرير * وبقي الهرير *، وأصبحت كما ترددها الألحان ، من قول حسان :

الحرب أول ما تكون فتية	تسعى بزينتها لكُل جهول
حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها	عادت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء ينكر لونها وتغيرت	مكروهة للشم والتقبيل

وهكذا طالت هذه الحرب بين مد وزجر ، قرابة ثلاثين سنة من حوالي 1297 إلى سنة 1328 ، وهي آخر حرب بينهم لما رأوا الخطر الداهم من العدو المحتل المهاجم ، يوم رأوا الجيش الفرنسي على الأبواب ، وقد اتخذ للاحتلال السلالم والأسباب. وقد أطاحت هذه الحرب برجال كبار من الطرفين ، ومن المحلة الحسنية ، وبعض قوادها ، وآخر من أطاحت به

---

1 - الحمالة : الدية والغرامة التي يحملها قوم عن قوم ، مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء ، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ، ليصلح ذات البين ، ابن منظور ، المصدر السابق، مادة حمل

2 - من سادة الجاهلية ، وكان يضرب به المثل في الجود . توفي حوالي 608 م .

3 - هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي الشهير بالمرابط ، العالم الأديب المتوفي سنة 1089 هـ ، 1678م ، أنظر محمد القادري ، نشر المثاني ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 236.

* - "الغرير الحسن" اهـ مؤلفه

* - " والهرير الشيء القبيح ، وهذا مأخوذ من قولهم في المثل «أدبر غريره وأقبل هريره»" اهـ مؤلفه

من الأسرة المحزانية عقى نمْعمّي ، ابن عم محمد وحمو الشقيق، وكان مْن الأبطال الفرسان ، ومن قواد الفيالق القائد محمد السكرادي السوسي ، وهو القائد الذي خلف الحبيب باقه ، الشهير في فيلقه ، وكذا القائد السيد الرحالي ابن محمد الرحالي ، وهو الذي خلف ابن عمه ، القائد محمد ابن فائدة ، الرحالي الشهير .

بعد هذه الحرب الفاصلة ، التي وقعت سنة 1328 ، وبعد أن عاينوا العدو ، قد احتل أطراف البلاد ، كالدار البيضاء ووقعت معارك عظيمة بينه وبين قبائل الشاوية ، كان محمد وحمو، ذهب لخوضها مع قبائله الزيانيين ، كما احتلت بوذنيب من ناحية الصحراء ، فذهب بدوره سيدي علي أمهاوش وقبائله المنضوية تحت لوائه اشقيرن ، ومن لف لفهم ، فعاينوا أن الأمر جد ليس بالهزل . فعند ذلك هدأت ثورتهم، وسكنت سورتهم، وقربت بينهم الخطوب ، واليوم العبوس الشديد القطوب ، إنه العدو المساوم على الدين والوطن ، إنها والله وصمة لا يرضاها من ظعن منا ، ولا من قطن ، فيجب أن نتناسى الماضي ، وما كان به من أحقاد وتتألف الجيوش ، التي كانت تساق لبعضهم بعضا، وتقاد. وهكذا عادت الأمور بالمقلوب ، وتألفت للدفاع عن حوزة الدين ، وحمى الوطن القلوب ، وجاء مصداق ما قلته مما قدمته.

ووحدهم في الله دين وملة ووطد قرآن لديهم شعائره

ومن عجب من كان منهم مناويا أصارهم الإسلام قربى عشائره

فقاموا يلقون العدو الذي أراد أن يسترق ولدا أو يسرق بلدا ، بل جاء المثل السائر :" ثكلْها أرْأمها ولدا" .

استمرار العلائق الزيانية مع الملوك الثلاثة العلوية .

وإلى هنا فلندع فرنسا على الأبواب ، حتى نستوفي ترجمة محمد وحمو السياسية ، ونعقب عن أعماله الجهادية الخالدة الجهادية ، عن حوزة دينه ، وحمى وطنه فنقول : لم تزل هذه العلائق تزداد متانة ، ومحبة على تولي الأيام ، وتطورات الأحداث ، منذ اللقاء الأول والنظرة الأولى لملكه الحسن ، حوالي سنة ، حتى وافاهم نعي السلطان المقدس ، آخر سنة 1311 والإعلان بنصر مولاي عبد العزيز . وكان * هذا اليوم من أقتم الأيام على محمد وحمو ، وقواد محلته الزيانية . ومع ذلك لم يمنعهم هذا الحادث المؤلم ، من إظهار الزينة ، والأفراح بنصرة ولده السلطان الشاب مولاي عبد العزيز . فتأهبت المحلة في زيها ، وأخذ زينتها وحلتها الرسمية ، وخرجت إلى الربوة المسماة ربوة سيدي واعياط ، فقصفت المدافع ، وضربت الموسيقى ، وخرجوا صفوفا صفوفا ، ومعهم قائد القبيلة محمد وحمو ، وإخوانه . ثم انقلبوا إلى المسجد لقراءة ظهير السلطان الجديد ، وهنا حدثت فلتة القاضي ، الشريف مولاي إدريس ، الذي لما صعد المنبر ، تلكأ في قراءة الظهير ، وظهرت عليه

---

*-"كانت وفاة مولاي الحسن ساعة ليلة الخميس 2 حجة 1311 بدار ولد زيدوح بتادلا ." اهـ مولفه

بدائر استرابه [1] ، في نصرة السلطان . فقام إليه العسكر وأنزلوه من المنبر ، وصفعوه ، وكادوا يقضون على حياته ، لولا تدخل العقال من المحلة ، وكان هذا السبب في عزله عن وظيفته ، وفراره إلى سيدي علي أمهاوش ، حيث كانت له معه مصاهرة ، هي التي أوجبت له هذه الريبة .

وبعد قراءة ظهير البيعة ، رجع الكل آسفا حزينا ، يصيحون بكاء ، وعويلا على سلطانهم المحبوب ، لحد أن الفقيه القائد آلسيد الحاج محمد الزروالي ، لم يتحمل هذه الصدمة ، فإنه بمجرد ما دخل لداره ، وخلع بزته الرسمية ، حتى سقط للأرض جثة هامدة ، أسفا ، وحزنا على ملكه الراحل .

وبعد أيام ، توجه ركب من أعيان المحلة وقوادها ، وممثل عن محمد وحمو ، في بعض أعيان ، من إخوانه لمراكش ، بقصد المثول بين يدي السلطان الشاب ، مزودين بهدية سنية من غنم وبقر ، وخيل جيدة ، كالعادة ، في تقديم الولاء والإخلاص ، في صفة البيعة المعهودة ، وحضوا بالمثول بين يديه ، وبين الوزير الأكبر الشاد على أزمة المخزنية آنذاك ، السيد أحمد بن موسى [2] وأرجعهم السلطان بمؤونة المحلة وشيء من العدة ، التي هي أعز ما يطلبه محمد وحمو ، ويظهر أن الوفد لم يرجع بذلك الحماس الذي كان يرجع به أيام السلطان الحسن ، ولكن استمرت العلائق كما هي نحو ثلاث سنين .

ظهور فتور في العلائق

حوالي سنة 1314 ظهر فتور في العلائق المخزنية الزيانية . فما هو السبب ؟ من المعلوم أن أوائل السلطان عبد العزيز ، لم يبق لمالكها الشاب الطرير إلا نخوة الملك الفارغة ونخوته الخاوية كما قيل في مثله :

فتجبى باسمه الدنيا جميعا وما من شيء منها في يديه

أما المتصرف المستبد الحقيقي ، فهو الوزير الأكبر أحمد بن وسى . وأحمد هذا كان شامخا بأنفه معجبا برأيه، وكان يرى أنه يجب على محمد وحمو أن يراه دائما شاخصا ببابه، راكعا كأمثاله ، كبار القواد على أعتابه . ولكن البربري الأبي ، يرى نفسه بعيدا عن ذلك الاستخذاء ، الذي هو شبيه بالازراء ، وخصوصا أنه كان يسمع أن السلطان الشاب لا يأبه بالوافدين، ولا

---

1 - لعله أراد استغرابه .

2 - هو أحمد بن موسى بن أحمد بن مبارك المدعو "باحماد". ولد سنة 1257هـ-1841م. تولى حجابة الخليفة السلطاني بفاس ، ثم حجابة السلطان مولاي الحسن 1873-1894 ، ولما توفي هذا الأخير صار وزيرا أول (1894-1900) على عهد السلطان عبد العزيز .

كان أحمد بن موسى آية في الدهاء وحسن التدبير ومستبدا بالأمور ، حيث استحوذ على مقالد الحكم طيلة وزارته . وقد توفي بمراكش في سابع عشر المحرم عام 1318هـ-1900م . إبن زيدان ، الاتحاف ، المصدر السابق ج 1 ، ص . 372-415 .

يقابل أحدا أو لا يعلم الصادرين من الواردين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ، فإن أحمد الوزير ، كان مسيكا ، وحارسا على جمع الأموال ، فما كان يرى فائدة في توجيه تلك المؤونة التي كانت توجه للمحلة الزيانية ، والمواساة التي كان يواسي بها محمد وحمو من سلطانه فينة بعد أخرى ، لذا فإنه قطع المؤونة [1] على المحلة المذكورة التي هي واجبة ، فضلا عن المواساة التي هي ثافلة .

وهل هذه المعاملة من اللائق ، أو من التدبير السياسي الذي اتخذه الوزير ؟ وهل كان يجهل الوزير ، وهو الخريت والسياسي الكبير فائدة المحلة المرابطة على أبواب هذه البرابر والمكممة لأفواهها الفاغر ؟

كيف وهو العالم بثوراتها التي لا تنكر ، وإنها إن امتدت لا تبقي ولا تذر ، وقد شرب المخزن من كؤوس غزواتهم المرة ، وذاق من غصصها كم من مرة . فما استراحت وهدأت تلك الأوطان إلا بتلك المحلة ، التي جعلها بين ظهرانهم السلطان .

والوزير يتحقق ذلك ولا يجهله ، ولكن يظهر أن السبب في هذا الفتور، أو هذا الازورار ، هو زهو الوزير بشخصيته ، وإقبال الدهر عليه . فكان يرى أمثال محمد وحمو كذباب الأنف يقول له هكذا فيطير .

ولكن ماذا كان موقف محمد وحمو إزاء هذه المعاملة المهْلية [2] ، كان وقوفه وقوف الأوفياء . فهل يجمل به وهو الذي كان يقسم بشرف سلطانه الحسن أن ينبذ العهد أو ينسى الود ، وتراب قبره لازال مبلولا لم يجف ؟ كلا .

وهذا ما يقصه علينا هذا الكتاب ، من الوزير المذكور ، جوابا للشريف الشبوكي الزياني ، الذي كان عينا وأذنا للمخزن ، بتلك الاصقاع الزيانية ، والذي كان كواسطة دائما فيما يحدث . فقد همس في أذن الوزير ، بما يروج بين محمد وحمو والمحلة المخزنية ، التي قطعت عنها المؤونة . وهذا نص الكتاب بعد الحمدلة والصلاة والتحلية وبعد : وصل كتابك معلما بما بلغك من الادالة* العسكرية التي عند القائد محمد وحمو الزياني . إن قواد المائة لما رجعوا بلا مؤونة ، توجه إليه الاغوات*، وأخبروه أن المؤونة قد تعذرت عليهم ، وأنه إن أراد جلوسهم معه ، فيمونهم من عنده ، فأجابهم بأنهم لا يبدلون . وأمرهم بكتمان أمرهم ، وأنه

---

1 – استأنفت المؤونة للمحلة الزيانية على عهد السلطان عبد الحفيظ ، ولم تنقطع إلا سنة 1912 بعد توقيع عقد الحماية .

2 – مأخوذ من الانمهلال أي السكون والفتور ، نفسه ، مادة ، مهل .

*– "الادالة في الاصطلاح المخزني القديم هو المحلة أو الجيش الذي يكون مرابطا في بعض الثغور أو الواجهات" اهـ مؤلفه .

*– "والاغوات جمع أغا ، كلمة تركية المراد به قائد الارحى ، أو قائد الفيلق " اهـ مولفه .

سيجدد الكتابة على المؤونة ، فإن نفذت لهم ففذاك ، وإلا دفعها لهم من عنده . وأمرهم بكتمان أمرهم لئلا تسقط عنهم على الدوام . وطالبا إيصاء الباشا حم على إخوانك بخير ، وصار بالبال وعلى المحبة والسلام في 17 جمادى اا عام 1314 ، أحمد بن موسى لطف الله به" انتهى .

فهذا الكتاب نفسه عربون عما قلناه ، من شموخ الوزير بأنفه ، وإهمال أمر هذه الناحية المهمة ، فالشريف الكاتب ، وإن لم نطلع على كتابه ، فإن تلخيصه في الجواب يدل على الأهمية التي يحمل ذلك الجيش المخزني ، وقائد قبيلته ، والاحتياط الذي يحتاطه من هذه الهضيمة التي لا تحتمل ، فيجب كتمها حتى لا يتسرب خبرها في الأندية . فيصل لآذان القبائل المعادية ، وأنه سيواصل السعي ، حتى ترجع الأمور إلى نصابها ، وإن أدى ذلك إلى دفع المؤونة للإدالة من خالص ماله ، ولكن الوزير يجيب جوابا باردا ، دليلا على أنه لم يأبه بكل ذلك .

العلائق ترجع لمغانيها

لم تلبث هذه السحب أن انقشعت ، ورجعت المياه لمجاريها ، بعد وفاة الوزير أحمد ابن موسى فبإثر وفاته ، توفي أمين المحلة الزيانية ، السيد أحمد بن عباس الشامي ، فوجب إعلام المخزن بذلك ، وتولية خلف عنه ، فبعث محمد وحمو ولده السيد عباسا ، وكان في المراهقة ، وأوشك على البلوغ ، بعثه مع وفد من قواد المحلة ، وكبار قبيلته ، في نحو 300 فارس وزودهم بهدايا ثمينة وعظيمة . وكان من جملة الوفد أخت محمد وحمو المسماة شريفة . فوصل الموفد لدار المخزن ، وقوبل أجمل مقابلة ، ودخلت أخت محمد وحمو لدار الملك الشاب ، حيث بنت أخيها رابحة ، بنت محمد وحمو التي كان أهداها والدها للسلطان الحسن سنة 1305 ، وهو مقيم بأدخسان . فدخلت ووصلت رحمها بها ، وجرت المقابلة الرسمية. وتسمى ولد الأمين خلفا عن أبيه أمينا، على المحلة الزيانية ، رغم صغر سنه ، ورجع الوفد بمؤونة المحلة الزيانية وبهدايا نفيسة لمحمد وحمو ، كما رجعت الأخت بمثل ذلك من ملابس نسوية ، وحلي ثمين . فرجعت العلائق طيبة ، كما كانت أيام مولاي عبد العزيز بمراكش ، ثم كذلك بعد استقراره بفاس ، إلى أن نشبت ثورة أبي حمارة سنة 1320 الجيلاني الزرهوني . وهذه نبذة عن مبادئ وأوليات أبي حمارة الزرهوني ، من معارفه وأقاربه بمد شرهم أولاد يوسف بجبل زرهون . بوحمارة هو الجيلاني بن محمد الزرهوني اليوسفي الدفعي ، من مدشر أولاد يوسف ، أحد مداشر زرهون من فخذ أولاد إبن دفعة، قرأ القرآن بمدشره أولاد يوسف على الفقيه السيد الجيلاني ، وبعض مبادئ العلم ، وكانت فيه جرأة من صغره . فعندما كان طلبة الزراهنة ، يعملون سلطنة الطلبة ، كالتي كان يعملها طلبة القرويين بفاس، كان هو الذي يتزعم ذلك ، ويتولى السلطنة، فيأمر، وينهى ، ويولي ويعزل ، وربما كان عنده علم بالحدثان ، تعلمه . ثم رحل إلى فاس ، أواخر أعوام السلطان الحسن ، فاندفع في الخدمة المخزنية ، في ركاب الخليفة السلطاني بفاس "لعله مولاي عمر، ووجد في تلك الخدمة السيد المهدي المنبهي ، فحصلت بينهما صداقة . وربما كانا عند خليفة فاس من المحظوظين أو الملحوظين ، مما

جعلهما يتلكئان في مبايعة السلطان الجديد، عبد العزيز، مشيرين بمخدومهما الخليفة بفاس ، فبلغت بهما وشاية لداهية الوزراء أحمد بن موسى ، فأمر بسجنهما ، فسجنا بسجن الدكاكين بفاس ، وطال سجنهما وذات يوم قدم لهما طعام فيه كتف لحم غنمي ، فأكلاه والتفت المنبهي للزرهوني فقال :"أفلا تفيدنا من تنبؤاتك بما في هذه الكتف". فأجال فيه النظر ، وقال :"إن كان يصدق ، فإنك تكون وزيرا ، وأنا سلطانا . فقهقه المنبهي وجاراه الزرهوني في ضحكه. وما هي إلا أيام حتى جاء الأمر بتسريح المنبهي، فقال له الزرهوني :"أذكرني عند ربك" . سرح المنبهي ، ولحق بالمخزنية بمراكش، وتقرب من الوزير ، أحمد بن موسى ، ولكن "فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين" ، حتى رحل المولى عبد العزيز إلى فاس ، وجاء المنبهي مع مخدومه وزيرا ، وقد تحقق أول تنبؤات رفيقه الزرهوني . فعندئذ تذكر رفيقه الزرهوني ، هاجت له أطلال فاس ، وخاصة سجن الدكاكين ، ذكريات فاس الأولى ، ورفيقه تحت تلك الأطلال الشامخة ، الجيلاني الزرهوني ، فكانت له يد في تسريحه . فقصده الزرهوني بداره فلم يحض بالتفاتة، وقصده في مراكبه ، مع مخدومه ، وفي مراكبه ، مع حاشيته ، من المخازنية المحدقة به، من أمام وخلف ، ولوح بيده ، وأشار بأخرى ، ولكن كل ذلك لم يلفت إليه نظر رفيقه المسجون أولا ، والوزير ثانيا ، أدنى التفاتة ، مما وخز في صدره ، واستشاط به غيظا، وخرج موتورا من المخزن عموما، ومن رفيقه الوزير خصوصا ، وقال إن صدقت التنبؤات الأولى في وزارته ، فلم لا تصدق الثانية في سلطنتي ، فبارح فاس حينا ، وتوجه لصلة الرحم مع أهله بجبل زرهون . ولكن لما وصل لمكّس ، قبع ثمة ، ووجه إلى ذويه ، يخبرهم بأنه على بضعة أميال منهم ويطلب منهم أن يأتوه بزاد ، وراحلة . ولعله "خرج منها خائفا يترقب"فجاءه أهله بزاد وراحلة ، هي أتان "حمارة" فارهة ، هي التي سمي بها بعد "بوحمارة" ، لأنها حمارة تستلفت النظر ، فركبها وودعهم ، ونزح إلى الناحية الشرقية ، من عمال وجدة وما إليها . ومن هناك تسرب للجزائر، كطالب مشارط ، وذي تمائم . والجو بالجزائر وقتئذ ، مقبل على هذا النوع من جهة الأهالي ، ومن جهة المستعمرين المتهيئين للوثوب على المغرب ، مستشرف لمثل هذا السروجي . لذلك ما كاد يحط رحله بوهران ، حتى ربط وصلته بالوالي العام الفرنسي ثمة ، فوجد فيه تهيؤا للفرصة التي يبغون من إثارة القلاقل داخل المغرب المعينة ، على انهماك الدولة العزيزية الهرمة ، أو التي تكاد .

فعقدت بينهما عقدة إيقاد الفتنة بالأساليب التي يتقنها جيدا ، من حيل وشقشقة زائدة ، واستوثق من فرنسا بواسطة الوالي العام بكل ما يمكن من إعانة لتركيز نفوذه ، فربا حاله بها ، واتسعت يده ، واتخذ قصرا فخما لسكناه ، فحكى أحد رفقائه بمدشره أولاد يوسف ، وهو الطالب السيد محمد بن الاحسن الجبلي المدعو المروك –وكان في الجندية الفرنسية بوهران– قال بينما أنا ذات يوم في أحد شوارع وهران ، إذا به وجها

لوجه ، فتعانقنا وتذاكرنا أيام الرفقة، وأخيرا استدعاني لمنزله فجئته، فوجدت دارا متسعة، في فرش رفيعة ، وأثاث ، مما جعلني أعجب لحاله الغريب ثم تسرب إلى طنجة ، ثم جال في الشمال فلم يتيسر له شيء مما يؤمل ، فتسرب إلى ناحية تازة ، فوجد موسما عامرا في قبائل غياثة ، فنزل على كبير أسرة بها تدعى أولاد ابن الطاهر فاستعمل له بعض ما أوهمه صدق مقالته من طلاسم أو شبهها ، وزعم أنه هو مولاي محمد[1] ابن الحسن وأنه الأولى بالسلطنة ، وأنه المجاهد الذي يطرد فرنسا ، وأنه... ولذلك أغرت فرنسا عليه ، فأودعته السجن. وأراهم أثر الكبل في رجليه، في سجن الذي قضاه بفاس مع رفيقه المنبهي . فانخدع كبير الأسرة لذلك ، فأهدى له أحد فرسانه العتاق ، وتواعد معه غدا ، عندما تلتئم جموع الموسم ، يركب على الفرس المذكور ، ويحيط به الرئيس المذكور وإخوانه ، ويصرح بتنبئاته ، وأنه السلطان مولاي محمد بن الحسن المنتظر ، لتفريج الغمة وقيادة الأمة . فكان كذلك وتم له المراد وهناك كانت جذوة ظهوره، فالتأمت عليه القبائل، فقصد بهم مدينة تازة ، فاحتلها غنيمة باردة ، وكان ما كان ، مما لست أذكره. فظن. ولا تسأل عن الخبر . فوجه السلطان كتابا لمحمد أوحمو ، يستنهض فئة من إخوانه الزيانيين ليقفوا في وجه الفتان . فوجه طائفة من إخوانه برياسة أحد أقربائه ، وتوجه بعض قواد المحلة الزيانية وهم القائد محمد السكَرادي السوسي ، قائد فيلق أهل الحوز، والقائد التهامي التجاني ، قائد فيلق البخاري ، المتمركز بقصبة أدخسان، والقائد السيد الرحالي - إسما الرحالي- قائد فيلق أيضا بخنيفرة ، فرابطوا مع المحال المخزنية العزيزية ، ووقفوا معها كل مواقفها الشديدة . وخصوصا المحلة الرابطة بأوطا بوعبان ، مع القائد السيد عيسى بن عمر ، ومولاي الكبير أخو السلطان وغيرهم .

وهكذا استمرت تلك الكبكبة من الفرسان في معاضدة السلطان ، إلى أن أدوا المهمة ، فأذن له بالرجوع . وفي خلال هذه الفتن العارمة ، كاتب عماله ، وقواده، وكان من جملة هذه المكاتب ، هذا الكتاب المؤرخ بفاتح شعبان 1321. نصه بعد الحمدلة والصلاة والتحلية : فقد كان الغرض من نهوض ركابنا الشريف ، هو القيام بما أوجبه الله من إخماد فتنة المفسدين ، وتربية قبيلة التسول وإشكالهم المعتدين . ومنذ خيمت جيوشنا السعيدة ، على أوديتهم وهضابهم ، وخفقت بنودها على أوديتهم وشعابهم ، ونحن نحاول استرجاعهم من الغي إلى الرشاد ، ونسترعي عليهم قبل أن يعمهم من الهلاك ما لا يمكنهم معه استنجاد ، وكررنا عليهم

1 - هو الأمير امحمد بن السلطان مولاي الحسن . كان مرشحا للملك في حياة أبيه ، ونصب مكانه أخوه الصغير عبد العزيز . وقد انتحل الجيلالي الزرهوني إسم الأمير المعتقل ، وأعلن في موسم الولي محمد الجناتي بالحياينة ، أنه مولاي امحمد الذي نحاه الحاجب أحمد بن موسى عن العرش ، فصدقه الناس ، وأقبلوا عليه يبايعونه على السمع والطاعة ، نفسه.

زحف الصوكَات [1] من جهات متعددة ، وأشهدناهم أثر سطوة الله المتجددة ، وضيقنا عليهم المذاهب ، حتى أوهنهم الحصار في كهوف الشواهق ، ومغارات المسارب ، وفي كل صوكَة ، يقع فيهم عدد من الجرحى والقتلى . وتبلغ فيهم الصوكَة مبلغا ، يزيدهم محنة وهولا . ولما كان سبب تماديهم على ما هم عليه من الضيق والمحنة ، هو استعظامهم لما فرط منهم من الشقاق والفتنة ، حتى عدوا ذلك من الذنوب ، التي لا تسلم من عاقبتها عواقبهم . ولم يعتبروا أن المقصود عندنا ، هو استرشادهم ، لما تصلح به أحوالهم ، وتطهر به عقائدهم ورأينا استمرار الحروب عليهم ، يفضي بهم إلى عُموم الهلاك والتدمير ، مع أن المراد هو إنقاذهم ، من مصارع الضلال بتربية واسترشاد ، وتحذير ، وتحققنا ببقاء الفاسد الفتان في حكم العدم . من الحرج الذي لم يطق معه تحرك يد ولا قدم ، وحل مع هذا إبان الشتاء ، الذي أشفقنا منه على المسلمين لاضطرارهم إلى حرث أقواتهم ، واقتناء معايشهم ، وضرورياتهم ، أمرنا محلتنا السعيدة ، التي كانت مخيمة بتازة ، بالتوجه منها إلى نواحي وجدة [2] ، وأنكَاد ، وتكميل الغرض بها هناك في حسم قواه ، ووردنا وجهتنا السعيدة ، لمحروسة فاس ، مصحوبين بعناية الله ، التي هي عمدة التدبير والاحتراس ، ريثما نجدد تقديم الحركة والاستعداد ، ونترقب ما يظهر من أحوال هؤلاء الأوغاد [3] . فإن أراد الله بهم خيرا ، وتابوا ، وأنابوا فذاك ، وإلا فننهض لهم في الإبان ، الذي يقتضيه بما لا قبل لهم به ، بحول الله ، وأعلمناكم لتعرفوا حقيقة الواقع ، وتأخذوا حظكم من فرح الأوبة في عناية الله التي ليس لها من دافع ، ونسأله سبحانه أن يحتسب اجتهادنا في حياطة دائرة النظام والدين ، إنه ولي التدبير ، والمستعان والمعين ، والسلام في فاتح شعبان 1321"

تدهورت الأمور حوالي هذا التاريخ ، ونقصت الخزينة المخزنية وأدانت [4] ، وارتبكت الأحوال ، وهاجت الأهوال . واشتغل السلطان بشؤونه المهمة ، فتتوسيت المحلة الزيانية ، وقطعت عنها المؤونة ، فصبروا ، واحتسبوا ، وبقي محمد أوحمو وفيا لعهده ، ثابتا على وده ، وزادت الأمور اضطرابا ، وفتحت الفتنة في الإيالة المغربيّة أبوابا بوقوع الثورات ، وشن الغارات ، كثورة أبي حمارة ، والريسوني أحمد [5] ، وما عقب ذلك من قتل الطبيب مشان بمراكش يوم السبت 4

---

1 – حملة في المصطلح المغربي .

2 – استولى بوحمارة على هذه المدينة في 27 فبراير 1903 ، وبويع فيها سلطانا باسم مولاي امحمد بن الحسن .وكان الغرض من احتلالها هو إيجاد منافذ لثورته ، والاتصال بالعالم الخارجي من أجل التزود بالأسلحة ، انظر ، عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب ، م. س. ج 1 ، ص، 309.

3 – مفرد وغد ، الدنيء ، ابن منظور ، المصدر السابق ، مادة وَغَدَ .

4 – اقترض المغرب من فرنسا مبلغا قدره 62 مليونا ، ولكنه لم يتوصل إلا ب 48 مليونا

5 – ولد بمدشر الزينات (فحص طنجة) حوالي سنة 1869 . ظهر مناهضا لسياسة السلطان المولى عبد العزيز نظرا لنفوذ الأروبيين في البلاط السلطاني ، والمعاهدات التي كانت تتحدث عن اقتسام المغرب بين فرنسا وإسبانيا ، ولكن كذلك لأن أملاكه صودرت عندما كان في السجن .
عين عاملا على طنجة ، ثم على المنطقة الشمالية، ولما بدأ الاحتلال الأجنبي للمغرب، التحق بالمقاومة المسلحة.

صفر 1325، واضطرابات الشاوية ، التي أدت إلى احتلال الدار البيضاء وبوذنيب .

ويعزي سيدي ابن زيدان أسباب هذه الاضطرابات إلى تولية غير الأكفاء ، بعد موت الوزير أحمد بن موسى . فيقول : " إن الدولة المغربية المخزنية ، لما انهد ركن سياستها المتين ، بموت صاحب الترجمة "يعني أحمد بن موسى " ، فرزنت البيادق ، ووسد الأمر إلى غير أهله ، وصارت الرؤوس أذنابا والأذناب رؤوسا ، وانفجرت براكن الاستبداد ، التي هي ثمرة الإفراط في الضغط ، وفشى ذلك في الحواضر ، والبوادي ، وعم جميع البلاد ، ونامت الصقور ، وصرخت الديكة ، وادعى الصعلوك أنه ابن جلا ، وأينعت أغصان التشاجر والتنافس في أفخاذ الشاوية ، ورؤساء الدولة ، لا يستطيعون لرتق ذلك حيلة ، ولا يهتدون سبيلا ، بل هم في غمرة ساهون وعن الأخذ بالاحوط لاهون ، وما أحسن قول الأديب مولاي عبد السلام المحب العلوي في شبه هذا الموضوع من قصيدة * :

فديدن هذا الدهر عزة اعبد وذلة أحرار فما يصنع الحر
لحون كثير الرفع في غير بابه وينصب ما في حقه الجرم والجر

ثم يقول سيدي بن زيدان في اضطرابات أحوال الدار البيضاء وقبيلة الشاوية ، وبكل أسف فإن القابض على زمام إدارة الحكومة ، لم يتخذ فيما رامته الاحتياطات اللازمة لردع المفسدين ، وكسر شوكتهم بترشيح رجال حنكتهم التجارب للوقوف على تنفيذ ذلك الأمر المهم كما يجب . بل عزلت * باشا ذلك الثغر الذي كان يعرف من أين تؤكل الكتف ، وعين خلفا عنه أبا بكر بن بوزيد السلاوي ، فحقد المنزوع ، وتجرد لاغراء إخوانه على إيقاد نيران الفتن ، وتشويش راحة البلد ، فأجابوه لذلك . والباشا الجديد أخلد إلى العجز ، وأظهر غاية الجبن ، وأبان عن عدم لياقته ، وكفاءته لما رشح له ... مما أدى إلى احتلال الدار البيضاء ، وأخذه أسيرا يوم الإثنين 25 جمادى الثانية ، يوافق غشت 1907 ، ولله در من قال :

أي شيء يكون أعجب من ذا إن تفكرت في صروف الزمان
حادثات السرور توزن وزنان والبلايا تكال بالصيعان

اضطراب القبائل .

عند هذا الحد إضطربت القبائل ، وهاجت وماجت في بعضها ، وفقد الأمن في جميع السبل ولأدنى سبب ، تطاح بالنفس البريئة برمية رصاصة ، وتصبح القبيلة غنية ، فتمسي فقيرة ، وقد تأيمت نساؤها ، وتيتمت أبناؤها ، بغارة قبيلة أخرى عليها وعم هذا سائر

*- "فواصل الجمان للأديب غرنيط ، ص . 233 اهـ مؤلفه .

*- "الباشا المعزول هو أحمد ابن العربي المديوني وهو الذي يعني بإغراء إخوانه ، قبيلة مديونة وأولاد زيان " .اهـ مؤلفه .

القبائل المغربية ، اللهم إلا أن يكون بعض نفوذ وسلطة للمخزن ، في بعض قبائل الحوز ، كدكالة وعبدة ، وما إليها من القبائل الحوزية القريبة من مراكش ، تحت نظر خلافة مولاي عبد الحفيظ ، وقواده الكبار كعيسى بن عمر ، بدكالة وعبدة ، والقائد العيادي بالرحامنة ، والأكَلاوي بأدرير . وما سوى ذلك من قبائل تادلة ، والبرابر والغرب ، فكل ثائر على الأوضاع ، والدماء تراق ، والأموال في ضياع ، وسياق بعض الحوادث من ذلك مخجل وكثير ، ولنتكف بواحدة منها .

كانت قافلة من آيت ازدك جائية لمديلت ، بخفارة بعض هذه القبائل ، فاعترض سبيلهم لصوص ، فنشب بينهم قتال ، وكان في القافلة يهود ، فطاشت رصاصة أصابت واحدا من اللصوص ، فقتلته . وكان من قبيلة بني مجليد . فالتفت قبيلة القتيل المجيلدية ، وحاصروا قبيلة آيت ازدك ، في قريتهم أوطات «ميدلت » ، وفي القرية يهود يساكنونهم ، ضيقوا الحصار على القبيلة ، مما جعلهم يتبرؤون من دم القتيل ، ويلطخون به البعض من اليهود الذين كانوا في القبيلة . وعند ذاك طلب بنو مجيلد أن يدفعوا لهم جميع االيهود المتساكنين معهم ، يفتكون بأرواحهم ويحتوون على أموالهم وبقوا معهم في أخذ ورد ، وأخيرا تصالحوا مع قبيلة آيت يزدك ، على أن يدفع هؤلاء لهم عشرة من اليهود يحرقونهم . وهكذا تم الاتفاق ، فأخرج ايت ازدك العشرة من اليهود لربوة خارجة القرية ، فأحرقوهم ، وزادوا يهودية أخرى لأنهم أخرجوا ولدها فتبعته ، وقالت لا حياة بعده ، فأحرقوها كذلك . ولازالت الربوة التي وقعت فيها هذه المأساة ، تعرف لحد الآن ب «تيزي نوداين» ، أي كدية اليهود . وهذه المأساة محققة لا ينكرها مسلمو آيت إزدك ، ولا مسلمو بني مجليد ، ولا يهودهم ولكن قبائل زيان ومن والهم كانوا في مأمن من هذه الفتن . فقد اشتدت شوكة محمد وحمو . فلا من يخالف أمره ، في قبيلة زيان ، أما جواره من بني مجليد ، وأيت يسري وقبائل تادلا ، أهل الدير ، فهم يحترمون كل من يمت له بصلة، رعاية لسطوته وشوكته ، فكانت قوافل مدينة خنيفرة تأتي من تافيلالت ، للدار البيضاء ، ومن تافيلالت لفاس ، فلا من يعترض سبيلها . وإن وقعت هفوة من بعض الرعاع ، فلا تلبث قبيلته أن تستدرك الأمر وترد السلب في الحين .

وقد كاد يقع شيء من هذه الفتن في زيان نفسها بل وفي وسط خنيفرة عاصمتها، من تسلط بعض أصحاب الأسرة المحزانية . فإن بعض أولاد محمد وحمو ، وبعض أولاد إخوانه ، كل منهم له عصابة خيل ، يركبون بركوبه ، وينزلون بنزوله ، فصارت بعض أحداث تقع من بعض هؤلاء ، فيحميه صاحبه ، أو يدافع عنه حتى لا تناله عقوبة .

فلما رأى قواد المحلة هذه الأحداث تقع وتسيء لسمعة البلاد ، إتفقوا على جعل حد لها . فذهبوا إلى محمد وحمو، وأطلعوه على جلية الأمر ، وأن ما يقع له خيوط ببعض أولاده، أو أولاد أخيه ، وإلا لما دافعوا عنه . فاستنكر هو بدوره ذلك ، وواعدهم أن يجعل لذلك حدا يتفق الجميع عليه .

ومن الغد أو بعد الغد ، كان أولاده وأولاد أخيه عنده ، وحضر القواد يرأسهم كبير المحلة ، فطرحوا المسألة ، وصرخوا بالحق فيها ، فأنكر الجميع أن يكون لهم علم ، فأحرى ضلع فيها . وعند ذلك اقترح القواد اقتراحا يجعل حدا لكل مأساة . ذلك هو تنفيد الحكم الشرعي في كل من ثبتت لصوصيته ، بقتل أو صلب ، أو قطع يد ورجل من خلاف ، فاتفق رأيهم على ذلك .

وما مر على هذا الاتفاق أسبوع حتى ثبتت إدانة ثلاثة منهم ، تعرضوا سبيل أحد التجار ، على مقربة من خنيفرة ، فأخذوا وقتلوا . ثم أخذ آخرون ، من عصابة ابن أخ محمد وحمو ، فقتل كذلك . ثم أخذ ثلاثة ، أو إثنان آخران ، فنفذ فيهم الحكم الشرعي كذلك . وبذلك إطمأنت الأفكار ، وهدأت الأقطار واصطلح كما يقولون «الهر والفأر» . وسنفصل هذه القصة بأسماء المقتولين فيها بمحله وبتاريخه ، ولكن ماذا عسى يجدي هذا الهناء في هذه النقطة ، مع انتشار الفتن العارمة في جل بلاد المغرب ، إلا بعض نقط منها بالحوز المحتمين بالخليفة السلطاني مولاي عبد الحفيظ .

الفتن توجب نصب ملك جديد بمراكش .

بسبب التماسك الذي عليه الحوز بقواده ، وهم أيضا مع الخليفة السلطاني مولاي عبد الحفيظ ، بسبب ذلك أمكنهم أن يجمعوا أمرهم على تنصيب مولاي عبد الحفيظ ، ملكا خلفا عن السلطان عبد العزيز ، الذي أصبحت سلطته واهية ، وشوكته في الضعف متناهية . ففي صبيحة يوم الجمعة 6 رجب عام خمسة وعشرون وثلاثمائة وألف ، يوافق 15 غشت عام 1907 ، أجمع عمال الحوز السيد المدني الأكَلاوي ، عمر بن عيسى العبدي ، القائد العيادي الرحماني ، ومن لف لفهم ، على بيعة مولاي عبد الحفيظ . ثم اجتمعوا إلى علماء مراكش ، وطلبوا منهم الموافقة على هذا الأمر ، وليكون موسسا على قواعد شرعية من حيث المصالح التي تقتضيها هذه البيعة ، وقد بيّنوا أسبابها . وهي ضعف شوكة الأول عن الدفاع عن مصالح الأمة ، ورد يد العدو الذي صارت تساوم على البلاد باحتلال أطرافها إلى غير ذلك ، فأصفق الجميع على هذه البيعة .

وفد السلطان عبد الحفيظ لمحمد وحمو يخطب بنته .

وبمجرد ما بويع له بمراكش، أوفد وفودا لسائر المدن، والقبائل يستدعي بيعتهم كذلك . ومن جملة ذلك وفد أوفده لمحمد ووحمو ، يرأسه أحد قواد الفيلق المعسكر بالهري من زيان ، وجده الحال آنذاك في صلة رحم بذوي قرابته بمراكش ، ذاك هو السيد الحسن المزميزي ، وفاوضه في الاعتماد عليه في هذه المهمة ، وزوده بهدايا ثمينة ، بأنواع من السلاح الحادث السريع ، وبخاصة نوع يسمى العشارية ، "حشوها عشر قرطوشات" ، وفرسين من عتاق الخيل ، وهذان النوعان من أعز ما يهدى للزياني إلى شقق حريرية رفيعة ، وطنافس جلدية ، وسرج مزركشة بالذهب . وأوعز للوفد أن يعلنوا زواج السلطان ببنت محمد وحمو ، تلك التي كان أهداها والدها للسلطان الحسن يوم نزوله عليه بأدخسان سنة 1305 هـ . وكانت صغيرة

وبقيت بدار المخزن إلى أن انتهزها السلطان فرصة جديدة ، وانتهز مثلها مع السيد المدني الأكَلاوي ، فصاهره على بنت له أيضا .

كانت هذه الفرصة ثمينة ، فقد وجدت ميلا في الزياني لهذه البيعة ، ولكنه لم يتصرع بشيء . وكان الوفد أيضا مزودا بهدايا لقواد المحلة ورئيسها ، وواعدهم بأن السلطان الجديد سيفكر في مؤونتهم الضائعة منذ سنين، ويستدرك لهم ما فات. فاجتمع الزياني بقواد محلته ، وتذاكروا في الموضوع ، فأشاروا عليه بعدم التسرع ، وبالتأني ، ريثما يظهر ما عند الناس ، وخصوصا علماء فاس .

وهكذا قر رأيهم على التأني ، ولكن السلطان الجديد بقي يوالي مواصلاته القلمية مع الزياني ، ويرسل الهدايا ، ويعلمه بالوقائع ، وتحركاته من مراكش .

ومر على هذا الشهور الخمسة من رجب إلى حجة ، فإذا علماء فاس يبايعونه [1]

وفد فاس يتوجه بالبيعة .

ثم لم يشعر الزياني حتى حل به وفد أهل فاس ، مزودا بالبيعة الحقيقية ، بعد عقد البيعة المذكورة بأيام . ففرح بهم ، وأكرم وفادتهم ، وأحسن ضيافتهم .

وكان الوفد متركبا من علماء، وأشراف ، وتجار ، وأصحاب حرف ، يقربون من مائة وخمسين نفرا ، من أعيانهم ، العلماء أبو عبد الله محمد بن نميش ، أبو محمد عبد السلام غازي ، قاضي طنجة مؤخرا ، القاضي سيدي محمد بن عبد الله المشرفي ، العلامة سيدي محمد بن الحسن العراقي ، ومن أعيان الشرفاء الشريف مولاي أحمد بن زعيم الإدريسيين أنذاك ، سيدي إدريس بن عبد الوفي المعروف بالزراوطي ، مولاي إدريس الطاهر ، مولاي عبد السلام بن محمد بن الهادي الصقلي ، مولاي عبد الكريم الدباغ . ومن كبار التجار الحاج المكي بن عبد الله ، الحاج عبد السلام بن الحاج محمد بناني ، الحاج محمد بن موسى . ومن كبار الفلاحين الحاج عبد السلام المراكشي الكبير الجزولي ، الحاج التهامي الرامي ، السيد عبد السلام غريط ، السيد إدريس بن سليمان .

عقلت وعقل الصبا ثابت، أنهم جاءوا في فرسان مطهمة ، وبغال ذات سرايج مزركشة ، وقباب عالية ، يحملون أسلحة جديدة ، كالعشاريات المذهبة ، والسباعيات وكانت هاتان من أحدث السلاح السريع . وكانوا كل عشية يخرجون وراء أخبيتهم ، فيترامون على الرماية ، وكانوا يصيبون الهدف حذا ، مما جعل الزيانيين المدربين على السلاح يتعجبون منهم .

وعقلت أن والدي جعل مأدبة غذاء لأعيانهم ، فجاءوا على أفراسهم ، وبغالهم ، وهم في نشط ، ومجاملة ، وسرور . وبمجرد ما خرجوا ، ألقى إلى كبيرهم كتاب من حضرة فاس ، جاء به رسول خاص فقرأه ، وهو على بغلته ، يكاد يطير سرورا . دل على أنه يحمل بشارة من السلطان لهم .

---

1 – تمت هذه البيعة بتاريخ 7 يونيو 1908 .

مكث هذا الوفد ثلاثة أيام ، استراح فيها ، فتوجه لماموريته ، مزودا بوصايا من محمد وحمو ، للقبائل التي سيمر عليها التادلية لأن هاته القبائل لازالت في شك من بيعة مولاي عبد الحفيظ ، ولأن كبار زاوية شرقاوة ، لازالوا مع السلطان القديم ، مولاي عبد العزيز ، بل كبير الزاوية آنذاك ، السيد الحاج محمد بن داود ، وهو في ركبه لحد الآن .

وما أن بارح الوفد الفاسي عاصمة زيان ، حتى حل وفد آخر من السلطان الجديد يحمل هدايا الزياني ، ومؤونة للمحلة الزيانية . وهنا لم يبق شك لمحمد وحمو في سلطنة مولاي عبد الحفيظ .

خروج السلطان عبد الحفيظ من مراكش قاصدا مدينة فاس .

مكث مولاي عبد الحفيظ ثلاثة أشهر، من نصره بمراكش . وبمجرد تعييده عيد الفطر ، خرج قاصدا عاصمة فاس ، وخرج معه كبار قواد الحوز ، الناصرون له ، المدني الأكلاوي ، وعيسى بن عمر ، والعيادي الرحماني ، وعبد المالك المتوكي ، والأفضالي الرحالي ، ومن لف لفهم . وقطع مسافة الحوز في قبائله السراغنة ، والرحامنة ، ووصل لضفة نهر أم الربيع ، منتهى الحوز ، فوقف على مشرع الشعير .

وقف يتريث في عبور أم الربيع ليضع أول خطوة له في الغرب على الاصطلاح المغربي ، في تقسيمه إلى حوز ، وهو ما جاء جنوبا لأم الربيع ، وغربا وهو ما جاء شمالا لها . وجب التريث لأن قبائل الشاوية لازالت مدبدبة [1] ، وقبائل تادلا كلها عزيزية ، بقيادة كبير الزاوية الشرقاوية آنذاك، سيدي الحاج محمد ابن داوود ، ثم االقبائل بعد هؤلاء البربرية ، والزعرية ، لازالت لم يطل عليه أي واحد منها. وهذا السلطان الأول مولاي عبد العزيز، يحتل الرباط ، وتحتف به القبائل المجاورة له، وفي هذه الثورات، كان للشيخ محمد الكتاني ظهور ، وشفوف ، لا في مدينة فاس خاصة ، بل في جل أنحاء المغرب . وكان له ضلع شديد في السياسة الداخلية والخارجية ، وطار صيته في القبائل . وكانت له يد في خلع السلطان عبد العزيز ، ونصرة عبد الحفيظ . وتصدر للتمهيد له في القبائل البربرية المجاورة لمكناس وفاس وتراسلا في ذلك ، ويدل على ما له من أهمية ، هذا الكتاب الذي كتبه له بعد عقد البيعة له بأربعة أيام ، وهذا نصه :

" الشيخ الأجل العارف بالله تعالى ، الولي الكامل ، الشريف البركة الأخير ، السيد محمد بن الشيخ عبد الكبير الكتاني ، وفقك الله وسلام عليك ، ورحمة الله وبركاته . وبعد فغير خفي ما حدث بوجدة ، من مفاجأة العدو لها ، وأخذها على غرة ، فاتخذ أمرها هزؤا ولعبا ، وتهتكا وتهكما وسخرية ، ولم يجد أهلها ناصرا ولا معينا ، ثم لم يكن إلا كلمح البصر ،

1- كانت الشاوية من المناطق السباقة لبيعة مولاي عبد الحفيظ . فقد كتب إلى هذه القبائل يخبرها بأنه يستعد للمجيء إليها ، ولكن قبل ذلك ، سيمدها بجيش تحت قيادة الأمراء العلويين ، أنظر A.G.P. Martin, op.cit, p. 448

حتى عمد أيضا لأخذ الدار البيضاء ، التي هي أعظم الثغور بأرض المغرب ، ومركز البلاد ووسطها، وأخرج أهلها منها ، واستولى عليها ، ووجه عددا من الفلاكَيط إلى جميع المراسي ، بقصد الهجوم عليها كذلك ، وذلك حيث علم العدو عجز من يقوم بأمر المسلمين ، وركونه إلى الدعة ، وترك ما طوقه من الدفاع عن المسلمين ونفورهم . وشاع وذاع أنه بصدد الحلول بفاس ، ومراكش لا قدر الله ذلك . وحيث كان هذا الأمر الهائل الذي تبكي عليه العيون دما ، وازدادت به النفوس مرضا وألما ، وعلم جميع المسلمين ما يصير الله أمر نفسوهم وأموالهم ، وبلادهم، جالت أفكارهم، وخاضت عقولهم ، وأبصارهم ، فيمن يقدمون لهذا المنصب الأعظم ، ويسلك به فيهم السبيل الأقوم ، بعد إجماع علماء هذه الحاضرة المراكشية ، على خلع ربقة بيعة الأول [1] من أعناق هذه الأمة المحمدية ، فهداهم الله للتوفيق ، والتسديد ، والرأي الصالح السديد ، فانعقد الإجماع من هذه الحضيرة المراكشية وما حولها [2] ، من البقاع على تقديمنا وأمانتنا ، والدخول تحت طاعتنا ، للنظر في مصالح المسلمين ، والدفاع عنهم وإخراج العدو من ثغور المسلمين . فلم نجد بدا من مساعدتهم على ذلك لما ورد في ذلك من الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة النبوية . وبايعونا بيعة انعقد على ألوية النصر عقدها ، وطلع في أفق الهناء سعدها حضرها الصدور والأعيان ، وأهل الوجاهة في هذا الزمان ، ونووا الحل إليهم القبول والرد ، من علماء أعلام ، وأصحاب الفتاوى والأحكام وعظماء أشراف والعقد ومن إليهم القبول والرّد من علماء أعلام وأصحاب الفتوى والأحكام وعظماء أشراف ، كرام، ورماة كبراء ، وولاة أمراء ، ورؤساء أجناد ، والمتقدمين في كل ناد من عرب البدو والحضر ، وجيوش العبيد والبربر ، فانعقدت بحمد الله مؤسسة على التقوى ، واشتد بها حبل الإسلام ، وتقوى ببيعة تامة محكمة الشروط ، وفية العهود ، دقيقة الربوط ، جارية على سنن السنة والجماعة ، سالمة من كل كلفة ومشقة وتباعة . رضي الكل بها وارتضاها ، والتزم حكمها بالسمع والطاعة ، وأقصاها ، فأجبنا داعيهم لذلك ، ودخلوا تحت طاعتنا ، ونصروا رايتنا ، وأعلنوا بالنصر المؤزر لجنابنا الشريف ، سائلا منه سبحانه أن يعيننا على ما كلفنا ، ويوفقنا لما به طوقنا ، إنه ولي ذلك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وأعلمناك بهذا لتأخذ حضك من الفرح ، وتوجه بيعتك لشريف حضرتنا، سائلين منكم صالح الأدعية ، باعتزاز هذا الدين الشريف وتأييده ، وإعانة جنابنا على القيام بأمور المسلمين ، والله يوفقكم لما فيه رضاه والسلام ." في 10 رجب 1325.

وهكذا صدرت مكاتب بين الطرفين ، وفي بعض ما صدر من السلطان له تحلية ، وتجلة

---

1 - يقصد أخاه السلطان عبد العزيز .

2 - يشير إلى الاجتماع الذي ضم أعيان المدينة ، وأشرافها وعلمائها ، وعدد من زعماء القبائل الحوزية المنعقد في مسجد مدينة مراكش في 16 غشت 1907 ، والذي تمت فيه بيعة مولاي عبد الحفيظ .

الشيخ كبرى . وناهيك بها من السلطان عبد الحفيظ العالم الخريت ، الذي كانت حملاته على أشياخ الطرق مشهورة ، فيحليه بالعارف بالله ، وبالولي الكامل ، ثم أخيرا تكون النهاية مأساة ، ما لها من مأساة "فماعدا مما بدا" ، وهكذا جرى في سابق الأزل تصديقا للجاري على الألسنة "لا تتمنوا زوال الدول" .

إرسال الشيخ الكتاني أخاه أبا الإسعاد لملاقاة السلطان .

لهذه السوابق الكاشرة والبوادر السافرة ، وإن كانت عواقبها كافرة ، أوفد الشيخ الكتاني شقيقه الشيخ عبد الحي ، ليتأكد من صدق ولائه وموالاته ، وإلقائه أمامه خالص طاعته .

توجه هذا الأخير ، ومعه بعض علماء من فاس وزرهون . وقد هرع معه كبكبة من خيل الطائفة الكتانية ، من القبائل التي مر عليها من زمور وزعير ، وما إليها . فمن العلماء العلامة الشريف الجليل القاضي سيدي محمد بن أحمد العلوي الشهير، والعلامة السيد إدريس بن طلحة ، ومن زمور كبير الطائفة ، مولاي محمد بن محمد الأمغاري ، وبنعيسى بن أحمد القبلي ، وبناصر بن موسى النسب ، والهاشمي بن محمد البوكَريني ، وإدريس بن أحمد الحمداني ، وجماعة آخرين ، وكذلك جماعة من زعير . أغذ السير الشريف بهؤلاء ، ووصل على مولاي عبد الحفيظ بمشرع الشعير، فكان حلولهم على السلطان أول الأمر حلول قميص يوسف على يعقوب ، ولكن كان على خلاف ما في الغيب المرقوب .

رأى الشريف في طريقه على تادلا أن الحملة كلها ضد مولاي عبد الحفيظ ، وقد خلص بجريعاء الذقن عندما توغل في بلاد ورديغة من تادلا التي كلها عزيزية ، فقد مر على فخذ أولاد عبدون ، منهم مركز خريبكَة الآن وقصد دار القائد السيد محمد الشرادي ، وكان هذا رجلا طيبا ، فيه اعتقاد في العلماء والشرفاء ، فأحسن ضيافته ، وأكرم وفادته . ومن الغد ركب معه حتى أوصله لمأمن ، وعند ذلك باح له بسره قائلا له: " يا سيدي إنك قد خاطرت بمرورك على هذه القبائل ، وخاصة أولاد عبدون ، فإنها كلها عزيزية ، ولو سمعوا ، أو فطنوا بك ، أنك متوجه لمولاي عبد الحفيظ ، لكان ما لا تحمد عقباه ، فانج بنفسك ، مسرعا من الأخطار التي ربما تواجهك ، ممن يطلع على جلية أمرك " . فشكرها له الشريف ، ولم يزل يتحدث بها في مجامعه طول عمره .

لا شك أن الشريف حكاها للسلطان ، وبين له الحقيقة ، ولكن كان يمنيه بالكتيبة التي معه ، من بعض القبائل الأخرى ، ويفتل في الحبل والغارب ، على أنه إن سلك معه ، كان في مأمن حتى يحل بالعاصمة العلمية في منجاة .

ولكن السلطان ، لم يتسرع بعبور نهر أم الربيع ، بل بقي يفكر في العاقبة من كل وجوهها ، لا من قبائل الغرب ، تادلا وما إليها ، بل كذلك من الحملة التي سيوجهها السلطان

عبد العزيز عليه [1] . وقد حل بالرباط والتفت حوله جموع ، وقبائل إلى المحلة والجيش اللذان صحباه من فاس .

فأطال المكث في مشرع الشعير ، وكانت كل يوم تفد وفود ، وتختلف عليه وجوه وتعقد جموع من غلس الصبح إلى هزيع من الليل، يحضرها كبراء القواد، أو الوزراء الجدد ، السيد المدني الأكلاوي وزير الحربية والسيد عيسى بن عمر وزير الخارجية ، ومن سواهم ، وكان الشريف يقتعد الصدر من كل هذه المجالس ، ويزاحم السلطان بركبته ، في جلال وإعظام ، ما عليه من مزيد ، بل هو أول من يدخل عليه بغلس وآخر من يخرج من عنده في هزيع .

وحكى لي صهر الجميع العلامة الصالح أبو العلاء ، سيدي إدريس ابن طلحة ، أن العلماء الذين جاؤوا برفقة الشريف ، طلبوا منه يوما الملاقات مع السلطان ، فضرب لهم موعدا يوم خميس ، فجاءوا وأدخلوا إلى فسطاط كبير وصادف ذلك اليوم وفود قبائل استغرق في مقابلتهم الصباح إلى الظهر . فأحضر الغذاء للسلطان ، وقبته غاصة بوزرائه ، وكبراء دولته ، والشريف من بينهم . فكان الطعام الذي يتناول بحضرة السلطان ، تخرج فضلته للعلماء ، فخرجت عدة طواجين ، وأخيرا خرج صحن كسكوس ، قد تنوول من موضعين فقط . مما استلفت أنظارنا ، للسؤال عن المتناولين . قال ، فسألنا أحد الأعوان "عبد الوضوء ، كيف نرى أن هذا الصحن ، لم يتناوله إلا إثنان ، فمن هما ؟ أجاب "سيدي" يعني السلطان" والشريف "يعني الشيخ عبد الحي . فقيل له والوزراء الحاضرون ، قال حاشاهم أن يتناولوا مع سيدي الطعام أمامه."

ولعل هذا ما جعل الشريف مدللا على السلطان خصوصا وقد ضحى شقيقه بعرش السلطان الأول ، ليركز عرش الثاني .

ومن أجل ذلك ، ربما كانت تصدر بعض فلتات لسانية منه ، فتبلغ إلى السلطان فيتغاضى عنها ليوم ما ، وهذا ما تفسره الحوادث بعد .

مكث السلطان الشهرين الأولين ، شوال والقعدة ، إلى ربيع من 1326 ، على ضفاف أم الربيع ، بمشرع الشعير ، والمحال الفرنسية بالشاوية . وقد استفزها حلول السلطان بمقربة منها . فلا بد أن تفعل شيئا يعكر صفوه ، فجهزت جيوشها وتقدمت تجاه مدينة سطات [2] ، وبلغ الخبر السلطان ، فوجه محلة من جنده ومن القبائل الذين معهم ، فيهم القائد العيادي الشهير ، والقائد المصوير الزمراني ، وآخرين . وكان يرابط بالقرب منهم ،

---

1 – وقعت المواجهة بين محلة مولاي عبد العزيز بقيادة بوشتة البغدادي ، وجيش مولاي عبد الحفيظ بقيادة القائد رحو الذي حطم هجوم المحلة العزيزية في 15 أكتوبر 1907 .

2 – دخلتها القوات الفرنسية في 6 فبراير 1908

الشيخ البعزاوي [1] ، في بعض من قبائل الشاوية . ولما أحست المحال الفرنسية بتحرك المحلة السلطانية ، تحركت هي أيضا أمامها . وفي إحدى الليالي وقعت معركة بين صفوف المسلمين والمحال الفرنسية . فلم تكن فائدة في مقاومتها ، لأن العدو كان أعد العدة ، ونصب المدافع في المرتفعات ، وجيوش المسلمين من خيل مطهمة وهياكل فوقها عظام . وهي وإن كادت تتميز غيضا ، وشجاعة فهي لا تفيد أمام المدافع التي تحصدهم حصدا . وقد تحدث الناس ببطولة نادرة ، وشجاعة وإيمان من القائد الزمراني المصوبر . فإنه بمجرد ما تراءت الأعين ، شد حيازمه ، وصار يصيح في الناس ، الجهاد الجهاد ، الجنة فتحت أبوابها ، وهو يخوض في الميادين مستبسلا مستقتلا ، والقنابر تتساقط أمامه ، وخلفه ، وهو لا يزيد إلا ثباتا ، وقوة ، وركضا على فرسه يمينا ، وقداما ، طالبا الشهادة ، عازما أن لا يتأخر ، ولا يرجع بأي كان . وهكذا بقي حتى أصابته قنبرة ، ذهبت بنصفه الأعلى ، رحمه الله رحمة واسعة . وهذا ما حكاه الناس عنه اتفاقا .

حكى لي هذا ، الأمين السيد عباس بن الأمين السيد أحمد الشامي ، أحد الحاضرين بنفسه للمعركة ، لأنه كان موفودا من طرف محمد وحمو لمولاي عبد الحفيظ ووجد خاله القائد الأفضالي الرحالي ، أحد قواد السراغنة الوافدين مع السلطان ، فمكث معه. وحكى لي القائد العيادي نفس هذه الحكاية أيضا ، وزاد : "وقد كنا متفقين على هجوم يبتدئ من السحر ، فتتحرك القوة الفلانية من الجهة الفلانية ، والقوة الفلانية من الجهة الفلانية ، ولكن بالأسف ، وقع التهاون في ضبط الخطة ، بتراخ وتأخير ، سبقتنا القوة الفرنسية بها ، فوقعت الهزيمة".

ولكن ماذا عسى تفيد هذه الاستماتة من أفراد . لذلك انهزمت المحلة السلطانية ومن معها من القبائل ، واحتلت مدينة سطات . ولكن بعد هذا الهجوم ، وقفت حملات الجيش الفرنسي فجأة ، وقيل إن مذاكرة راجت بين السلطان الجديد وبين السلطة الفرنسية .

بقي السلطان بمشرع الشعير إلى ربيع الأول ، وفي ليلة السابع منه ، روعت المحلة السلطانية بحادث آخر ، مما جعل السلطان ، يتزحزح من موضعه لمحل آخر آمن ، وصادف هذه الليلة ، الليلة التي اعتاد الكتانيون إحياء الميلاد فيها. لأجل ذلك لم يتزحزح الشيخ عبد الحي من موضعه مع المحلة ، ولم يراع حرمة السلطان ، فبقي بمحله ، وأقام احتفالهم العادي بالمسمعين ، والمنشدين ، وإحراق العود الموردي ، والسلطان على مقربة منه . فلا شك أن هذا مما يوثر حنقا على الشيخ ، من ذلك السلطان المعروف بنفسانيته الكبيرة ، وهذه إلى أمثالها ، مما أدت إلى المأساة .

---

1 – هو محمد بن الطيب الشاوي البوعزاوي المتوفى سنة 1332 هـ/1914م ، عالم صوفي قاوم الاحتلال الفرنسي بالشاووية . من آثاره :– المريد في منهل أهل التجريد .– النحو المطلوب في شمائل النبي المحبوب – الرد على السيخ محمد الكتاني . أنظر أحمد الزيادي ، انتفاضة الشاوية سنة 1907 ، دار قرطبة ، الدار البيضاء 1986 . ص. 6

بعد هذا بيوم ، أو يومين ، ارتحل السلطان قاصدا العاصمة الفاسية ، على طريق تادلة أولا . فقد وطدت له الإقامة الطويلة له بمشرع الشعير الطريق لتادلا نوعا ما ، فقد قصده الكثير من كبرائها ، والناس مع الخوان ذات ألوان ، أو كما قيل ، وكذاك الناس مع الواقف .

إرتحل من مشرع الشعير إلى دار القائد الشافعي ، بتراب قبيلة بني مسكين ، ومنها إلى أربعاء مكارطو بقبيلة الشاوية . ومنها إلى صخرة الدجاجة ، بتراب ورديغة ، مركز خريبكة ووادي زم ، على نحو 25 كلم من الطرفين ، ومنها إلى عين مازي ، مركز وادي زم ، بتراب بني خيران ، على 25 كلم منها .

وصول الوفد الزياني على السلطان .

لما حل بعين مازي ، هرع إليه بعض أعيان بني خيران ، والسماعلة . فمن الأولى القائد الضاوي بن صالح ، ومن الثانية القائد محمد بن السربوت ، وهذان لهما صلة بحكم الجوار مع محمد وحمو الزياني ، وخاصة الأخير فذاكرهما في إحضاره ، إن أمكن أو إحضار بعض أولاده ، فانتدب لها محمد السربوت . فحمله رسالة منه إليه ، وأكد عليه في إزعاجه ، وأنه لا يبرح من عين مازي حتى يصله . فأسرع بها ابن السربوت لمحمد وحمو . ولم يكن ضوء الفجر من غده حتى وصل عليه بالرسالة . وللحين أزعج محمد وحمو ولده حوسا ، وهو أكبر أولاده ، وابن أخيه والعايدي ، وهو داهيتهم ، في كبكبة من خيل للسلطان ، فطاروا على أفراسهم ، وما كان عصر بعد الغد ، حتى حوموا بفرسانهم ، وأطلقوا شئابيب من بنادقهم ، مما روع محلة السلطان بل أقلق راحة السلطان نفسه .

حكى لي الحاضر ، وهو السيد عباس بن الأمين ، أمين المحلة الزيانية ، وكان في المحلة السلطانية ، مع خاله القائد الأفضالي الرحالي ، أحد قواد الحوز ، الذين صحبوا السلطان من مراكش ، قال : لما سمعنا الطلقات النارية ، روعت المحلة . فطرت مع من طار لرؤية الواقع ، فما أن وقع بصري على الفرسان حتى عرفتهم واحدا واحدا . فانقلبت مسرعا ، وأخبرت خالي الأفضالي ، بأنهم وفد محمد وحمو ، فأسرع بها إلى السلطان ، لأنهم يتحققون بالامال التي يعقدها عليه . فقال له :"وأي شيء نلقاهم به كهدية " . قال الأمين : "أحب الأشياء إليهم القرطوش" . فأمر السلطان بحمل بغلة يتلقاهم به . قال : فأسرعت أنا به إليهم ، وهم يتراكضون على أفراسهم ، على عادتهم البربرية ، غارات غارات ، فتلقوه مني ، وفرحوا أشد الفرح . ثم صاروا حتى قربوا من السلطان ، وترجلوا وانحنوا أمام السلطان ، ودخلوا عليه للحين . وكاد يهتز من عرشه فرحا بهم ، فقد علم الآن أن عرشه يكاد يوطد ويرتكز حقا بوصوله إلى فاس .

كان كل ما يفكر فيه السلطان ، هو أي الطرق يسلك لفاس . "وليست كل الطرق توصل" ، ومن هو القائد والدليل ؟ فقد نفض يده في الباطن من الشيخ عبد الحي الكتاني ،

ذي كان يتزعم له السلامة ، بمن معه من رؤساء قبائل زعير ، وزمور ، وبني مطير ، وقيادة لركب إلى محل الاطمئنان ، وعلى شاطئ السلامة ، يقف به الربان .

لأمور منها شموخ الشيخ بأنفه ، واعتزازه بعصبية من معه ، وصدور بعض قوارص سانية ، التي لا يأبه بها في بعض ما جريات الأمور ، ومجارات كلامية سرية، والكلام إذا خرج من الشفتين وصل الفين ، ومن أعظمها شم السلطان رائحة المنة عليه ، وخصوصا ما شاع من حمل أخيه الشيخ راية نصره ، وعزل أخيه بشروط [1] . ويرى السلطان أن قيمة ، ثمن هذه المنة ، تكلفه باهضا من الثمن ، ما طال الزمن . كذا كانت تظهر فكرة السلطان ، أو هذا ما أبرزه الحدثان . لذا كانت فكرة السلطان التخلص من هذا الامتنان ، بأي كان من الأثمان . ولا أنسب ولا أليق ، ولا أشفق له وبه ، وعليه من محمد وحمو الذي لا يفطن لشيء من ذلك ، لأنه البربري الغرّ . فكل ما يعمل مع السلطان أمور عادية ، لا يرجو وراءها إلا خدمة السلطان ، وجلب رضاه .

وعندما حل الوفد الزياني الذي كانت عليه الآمال معقودة ، ظن السلطان أنه حصل على ضالته المنشودة . ففي صبيحة الحلول ، عقد السلطان مجلسه العادي ، وكان كبيرا الوفد الزياني حوسا ووالعايدي في أوله ، وكأن على رؤوسهما الطير ، لا يتكلمان إلا جوابا لأنهما لم يتعودا الثرثرة ، وسليقة اللسان ، التي تدرب عليها الحضريون ، فمر اليوم الأول والثاني .

زوبعة معنوية بالمجلس السلطاني .

في اليوم الثاني لوصول وفد محمد وحمو على السلطان ، بينما المجلس السلطاني غاص بوزرائه ، وكبرائه ، من بينهم الشريف وولد محمد وحمو ، وابن أخيه والعايدي ، إذا بهذا يواجه الشريف بكلمة نابية ، ذلك أن بعض إخوانهم البرابر الذين مع الشريف آنسوا بإخوانهم الزيانيين أنسا ومبرة ، فشكوا لهم بطول سفرهم وضيق معيشتهم ، وقلة زادهم ، وربما غمزوا إلى الشريف بشيء . فلما انعقد المجلس السلطاني العادي ، صاح والعايدي مخاطبا الشريف هكذا "ألشريف ألشريف" ، حتى التفت إليه ، فقال : إن هؤلاء البرابر يشتكون بأنهم لا يتوصلون بمؤونتهم ، فأجابه بلهجة قوية "حاشا" وكررها ، وصمت المجلس صمتة عميقة لها مغزاها من السلطان ، ومن الشريف والوزراء ، أما الزيانيان فلم يفطنا لشيء ، وكأن شيئا لم يحدث لأنهمالا يعرفان تمطيط المخاطبات ، ولا رعاية المناسبات . إنما هي كلمة "لا شكاية" بلغت لمن تعنيه وهو الشريف . ولكن كان صداها مزعجا ومغزاها مؤثرا ، بل هي من أعظم الأسباب التي أوحت بسوء الظن والارتياب .

---

1 – تتلخص أولا في طرد الأوربيين من فاس وعدم لجوء السلطان إلى استشارتهم ، وثانيا التراجع عن تطبيق ميثاق الجزيرة الخضراء ، وثالثا إجراء إصلاحات شاملة ، منها الشروط الدستورية التي أدخلها الشيخ الكتاني في نص بيعة السلطان ، ورابعا إعلان الجهاد ضد الاحتلال .

ذلك أن الشريف ، لما أوى إلى خيمته ليلا ، وهي بمقربة من فسطاط السلطان ، حسب مرتبته آنذاك ، لما أوى إلى خيمته ، نادى بصوت حنق غاضبا" ناد وا على أولائك الشلوح" ، مكررا لها بأعلى صوته " ، فلما حضروا ، صاح في وجوههم سابا ، وقاذعا بسبب الشكوى التي شكوها على البربريين الزيانيين ، واندفع في سب طويل ، خرج فيه عن اللياقة الأدبية ، ومراعاة المكانية السلطانية ، التي ربما بل من المحقق سماعه لذلك كله . وقد حكى لي هذا الحاضر لكل الرائج من العلماء الوافدين معه ، وهو العلامة سيدي إدريس بن طلحة .

من الغد انعقد المجلس السلطاني على العادة، فالتفت السلطان إلى حوسا ولد الزياني ، قائلا : من الأحسن أو اللأمن هل السلوك على طريقكم زيان ، فبني مجيلد ، بني مطير ، أو على طريق زعير ، فزمور ، فبني مطير . فابتدر للجواب ابن عمه والعايدي ، محنك الأطلس قائلا : لا نعقب على سيدنا شيئا مما أراده على مه ولا له ، ولكن الذي نقوله ، هو أنه إن مر علينا نضمن له السلامة ، فسكت الإمام وغير مجرى الكلام ، وانفض المجلس بسلام .

قال والعايدي ، كان هذا جوابي في المجلس العلني ، ولكن بعد إنفضاضه استدعاني وحوسا ، فسألنا عن الطريق التي نسلكه ، وما نظرنا في هذه وتلك ، قال فأجبته : "إن القبائل التي تنسلك بسيدنا عليها، لا يصطلى لها بنار ، ونتكفل بسيدنا بأنه لا يلحقه أي أذى أو عار ، لأنهم فرسان ذلك المضمار ، أما الذين مع الشريف فنظنهم رجال سبحة ، لزاوية وأذكار" ، بهذا المعنى كان جواب والعايدي . قال وظننت أن السلطان قد اقتنع مني بهذا . كذا حكى لي عنه شيخنا سيدي الحاج عبد الرحمان .

قال محدثي سيدي إدريس: ومن الغد ، بعد صلاة الصبح ، صدحت موسيقى الرحيل ، وقوضت الفساطيط ، والخيام ، وركب العيال السلطاني ، وكل لا يدري أين الوجهة ولا لأي سبيلة المحلة متجهة ، حتى اعتلا السلطان صهوة فرسه ، فإذا بمناديه ينادي أين ولد محمد وحمو ، فليتقدم أمام سيدنها . قال ، فأسرع في كبكبة الفرسان ، يتقدموا محلة السلطان . قال محدثي فسقط في يدنا نحن ركب الشريف جميعا ، فسايرنا المحلة ذلك النهار ، في حين أن بعضا من زيانيين سايروا لمحمد وحجمو يخبرونه بتوجه السلطان لقبيلته .

سار السلطان ذلك النهار ، فحل بقبيلة السماعلة ، مركز وادي زم ، بمحل يقال له تاولتاست ، على مقربة من دار القائد المرافق له محمد السربوتي ، وفي الليل ، لما عاين الوفد الذي مع الشريف الكتاني أنه لا يمر على طريقهم، طلب الكثير منهم تسريحهم لحال سبيلهم ، إذ المهمة قد انتهت ، ومن جملة المسرحين محدثي ، قال فتزودنا بمكاتب لكبار القبائل ، وللباشا بمكناس ، والباشا بفاس ، وللشيخ سيدي محمد الكتاني من السلطان ومن أخيه . فأسرعنا راجعين ، وفي اليوم الثالث أظن ، لم يشعر باشا مكناس حتى وفدت عليه بالكتاب السلطاني ، الذي هو على الأبواب . فكانت مباغثة له غريبة ، لأن خبره كان قد انقطع عليهم

منذ ارتحاله من مشرع الشريع . قال فقام لاباشا مفلوجا بالخبر المباغث ، يتخذ المعدات للقيا السلطان . ومن الغد واصلت السفر لفاس، ففاجأت باشا فاس، بمثل ما فوجئ به باشا مكناس ، ومكنت المكاتب لأربابها ، ومن جملتها كتابه * للشيخ محمد الكتاني وهو هذا :

"بعد الافتتاح بالحمدلة والصلاة والتحلية – محبنا الأرضى الفقيه العلامة الشيخ سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني ، سددك الله ، وسلام عليك ورحمة الله ، وبركاته . وبعد ، فما زالت الأيام تعرف جاهد فضلك وآيات محبتك في جانبنا الشريف ، يتلوها إخلاصك في موافقة مقولك لفعلك . وقد وصلنا كتابك المبارك ، واستقرينا فصوله ، وعرفنا مضمنه ، ومحصوله ، فها نحن منه على يقين وصار بالبال ، وكل فصول الكتاب يضيق القرطاس عن الوفاء بجوابها ، إلا عند المشافهة بحول الله لأهمية مواد كل ذلك ، وسعة المجال فيه ، نعم العزم الذي أنت عليه في الورود لحضرتنا السامية بالله مصحوبا بحركات القبائل ، كزمور وزعير ، فنأذنك في تنفيذه والعمل على مقتضاه ، لتعجل بالقدوم ، بقصد ملاقاة ركابنا العالي بالله ، بقبيلة زعير ، مع اجتهادك في تنفيذ حركات معتبرة ، من أولائك القبائل ، وأعمال بالك هنا ، مع طي المسافات الزمانية والمكانية ، فإن ركابنا الاحمى هو اليوم بوادي النجاة ، على أربعة مراحل من وادي أم الربيع . فها نحن في انتظارك ، الدار بعد الدار ، سددك الله وأعانك ، وأمدك بالتيسير وأرشد بك". تاريخ 17 ربيع الأول 1326 .

وصول محمد وحمو على السلطان ومعه رئيس المحلة الزيانية .

رحل السلطان من قبيلة السماعلة التادلية ، وما هي إلا بضع كلمترات حتى عبر وادي كَرو الذي هو الحد بين هذه القبائل التادلية والقبيلة الزيانية ، فسار ذلك اليوم جله في تراب زيان ، في حين أن محمد وحمو كان متأهبا للقيه في تراب قبيلته ، على مقربة من بين ضريحي الشيخ أبي يعزى ، وسيدي محمد بن مبارك ، فما مر للسلطان يوم أو يومان بتراب قبيلة زيان ، حتى أطلت عليه رايات محمد وحمو وقبيلته ، وبعض قواد المحلة يرأسهم كبيرهم ورئيسهم ، آخر من بقي من قواد المحلة ، والجيش ، والدي السيد قاسم .

وفد محمد وحمو في عدد من الفرسان ملأت الآفاق وضاق بغبار سنابكها الخناق وصحب معه من الهدايا الثمينة ما عربن عن محبته المكينة .

وهبّ الاطلس الهيمان حبا بمازيغ له يعدو ويسعى

*– "الشريف الجليل ، سيدي محمد الباقر ، هو مصدر هذا الكتاب . وقال إنه صدر من السلطان قبل أن يبارح مشرع الشعير . وأظنه أنه لا مستند له في ذلك إلا ظنا وتخرصا ، لأن الذي حققته أن السلطان ، بعد هذه الليلة 6 ربيع ، انتقل من محطته الأولى بضفة النهر الأخرى ، وبعدها بيوم أو يومين واصل سيره ، فوصل لبلاد تادلا ، في المرحلة الرابعة ، وفي الخامسة ، كان بعين مازي ، ومنها كتب للشيخ الكتاني وغيره فصححت عين مازي بواد النجاة ، وهذا التاريخ هو الذي يكون فيه بعين مازي ".

فماج وهـزه طـرب وأنـس | ومـاسـت كل حـوراء وفـرعـا
بـكـل طـريقـة وبـكـل فـج | وفي قنن الجـبال تـريه طبـعا
وزخرفت الخيام بكل نقـش | وقد جادت لها صبغا وصنعا
"وأم الربيـع" الفـيحـاء تلقا | يرقص ماؤها فيضا ونبعا *.

كـان والدي رحمـه الله ، وهو آخـر من بقي من المحلة الأصليـة والجيش ، الذي ، وفـاء بعهد سلطانه ، صبر على لأواء الغربة ومضض العيش ، وجملة القواد الأول قليلهم قضى نحبه بزيان وكثـيرهم ما عليه معول . إذ رجع للأعتاب المخزنية ، ليستطيب العيشة الهنيئة في الوظائف التي رخصت بالأعتاب الشريفة ، بعد أن كانت غالية علية ، وعندما قابل السلطان ، وبعـض من عرفه مـن الاقران والقُطان خنقته العبرة ، حتى كاد يكون أمامه عبرة ، وعرفها له وفاء السمووأل السّموأل، وأنه ليس ممن همته الحطام والمتمول، وشكر صنيعه ووفاء عهده . وجاد له بما يربأ به حاله ، وحلة من عنده ، ومكثوا معه ثلاثة أيام ، حتى هدأ بعض ما بهم من الوجد والهيام ، وقد تذكروا فيها غابر الأيام ، فكانوا من فرط الفرح تارة ، وفرط الحسرة أخرى ، كأنهم في أحلام أو هم نيام . ولما تملؤوا من رؤية طلعته ، وارتووا من معين دعوته ، ودعوه ، وفي حفظ الله أودعوه ، وفارقوه وللقلب خفقان ، ووجيب ، ووقد يشتعل كاللهيب . منشدين من قول لسان* الدين ابن الخطيب :

يوم أزمعت* عنك طول البعاد | وعدتني عن البعاد عواد
قال صحبي وقد أطلت التفاتي | أي شيء تركت قلت فؤاد

انقلب محمد وحمو ورئيس المحلة ، والدي ، ورافق السلطان باقي قواد فيالق المحلة الزيانية ، وحوسا ، ولده الأكبر ، وأخوه معمي ، وداهيتهم إبن عمهم والعايدي ، في كبراء من أتباعهم .

كل هؤلاء رافقوا السلطان في أمان الله وحفظه ، فقطعوا به بعد قبيلتهم ، قبيلة بني مجيلد ، وبني مطير ، وطرف من جروان . ثم هاهو بعاصمة أجداده مكناس ، في سرور وهناء ، وأنس وإيناس . ولا شيء يستحق الذكر إلا أنه عندما وصل للمحل المسمى الغشوة*

---

*- "الأبيات لكاتبه في رحلة الملك المرحوم سيدي محمد بن يوسف قدس الله روحه لقبائل زيان وبني مجيلد وغيرها سنة 1360" . اهـ مؤلفه"

*- "تعرف هذان البيتان لابن الخطيب ، وبعضهم نسبها لأبي محمد عبد العزيز الفشتالي ولعله غلط نشأ عمن لا يفرق بين ما أنشأه ، وما أنشده "اهـ مولفه .

*- "أزمع الأمر وعليه وبه ، ثبت عليه وأظهر فيه عزما " اهـ مؤلفه .

*- قال سيدي محمد الباقر ، الغشوة في حدود زيان وبني مجيلد . والصواب ما قلناه ، وهي المحل المعروف بيطو ، المنظر العجيب على نحو 45 من أزرو" . اهـ مؤلفه .

في آخر حدود قبيلة بني مجيلد لقبيلة بني مطير ، وهذا المنظر العالي المشرف على تلول ، وهضاب قبيلتي بني مجيلد ثم زيان ، يمتد النظر فيه إلى جبال مولاي بوعزة . وقد سمى هذا المحل جيش الاحتلال الذي كان به معسكر عظيم ، أيام الاحتلال ، سماه "يطو ، إشارة إلى الرئيس البربري ، الذي كان له صيت آنذاك ، عمر نيطو العربي ، أحد رؤساء بني مجيلد . في هذا المحل المسمى الغشوة أو المسمى يطو ، وصل عليه الشيخ سيدي محمد الكتاني الذي كان مزعجا بالمكاتب التي يرسلها إليه السلطان ، وخصوصا الأخير منها المؤرخ ب 17 ربيع الأول 1326 .

كانت هذه أول مقابلة بين السلطان الجديد، وشيخ التربية ، المربي أنس الفقير والمريد ، وحاميه من نزوات النفوس ، والشيطان المريد . تقابلا وجها لوجه تقابل الأشباح ، ولكن بعدما تشامما ، لم يجد كل منهما تآلفا للأرواح ، لأن الأرواح أجناد مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

هذا ما يثار عنهما ممن حضر لقياهما وسايرهما حتى دخلا العاصمة مكناس. وهناك بدأت المنافرة ، ثم المشاجرة التي أدت للمغامرة . بعدما وصل السلطان لعاصمة مكناس ، وفد عليه وفد علماء فاس [1] ، يتركب من أعلامهم وأعيانهم ، فبماذا تلقاهم به السلطان الجديد ؟ تلقاهم بالإهمال والإعراض ، بسببها تركهم يقعون في كثير من الأعراض ، وتذهب به الحاجة إلى اختلاف الأسباب والأغراض ، مما ينجيهم من ورطة التقريع ، أو على الأقل الاعتراض ، إذ بلغهم أن إعراض السلطان ، سببته الشروط المشروطة في البيعة التي بايعوه بها ، وجعلوا بيعته عليها منوطة ، فصار كل منها يتنصل ، ويتهم الآخر بها ، ومنها ينسل ، حتى حامت الريبة كلها على شيخ الطريقة عالم فاس ، فضاقت به الأنفاس ، فكانت الشرارة الأولى أظلمت جو هرة القلب ، وصدئت لها النفس ، وأوجب شيئا من الحيطة ، وغض الطرف ، بل عدم المبالاة ، والاهتبال ، بعدما كانت التأميلات إسباغ النعم ، ومعرفة الأياد ، ومضاعفة الإمداد ، في تحف وإكرام ، تقربه العين ، فانعكست الآمال ، مما أورده مورد سوء ، أدى إلى هلكة وحيْن . وهكذا الشؤون السياسية ، طرقها لاتزال مظلمة وخواتمها تقتيل ، أو سجون مؤلمة ورحم الله من قال :

أنت من أنت والسياسة غيب ... هي رجْم الظنون بعد الظنون

إنهم صوّروك نور ضميري ... إنهم صوروك نار شجوني * .

ويظهر من أفعال السلطان الجديد في هذه الآونة أنه أخذ بقول الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك راحما ... فليقس أحيانا على من يرحم .

---

1 – قرر علماء فاس عزل مولاي عبد العزيز ومبايعة مولاي عبد الحفيظ، في فاتح ذي الحجة 1325 أنظر محمد الباقر الكتاني ، ترجمة الشيخ محمد الكتاني ، مطبعة الفجر ، الرباط ، 1960 ، ص.200 .

*– *الأبيات لزكي مبارك من ألحان الخلود" . اهـ مؤلفه .

هذا ما يظهر من هذه البوادر ، ولا تعليل لها إلا ذلك ، وإلا فالماجريات التي جرت منذ ظهور السلطان على المسرح من الشيخ الكتاني ، كلها تأييد ومساندة لجانبه ، ويساندنا في ذلك المكاتب الصادرة بينهما في ذلك ، حتى أن بعض علماء وأدباء فاس ، لاحظوا عليه ذلك التسارع والتنافس ، وهو شيخ الطريقة الربانية التي أساسها خمط النفس ، والخروج عن الملذات ، والزهد في الدنيا ، والبعد من أربابها وذويها .

وقد لمز الأديب أبو عبد الله محمد بن المفضل غريط في فواصل الجمان ، عند تحدثه بحوادث عزل السلطان عبد العزيز وبيعة أخيه عبد الحفيظ ، بعض علماء فاس وغمزهم في توليتهم كبر ذلك الانقلاب بكلام قارص لا يستساغ سماعه وتمجه من كل ورع طباعه ، قال :

1 - "فأصبح أعلام الفقهاء تحت أحلام السفهاء ، وصدرت من أهل فاس هيعة ، دخلوا بسببها في تلك البيعة .

2 - وطردوا الماكسين من مقاعدهم ، وجددوا للثورة قديم عوائدهم ، وخرجوا عن خط الاستواء في الانفعال للأغراض والأهواء ، وتولى كبرها أفراد منهم ، من نشله المخزن ، من وهدة الخمول ، واقتنى من نعمته الموضوع والمحمول .

3 - فذب عن صوانها بكفرانها ، ومنهم متبجح أرهق نفسه عسرا ، واتخذ النفاق جسرا ، فأصاب خسرا . ألف وصنف ، فما قرظ ، ولا شنف ، بل باء بها شنعاء غادرته يلتمس الجدران . ويجتزي عن لقاء الأقران ، بمجالس النسوان ، ينتظر للوثوب الأوان ، إلى أن رفع سربه ، وانقطع من حوض الحياة شربه ، إلى أن قال فأنشأت بيعة تصرف فيها بالهوى ، من شاء كيف شاء ، وأبدع في شروطها معنى ، وإنشاء ، فأزبد السلطان عندما رآها ، ورغى وغشيه من الغم ما طم وطغى حتى كاد ينتثر سلك ذلك العقد ، وينحل من هول الصدمة ، ما ربطوه من ذلك العقد ، بيد أنه أسرها في نفسه ولم يبديها لهم ، واليسير الذي طفح من كيد غضبه هالهم "الى آخر الكلام .

قضى السلطان الجديد أياما بمكناس ، ثم واصل سيره لعاصمة العلم فاس ، فتلقته بكل تجلة وترحاب ، وحط رحاله ، وقد أتم الله رغبته وآماله ، ولم يبق إلا أن يستتم أعماله ، ويركز في مخزنيته رجاله ، ومن جملتهم رجال زيان الذين يراهم ممن وطدوا له وساندوه ، دون أي مقابل يرجونه ، أو أمل يبتغونه . فأسند باشوية عاصمة العلم إلى حوسا ولد موحا وحمو ، دون استشراف لذلك ولا تشوف ، فأحرى أن يطلبها بتلهف هذا زيادة على القصور التي أسكنهم العالية ، والرياض اليانعة الزاهية . فماكان يبالي بها ، ولا يتولى الأحكام ، والجلوس على طنافس الحكام ، بل كان عن كل ذلك معرضا ، واختار أن ينزل على صديق أبيه ، الشريف الوجيه الأريحي ، سيدي محمد بن محمد الصقلي .

وقد ألمح أديب فاس أبو عبد الله غريط السالف الذكر إلى بعض هاته الماجريات التي وقعت بانقلاب الدولة العزيزية إلى الدولة الحفيظية ، وعين الكمال التي أصابت رجال الدولة الأولى ، بعد صعودهم في المراتب ، وتقلبهم في أعلى المناصب ، وبنائهم شوامخ القصور

المزدانة بالخصص ، التي تنبجس مياهها الرقراقة الصافية ، والأقواس الرفيعة القائمة على قوائم المرمر الأبيض الناصع ، في عراصي يعبق زهرها ، ويزري بكباء[1] العنبر نورها ويعرض ممن خلفهم عليها من أعيان هذاالركب السلطاني . الذي اتخذه من عصبية قبائل الحوز والبرابر ، وقد تجاوز الحد في هذا الغمز واللمز ، كعادته سامحه الله ، فقال . فلا بأس أن نسوق نتفا من قوله كاستدلال ، على أفكاركتبة ذلك الوقت وتصويرهم للحال.

قال سامحه الله ، في معرض سياق كلامه ، على خصة عرصة لأبيه ثمة :

" وقد نبضت تلك الخصة ،وأجدبت تلك العرصة ، لما ازدلف إلى مولاي عبد الحفيظ ، كل هماز مشاء بنميم ، مناع للخير ، معتد أثيم ، وأغروه باعطائها لقرد * من قردة الأشلاح ، محب لإفساد، عدو لإصلاح، كغيرها من أملاك ، من لم يجد حميما شافعا ، ولا حاميا نافعا . فلما حلها طاف عليها من عيثة طائف ، وخشنت أماكنها ، بعد أن كانت محل الطرف واللطائف . وما أدراك بمن شب في مرابض البقر ، وطب بسحيق البعر ، واستكن في بيت الطوب ، ومواقع الخطوب ، بين غارة غادية ، ورائحة، وسيول طافحة " الخ كلامه .

وهذا كلام مبالغ فيه، إن يكن يعني بالاشلاح هؤلاء البرابر الزيانية ، فإنهم أرباب نعم ، وخير في بطولة ، وشجاعة ، وكرم فائض ، وفرسان مطهمة ، يختالون فوقها بحلل موشية ، وسروج مزركشة. على أن هذا الباشا، رغم الاعتناء والاحتفاء ، والمكانة المرموقة من سلطانه ، وإسناد الباشوية العظيمة ، على عاصمة العلم والعلماء لم يكن يوما ليلتفت إلى ذلك ، أو تأخذ منه تلك المرتبة ، بل لم يزل بين يدي سلطانه يركع ، ويتوسل له بكل إخلاص ، ليقيله من هذا المنصب ، ويمن عليه بمنقلبه لأطلسه متمتعا برضاه .

ولنسق نص الظهير الحفيظي، الدال على العناية الكبيرة، التي لوحظ بها هذا البربري ، من سلطانه ، وليقابل مع ما غمز به أديب فاس ، إن كان يعنيه ، وإن كان يعني الوزير المدني الأكَلاوي الذي أسكنه قصر الحاج عمر التازي ، أو القائد السيد عبد المالك المتوكَي ، الذي أسكنه دار الأمين السيد المدني بنيس ، وكلاهما من الأشلاح فذاك شيء آخر . والذي يعنينا هنا هو الزياني الذي يساق إليه الكلام .

وهذا نص الظهير الشريف ، بعد الحمدلة والصلاة والطابع الكبير :"خدامنا الأرضين ، المحبين في جنابنا العالي بالله ، بالدلائل والبرهان ، أهل فاس المحروسة ، شرفاء وعلماء وأعيان ، وغيرهم كافة . وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فإن لنا مزيد

---

1 - البخور ، ابن منظور ، المصدر السابق ، مادة كبا .

*- كان القصر المعين لحوسا هو القصر الذي هو الآن على ملك السيد الحاج حماد المقري ، والمعين للسيد المدني الأكَلاوي والنازل فيه هو قصر السيد الحاج عمر التازي ، والمعين للقائد السيد عبد المالك المتوكي ، هو قصر السيد المدني بنيس ، لذلك لا ندري من هو الشلح الذي كان نازلا بقصر السيد غريط." اهـ مؤلفه .

اهتمام بمصالح مدينتكم المباركة ، وحرصا كبيرا على تمام استقامة أهلها ، وبقائهم في عافية كافية وراحة شاملة ، وأمن وأمان ، وسكينة واطمئنان ، مع حفظ نظام منافعكم ومرافقكم ، وأسباب معاشهم ، وصيانة وجوه حرمتهم، لما نعلم من كثرة ضعفائها ، وأهل المروئة ، العاجزين عن ملاقات عوارض الحوادث ، ومكابدة مشاق النوازل . ولأجل ذلك شرح الله صدرنا لتولية خديمنا القائد الأنجد ، الحسين بن الخديم الأنصح ، القائد محمد أحم الزياني ، عاملا عليكم ، لما له عليه ، من وفور العقل ، وكمال الثبات ، والنزاهة عن الوقوف ، في مواقف التُّرّهات والتنطُّعات ، وكونه لازال على صبغة الله وفطرته ، التي فطر عليها لا يسلك مسالك الهوى ، ولا يتبع الأغراض الهاتكة لستر الأعراض ، مع عدم تقدم مخالطة له في بلادكم ، ولا مصارفة مع أهلها ، بما يبقي في القلوب ضغائن ، أو يحدث في النفوس نفورا وتباغضا، لبعده عن جواركم الذي لا يخلو أهله في الغالب من تلك العوارض، زيادة على ماله ، ولأبيه من النصيحة الراسخة ، والمحبة الثابتة ، وتوفر عصبيتهم ، وتعدد قبائل إيالتهم . فإن له بمعونة الله القوة على دفاع الطوارق ، وإغلاق المخارق . وقد أسندنا إليه النظر في أموركم ، فنأمركم أن تسمعوا له وتطيعوا فيما يأمركم به ، من أمور خدمتنا الشريفة ، وتحققوا المعتقد في كمال طاعتكم ، وصدق محبتكم حتى تكونوا بتوفيق الله على أقوم سنن ، وأسلم طريق لتفوزوا بمرضاة الله ورسوله ، وتحرزوا الحظ الوافر ، من خاطرنا الشريف ، بحمد الله وقوته . أسعدكم الله به وأسعده بكم . وقد جعلنا خديمنا القائد عبد الرحمان بن عبد الصادق خليفة عنه ، شدا لأزره ، وتقوية لعضده ، ونائبا عنه في مقابلة الأحكام ، وفصل الدعاوي ونحوها ريثما يكمل تبصره ، وتتم معرفته ، وإطلاعه على الأحوال بحول الله ، فإنه أيضا من العقلاء المأمونين السالمين السريرة ، العارفين بالقواعد لتجروا معه على ذلك أيضا أصلحكم الله وأرشدكم والسلام ". في 6 جمادى الأولى عام 1326 ، انتهى منه بلفظه .

هذا الظهير الطويل العريض ، الذي كله بتقدير وإجلال لصاحبه يفيض ، لم يستفز ذلك البربري ولا هزه ذلك الإطراء ، ليبقى على منصة باشوية فاس ، بل كان أقصى مراده بعد أداء المهمة العظيمة ، هو إيابه لأطلسه . ولما رأى منه السلطان ذلك مرآى الصدق واليقين ، وتبين منه رفع همته ، مما لو ظفر به الغيرلأدمى عليه إحداق عينيه ، ساعف رغبته ، وسرحه هو والوفد الذي معه ، بعدما أنعم عليهم بتحف سنية نفيسة ، ولاسيما ما يحبونه من السلاح الجديد السريع المموه ، وعتاق الخيل . وهكذا الدنيا صعود ، وإن شككت فانظر :

وإنما دنياك بالسعود وإن شككت انظر إلى مسعود
إذا صدق الجد افترى العم للفتى مكارم لا تُكري ولو كذب الخال* .

*- "البيت للمعري من سقْط الزنْد . والجد السعد ، والعم الجماعة ولا تكري لا تنقص ، والخال الظن . وقبل البيت ، سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حضوض وإقبال"اهـ مؤلفه .

وقد تنفس الباشا الصعداء ، لما أذن له السلطان باللحوق إلى أطلسه لاستنشاق الهواء الطلق النقي، غير مشوب إلا بفائح الأنوار، والرياحين الجبلية العابقة ، من أشجار السنديان ، والأرز الباسقة المتناسقة ، مع مراوغات الغزلان ، في هاتيك الكثبان ، على صهوات الجياد المختالة الحسان . وهذا ما كان يتذكره هذا البربري القح فينسى معه كل تربع على أريكة الحكم ، في طقوس مدنية ، وقانونية ، تضيق معها أنفاسه ، في مدينة فاس ، عاصمة العلم والحضارة .

لذلك ، لما نزع رجله من ركاب فرسه ، بدل البغلة المسرجة التي كان يركبها بفاس، ورآى الشاة والمعزى بأول مرحلة نزلها يوم خروجه من فاس وهي "المسماة نزلة فرجي" ، أخذته نشوة السرور ، فاهتز لها هزا ، وقال :"الله ، رائحة المعزي ولا قصور التوازي" وكان لسان حاله ينوب عن لسان مقاله ، متمثلا بقول المعتصم :

لما غدى القلب مفجوعا بأسورة وفض كل ختام عن عزائمه

ركبت ظهر جوادي كي أسليه وقلت للسيف كن لي من تمائمه .

رجع باشا فاس وزعيم الأطلس ، فوصل لعاصمته حوالي جمادي الثاني 1326 . وبعده بأيام لحق به الوزير السيد المدني الأكَلاوي ، والوزير السيد عيسى العبدي ، وغيرهما من قواد الحوز ، ليسدوا أبواب مراكش على السلطان المولى عبد العزيز .

مر الوفد الوزاري على زيان ، واستراح في خنيفرة يومين أو ثلاثة ، وأفاض محمد وحمو كرما وضيافة وتحفيا ما شاء كرمه ، ثم ودع الوفد ، في أمن وأمان ، وكان من قدر الله أن السلطان عبد العزيز في هذه الآونة تحرك قاصدا مراكش . وقد ربض أمامه القائد العيادي ، الذي خلفه السلطان الجديد في معارك مع القائد السيد عبد المالك المتوكي . فلما أحس بتحرك السلطان القديم نحو مراكش ، وقد بدت طلائع جيشه على تراب السراغنة ، تحرك نحوه ، فكانت الملاقاة الأولى والأخيرة بانهزام [1] مولاي عبد العزيز في أوائل رجب 1326 يوافق 8 غشت 1908 . وتفصيل المعركة لا يهمنا ، لأن غرضنا التحدث عن العلائق الزيانية والملوك العلوية .

لم يهنأ ولم يتمر عبد الحفيظ سلطته إلا قليلا ، حتى أقبلت الفتن وتوالت المحن ، فكانت قضية الشيخ سيدي محمد الكتاني ومشاداته معه في المجالس العلمية السلطانية [2] ، مما أظلم الجو بينهما ، وأدى بالشيخ بمبارحة مدينته فاس ، في 24 سفر 1327 يوافق 18 مارس

---

1 – وعلى إثر هذا الانهزام ، أعلن مولاي عبد العزيز تنازله عن العرش (نونبر 1908) وانسحب إلى طنجة .

2 – وقع خلاف بين الشيخ الكتاني والسلطان ، لأن هذا الأخير تخلى عن التزاماته بسبب الاحتلال الفرنسي لمناطق شاسعة من المغرب ، وللنفوذ الفرنسي في البلاط السلطاني ، ولذلك أخذ الشيخ الكتاني يوجه انتقاداته علنا إلى السياسة الحفيظية .

1909 ، واقتفاء أثره بكبكبة من الخيل ، تبعته فأدركته في بلاد بني مطير ، فتواطأ كبار هذه القبيلة مع الكبكبة المخزنية ، فردوه ، هو وأبوه الشيخ العارف الرباني السني سيدي عبد الكبير وشقيقه الشيخ عبد الحي ، فسجن الجميع مع أسرتهم ، ونكل بالشيخ محمد الكتاني ، حتى زهقت روحه رحمه الله في يوم الثلاثاء 13 ربيع الثاني 1327 يوافق 26 أبريل 1909 .

وكانت هذه الحادثة من مبدئ سياسة السلطان عبد الحفيظ الغير المتزنة ، وكانت لها عواقب وخيمة . فقد سممت له الجو المغربي شيئا ما . فقد كان للشيخ الكتاني أتباع في جل المغرب ، باديته وحواضره ، وكان الوقت آنذاك ، وقت اعتقاد في رجال التصوف ، "ولو كانوا متصوفة" ، إذ لم يكن الشعب المغربي تفشت فيه فكرة التنقيب عن شيوخ الطريقة ، والفحص عن صادقهم من كاذبهم . وبعبارة لم يكن الشعب المغربي إلا معتقدا في أرباب الطرق والدعاة إليها ، بغض النظر عن كل ، ما يتعقبه العلم الصحيح والسنة . والشيخ الكتاني بنوع خاص ، طار صيته بعد رجوعه من حضرة السلطان عبد العزيز بمراكش ، حيث استدعي من طرفه ، بإغراء الوزير الداهية أحمد بن موسى عند مبتدإ ظهور أمره . فاستدعي لمراكش ، فوصلها في سفر 1314 . وكان الوزير أحمد يعقد مجالس علمية لمناظرته . وأخيرا استدعى الوزير رجل العلم والتصوف في اعتقاده الذي تعد كلمته كلمة الفصل في القضية ، ذلك هو الشيخ ماء العنين الشنجيطي ، وهو من هو عند الوزير ورجال المخزن آنذاك ، اعتقادا وانتقادا . فحضر الشيخ الشنجيطي ورجال أعلام معه ، من أسرته وطائفته . وعقدت مجالس ، ووقعت مذاكرة ، ومحاورات ، انفصل منها الشيخ الشنجيطي ، باعتقاده وتقديره للشيخ الكتاني ، والتنبيه عليه بمراعاة حرمته واحترامه ، مما استلفت نظر الوزير ، بل والسلطان إليه تقديرا وإجلالا . وكان السلطان في هذه الآونة عازما على رحلته من مراكش إلى فاس ، ومن تقديره للشيخ الكتاني ، أبى ألا يغادر مراكش حتى يكون برفقته ، في رحلته إلى فاس . وهذا ما كان بالفعل ، فرافقه رفقة ملحوظا فيها بكل تقدير ، واحترام ، وإجلال وإعظام ، يدل على ذلك هذا الكتاب من الشيخ لخليفته بسلا العلامة سيدي أبي بكر التطواني .

وكتب في ذلك مكاتب سلطانية ووزيرية لوالد الشيخ سيدي عبد الكبير وغيره فناب الشيخ الكتاني من مراكش بكل تقديس ورعاية ، مما مهد إليه السبيل في نشر دعوته ، وبث علمه أكثر وأكثر . وكان رجوعه إلى فاس ، في رجب عام 1315 ، بعدما مكث بمراكش في إجلال من الحضرة السلطانية والوزيرية نحو 15 شهرا .

وبذلك التقدير والتقديس ، الذي قدس ، وقدر به ، من السلطان عبد العزيز ، والكتاب الطويل العريض ، الذي أصحبه معه ، وجد منبتا خصبا لزرع حب مبادئه الكتانية ، وحب شخصيته للعامة ، وطال ذلك عشر سنين من 15 إلى 1325 . وزاد ذلك اقتعاد السلطان عبد العزيز مدينة فاس ، قاعدة لملكه ، فكانت اتصالات ، ومواصلات ، وصلات من لدنه إليه ، ومن وزرائه وحجابه ، والناس على دين ملوكهم . وقد كان السيد إدريس بن يعيش وهو

ماء العينين طريقة ، ممن يعتقد أيضا السادة الكتانيين وخاصة سيدي محمد ، وقد كتب له عندما ازداد له ولد يهنئه به . بعد الحمدلة والصلاة على الفاتح : "الأخ سيدي إدريس عليك السلام التام أما بعد ، هذا يوم مبارك عليك سعيد ، ونطلب الله أن يكون على المسلمين قاطبة ". مما زاد في سعة سمعته وانتشار كلمته وشد مؤازرته مدنا ، وبادية عربا وبربرا . فجل علماء مراكش وقتئذ انخرطوا في طريقته ، فأحرى عامتهم . وانتشرت في الحوز كله وتمركزت في مدينة سلا ، والرباط أي تمركز . وفي مدينة أبي الجعد ، من تادلا ونواحيه بورديغة .

أما في البربر ، فقبيلة زمور ، على قطب رحاه تدور ، وكذلك في بني مطير ، وكَروان ، وآيت يوسي ، وسرغوشن ، ويتزر ، والأقصابي ، وما إلى ذلك . وحتى قبيلة زيان بدأت طريقته فيها تنمو شيئا ما ، ولكن لم تنتشر ، إلا حين قدم إليها شيخنا العلامة الحاج عبد الرحمان النتيفي .

وبالجملة ، فقد انتشر للشيخ الكتاني صيت ، وأي صيت ، بعد رجوعه من مراكش ، معززا مبجلا من السلطان عبد العزيز ، ووزيره الأعظم ، أنذاك السيد أحمد بن موسى وغيره . وهذا مما وجد فيه بعض مناوئيه غمزا ولمزا ، عندما انقلب على السلطان عبد العزيز ، وكان من المسارعين إلى خلعه ، قائلين إنه لم يقر له بإحسان . وتسارع إلى السلطان الجديد ، بكل ما أمكنه من تأييد غير مبال، بما قدم له الأول من نعم وأياد ، فجاء له من الجديد غيرُ ما أمّل جرّاء كفران نعم الأول . ونحن لا يهمنا من هذا شيء لأن من ينتقده ، يجد لسانا طويلا في الرد عليه ممن يعتقده .

والمهم عندنا أن حادثة السلطان عبد الحفيظ هذه ، مع الشيخ الكتاني ، فتحت عليه خرقا للتحدث به بسوء ، وسوء اعتقاد من الأمة ، الأمة التي لم يكن زمام لها يقودها، ورسن يردعها . فهي إلى الثورة ، والنزوة أقرب في كل هذه الأيام .

وقد زاد اتساع القضية خرقا على السلطان عبد الحفيظ، وفد الشيخ أحمد الهيبة [1] ، ابن الشيخ ماء العنين عليه ، بعد شد الرحلة الطويلة إليه من الصحراء للاستشفاع في إطلاق سراح أخي الشيخ الكتاني الشريف عبد الحي ، وابنه السيد محمد المهدي ، فأكبر الناس هذه الشفاعة التي جاء لها ، هذا العالم الجليل ، موفودا من أبيه العالم الجليل ، والشيخ المربي المعتقد ، سيدي ماء العنين . وكانت لهذه الرحلة أصداء في كل قبيلة ومدينة ، مر بها ، زادت للشيخ الكتاني سمعة ، بقدر ما زادت للسلطان ضعة .

---

1 - هو أحمد بن المصطفى ماء العنين المعروف بالهيبة . ولد في شهر رمضان عام 1293هـ/1875م . أخذ عن والده وتضلع في العلوم بمراكش وفاس .

كان أحمد الهيبة أشهر أبناء الشيخ ماء العينين ، إذ رشحه أبوه ، رغم صغر سنه ، قائدا للمجاهدين . وخاض عدة معارك ضد المستعمر ، كان أشهرها معركة سيدي بوعثمان ، في ضواحي مراكش ضد سرايا مانجان (7 شتنبر 1912) .توفي أحمد الهيبة في 18 رمضان 1337هـ/1919م ، أنظر المختار السوسي المعسول ج 4 ، ص.149-150 .

أعقل وأنا طفل صغير على هذا الوفد ، وقد مر على قبيلة زيان ، وحل صيف 1327 في خنيفرة . فنزل غروبا منها في ثلة من أصحابه ، يهيمن عليهم حب الله ، ويملأون الجو بالذكر والهيللة ، لا يفترون في خيامهم ولا في الطرقات ، التي يمشون فيها بكل هدوء ، وسكينة ، مما كان له تأثير عميق في نفوس أهالي خنيفرة ، وقائد زيان ، وقواد المحلة الزيانية . وكان قائد زيان يتردد إليهم ، كل عشية ، ويبعث لهم بالضيافة ، وكان والدي ، وهو ممن له ضلع في الطريقة التجانية ، ومع ذلك أكبر هذا الوفد ورئيسه سيدي أحمد الهيبة ، واعتقد صلاحه الغير المزور ، وكانت أيام مقامهم كلها مذاكرة ، في شأنهم وأعمالهم الدينية .

وأخيرا لما عزم على الرحيل ، توجهوا مع محمد وحمو لتوديعه ، فهاداهم هدايا ، ومن جملتها بغلة فارهة من البغال التي كان أهدى له السلطان عبد الحفيظ بسرجها المزركش . وكنا ونحن صبيان ، أن سرحنا من الكتب عشية ، نقصد خيام الشيخ ، فلا نسمع إلا لفظ الاذكار ممزوجة بالأشعار ، يترنمون بها لا يفترون ، جماعات وفرادى ، ثم يؤذنون لكل وقت ، فيخرج الشيخ الهيبة ويؤمهم . وهو إلى السمرة ربعه ، وعلى رأسه قلنسوة حمراء طويلة ، لم نر مثلها إلا على رأسه .

هذه الرحلة لهذه الشافاعة ، وإن كان المتشفعون عقلاء ، يملكون زمام مقالهم ، ولا يذكرون السلطان إلا بخير ، فالناس لابد يقولون فيه شيئا ، عن هتكه حرمة هذا الشيخ الشريف ، والعالم الشهير بفاس ، وإن لم يكن شيخ طريقة بإجماع . وأخيرا قوبلت شفاعة الهيبة ، وسرح شقيق الشيخ ، وولده بتاريخ رجب 1327 .

هذه من بعض استفزازات السلطان، ثم تلاها تجديد ثورة أبي حمارة من جديد، وهو ، وإن انتصر فيها كما انتصر في القضاء على الشيخ الكتاني [1] فلابد أن تبقى خموش ، في وجه المملكة الجديدة .

ثم هاهي الأيام تبدي حوادث أخرى ، في القبائل المجاورة لفاس . فهناك حوادث بالشراردة ، وشراكة ، ثم بقبائل الغرب [2] ، ثم نصر مولاي الزين ، بمكناس . ثم هناك حوادث بالقبائل البربرية التي على أبواب فاس ، بنحو 25 كلم ، تلك هي حوادث بني مطيروالشراكة والغرب التي أدت إلى الاستنجاد بالجيش الفرنسي في ربيع الثاني 1329 يوافق 11 أبريل 1911 ، وقامت إسبانيا بدورها فاحتلت العرائش والقصر، ودخلت القوة

---

1 - اعتقل الشيخ الكتاني بإشارة من الفرنسيين ، لأنه كان ينادي بالجهاد ، وعوقب جلدا بالسوط حتى توفي في 4 مايو 1908 . أنظر جعفر الكتاني ، نصيحة أهل الإسلام ، المصدر السابق ، ص 34.

2 - قامت الثورة (مارس 1911) ضد سياسة السلطان عبد الحفيظ بسبب عدم تنفيذ وعوده . فامتدت من ناحية فاس إلى جبالة ومشارف الريف ، ومن حوز مراكش إلى جبال الأطلس المتوسط . وكان من المنضمين لهذه الثورة قبائل الشراردة في ضواحي فاس وبني حسن في الغرب . وقد تركزت مطالب القبائل الثائرة في محاربة الأوربيين وطردهم من المغرب ، انظر.D. Rivet...,t1, p.89,90

الفرنسية مدينة فاس بقيادة الجنرال مْوانْيي ، وتمخضت الحوادث عن أشياء كلها ضد صالح المغرب ، مما أدى إلى عقد الحماية ، في 10 ربيع الثاني 1330 ، 30 مارس 1912 . وكانت ثورة العسكر المغربي [1] على الجيش الفرنسي بفاس في 17 أبريل 1912 ، ثم خلعت فرنسا عبد الحفيظ أو تنازل هو عن العرش لليوطي بمليون فرنك ، تسلمه وهو على الباخرة التي تقله لفرنسا .

موقف محمد وحمو في هذه الفترة .

بعد تمسك محمد وحمو بعقيدة تأييده للسلطان الجديد ، حتى وصل لعاصمة العلم فاس ، وبعد رجوع ولده باشا فاس ، بقي متمسكا بعض التمسك بتأييد السلطان. ولكن الأحداث صارت تهلهل منه يوما بعد يوم ، إلا أنه لم يتظاهر بشيء . بيد أننا سمعنا أيام ثورة بني مطير ، أن السلطان عبد الحفيظ ، أراد منه أن يتحرك لناحيتهم، كمشوش عليهم أو لمقاتلتهم إن شاء ، وإن فعل ، فهو الواجب المخزني . لكن الزياني لم يفعل شيئا من ذلك . وهذا الرائج من كتابة السلطان للزياني بالتضييق على بني مطير ، لم أتحققه من والدي الذي كانت كل المكاتب السلطانية لا تستقر إلا بيده ، ولا يصدر جوابها إلا عنه . إلا أنه شاع حتى تحدث الناس بأنه نفض يده من السلطان الجديد ، ويؤيده هذا الكتاب الصادر من الشريف مولاي عبد السلام بن محمد الأمراني ، خليفة السلطان ، عبد العزيز بفاس . وكان ممن له يد في تسيير شؤون البرابر في الدولة العزيزية ، ثم الحفيظية . إلا أن يده لا تصل إلى قبائل زيان ، وقائدها محمد وحمو ، الذي كان لا يسمع إلا كلمة السلطان وحده .

كتب هذا الشريف هذا الكتاب * لمحمد وحمو نصه :" إلى خديم حاجته ، وأسير شهوته ، من ليس له في البسيطة ود من قاص وداني ، محمد بن حم الزياني ، سلام تتوالى نفحاته ، ورحمة الله وبركاته على من بالعهود وفى ، وسلك في سره وجهده طريق الحنفاء . وبعد ، فقد ملأ الأذهان بعدما طرق الآذان ، أنك عزمت على شق العصا فويلك ثم ويل من حواليك ، إن بلغ ما نقل عنك هنالك . أما علمت أن هفوة العامة كغصة الطعام ، وهفوة الخاصة كغصة الماء ، لا دواء لها . ولعمري لقد تصديت لمقتك ، وسعيت بظلفك لحتفك ، وأيم الله ، لقد زلت أقدامك وطاشت سهامك ، شعر :

---

1 – ثار العسكر داخل ثكنة الشراردة أولا ، ثم في مدينة فاس ثانيا . هناك من يزعم أن نقمة الجنود المغاربة تفسرها التنظيمات الجديدة التي أدخلها الفرنسيون ، كإجبار الجندي المغربي على حمل حقيبته على ظهره ، وكإقتطاع ثلثي راتبه ، كثمن للطعام الذي فرض عليه تناوله في الثكنة ... إلا أن هذا الطرح يتناسى أن الجنود المغاربة ، كانوا متأثرين بمشاعر النقمة التي عمت المغرب كله ، إثر توقيع معاهدة الحماية ، نفسه ،ص 127-128.

*– "تاريخ سيدي بن زيدان ، ج 5 ، صحيفة 377". اهـ مؤلفه .

وقل للذي سامي الملوك تعاندا   فهل تعبر اللجات ويحك بالسبح

وعما قريب يتلى عليك ، وعلى رهطك قوله سبحانه : "وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة "[1] ولنا موقف بين يدي الله مع من قرأها . إن لم يقرأها عليه قراءة إفهام ، لعله يتذكر أو يخشى والسلام ". انتهى كتاب الشريف لزعيم زيان ، وقائدها المغوار بهذه اللهجة .

فقل لي بربك ما ظنك بهذا البطل الذي تربى في أحضان الاقتراب والازدلاف من المولى الحسن ، زهاء عشرين سنة ، ثم مع ولديه عبد العزيز ، وعبد الحفيظ ، الذين كانوا يكاتبونه ، ويخاطبونه ، بما يتناسب مع حرمته وكرامته الموفورة ، فما ظنك به إذا وصله هذا الخطاب النابي اللهجة البذي النعمة ؟ ما ظنك به ؟ الظن أنه ، إن كان طائعا عصى ، وإن كان لينا قسى ، ولاسيما في تلك الأيام التي اضطرمت فيها الفتن ، وابتلي فيها المخزن بكثير من المحن .

وإن كان هذا الكتاب ، جاء بدون تاريخ ، فالظن أنه في الأيام الأخيرة لهذا الشريف من سنة 1327 ، حيث بدأت الدسائس الفرنسية تدب في عروق الدوائر المخزنية ، فقد انزوى الزياني في أطلسه ، وربض في خيسه [3] حتى فغر [4] العود ، وفاه لابتلاع الوطن ، فحرك منه ما سكن، وأقلق من راحته ما ظهر وما بطن .

1- سورة النحل : 111 .

2 - موضع الأسد ،نفسه ، مادة خِيسَ .

3- فتح فمه لابتلاع المغرب ، نفسه ، مادة فغر .

الجزء الثاني

مقاومة محمد وحمو للحملة الفرنسية وقيادته للبرابر الأطلسية

لا يشك أحد في مقاومة القبائل الأطلسية للحملات الفرنسية عموما آيت أمالو ، وقبيلة زيان خصوصا ، وعلى رأسهم بطلهم الشهيد محمد وحمو الزياني ، مقاومة تقرب من 27 سنة ، من سنة 1325 يوافق 1907 ، عند احتلال الدار البيضاء ، إلى آخر يوم استسلم فيه آخر بطل في الأطلس ، سنة 1352 ، 8 غشت 1933 .

وقد ذكرت بعض التقارير الفرنسية ، أن الفرنسيين تكلفوا في مدة خمسة وعشرين سنة ، التي قاوم المغرب فيها حملاتهم ، خمسمائة وخمسا وسبعين حملة مسلحة ، تسفر لوائحها الرسمية عن ثمانية آلاف وستمائة وثمان وعشرين قتيلا ، ومن الجرحى 13324 . أما مائة وثلاث حملات من هذه الحملات ، فقد وقعت كلها ما بين مارس 1914 ، وسنة 1918 أثناء الحرب العظمى .

ولا شك أن هذه المعارك بهذا التاريخ كلها ، إن لم نقل كلها ، مع قبائل زيان بالخصوص عندما احتلت خنيفرة في سنة 1914 . وكانت مقاومة الزيانيين على أشدها ، ثم بعد ذلك بسبع سنين ، حتى استشهد بطلهم محمد وحمو ، في 17 رجب 1339 ، يوافق 27 مارس 1921 ، فاتسعت دائرة الجهاد ، وانتقلت لتراب إشقيرن ثم آيت سخمان ومن والاهم، حتى كان الاستسلام الأخير بالأطلس الكبير ، من جبال بادو . وما جنحوا للاستسلام ، وانقادوا إلا بعد ما هلكوا جوعا أكثر منه تقتيلا فبادوا ، وبعدما انقطع عنهم القوت ، وصار الطعام عندهم أعز من الدر والياقوت . وقد حوصروا في الشعاب والكهوف ، ولم يبق لهم رجاء إلا في الدعاء ورفع الكفوف .

بعض ما قاسوه من آلام ، حتى أذعنوا للاستسلام

باطلاع الرأي العام على ما قاساه هؤلاء المجاهدون من شدائد وآلام ، يقبل عذرهم في الاستسلام ، فقد قاتلوا ، ودافعوا على دينهم ، وترابهم شبرا شبرا . وما كانوا ليتزحزحوا عنه قيد أنملة ولو بملء الأرض ذهبا ، وتبرا ، حتى ضاق عليهم السهل بما فيه ، ولجأوا إلى الجبل وفيافيه ، ثم ولجوا إلى الكهوف والمغارات، لما شنت الطائرات عليهم الغارات ، ثم رموا القذائف، داخلها وخارجها ، وأغروا بهم شيطان الحرب ومارجها ، فقتلوا فيها نساء ورجالا ، شيوخا وأطفالا . وحكاياتهم فيما قاسوه من هول طويل ، يكاد يكون من المستحيل ، مما لا يعيش معه عادة البشر ، إذ قد غارت العيون في الأشخاص ، وشوهت البشر . وما ذلك إلا للإيمان الذي خالط سويداء قلوبهم ، إيقانا بما أعد الله للشهداء ، حتى كأنهم يرون ذلك عيانا .

ولا بأس أن نسوق بعض حكاياتهم في ماجرياتهم ، وحكاياتهم في ذلك تطول ، ولنسق منها بعض الفصول .

الذين تحدثوا عن محن المجاهدين المهاجرين المحاصرين ، في آخر معقل لهم

"تازكَزاوت" كثيرون ، وكثير حديثهم عنها . واخترت في سياقها ما حدثني به جماعة من طلبة علم وقرآن ، في مدرسة لم تزل تحمل راية التعليم والإقراء بأطلس زيان ، جماعة من طلبة أروكَو ، بآيت إحند : وهم الفقيه المقرء المسن الملازم للمسجد بالتعليم زهاء خمسين سنة ، السيد ميمون بن علي ، والطالب السيد محمد نسيدي حدو ، والسيد أحمد بن موحا والأحسن المعمر نحو 130 سنة ، والطالب السيد ادريس بن الأحسن اليوسفي ، والسيد موح وهنيط العيساوي ، وموح وعلي نحادة .

فقد حكوا مجتمعين -دخل كلام بعضهم في بعض – أنهم ، بعد مقاومتهم الشديدة في الجهاد ، هاجروا من مدشرهم أروكَو حوالي سنة ، فواصلنا السير إلى تازكَزاوت ، حيث كان الحصار الشديد ، فكنا لا نستطيع الخروج إلا ليلا ، لشدة الحصار المضروب علينا من الجيش الفرنسي ، والمتعاونين معه ، والطيار الذي لا يتراءى له شبح إلا ألقى قنابره عليه ، فكنا نخرج ليلا وقد فقد الطعام في كل معسكر المجاهدين ، فكنا نخرج ليلا لنلتقط حب تاقة الحار [1] ، فندخل بـه الكهوف ، ونطبخه ، ونصفيه مرة بعد أخرى ، حتى تزول مرارته شيئا ما ، فنطعمه ، وكان صبياننا يخرجون فيأكلون القمامات [2] النابتة على المزابل . وكانت بقية بعض الأنعام فهي نهبة بيننا ، والمحظوظ من ظفر بشاة منها صدفة ليلا ، يدخلها معه إلى الكهف ، فتقسم بين الجماعة ، أوالجماعات التي فيه ، مضغة ، مضغة ، مضغة . ومن لم يجد فربما أخذ الدم وطبخه وأكله ، وقد يظفر بعضنا بفرس أو بغل ، فيذبحه ، ويقتسمونه كذلك . أما إذا وجدت " كاملة " من حب عند بعضنا ، فإننا نقتسمها مِعْلقة معلقة . هذا ما كان أيام تازكزاوت ، أما بعدما فرّ من فرّ منها ، بعد استسلام الكثير ، فإنهم لاقوا من ذلك ما أدهى وأمر .

وحكوا أن واحداً منهم يسمى واسلام جاع حتى أشرف على الهلاك، فامتد على الأرض ، يجود بنفسه . فبحثوا له عن الطعام ، حتى عثروا على معلقة من حريرة ، فأتوه بها فصاروا يصبون منها في فيه ، فلمّا أحس بالطعام وصل لحلقه ، صاح في وجوههم ، دعوني للموت ، فالموت أولى بي ، لأن فيها راحتي وشهادتي . وبهذه الجريعات التي تصبون في حلقي ، يبقى فيَّ ذَماءٌ [3] ، وفيه لي عناءٌ . وحكوا أن أحد أبناء عم لهم ، يسمى مبارك بن محمد وناصر ، اشتد به الجوع هو وأسرته ، فذهب يبحث لهم عما يقتاتونه ، فتطوف ما تطوف ، فلم يعثر على شيء ، فرجع إلى أهله صفرا وألقى نعليه من رجليه وانبطح على الأرض فتبادر أهله إلى النعلين وألقوهما في النار فأكلوهما .

---

1 – الساج ، ابن منظور ، المصدر السابق ، مادة ساج .
2 – الكناسة ، نفسه ، ماد
3 ـ مشقة ، نفسه ، مادة ذَمَأَ .

وحكى الفقيه سيدي ميمون أنه في حصارهم بجبل بادّو[1] ، حبسهم العدو عن الماء ، فكان أحدهم يشتري شربة ماء " إن وجدها بمعزة " – قال وعطشت لي بنت ، حتى أشرفت على الموت ، وامتدت للأرض ، وجحظت عيناها ، فأغاثنا بعض بجرعة ماءٍ ، فصببنا في فيها جرعة أو جرعتين فأفاقت– وحكى أيضا أن العدو، هاجمهم ليلة، في برد قارس ، وثلج خاشف . قال : ففررنا وكانت زوجتي نُفساء بولد إثر ولادتها . قال فحملته في قبي وكنت كل مرة أهم بطرحه تخفيفا من ثقله فتناديني أمه بهذا اللفظ " قدمت عليك أرزاق الله إن كان حيا فلا تلقه وإن مات فافعل به ما شئت " . قال فكنت أضع أصبعي علــى أنفه ، فأجده لا يزال يتنفس فأتركه حتى حللنا بالمحل الذي أمنّا به ، من هجوم العدو ، فعاش وهو الذي تراه أمامك. فنظرت فإذا هو شاب نشيط، في ريعان الشباب ، وهو القيم على فلاحة وكسب أبيه الكثير . بارك الله لهما فيه . هذا مختصر ممّا حكاه لي أولائك الطلبة ، اقتصرت عليه من كثير من الحكايات في هذا الموضوع ، وأسوق ما حكاه لي أحد الفقهاء المجاهد الشجاع المقاوم المكافح ، ابن الشجاع المقاوم المكافح ، الشريف سيدي عبد الرحمن بن سيدي محمد الحاج المعروف بالإمام ، وهو وأبوه ممن قادوا المعارك في الأطلسين ، المتوسط والكبير ، مع إخوانه وشرفائهم ، آيت سيدي يحيى ويوسف ، في قبائل غيرها اشقيرن ، وآيت سخمان ، وآيت يفلمان .

قال كان والدي مرابطا في جبل أوراغ " الأصفر " بين تونفيت ، وانزگمير " الأطلس الكبير " ، على مسافة نحو 30 كلم من ميدلت . فهاجمتنا القوى الفرنسية ، بعد احتلال ميدلت سنة 1350 يوافق 1931 ، ففررنا بعدما استسلم كثير من قبائل هذ الناحية – فأما والدي ، فتوجه لناحية أسول نسيدي يويعقوب ، جبل لآيت مرغاد على نحو 150 كلم من ميدلت ، وإليه أغبالو انكردوس[1] التي كانت معقل الوطنيين . قال وأما أنا ففررت لناحية تازگزاوت – وفي العام المقبل توجهت لنا المحال من مركز خنيفرة ، ومن مركز ميدلت ، وكنت على رأس قبائل . وكان البطل سيدي المهدي بن سيدي علي أمهاوش ، على رأس قبائل أخرى ، فهاجمتنا القوى الفرنسية ، يتعاضدها المحال القبائلية ، التي صالحت ، فالتجأنا إلى جبال " تازگزاوت " بجميع ما بقي لنا من متاع ، وأنعام ، وماشية ، فحاصرتنا الجيوش المهاجمة شهرين ، داخل الكهوف التي وَلجناها ، إذ لم يبق لنا مقر ، بالعراء لهجوم الطائرات نهارا على كل من تراءى لها – أما الأنعام والماشية فقد بقيت سائمة ؛ بل هائمة ، لا راعي لها ولا مالك . فهي نهب بين الجميع ، ممن تمكن ليذبح منها ذبح . ولا قوت لنا إلا هي ، لأن الحَبَّ

---

1 ـ يقع هذا الجبل في الناحية الوسطى للأطلس الكبير . وقد كان آخر معاقل مقاومة الاحتلال الفرنسي . ابتدأت تلك المقاومة عام 1914 بقيادة مبارك من حسين التوزونيني في تافيلالت ثم امتدت إلى جبل بادو مع زيد اسكونتي الذي صار قائدا لجهاد قبائل آيت مرغاد ، واستمرت المقاومة إلى 5 غشت 1936 . معلمة المغرب ، المصدر السابق ، ج . 3 ، ص . 963 .

قد فقد بالمرة – أوْ حب تاقة ، وأعشاب الخلاء ، إن وجدت – وكان العدو يتصيدنا بواسطة بعض الأذناب ، من أبناء قومنا الذين تعاونوا معه – وكان أشدّ ما علينا القنابر اليدوية ، أو التي تلقى من البنادق التُساعية ، وهي بنادق تحشى بقرطوشة ويوضع على فمها قنبرة صغيرة تقذفها القرطوشة إلى داخل المغارة ، والكهف ، فتتفرقع داخله فتفتك بمن فيه فتكاً ذريعاً ، ولا نستطيع أن نخرجه لدفنه ، لكن من فضل الله وبركة الجهاد لا توجد لأولئك الشهداء رائحة نَتْنٍ أصلاً ، قال محدثي ، وهذا تصديق لما أخبر الله به " ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله - الآية – "[1] قلت لمحدثي اتق الله فيما تخبر به، فإني سأحدث بهذا عنك – فأقسم بالله أنه هو الحق، وهو ما أقول لك . ثم قال ، وقد طالت هذه المعارك بتازگزاوت شهرين ، إلا أن أيام الحصار الشديد ، التي لجأنا فيها إلى المغارات ، وولجنا فيها الكهوف هي ثمانية عشر يوما آخرها ليلة كِدنا نموت فيها جوعاً ، فضربنا ليلا خويمة صغيرة ، وذبحنا شاة على فم الغار . فبينما نحن مشتغلون بتهيأة شواء لها ، تراءت نارها الضئيلة للعدو ، فصوب علينا قنبرة وألقاها ، فقتلت أربعة ممن في الخيمة ، فيهم إحدى زوجاتي وتشتت الجمع ، وفررنا ليس في يدنا إلا البنادق . وفي هذه الليلة شرع المجاهدون في المخابرة مع قواد المحلة المهاجمة للاستسلام ، فاستسلم الجل ، ولم يبق إلا القليل وأنا منهم ممن واصل الهجرة لأسول ثم إلى بادّوا – فاستسلم في السنة المقبلة .

أما أنا فقد واصلت الهجرة إلى جبل أسول نسيدي بويعقوب ، حيث كان والدي – فحكيت له المآسي ، التي مرّت ، وفاوضته في مواصلة الهجرة إلى سوس حيث مرّ به ربه [2] . فقال نستشير شيخ الجماعة ، وعالم المجاهدين ، العلامة سيدي محمد بن الحاج التالتفراوتي [3] . فلما استشرناه، أجابنا بأننا لا نبرح مكاننا – وما هي إلا، قال الله : " إحدى الحسنيين "[4] . فبقينا في هذه الجبال الأطلسية ، حتى هاجمنا العدو من السنة التالية بعدُ ، فاستشهد والدي برصاصات ثلاث ، إحداها تحت عينه اليمنى والثانية في كتفه ، والثالثة في ذراعه . واحتلت القوة الفرنسية آخر مركز لمقاومة الأطلسين في سنة 1352 يوافق 8 غشت 1933 . ووجدت هذا المجاهد طريح طلقاتها العدوانية ، فحملته لأول مستشفى عسكري لها ، ولكنه ما طفق أن استشهد في أمْدغوس . فدفن بقصر تِيَدرين ، بقبيلة آيت مرغاد انتهى . من فم ولده وترجمته

---

1 – سورة آل عمران : 168 .

2 – أ حد أبناء الشيخ ماء العينين الذي قاد جيش أخيه أحمد الهيبة في معركة سيدي بوعثمان السالف الذكر .

3 – سيعرف به المؤلف في الصفحات القادمة .

4 – سورة التوبة . 51 .

تاتي إن شاء الله . والعلامة التّالتفراوتي وآخرون واستسلم الباقي بجبل صاغرو ، في يبراير 1933 - مما سنفصّله في محاله الآتية إن شاء الله . وعلى قوله ، لا نجد نتْناً في شهداء المعركة ، هذا أمر كاد الحاكون يتفقون عليه ، وقد كان ممن استشهد في حصار تازگزاوت بطل المجاهدين سيدي محمد المهدي بن سيدي علي أمهاوش - القيت عليه قنبرة ، هو وأسرته ، فاستشهدوا جميعا - واتفق من حكى عنهم ، ومن جملة من حكى قائد " وكان في الجانب الفرنسي " . حكى لي أنهم استشهدوا ودفنوهم جميعا في محل واحد . قال فكنت أمرّ على قبوهم ، " وأحلف بالله العظيم " أني كنت أشم لها رائحة طيب ، تفوح من قبورهم ومن حولهم ، كأن مائة مبخرة عود ماوردي تضوع من جوانبهم ، وفي ذلك المحل " . هذه ألفاظُه تقريبا. والحاكي من أكبر الأسر المترفهين الذين يصرفون المبخرة والعود الماوردي وغيره .ونحن لا نشك في هذا لأنه وعد الله وقوله في كتابه ، ومفصح به في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتواترة الصادقة .

نصيب العلماء في هذا الجهاد ، هو الدافع الأكبر لهذا الاستشهاد

ممَّ جاء هذا الاخلاص ؟ وهذا التفاني ؟ وهذه الاستماتة ؟ وهذا الدفاع عن حوزة الدين والاسلام والقرآن ؟ كل ذلك مما بثّه علماء هذا الأطلس في مجالسهم العلمية ومجتمعاتهم العلانية والسرية ، حتى وقر ذلك في قلوبهم ، مما كان له أثره المتقدم .

فلم يزل العلماء هم قادة الأمة المغربية المسلمة المؤمنة المتدينة، وعلى نبراسهم يهتدون . ومن مقباس أشعته يقتبسون . فهم لهذه الأمة المغربية كالقلب إذا صلح ، صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله - وليس العلماء بهذه المثابة في خصوص حواضر المغرب وعواصمه فحسب ، بل كل نواحي المغرب في ذلك سواسية - ولا يستغرب المرء إذا حدث عمّا في قُنن هذا الأطلس البعيد ، عن فاس ، ومراكش ، من أثر العلم والعلماء ، في نفوس أولائك الأطلسيين البرابر الاقْحاح ، سكان الخيام ، ومتاخمي الأرز، والسنديان * بتلك الْلأجام .

وأنت إذا أمعنت النظر في من جاهد ، واستمات كما قدمنا ، ووصفنا بعضه لهؤلاء البرابر ، تجده ممّن تأثر بأقوال علمائهم ونصائح فقهائهم . وإن غالب هؤلاء البرابر هم آيت أمالو ، زيان اشقيرن ، آيت سخمان ، وقليل من آيت يسري ، وآيت يفلمان - فأما زيان فينضوون تحت لواء المجاهد الأكبر والبطل الأشهر، محمد وحمو الزياني .

وأما اشقيرن ، وآيت سخمان وبعض آيت يفلمان، فينضوون تحت لواء سيدي علي أمهاوش واتباعه ، من الدرقاويين كأولاد سيدي الطيبي الهواري .

وأما آيت يسري ، فينضوون تحت لواء القائد الوديع السيد موحى وسعيد الويراوي وسنفصل أعمال كل في هذا الكفاح إن شاء الله في محله .

فأما محمد وحمو ، فقد تشبع بفكرة الجهاد من الملوك العلويين ، الذين خدمهم زهاء 40 سنة ، وبخاصة السلطان المولى الحسن ، ومن العلماء الذين كانوا يترددون على عاصمته

خنيفرة من حين لآخر ، وخاصة من ناحية الصحراء تافيلالت حيث كانت حوادث بوذنيب واحتلال تافيلالت الأول – وكذلك حوادث احتلال الدار البيضاء . وفي رجب 1327 ، حلّ بعاصمته خنيفرة الشيخ سيدي أحمد الهيبة الشنجيطي ، ماراً لفاس ليشفع في إطلاق سراح الشرفاء الكتانيين ، وكله غيرة وحماس في الجهاد. وكان من الظروف المواتية لهذه الروح الجهادية ، أن القدر ساق سنة 1325 إلى قبائل زيان شيخنا العلامة الحافظ المتسع الأفق ، علما ، وأصولا وتفسيرا ، وحديثا ، سيدي الحاج عبد الرحمان بن محمد النتيفي سنة 1325 ، وهي السنة التي احتلت فيها مدينة الدار البيضاء – وصادف في رجوعه من فاس سنة 1325 احتلال الدار البيضاء، فحضر بعض معاركها، مع الشاوية، وخصوصا يوم تادّارت، واندحار المحال الشاوية ، ومن ثم واصل سيره لقبيلة زيان ، بقلب يفيض غيرة وحماسا ، على الدفاع عن لواء الإسلام ، حيث ما رآه في قبائل الشاوية ، من الانحلال والتبجح بالشجاعة الفارغة ساءه جدا ، وكان يأمل أن يجد في قبائل البربر ضد ذلك .

فلما توجه العدو لهذه القبائل الأطلسية ، كان كله فيضا وحماسا ، وكان هو المرجع في الاستفتاء حول الجهاد والهجرة والرضى بالمقام ، تحت حكم الأجنبي ، فكان شديدا صلبا في ذلك أول الأمر ، وكان يلقي محاضراته في الجهاد والحث عليه من تفاسير القرآن والآيات الواردة في ذلك ، وكانت تجتمع عليه جموع من القبائل ومن تلاميذه وأنا أحدهم . فيسرد عليهم منالمغازي ، ومن فتوح الشام . وإذا وصل لبعض القصائد الشعرية الحماسية، يتلوها بنفسه بنغمات مؤثرة ، ودموع منهمرة على خده ، وكذلك البعض من تلاميذه ، حتى يصير الجمع كأنهم في جنازة .

وأعقل أني سافرت بعد احتلال فاس ومكناس ، لعاصمة مكناس " وأنا صغير " ، سنة 1331 ، لبيع الدار التي بقيت لنا به لقطع العلائق بين الزيانيين المجاهدين والمحتلين ، " وسأقص ما جرى في محله " ، فوجدت بعض المبشرين الأميركيين ، قد فتحوا محلا يلقون بعض تباشرهم فيها ، ويوزعون مناشير التبشير ، فاحتفظت بأحد المناشير.

فرجعت به من مكناس ، فمكنته في بعض مجالسنا من ذلك المنشور . فما أن اطلع عليه حتى هاج بالبكاء . وانهمرت دموع عينيه ، وصار يتغنى بشعر مرتجل ، " وإن كان شعره ليس بذاك " ، إلا أنه كله حماس ونوح على الإسلام ، وتذمُّرٌ على ما وصل إليه ، حتى صار مغزوا في عقر داره – وصار يُحلِّلُ ما في ذلك المنشور ، وأن الغرض من هذا الاحتلال الفرنسي هو تنصير هذه الأمة المسلمة ، كما سبق للأندلس الشقيقة ، من دولة الاسبان ، وساعده على بكائه تلاميذه الطلبة والعوام، فكانت ساعة مأثرة حانقة ، خانقة، عبرة ، وعبرة .

وكان من جملة الأوراد التي تتلى بعد قراءة حزب العشي ، وكذلك عند اجتماع جموع لقبيلة التي ترد عليه للاستفتاء في الجهاد والمجاهدين قصيدة أبي عبد الله محمد بن المصطفى المشرفي التي مطلعها:

دع عنك داعي السرور والمزاح واسلك سبيل من بكى الدين وناح

وعندما هجم الجيش افرنسي على الدار البيضاء ، وبوذنيب ، ووجدة ، وما إليها وتشوف العلماء إلى رجال القبائل البربرية ، وغيرهم ممن اشتهروا بالشجاعة ، كمحمد وحمو الزياني وأضرابه ، في ذلك الوقت ، وجّه بعض العلماء نسخة من هذه القصيدة للوالد ، ليستنهض هو بدوره القبائل البربرية عامة ، وبطلها محمد وحمو خاصة ، فألقيْتها إلى شيخنا المذكور . فسدت فراغا عظيما ، وتأثر بها رجال ، وفتحت المجال لمناهضة العدو مناهضة قلّ نظيرها ، مما أدى إلى الفئة الطيبة الصالحة ، منهم إلى الاستماته ، استشهادا في بلادهم ، وفي مهاجرهم ممن يصدق عليهم قوله تعالى " رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر " . وهذا الذي بقي ينتظر ، لم يبق إلا شبحا فارغا غارت منه العيون ، وذبلت منه الوجوه أصدق ما يقال فيهم هذا :

فما الحب حتي يلصق الجلد بالحشي وتـذبـل حتى لا تجـيب المناجيا.

ولم يقتصر الفقهاء ، " وإن كانوا قليلا في هاته القبائل " على الدفاع عن الاسلام بأقلامهم فقط ، بل بخوضهم غمار الحروب لآخر نفس ، فاستشهد منهم من استشهد ، وبقي رغما عن الحصار ، والضيق من بقي ، بعد اليأس من المقاومة ، فرجعوا من الجهاد والهجرة ، بأجسامهم، ونيتهم لازالت مجاهدة مهاجرة يثيبُهم الله عليها، بفضله وسنذكر كل واحد بأعماله .

إرهاصات سبقت أوان الجهاد من علماء الأطلس

وقد تقدم هذا التاريخ إرهاصات من علماء الأطلس البرابر ، ومن حولهم في سبيل الجهاد . وذلك عندما صار الجيش الفرنسي يتطاول على الحدود المغربية ، وتشرئب عنقه مطلا عليها من ناحية الجزائر ، فقد قامت قيامة العلماء المجاورين لتلك الناحية ، وكان من أبرزهم الشيخ الشريف المرشد سيدي محمد العربي بن الهاشمي الدرقاوي المضغري ، لابأس أن نورد بعض ترجمة هذا الشريف، الشيخ الرباني المربي بالحال والمقال، في تواضع ، ومسكنة ، ونكران ذات . وهو محمد العربي بن محمد الهاشمي بن محمد بن العربي ابن الحسن بن أحمد بن عبد الرحمان ، بن عمرو بن الحسن بن يوسف بن مولاي علي الشريف الشهير ، دفين الرصاني ، الرجل الصالح الناصح ، المخلص العابد الزاهد الداعي إلى ربه ، بقلبه القول فيه " خيركم من إذا رُئيَ ذكر الله ".

ذكر بعض أوصافه مواطنه مولاي الهاشمي ابن الغالي المضغري إمام مسجد قصر السوق ، ذكر بعض أوصافه في ترجمته وأنشد بعدها :

إذا طرقت مسامعنا ابتهجـنا وفزنا في سـرور واغتـباط
وخلنا أن تاليها علينــــا ينادينا الى نادي الـنشاط .

وذكر من أخلاقه أنه كان لا ينادي أحدا إلا بالسيادة ، كيفما كانت حالته وحيْثِيَتُه ، حتى اليهودي . وكان من التواضع ، وعدم الاستشراف للرياسة بالمكانة التي يغبط عليها -

فما كان يدعي بدعوى علمية ، أو حسنية ، أو صوفية . وإنما كان يقول أنا عبد الله المسلم فقط ، وحكى مولاي الهاشمي المذكور ، عن شيخه العلامة سيدي محمد بن المامون أن أحد أشراف مضغرة من القصبة القديمة ، يسمى محمد بًّادِيدِي ، قال لأحد الأشراف أيضا المسمى مولاي المصطفى بّاحَدُّو بلعيد ألا تذهب معي لزيارة الشيخ سيدي محمدالعربي ، فأجابه هذا الأخير وماذا عسى أجني من زيارته ؟ وبم يفضلني؟ فإن كان يزعم أنه شريف علوي ، فأنا أيضا شريف علوي ، وإن كان كبير السن فأنا مثله كبير السن ، وإن كان هو من كاووز " مقر الشيخ "، فأنا من القصبة القديمة ، فليات هو ليزورني . فقال بّاديدي هو شيخ ، فأجابه بّاحدّوا ، ليته كان مسلما ، فضلا عن أن يكون شيخا ، فثارت ثائرة بّاديدي واستشاط غيظا من مقالة بّاحدو الطائش ، وكان يمسك عليه بتلابيبه حتى حيل ما بينهما ، فذهب مسرعا للشيخ سيدي محمد العربي ، وهو يجيش غيظا ، يرجو من شيخه أنه إن أبلغه هذا يثور مثله فينتقم، ولو بالدعاء عليه. فلما مثل بين يدي شيخه ، وقد رأى تأثره الزائد ، فسأله شيخه . ما موجب هذا التأثر ، وهذا الغيظ لدرجة الغضب ؟ ماذا جرى ؟ ما الذي أقلقك ؟.

فأجابه التلميذ : شيء عظيم يا سيدي ، وأعظم من العظيم . فقال له قل ولا تحتشم . فلم يزل يلح عليه حتى أخبره بالواقع ، وهو يرجو أن يثور على ذلك الطائش ، ويغري عليه ثائرا مثله، أو باطش . وعلى الأقل ، يدعو عليه دعوة ربانية تجتث أصوله ، وفروعه ، وتشتت شمله ، وجموعه ، ولكن ما ذا كان جواب الشيخ ، على هذه المقالة النابية ، كان جوابه : " اسمع يا سيدي محمد ، أنت شريف ، قال نعم ، وأنت عالم ، قال نعم . وأنت عدل ، قال نعم ، قال : فأَصغِ لي واستمع لمقالي ، واشهد علي بأني مسلم ، أشهد أن لا إلاه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وكررها ثلاثا . ثم قال له . وإذا رجعت إلى مولاي المصطفى بّاحدّوا ، الذي يحاجك في إسلامي ، فقل له لقد سمعت محمد العربي يتشهد شهادة الاسلام ، وأمامي وبمحضري " . نطق بكلمة الإخلاص انتهى – وهذا غاية ما يكون من نكران الذات ، والزهد في حب الرياسة الذي أكل قلوب كثير ممن يزعم الصلاح ، والإصلاح ، وهو ينغمس في حب الدنيا وحب الرياسة ، يجد المهاترة بل والمقاتلة . وله غيرة مع الله ظهر أثرها في كثير من الأحوال ، بدون أن يخبر بها أو يتبجح ، لوقوعها – ومنها ما وقع له مع القائد محمد والطالب اليوسي ، وسنوافي القراء بشيء منها في ترجمته – توفي الشيخ سيدي محمد العربي يوم الجمعة ليلا في واحد وعشرين جمادي الثانية عام 1309 . وقد كان والده من العلماء الأجلاء ، وولي قضاء تافيلالت ، ومضغرة معا . ولما ضَعُف ، قدم استقالته ، وطلب الإعفاء ، فجاءه الإعفاء باحترام مؤرخا ب 18 جمادي الثانية 1259 (صحيفة 17 من كناش مساهمة). فقد كان هذا الشريف كله غيرة وشعلة نار في وجوه المستعمر ، وهو من عباد الله الصالحين .

وقد زاد هيجان المستعمر ، إلى الاستحواذ على المغرب في أوائل هذا القرن ، زيادة

مفرطة . وصارت الحرب الباردة بينه وبين ملوكنا تتأجج ، والملك الحسن قدس الله سره ، ينافح بحنكته وسياسته ، والمغرب ترتعد فرائصه من حين لآخر بما يكفهر به الجـو مـن ذلك ، وكل يحمل قدر إيمانه ، من صدمات ، والعلماء وأهل الخير ورجال الدين . فكان هذا الشريف من اكتوى بنار تلك الحوادث للقرب من الحدود الجزائرية - لأجل ذلك كان يكاتب المعتقدين فيه ، من القبائل الصحراوية والبربرية . مكاتب كلها حث وتحريض على الدفاع عن حوزة الإسلام وحماية الوطن . فمن ذلك هذا الكتاب الذي يقول فيه ، بعد الافتتاح بالبسملة :

" إلى كافة كل من يبلغه كتابنا هذا من جميع إخواننا المومنين ، الذين يريدون الله ورسوله والدار الآخرة عموما ، وخصوصا علماءهم ، وأهل الفضل منهم ، ثبت الله قدم الجميع على الإيمان بالله ، والاعتصام بدينه . إلى القائد ، وسلام تام شامل عليكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد : فقد قال جل وعلا ، بسم الله الرحمان الرحيم "يأيها الذين آمنوا لا تتحذوا عدوي وعدوكم أولياء" [1] الآية - وقال تعالى" لا تجد قوما يومنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله"[2] الآية . فإذا فهمتم معنى ذلك ، وتأملتموه ، وتحققتم وتيقنتم به ، وارتفع عنكم الوهم ، والشك والظن والتلبيس فاعلموا أن الله تبارك وتعالى نهى جميع المومنين، وجميع المسلمين، وجميع المحسنين وجميع عباد الله الصادقين، في عبوديتهم له بالقول ، والفعل ، والخُلق ، والحال من موالاة ومودة ، ومحاداة أعدائه ، بأي وجه كانت الموالاة . قال تبارك وتعالى " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤا ولعبا"[3] الآية . وقال سبحانه : " يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فإنه منهم (4) " إلى قولة لقد نصركم الله الآية.

واعلموا أنه لم يزل يبلغنا عن المسلمين ، أنهم لا يزالون يطلقون لأعداء الله ، وأعدائهم ما أغناهم الله ، وقوّاهم به ، على الثبات على دينه ، من خيل ، وإبل ، وبارود ، وشياه ، وبهائم ، وثياب ، وصوف ، وغير ذلك ، بعدما بلغنا أنهم قطعوا الكبريت عن المسلمين منذ زمان[5]. وكثرت علينا الأخبار والمراسلات بهذا الأمر ، ولم يبالوا ، ولم يتنبهوا ، ولا تفطنوا ، لما أصابهم . وأحزننا ذلك غاية ، وأكربنا غاية وأهالنا غاية . وخِفنا على ما بقي من هذه

---

1 - سورة المتحنة : 1 .

2 - صورة الحشر : 51 .

3 - سورة المائدة : 56 .

4 - سورة التوبة : 22 .

5 - تقدمت فرنسا با حتجاج إلى الحكومة الاسبانية حول عدم بيع الذخيرة والأسلحة للمجاهدين المغاربة في بداية القرن الماضي . انظر مقالة محمد كنيب :

Protection, protectorat et nationalisme (1904-1938), in Hesperis-Tamuda, vol. XVIII, 1978-1979, pp. 172-197.

الأمة أن يقع لها ما وقع لجزيرة الأندلس ، وغيرها من مدن الإسلام ، التي أُخذت بالاستيلاء عليها بلا شيء . فإن الله تبارك وتعالى يقول " ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة " وقال تعالى " أفأمنوا مكر الله ، فلا يامن مكر الله إلا القوم الخاسرون" إنا لله وإنا إلية راجعون ثلاثا ، اللهم أجرنا في مصيبتنا هذه ، واعقبنا خيرا منها . اللهم لا تومنا مكرك ، ولا تنسنا ذكرك ، ولا تكشف عنا سترك ، ياأرحم الراحمين يارب العالمين .

قلت بحول الله وقوته ، وتأييده ، ونصره " لا تجد قوما " أي جماعة يصدقون بالله ويصدقوه ، بما أمرنا به سبحانه لا إلاه إلا هو . أي لا تجد جماعة مومنة مصدقة بسيدها ومولاها صادقة في عبوديتها له ، تحب جماعة كافرة ؛ بالله تبارك وتعالى ، مكذبة بالله تبارك وتعالى ، وبما جاءت من عنده، باغضةً لكل من كفر بالله بغضا ذاتيا، قال الله العظيم : " والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض " فالمومنون يحبون مولاهم ، وسيدهم، ويحبون ما يحب سبحانه، من عبوديته ويبغضون ما يبغضه تعالى من الكفر ، وترك عبوديته . وقال تعالى " ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" وقال العليم الحكيم " أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو"الآية .

وفي 4 شعبان الأبرك عام 1303 ، خديم أمة رسول الله ، المشفق عليها محمد العربي ابن محمد الهاشمي الحسني الله وليه .

وكتب أيضا لكافة الإخوان المسلمين ، بتاريخ شعبان 1303 . يقول ، إنه ورد عليه كتاب من أهل فيجيج يخبرونه ، بأن النصارى رجعوا لخدمة الجبل المسمى بومناس ، إزاء جنان برزاك ، يمدون فيه الطريق ، ليجتازوا منه لداخل المغرب ، وأن الخَدَمَة الذين يخدمون معهم ، يأتون من ناحية تافيلالت ، فحذرهم من إعانة النصارى بأي خدمة كانت ، وساق في ذلك آيات عدة ، وأحاديث مثلها وهو مؤرخ ب 18 شعبان 1303 .

أثر هذه المكاتب على الناس

من أجل هذه المكاتب قامت الناس وقعدت ، متأثرة بذلك . يدل على ذلك المكاتب الواردة عليه في الموضوع ومنها هذا الوارد من السمالات ، فخد هوارة ، بإمضاء مقدمهم ، الحاج محمد بن بوبكر البعصامي ، والفقيه السيد الصديق ابن أحمد القداري، والفقيه السيد أحمد بن المبخوت ، والفقيه السيد عبد الرحمان بن الحبيب ، راتب مسجد هوارة ، يقولون فيها ، بعد أسطر الافتتاح والتحلية والسلام "وبعد ، فاعلم أنه لما أتى مولاي علي بن الحسين بكتابكم ، الذي مضمنه الزجر ، والردع لكل من يسافر بأي سلعة لناحية تلمسان ، ونواحيها ، بأي سلعة كانت ، قام من ذكر من أعيان فقراء السمالات ، لذلك على ساق الجد ، وقدموا لبلاد مولاي المستعين بالسوق ، وجمعوا جماعات الشرفاء ، وتافيلالت ، والغرفة وبني محمد والسِّبْيعه ، وقرأوا عليهم ذلك الكتاب ، واتفقت كلمتهم على أن ، يَقْدموا للقائد الذي بالرصاني ، فقدموا عليه وقرؤوه عليه ، وأقام معهم بعض

أعوانه فبرحوا بالسوق ، على ذلك ، وتعاقدوا على أن كل من سافر بشيء لتلك الناحية ، يؤخذ ماله ويؤكل ، ولا شيء على من أكله ، ونادوا بذلك في أسواقهم وأرسلوا لذي منيع ، وجميع نواحي تافيلالت ، تزيمي وجرف ، وفزنه ليكون ذلك في علم الجميع ، ولازال أهل تافيلات على تلك العقدة ، فادع الله أن يثبتهم ، على دين نبيه صلى الله عليه وسلم ونحبك أن تأمر جميع المسلمين بهذا الأمر وتقبض عليهم العهد والسلام " .

وهذا كتاب آخر من أحد أتباع الشيخ سيدي محمد العربي ، يستنهض فيه قبائل الأطلس المتوسط، والكبير بواسطة ولده ، يقول فيه بعد ، الحمدلة والصلاة، نجلنا الأرضى ، الوجيه المرتضى ، سيدي محمد بن على أيدك الله ، وسلام عليك ، ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ، فاعلم سيدي بأن الرومي دمره الله قد نزل* على عين الشعيرفي قريب من هذا التاريخ ، بعدما كتبنا لك بنهوض المسلمين (كذا) . ونخبرك لأي جهة يريد ، فإذا به أتانا رقاص من عند سادتنا الإخوان ، الذين هناك لمولانا الشيخ ، ونحبك سيدي أن تخبر أهل السعيدة ، وسيدي محمد الفقيه ببرتات ، ليقوموا للميعاد الذي عملنا معهم ، ونحن قادمون في إثر الكتاب للميعاد المذكور ، وأن الرقاص المذكور أتانا يوم هذا التاريخ وهو 25 رجب الفرد الحرام عام 1299 علي بن الحسن أمّنه الله .

هل أمسك سيدي محمد العربي عن هذه المكاتب ، أو عن هذا التدخل في السياسة

نرى أن هذه المكاتب قد توقفت ، أو أن آثارها لم يتعد المحافظة على الحدود التي كان يقف فيها الفرنسيون ، إذ لم تصلنا أخبار عن معارك دارت ، بين هؤلاء القبائل البربرية ، والتافيلالتية ، والجيوش الفرنسية ، إلا في عام 1325 – يوافق 1908 ، رغم ما كان يذكيه هذا الشريف ، من حماس في القبائل المجاورة للحدود الجزائرية المحتلة ، من الدولة الفرنسية ، فهل السبب في ذلك هو أن الجيش الفرنسي ، وقف عندما صُدّ له من الحدود التي عضدها ملوكنا الاشراف العلويون معه ، أو أن المجاورين هابوا سطوة الاستعمار ، أو أن أمراسلطانيا جاء لهؤلاء المتحمسين عامة ، وخاصة شيخهم الشريف الدرقاوي ، بالكف عن التدخل في هذه الميادين التي لا يدرون ما تكون عواقبها . فكفُّوا؟ الظاهر أن هذا الأخير هو الواقع ، لأن هذا ما كان يروج على ألسنة هاتيك القبائل آنذاك وبعدها ، ويتحدثون أن السلطان مولاي الحسن رأى التحرش بذلك العدو ، ربما يجر لفتنة لا تخمد نارها ، فيسوء

---

* " نزل الجيش الفرنسي على عين الشعير بهذا التاريخ 25 رجب 1299(2) ولكنه لم يحتلها إذ بادرت إليه جموع المسلمين المجاورين ومن تافيلالت ، بتحريض الشيخ سيدي محمد العربي الدرقاوي ، ووقعت معارك بينهما ، فارتحل ورجع إلى عين الصفراء ، وبقيت عين الشعير بيد المسلمين ، إلى سنة 1325 هـ ، يوافق 1908 ، عندما جاءت الحملة الفرنسية لاحتلال بوذنيب ، فقدمت عين الشعير لأنها في الطريق لبوذنيب " اهـ مؤلفه .

آثارها ، وأنه كتب للشيخ سيدي محمد العربي كتبا ينهاه عن التحرك والتحريض عليه ، لأن الملك في مهادنة مع الجيش الفرنسي ، بعقود ممهرة (1) بإمضاء نوابهم ، ويلوك طلبة البرابر فقرات من بعض الكتب التي كتبها السلطان مولاي الحسن لهذا الشيخ ، حفظت في الصغر ، وإني لازلت في الكتّب ، بعض فقرات ، كان يلوكها فقهاء زيان آنذاك ، ويرددونها بكثرة حتى حفظت منها هذه - وهي بعد الافتتاح والسلام - " مالي أراك تكثر الدخول والخروج ، وتشتغل بما لا يعنيك ، وتتخطى إليه الدّرْج ، سعيا في الولوج ، فلتشتغل بما يعنيك ، وإلا فاقرأ والسماء ذات البروج ، يتبين لك الحال ، ويتضح لك المقال " . في هذه الفقرات بنفسها ، أو قريب منها ، لأن حفظ الصغر ، وفي حداثة السن ، وقد مر عليها أزيد من خمسين سنة ، ربما غير منها شيئا مني أو من طلبتهم البرابر ، الذين لا يوجد لهم ولديهم أي مرجع ،ي رجع إليه الباحث إطلاقا،سواء في ذلك كتاب أو كناشة بل ولا ورقة .

انعطاف

ولعل الشيخ قد تأثر بهذا الكتاب ، وطبعا يتأثر ويسمع فيتبع :

"وما لنا إلا إتباع أحمدا "

كيف وهو الشيخ الأبرك الأطهر، الطاهر السر والسريرة، الشريف بن الشريف العالم ، ابن العالم . وهو من الأسرة العلوية الشريفة ، فهو أولى من يمتثل أوامر ملكه وسلطانه . وقد يتساءل ما السبب الذي حمل السلطان على أن يكتب هذا الكتاب الشديد اللهجة ، ولكن إذا عرف السبب سقط العجب ، فالسلطان المولى الحسن من أشد الملوك غيرة على دينه ووطنه ، ولا يرضى أن تطأ قدم العدو في ترابه، ولكن الماجريات الوقتية، ومدارات الدول الاستعمارية ، التي كانت، سعرت تلهفا على التوسع الاستعماري آنذاك ، كل ذلك هو السبب ، في أمره لهذا الشريف بالكف عن التدخل في ذلك المأزق الحرج ، على أننا تحققنا من الثقات ، الذين كانوا ملازمين للشريف المذكور أنه كاتب السلطان الحسن في هذا التهديد ، الذي يقع من الجيش الفرنسي على الحدود، وكان الشريف يعلم أن بعض حاشية السلطان لا يُرضيها هذه المكاتب ، التي تروج بينه وبين السلطان ، فكتب كتابا ودسه لبعض تلاميذه الفقراء ، أصحاب السبحة ، والعمامة الزرقاء ، وأوصاه أن يذهب به ويتربص الفرص التي تمكنه من الاتصال بالسلطان ، أو بايصال الكتاب إليه علي غير طرق رسمية.

وهذا ما فعل التلميذ . فقد خرج من گاووز ، مقر الشيخ ، قاصدا عاصمة فاس ، كمتجول ، وجعل يتردد إلى باب دار المخزن ، حتى وجد غرة ، ذات يوم باتصال مع بعض من له وصلة بالشيخ ، وقرب من السلطان ، فمكنه من الكتاب الوارد من الشيخ الدرقاوي ، وفيه أن العدو يتربص الدوائر بهذه الناحية ، وأهلها وأننا ، إن لم نغزوه في عقر داره ، فسيغزونا هو ، ونحن لا نحتاج لشيء من عندكم ، لأن هاته القبائل لها قوة ، وقدرة بحول الله ، قادرة

على غزوه . ولكن الشيء الذي نحتاجه منكم ، هو إذنكم الشريف . فسر السلطان بذلك جدا ، وأجاب الشيخ الدرقاوي ، جوابا مرضيا ، وأذن له بالجهاد وواعده بأنه مستعد لكل ما يحتاجه إليه ، ودس الكتاب في جيب الرسول ، ولكن ما كاد الرسول يبارح أبواب دار المخزن ، حتى صادفه الوزير السيد علي المسفيوي ، فاندهش لهذه الصدفة ، لهذا الدرقاوي الذي حظي بمقابلة السلطان بهذه الصفة الغريبة ، وفهم أن تحتها شيئا ، ولا سيما ، والأحاديث تتناقل تحرك الجيش الفرنسي نحو الحدود ، وقيام الشيخ بالحركات أمامه ، وفي وجهه – لذلك أشار الوزير لأصحابه بالاحتفاظ بالرسول ، حتى يسبر غوره ، بعد خروجه من ملاقاة السلطان ، فما أن خرج حتى أمر به فحضر ، فسأله عن المهمة التي لاقى فيها السلطان ، فغير الوجهة بشيء آخر ، فأصر عليه الوزير بأنه ، إن لم يصرح له بالحقيقة لمكث في السجن إلى الأبد – فعند ذاك أخبره بالحقيقة ، وأطلعه على الكتاب ، وللحين رجع الوزير إلى السلطان ، فذاكره في الموضوع وبين له أخطارا وأخطارا ، ربما تأتي من التحرض بالجيش الفرنسي ، يكون فيها احتلال المغرب ، إذ لا قدرة له على محاربة الجيش الفرنسي ، ومثل له بالجزائر التي احتلت من جراء أمثال هذه التحرشات .

وهذا ماجعل السلطان ، يفوض للوزير في مراجعة الشريف الدرقاوي بما يناسب، بعد أخذ الكتاب الأول من الرسول ، وهو ما فعل الوزير .

فهل ذلك الكتاب الشديد اللهجة كان هو السبب فيه ؟ الظن أنه كذلك . فكف الشريف عما كان عازما عليه ، وليقع ما شاءت القدرة الإلاهية.

ونرى الشيخ الرباني يطوي جناحه للماجريات الإلآهية ، ويرضى ، ولا يأنف مما كتب له ، على شدة لهجته وقساوة نغمته ، فيكتب للسلطان ، جوابا كله ترض وامتثال ، مما يجعل السلطان ، يجيبه عنه رضى وإقبال . وهذا كتابه بعد الحمدلة والصلاة والطابع :" محبنا في الله وحبيبنا في ذاته ، الشريف البركة ، سيدي محمد العربي بن محمد الهاشمي ، وفقنا الله وإياكم لما فيه رضاه ، وسلام عليك ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد ، فقد بلغنا كتابكم المتضمن لكمال الوداد ، وحسن الظن وجميل الاعتقاد ، مع ما أنتم عليه ، من الأشواق إلينا ، وانعطاف قلوبكم بكنه الهمة علينا ، فنسأل الله أن يبلغ نياتكم ، وينفعنا بصالح معتقدكم ، وجميل طَوِياتكم ، وعرفنا ما أنتم عليه من تمحيص صالح الدعاء لعلي جنابنا، ولمن لازم شريف خدمتنا وبابنا فذلك هو المطلوب من مطلق المسلمين ، ولا سيما أهل الخير مثلكم والدين ، قال الله تعالى في الحديث القدسي " ادعوني بلسان لم تعصوني به "[1] وقال عليه الصلاة والسلام " الدعاء مخ العبادة [2] " ، ولأنه

1 – رواه البخاري في كتاب التهجد والترميذي في كتاب الزهد.

2 – ورد الحديث بلفظ"الدعاء هو العبادة" عند ابن ماجة في كتاب الدعاء.

من الأسباب المقرونة بالإجابة ، ففي الحكم العطائية ، مهما أطلق لسانك بالطلب ، فاعلم أنه يريد أن يعطيك ، فنحبك أن تدوموا على ذلك ، ونسأل الله أن يسلك بنا ، وبأحبتنا وجميع المسلمين أحسن المسالك ، ويجعلنا ممن حاز من محبة أهل الخير أوفر نصيب ، وفاز من مودتهم بالقدح المعلى ، والسهم المصيب ، آمين ، وان شرح الله صدرك لقدوم لحضرتنا العالية بالله ، فمرحبا بك وأهلا ، والسلام" في 12 صفر عام 1294.

وقفت التحرشات الاستعمارية بحسن سياسة السلطان المولى الحسن ، وحنكته طيلة حياته ، وبعد وفاته وتولية ولده السلطان عبد العزيز أعواما كذلك ؛ بتدبير الوزير الصدر الداهية أحمد بن موسى . وبعد وفاته ، تدهورت السياسة المغربية ، وغلب على السلطان عبد العزيز في إدارته دوالب المملكة ، بكثرة الفتن واضطراب الأمن وخاصة عند ثورة أبي حمارة ، حتى وقعت حوادث مراكش واحتلت الدار البيضاء في الناحية الساحلية ، وتطاول من الناحية الشرقية إلى وجدة ، واحتل المنقوب الذي لا يبعد عن بوذنيب ، إلا ب 138 كلم ، وذلك سنة 1325 يوافق 1907 .

وهنا قام بعض ذوي الغيرة الاسلامية من العلماء، والأجلاء العاملين بعلمهم بإخلاص ، ذاك هو مولاي أحمد السبعي السغروشني البربري . قام هذا الشريف يصرخ في القبائل البربرية ، من إخوانه آيت سغروشن ، وآيت يزدگ ، وآيت مرغاد ، وآيت خباش ، وآيت عطه ، وآيت يوسي ، وبعض قبائل الصحراء ، كأولاد جرير ، وأولاد الناصر ، وبعض ذوي منيع .

قام هذا العلامة يصيح ويصرخ في هاته القبائل ، يحث ويحرض بخطبه حتى التأمت عليه هذه الجموع الغفيرة التي قدروها بزهاء خمسين الف مقاتل .

فقصد بهم ناحية المنقوب ، الذي يبعد عن مركز " بوذنيب " بنحو 138 كلم. وكان اجتماعهم أولا في بوذنيب ، ثم تقدموا لعين الشعير حيث وجدوا هناك محمد افقير بن قدور الشريف ، من أولاد سليمان بن عبد الله الكامل ، أخي مولانا ادريس كذا ينتسبون . وكان هذا الرجل من الأفراد ، ذوي الغيرة الدينية والاسلامية – وكان هو القائد اللامع بتلك الناحية وكَبَاشًا بعين الشعير ، وله ثروة عظيمة ، ولما جاء المجاهدون ، يرأسهم مولاي أحمد السبعي ، لصد غارات الجيوش الفرنسية الآتية من ناحية بشار ، فتح للمجاهدين خزائنه ، وذخائره ، ولم يبخل عليهم بشيء . وعندما نفر المجاهدون كان في طليعتهم ، حتى تقدمت الجيوش ، واحتلت عين الشعير ، ثم بوذنيب ، فناله من شظايا الجيوش الفرنسية ما نال كل أعيان تلك الناحية – وبعد عقد الحماية تولى باشوية عين الشعير ، وأولاد الناصر وما إلى ذلك . وبقي في وظيفته إلى أن لقي ربه في سنة 1336 ، وأنجب الولدين الأنجدين ، محمد أفقير الذي هو الكولونيل الشهير بالجيش الملكي ، وأخاه مولاي هاشم أفقير .

وخلفه في باشويته أخوه مولا الحسن أفقير ، وأضيف له مدينة بوذنيب ، وبقي في باشويته حتى جاء الاستقلال . وكانت حواديث العامل عدي وبيهي ، فاتُّهم بأنه ممن تآمر معه

على الملك ، " أو على حزب الاستقلال " ، فزجّ به في السجن ، ولكن ما لبث أن ثبت إخلاصه للملك ، ودينه ، ووطنه فسرح . وقد اجتمعت به في بوذنيب في نوفمبر سنة 1961 ، فرأيت الرجل الرزين الديّن ، المحافظ على التقاليد الاسلامية في حياء ووقار .

وكان هو باشا هذا المركز ، وما انضاف إليه . ولاقى المجاهدين بكل ما أوتي من حول وقوة ، وفتح لهم خزائنه للتموين ، أكلا وعدة ، وغير ذلك مما برهن به على غيرة دينية كبيرة – ولما تكاملت العدة والعدد ، تحركوا نحو المنقوب ، حيث الجيش الفرنسي ، فصبّحوه وحمي وطيس المعركة ، وتقدموا نحو المعسكر مهاجمين ، وجل المجاهدين رجالة ، وفيهم قليل من الخيل ، ورئيسهم مولاي أحمد السبْعي على بغلة قصيرة ، وهو أيضا قصير ، يصيح : " دونكم ، دونكم أبواب الجنة مفتوحة " . فإذا سمع هدير المدفعية تقعقع ينادي " هذه زكاريم أبواب الجنة تفتح لكم " . وهكذا تقدموا حتى احتلوا المركز وتصدع شمل العدو في اليوم الأول .

واكتفى المجاهدون ، باحتلال المعسكر فقط . ولم يتتبعوا العدو لاستئصال جرثومته ، وبذلك تركوا له فرصة التفكير في إعادة الكرة عليهم ، وهذا ما كان . فبعد يومين أو ثلاثة ، استرجع قوته ودبر خطته ، ونصب مدافعه ، في المرتفعات والمنعرجات ، فشنها عليهم حملة شعواء ، وصب عليهم نارا حامية ، من كل التلال والأودية ، فرجع المجاهدون ناكصين ، على أعقابهم ، في تلك السهول الفسيحة ، وكان ذلك أقصا مراده ، إذ جعلت المدافع تحصدهم حصد الهشيم ، فكانت مصيبة عظمى ، وبلية كبرى ، على المسلمين ، فتراجعت جموع المسلمين ، أو من بقي منهم لأن المدفعية حصدتهم حصدا . رجعوا ولم يقفوا إلا في مدينة بوذنيب . فخيمت جموع المسلمين في بوذنيب ، وتسامع الناس بهذه المعركة ، في جميع انحاء المغرب فقامت غيرة دينية في جميع القبائل البربرية والصحراوية ، وقام بعض كبار الأشراف والأعيان بدورهم يجمعون الجموع وينادون للجهاد ، فقام السيد أبو حفص عمر بن عبد الرحمان كبير زاوية أبي سالم العياشي ، يتقدم قبائل آيت يفلمان ، آيت عياش ، آيت يزدگ ، وآيت مرغاد ، وآيت حديدو ، وبعض من آيت عطة . وقام الشريف مولاي أبّا سيدي بن المصطفى بن الحنفي ، بدوره كذلك ، في قبائل تافيلالت ، وشرفائه، وكذلك الشريف مولاي علي ابن هاشم من أبو عام وآخرون من أعيان الشرفاء ، وأكابر الزوايا. اجتمعت القبائل الكثيرة في بوذنيب برؤساء القبائل وقوادها والأشراف وغيرهم . ولكن الرياسة الكبرى لمولاي أحمد السبعي ، الذي كان له الفضل الأول في مناهضة العدو ، ولكونه أعلم من هناك ، إلى تواضع ، ونكران ذات ، وإظهار مسكنة ، في أوصاف أخرى ، ملك بها مشاعر الناس . فمكثوا أياما وربما شهورا يأتمرون، ويدبرون ، ويختارون أي الطرق التي يُناجزون به العدو . فقد دلتهم التجربة الأولى على أنه ليس من السهل مقاومته ، تهورا واسترسالا بدون تفكير .

وبينما هم ذات يوم كذلك ، إذا بأحد الفرسان يسمى حمو نايت علي ، من مدشر "

تَالْزِيمت " ، أحد المداشر ، على الحدود ، ينذرهم بهجوم العدو غدا لا محالة . تحقق ذلك من استطلاعهم السري ، ممن يتداخلون معه ببيع أو شراء في المعسكر . جاء هذا الفارس ، واتصل بالرؤساء ، وحقق لهم هجوم العدو. وصاروا يرتأون بينهم الآراء في الكيفية التي يلاقون بها العدو غدا . فكان رأي الفارس ، وثلة من بني قومه ، الذين يعرفون مواقع البلاد المحصنة ، من قنابر المدفعية ، أن يلتجأ المجاهدون إلى الجبل المسمى " تازكارت " . فهناك تلجأ الجيوش المجاهدة ، حيث الوقايات الطبيعية ، والماء ، وغير ذلك ، بخلاف هذا في البسيط والسهل. ولكن شموخ بعض المجاهدين بأنافهم ، وكثرة عددهم ، لم تدع لهم فراغا لاستماع هذه النصيحة ، فقالوا كما قال الأولون " لن نُغلب اليوم من كثرة "، وكان جلهم يردد كلمات فارغة لا يحسب لها حسابها . ليته خرج لنا فننسفه نسفا ، ونمحقه محقا . وهكذا ، ومن لطف الله بهم أن طائفة.استخفها الفرح للُقياه، حبا في الجهاد، والسلامة (أو هو والشهادة) ، فاغذت السير بسح ، وخرجوا على أطراف بوذنيب ، فإذا هم وجها لوجه مع الجيش المهاجم ، فالتحموا معه قتالا ، كرا وفرا ، حتى سمعت أصوات المدافع مدوية في جموع المسلمين المعسكرين ببوذنيب ، فتسارعوا للمعركة ، ولولا ذلك لباغتهم وسط مدينة بوذنيب ، فاشتد القتال وحمي الوطيس ، وكثرت الطلقات المدفعية والقنابر منها تحصد الناس حصد الهشيم ، والعلامة مولاي احمد السبيعي على بغلة ، يصيح في الناس ، ويحرض على الثبات ، ويرغب الناس في الشهادة ، غير هياب ولا وجل فيلح عليه أعيان القبائل بالتحيز ، وعدم المغامرة ، فيأبى إلا الأمام ، واستمر القتال من السحر بليل ، إلى الغروب منه ، وكان يوما شديدا قمطريرا . وكان الزمان زمان صيف ، وصحراء بوذنيب الحارة ، والماء نزرا أو معدوم في بعض الأماكن ، فتلف الناس بهذا ، وبصمودهم في وجه العدو ، والقتلى تتساقط من قدام ، وخلف ويمين وشمال . ولا أحد تحدثه نفسه بالفرار ، استماتة في سبيل الله ، وما انفصلت المعركة إلا لسواد الليل ، فبات الناس في هلع ، وجزع من جوع ، وعطش ، ودفن موتى ، وضماد جروح ، مما شغلهم عن التجهيز للقائه غدا ، ، لأن هؤلاء المجاهدين ، وإن كانوا قد ضربوا الرقم القياسي في الشجاعة ، فإن الشجاعة وحدها ، لا تكفي من المعدات الحربية ، وإنما تكفي إذا كان شخص لشخص ، قرن لقرن - ثم الشجاعة مع هذا تحتاج لتدبير وتقويم - وهم من كل ذلك بيات ، في حين أن الجيش الفرنسي ، يأخذ في المباغتة كل حيلة ، ويسد عنهم كل باب ، وهذا ما وقع فإنه لم يبلغهم ريقهم تلك الليلة، حتى أخذ لهم من الغد جادة الطريق ، نحو مدينة بوذنيب . فلم يشعروا به ، إلا وقد أحدق بأسوارها ، فكانت المقاومة على أشدها ، مما تجاوز حد الاستماتة . وقد حكى لي الحاضرون للمعركة أن المجاهدين كانوا يتساقطون تساقط الفراش على النار في أطراف المدينة ، وداخلها ، وعلى أسوارها ، وهم ينعتون لي بالمحلات التي كانت فيها المعارك تدور ، في وسط مدينة بوذنيب ، وحواليها، والمأذنة التي صوب لها طلقات المدافع، فهدمت منها ومن المسجد، والمجاهدون تطر أشلاؤهم ،

وتتفتت أمعاؤهم ، وتطوح القنابر برؤوسهم ، وهم ثابثون لا تسمع منهم إلا ، لا إله إلا الله محمد رسول الله، اللهم صل عليك يا وسول الله بأصوات مرتفعة، وتداخلوا معه في كل ركن ، ومنعرج ، فيصطدم بالمجاهدين ، يقاتلون فيُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم. هذا كان حظ المجاهدين ، أما حظ الجيش الفرنسي ، فقد كان احتلال مدينة بوذينب ، ثم زاد إلى كرامة ، وزكارة .

هفوة رئيس تشتت الجمع

وما إليها في مقاومة طفيفة . وكان على رأس الجيش الفرنسي جنرال يدعى أليكس . كان في مواجهة الجيش الفرنسي ، الجموع الغفيرة ، من برابر الأطلس ، والصحراويين ، وغيرهم ، ويرأس كل قبيلة ، أو قبائل أعيان ، ووجهاء ، أجلهم العلامة مولاي احمد السبعي ، والوجيه سيدي محمد بن عبد الرحمان الحمزاوي ، وابّا سيدي بن المصطفى العلوي ، وغيرهم ، ممن هم أقل منهم وجاهة ، وتبريزا ، وكان مولاي أحمد السبعي قد ملك على الناس مشاعرهم بعلمه ، ومسكنته ، وتواضعه ، وتخلقه بأخلاق الصوفية العارفين بالله . فكان لا يزاحم في شيء ، ولا ينافس عليه ، وكان أبو حفص عمرفي ثروة هائلة ، وجاه بين القبائل ، اكتسبه بالعلم الزاخر. كان في زاوية أبي سالم زهاء ثلاثة قرون، ولم يكتف، بذلك بل أضاف له كرما حاتميا ، ملك به قلوب القبائل البربرية ، وكان ابّا سيدي بن المصطفى يحب أن يتظاهر بشيء من هذا ، إلا أنه لم يتوفرله أسباب هذه الشهرة، مع ما كان يتسم به من خفة ، وفخفخة ، أبعدت البرابر الاقحاح عن مجالسته ، ومجلسه . فكان ينظر إلى قرينه بعين الحقد ، أو المنافسة ، ولكنها في جانب عمر الحمزاوي أكثر . وعندما كانت القبائل في طريقها من معارك بوذنيب ، سولت له نفسه الأمارة فعلة شنعاء ، فبينما هم رابطون في محل يسمى تِيلِّيشَتْ ، قرب مركز الريش ، إذ وجه بّا سيدي استدعاء للحمزاوي ، يستضيفه ليتناول العشاء معه ، فما كان من هذا الأخير، إلا أن لبى دعوته ، فأفرده في محل خاص ، يوهمه الاعتناء به والاحتفاء أكثر ، وما هي إلا هنيهة حتى أحضر أعوانه ، فكتفوا أيديه ، وأحمى مسامير من حديد ، وأمرهم بتكحيلهم عينيه بها ، ولكن الله سلم هذا الفاضل ، وعلى الباغي تدور الدوائر . فقد سوّد الشريف صحيفته ، فقط مع الله ، ومع عباده ، ذلك أن السيد الحمزاوي طار إلى محله ، فتبادرت إليه القبائل بإطفائها وفحصوا عينيه ، فوجدت سالمتين . " ويقال إن أعوان الشريف علموا أن هذا الرجل مظلوم ، وأن صاحبهم طائش ، لا يعي ما به أمر ولا ما يذر ، فكانوا يروغون المسامير عن الحدقة ، ويكوون العينين من فوق بخفة فسلمه الله" .

وعندما تحققت سلامة عينين الرئيس الحمزاوي ، تهافتوا إلى الشريف ، ليبطشوا به ، ففر، واختفى ، ولم يقعوا له على أثر ، فقصدوا مدشره بالرّتْبِ ، فلم يعثروا له على خبر ، كأنما الأرض ابتلعته ، وعند ذلك قصدوا المدشر ، فهدموه عن آخره ، وبقي ذلك الشريف منبوذا ، عند كافة البرابر ، بل وحتى عند إخوانه الشرفاء ، مما اضطره إلى مغادرة وطنه

كليا . فجعل يجول من قبيلة إل أخرى ، مما أداه إلى النزوح أخيرا إلى الشمال ، عند الحرب العالمية الأولى في نواحي ورغة . حيث كانت دعاية، من السيد عبد المالك بن المجاهد الشهير محيي الدين الجزائري ضد فرنسا ، من ألمانيا . وكان يربط خطوطا مع أعيان ورؤساء البرابر الأطلسيين مثل محمد وحمو ، وموح وسعيد وغيرهما من المجاهدين الأطلسيين . " كما سيأتي تفصيل لذلك " فطمع الشريف في شيء من هذا فقصده ، وهو بنواحي ورغة . ولكن رجع وهو ينشد :

أتى الزمان بنوه في شبيبته فســـرهم وأتينـــاه على الهرم

وعندما رأى ظل ألمانيا يتقلص رجع بدءا ، على عود يؤمّ عاصمة فاس ، فدخلها ليلا - حكى لي الفقيه السيد محمد بن عبد الله المضغري ، إمام مسجد ميدلت - قال : قال كنت إبّان الطلب بفاس أقطن مدرسة الصفارين ، فبينما نحن ذات ليلة ، في بيت أنا ، وبعض طلبة تافيلالت ، ومنهم الفقيه مولاي الاعرج ، أحد الطلبة المشهورين بالصفارين ، قال بينما نحن في بيتنا ، إذا بالشريف المذكور يفاجئنا على حال ، بثياب رثة تقطر ماء متنجسا من بوخرارب ، لأنه من الواد المضاف من بين المدن . ففاجأنا على تلك الحال ، فقمنا إليه ، وساعدناه على غسل ثيابه ، وساندناه حسب الإمكان ، ثم اختفى عندنا بالمدرسة أياما ، حتى راجع حالته النفسانية ، واطمأن شيئا ما ، فجعل يتحسس الحال فينة بعد أخرى ، حيث كان يخشى بطش الفرنسيين، لأنه يعلم أنهم يقصدونه بالاذاء ، حيث كان من المتعاونين مع ألمانيا ، وذات يوم طاشت به رجلاه إلى ناحية فاس الجديد ، فلم يشعر إلا والبولس السري ، يلقي عليه القبض ، ويودع في السجن ، حيث سقطت أعضاؤه سامحنا الله وإياه .

بروز سيدي علي أمهاوش في الميدان.

عندما تسامع حديث هذه المعارك الجهادية في بوذنيب وناحيته ، وتطاير الركبان بخبرها إلى الافاق المغربية ، ألهب الشعور في ذوي الغيرة ، والوطنية ، وخاصة أعيان البرابر الاطلسية ، ومن هؤلاء الشيخ البركة الوجيه سيدي علي بن المكي أمهاوش ، الذي كان له صيت ذائع في قبائل اشقرن ، وآيت سخمان ، وبعض قبائل آيت يفلمان ، فقام في هاته القبائل التي تصيخ له ، ويعتقدون بركته ، فاجتمع عليه منهم الجمّ الغفير(1)، وجاء يقصد بهم معسكر المجاهدين . وقد زُحزحوا من بوذنيب ، وناحيته حيث تجمعت جموع ، من الشرفاء ، وأهل تافيلالت ، في ناحية مضغرة . ولكن بدون جدوى ، إنما هي أقاويل اليوم تمحوها أقاويل الغد - فجاء سيدي علي أمهاوش ومعه جموع البرابر الاطلسية ، وخيم على الشرفاء ، أهل مضغرة ، ومن إليهم ، وهم يرونه من تلاميذ شيخهم ، ومواطنهم سيدي محمد العربي ، وله مع ذريته مصاهرة ، فاحتفوا به أولا ، واحتفلوا ، وفرضوا له بعض المؤن ، كضيافة له ، ولمن

---

1 - تقول المصادر الفرنسية أن عدد المقاتلين الذين تجمعوا لسيدي أمهاوش بلغ 20.000 ألف مقاتل أنظر J. Le Prévost, op.cit. p.75.

معه ، ثم طالت المدة وقصرت المدد ، وكانت السنة ، سنة شهباء ، فضعف الشرفاء عن ذلك التموين . فقصدوه ذات يوم ، وتوسلوا له بالرحم الديني ، والطيني ليخلص ضعفة الشرفاء من هذا العبء الثقيل الذي لزمهم بدون جدوى . فلا هذا الجيش تقدم لمقارعة العدو ، ولا هو خفف عليهم من ثقل هذه التكاليف . فأصاخ سيدي علي أمهاوش لشكايتهم وأقلع هو وجيشه البربري ، وقفل بدون أي مقاومة تذكر له في هذا التاريخ .

وقد استغرقت هذه المحاولة الجهادية من سنة 1325، عند استشراف الاستعمار ، لابتلاع الأراضي المغربية ، باحتلال الدار البيضاء ، في 25 جمادى الثاني 1325 ، يوافق 5 غشت 1907 إلى أن استقر قدم السلطان ، مولاي عبد الحفيظ في الملك ، وسمعت كلمته في جميع أطراف المملكة بالقضاء على الفتان أبي حمارة ، وفتنة القبائل الجبلية التي كانت تصيغ إليه إلى غير ذلك .

استغرقت هذه المحاولة أزيد من عام ونصف ، وكان الباعث عليها هو الإيمان والغيرة على الدين والوطن عموما ، وخصوصا من بعض الرؤساء العلماء ، كمولاي أحمد السبعي . وهذه المحاولة ، وإن لم تأت بنتيجة سارة ، من حيث مقاومة المستعمر ، فقد هيأت الجو في آخرين ، وبعثت فيهم شعورا استفاد منه المجاهدون الآتون بعدهم كمحمد وحمو ، وموحى وسعيد ، وسيدي علي أمهاوش وأتباعهم .

ومن المعلوم أنه ، بعد احتلال الدار البيضاء ببضعة أيام ، قام الحوز بنصر السلطان مولاي عبد الحفيظ بمراكش في 6 رجب 1325 . ولكن في ابتداء نصره، لازالت الأحوال مضطربة ، والأهوال مطنبة ، ولم يكن هناك قائد يقود الأمة والسفينة لحوض النجاة . فكان رؤساء القبائل المجاورون للاحتلال ، يدافعون عن حوزة أوطانهم ، فالشاوية ، وخصوصا المذاكرة بجوار الدار البيضاء ، والقبائل البربرية والصحراوية ، بضواحي الاحتلال ببوزنيب وقريب منه .

كفت هذه القبائل عن الجهاد بسبب نصر مولاي عبد الحفيظ... ولكن بعدما ثبتت أقدام مولاي عبد الحفيظ بدخوله العاصمة فاس ، وانهزام مولاي عبد العزيز وجب الامتثال لأوامر السلطان الجديد ، الذي لبس دروع النصيحة للأمة المغربية ، وظهر بمبدأ الجهاد ، والذب عن كيانها ، ودينها وحدودها . وكاتب هؤلاء القبائل وأمثالها وخصوصا رؤساءها أن يكفوا عن التدخل فيما لا يعنيهم ، فخفت صوت أولئك المجاهدين المخلصين ، أمثال الشريف البركة العظمى ، مولاي رشيد عم السلطان من تافيلالت ، ومولاي أحمد السبعي بناحية الأطلس وتافيلالت ، ومحمد وحمو ، وموح وسعيد بالأطلس ، وكذا سيدي علي أمهاوش ، والأحمد بن منصور وأضرابه بالشاوية . وهذا مثال مما كتبه السلطان الجديد لبعض الشرفاء بناحية الأطلس ، وهو ممن له حرمة ، وقار في بعض قبائل أيت يفلمان وخصوصا أيت يزدگ ، سكان وطاط " ميدلت الآن " ، وهو مولاي الحبيب بن المعطي الشريف العلوي . كاتب السلطان في شان الجهاد واستنهاض القبائل لمقاتلة المستعمر ، " كما يوخذ من الجواب " فأجابه السلطان بما نصه : بعد الحمدلة والصلاة والطابع الصغير " ابن عمنا الأرضى ، الشريف مولاي الحبيب بن المعطي

لوطاطي ، وفقك الله ، وسلام عليك ورحمة الله وبعد ، فقد وصل كتابك المنطوي على الكتاب الذي كتبه لك عمنا الأرضى مولاي رشيد ، معلما فيه بأنك أنت ، ومن هو على شاكلتك من قبائل الصلاح المجاورين لك ، ملتزمون للسمع والطاعة والامتثال لأوامرنا الشريفة ، قولا وفعلا ، وإنكم واقفون في تسكين القبائل الذين يريدون أن يسعوا في الأرض فسادا ، بالتشويش على الدولة الحادثة في ناحية الصحراء ، وصار بالبال ، أما اجتماعكم على طاعتنا ، فليس لكم فيه إلا تمام الخير لأنفسكم ، ولبلادكم . أصلحكم الله وسددكم ، وأما تشوف أولئك القبائل لمن ذكر ، فلقد جربوا ورجعوا منهزمين ، وتركوا الناس الذين توجهوا لهم لإعانتهم في أسوء حال ، وعليه فلتدم على ما أنت عليه ، من الاستمساك بالسمع والطاعة ، وتسكين روجان القبائل . ونحن جادون في النصيحة لرعيتنا السعيدة ، ساهرون على مصالحها ومنافعها ، بما يسفر صبحه عن وجه الفلاح والنجاح بحول الله ، أصلحك الله ووفقك والسلام " في 6 ربيع الثاني 1327 .

يستخلص من هذا الكتاب الحالة التي كان عليها متزعمو الجهاد ، لصد غارات المستعمر ، من هيجان واندفاع واستماتة . وهذه ، وإن كانت في صالح المغرب ، وفي أول أمرها حوالي 26-25 قبل استتباب الأمن ، والأمر للسلطان الجديد ، فإنه في الأخير لم يرقه ذلك ، إذ صار الأمر بيده ، عقده وحله لأنه سلطان المغرب أجمعت الأمة على رضاها به وقبولها سلطانا عليها ، فلذلك سمى المستشرفين للجهاد ، والقائمين به ، قبائل يريدون أن يسعوا في الأرض فسادا " بالتشويش على الدولة الحادثة في ناحية الصحراء " .

ويستخلص منه أيضا أن هذه المجاولات تجاه العدو ، لم يستفد منها المجاهدون أي طائل لقوله " فلقد جربوا ورجعوا منهزمين وتركوا الناس الذين توجهوا لإعانتهم في أسوإ حال " .

ويستخلص منه أن هؤلاء المجاهدين سمعوا ، وأطاعوا ، فكفوا عن المحاولات أو إيقاف القتال ، لينظروا ماذا سيفعله السلطان الذي يقول في هذا الكتاب " ونحن جادون في مباشرة الأمورمع الدولة المذكورة بما أوجبه الله علينا من النصيحة" .

وقد انتظروا ما يعفر عنه صبح محاولة السلطان ، وجِدّه ، ونصيحته ، للأمة ، حتى أسفر باستدعاء السلطان الجيش الفرنسي ، لحماية سلطانه في ربيع الثاني 1329 ، يوافق 11 أبريل 1911 . ثم لم يكتف بهذا حتى عقد الحماية من فرنسا بعد عام ، في 10 ربيع الثاني 1330 يوافق 30 مارس 1912 .

وعند هذا رجع المجاهدون إلى استنهاض الناس ، ومن جملتهم العلامة مولاي أحمد السبعي ، فصار يجول في القبائل ، بإخلاص ، وغيرة دينية خالصة له تعالى كما قام محمد وحمو في قبائله الزيانية ومن إليها ، وقام سيدي علي أمهاوش في قبائله الاشقيرنية والسخمانية ، وما إليها . وقام موح وسعيد في قبائله الوراوية وما إليها ، كما سيأتي لنا مفصلا .

فلنبدأ بعمل العلامة مولاي أحمد السبعي ، قام مولاي أحمد السبعي عند اشتداد الأزمة على مولاي عبد الحفيظ وانفلات الزمام من يده ، قام يحرض الناس على الجهاد ومواجهة العدو ينشدهم :مباشرة الأمور مع الدولة المذكورة بما أوجبه الله علينا من:

إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضرة

وكان كما سخر قدمه لله ، فكذلك سخر قلمه ، وساهم به في الدفاع عن الاسلام الحقيقي ، وتخليصه من رواسب الأفكار الجامدة . فبينما هو يستنهض القبائل البربرية ، وغيرها إذا ببعض المتفقرة ، الذين ألفوا التخاذل والتواكل ، بوصف الفقر ، والفقراء - وهو من ذلك براء - لأن غايته جمع الأوباش خليطا ، نساء ، ورجالا بدون علم ولا معرفة بالله ، ذلك هو المسمى عبد الله بن مراح المغلي الجزائري ، من مُغْل ، وهو قصر في نواحي بشار ، بينه وبين بشار نحو 60 كلم .

نزح هذا المتصوف باسم الطريقة الدرقاوية ، من ذلك القصر الذي استولى عليه الجيش الفرنسي ، فصار يجمع الناس عليه ، بوسم الفقر ، فيلتهمون المآكل والمشارب ، يوما في هذه القبيلة ويوما بالأخرى على حد قول الشاعر .

يوما بجزوي ويوما بالعقيق ويو ما بالعُذَيْب ويوما بالخُلَيْصاء

فهو وأتباعه من جيل التصوف الكاذب الذي أنشد في مثله قديما :

أرى جـيل التصوف شرجيل فقل لهم واهون بالحلـــــول
أقال الله حين عشقتمـــــوه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي.

ولم يكن يكتفي بهذا التصوف الكاذب ، وجمع الناس عليه للأكل والرقص ، نساء ورجالا ، في حين أن الناس يجتمعون ، لصد غارات العدو الذي بدأ يشن حملاته على المملكة المغربية ، بل يصرح للقوم الذين معه بأقوال مثبطة عن الاستنفار كقوله: " إن وقت الجهاد لم يصل " ونحو ذلك ، وكان يظن بهذا الرجل ، أنه داعية المستعمر ، فرأى مولاي أحمد السبعي ، أن يكتب له كتابا ، ينصحه فيه لله للرجوع إلى جادة الطريق ، مع ما عليه الناس حوله ، وخلفه من النهوض ، إلى مجابهة المستعمر ، فكتب له هذا الكتاب التالي ، فاستمع لهذا الأطلسي البربري السغروشني :

" بسم الله الرحمان الرحيم ، وصلى الله علّى سيدنا ومولانا محمد ، وآله وصحبه ، وسلم تسليما . محبنا في الله ، سيدي عبد الله المغلى ، ويقال له الجريري وفقك الله ، وسلام عليك ورحمة الله تعالى ، وبركاته ، وبعد ، فقد كنت كاتبتك في الإعانة ، في أمور الجهاد ومصالح المسلمين المحتاج إليها في ذلك ، ثم قصدتك بنفسي في ذلك ، لما كنت أظنه فيك من الخير ، فوجدتك بأمور تشغل عن المقصود ، وربما أنتج منها خلافه ، المضاد لما تقتضيه الشريعة المطهرة ، وطرق سمعنا في ذلك أمور أخر ، ينكرها ظاهر الشرع على العموم ، فضلا عن الخصوص من ذلك ، أنك تقول لمن يذكر الجهاد الآن حيث صار فرض عين على كل مسلم - أن وقته باق لم يبلغ - فإن صح ذلك ، فذلك من الجهل

الموقع ، في الكفر ، والنهي الموقع في النكر ، وذلك خلاف ما أمرالله به من الجهاد بالنفس والمال في آيات كثيرة ، والحض عليه بقوله : " يأيها النبئ حرض المومنين على القتال "[1] . وقوله : " وحرض المومنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا "[2] . وقال تعالى : " يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اله اثاقلتم إلى الأرض "[3] – وقد وعد الله السابقين بزيادة الأجر على غيرهم – فقال : " لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد ، وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى "[4] . وكان من حقك أن تأمر به وتحض عليه وتامر من يستشيرك به ، كما أمر الله به ، أداء لما أوجب الله . وقد أوعد بالعذاب المستشرين فيه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " لا يستاذنك الذين يومنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستاذنك الذين لا يومنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ، فهم في ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لا عدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين"[5] . فكيف بمن يستشير غيره والجهاد كما هو الآن أن تعلق وجوبه بالمجاهد في نفسه، فيجب عليه أداؤه حين وجوبه ، كما هو مقتضى الأمر بفرائض الله عز وجل ، كالصلاة في وقتها . ولا يجوز تأخيرها . وإلى هذا أشار الشيخ خليل " وتعين " أي الجهاد " بفَجْإ العدو وإن على امرأة " وإن تعلق وجوبه لأجل غيره لا لنفسه ، فهو ما أشار إليه بقوله " وعلى من بقُربهم إن عجزوا " ، فيجري حكم هذا مجرى قضاء الدين . فيجب تعجيله . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " مطلُّ الغنى ظلم "[6] ، والاجرح موخرة كما عده الشيخ خليل رضي الله عنه فيما يجرح بقوله ، ومطل ...

ومن ذلك المسموع اختلاط النساء بالرجال . هذه قولة عالم البرابر في المختلطين رجالا ونساء ، والمكشوفي عورة الرأس فقط ، في البرابر الأطلسيين الذين يقال فيهم أنهم كانوا يتحاكمون إلى غير الشريعة الاسلامية ، وأنهم منحلون عقيدة وأخلاقا . فها أنتم ترون حملته على ذلك المتفيقه ، أو المتصوف الذي تجتمع حوله جموع تخالف الشريعة الاسلامية ، في بعض مظاهرها عبادة ، واجتماعيا أو أخلاقيا تلك الحملة الشعواء بدون هوادة ، استدلالا بالكتاب والسنة ، وأقوال الأئمة في سنة 1330 ، فكيف بكم يا جيل الحضارة ، يا شباب

---

1 – سورة الانفال : 64 .
2 – سورة النساء . 83 .
3 – سورة التوبة :37 .
4 – سورة الحديد: 10
5 – سورة التوبة : 43 .
6 – رواه البخاري في كتاب الحوالات.

الوقت ، يا شباب سنة 1382 ، لو رآكم هذا العالم البربري ، في مراقصكم ، ومفاتنكم عراة ، أو نصف عراة ، في المسابح والمراقص ، فماذا يقوله ، وهو يعتقد أنكم ، أو أنتم تعتقدون أنكم القدوة ، والاسوة في الدين والدنيا ، في البر والبحر، والسماوات العلا ؟ هؤلاء الذين يجيئون إليك بلا استتار للنساء من الرجال ، وذلك من الهمك * والرفض للشريعة المطهرة بالوقوع من جهة الرجال والنساء ، ومن جهتك من عدم النكير عليهم ، إذ النهي عن المنكر ، والأمر بالمعروف من فروض الكفاية ، كما أن هذه المكاتبة من ذلك – قال الله تعالى : " وامر بالمعروف وانه عن المنكر "[1] وقد قال الله تعالى " قل للمومنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم والله خبير بما يصنعون . وقل للمومنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن "[2] ولا يقدر امرؤ ، ولا امرأة وقع لهما انكشاف العورة ولو في الصلاة كما قال خليل " فإن علمت في صلاة بعتق مكشوفة راس ، أو وجد عريان ثوبا استترا عن قرب ، وإلا أعاد بوقت " ومن أنكر شيئا مما علم من الشرع بالضرورة استتيب ، فإن تاب أبقى وإلا قتل .

ومن ذلك أولئك الجاءون إليك من الصغار ، الذين يجهلون أمور دينهم ، من وضوء وصلاة وغير ذلك – وكذلك أكثر الكبار ، ويذكرون الهيللة " بليلة إلا الله " بإسكان الياء وإسقاط ألف اللام الثانية ، ويجتمعون على ذلك بأبدان جائلة ، وأصوات هائلة ، وربما ضربوا الطبل مع ذلك ، وكان من حقهم الاجتماع على أمور الدين ، وتعلمه من الطهارة ، والصلاة التي حكم الشرع بقتل تاركها ، وغير ذلك من أمو الدين وآدابه الواجبة ، على الأعيان ، لا على الأمور المحرمة ، والبدعية . وقد قال صلى الله عليه وسلم " شر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، والضلالة صاحبها في النار "[3] ، وقال صلى الله عليه وسلم " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ "[4] ، وما فائدة اجتماع خال ، عن استفاد فائدة ، عبادة أو عادة – وقد لحق الناس من أولي القرى الموالية لطرق الجاعين إليك ، وأحرى المجاورين لمنزلك ، إذاية عظيمة في أموالهم ، وعرضهم ، ومشاق كلفهم ذكورا ، وإناثا بسبب ضيافة أولئك ، ومؤونة دوابهم و حطب غابتهم وطحن ، وطبخ وملاقات وانزال وشبه ذلك . " ولا يمكنهم التخلف عن ذلك إما لحياء أو ظلم ، وقد علم أن سيف الحياء كسيف الغضب . وقد قال صلى الله عليه وسلم " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه "[5] .

* – " الهمك – همك يهمك همكا في الأمر نجه . ولا يظهر لها معنى هنا " . اهـ مؤلفه .

1 – سورة لقمان : 16 .

2 – سورة النور : 29 .

3 – رواه مسلم في كتاب الجمعة .

4 – رواه مسلم في كتاب الأقضية ، والبخاري في كتاب الصلح .

5 – رواه ابن ماجة في السنن (كتاب الفتن)

وتأمل في أي صحيفة يكتب إثم ذلك ، أفي صحيفة المتسبب ، أو المباشر ، أو فيهما معا ، وهذا أمر آخر ، قال سيدي علي الخواص رضي الله عنه " كل خطوة يمشيها الناس إلى الفقير ، تنقصه من مقامه درجة "، واحترس عن الأكل بالدين والحرام المتشابه في تلك المخالطات ان اشفقت على دينك ، وإلا ندمت ندامة الأبد ، ان سرت سير العوام . وقد قال صلى الله عليه وسلم " المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل "[1] وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : " من غفل قلبه اتخذ دينه هزؤا ، ومن اشتغل بالخلق اتخذ دينه لعبا ويقع بذلك الضلالة والاضلال " . وقد قال صلى الله عليه وسلم " إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا مات العلماء ، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا[2] " .

ومن ذلك ما يسمع من أقوال للخليقة ، وأحوال بلا حقيقة . وقد قال مولانا عبد القادر الجيلالي رضي الله عنه : " فإن انحزم فيك شيء من الحدود فاعلم أنك مفتون ، قد لعب بك الشيطان ، فارجع إلى حكم الشرع وألزمه ، ودع عنك الهوى ، لأن كل حقيقة لا تشهد لها شريعة باطلة ، ولا يغرنك اجتماع العوام عليك ، وأحرى مع الأمور المتقدمة المقتضية للسقوط لا الرفع . وقد قال الشيخ أبو المواهب الشاذلي رضي الله عنه " رب امرء مزار ، حمله الزائر الأوزار " . وقال أيضا " من كان له التعظيم عند العوام صورة، لم يكن له بالتخصيص عند أهل التحقيق سورة وقيل لابن نجيد رضي الله عنه : " من أين تتولد الدعاوي ، فقال : " من الاغترار وتشويش الأسرار " وقال : " من أظهر محاسنه لمن لا يملك ضره ولا نفعه ، فقد أظهر جهله " ، وقد عددت في النصيحة من قواطع الهوى ، ظاهر الدعوى ، وقلت في الشرح ويقطع الهوى بظاهر الدعوى ، وظاهرها يكون باللسان غالبا كالافتخار والتزكية ويقطعه ظاهر الاستطالة ، عن الغير بإظهار الكبر ، والتعزز والتقوى ، قولا وفعلا وحالا . – وتأتي أمثلة من ذلك – أما ظاهر الدعوى ، النفس ، أو لمن له حظ فيها ، مطلق حظ في الأمور الخفية ، فلها حرص وشرة في التزيين ، واضافة المحاسن ، والمزايا ، وإن كانت كاذبة . وإخفاء النقائص ، والمعايب المصاحبة . وقد مر قوله تبارك " فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى" . وقال تعالى " يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم . ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن " . إلى قوله : " إن الله عليم خبير " . وقال الإمام الشافعي[3]

---

1 – رواه ابو داوود في كتاب الأدب والترمدي في كتاب الزهد .

2 – رواه البخاري في كتاب الإعتصام .

3 – هو أبو عبد الله محمد ، بن ادريس ، بن العباس ، بن عثمان ، بن شافع ، بن السائب القرشي ، يجتمع نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد المناف .ولد الشافعي في غزة من أرض فلسطين سنة 150 هـ ولكنه حمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، فنشأ بها ، وهو أحد الأئمة الأربعة المشهورين في رواية الحديث .انظر ابن عباس.م.س.ص225.

رضي الله عنه ، أرفع الناس قدرا من لا يرى قدره ، وأكثرهم فضلا من لا يرى فضله " . وقال الشيخ سيدي مدن بن مسافر رضي الله عنه : " أول ما يجب على سالك طريقتنا ترك الدعاوي الكاذبة ، وإخفاء المعاني الصادقة " . وقال الشيخ ابراهيم الدسوقي رضي الله عنه " احذر أن تقول أنا ، فإن الله يعجز المدعي ، ولو كنت على أعمال الثقلين هبطت ، أو صاحب منزلة سقطت " . وقال الشيخ سيدي سعيد بن سلام رضي الله عنه : " العاصي خير من المدعى ، لأن العاصي يطلب طريق التوبة والمدعى يتخبط في دعواه وفي الرائية " .

ولا ترين في الأرض دونك مومنا　　ولا كافرا حتى تغيب في القبـر
فإن ختام الأمر عنك محجـــب　　ومن ليس ذا خسر يخاف من المكر

وقال صاحب الحكم : " رب معصية أورثتك ذلا واحتقارا ، خير من طاعة أورثتك عزا واستكبارا " . وقد أطلت الكلام في هذا المعنى ، فاختصرت ما ذكر . وفيه كفاية .

وقد كاتبتك بهذه الرسالة على وجه النصيحة ، فاقبلها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " الدين النصيحة ، قيل لمن يا رسول الله . قال لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم [1] " . وأشرت في النصيحة إلى أن عدم قبول النصيحة والزهد فيها ، من قواطع الهوى بقولي .

والزهد في نصح وإن مغلظا إذ هو هين كثير من لطى ، (كذا) والسلام . في سادس جمادى الأولى من عام 1330 ، العبد الراجي عَفْوَ مولاه ، ومغفرته ، أحمد بن محمد بن الحسن السبعي أمنه الله ، آمين ، آمين ، انتهى .

كتب العلامة المجاهد السبعي هذه الرسالة، وشاء أن يمكنه منها بنفسه ويجري معه مذاكرة لعله يذكر، أو يخشى. فلم يزل ينتظر الفرصة بالاجتماع به ، حتى جمعتهم الظروف بقصر تُورُكْ أحد قصور آيت عطه فدفع له هذه الرسالة ، في وسط جموع غفيرة ، ملتئمة عليه من جهته ، وباسم الجهاد من جهة أخرى . فثارت ثائرته ، واستشاط غضبا ، وقام يتهدده ، وفي يده مزبرة ، وهو يُزبد ويُرعد، لكن السبعي لم يتحرك لذلك ، ولم يستفزه . وما زاد أن صاح الله ، الله مرتين ، أو ثلاثة ، فغشي عليه هنيئة ، ثم أفاق والتفت إلى تلك الجموع قائلا : " .اذا قلنا يا سادتي ؟ " هل قلنا عيبا ؟ فأجاب الجميع لا يا سيدي فأنشد :

النحل والزنبور كل ينسلُ　　والنّسْجُ واحد ، وأين العسل ؟

ثم ذهب الشيخ المتصوف المغلي من حينه يشكو وجعا ، بتلك اليد ، التي كانت تهدد السبعي . واستمرت به علته حتى تأكلت يده في حالة موسفة مؤلمة ، بقي يعانيها حتى لقي حتفه بها بعد شهرين . وتوفي في رجب 1330 بقصر تُورُكْ ، وفي هذا التاريخ جاء إلى هذه الناحية العلامة الجليل الداعية الجوّال، أبو العباس أحمد بن يوسف المعروف بالركني

---

1 - رواه مسلم في كتاب الإيمان والبخاري في كتاب الإيمان.

السوسي . فقصده هذا المدعي وهو بفزنا من تافيلت ، فألقى عليه هذا السؤال ، من الأفضل؟ هل الباقي تحت حكم النصارى؟ أم المهاجرالذي ياكل بحد سيفه ؟ فأجابه الفقيه المذكور ، قديما قيل للجمل" ما الأفضل لك ، العقبة أم المنحدر ؟ فأجاب الجمل بما تعلمون . فلم يلبث المدعى أن قام من المجلس ، وقد صدرت منه أقوال طائشة . فلما بارح المجلس قال الفقيه للحاضرين قائلا : " ما قام هذا المدعي من محله حتى كفر، بسبب ما كان يطغى به لسانه " .

بقي سيدي أحمد السبعي في جهاده ، بحيث لم تكن فائدة كبيرة في جهاد الصحراء ، وبعد ، توجه العدو لناحية قبيلته آيت سغروشن ، شمر الذيل ، وتوجه إلى قبيلة آيت سغروشن ، وآيت يوسي وما إليهما . وبقي قدوة للمجاهدين ثمة وقبْلَتَهم ، يحث ويحرض في تيشوكت ، وغيرها من تلك الجبال حتي وافته منيته سنة 1336.

وله بعض تآليف ، منها واحد في نسبهم السبعي مطبوع ، ومنها النصيحة ، سفر ونظم عبادة الشيخ خليل ، وينسب نفسه في تآليف له في النسب الحسنى هكذا :

أحمد بن محمد ، بن الحسن ، بن محمد فتحا ، بن محمد بن محمد ، فتحا ، بن أبي القاسم ، بن محمد فتحا . صاحب الروضة الملاحقة لروضة جده ، من جهة اليمين ابن أحمد ، بن الولي الكبير مولاي محمد فتحا ، الملقب بالسبع ، وسبب تلقيبه بالسبع ، أن الولي الصالح سيدي الطيب الميسوري اشتكى له زوجته ، ففاجأها من كوة كسنِّور ، ثم تطور سبعا فهربت ، ثم محمد السبع ، بن أحمد ، بن محمد ، بن ابراهيم ، بن علي ، بن عمرو وهو المدفون بغزوان ، وأما عمرو هذا ، فهو عمرو الشريف ، المدفون بباب سيدي بوجيدة بفاس . وعمرو بن أحمد ، بن محمد ، بن أبي بكر ، بن أحمد بن علي بن محمد ، بن سعيد ، بن عبد الرحمان، بن القسم بن عيسى بن علي ، بن عبد الله ، بن محمد ، بن يوسف ، وقيل داوود ، موسى ، بن عمران ، بن زيد بن صفوان . وقيل بن صفوان ابن خالد ، بن زيد ، بن عبد الله بن ادريس .

هذا حظ ونصيب علامة الأطلسيين البربري السغروشني، من مقاومة العدو سيفا وقلما . وفي حوالي هذا التاريخ ، بعد اليأس من مناصرة السلطان الجديد، ونفض يد الناس من دعواه الجهاد ، والذب عن كيان . وحدود المغرب ، باستنصاره بالجيش الفرنسي ، في هذا التاريخ ، ينهض عالم بربري آخر من الأطلس الكبير في قبائل إن ذكرت بعض الحضريين ، ربما يزعم أنه ليس فيهم من يحسن قراءة فاتحة الكتاب هذا البربري من قبيلة آيت يحيى ، أهل القرية الحقيرة " تونفيت " القرية التي جاءت ، جنوب مقاطعة ميدلت ، على 80 كلم منها في سفح جبل العياشي ، من فخذ يسمى آيت ومْكَاتْ – وهو العلامة أبو العباس أحمد بن العلامة أبي عبد الله محمد ، بن الحاج الومكاتي .

وقد كانت لدى المجاهدين مسألة تشغل الفكر العام ، ومشكلة طامة ، ربما حدث من أجلها تطاحن والتحام ، شارك فيها السيوف والأقلام – تلك هي موالاة الكفار ، أو البقاء تحتهم ، والرضى بأحكامهم ، المسمين عندهم " المْزْنِير " . فبعضهم يرى أن كل من بقي تحت حكم النصارى ، فهو كافر وعليه ، فدمه ، وماله وعرضه لا عصمة فيها ، بل حلال .

وبعضهم ، وهو القليل يرى في ذلك تفصيلا بين المضطر ، والمختار ، ولكن الحملة كلها مع الفريق الأول ، حتى أن من يعتقد خلاف ذلك ، لا يستطيع أن يجهر به .

وهذه الرسالة * ، على هذه الناحية حومت ، وعلى هذا الجو حلقت ، وهي رسالة " كما ترى " حافلة بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأقوال الأئمة المالكية - وقد تمسك بها تلاميذه في العلم والطريقة الدرقاوية ، من أتباع داعية هذا الأطلس ، سيدي علي أمهاوش ، كالعلامة شيخ الجماعة على الاطلاق بهذه الناحية .

المجاهد الشهير سيدي محمد بن الحاج التالتفراوتي ، من سكان أسول نْسيدي بويعقوب ، في تخوم جبل العياشي ، وكمواطنه الفقيه المجاهد الشهير ، سيدي محمد ، والإمام حميد الولي الصالح سيدي ، يحيى ويوسف ، ومواطنه محمد ابن علي أشاوي ، المجاهد الشهير ، والفقيه المجاهد الشهير ، سيدي محمد بن الفقيه سيدي محمد ابن علي أشاوي ، المجاهد الشهير، والفقيه المجاهد الشهير، سيدي محمد بن البركة سيدي الطيبي الهواري ، وأخيه الفقيه المجاهد الشهير سيدي عبد المالك ، وغيرهم ممن تأتي ترجمتهم وبعض أعمالهم الجهادية رحمهم الله ولطول الرسالة نقتصر على بعض فصولها ، اختصار الفصل الأول في تحريم مساكنة الكفار وموالاة الفجار ، قال تعالى : " يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين من دون المومنين أولياء . أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا[1] " وقال تعالى : " لا يتخذ المومنون الكافرين أولياء من دون المومنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء[2] " . بمعنى أنه بريء ومفارق دينه . وقال تعالى : " ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبيس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يومنون بالله والنبيء وما أنزل إليهم ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون[3] " . وقال تعالى : " لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم[4] " . وقال تعالى : " يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء[5] " . قال بعض العلماء عند قوله تعالى : بشر المنافقين " الآية . هذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو

---

* - " من أمتع وأبدع وأجمع ما ألف في الجهاد كتاب " مثير الغرام إلى دار السلام " للإمام أحمد به ابراهيم النحاس . لم يؤلف مثله ، وهو في مجلد ، قاله العلامة القاضي سيدي عباس بن ابراهيم في تاريخيه الاعلام جزء الثاني ، صحيفة 213 ، قال : وهو بخط سيدي أحمد بن محمد القسطالي الرباطي ، وطبع مختصره في الاستانة عام 1294 " . اهـ مؤلفه .

1 - سورة النساء : 143 .

2 - سورة آل عمران: 28.

3 - سورة المائدة : 83.

4 - سورة المائدة : 50.

5 - سورة الممتحنة : 1.

كافر ، ومن رضي بمنكر، أو خالط أهله، كان في الإثم بمنزلتهم إذا رضي به وإن لم يباشره .

وهكذا يستمر في سرد الآيات ، وينقل من فقرات المفسرين ، ما يثلج به صدر المومنين ، ثم يقول : وقد قال سيدي محمد بن جعفر الكتاني أطال الله أيامه ، " قد قال العلماء رضي الله عنهم يوخذ من مجموع الآيات أن الإيمان ، يفسد لموالاة الكفار ومودتهم ، وأن من كان مومنا لا يوالي كافرا ، ولا يَوَدُّه ، لأن من أحب أحدا امتنع أن يحب عدوه ، وقال بعضهم حاصل القرآن مقاطعة الكفار من جميع الوجوه ومباينتهم في كافة الأحوال ، بلا مواصلة ولا مودة ، بيننا وبينه اصلا اهـ.

ثم بعد الاستدلال بالآيات القرآنية التي سقنا بعضها ، ينتقل إلى الاستدلال بالأحاديث النبوية ، فيسوق حديثا من طريق سَمُرّة بن جندب ، مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم " من جامع المشرك ، وسكن معه فإنه مثله " أخرجه أبو داوود ومن طريق أبي داوود والترمذي ، عن جرير بن عبد الله ، مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين " . قالوا يا رسول الله لم ؟ قال : " لا تتراءى نارهما " . قال في النهاية : " يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشركين " . ولا ينزل بالموضع الذي إذا أوقدت فيه ناره ، تلوح وتظهر لنار المشركين إذا أوقدها في منزله . ولكنه ينزل مع المسلمين في دارهم...

ثم قال وقد ذكر في شفاء الصدور عن زيد بن أسلم عن أبيه مرفوعا " لا يزال الجهاد حلوا خضرا ما قطر المطر من السماء وسيأتي على الناس زمان يقول فيه قراء منهم ليس بزمان جهاد . فمن أدرك ذلك الزمان فنعم زمان جهاد . قالوا يا رسول الله وأحد يقول ذلك . قال : نعم من لعنه الله والملائكة والناس أجمعون"

ثم تخلص بمناسبة لطيفة إلى حكم الله في الباقين تحت حكم الكافر ، والرضاء به " الذي هو محل التطاحن بين هؤلاء الأطلسيين آنذاك " . فقال : ومن زعم جواز المكث تحت أحكام الكافرين ، والبقاء بين أجناس الخاسرين ، فقد فتح بابا يجر إلى تعطيل الشرائع ، ودثورها ، والرجوع إلى قوانين ، وسياسات كسرى وقيصر ، وكفى بذلك جُرأة واثما مبينا .

ثم ساق فتوى للشيخ عليش ، والمعيارمطولة معلومة ، تُنظر في محلها ثم انتقل للمطلب الثاني . وضمنه تحريم السفر إلى بلاد الحرب ، لأن الغرض هو عرض أفكار هؤلاء العلماء الأطلسيين الـذين تشبثت بهـا قبائلهم حتى صبروا وصابروا ، حتى كانت تلك النتيجة المرضية في صد العدو ، والوقوف في وجهه. هذا هو الغرض من هذا العرض فقط . فالعلماء رضي الله عنهم مصرحون بتحريم السفر والتجارة إلى بلاد الحرب ، والكفر ، والركوب في مراكبهم ، ولو في السفر الواجب ، كالحج الواجب ، فكيف بالبقاء تحت حكمهم .

ففي رسالة ابن أبي زيد مروجا بشرحها " وتكره كراهة تحريم التجارة إلى أرض العدو ، لأن في ذلك تغريرا للإنسان ، بنفسه ، وماله ، وأولاده وإذلالا للدين " ثم نقل كلام صاحب المعيار في المسألة ، ونعى على بعض الجهلة الذين يترخصون في ذلك ، وأطال ، مما يكفي منه هذه النُّتفة هنا ، استدلالا لما يسهم به علماء الأطلس فقط .

ثم انتقل لمطلب ثالث ، ضمنه التشديد في منع بيع كل ما يتقوى به الكافر، من السلع وغيرها ، مما يعينه على البقاء في بلاد المسلمين ، ويستعين به على محاربة المومنين ، وذلك مما لا يجوز شرعا...

فلا تجد مسلما ، سليم الدين ، والإيمان يفعل ذلك أبدا. قال ابن ناجي قال سحنون : " من أهدى للمشركين سلاحا ، فقد أعان ، وأشرك في دماء المسلمين ، وكذلك في بيعه " . ويستمر في نقل كلام أئمة الفقه المالكية ، كسحنون وابن يونس وخليل وشرحه الزرقاني ، والحطاب رغيرهم . ويستمر في الأدلة من صحيفة 41 إلى 46 .

ثم انتقل للمطلب الرابع في حكم المسلم ،إذا استغاث بالكافرين ليعينوه ، على حرب المسلمين ، أميرا كان ، أو غيره . والذي أفتى به العلماء أنه كافر مرتد ، يجب قتاله كوجوب قتال الكافرين . وقد أطال النّفس في الموضوع من صحيفة 46 إلي صحيفة 55 . وهذا الحكم القاسي لا مواراة فيه ، ولا مداهنة ، ولا تسامح . وبهذا كان التعامل عندهم مع كل من ولى النصارى ، ودخل تحت حكمهم ، وحمل السلاح معهم ، فَدَمُه ، وماله حلال .وبهذا كانت تقع بعض الفلتات، فتهدر بعض الدماء ، ممن لا يتورعون ، ولا يسبرون أغوار الناس ، من المكره ، والمختار منهم ، مما سنبينه في محاله إن شاء الله . وإنما ذكرنا هنا نموذجا من اعتقادات بعض علماء الأطلسيين البرابر إن شاء الله ، ونموذجا من مبادئهم ، وعقيدتهم في الاسلام والاستماتة عليه ، والذب عن حوزته ، وعهدهم التي استماتوا عليها ، واعتقدوها دينا صحيحا لا ينجيهم مع الله إلا ذلك ، وما سواه كفر أو نفاق ، يخلد في النار ودار البوارإلى الأبد .

لذلك لا يجدون فسحة ، ولا مندوحة لأحد يوالي الكفار ، أو يرضى بالمقام تحت أحكامهم ، أو يتعامل معهم ، فضلا عن أن يحمل السلاح معهم . يقولون هذا ، عن صدق ، واعتقاد ، ما حادوا عن ذلك قيد أنملة ، حتى استشهدوا ، جلهم إن لم نقل كلهم في سبيل الله ميدان الوغى . فصاحب هذه الرسالة توفي مهاجرا في شوال عام 1332، بعد احتلال خنيفرة بثلاثة أشهر ، وبعد رجوعه من رباطه مع شيخه ، سيدي علي أمهاوش ، بضواحي سرو ببلاد زيان . فبعد رجوعه من هذا الرباط ، بنحو شهر توفي مجاهدا ومهاجرا ، توفي بتاغْريشْت ، من فخذ آيت علي وابراهيم من قبيلة آيت يحيى .

وهناك رسالة أخرى ، في صحيفة 16 ، بخط شيخ الجماعة بالقبائل الاطلسية البربرية العلامة المجاهد الشهير، سيدي محمد بن الحاج التالتفراوتي، بأسول نسيدي بويعقوب ، العلامة المجاهد ، الشهيد الصبور ، التقي النقي الزكي الزاهد ، شيخ الجماعة على الاطلاق ، بهذه القبائل البربرية الاطلسية ، علما ، وعملا ، وجهادا ، ومصابرة ، ومقاومة ، أصله كما ذكر لي ولد أخيه ، العدل المدعو باحمو ، أصله من أولاد سيدي رحال بزمران بالحوز . وانتقل سلفهم لمدشر تالفراوت ، أحد قصور تافيلالت بتلوين ، من ناحية قصر السوق . قرأ القرآن والعلم على مشايخ تافيلالت وعلى العلامة سيدي محمد بن الحاج الوْمكاتي البربري ،

من ناحية تونفيت ، كما بخط يده ، على تقريض الرسالة الجهادية ، وانتقل لأسول نسيدي بويعقوب ، أواخر ربيع الثاني عام 1299، في واقعة هزيمة تيلوين ، بين آيت عطة ، وآيت يفلمان – كذا بخطه – وكان هو الرئيس الأكبر لقطب دائرة العلم بهذه القبائل ، من آيت يفلمان ، وآيت أمالو ، كاشقيرن ، وآيت سخمان والصحراء وكان الشيخ سيدي على أمهاوش، وأتباعه العلماء وغيرهم كلهم أذنا صاغية له ، ولم يزل يجاهد بقلمه ، وسيفه حتى استشهد رحمه الله في ميادين الوغى ، آخر من استشهد في جبل بادو سنة 1352 . مدلولها التحريض على الجهاد ، وأنه واجب على كل فرد وجماعة ، منذ دخل الكفار بلاد المسلمين، واستولوا عليها ، فرض عين على كل قادر، وإن امرأة وعبدا ، وصبيا ، فيجب على من نزل بهم العدو أو قرب من ديارهم من المسلمين الدفع عن أنفسهم ، إن كانت لهم قدرة ، وقوة على الدفع ، والأوجب على من بِقُربهم ، إعانتهم ، إن لم يخشوا معرة على نسائهم وبيوتهم ، وإلا تركوا الإعانة ، ثم يجب على من يليهم ان عجزوا ، وهكذا حتى يجتمع من المسلمين ما فيه كفاية . ولو أتى الوجوب على جميع أقطار الدنيا ونواحيها " . قال خليل " وتعين بفجْإ العدو ، وإن على امرأة ، وعلى من بقي بهم إن عجزوا " . ولا يتوقف الوجوب على رضى الوالدين ، ولا على إذن الأمير... ثم يسوق أدلة من كلام الفقهاء ، كثيرة على هذا ويقول بعدها : ونصوص أهل المذهب في هذا لا تحصى كثرة . والمخاطب بالتعيين ابتداء هو الإمام ، إذ هو المكلف باستنفار الرعية لنصرة من والاهم.. ويخرج معهم بنفسه أو يولي من يثق به... ومر في قول ابن طلحة "يلزم الإمام حمل الناس على الجهاد ، فإن اتكل على أن يفعل الناس بأنفسهم ضاع الباب " .

ثم يضرب مثلا لنا بأهل الأندلس ، حيث لم يعن بعضهم بعضا ، ولم يكونوا بناء مرصوصا . فالقلب من أجل فعلتهم إلى الأبد حيران منكوصا... ثم ساق من ماجريات السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان ، في الصلح الذي أوقعه مع الاسبان ، سنة 1276 ، وساق فتوى طويلة لإمام الحرم الإدريسي العلامة ، سيدي محمد بن محمد العراقي ، رسالته الطويلة المعنى ، المختصرة المبنى ، وهي كما قلنا ، بخط شيخ الجماعة التالتفراوتي ، ولكن بدون إمضائه ، ولا تحمل تاريخا لأن علماء البادية يتساهلون في مثل هذه الأمور ، التي يهتم بها علماء الحاضرة ، ولكن غالب الظن أنها من بنات أفكاره ، وأن تاريخها حوالي 1331 أو 1332 وإذا تجاوزنا شيخ الجماعة ، فهي لأحد تلاميذته كسيدي محمد الطيبي الهواري ، أو سيدي ابن علي أشاوي ، من العلماء المحيطين بسدي علي أمهاوش . وهناك رسالة أخرى مفتتحة بخط شيخ الجماعة التالتفراوتي أيضا ، يخاطب فيها المجاهدين البرابر بالأطلس الكبير ، آيت يفلمان ، وهم آيت مرغاد ، وآيت حديدو ، وأهل غريس وفركلة ، وأهل تاديغوست ، وآيت عطه ، ومن انضاف إليهم من اشرفاء والمرابطين والأحرار ، وقبائل سجلماسة ، من شرفاء ، وبني محمد ، وأهل الغرفة ، وآيت خباش ، وآيت اسفول ، وأهل السفالات ، السيفة ، وأهل تِنَجْدت ، وغيرهم . وهي تضرب على أوتار سابقتها . فلا نطيل

بسردها ، أو بعضها - والظن أنها كانت بتاريخ حوالي أواخر سنة 1338 ، أيام السيد بلقاسم النقادي ، جوابا عن رسالة لخليفة النگادي المذكور أبا علي بن التهامي التازاريني بن الحسن ، أصله من تازارين من حراطينها . وكان خليفة لثائر تافيلالت ، الذي تسمى بمولاي محمد بن الحسن ، وهو مبارك بن الحسين التوزونيني بن محمد بن احمد بداح . وهذا هو أول من أسلم من هذا النسب ، وكان يهوديا . والثائر المذكور من ذريته، وكان من أصحاب الشيخ سيدي علي الدرقاوي السوسي، والد صديقنا الوزير سيدي المختار السوسي .

ولما شاع أمره بتافيلالت لحق بالثائر، فجعله خليفة له في حصار زاوية الشيخ سيدي علي بن العربي الهواري بفركله ، بعد أن لم يفد في احتلالها خليفته الحسن العيساوي ، وكان هذا الخليفة ذا أخلاق شريرة ، فتكا ، وقتلا ، وغدرا ، ومصادرة لأموال الناس . وفتك بكثير من العلماء ، كالفقيه سيدي محمد بن أحمد الخلوقي ، التجاني طريقة . وكان بگلميمة فأمر به فقتل ، وقتل العلامة الحاج العربي بن الفقيه القاضي سيدي أحمد البدوي الفيلالي بن العربي بن الحسن بن عبد الملك التاجموعتي ، وانتقل جده العربي بن الحسن ، نقله القائد وسيمور لأولاد يحيى بالسيفة ثم لاسْرر ، من ذرية سيدي عبد المالك التاجموعتي . وكان من العلماء ، قرأ العلوم بفاس ، وكان أبوه أحمد البدوي رئيس الفتوى ، والقضاء بقبائل آيت مرغاد، وآيت عطة ، أبوه أحمد البدوي رئس الفتوى ، والقضاء بقبائل آيت مرغاد وآيت عطى ، كذا حكى لي ولده المستقر الآن بخنيفرة . ومن أبشع وأخزى ما فعل ، قتله الشيخ البركة الصالح المربي ، سيدي علي بن الشيخ سيدي العربي الهواري . وكان هذا الرجل من عباد الله الصالحين ، داعية إلى الله مربيا بالقلب والقالب ، نزيه الفكر ، واللسان ، كريما جوادا ، شجاعا . ولما وصلته أخبار ثائر تافيلالت ، وأنه من المجاهدين ، جمع جموعا ممن كانوا يعتقدونه من آيت يفلمان ، وبعض آيت أمالو ، وتوجهوا له بنية الجهاد . ولعل كان فيهم معمي (تأتي ترجمته)، ولد الفاسية ، وكبار زيان الذين هاجروا كالمجاهد محمد وعلا الزعيم البومزوغي ، ومحمد ولد أحمّام المرابطي ، واشباههم كما تدل بعض رسائل منهم - ذهب الشيخ علي الهواري إلى حيث الثائر، يجمع الناس باسم الجهاد ، في ما بين آيت مرغاد ، وتدغه . فلما وصل بجموعه العظيمة ، وجد الثائر لا يمت للجهاد بصلة ، وإنما هو التضليل والأهواء تلعب ، والبطش والفتك ، والشيخ على الضد من ذلك " مائة في مائة " كما يقولون ، فانفتل بجموعه ، فاسرّها الفتان في نفسه ولكن ما لبث أن لقي حتفه على يد خليفته بلقاسم النقادي يوم السبت ، آخر يوم محرم 1338 . فاستولى بعده ، وورث مكانته ، فكانت من بوادره الشريرة هذه الوقيعة ، وهي إغراء القبائل على سيدي علي الهواري ، وقتله في أمان الله وحفظه، بعد محاصرة طويلة، دافع فيها هو وخلصانه المجِئُون على حريمهم، وعرضهم ، وأخيرا أعطوه الأمان حتى أسلس لهم القياد ، فساقوه غدرا ، هو وفئة من أعيان أتباعه إلى النقادي، فقُتلوا رميا بالمدفع، في آخر صفر 1338 هـ . من سيدي المهدي بواسطة جزء 16 .

واستمر باعلي في معاركه بين المسلمين من آيت مرغاد ، ثم أهل تدغة فتوجه إليهم فأوغل، واحتل لهم مداشر ، ووقعت معارك ، وكاد يحتل تينغير ، إلى أن جاءت حملة فرنسية , وبها الرؤساء الاجلاويون [فضيقوا] الخناق على أهل تدغة وانهزم باعلي ،إلى وراء حوالي حجة 1338 ، وهنا كان يستغيث بمثل الرسالة المذكورة للشيخ التالتفراوتي ، وأخيرا رجع باعلي إلى تافيلالت ، وقد ساءت سمعته ، ولم يلبث أن توترت علائقه مع النقادي نفسه ، فصار يتقرب من المعسكر الفرنسي بأرفود ، وفي إحدى سفراته من قصره قتله المرْغديّون .

المسمى باعلي [هذا] ، كان قد توجه إلى تدغة كمجاهد ، فوقعت معارك ، وتصرف باعلي المذكور في الناس تصرفا سيئا ، فنفضت الناس أيديهم منه . وكان على أبواب مركز "تينغير " فهاجمته القوة الفرنسية فانكسر ورجع إلى وراء .

وهذه هي الرسالة الموجهة من خليفة النقادي باعلي بن التهامي ، تحمل طابعا كبيرا داخله خادم دار العلية ، علي بن التهامي وبدائرته حسبنا الله ونعم الوكيل . الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد " الشرفاء الفضلاء سلالة الأخيار، ومعدن للأسرار، السيد الطيب ، والسيد بن حمد ، والفقيه الأجل العالم العلامة السيد محمد الحاج ، أيدكم الله ، ورعاكم وسلام الله عليكم وبعد ، فالمؤكد به عليكم غاية الإغاثة والمعاونة على نصرة الدين ، لأنكم من أهل الفضل والكرم ، ولا نقبل منكم عذرا . وقد كنا ننظر إليكم كمثل هلال العيد لما علمتم احتياجنا إليكم ، لأن الدنيا بالمعونة ، وأقْدِمْ مع آل أسفِْ ملول ، ولو تذبحون عليهم . فعلى الجامع أمان الله ورسوله إذ لا غرض لنا إلا في الجهاد في سبيل الله، وقد عفا الله على المسلمين بخروج عدو الله الاجلاوي، من هذه النواحي ، لأنه قد حلوا ببلادنا، بجيوش لا تعد ولا تحصى ، ورد الله كيدهم في نحرهم وعاملونا بصالح الادعياء والسلام . وملِّفّ لنا الجواب بوصوله انتهى وهي شبه عامية .

ولم تزل الحملة العلمية تواكب الحملة الحربية في كل سني المجاهدة والكفاح حتى آخر يوم استسلام الجميع . فهناك رسائل ورسائل ، نكتفي بها بما تقدم ، إلا أن واحدة يجب أن نضيفها لأخواتها ، لا لفائدتها بل لقرابتها فيما نكتبه عن العلماء الأطلسيين ، فهي المنظومة الشعرية الوحيدة التي عثرنا عليها والتي بلغتنا ، وهي على ما هي عليه ، تستحي أن تبرُز في ميادين الإجادة ، والبراعة ، والبلاغة ، بين العلماء الشلحيين السوسيين ،التي غمرنا بها أخونا العلامة الوزير سيدي محمد المختار السوسي ، وجلالها عرائس من رجال الأدب – ولكن إن طأطأت الرؤوس الأطلسية البربرية لذوي الأقلام الشلحية السوسية ، فهي تنافحها ، وتفاخرها في الميادين الحربية والمعارك الدامية .

والمنظومة لعلامة مجاهد ، مهاجر ، جاهد وهاجر ، وكافح ، بقلمه ، وقدمه ، وسلاحه ، حتى آخر يوم استسلم فيه آخر من استسلم ، فقوله يحقق عمله ، ويسانده فليس ممن قال الله فيهم " أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب "[1] . والذين ينشد في أمثالهم .

1– سورة البقرة : 43 .

إذا انتصبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول خالفه الفعل

وذمّوا لنا الدنيا وهم يرضعونـها أما ويق حتى ما يدر لـها نعـل

وذلك هو العلامة السيد محمد واعزاز ، يعرف بن الحسن بن عبد العزيز المرغادي أصلا ، الأيوبي من قصر الحرون ، الزياني مستقرا ، ومشارطة - فقد كان أول ما عرفناه بزيان مشارطا في زاوية سيدي عمر، بزيان حيث كانت هناك مدرسة علمية لصاحبها سيدي عمر المربطي الكتاني طريقة ، صاحب زاوية كتانية ، بمحل يقال له سيدي البهلول في ناحية أكلموس بزيان ، غروبا منها ، وذلك حوالي سنة 1328، خنيفرة .

ثم شارط بالقباب ، ثم بزاوية أيت إسحاق ، حتى احتلت ماي سنة 1920 ، فانتقل مهاجرا ، مع أهلها إلى مدشر مْعمّر، على نحول 15 كلم شرقيا منها. وفي هذه الآونة ، حيث ، كان الجهاد على أشده ؛ بهذه الناحية سنة 1340 ، نظم هذه القصيدة سماها " عبرة أولي الأبصار في وجوب الهجرة من أرض الكفار " .

الله أحمد بحمـــد نفسه كما يليق بجـــلال قدسه

وقد استمرت هجرته مع أتباع سيدي علي أمهاوش حتى كانت محاصرة تازكزاوت وغيرها ، فرجع مع باقي القبائل الاشقرنية ، الاسحاقية ، وسكن زاوية آيت اسحاق ، إلى أن وافته المنية في الساعة 11 ربيع الأول سنة 1377رحمه الله . كنا نعرفه ، ونحن بزيان ، أيام الطلب صغارا ، وباقي ترجمته من ولده النشيط ، الطالب السيد عبد الرحمان بزاوية آيت اسحاق . وقرأ بأروكو على العلامة أحمد المقشيمي .

وسيأتي تراجم هؤلاء إن شاء الله مستوفاة، لمبارك بن الحسن ثائر تافيلالت وللسيد بلقسام النڤادي ، وخليفاتهما ، وأعيان أتباعهم ، وماجريات الجميع مع الفرنسيين بتافيلالت ، وغيرهما بحول الله .

ولعلني قد أطلت في فضل مساهمة العلماء الاطلسيين ، في الذب عن كيان بلادهم وحماية دينهم ووطنهم . فيكفي هذا القدر إلى أن يسنح الله فرصة كتابة تاريخهم العلمي . فهناك نذكر ما تيسر لنا الاطلاع عليه إن شاء الله - فلنرجع إلى ما نحن بصدده ، من مقاومة محمد وحمو للحملة الفرنسية ، وقيادته لقبائله البربرية .

هذه الحملات القلمية من هذه الفئات العلمية هي التي مهدت الجو لاستمالة هاته القبائل عن دينهم ووطنهم . وكانوا كلما رأوا وهنا ، أو ضعفا في صفوف المجاهدين إلا وانبرى واحد منهم يصيح ويكتب ويستدل . وهكذا سايرت حملاتهم القلمية ، حملاتهم الجهادية ، وبها تأسست ، وفي قلوب رجالها أبطال البرابر ، ارتكزت ، ورست وعلى رأسهم ، بطل المقاومة محمد وحمو .

كانت أول مقاومة من هذا البطل للجيوش الفرنسية ، عام 1325 غشت 1907 ، أول ما وطئت أقدامهم الدار البيضاء . فإنه بمجرد ما علم بذلك الاحتلال الغاشم ، أسرع في قبيلته زيان ومن انضاف إليهم ، إلى أبواب الدار البيضاء .

وفي ضواحيها التقى ببربري آخر من هذا الاطلس ، هو البطل الشجاع الشهير المغوار ، الذي لا يُصطلى له بنار ، ذاك هو " موح وسعيـــد الويراوي " .

يلذ لنا أن نلم هنا بترجمة مختصرة لهذا البطل الشهير الشجاع المغوار ، موحى وسعيد الويراوي ، صاحب هذا الاسم من قواد السلطان مولاي الحسن ، وهو الند الوحيد الذي تقرب بشهرته ، من القائد محمد وحمو الزياني ، وهو من آيت وِرّا ، من شعبة آيت يسرى ، من برابر الدير ، وإليه تنتسب القصيبة الشهيرة ، بقصبة " موحى وسعيد " ، على نحو 50 كلم يسار بني ملال .

ولعل تسميته قائدا على هذه القبائل ، بعد تسمية محمد وحمو بقليل ، والتاريخ لا يحقق تنصيب أي مهما بالضبط ، ولكن الأول حوالي 1294هـ1877م. ولم يزل متمسكا بأذيال المخزن من ذلك التاريخ إلى عقد الحماية . لم يزغ ولم يرُغْ عن الطاعة قيد أنملة . وكان شجاعا مغوارا كريما جوادا مِتْلافا ، ناهيك أنه أدركته منيته ، وهو إلى الفقراء أقرب منه إلى القواد الكبراء ، لا يملك نقيرا ولا قطميرا وكان السلطان مولاي الحسن أمده بمحلة ، كما أمد محمد وحمو ، إلا أنها أقل منها، وخاض معارك مع بعض قبائل الدير من آيت يسرى الذين يشذون عن الطاعة وأصيب بالرصاص مرارا ، وكان له غيرة وطنية دينية- فلما أحس باحتلال الدار البيضاء من طرف الجيوش الفرنسية سنة 1907 بادر إلى غزوها ، وانضم للمجاهدين الشاوية ، وحضر معارك سبق بها محمد وحمو، حتى إذا وصل إليه أخوه البربري ، استفهمه عن النتيجة المرجوة ، من هذا الجهاد في هذه البلاد، أخبره أن " لا جهاد إلا على الأولاد في البلاد "، لأنه سابر غور المجاهدين معه ، فدلَّتْه تجربته على أن لا فائدة إذ لا نظام ، ولا قوام . وربما أحس بقدر يُبيَّتُ لهما ، من بعض أذناب المستعمرين ، فرجعا على عقبيهما . وبمجرد رجوعهما ، قامت دولة السلطان مولاي عبد الحفيظ ، فكاتب محمد وحمو ، كما قدمنا . ومن المعلوم أنه يكتب لموحى وسعيد بمثله ، فإننا نرى موحى وسعيد ، في الحين قد شد الرحلة لمولاي عبد الحفيظ بمراكش ، وجاء معه إلى مشرع الشعير ، ولما رجع القائد عبد المالك المتوكي لقبيلته ، مناصرا لمولاي عبد العزيز ، وموطدا له في الدخول لمراكش ، وجه مولاي عبد الحفيظ لصده القائد العيادي ، كان معه بمراكش في تلك المعارك ، كما حدثني به هذا الأخير ، في تفاصيل تأتي إن شاء الله .

ثم تذهب أيام مولاي عبد الحفيظ ، وتأتي الحماية ، ويقوم الاطلسيون يجاهدون ، فيقوم هو يصيح في قومه ، وتجتمع عليه جموع وجموع ، ويذيع صيته وينتظر أن تدنو منه الهجمات الفرنسية ، بعد احتلال خنيفرة . فيخُبُّ فيها" ياليتني فيها جدع أخب فيها وأضع" ، ولكن الجيوش الفرنسية ، بمجـــرد ما احتلت خنيفرة ، تعثرت أقدامها في مقاومة الزيانيين ، فانجحرت في معسكر خنيفرة ، صامدة للضربات القاسية ، التي توالها عليها قبائل زيان ، من جهة وعدوتها الألمان ، التي أشهرت الحرب عليها ، باثر احتلال خنيفرة بشهريــن ، وللصيت الذي كان لموحى وسعيد في القبائل ، وفي الدوائر المخزنية ، وخصوصا لدى صديقه الوزير السابق السيد المهدي المنبهي، الذي كان يقطن طنجة آنذاك فقد نبه عليه هو أيضا الطرف الألماني الذي كان يمد محمد وحمو بمساعدة مالية فمدته ألمانيا بدوره كذلك في جملة أبطال بربريـين ظهروا في ميدان الجهاد، ومقاومة فرنسا ،

أولهم وأشهرهم محمد وحمو ، ثم موحى وسعيد هذا ، ثم سيدي رحو- وسيأتي تفصيل ذلك - وبما أن فرنسا تعثرت في مقاومة زيان ، فلم يكن ينال موحى وسعيد من تلك الحروب أنذاك إلا اليسير ، فخف حمله عليها شيئا ما .

وقد أغرته فرنسا بكل ما لديها من مغريات ومتمولات ، ولكن لم تنل قناته لشيء من ذلك ، ومن المكاتب التي أصدرتها له فرنسا بواسطة الباشا ببني ملال السيد بوجمعة المسفيوي . ولا بأس بسوقه هنا للتاريخ نصه : " الحمد لله وحده ولا يدوم إلا ملكه ، أيد الله بمنه ، وكرمه المعظم المحترم القائد موح وسعيد الوراوي وعليك أزكى السلام التام ، ورحمة الله على الدوام . أما بعد ، فلا يخفي عليك أننا كاتبنا إلى جنابك مرارا متعددة ، والكل مراعاة لك ، ولكافة رعيتك ، خوفا أن تلحقكم المضرة الفادحة ، وأن تضيعوا ويضيع متاعكم ، وأولادكم . وأيضا مثلك لا يستحق هذا ، لأنك كبرت مع المخزن السعيد ، منذ كنت صغيرا . فأنت أعقل الناس وأفضلهم ، وكافة أهلك أنت أولى بهم ، وهم لا يخرجون عن كلامك . وكلهم يسمعون لك ، ويجتمعون عليك . الحاصل مثلك لا يغفل ولا يحتاج لنصيحة . ألم تعلم أن كل ما ضاع ، فهو في رقبتك ، وأنت المواخذ به بين يد الله ، ألم تعلم أن أيت الربع فسد أمرهم ، وهلكت رجالهم ، وضيعت ماشيتهم . ألم تعلم أن جميع أهل الدير إخوانك ، وغيرهم ، ضيعتهم وسجنتهم في الجبل ، ألم تعلم أنك إن لم تصلح عن عز وتعظيم ، تصلح بذل وقهرة ، ألم تعلم أنك ، إن لم تصلح هذا العام نتبعك ، وتصلح سيفا ، في العام القابل . ألم تعلم أن القشلة بُنيت بتيسي ، بنيت وعمرت بالعساكر والمدافع ، كما عمر غرم الاعلام بالجيش والقبيلة . ألم تعلم أن في الربيع ، إن لم تصلح تتبعك المحلة لداخل الجبل . فالواجب علينا في الدين النصيحة ، لك ولعامة الناس . والآن إن لم توجه لنا الفارين في الجبل ، من أيت الربع ، لا تزول عليكم المحن بالطيارات ، وغيرهم طول الأيام . وإن صلحت أنت وأهلك ورجعتهم ، تضمن لك ما تحب ، وترضى عندنا ، وعملت الخير في كافة الناس - وإن ظهرت لك غير الصلح ، خسرت وخبت ، ولا تلومنّ إلا نفسك - واعلم أن ما دامت أيت الربع عندكم ، الطيارات لا شغل لهم إلا من أيت ولغم ، إلى زاوية احنصال لتكونوا على بال ، وإن رددتم أيت الربع إلى بلادهم ، يظهر ما يكون معكم ويكونوا خير بحول الله ، وبه الاعلام والسلام ، في مَتّمّ محرم " وكما كان الجانب الفرنسي يكاتبه ، يستميله من حميته ، كان الجانب الآخر من المجاهدين يكاتبه أيضا ، ففي اكتوبر 1920 توجهت له رسائل من أولاد سيدي الطيبي الهواري ، وبلغ صيته إلى الصحراء ، فكاتبه بلقاسم النكادي في 1921 ، كما كاتب سيدي حساين الحنصالي ، وبيده مكاتب لكل منهما نبثها عند المناسبة إن شاء الله .

ولم تزل الاغراءات ، تأتيه من الجانب الفرنسي ، ولم تأثر فيه أدنى شيء . لكن تأثر بعض أولاد هذا القائد بهذه الاغراءات ، وانخدع لها ، وهو ولده علي ، فمد يده للمعسكر الفرنسي .

ففي الحجة 1339 غشت 1921 ، هب هذا الولد لأداء الطاعة للسلطان مولاي يوسف

بالرباط. ولكن والده البطل، مع ذلك لم تنل منه كلّ تلك الماجريات . فبقى اتصاله بالمجاهدين ، من كل ناحية ، وأينما كانوا . فلم تنقطع صلته بمحمد وحمو حتى استشهد هذا في 17 رجب 1339 ، يوافق 21 مارس 1921 ، ثم وصلته مكاتب من مربيه ربُّه ، بسوس يعظه ، ويوصيه أن لا يجنح للاستعمار. وفي سنة 1922 ، عزمت فرنسا على احتلال القصيبة ، " مركزه الكبير ، فتروغ بنفسه عن القصيبة ، وصعد إلى مدشر " تاغْروت " ، عند آيت يشو ، وكانت معه قبائله من آيت ورّا ، وآيت أم البخث وغيرهم . وفي شعبان 1337 ، يوافق أبريل 1922 ، هيـأ الجنرال بواميرو ، قائد المعسكر الأكبر بمكناس جيوشه ، ووصل للمعسكر الثانوي بخنيفرة ، واستنفر قوتهم بما فيها من جيش وعسكر، وجند ، وقبائل ، يتقدمهم بوعزة ولد محمد وحمو ، وبعض إخوانه ، وكذا معسكر تادلا وقبائلها .

وهبط من قبائل الدير إخوان " موحى وسعيد " ، الأُباة المغاوير ، وفيهم جموع من اشقيرن ، وناحيتها ، برياسة سيدي عبد المالك بن الطيبي الهواري ، فسدوا الثلمة على الجيوش الفرنسية . ولقي حتفه باسو* أخو بوعزة . وخلص هذا بجُرَيْعاء الزّمن . فقد أدركته فيئة من الرجال ولزّوا به في شاهق جبل ، ولكنه ركض فرسَه ، فوثب به من ذلك الشاهق وسلم .

ولكن ، بعد ذلك استجدوا حملتهم ، فاحتلوا القصيبة في 9 أبريل 1922 ، ولم يحضر هذه المعركة " موحى وسعيد نفسه ، لأنه كان قد أخذ من الهرم كل مأخذ وبقي في جباله يحرض ويغري صابرا مثابرا ، متسليا بما عند الله ، وما أعد الله للمجاهدين الصابرين لاواء العيش ، برغم قيادته الطويلة ، قرابة خمسين سنة ، فإنه لقي ربه فقيرا محتسبا ، حتى لقي ربه في 5 مارس 1924 في مهاجره .

هذه نبذة من ترجمته ، اختصرناها هنا للقراء الذين لا يعجبهم التطويل ، والانتظار ، وغنما للوقت وفرصه ، " فالمؤمّل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها " .

وجد الحال " موحى وسعيد " قد عرك تلك القبائل ، خبرها ، وخاض بعض معاركها، فـي ثلة قليلة من أصحابه . فكان لا يرضى تلك المقاومة الفاشلة التي ليس وراءها فائدة ، لعدم الشجاعة الكافية أولا ، من السواد الاعظم الحامل للسلاح بلا تدريب ولا تجريب ، وثانيا القليل من الشجعان الخلص ، لا تحميهم من قاذفات القنابر طبيعة الارض بوقايات ، فهم إذا برزوا للعدو ، لا يثبتون أمام معداته لحظة لان قنابر العدو تحصدهم في السهل حصدا ، وتهدهم هدا ، ولذلك لم تقع مقاومة تذكر بالشاوية ، ضواحي المدينة ، إلا التي كانت في المذاكرة يرأسها الاحمر بن منصور، وبعض إخوانه ، وطرف ممن انضموا حوله . وقد كان شيخنا العلامة سيدي الحاج عبد الرحمان النتيفي الجعفري البيضاوي ، ممن حضر هذه المعارك منقبلة من قراءته بالقرويين بفاس .

وها نحن نسمع إليه يتحدث عن بعض هذه المواقف . قال : " كنت مع قبائل الشاوية الرابطة في " تادّارت " في رجب 1325 على ضواحي الدار البيضاء بنحو 15 كلم . فكنت أرى رجالا عظاما في ملابس فاخرة ، على أفراس مطهمة – وهم يختالون فوقها خيالي ، طافحين ،

في نخوة الكبرياء والزهو – فكنت أظن أنهم لا يعلمون شيئا أمام عدة فرنسا ، من مدافع وغيرها . وكانوا يتبجحون بكلام فارغ ، لا طائلة تحته ، وفي بعض الأحيان . يركب فرسان ، فتغير حوالي الدار البيضاء ، والعدو رابض لا تتحرك له يد ، ولا رجل ، وذات يوم حلقت فوقنا طائرة في شبه مظلة " لأن الطائرات المعلومات ، لم تكن آنذاك " ، يقول شيخنا ، فاوجست أنا خيفة ، من ذلك التحليق، وعلمت أنها طائرة استطلاعية، وذاك ما كان .

فلم يكن سحر الغد ، ينبثق عن فجره حتى احتشدت القوة الفرنسية مدافعها وطوارقها . فما أبلع القوم ريقهم حتى صار يحصدهم حصدا ، مما جعل الكثير من المجاهدين[لم]يتمكنوا حتى من ركوب أفراسهم . فاندحرت المحلة، بل تشتت شذر مذر. قال وخلصت بمشقة وأعجوبة، ذلك أني وجدت فرخا من بغال ، في مربضه ، يتطاير من هول الصواعق ، ففكت قيده بمشقة ، فطار بي طيرة واحدة ، حتى أبعدني عن صوب الطلقات .ثم لما تشتت هذه المحلة التي كانت بتادارت ، وجه صوبه إلى محلة الخليفة السلطاني التي كانت رابضة على ابواب الدار البيضاء من جهة أخرى فكانت النتيجة كالأولى انهزام المحلة بدون جدوى. قال وقد دب في كبار الشاوية داء الفشل ، والتسارع إلى الحماية من الأجانب ، فكبارهم والأغنياء منهم " إلا من رحم الله " احتموا في قناصل الأجانب ، وأغرب ما سمعته في ذلك ، أن الشيخ البوعزاوي، الذي كان يعقد عليه أمل في قيادة المجاهدين إلي معارك العدو ، كان هو أيضا ممن احتمى بقنصل البرتغال . فقد حدثني الحاج بن العباس بن الوزاني ، وهو من كبار أولاد حريز ، أنه ذهب بدوره ليأخذ الحماية من قنصل البرتغال ، فكان ممن تزاحم معه ، على باب القنصل ، المذكور الشيخ البوعزاوي .

وإذا كان هذا من هذا الرجل الصوفي والمحسوب من رجال الجهاد فما ظنك بغيره . وعلى كل حال فقد كانت كل الظروف مواتية للتمهيد لفرنسا في بسط حمايتها لأمر قدره الله . وقد لا يخلو من حكمة "من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذاك لقصور نظره " .

وهذا الشيء الذي حكاه شيخنا ، شاهده بطل الأطلس " موحى وسعيد " فعندما جاء أخوه البربري محمد وحمو ، حكى له الواقع ، واتفقا على الكلمة المتواثرة عنهما " لا جهاد إلا على الأولاد في البلاد " ، فرجعا إلى أوطانهما ، حيث لم يلبثا ، إلا قليلا حتى ظهر السلطان مولاي عبد الحفيظ ، بصفة المجاهد . فطار له " موحى وسعيد "، حيث علمنا أنه كان معه في مشرع الشعير ثم في مراكش في مقاومة القائد المتوكي مع القائد العيادي.

وكان من محمد وحمو مع مولاي عبد الحفيظ ما قدمناه مفصلا ، وانتظر الجميع صدق مقالة السلطان الجديد ، الجهاد والدفاع حتى برزت الحماية المشؤومة سنة 1330 .

ابتداء المقاومة الزيانية الحقيقية للجيوش الفرنسية

عند هذا الوقت نفض الجميع والبربريان ، من بينهم من يد السلطان المجاهد . كيف وهما يعانيان الاحتلال يركز قوائمه .

وعندما صار العدو ، يجوس خلال الديار ، ويتقرى البلاد ، ويتحين الفرص لينقض عليها ، واحدة تلو الأخرى ، كان محمد وحمو من جهته يصمد في وجهه ، متى سنحت الفرصة بذلك , هو وأولاده ، وأولاد إخوانه . وهؤلاء بالخصوص ظهروا في هذه الميادين أكثر استبسالا , وشجاعة ، فقد كان " موحى وعقه " ، و"معمى ولد الحاج حدو" ، وأخوه بنعقه ، والد الضابط , حمو الشهير ، أبناء أخوي محمد وحمو ممن أبليا البلاء الحسن ، من أول الأمر . فكانا يقودان فرسان عمهم وفرسانهم فيقطعون السبل عن الحملات ويعترضون فجاجها ، ويسقونها من كؤوس الحمام أُجَجَها . فكانت بينهم حروب ووقائع في عدة مواضع . فأولها غزوة كانت على أبواب مكناس ، في تراب قبائل بني مطير ، وزمور ، وزعير ، وقد فعلا في ذلك المستحيل. فما كاد الاحتلال يركز عُمَدَه في مكناس ، وضواحيه ، ببضعة شهور ، حتى توجهت في جمادي الثاني عام 1330 ماي 1912 حملة من هؤلاء الفرسان لناحية أول مركز ، ركزه في هذه الناحية ، وهو مركز " أكراي " ، ببلاد كروان ، على نحو 30 كلم شرقي جنوب مكناس ، وأوقعوا بالحامية خسائر جسيمة ، ثم تراجعوا ، فتعرض سبيلهم طائفة من قبيلة كروان ، فأوقعوا معهم معارك ، وساقوا غنيمة ، مما يقرب من أربعمائة رأس من البقر، وسلم الله الغزاة إلا تافها .

غـريـبـة

ومن أغرب ما وقع أن أحد هؤلاء الفرسان أصيب برصاصة ، فسقط في دجى الليل ولم يعثروا عليه ، وكان أصيب بكسر في إحدى رجليه ، وهذا الفارس يسمى الرقادة من أتباع والعايدي . فبقي في يد العدو أسيرا ، وكانت إصابته على فم جحر ثعلبة مُرضع . فلما أحست به أكثرت من العُواء في الليلة الأولى ، وبقي طريحا ليلته تلك ، والنهار كله بعدها ، وفي الليلة الثانية عادت إلى عُوائها مما نبه المعسكر إلى أن عُواءها عن شيء . فخرجوا يتجسسون خوفا ، يظنون أن هجوما آخر ، سيشن عليهم . فقاربوا الخطوات شيئا ، فشيئا ، فتحققوا أن لا هجوم ، وإنما هناك شيء أقلق راحة الثعلبة ، فدنوا حتى قاربوا الجحر ، فإذا هم أمام جثة طريح تعاني الألم ، من جراء الكسر ، فحملوها إلى المعسكر الأول بأكوراي ، حتي واسوها نوعا ما ، ثم حملوها للمعسكر الأعظم بمكناس . فأودعوه مستشفى رياض القسطلي ، " مستشفى مشهور أنذاك ، داخل المدينة " فباشروه بالعلاج حتى أشرف على الإبلال ، هذا ما كان من الطرف الفرنسي . أما ما كان من الطرف الزياني ، فإنه لم يكن ليستنيم عن ضحيته التي لا يعلم ماذا جَرى لها . لذاك وجهوا من عقر بلادهم وعاصمتهم خنيفرة ، من يستطلع على الضحية ، أحية هي أم ميتة ، وإن كانت الأولى ، فليعمل المستطاع في انقاذها ما أمكن – جاء هذا المغامر يستكشف ، ويستطلع ، حتى تحقق بكل شيء ، وأنه في مستشفى " رياض القسطلى " . فتنكر في مسلاخ أبي زيد السروجي ، ودخل المدينة خائفا يترقب ، وعن الأسير الكسير ، يبحث وينقب ، حتى عثر عليه بالمستشفى ، واخذ عن حقيقته وصفا كافيا وكشفا . ورمز لبربريه بحاجبه رمزا ، كان بين الحضور لغزا . لم يستبينوا منه مغزى ، إلا

بعد أن فُقد من بينهم الجريح ، الذي كان على فراش الضنى بينهم طريح ، ذلك أنه تواعد مع صاحبه على أن يتسلل عندما تسنح به الفرصة ، وتواعد معه مُحلا على أبواب مكناس . فنفذت الخطة ، ووصل على صاحبه بالمحل المتواعد فيه ، وقد كان الكسير لا زال لم يستتم شفاءه ، مما اضطر صاحبه إلى حمله على ظهره ، في أكثر السفر ، الذي لم يكن إلا ليلا ، حتى قاربوا بلاد زيان ، حيث مأمنُهما مُحقق .

ومما لا شك فيه أن أيد ، من البرابر المجاورين ، لمكناس ، مدت لهما ، سواء في الاستكشاف الأول أو الرجوع الثاني ، لأن الناس كانوا لا زالوا قريبي عهد بالحماية ، وفي نفسهم إباءٌ وشمم ، جلهم يستشرفون للجهاد أو إعانة من يجاهد .

وتلت هذه الغزوة غزوة أخرى بعد شهر - ففي رجب 1330 ، جوان 1912 تجهزت هذه الفرسان أيضا برياسة المذكورَيْن ، وأغذت السير إلى أبواب مكناس أيضا ، ولكن هذه المرة قصدت تراب بني مطير في ايفران نسيدي عبد السلام " . إفران ، باللغة البربرية جمع ، " إفْرِي ، وهو الغار أو الكهف . ويطلق كثيرا هذا الاسم عند البرابر والشلحيين - والمشهور عند الزيانيين ومن إليهم اثنان أحدهما ببلاد زيان يسمى إفران الشرفاء ، وأول من نزله من الشرفاء جد الشرفاء الامرانيون ، الشريف سيدي محمد بن عبد الواحد ، بن العربي بن محرز ، بن علي بن يوسف ، بن علي الشريف كما تقدم . وهو ما بين زيان وبني مجليد ولكن في التقسيم الاداري ، رجع إلى مركز عين اللوح ببني مجيلد ، وكانت به مدرسة قرآن وعلم محل احترام وتعظيم من قبيلة زيان ، وهو شرقي جنوب خنيفرة على نحو 45 كلم أو 50 منها . هذا إفران الأول .

أما إفران الثاني ، فهو المشهور بإفران نسيدي عبد السلام ، بتراب بني مطير وهو المشهور الآن بالاصطياف ، وأهله ينسبون شرفاء يعقوبيون أمغاريون ، ويقولون إن تاريخ هذا الولي " سيدي عبد السلام " ، كان على عهد السلطان مولاي رشيد ، ولما توفي دفن هناك حول كهفه ، أو غاره الذي كان بتعبد فيه . ولم تكن هناك عمارة وإنما هي كهوف ، على عادة أولياء الله الفارين من الخلق للخالق .

لكن بعد وفاته ، بقيت ذريته هناك فتناسلت ، وتكونت القرية أو المدشر المسمى " إفران نسيدي عبد السلام " ، وهي قرية بها مسجد للجماعة والجمعة . وعندما فكرت فرنسا في جعل مصطاف بهذا الاطلس البديع ، اختارت بقعة " جوار القرية " المذكور . فخططوا تصميما للمدينة الاصطيافية ، فعارض الشرفاء بدعوى أنهم شرفاء ، لا ينبغي للنصارى أن يحاورهم ، فجاملتهم السلطة الفرنسية بالابتعاد عنهم ، فحوّلوا التصميم للمحل الذي فيه المدينة الآن ، مدينة إفران الجميلة، في المحل الذي هي فيه الآن الذي كان البربر يطلقون عليه اسم "تورتيت "، لتلك البقعة الجميلة المحتفة بالأشجار ، وشوامخ الأرز الجميل البديع ، فهو إطلاق على معنى بديع حقيقي .

بعد هذا رحلت لافران بتاريخ متم ربيع الأول 1384، 7 غشت 1964 فحققت من ظهائر بيدهم من السلطان مولاي عبد الله ، وسيدي محمد ولده ومولاي عبد الرحمان ، وسيدي محمد بن عبد الرحمان ، ومولاي الحسن ومولاي عبد العزيز ، ومولاي حفيظ ، ومولاي يوسف ، وسيدي محمد بن يوسف ، إنهم مرابطون أبناء العلماء الاجلاء الحفاظ ، سيدي عبد السلام صاحب الزاوية ، وسيدي أحمد بن يعقوب الولالي الشهير، المؤرخ صاحب مباحث الانوار ، وغيرهم وهذه الظهائر هي بالورقة طيه . فلم تشعر الحامية الفرنسية التي كانت هناك حتى هاجمتها الفرسان الغزاة وأقضت مضجعها ، فخرجت الحامية لتقابل بالمثل ، وتصد الهجمات ، فاحتدم القتال وخالط الرجال الرجال . وكانت معركة هائلة ، فُقد فيها رئيس الحامية القبطان " نُوفْرير " ، وانقلبوا على المجاورين ، للمركز ، فساقوا غنيمة تقدر بخمسمائة رأس من البقر لبني مطير، وأهل إفران، وسلم الله المجاهدين إلا ما لا يذكر .

وتلت هذه غزوة أخرى غيّر فيها المجاهدون صوبهم ، عن ناحية مكناس ، إلى ناحية الرباط ، فتوجهوا صوب مركز الزحيلگة بتراب زعير على 60 كلم من وادي زم ، في الطريق إلى الرباط ، وعلى مركز مولاي بوعزة بنحو ذلك . فقصدوه من ناحية مولاي بوعزة لأنه جاء في الحدود بين زعير ، زيان ، وإن كان يبعد عن عاصمتهم خنيفرة بنحو 130 كلم .

هاجم المجاهدون هذا المركز وروعوه وكان محصنا ، ومستعدا أتم استعداد ، فقاوم المجاهدين مقاومة شديدة ، وقاوموه بكل شجاعة ، وكبدوه خسائر ، كما تكبدوا هم أيضا مثلها ، واستشهد من فرسانهم جماعة من أعيانهم ، ومنهم بوعلالة المعيوي وعلي ، والشيخ الهباري ، وعزيز الشارطي ، وبوعزة الاحيندي .

وتلت هذه غزوة رابعة وكانت إلى ناحية مكناس ، بتراب زمور بالمحل المعروف بولجة السلطان ، في حدود زمور ، وزيان ، أهل ولماس على نحو 50 كلم من جنوب مكناس . توجه فيها هؤلاء الفرسان ، ووقعت معركة حاسمة ، وجدوا فيها العدومستعدا استعدادا ، فقاومهم مقاومة شديدة ، تزحزحوا فيها شيئا ما ، ثم تراصوا إليه ، وكروا نحوه ، فتقهقر وبقيت موتاه طريحة على العراء ، فغنموا سلاحها ، وكانت غنيمة السلاح أعز ما عندهم .

وتلتها غزوة خامسة إلى ناحية الرباط ، في ضواحي الزحيلگة من تراب زعير بالمحل المعروف بولجة بوخمسين ، في الحدود الزيانية الزعرية ، ولكن لحد الآن لم أتحقق تفاصيل عنها .

وقد سبقت هذه الغزوات الخمس ، غزوة أولاها كبرى ، كانت في تراب زمور، بالمحل المسمى تافودايت ، في جمادى عام 1330 أبريل 1912 .

تافودايت قرب ولجة السلطان ، بتراب آيت وربيل من جهة ، وآيت يكو من حودراًن ، من جهة الجنوب الشرقي لمركز الخميسات ، على نحو 27 كلم . وبها شرفاء يسمون آل سيدي الاحسن ، بيدهم ظهائر لمولانا اسماعيل ، وولده عبد الله ، ومولاي سليمان تُوذِن بتوقيرهم ، واحترامهم ، لانتسابهم للشرف الحسني ، لأنهم من ذرية سيدي أبي يعقوب ، وهو جد هؤلاء

الشرفاء ، وأخو سيدي اسماعيل ، جد بني أمغار ، وأخو سيدي أبي زكرياء جد البوزكراويين .

هذه بعض غزوات المجاهدين ، من فرسان محمد وحمو ، برئاسة أولاده ، وأولاد أخيه ، موح وعقه ومعمي ، وبنعقة ، أبناء أخيه ، وكبيرهم والعايدي .

وقد كانت هاته الطائفة الأخيرة ممن تشبعت بأفكار الجهاد ، والاستماتة ، من أفكار شيخنا ، سيدي الحاج عبد الرحمان . وفي إحدى هذه الغزوات ، وهي غزوة كانت بتراب قبيلة بني مجليد ، بين اكوراي وتبدوت ، بمحل يقال له لكحارة ، كذا من والعايدي الصغير – أصيب بنعقه ، والد الكولونيل حمو الآن برصاصة أنفذت مقاتلة ، إلا أن الله سلم . وكان شيخنا لا يفارقه ويمرضه ، ويقص عليه مما أعد الله للصابرين المجاهدين ، وكان هذا الرجل يتذوق مواعظه ، وحكمه بكل شغف حتى لا يكاد يستطيع فراقه ، وإذا فارقه يلح عليه ، أن يرسل له البعض من تلاميذه ليستأنس به . فخرج من مسلاخ إمحزان ، رجال الزهو والفخر والخيلاء ، كما خرج جميع التلاميذ الذين يمتون إليه من ذلك ، وصاروا روحانيين يستلذون المعارك الجهادية ، كما يستلذون ملاذهم السالفة الدنيوية . فاستشهد منهم رجال وأبطال كلهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، ان الله لا يضيع المومنين .

ومن جملة من استشهد في هذه الغزوات، أحد تلاميذه المخلصين يسمى العَنّوش . وكان ممن أثرت فيه مواعظ شيخنا ونصائحه التي منها ، بل أولها التوبة النصوح ، بشروطها ، من أداء ما بالذمة من حقوق الله ، كصلوات فائتة وزكوات . فثابر هذا الشهيد يؤدي حقوق الله ، وحقوق العباد المالية ، من زكاة وغير ذلك بنية صادقة – حتى إذا جاءت هذه الحملات الجهادية كان في طالعتها ، فاستشهد في إحداها ، فقام شيخنا على دفنه في ثيابه بدون غسل ، ولا صلاة على قاعدة الشهداء – وبعد دفنه بيومين أو ثلاثة ، رآه شيخنا في رؤيا منامية ، فسأله عن حاله فأجابه قد أعطاني الله كل ما وعدنا به ، بل أعطاني كل شيء ، غير أن بولة تحتي . فاستيقظ شيخنا وقص علينا رؤياه وذهب أخماسا في أسداس ما هي البولة التي عكرت صفوه ؟ أهي زوجة ، هو معها على حرام أم هناك شيء آخر ، وأخيرا كشف العلم أنه دفن قبر لصاحبه لا زال لم يرم . ـ ذه أشياء عشتها ، وعقلتها في الصغر ، وعقل الصغر كالنقش في في الحجر.

كانت هذه الغزوات مُفتتح الباب الأول الذي جربوا فيها معارك العدو المحتل وأروه فيها البرابر الأوابد أنهم الاسود الحوارد الذي غناهم الفرزدق بقوله :

فقلت عسى أن تبصريني كأنما بقي حوالي الأسود الحوارد

تأثر رئيس معسكر مكناس الفرنسي لهذه الغزوات التي أثارت في قبائل أخرى نزوات

ولما رآى رئيس الجيوش الفرنسية الجنرال مواني Moinier هذه البادرة ، من المقاومة التي كانت تأتيه رجالها من عاصمة زيان ، خنيفرة علم أن الأمر جد ليس بالهين . فيجب أن

يتخذ له حدٌّ - فارتأى أن يستميل قائد المعارك محمد وحمو أولا بشيء من اللّين فكتب له رسالة ، وجهها مع بعض من يتزعم الشرف ، وهو رجل يدعي مولاي احمد بُولحية . كان يتزود عند " امحزان " ، حتى ظهر بهذا اللون الجديد من الوساطة ، جاء في الرسالة :

" من الجنرال مْوانْي إلى القائد محمد وحمو الزياني ، وبعد فقد سمعت بأنك تجمع القبائل بوادي بهت الفوقاني ، وتعمر شكايرهم بالقرطوس ، وأنا أنصح لك بأن تمدّ يدك لفرنسا ، فإنها بك أولى ، وفي مسالمتها الهناء ، وفي الهناء الغنى " . ما فيها من ألفاظ ، هي هذه بنفسها ، أو قريبة منها . ولما وصل هذا الكتاب لمحمد وحمو ، ضرب به عرض الحائط ، ولم يأبه به ، مما زاد رئيس المعسكر تحرقا وغيضا . كادت نفسه تفيض منه فيضا ، وهو جدير بذلك لأنه رأى بهذه الغزوات رؤوسا من القبائل الأخرى، غير زيان ، تنطوي تحت راية الجهاد له ، ويهاجرون إلى قبيلة زيان إخوانهم ، الذين يمتّون إليهم جميعا بالعرق البربري . فهاجر بعض الأعيان من بني مطير ، وآخرون من زمور ، وآخرون من زعير.

فممّن هاجر من أعيان قروان الشرقية ، ثلة برئاسة الرئيس الشريف مولاي علي بن الرئيس الشهير ، مولاي عبد الواحد الامراني . ومن زمور جماعة منهم القائد بنعاشر القبلي ، القائد بنعاشر بن محمد بن قصّو القبلي من القبليين ، أهل مركز الخميسات كان من أعيان إخوانه، ورؤسائهم . ولما تطاولت الجيوش المحتلة لترابهم زمور ، هاجر في طائفة من إخوانه ، ووصل في مَهاجرة إلى زيان، وأكبرها له محمد وحمو ، فكان كأحد أبنائه ، كنا نحن صغار ، لا نراه إلا في مواكبهم ، ومراكبهم كأحد منهم . وخبّ ووضع معهم في بعض تلك الغزوات التي أسلفنا ذكرها - ومرت له فترة بزيان وأخيرا ، قبل احتلال خنيفرة ، رجع إلى وطنه . وعلى أنه من الاعيان الذين يستحقون التولية على قبيلته ، فأن فرنسا لم تغتفر له تلك الهفوة في نظرها. فبقي كأحد الناس ، إلا أنه له حرمته ، ومكانته حتى مرّ عليه نحو 15 سنة أخرى ، فرأت من الأليق أن لا تهمل أمثاله ، فولته قائدا بدائرة الخميسات ، إلا أن النزوة الأولى التي كانت فيه من أول أمره ، لم تكد تفارقه ، فكان يصطدم دائما مع المراقبين المدنيين ، وتصدر منه ثورات، أدت به أخيرا إلى مصادمة عنيفة مع أحدهم، تماسكا فيه بالأيد ، ضربا ، ولكما ، مما أدى إلى تأخيره عن القيادة . وبقي في داره موقّرا محترما حتى وافته منيته في نوفنبر 1941 . وكان والده كقائد مخزني أيضا ، وفي ثورة أبي حمارة ، توجه استجابة لدعوة السلطان ، مولاي عبد العزيز في ثلة من إخوانه ، فتوفي في إحدى المعارك .

من فخذ القبليين ، أهل مركز الخميسات ، ومن آيت وربيل جماعة برئاسة الفقيه سيدي محمد الحاج الدرقاوي . الفقيه سيدي محمد بن الحاج الدرقاوي أصله من بني حسن من أولاد سيدي موسى بن علي دائرة سيدي سليمان . ثم انتقل لزمور قديما ، واستقر في آيت وربيل ، بصفته مرشدا ، وداعيا إلى الله ، بوصف الطريقة الدرقاوية ، وكانت له حرمة في أتباعه ، وله ديانة متينة ، وغيرة على وطنه بشأن السادة الدرقاويين المنتسبين لسيدي محمد

العربي ، لأنه من تلاميذه . ولما احتلت الدولة الفرنسية قبائل زمور ، كان حامل راية المقاومة في زمور عامة ، وآيت وربيل خاصة ، وغزا مع الزموريين ، والزيانيين بعض الغزوات التي أسلفنا . وحيث لم تتسع رقعة بلاد زمور للجهاد ، هاجر إلى زيان ، وواصل سيره إلى ناحية الدير أولا ، فوصل فم العنصر على نحو 15 كلم شمال بني ملال ، ثم رأى أنه ستكون له حظوة لدى الاطلسيين ، أصحاب سيدي محمد العربي الشيخ الدرقاوي سيدي محمد العربي المضغري ، وإخوانه في الطريقة بالأطلس عند سيدي علي أمهاوش كثيرون . فقد رأى أن يتجه صوبهم ، وهكذا كان – فمن خنيفرة توجه إلى القباب ، وهناك اتصل بإخوانه آل سيدي على أمهاوش . وبعد احتلال خنيفرة سنة 1322 - 1914 ، انحدر الاطلسيون من اشقرن ، وآيت سخمان في أعيان ، يرأسهم سيدي علي أمهاوش ، وأتباعه للجهاد ، وربطوا في وادي سْرو على نحـــو 20 كلم جنـــوب شرقي خنيفرة ، فكان هو من جملتهم ، ووقعت معارك آخرها بتاريخ رمضان 1332 ، فرجع المجاهدون جميعا وهو من جملتهم ، وقصد هذه المرة القباب ، وخاض مع أهله معارك جهادية ، عند توجه الجيوش الفرنسية لآيت اسحاق ، واشقيرن، وآيت احماد وعيسى، بناحية زاوية آيت اسحاق، وَآمْنًا وما إليها سنة 20 -1921 .

ثم لما ظهر الثائر بتافيلالت مبارك بن الحسين التوزونيتي المسمى بمولاي محمد سنة 1336 ، وهو درقاوي الطريقة . لما ظهر بتافيلالت بصفة الجهاد ، توجه لناحيته ، فتلقاه سلطان تافيلالت باحترام ، وفي وفد كبير خرج لملاقاته ، وأكرمه غاية ، وجعله خليفة ، وجهه لآيت يزدك ، حيث ثاروا على حامية الريش ، واحتل تيعلالين ، مسكن القائد أبيهى ، والد عدي وبيهي نايت رْهُو . وكان ، زيادة على من معه من قبائل آيت أمالوا ، كثير من آيت يزدك كذا عن باسو وعبّو .

ومكث هناك مدة ، مجاهدا ، مهاجرا ، حتى عاين أن بقاءه لا طائل تحته ، وان توجهه لناحية أخرى أفيد ، فرجع إلى الجبال الاطلسية ، عند إخوانه آل سيدي علي امهاوش . وكان في هذه الآونة في مدرسة أروكو نايت احند من زيان قبل احتلاله وكان في بوطّاس مع أولاد سيدي علي أمهاوش ، وذريته ، وأنصاره ، ثم في تازگزاوت ، وحصارها الشديد الطويل ، وقبل أن يستسلم المعظم من المهاجرين المجاهدين بتازگزاوت بنحو شهرين ، وافته المنية سنة 1351، ودفن بين مقابر شهداء المعركة الفاصلة بتازگزاوت ، إلى أن استسلم الجميع واستتب الامن بتلك الجبال الاطلسية ، فتوجه إليه أهله من آيت وربيل ، وحملوه ودفنوه بترابهم زمور، رحمه الله رحمة واسعة . وممن هاجر أيضا من زمور سيدي داحدالزموري السبيرني [الذي] ينتسب للشرفاء العلميين .[وهو] المجاهد الشهيد الصابرالمثابر المكافح في سبيل الله ، الزاهد في الرفعة والمال الكثير ، العريض غنما ، وبقرا ، وخيلا في سبيل الله ، فقد كان من أكثر الناس ثروة بقبيلته ، فلم يصدّه ذلك عن جهاده ، ودفاعه ، حتى إذا ضاقت أرضه الزمورية عن المقاومة ، هاجر إلى زيان أولا وكان بعاصمتها خنيفرة مع الزموريين ، الذين هاجروا آنذاك سنة 1330 - 1331 يوافق 1912 - 1913 ، ثم بعد احتلال خنيفرة أو قبلها بيسير ، زاد في

هجرته ، نحو الجبال الاطلسية المتوسطة في قبائل اشقرن ، وآيت سخمان ، وكان هو من متقلدي الطريقة الكتانية . وهذه نفوذها في تلك الجبال ضئيل ، فلذلك ما لبث أن توجه للصحراء ، فوصل إلى ناحية غريس " ناحية گلميمة " . والظن أنه كان ذلك أيام وصول معمّي ولد الفاسية لهذه النواحي ، عند ظهور ثائر تافيلالت ، ثم بلقاسم النقادي حوالي سنة 1337 – 1338 ، وهناك حضر معارك هو وأولاده . كان في جهاد مع أبيه وإخوانه زمور ، في أول الامر في ناحية تافودايت ، فكانت معركة عظمية أسر فيها . فضيقوا عليه وامتحنوه تنكيلا شديدا ، فكاتبوا أباه، ففقد أحد أولاده المسمى مولاي الغربي * ومن أعظم ما جرى لمولاي ادريس هذا ، امتحانا وابتلاء في سبيل الله ، أنه يعدونه بافتكاكه ، إن رجع عن فكرته تلك . فكان جوابه افعلوا به ما بدا لكم ، فوجهوه سجينا للدار البيضاء ، ومكث بها أربع سنين . وأخيرا أرجعوه إلى بلاده تحت الإقامة الاجبارية . فمكث ما شاء الله ، فظهر لوالده أن لا يبقيه تحت ذلك الارهاق ، ففكر في ثلة من إخوانه في اختطافه ، وترصدوا له ، تواعدوا مع من يعينهم ، حتى تسللوا ليلا إليه ، فاختطفوه ، وأرجعوه إلى مهاجر أبيه ، سيدي داحد يواصل جهاده مع أبيه حتى استسلم الجميع بعد استشهاد أبيه ، وأخيه ، فرجع إلى بلاده . فلله أنتم أيها البرابر الاطلسيون- ما أشد بأسكم – وبأيكم يعجب هل أنتم الذين غامرتم ، وانحدرتم من خلال الاطلسين الكبير والمتوسط ، وقطعتم شتى المعسكرات الفرنسية حتى وصلتم بمعسكر أعظم ، بزمور فخلصتم أخاكم هذا من محنته . أم بمن اختطف لدوتشي ميسلوني ، جبار إيطاليا في الحرب الأخيرة . فقد قرر المجلس الفاشستي الاكبر بإيطاليا في 25 تموز 1943 نفى ميسوليني إلى جزيرة " مادالينا " ، ثم إلى قرية " ساسوا " ، على ارتفاع ألفي ميترو فوق البحر– فأعطى امبراطور ألمانيا ، هيتلر أمره لقائد المظليين " أوتُودْ سكُورزيني " ليفك الأسير بكل ما يمكن ، ويجهز على حراسه ، فنفذ الخطة ، وأنقذ الدوتشي من أسره . أفلا تكون هذه أشبه بتلك ، قد تكون أو أكثر .

ومن هؤلاء المهاجرين ، سيدي عبد الحق ، ومولاي ادريس والفقيه العالم سيدي محمد بن الفقيه النسب [وهو] السيد محمد، الفقيه سيدي محمد الفقيه السبيرني ، الرجل المتنسك ، المتعبد ، من متقلدي الطريقة الكتانية يقطر حياء ، ويرسخ وزانة، هاجر من جملة المهاجرين إخوانه الزموريين إلى زيان بخنيفرة . وهناك شاهدناه ، ورأيناله كتابة في الفقراء العكاكيز ، أصحاب سيدي أحمد بن يوسف الملياني . ولم يلبث إلا قليلا بخنيفرة حتى واصل هجرته إلى الجبال الاطلسية كإخوانه .

---

*– "بالغين المعجمة ، فخرج والده سيدي داحد ، يبحث عنه ، فعثر عليه الجيش الفرنسي فقتلوه رميا بالرصاص ، حوالي سنة 1338، رحمه الله رحمة واسعة . فقد كان رحمه الله مثال الجهاد والشجاعة النادرة هو وأولاده الغْربي الشهيد ، وعبد الحق الذي لازال بقيد الحياة ومولاي ادريس الذي نال شهرة عظمية قبل الهجرة وبعدها . ذكرسيدي محمد الباقرالكتاني في كتابه بياض أن الولد المفقود هو عبد الحق وأولاده والصواب ماذكرته . فإن عبد الحق لا زال حيا يرزق مخزنيا في مدينة مكناس لتاريخ كتابة هذه السطور (1332) .

حدثني ولده(بياض) ، المستقر بالحاجب في تاريخ 1382 أنه بقي في هجرته بزيان ، حتى كانت معارك بضواحي مزكوشن فالقيت عليه قَنبرة يدوية بقي في معاناة آلامها طريح الفراش ستة أشهر ، فاستشهد رحمه الله بين سنة 1917-1915 . وأظنه غلطا لأن تحرك الجيوش الفرنسية لناحية مزكوشن لم يكن إلا حوالي سنة 1912 في شهر كتوبر ، وكانت أولاها في شاهر مارس حيث استشهد بطل الأطلس محمد وحمو .

ومن المهاجرين كذلك ، السيد محمد القويع الزموري ، هذا الرجل لا أعرف من أي فخذ لزمور هو ، ولكنه كان من المجاهدين المهاجرين الأبطال الذين ،لا يصطلى لهم بنار، وزاد في هجرته إلى أن اتصل بثائر تافيلالت، وحظي منه بمكانة عظمى لشجاعته، مما جعله خليفة له . ووجهه لمقاتلة بناحية غريس " مركز گلميمة " ، فكانت هناك معارك توفي فيها على أبواب مدشر حريث ، حوالي سنة 1338-1337 . والشيخ عمو الحُدَرّاني يرأس جماعة من حدرّان ، الذين أبلوا بلاء حسنا ، وكذلك هاجر الشيخ عمر الحُدرّاني ، أحد أعيان قبيلة حدرّان ، الرئيس المجاهد الشهيد ، كان له صيت وكلمة مسموعة ، وكان له اتصال بأعيان زيان " امحزان " . ولما احتلت الدولة الفرنسية تراب قبيلته زمور ، قام يصيح في قومه ، ووقف في وجه الجيوش الفرنسية ، ثم هاجر لناحية زيان ، وحضر معهم معارك . وفي إحدى تلك الغزوات لسنة 1912 ، استشهد ، وحمل ، ودفن بضريح الشيخ مولاي بوعزة . وقفت على مشهده مرارا رحمه الله .

وكان أول الاحتلال ممن استسلم وعين كقائد من طرف الفرنسيين ، ثم قَلَبَ لهم ظهر المِجَنِّ لغريبة رآها ، ذلك أنه كان يسمع أن الفرنسيين جاءوا لتمدين المغاربة ، وبث الحضارة فيهم ، فأصاغ لهذه الدعاية – وذات يوم وقف في ظل شجرة ، إذا بحاكم الدائرة في زيه العسكري يلوذ بالشجرة ويكشف عورته فيبول . وهنا ثارت ثائرة البربري ، من هذه الوصمة في نظره، وقال أهذا هو التمدن المرجو من هؤلاء المحتلين ؟ فلوى عنان فرسه، وحمل سلاحه ، وأشهرها عليهم حربا شعواء .

كما هاجرت جماعة أخرى من زمور برئاسة القائد القرشي – وهذا يمُتّ إلى محمد وحمو بمصاهرة ، وهو ممن رأيناه بخنيفرة مع ولد له ، صغير إذ ذاك يدعى السيد حمادي .

وهنالك بعض أفراد من زمور، هاجروا أيضا في جملة من هاجر ، ذكرهم الشريف الفقيه سيدي محمد الباقر في كتابه بياض ذاكرا أنهم من أتباع أبيه .

ولم تقتصر الهجرة على القبائل المذكورة ، بل هاجر البعض أيضا من قبيلة زعير، ومن جملتهم الشريف سيدي عبد القادر المباركي من البّشريّة ، السيد الاحسن ولد الحاج دحان ، من أولاد كثير – ولكن لا نعلم من ماجرياتهم في مهاجرهم شيئا ، لذا اقتصرنا على ذكرهم فقط .

هذه الهجرة من هذه القبائل ، وخصوصا من رؤسائها ، مما حيّرت الرئيس الأكبر بمعسكر مكناس ، فجعل يستميل محمد وحمو بمسليات ، ومغريات[1] ، كتابة ، ورسلا لعله يستغني بهما عن استعمال القوة .

وقد صرح بعض مؤرخيهم الضباط بقوله" لم يكن الفرنسيون يحسبون لأي أحد حسابا في جميع هذه النواحي إلا لمحمد وحمو " - وقد جاء في تصريح لليوطي في هذا الإبان : " إن من مبادئ فرنسا تجنب ميادين الحرب والوغى " .

وصول وفد من رئيس المعسكر بمكناس لاستمالة محمد وحمو

للأسباب الآنفة الذكر رأى رئيس المعسكر بمكناس أن يتخذ طريقة أُخرى ، وهي أن بعث بوفد بربري ، يرأسه قائد بربري شهير - فوجه له القائد إدريس ورحو المطيري ، قائد بني مطير والحاجب . وكان إذ ذاك هو أشهر من يشار إليه بناحية مكناس .

جاء هذا القائد في وفد عظيم في هزّ وبزّ ، بخيول مطهمة في السروج المزركشة ، يصحب هدايا نفيسة ، وثمينة فتذلف وتملق ، وفتل في الحبل والغارب ، ولكنه لم يفلح ، ورجع على أدراجه بدون طائل .

عندما أيِسَ رئيس المعسكر بمكناس[2] ، رأى أن لابد من المغامرة الحربية لاحتلال الجبال الأطلسية الزيانية . فقوّى مركز تابادوت ، أو " مركز يطو " كما يسميه الفرنسيون ، وهو مركز، بين الحاجب وأزرو من جهة ، وقُوّى مراكز تادلا ، وأبي الجعد من جهة أخرى .

وقد كانت تادلا ، خُضدت شوكتها قبل هذا التاريخ ؛ بمفاجأة عسكرية ، جاءت من مراكز الشاوية بقصبة ابن أحمد .

كانت هذه المفاجأة ، أو المباغتة غريبة ، فقد جهز ضابط هذه القصبة المسمى " الحديد" " محلة ، وجاء توّا حتى دخل مدينة أبي الجعد، ولم يلق أدنى مقاومة . ومن هناك تلاقى مع كبراء زاوية شرقاوة ، فالتمس منهم أحد أعيان الزاوية ليصحبه إلى بني عمير ، وبني موسى ،

---

1 - بعد نجاح سياسة " القيادات الكبرى " في الجنوب مع التهامي الكلاوي ، والمتوكي ، والكوندا في ... إلخ ، الذين شاركوا مشاركة فعالة في إخضاع عبدة ودكالة والأطلس الكبير الغربي وسوس ، سعى ليوطي إلى تعميم هذه السياسة في الأطلس المتوسط مع موحا وحمو وموحا وسعيد ، والقائد اليوسي . وكانت الحكومة الفرنسية قد أعلنت غيرما مرة أنه لا يتوفر لديها الامدادات الكافية لمواجهة مقاومة شعب بكامله ، وأن على المقيم العام أن يجد حلا في عين المكان لمشكلة النقص الحاصل في عدد القوات المسلحة . وفي هذا الإطار أخذ ليوطي يغري ويستميل كبار القواد في الأطلس المتوسط للتعاون مع فرنسا لكي يقوموا هم بأنفسهم بإخضاع قبائلهم ، دون تدخل الجنود الفرنسيين ، وهكذا اختيرت بلاد زيان لتجريب هذه السياسة . انظر :

Télégramme n 754 Lyautey à Guerre, Rabat, 8 août 1914, AMG 913.

2 - حاول ليوطي قبل الجنرال هنريس رئيس معسكر مكناس، استمالة القائد الزياني ، بواسطة شخصيات مرموقة في جهاز المخزن المغربي ، وخاصة الوزير إدريس البوكلي ، وباشا مدينة أبي الجعد، الحاج إدريس الشرقاوي . انظر :

Note du grand vizir incluse dans dossier "bloc zaian-Ichkirn", AMG non - numéroté .

فأُرغم السيد محمد بالعربي المعروف بولد زهراء إسماعيل ، " وكان رجلا متواضعا دينا ، لا يتشوف لرئاسة ، ولا غيرها " . أُرغم على الخروج معه ، لأن تلك القبائل تقدره، فخرج وقصد بني عمير ، ثم بني موسى . وفي أثناء مروره على هذه القبيلة، ثارت ثائرة طائفة منهم ، فاعترضوا سبيله ، فوقعت معركة ،انهزم فيها الجيش الفرنسي . وطوّحت الفتنة بذلك السيد ابن الزاوية الشرقاويـــة كما قدر الله عليه . " ولا ينفع حذر من قدر " ، وكان فاضلا ، يحكي عنه عارفوه كل خير. انكسرت المحلة ولوت عنانها متجهة من حيث أتت ، على طريق بني مسكين ، فالشاوية، وبهذه الجولة خُدِّرت أعصاب أهل تادلا . يضاف إلى ذلك تمركزها بقبيلة الشاوية سنين، وخصوصا بقصبة بني أحمد ، فمدت خيوطا لبعض أعيانهم ، فلم تلق ملاقاة صادقة . وقد كشف التاريخ أن هذه المباغتة التي خاطر بها ذلك الضابط ، كانت لغرض أكيد عند الفرنسيين . ذلك أنهم سمعوا بأن الشيخ سيدي ماء العينين ، كان شادا الرحلة للسلطان مولاي عبد الحفيظ لفاس . وهذا كان قد اشرأبت أعناق فرنسا للاستيلاء عليه، وتغييره عن وجهة الجهاد والدفاع ، كما هو معلوم . ويعلمون أنه متى وصل هذا الشيخ المعتقد عند مولاي عبد الحفيظ ، يؤثر عليه لتوجيه أصلح وأفيد ، وأنفع ضد الفكرة الاستعمارية ، وقد كتبوا له يهددونه ، أو يحذرونه من هذه الملاقاة .

احتلت الجيوش الفرنسية تادلا ، فتمركزت بقصبة تادلا وبأبي الجعد ، ووادي زم حوالي سنة 1912 وجعلت جيوش الاحتلال تجوس خلال ورديغة ؛ وبني زمور والسماعلة . وهاتان القبيلتان متاخمتان لقبيلة زيان ، بضفتي وادي كرو ، فالضفة الشرقية لهاتين القبيلتين والضفة الغربية لزيان .

معركة ورغوس بتادلا

عندما رأى محمد وحمو هذه الاستفزازات من الجيش الفرنسي ، تعين عليه أن يرد الفعل ، فجمع جموعه من قبيلته ، وتوجه إلى تخوم الحدود ،بينه وبين قبائل تادلا السماعلة ، وبني زمور ، فعسكر بمحل يقال له ورغوس ، بتراب السماعلة على نحو 35 كلم من وادي زم ، بفخذ البراكسة .

وكان في جملة الغزاة ، شيخنا العلامة سيدي الحاج عبد الرحمان بتلاميذه ، حملة الأقلام ، وحملة السلاح ، وقدمنا أن الفقيه أخذ تجربة من حروب الشاوية ، مع الحملة الفرنسية سنة 1325 بتادّارت ، فكان يلقي دروسه المحرضة والمحذرة ، مما يحذرهم من المباغتة . ولكن " يا للأسف " يقول الفقيه ، الناس هم الناس ، في شموخهم بأنفهم ، وعدم المبالات . لذلك كان الفقيه يتخذ العسس من طلبته ليلا ، فينصِّب ثلاثة أو أربعة منهم في ربوة يوزعون بينهم أحزابا قرآنية مناوبة ، حتى يطلُع الفجر . وإذا مر الزيانيون عليهم هزأُوا بهم، ، وقالوا الطّلْبة الطّلْبة ، وهي عبارة عندهم على محط ، ومركز الخوف والجبن ، فكان لسان حال الفقيه ينشدهم :

أمرتهــم أمري بمنعـــرج اللـــوى   فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

فبينما طلبته ذات ليلة في عسسهم بسحر ، إذ هم يسمعون دقات الطبول ، والموسيقى

من المعسكر الفرنسي ، فطار بها العسس إلى الفقيه ، فعرفها الفقيه أنها المباغتة بالهجوم ، فقام يصيح في المعسكر كالناذر العريان ، يقول " صبّحكم " ، وأسرع هو وطلبته وصلّوا الصبح ، وأخذوا أهبتهم بسلاحهم في يدهم ، وفرس الفقيه مسرج . ولكن القوم لم يستفزهم كل ذلك إلا القليل ، " وقليل ما هم " . وكان الجيش الفرنسي دبر خطته من قبل . فتسرب بين منعرجات البلاد ، وجاء توّا يتقدمه فرسان من الجزائر ، يحملون السلاح معه آنذاك تسمى السبايس .

وما هي إلا هنيهة حتى نبغت بين أطراف المعسكر الزياني ، وباغتتها في عقر دارها ، ولم تمهلها لتأخذ الحيطة للمنابذة ، والمناجزة ، فكانت ساعة رهيبة ومباغتة صعبة .

" وأصعب شيء حيث يَفْجَأُك البغتُ " ، قصدت الحملة الجزائرية توّا خيمة محمد وحمو ، وهي شاهرة سيوفها ، " ولكن الله سلم " إذ وجدوه قد ارتمى على فرسه هو وعياله إحداهما زوجته ، وهي يامنة العطاوية ، " بنت خالتي " ، ولم تكن تفارقه " كأنه يتيامن بسفرها معه " .

فكانت المقاومة الأولى على خيام المعسكر الزياني وأطرافه . والزيانيون بواسلٌ ، مدرّبون على الدفاع والاستماتة ، كيفما كان الحال . فتمركزوا في مواطنهم رغم المباغتة المهولة ، ودافعوا دفاعا شديدا ، تراجعت منه القوة الفرنسية ، ومن معها من بعض قبائل تادلا تراجعا خفيفا وبطيئا . ولكن كان من حسن الصدف أن ثلة من فرسان محمد وحمو ، برئاسة أبناء أخيه ، موحى وعقه ، ومعمّي ولد الحاج حدو ، لم يحضرا في المعسكر تلك الليلة ، فما أن سمعا بالطلقات المدفعية حتى أسرعا لا يلويان على عقب لمحل المعركة ، فتعقبا الحملة الفرنسية ، ومن معها من خلف . فما أن تراءت الحدقات ، وأطلقت الطلقات ، حتى ولت الحملة الأدبار ، ولم يسعها إلا الفرار ، وخلفت قتلى بعدما أرْدت منهم قتْلا .

ومع هذه الغدرة المباغتة ، فإن الخسائر من المجاهدين كانت طفيفة ، ولم يستشهد في المعركة ممن يذكر من الأعيان إلا أحد كبار أيت بومزّوغ ، كان كشيخ كبير ، على فخذه أيت بومزّوغ ، وهو المسمى بوعبّاد .

دخلت سنة 1331 ، فرأى المعسكر الفرنسي الأكبر بمكناس ، أن يزيد في التضييق على محمد وحمو وزيان ، فأسس مركز ولماس، غروب خنيفرة " ولماس الشهير بمائه المعدني " بتراب زيان . كما أسس مركز أزرو شرقيها للجنوب في مارس 1913 . فصارت طلائعها تتجول في تراب بني مجليد ، على تخوم حدود زيان ، وربما دخلت لترابهم ، وقد تشجع أحد ضباط أزرو، فتجول حتى دخل تراب زيان ، ووصل للمحل المسمى (جَربه)، فتسامعوا بهذه الحملة وتسارعوا إليها ، فوقعت معركة عظمية أصلَوْا، فيها الجيش الفرنسي نارا حامية ، وأطاحت برئيسها الضابط المذكور ويسمى " بيسير دي هورت "Besseyre des Horts ، ومرّت بقية السنة كلها استعدادات ، وانقطعت السبل والمواصلات .

فلا كُتُب إلا المُشْرَفِيّاتُ والقَنَا فــــلا كُتُب إلا المُشْرَفِيّاتُ والقَنَا

رحلة لمكناس

ضربت الجيوش الفرنسية الحصار على المدن التي كانت تروج مستصدرات زيان وتستجلب مستورداتهم ، كفاس ، ومكناس ، وأبي الجعد ، والدار البيضاء ، بل ومنعت حتى الانتجاع لازغار ، حيث تعيش أنعامهم إبان الأمطار والثلوج ، فضاقت المعيشة عليهم ، وعلى أهالي عاصمتهم ، فنال والدي من هذه شيئا ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان من المستحيل عنده على هذه الحال " ، أن يفكر في العودة إلى وطنه ، عاصمة مكناس ، حيث بقيت داره ، وأثاثه الذي خلّفه ثمة ، احتياطا ليوم الرجوع ، عندما ينتهي أداء المهمة المخزنية التي وجهه سلطانه إليها .

لذا فقد فكر في قطع تلك الصلة تماما ، مصمما عزمه على الاستماتة في سبيل الله حتى يستشهد أو يفعل الله ما يشاء .

وما كان يظن أن الجيوش الفرنسية ستحتل جميع المملكة المغربية ، ويمتد نفوذها إلى أقصى الأطلس الكبير ، ولكن الظن ، أن المخزن لا يُخوِّلهم إلا مراكز يتمركزون فيها، من المدن ، توافقا مع المخزن على بعض الاصلاحات لوقت محدود .

وعلي كل التاويلات ، لا أمل له في الرجوع لمكناس ، فيجب أن يسخو بأمله الوحيد المرجو في وطنه العزيز ، وهي الدار التي خلفها له والده ، في حومة الجيش المخزني " برّيمة " لبيعها ، وما فيها عملا بقول الأول .

يلومونني إن بعت بالرّخْص منزلي ... وما علموا جـارا هناك ينَغِّـصُ
فقلت لهم كُفُّوا الملام فإنمـا ... بجيرانهـا تغلو الديار وترخصُ

وقد شطرت البيتين بمناسبة لا بأس بإيراد الجميع .

يلومونني إن بعت بالرخص منزلي ... وإنـي عليه كالضنين لأحرص
وقد عذلوني دون عـذر أقيمـه ... ومـا علموا جارا هنـاك ينغص
فقلت لـم كفـوا المـلام فإنمـا ... هنالـك جيران عقارب تقـرص
ولا تعذلـونـي فيـه فإنمـا ... بجيـرانها تغلـو الديار وترخص

إذاً فقد رخصت الدار بجيرانها ، وقد ضرب الهم عليها بجيرانها ، فلتسخ النفس ببيعها وجيرانها . وفي أواسط شوال 1331 يوافق شتنبر 1913 ، وجهني والدي رحمه الله ، مع ابن عمة لي ، وقد غادرنا الكتّاب على حبه ، مرغمين لمدينة مكناس " في حذر " . وكتب كتابا لباشا المدينة ، السيد بنعيسى بن عبد الكريم الذي يمتّ له بقرابة المخزن ، والوطن، واستتاب صديقه الشريف سيدي محمد بن عبد الله الشبوكي ، وأخاه سيدي إدريس ، وهما ممن استوطنا مكناس قديما . فتسربنا لمكناس خلسة من السلطة الفرنسية ، التي قطعت الصلة مع الزيانيين . ووصلنا بسلام وأدينا رسالة الباشا له ، فقابل بوجه بشوش . وقال دونكم ، وشأنكم ، وتحسر، وتلهف على الوالد ، وغربته الطويلة ، في البادية المميتة . وبينما نحن جلوس ، ذات يوم عند مضيفينا الشبوكيين

المذكورين ، إذ المخزني من قبل الباشا ، يسر في أذن سيدي محمد الشبوكي بشيء ، ظهر أثره على ملامحه . وكتمه عنا تلك الليلة ، وفي الصباح قال لنا إن الباشا يطلبكما . فسار معنا نحوه ، فما تراءت أعيننا معه حتى تمعص حياء مما سيقوله لنا. وأخيرا قال إن حاكم المدينة يطلبكما وها صاحبي يذهب معكما ، رافقنا صاحبه إلى المكتب الذي كان جوار ضريح مولاي إسماعيل ، بيرو مولاي اسماعيل " . جلسنا هنيئة مع مخزني الباشا ، فإذا بحاكم المدينة مقبل . ولأول مرة شاهدنا منظرا غيرما عندنا" نحن الزيانيون "، الذين كانوا يرون النظر في وجوه النصاري كفرا، مبعدا من الجنة ، ومن رأية وجه النبي صلى الله عليه وسلم . فإذا بنا نرى صفا من المسلمين يقومون لحاكم ، ويعطونه السلام ، " إن هذا لشئ عجاب " . استقر الحاكم في مكتبه فدعانا للدخول إليه ، فقابل بلطف ، وقال موجها خطابه إلي : أأنت ولد الفقيه السيد قاسم ؟ قلت :نعم وهذا الذي معك ، قلت : إبن عمتي . قال : هل جئتما لداركما؟ قلت: نعم ، ولكن ماذا ؟ أحقا جئت لتبيعها ؟ قلت : نعم ، لأننا احتجنا لثمنها . قال : احتجتم لثمنها لتشتروه قرْطوشاتضربوننا به . " وكان جوابي طبيعيا على كل سؤال لأني لم يخطر ببالي شيء يحْرِج - فقلت له : لا ، ولكن لخصاصة لحقتنا ، فقال: إسمع ، إن والدك ليس من زيان ، وإنما هو قائد ، ورئيس مخزني ، وجهه السلطان لمهمة ، وقد انتهت ، ونحن سنحتل خنيفرة بعد ستة أشهر ، فيرجع والدك بعائلته ، ويجد داره التي تأويهم ، ولا تبقون مشردين . إني تقَفْتُ عليكم بيعها . فارجعوا لوالدكم في أمان ، وأخبروه بمقالتي .

هذا ما جرى بيننا وبين حاكم مكناس ، وكان لبقا مجاملا ، خاطبنا ببشاشة ، ولطف . وهذا الحاكم كان ظابطا آنذاك يدعى القبطان " نانصي " ، وكان أهل مكناس ، وكذا أهل فاس الذين انتقل إليهم بعد ، يحكون عنه خيرا .

بارحنا مكتب حاكم مكناس ، وقد سُقِط في يدنا ، وحكينا لمضيفنا ماراج ، ورجعنا إلى الباشا ، نضرب أخماسا في أسداس ، كيف الحال والمآل ، حتى نصل لعاصمتنا الزيانية ، وتوجّسنا خيفة ، فلم نجد عند الباشا ما يجدي ، ولا ما يعْدي ، وربما هو قد عُوتب ، حيث لم يخبر السلطة بورودنا ، وكان هذا الباشا طيبا أيضا لا يسعى إلا في الخير .

وكشف الحال أن وشاية جاءت من بعض من كان يأوي إلينا بخنيفرة ، أكلا وشربا، ومثوى ، فتقرب بهذه الوشاية بنا إلى حكامه سامحه الله .

ماذا جرى لنا بعدما جف ريقنا ، ونضب ، عرقنا ، وحتى مضيفانا ، إلا أنهما لم يظهرا إلا الجميل ، ولم ينبسا ببنت شفة توذن بقلق .

بينما نحن على هذه الحال ، إذ صبحنا عيد الأضحى ، فأخذت المدينة زينتها ، وخرج الباشا لصلاة العيد ، في مهرجان، وخيل مسومة كالجْنائب ، تقاد أمامه ، " وكأنه فرخ سلطان كما يقولون " ، مما لم يقع عليه بَصَرنا قبل - وفي عشية العيد غصت ساحة ضريح

الشيخ سيدي بنعيسى ، بأصحاب الطوائف العيساوية والحمدوشية وما إليها ، واكتضّت الساحة بالجماهير الغفيرة المتفرجة ، من الأهالي والضواحي ، وكأن الناس استردوا راحتهم بالأمن ، والطمأنينة المستجدة بالهناء من الحكم الجديد ، بعد الفتن المدْلهِمّة . فساقتنا أرجلنا لنرى المناظر الغريبة الخلابة البعيدة على أمثالنا .

بينما نحن على تلك الحال ، وإذا بنا أمام ذلك الحاكم الذي قابلنا بمكتبه ، وجها لوجه . فما أن وقعت عيناه علينا حتى خاطبنا : لازلتم هنا – قلت نعم نرجو أن تمكننا من رخصة ، اذهبوا بلا رخصة . ولا أحب أن تبقوا هنا ، ارتعدت فرائصنا أكثر .

ومن الغد جاءنا شبه رسول ناصح، وقال تعلمون أن العلائق بين فرنسا وزيان مقطوعة ، وربما سارت وشاية أخرى لأكبر من هذا الحاكم ، فينا لكم سوء ، لا يستطيع دفعه عنكم ، والآن بارحوا مكناس ، فإنها مدينة مكشوفة ، واذهبوا إلى مدينة فاس ، حتى تجدوا قافلة زيانية تسافرون معها في خفاء .

فكل الأمور إذا اعترتك لربها ... ما ضاق لطف الرب عن مربوب

وهذا ما فعلنا، بارحنا مدينة مكناس لمدينة فاس ، حيث أصدقاء كثيرون لوالدي . فنزلنا عليهم ، ودخلت كلية القرويين ، وجلست أمام علمائها ، وفتحت لي هذه الرحلة أفاقا أخرى ، حمدت مغبتها بعدها . وصدق الله تعالى " فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا". وكل ما وقع يجب، على المومن أن يتلقاه بالرضى ، ويكِل أمره فيه إلى الله .

فهذا المنع من بيع الدار، كان فيه خير كثير . تذوقناه ، بعد منقلبنا لسنتين مرت من هذه السفرة بالعائلة الكثيرة الكبيرة من جهة، ومن جهة لفّتت نظرنا للحاضرة وغضارة عيشها ، وهناءتها واقتباس علمها ، ونبهت للحياة الجديدة التي ينعم بها أهل الحضر .

رجعت من وطني والقلب مفعم بحبه والرجوع إليه ، وأود أن لو كان لي آنذاك لسان سنة 1353 ، حيث أقول في وصفه من قصيدة عرشية مخاطبا السلطان مولاي إسماعيل ممدّنها ، وممهد الحضارة فيها أقول :

بنى الناس دارا في الدنى وبنيتها ... بمكناسة دنيا وما ان بها أزل
قصور وحور والجنان وزخرف ... وماء نمير في مغانيه والظل
وإني صداح أغنيه تارة ... وطورا حماما الأيك دمعي مخل
امكناسة الزيتون أنت قرارة الأسود ... وهل الا الهزير والشبل

رجعت لوالدي ، وحكيت له طارف رحلتي ، وتالدى ومنها قول حاكم مكناس " بعد ستة أشهر نكون بخنيفرة – فطار والدي بها إلى محمد وحمو ، فتيقنها كلمة لا شك في إنجازها ، إن أمكنتهم الفرصة .

الزوبعة تقترب والأحوال تضطرب

كان وصولي لمقرى أوائل محرم 1332 – دجنبر 1913، كان الوقت مطيرا ، ويتحققون أن القوة الفرنسية ستتحرك في فصل الربيع ، ولكن لم يتخذوا أي استعداد يذكر ، في حين

أن الطرف الآخر يستعد ، ففي 1333 يوافق أوائل 1914 تقدمت القوة لتراب زيان ، فأسست مركزا في مولاي بوعزة غروب خنيفرة على 70 كلم منها ، ثم تقدمت 25 كلم أخرى ، فأسست مركزا بأكلموس ، على نحو 50 كلم منها.

وما هو إلا أن جفت السبل من الماء الثج ، وزالت زوابع الأمطار والثلج حتى تحركت المحلة المرابطة بمعسكر تبدوت ، وقطعت توا قبائل بني مطير وبني مجيلد ، وخيمت بتراب زيان بالمحل المعروف بأفود الجامع على نحو 50 كلم من خنيفرة في طريقك لمدينة مكناس ، بعد جوازك مركز مريرت ب 20 كلم . فجاء الصراخ لمحمد وحمو ، فطار في قبائله ووقف تجاه العدو، فصارت تقع منا وشات ، لكنها ليست بالحرب التي تذكر ، ومكث هنالك نحو 10 أيام ، ليس فيها إلا بعض تحركات . وكان ذلك من الجيوش الفرنسية مكيدة ودرًا للرماد في أعين المجاهدين إلى أن يأتي يوم الحملة الكريه ، إذكان اتفاقهم على غزوها من ثلاث جهات . من هذه الناحية المكناسية ، وهي أعظمها وهي التي أظهروها ، ومن ناحية أبي الجعد على طريق سيدي الأمين ، ومن ناحية مولاي بوعزة على طريق كلموس ، وعينوا لاحتلالها يوما واحدا بل وربما في ساعة واحدة .

وفي فجر يوم الأربعاء 14 رجب 1332 يوافق 11 يونيه 1914 ، تحركت جيوش مكناس الواقف أمامها محمد وحمو ، وقبيلته ، وهاجمت هجوما صادقا بجميع معداتها مقررة العزم على الاحتلال . فهب نحوها المجاهدون ، ولكن ما كادوا يبرحون من أماكنهم حتى حصدتهم المدافع المنصوبة في التلال وفي كل المنعرجات في حين أن الجنود ، تتقدم تحت خفارتها – حدثنا شيخنا سيدي الحاج عبد الرحمان قال : لما أحسسنا بالهجوم طرنا على أفراسنا مغيرين ، حتى كدنا نلمس العدو بأيدينا ، وهو رابض لا يتحرك ، فلما كنا منه على غلوة أو أقرب ، إذا بالقنابر تلقى علينا كوابل المطر . نزلت إحداها أمامي ، فاسقطت فرسي للأرض من صاعقتها . وسقطت أنا بدوري ، وإذا بالبطل الشهير والعايدي يغير، صائحا في قومه ، الفقيه ، الفقيه ، يظن أني أصبت . فتسارع إلي هو وفرسان من إخوانه فانتفضت واقفا ، فقالوا لا بأس . فأجبت لا بأس ، وساعدوني حتى ركبت . وكان بجانب الفقيه تلاميذه ، حملة الأوراق والألواح ، وحملة الدرق ، والسلاح ومن الأولين الفقيه سيدي عبد الرحمان بن الحاج ومولاي الصالح وغيرهم .

قال شيخنا ثبت القوم في أول الأمر ، كالجبال الراسية ، وهم من هول المعركة في غاشية ، حتى إذا برزوا لسهل مريرت الفسيح ، فإذ ذاك صارت المدافع تحصدهم حصد الهشيم .

وبينما هم على هذه الحال ، وفي شديد الأهوال ، إذا بالصيحة من وراء تنذر بأن العدو يهجم عاصمتكم ، ويكاد يخطف نساءكم ، ويهتك أعراضكم ، يعني بالحملتين الاخريين . فطاروا إلى عاصمتهم كالعقبان، ومامنهم ألا وهو على حريمه ، وعرضه غيور ، وغضبان .

وبينما سكان خنيفرة يرتقبون الخبر على أحر من الجمر ،إذا بفارس من محلة المجاهدين يطل ، فتسارع الناس إليه مستفهمين عن الحال ، فأخبر بالهزيمة ، وأن العدو

هاجم ، وسيحتل عن قريب من إحدى الجهات الثلاث . فكانت صاعقة محرقة على الأهالي . وما هي إلا هنيهة حتى صارت طلائع محلة المجاهدين تفد شاردة العقول ، وهم في غاية الذهول . وفرسانها تعرك لجمها عائمة في عرقها يتراكضون نحو الديار والخيام ، يهربون النساء والأولاد ، وما تيسر من المتاع والزاد ، ومع ذلك فإن هناك رجاء لبعض المتعقلين ، ينتظرون ماذا سيكون من بطل الأطلس محمد وحمو ، لأنه صاحب الكلمة الأخيرة . وبينما هم ينتظرون ، إذ أقبل في فرسانه قاصدا قصبته ، يرحل هو بدوره ما استطاع منها . وهنا تابعه أولاده وأولاد أخيه ، فعلم الناس أن العاصمة الزيانية محتلة قطعا . فذهلت العقول وشردت النفوس. وكانت حيرة والدي شديدة بعائلته الكبيرة ، الكثيرة الحضرية ، فقصد محمد وحمو ، فيما ذا يكون شأنه ، وإلى أين وجهته . وقد كانا كالجسد الواحد قرابة 40 سنة ، محبة ، وأخوة واستماتة في كل شيء . وقد كان ، قبل الزوبعة اتفقا على نصب المدافع التي عندهم بجبل أقلال المشرف على خنيفرة لعلهم ينالون من العدو شيئا بها .فكان يرى أن سيكون اتفاق على وجهته نحو هذا الجبل أو قريب منه ، تنفيذا للخطة ، ولكن لم يجد والدي في محمد وحمو ، في هذه الفترة قابلية لتنفيذ الخطة أو غيرها ، إذ المهم هو تهريب النساء والأولاد والأمتعة التي تتردد عليها قوافله أكثر من مائة وخمسين بغلا .

والحقيقة أن الساعة كانت رهيبة جدا ، بات الناس ليلة الخميس ليلة نابغية لم يطرق النوم فيها أحدا . ولا تذوقوا طعاما ، وأصبح يوم الخميس أكثر وما كان الزوال حتى كانت خنيفرة على وشك الخلاء . وتردد والدي مرارا لمحمد وحمو من داره لقصبته . فلم يكن طائل ، حتى إذا كانت حوالي الساعة الثانية ، إذا ببعض الأصدقاء يتلقانا بين القصبة والمدينة ، فوق القنطرة فصاح في وجهي ، ماذا تنتظرون ، إن العدو على وشك الدخول ، فسمعها الوالد ، وتحققها كلمة حزم ونصيحة . وهناك قصدنا الدار وشمرنا للرحيل ، وظهر لوالدي أنه سيسلك سبيلا آخر غير الذي سلكه محمد وحمو ، حيث لم يعر له أذنا صاغية في هذه الحال الحرجة .

فأخذنا ما تيسر من الأمتعة ، وبعض الكتب ، ومن جملتها جوالقا مملوءا بالمكاتب المخزنية ، التي ارتطمت لديه ، منذ وجهه السلطان المولى الحسن إلى معسكر خنيفرة ، زهاء 40 سنة . فإن كل المكاتب الصادرة من السلاطين الثلاثة مولاي الحسن ، ومولاي عبد العزيز ، ومولاي عبد الحفيظ ، ووزرائهم ، سواء منها لمحمد وحمو أو لرؤساء محلتهم ، أو لأعيان القبائل الأخرى ، وكذلك المكاتب التي كانت تصل لمحمد وحمو من غير المخزن من قواد ورؤساء قبائل ، وغيرهم كلها لا تصل إلا لديه قراءة ، وأجوبة لأن محمد وحموو ناسه آنذاك ، ليسوا من الكتابة والقراءة في شيء .

القى الصحيفة كي يخفف رحله   والزاد حتى نعله ألقاها

فكان كل ذلك عنده ولكن ، ويا للأسف مرة ويا للأسف مرة ثانية ، فإني من هول الموقف لما سقنا الأسرة محملة على البغال ، مع بعض الأمتعة ، لما سقنا الأسرة أمامنا في

تلك الحال الصعبة المذهلة ، وتركنا الأكثر متاعا ، ظهر لي ، وقد علونا القنطرة ، عابرين إلى الضفة الشرقية ، في هذه الآونة ، وأنا على قنطرة أم الربيع ، ظهر لي أن القي ذلك الجُوالق ، في نهر أم الربيع . فألقيته ولسان حالي ينشد .

ألقيته ، إذ لم يكن لي عقل اليوم ، الذي يعرف قيمة تلك الذخائر . لأن كل شيء عوضه الله أو يعوضه ، ولكن أنى لتلك الذخائر أن تعوض . وإني لازلت أتذوق حسرة فقدها ، وخصوصا في هذه الساعة التي أخط فيها هذا التاريخ للأطلسيين البربريين الذين لا يعرفون ما قيمة الأوراق والكتاب . فهما عندهم في تباب ، عكس الشلحيين السوسيين . ندمت على فعلتي ولات مندم ، وها هو قلبي يكاد ينفطر بندم .

ندمت ندامة الكسعي لما	غدى في اليم ذاك الزخر يلقى
وما كانت ظنوني فيه سوءا	ودون عناية مني فيشقى
ولكن الحوادث روعتني	فانستني عن المحبوب حقا
فهذه الروح عنه تذوب شوقا	وهذا القلب يخفق منه خفق

لم يسلم من تلك الذخائر عدى كناشا واحدا لإحصاء الجيش ، والعسكروالعسكر والمؤن الواردة لهما ، صادفه الحال في جملة بعض الكتب المهربة وهذا الكناش هو الذي أخذ منه شقيق الروح سيدي ابن زيدان جملة سطرها في الجزء الخامس من تاريخه الاعلام رحمه الله ، وجزاه عن العناية العلمية خيرا .

بارحنا المدينة حوالي الساعة 4 من يوم الخميس ، فارقنا المرابع ، وسالت من المآقي المدامع . وتلفتت الروح ، وتلهف القلب ، وأمعنت فيها النظرة الأخيرة ، وقد فارقها الركب.

وما بارحنا المدينة ، أو لم نكد حتى دوت المدافع من الجيش المحتل ، ورفرفت الراية الفرنسية فوق مرتفعات خنيفرة الحمراء[1] ، من طرف المحلة الآتية من ناحية مكناس على طريق مريرت برياسة [الجنرال هنريس قائد العمليات العسكرية في بلاد زيان] ،وتلتها الرايتان الأخريان الواردتان مع محلة مولاي بوعزة على طريق گلموس ، ومحلة أبي الجعد على طريق سيدي الأمين .

خيمت المحلات الثلاث بمعسكر فرنسا الجديد ، على الساعة 5 من يوم الخميس 14 رجب 1332 ، يوافق 12 جوان 1914 ، ومجموع المحلات خمسة عشر ألف جندي كما يقول گنون ، ويقول الفرنسيون في تقاريرهم ، والظن أن الحملات كانت أكثر من ذلك ، لأن الجيوش المقاتلة الفرنسية ، كانت تعد بأزيد من مليون نسمة [2] . ولم يكن لها مركز

---

1 - في 12 يونيه 1914تقدمت الجيوش الثلاثة إلى مدينة خنيفرة واحتلتها بعد دفع المجاهدين الزيانيين نحو جنوب المدينة .

2 - قدرتها التقارير الفرنسية ب 78451 فقط في مجموع المغرب ، وبعد الحرب ارتفعت الأعداد إلى 100.000 جندي .

حربي أعظم إلا في هذه الناحية الاطلسية الزيانية . نعم كان لها بعض مراكز حربية ، ولكن لم تكن تعان منها ما تعاني من قبائل آيت أمالو ، كالتي كانت شرقي فاس ، من آيت سغروشن ، وبني وراين . وهذه الناحية أقرب ما تكون فيها حرب مع فرنسا تذكر. أما ناحية الصحراء فالحرب نائمة ، وان كان بعض قبائلها لازالت لم تخضع ، وكذلك ناحية سوس[1] – إذا فأهم الجيوش ومعظمها كان بهذه الناحية . وقد ذكر روجرماثيو ، الكاتب الفرنسي ،أن قوام جيش فرنسا سنة 1921 كان 95000 ، منهم 20000 فرنسي من تقريره عن بطل الريف صحيفة 31 ، وكان نزولهم على الضفة الشرقية من نهر أم الربيع ، حول ضريح سيدي بوتْزگّاغت .

وما وصلت المحلات حتى كانت خنيفرة أفرغ من جوف حمار ، مما جعل رؤساء المحلات يقرعون سن الندم . أما نحن والأسرة ، فقد توجهنا لناحية القباب ، وبتنا تلك الليلة في " الهري "، على 14 كلم من خنيفرة ، والله أعلم بحالنا وروعتنا . وعلى ضوء الفجر، غادرنا المبيت إلى القباب ، فوصلناها ، حوالي الساعة 10 . ولكن إلى أين؟ والأسرة تئنّ ، ومن سيرفع لنا حجابه ، ويفتح للأسرة الكبيرة بابه ، أصدقاء الرخاء كثير ، ولكن أصدقاء الشدة قليل . لوالدي معارف بهذه القرية ، كان مثواهم داره للوجاهة المخرنية ، والطريقة التجانية ، فاختار منهم واحدا ، يسمى الحاج العسكي، تربطه به الرابطة المخزنية ، والطريقة التجانية . هنا قال لي ، أقصد يا ولدي أخانا في الله ، السيد الحاج العسكي الذي كان لا يغادر داركم كل يوم سوق تقريبا ، ويقرأ معنا الوظيفة في الزاوية العمومية ، أو الخصوصية بمثوى الأضياف ..هيا بنا على بركة الله . فسقنا الأثقال حتى كنا بمقربة من الدار . توجه له أحدالأصحاب، وأعلمه بالضيوف القاصدة ، أو قل الأسرة الشاردة . فخرج وجاء توا نحونا ، يتمتم ويُبغم بما لا يفهم . وأخيرا تبين لنا من غمغمته " واش أنا عندي الفندق " ، بدون سلام ولا سابق كلام فوجم الوالد في محله ، وأحسست بخفقان قلبه ، وهو من هو في حيائه ، ولباقته ورزانته وكلمته . ها هو الآن يقف أمام اللئام .

وهنا ، وفي اللحظة نفسها ، يفتح الله الباب الذي ليس عليه حجابا هنا يتقدم رجل آخر سوِيّ أبيّ ، أخذته غيرة الدين ونخوة الشجاعة ، مما رآه من ذلك الموقف. تقدم إلى الوالد وقبّل أطرافه، وقال له : " مرحبا ، مرحبا بسيدي قاسم ، زيدوا " . وأشار على سوّاق البغال ، سوقوا ، سوقوا ، وتقدم أمامنا لداره مسرعا ، فما أن وقفنا على باب داره ، حتى فتح لنا

---

1 ـ وهم من المؤلف ، لأن ليوطي ، بالرغم من أنه لم تكن له الوسائل العسكرية اللازمة ، فقد لجأ إلى القواد الكبار – وعلى راسهم باشا مراكش – لتكوين حركة من قبائلهم ، وذلك لملاحقة أحمد الهيبة الذي عاد إلى تارودانت بعد انهزامه في معركة سيدي بوعثمان . وهكذا فقد نجح ليوطي في إخضاع معظم القبائل القاطنة في مجرى وادي سوس الأوسط والأدنى . ثم تعزز هذا النجاح باحتلال مدينة أگادير في صيف سنة 1913

غرفة ، صعد إليها النساء بسرعة ، ثم أخذ هو ينزل الأثقال مع أصحاب البغال . من يكون هذا الرجل ، ذلك هو الشريف سيدي التهامي الرحالي من أولاد سيدي رحال بالحوز . ونزح إلى الأطلس واستقر بالقباب كتاجر . وبهذا الرجل نفّس الله بعض الكربة ، وآنس شيئا من الغربة ، وبدّل الله البارح بالسانح . وتمثلت في الأول بقول المعتصم بن صمادح .

يزهدني في الناس معرفتي بهم	وطول اختباري صاحبا بعد صاحب
فلم تُرني الأيام خلا تسرني	مباديه الا ساءني في العواقب
وما قلت أرجوه لدفع ملمة	من الدهر إلا كان إحدى المصائب

وهكذا الزمان من قديم لا يخلو من صديق حميم كريم ونذل نكار لئيم .

حللنا بقرية القباب ، وفتح الله بعد الشدة الباب ، بالنسبة لهول الفجيعة ، وصدمة المصاب . احتسبنا على الله أجرنا ، وفوضنا الله أمرنا . هذا ما كان من ماجرايتنا في رحلتنا وأول هجرتنا .

أما محمد وحمو، فإنه توجه صوب أطلسه المتوسط ، نحو مداشره أركُّو ، وجنان أمَاس شرقي خنيفرة ، وكذلك عائلته إمحزان ، حيث ركزوا أولادهم ، ونساءهم ، وأمتعتهم التي لم يضع منها إلا القليل ؛ ركزوها في المأمن . ليتفرغوا لمقاومة العدو المحتل كما سنشرحه .

وعندما اطمأن محمد وحمو ، التفت يفكر في الأصحاب ، والأحباب ومن جملتهم الوالد ، فقيل له إنه توجه لناحية اشقيرن، وحط رحله بعاصمتهم القباب تأسف لهذا أشد الأسف ، وتنهد وتلهف ، وأنشد لسان حاله :

يغمى على المرغي أيام محنته	حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وعند ذلك أرسل رسله إلى الوالد ، يستحثه على الرجوع ، ويتعذر عما فرط من خنوع ، فتوجه إليه الوالد وقابله بالترحاب ، وأظهر صنوف المودة والاستعذار وكان الوالد هّينا ، لينا ، فلم يزد على أن قال ، سامح الله الجميع ، ثم اقترح عليه أن يلتحق بقصره الكبير البعيد المحتاط فيه ، بذخائره وكنوزه ، وصنادقه الذهبية والفضية قائلا: "إنه ليس من يوثق به مثلك "، ذلك القصر، هو قصر أفلكتور، في شواهق الجبال على الحدود المجيلدية ، يبعد عن خنيفرة بنحو 50 كلم شرقيها .

وأعطاه أحد أفراسه المطهمة ، وأمر شرفاء أهل تاسكرات أن يحملوا أثقاله ، وأسرته إلى القصر المذكور وهذا ما كان .

فلنقف على هذا الحد من ماجرياتنا لنتفرغ إلى ما كان من الجيوش الغازية الفرنسية ، وما كالتْها لها رجال زيان من ضربات قاسية .

فرح المعسكر بهذا الاحتلال المبكر

احتلت العاصمة الزيانية من قبل الجيوش الفرنسية، فصفق له المعسكر الفرنسي فرحا ، وطاربه فرحا . وأوعزت الدوائر الرسمية للحضرة المولوية اليوسفية ليكتب بذلك لقواد النواحي ، وباشوات المدن به وباحتلال مدينة تازى قبلها بيسير ، ولا يخفى ما بين المدينتين من التشابه

في الاعتصام بشوامخ الجبال وشجاعة الرجال ، فكتب السلطان الخير مولاي يوسف رحمه الله ، هذا الكتاب الذي جاء فيه بعد أسطر الافتتاح والتحلية والطابع ما نصه :

"وبعد ، فغير خافي ما كانت عليه الأحوال بتازة وخنيفرة ، من الاضطرابات وإثارة الفتن ، منذ أزمان وأحقاب ، حتى صارتا مركزين لمأوى الفساد والثوار ، ملآذين لاعتصام ذوي الجرائم والأوزار، ظانين أنهمافي معقل لا تصلهم فيه قوة ، ولاتفتح يد في جدار منعتها كوة ، فمالوا بسبب ذلك في الفساد مع كل ريح ، وأجابوا نداء زعماء الفتنة بالكناية قبل التصريح ، جاهلين عقوبة الخروج عن الطاعة ، معرضين عما أوجبه الله عليهم من الاستقامة والتمسك بحبل الجماعة ، وكون الطغيان عاقبة الخسران . ولماتمادوا على فعلهم الذميم ، وأبوا أن يقلعوا عن مرتع بغيهم الوخيم ، وتجاهرهم بالفسوق والعداء ، ومد اليد في الطرق بنهب الأمتعة وسفك الدماء ، وعلمنا أنهم لا يواخذون بيد السياسة واللين ، ولا ينقاذون إلا بما ينقاذ به أمثالهم ، من المردة المعتدين، أصدرنا أوامرنا الشريفة بالانتقام منهم وردهم للصلاح والاستقامة، واستأصال عرق الفساد من تلك المرابع التي جعل فيها عشه ومقامه . فكانت البداية بالنقطة التازية، حيث أحيط بعاصمتها إحاطة السوار بالساعد، ونالت العقوبة ، منهم الأقارب والأباعد ، وإذ عوجلوا بنقيض قصدهم الفاسد . وجمع لهم بين جلب المصالح ودرإ المفاسد ، أُبد ل خوفهم في الحين أمنا ، ونحسهم سعادة ويمنا، وأسلبت عليهم بعد العقوبة اللازمة ستور الرأفة والحنان ، وأصبحوا في نعمة لا يقوم بشكرها لسان . ثم صدفت الوجهة إلى خنيفرة التي كان يظن أن إدراكها أعز من بيض النوق . وطالما حاول أهلها مقابلة الحق بالباطل ، وأن الباطل لزهوق ، ففعل بهم مثل ما فعل بأشياعهم . وتلك عادة الله في المفسدين أمثالهم . ومعلوم أنهم هم الذين فتحوا على أنفسهم أبواب النكال ، لانفرادهم عن الجماعة وملازمتهم للبغي والضلال ، وأعلمناكم لتأخذوا حظكم من الفرح ، يجمع كلمة المسلمين على الصلاح ، وتواطئهم على الطاعة الكفيلة بسعادة المستقبل وكل نجاح . حيث أن فتح هاتيك الجهات، يكون سببا في تقريب المواصلات ، ونشر الأمان ، وتمثيد وسائل الإصلاح في كل مكان ، وداعيا لروجان التجارة التي هي سبب الثروة ، وعنوان الراحة ، والسلم في أي الإنحاء . وسيرفع المستقبل عن محيا هذه السعادة ، براقع الاخفاء ، ويعرج بها قريبا إلى سماء الظهور والمدنيّة للمؤسسة على أحسن نظام ، وتتجلى الحقائق ويعم الحبور ، وتبتهج الخواطر وتنشرح الصدور ، والله ولي التوفيق ، والهدي إلى سواء الطريق ، والسلام في 22 رجب 1332. "

من هنا نبدأ

مر يوم الخميس ، وقد احتلت فرنسا خنيفرة بالجيش العرمرم الخميس ، ولكن هل استمر الاحتلال ؟ أو كان بالاحتلال الاعتلال والاختلال ؟ مر يوم الفجيعة والمصائب الوجيعة واستقبل المجاهدون صبيحته يوم العروبة ، ويوم العَروبة دائما للعروبة .ففي صبيحتها ، نسلت ثلة من الفرسان برياسة بعض أولاد محمد وحمو ، وأبناء أخيه موحى وعقه ، ومعمي

ولد الحاج حدو ، ومن إليـهم ، فأصبحوا على أبواب المعسكر، يقرعون سن الندم على ما سلف في اليومين الأربعاء والخميس ، واحتلال عاصمتهم بالجيش العرمرم .فعضوا الأنامل ، وقالوا إنه سُبة الأواخر للأوائل ، فتصايحوا صيحاتهم البربرية ، وهاجمواالمحلات من شرقها إلى غربها ، وحملوا حملة رجل واحد ، حتى خرقوا صفوف العدو ، ضربا وركضا وتقتيلا ، فصدوا بها شوكته واستأصلوا بها شفته ، وقالوا له خذ ها أول قِرى وضيافة من أبناء هذه المدينة المضيافة فاهتزت لها القوة المرتكزة وتزعزعت وخارت قواها وتضعضعت ، وعلمت أن لليوم ما بعده . ولا يُغني مع هؤلاء جند ولا عدة . وبالعكس كانت المعركة من البرابر ، فقد أذكت حماسهم ، وقوت روحهم ، وأنفاسهم . وجدّدوا تصميم عزمهم على مقارعة عدوهم ، فأصبحت الديار تدنو من الديار ، وتضيق الخناق على الجيش الجرار ، وأصبح على كل نقب وواد ثلة من المجاهدين الأمجاد ، يعترضون سبيله كلما تحرك له رأس أو ذنب ، فانحسر في معسكره [1] ، وأخذ في الحيطة بتحويط المعسكر بالأسوار الشائكة . ومع ذلك كانوا يتخطونها فيفْتكون بعسسها ويأخذون سلبها ، فقبع داخل أسواره ، فلا يستطيع حراكا .

وقد خرجت في آخر جوان 14 حملتان من معسكر مريرت واحدة ، والأخرى من سيدي الأمين ، فاعترض سبيلهما المجاهدون وصدوهما ، بل فصلوهما نصفين ، نصف رجع منهزما لسيدي الأمين ، مجردا من كل زاد يحمله للمعسكر ، فبقي هناك يعاني ألم الجوع . والنصف الآخر قضى عليه تماما . وكذا خرجت فرقة أخرى من الصْبايحية ، تشجعت لتظهر قوتها . فأخذت كلها قتلا وسلبا . وهذا ما صرح به ضباطهم ، كنون .

وهكذا ، فأينما تحرك العدو ومتى، إلا ووجد أمامه من يصليه نارا حامية، فيتطايرون ، على جنده كيفما أدى الحال لأخذ سلبه ، البندقية التساعية ، أو الثلاثية التي هي أعز سلب عندهم[2] .

هذا لا يكفي

مع التضييق الذي عليه المعسكر الفرنسي من قبل المجاهدين الذين له بالمرصاد ، والغارات التي يشنون عليه ليل نهار ، والإرشادات التي يستمدونها من بطلهم محمد وحمو ، فإنه قال هذا لا يكفي . وفكر في المدافع المنصوبة في جبل أقلال الذي هو على المعسكر كالجندي تطاول وتطال . وعند ذلك استدعى والدي من قصر أفلكتور ، ورافقته في هذه الرحلة وأنا في المراهقة ، فوصلنا إلى قصر أقلال فوجدنا هناك محمد وحمو ، وطائفة من أبناء إخوانه

1 ـ وفي ذلك يقول ليوطي في إحدى برقياته إلى وزارة الدفاع الفرنسي : " إن حامية خنيفرة ، يجب أن ينظر إليها أنها محاصرة " ، انظر :.J. Pichon, El Herri, op. cit, p. 30

2 ـ لم يتعرف الزيانيون على البنادق الحديثة (Les Mauser, les Winchester, les Lebel, les gras 74, les Martinis) إلا عندما احتكوا بالجيوش الفرنسية . فقد كانوا يغنمونها أثناء المعارك ، أو عندما يتسللون ليلا إلى داخل المراكز العسكرية ، انظر :.J. Le Prévost, op. cit, p. 85

وأولاده ، عقلت منهم القائد أمهروق . فصوبوا فوهاته نحو المعسكر ، وأطلقوا طلقات ، ولم يكن رد فعل ذلك اليوم . وجاءالخبر أن بعضها سقط وسط المعسكر، وقتلت بعض البغال وقامت زويعة في المعسكر . وجاءت جواسيس تستخبر من طرف المعسكر الفرنسي ، من الرامي ومن القاذف ، وهل سيعودون ، فرجعت جواسيسه بكل ما راج ، وأنهم سيعودون لرمي قنابر مرة أخرى ، فاستعدت القوة الفرنسية للرد وصوبت أفواه مدافعها العديدة لجبل أقلال ، وبالضبط إلى مركز مدافعه ، وخصوصا الشقة التي تنصب منها قنابرها . وبعد ، بيومين أو ثلاثة ، عاد محمد وحمو والوالد لجبل أقلال ، وصوبوا فوهته لمعسكر خنيفرة الفرنسي وما أن خرجت القنبرة الأولى حتى أرسل المعسكر قنابره ، شئابيب بدون انقطاع ، تتراطم مع صخور الجبل ، الذي كله صخور صماء، وتطاير شظاها مع شظايا الصخور ، يمينا وخلفا ، مما روع وأفزع ، ولكن الله سلم ، لم يصادف أحد بأذى منها وانقض الجميع ، ولم أحضر هذا اليوم .

من حسن الصدف

ومن حسن الصدف التي ساعدت زيان آنذاك ، أنه بعد احتلال خنيفرة بنحو شهر أُشهرت الحرب على فرنسا من قبل ألمانيا ، الحرب العالمية الأولى بتاريخ ثالث عشر غشت 1914 ، بعدما أشهرتها على روسيا بفاتح غشت ، واستمرت إلى 11 نوفنبر 1918 . ولم يُبق لها المعسكر الألماني وسعا ، فقلت مستورداتها الحربية ، وأقواتها ، وكثرت جرحاها وأمواتها ، فنال جيشها بخنيفرة قسطا من التقتير[1] والتضييق ، وحل بها من البلايا ما لا تطيق . قال كنون : أصيب معسكرهم في هذا الأثناء بوباء ، فلم يكونوا يدفنون موتاهم إلا في داخل المعسكر . ولم يكونوا يستطيعون أن يتجاوزوه خمسمائة . فكانت المؤن لا تأتيها إلا على بضعة أشهر . وإذا أرادت تموين جنودها بخنيفرة ، تجهزت لذلك بكل عتاد ، لأن بينه وبين إيصاله لخنيفرة خرط القتاد . وكانت المؤن تأتي غالبا على طريق أبي الجعد في خفارة قبائل تادلة . فكان هؤلاء يلقون في هذه الخفارة الموت الأحمر ، إذ كان الزيانيون يعترضون سبيلهم على ضواحي سيدي بوعباد ، ويماشونهم قتلا وسلبا ، شيئا فشيئا، وكلما اقتربوا من تراب زيان ، إلا وتلقاهم الموت الزوام ولا سيما عند غابة العرعار على نحو 15 كلم من خنيفرة وكذلك بالمحل المسمّى الحجر المثقوبة . فهناك يلقون كل عقوبة ومصيبة غير مرقوبة ، وقد حكى لي معمّي ولد الحاج حدو ، ابن أخ محمد وحمو ، أنه جلس مرة تحت وقاية شجرة أو صخرة " نسيت " قال ، فأطلقت منها عشرين أو خمسا وعشرين رصاصة ، كل رصاصة بجثة ، وكل جثة بسلب ، هي البندقية التُّساعية ، أو

---

1 – كانت قافلة التموين التي تأتي من قصبة تادلة لا تصل – في أحسن الأحوال – إلى الجيش المرابط بخنيفرة إلا بعد مرور ستة أشهر ، الأمر الذي كان يسبب نقصا كبيرا في المواد الغذائية ، وخاصة اللحوم والخضر الطازجة ، وأدى إلى ظهور أمراض التيفوس والحمى الصفراء والإسهال . انظر :
Lyautey, choix de lettres... p. 310.

الثلاثية الغالية ، التي تساوي آنذاك إلى ثلاثمائة ريال . وبمثل هذه الغنائم لم تضق عليهم معيشة على المجاهدين . وقد كان الواحد منهم إذا ضاق عيشه يتسلل ، هو وآخر نحو المعسكر ، ويقصدون العسس ، فيتسللون لهم حتى يباغتهم أحدهم فيخطف بندقيته من يده [1] ، والآخر يرقب من يتحرك منهم فيرديه .

كل هذا يجرى في خنيفرة وضواحيها ، بينما الحرب في ألمانيا تسعر نيرانها ويعلو أوارها . فيجب على فرنسا أن تقدم الأهم وتستدعي الفرقة الفرنسية وضباطها الذين ثم وفي 14 غشت من السنة ، بارحت هذه الفرقة خنيفرة أو ما كادت ، حتى تصدى لها المجاهدون ، وادخلوها ، وداخلوها في الشعاب ، والأودية والاكام . فكان عليها القضاء المبرم ، وخلص القليل منهم بجريعاء الذقن .

وفي خلال هذا الشهر غشت ، كان رئيس الجيوش الفرنسية هو الكولونيل لفيردير ، وكانت تحته فرق سبعة . فرأى أن يأذن لهذه الفرق بالتجول لينفس بعض الخناق على جيوش المعسكر . فكان يتجول حوالي جبل أبي حياتي وأبي موسى ، فوقعت معارك [2] في بعض هذه الجولات، وفي إحداها بجبل أبي موسى ، صادفت فرسان من خيول والعايدي وإخوانه ، فأصلوها نارا حامية وكذلك استشهد من الفرسان طائفة .

سيدي علي أمهاوس في الميدان

وعندما رأى سيدي علي أمهاوش من نده محمد وحمو وقبائله هذا الكفاح والاستماتة في سبيل الله ، [قامت] هذه الأسرة المهاوشية [التي] لا يكفي فيها هذا التعليق القصير . فقد مر فيها رجال من كل النواحي العلمية والقلمية والفروسية والشجاعة والشهرة ، بقبائل اشقرن ، وآيت سخمان ، وآيت يحيى ، وغيرهم من قبائل آيت أومالو ، وآيت يفلمان ، وآيت يسرى . و وناهيك برجال منهم استمالوا قبائل عن طاعة الملوك. وكان منهم أبو بكر الذي شنها حملة شعواء على السلطان مولاي سليمان في الوقعة الشهيرة سنة 1234، وسيدي علي هذا صاحب وقعة السلطان مولاي الحسن ، الذي قتل فيها الشريف البركة مولاي سرور سنة

---

1 ـ تذكر المصادر الفرنسية أن المقاومين كانوا يسوقون كذلك الخيل، ويأخذون حتى الشعير والعلف. يقول : P. Belot" وهؤلاء المردة المغاربة ، كانوا يتسللون تقريبا كل ليلة، إلى داخل المعسكر (الفرنسي) فيسرقون منه البنادق ، بعد قتل الحراس . كانوا يتسللون إلى داخل المعسكر عُراة ، بعد أن يطلوا أجسامهم بشحم ابن آوى ، الذي لرائحته خاصية تخدير الكلاب ، ولم يكن للواحد منهم سلاح سوى خنجر حاد . ولا يحدثون بحركتهم ، أكثر مما تحدثه عادة ، ورقة يابسة في الريح فلا أحد منا يراهم ، ولا أحد يسمعهم . وينجحون دائما في أعمالهم . انظر :م.س. ص. 204.

2 ـ لعله يقصد معركة 20 غشت 1914 لما اعترض المجاهدون سبيل قافلة التموين في مضيق" الحجرة المثقوبة ، وقد تكبد فيها العدو خسائر : القتلى 10 منهم ضابط ، الجرحى : 111 . انظر :
Rapport n 788G, Lyautey à Guerre, Rabat, 22 août 1914, AMG 585.

1305 وكم وكم . وقد أفردنا لهذه الأسرة ترجمة خاصة لرجالها ، حملة الأقلام ، وحملة السلاح ، كل في محله ، يأتي إن شاء الله . ولكن انتهازا للفرصة المواتية رأينا أن نلم بترجمة قصيرة لهذا الرجل ، لأن الهمة قصرت في الوقت وخصوصا الشبان ، إن كان من يطلع على هذا الشيء المكتوب ، فاختصرنا لهم بعض هذه التراجم ، التي جاءت في هذه التعاليق .

سيدي علي بن المكي هذا من الأسرة المهاوشية المذكور ، كان داعية في قبائل ما فوق القباب ، من آيت يعقوب وعيسى ، وآيت أحمد وعيسى ، بل إشقرن كلها ، وآيت سخمان وغيرهم ، وكان داعية للطريقة الدرقاوية . تلمذ على سيدي محمد العربي المضغري بعدما كان أسلافه ناصريي الطريقة . ووطد له أسلافه الطاعة ، والشهرة في كل تلك القبائل ، إذ كانوا ينتحلون المشيخة وعلوم الحدثان وخصوصا منهم سيدي أبو بكر الذي يروي له البرابر من علوم الحدثان السابقة لأوانها شيئا كثيرا ، وكان لبعضهم إلمام بالعلم ؛ بل كان فيهم رجال علم صحيح ، من فقه وأصول وحديث ، كسيدي محمد وناصر منهم ، كما كان لسيدي علي هذا بعض إلمام بمبادئه فقط ، ولكن كان له اتصال بعلماء ذلك الأطلس ، وعلماء تافيلالت ومضغرة ، وفقراء الطريقة الدرقاوية ، المتفقهة منهم ، الذين كانوا لا يبارحون ركبه وجمعه ، فيعلمون ويرشدون بدروس ومذكرات ، يلقونها للتلاميذ وللقبائل بمحضره ، مما جعل فيه هو دُربة للتلقين والتذكير .

وكان مبدأ ظهوره هو في وقعة مولاي الحسن سنة 1305 ، عند مروره بتلك القبائل ولحق به في ملوية ، قبيلة آيت سخمان ، يظهرون الطاعة والتوبة والاستعداد لأداء ما بذمتهم ، من حقوق للمخزن ، فطلبوا منه أن يوفد معهم بعض أعيان المحلة لتنقاد القبيلة للعطاء . فأوفد معهم عمه مولاي سرورا في ثلة من الفرسان ، فقتلوا الجميع .

فيقال إن الذي أشار عليهم بذلك هو سيدي علي هذا ، « والله أعلم بالحقيقة » ومن المعلوم أن السلطان المذكور كان يستند في تلك الرحلة على إشارة القائد محمد وحمو الزياني . وكان من إشاراته في هذا الموضوع أن لا يرسل أحدا . ولكن أثروا على السلطان بإظهار التوبة والإخلاص ، فأشفق عليهم وأرسل المذكور ومن معه . وهناك قال لسان محمد وحمو المثل الشهير « لا يسمع لقصير رأي » . فعوقبت قبيلة آيت يعقوب وعيسى ، كموًا خذة بأصحاب الفعلة ، حلفهم آيت سخمان الذين فروا لشوامخ الأطلس الكبير ، بل إلى أن تجاوزوه لحدود الصحراء .

ومن ذلك التاريخ ، سنة 1305 والحروب متصلة بين هاته القبائل ومحمد وحمو ، والمحلة السلطانية التي معه ، إلى أن كانت آخر معركة بينهم سنة 1329 ، عندما كانت الجيوش الفرنسية تطل على الجبال الأطلسية .

وقفت المعارك القبلية لتتجه نحو الجيوش الفرنسية وتناسوا الاحقاد القبلية ، وقالوا كلهم اننا أبناء مازيغ ، ولم يبق لقبيلة منا أن تتعدى أو تزيغ ، فلنقاوم عدو الدين المفتري ، ومن أبى فإن الإسلام منه بريء. فلم يقل منهم أحد على مَهْ ولِمَهْ ، وتوحدت من الجميع الكلمة ، وتحقق ماثور الكلمة ووحدته ووحدهم في الله دين وملة ، ووطد قرآن لديهم شعائره .

وقد خبّ سيدي علي، ووضع في كل الميادين الجهادية، فبادر بنفسه وقبائله لتافيلالت، عند هجوم العدو على بوذنيب وما اليه ، وإن كان لا يتهيأ له لقاء حقيقي معه "كما قدمنا"

ولما كانت الجيوش الفرنسية بخنيفرة ، صرخ في قبائله، وحشدهم إلى ناحيتها وعسكر بهم في ضواحي وادي سرو ، «وهي هذه التي تحدثنا عنها في الأصل ولم يزل هو وقبائله السامعة المطيعة يهطعون إلى الجيوش الفرنسية أينما سنحت لهم الفرص ، إلا أن الموت عاجلته قبل انتقال المعارك العظيمة لناحية أشقيرن ، وآيت سخمان ، إذ توفي في مهاجره بتاعْدلونت ، سنة 1334 ، يوافق 1918، وقيل بتافساست وهو الصحيح . وكانت له عائلة من أقارب وأولاد كلهم وقفوا مواقف مشرفة في الجهاد ، واستشهد جلهم بعدما ضاقت بهم جبالهم المتسعة ، ونالوا من شظف العيش ، في محاصرة تازكّزاوت . بعدما ألقيت عليهم القنابر المحرقة ، في الكهوف والغيران وغيرها . واستشهد المجاهد الشجاع البطل سيدي المهدي في حصار تازكّزاوت 1352 ، وكذلك أخوه سيدي المرتضى ، وكذا أخوهما الشيخ في ملوية ، بمحل يقال له تافساست ، وقتل المصطفى حوالي هذا التاريخ . وبقي الشيخ المكي ، رجع بعد الحصار ، وقد راعى له المعسكر الفرنسي وجاهتهم وسمعتهم ، فولاه قائدا باغبال نايت سخمان على جميع قبائلها وغيرهم ، وبقي إلى أن توفي سنة 1360 وان مقاومة اولاد سيدي علي بلغت النهاية ، وغيرتهم على الدين فوق ما يتصور في الغاية . وحكاياتهم في صبرهم ومصابرتهم كثيرة ، ولما اشتد الحصار عليهم في تازكّزاوت ، كان سيدي محمد المهدي هو المشار إليه في تلك القبائل . فكانوا يشتكون عليه ويراودونه في الاستسلام ، فيقول امهلوا إلى غد ، فإذا جاء الغد يقول لهم كيف يكون هذا وأتقابل مع النصارى . وقد استشهد فلان وفلان فيعدد أفرادا من إخوانه وعائلته ، ثم يقول وبأي وجه ألقاهم أمام محمد صلى الله عليه وسلم . وهكذا يكون جوابه حتى خرج ليلة مع أسرته ، وضربوا خويمة صغيرة ، أوقدوا نارا ليطبخوا ما يقتاتون به ، لأنهم لا يستطيعون الخروج من الكهوف نهارا . فما أن تراءى للعدو شعاع منها ، حتى ألقى عليهم قنبرة ، جاءت على جميع الأسرة ، فاستشهد الجميع ، وأقبروا مكانهم . وهم الذين حدثني عنهم أحد القواد ، كان يمرعلى مدفنهم فيشم منه عبير العود أكثر من مائة مبخرة كما قدمنا . أما استشهاد أخيه سيدي الشيخ فهو أنهم كانوا في أعلى وادي ملوية ، محل يقال له تافسّات ، وكان أمامهم مركز ثمة مرابطين عليه ، فقامت غيرة في أربعة منهم على هذا العدو المحتل الذي تارة تارة تخرج طائفة من المركز ، تهدد وتبرق وترعد . فتعاهدوا أربعتهم وهم الشيخ المذكور ، وأحرطان بن علي بن العربي الخرزوزي الأحندي الزياني ، والماضي النسب ، ومحمد أرحو النسب المكراري ، تعاهدوا على أنهم يهاجمون أولائك الجنود الفرنسية ، حتى يقتلوا الجميع أو يقتل الجميع . وهكذا كان ونفذوا الخطة فتراكضوا نحو الجنود ، يقتلون ويفتكون ، فقتل الأول ، وبقي الثلاثة وقتل الثاني وبقي الاثنان ، وقتل الثالث وبقي الرابع ، حتى استشهد

الجميع . وكانت هذه المعركة حوالي سنة 1342 ، واستشهد أخوهما محمد المرتضى وفقيههم الخاص المخلص سيدي محمد بن علي رحم الله الجميع . هذه نبذة من هذه الأسرة المهاوشية قدمناها اختصارا ريثما تأتي تراجمهم الطويلة في أماكنها إن شاء الله ، وبحوله وقوته ...

لم يبق له[أي سيدي علي أمهاوش] ،إلا أن يعمل شيئا بدوره ،هو وقبائله اشقيرن وآيت سخمان ومن ينضوي تحته من باقي قبائل آيت أمالو. ففي رمضان 1332 غشت 1914 ، جاء بجيوش عظيمة من قبائله الأطلسية ، وخيم بها على وادي سرو ، على نحو 20 كلم شرقي خنيفرة . فكان فرسانه تتجول إلى ضواحي خنيفرة ، وجبالها كأبي موسى وما إليه .

وقد تراءى لرئيس المعسكر الكلونيل المذكور أن يغير صوب قافلة التموين هذه المرة لناحية تادلا. وعندما دنت قافلة التموين لدخولها لمعسكر خنيفرة أسر الكولونيل كارني دوبليسي إلى الكومندار دوفيرة أن يسري الجيش بما فيه إلى جبل أبي موسى المطل على خنيفرة، وينصب مدافعهم عليه، ويحصن الطرق والمنعرجات التي يتسلل منها المجاهدون. ودبروا خطتهم هذه المرة تدبيرا متقنا. وبالأسف هذه المرة الأولى التي سيحظرها فرسان سيدي علي أمهاوش وقبائله . فلما أحس المجاهدون بورود القافلة ، هرعوا للقائها كالعادة . ولكن هذه المرة كان تدبيرهم متقنا فأمهلوا الفرسان حتى إذا كانت على غلوة من المدافع ، أطلقتها عليهم شئابيب ، فطوحت بكثير منهم ، وخصوصا هؤلاء المجاهدين الجدد ، وقد استماتوا وثبتوا جزاهم الله خيرا .

أما الزبانيون المدربون على حرب الجيوش الفرنسية ، فإنهم ترجلوا وقصدوا المعسكر الذي به المدافع ليقضوا على رجالها الطبجية ، لأنهم بذلك يمكنهم أن يسكتوها ، فتسربوا لهم من ثنايا وشعاب ، وتقابلواوجها لوجه ، فوجدوهم ، قد أحاطوا مدافعهم ، لا برجالها الطبجية فقط ، بل بجنود آخرين . فاحتدم القتال جدا ، وتقدم المجاهدون يوالون الضربات ، ويشنون الغارات تلو الغارات ، حتى تدحرجت المحلة التي يرأسها الكماندار دي ميرلا ، وصارت متجهة نحو المحلة التي يرأسها الكلونيل دوبليسي ، مما جعله يوقن أن السلاح والمدافع قد استولي عليها ، أو أصيبت بشلل وتعطيل . وكانت المعركة مع ذلك شديدة ، أصيب الطرفان بخسارة . وقد حكى لي أحد أولاد محمد وحمو ، من الذين حضروا مع بعض إخوانه ، أنهم لما ترجلوا ليتسللوا إلى رجال الطبجية ، الذين بأعلى الجبل ، تركوا الخيول في بعض المنعرجات مختفية ، ولكن سرعان ما اكتشفت للعدو ، فألقوا عليها شآبيب من المدافع ، طوحت بالكثير منها ، والباقي تشردت . ولم ينتفعوا بها في غارة تذكر في ذلك اليوم .

وقلنا ، كانت الخسائر كثيرة من الطرفين . ولكن هي بالنسبة للقبائل الآتية مع سيدي علي أمهاوش ، كانت أكثر لأنهم لم يكونوا تدربوا تدريب زيان ، ولم يشاءوا أن يظهروا لأول ملاقاة لهم مع الجيوش الفرنسية بمظهر الفارين ، فصبروا وثبتوا ، مما قدّر لفطاحلة منهم وأعيان ، الاستشهاد في سبيل الله قدس الله أرواحهم .

ومن أجل هذه الواقعة أنهم بمجرد ما رجعوا لمعسكرهم حتى ظهر لهم أن يبارحوه إلى جبالهم ووطنهم ، حتى يدنو منهم الجيش ، مرددين القولة المشهورة «لاجهاد إلا على الأولاد في البلاد» . وهذا ما كان منهم ، فإنهم فعلوا المجهود ، وفوق المجهود في ترابهم وخارج ترابهم قرابة عشرين سنة ، حتى الاستسلام الأخير .

وقد فتح هذا الانزعاج الذي حصل لسيدي علي أمهاوش وقبائله هوة سحيقة في صفوف المجاهدين الزيانيين ، وطرب لها للعسكر الفرنسي ، وظن أنها هزيمة ، وصادف الحال الخريف قد أظلهم ، فجعل الزيانيون يصعدون إلى أطلسهم ليستعدوا للحرث فيها ، لأن الأراضي الازاغرية أجفلوا منها لاحتلالها . فأزغار عندهم هو ما جاء على ضفة نهر أم الربيع غروبا . وهذا كله في قبضة العدو أو حام له . ولهذه الأسباب زال ذلك الضيق والحصار اللذان كانا على المعسكر الفرنسي بخنيفرة، فجعل يتجول في بعض أطرافها وأنحائها ويرجع سالما .

ولما رأى بطل الأطلس هذا الفتور أو هذه الهمم ، صارت تبرد ، قام صارخا في قبيلته يراسلها ليستنهضها للرجوع لما كانت عليه من التضييق على المعسكر الفرنسي. فعقد معهم اجتماعات ومؤتمرات ، وكانوا يعدون ، ولا يفون ، والعذر قائم لأن معاشهم في فلاحتهم الجبلية شغلتهم، ولم تترك لهم فسحة ليرجعوا لضواحي خنيفرة . وأخيرا عقد معهم جمعا قرع فيه وجدع ، وصرح لهم بأنه إذا تكاسلتم ، ولم تلتئموا وتجمعوا كلمتكم وتعودوا إلى أماكنكم ، فإني سأصبح بحلتي أمام العدو . فمن شاء أن يلتحق بي فذاك ، ومن لا فلا . أما أنا فإني فاعل ذلك لا محالة وليقع ما شاء . فانفض الجمع ، ومن الغد أصبح بطل الأطلس جاثما أمام المعسكر الفرنسي، على 14 كلم، في موقع كبسيط ، لا جبال تحميه ولا غابة تقيه ، ذلك المحل هو المسمى بالهرى .

«وقعة الهري الشهيرة »

أصبح بطل الأطلس رابضا في وجه العدو ، كالأسد حول قصبة الهرى [1] ، التي لا تبعد إلا ب 14 كلم ، عن مركز المعسكر الفرنسي بخنيفرة ، حل هو وحلته «دواره» من أتباعه الذين هم كمخازنية له [2] ، يبلغ عددهم نحو مائة مقاتل ، غالبهم فوارس ، وتابعه حينا أولاده المشهورين مع أتباعهم الذين يبلغون نحو مائتي فارس آخرين .

وما استطار خبر نزول محمد وحمو بهذا المحل ، حتى تسابق بعض قرون الشر من ذوي قرابته، وهما باحسين بل وأخوه عمر ، وهما أبناء أخت له . وكانا قد ذهبا لصف العدو ،

---

1 – انتجع القائد بخيامه ، من الجبال التي بدأت تكسوها الثلوج ، واستقر في ملتقى نهري سرو وشبوكة بقرية لهرى ، في بداية خريف 1914 ، وكأنه يتحدى الجيش المرابط بخنيفرة ، نفسه.

2 – كانوا يسمنوهم الشناكطية أي الأعوان ، وقد جاء وا من القبائل المجاورة ، وجندهم القائد موحا وحمو في حرسه ، ثم عززوا المقاومة عند دخول الجيش الفرنسي بلاد زيان ، انظر محمد المعزوزي، الكفاح...، م س .ص، 50.

حبا للظهور فقط [1] . فكانا في معسكر خنيفرة . تسابقا إلى رئيس المعسكر [2] وأخبراه بالموقع النازل فيه خالهما ، وعدد من معه من المقاتلة ، فرسانا وراجلة ، والمسافة التي بينه وبين المعسكر ، وعن البلاد وطبيعتها فقرّبا له كل شيء ، وقربا له كل بعيد ، وسهلا له كل صعب ، في اختطاف خالهما[3] ، غنيمة باردة ، فتستريح فرنسا من هذه المقاومة والمقاتلة ، وفتلا في الحبل والغارب ، لرئيس المعسكر الكولونيل «لافردور» ، فجمع هذا بدوره بعض الضباط الخاصة للمشاورة في المخاطرة التي يعتزمها . وكان في الضباط خبراء بالحرب الزيانية ، ومنهم القبطان راكت ابرانكار Ract Blancaz et Marrot [4] .

هذان الضابطان أكدا للرئيس ، أن هذه المغارمة مخاطرة ، لا ينبغي الاقدام عليها لأنه ليس من المعقول أن يغتنم فرصة مغرية لاختطاف أكبر رئيس للمقاومين المكافحين . لكن الرئيس استفزه نشاط الانتصار المخبوء بين السلاح ، ورجال المعارك والكفاح . فصمم على تنفيذ الخطة مهما كلفته . ففي ليلة الجمعة 23 حجة متم 1332 يوافق 13 نونبر ، عقد الرئيس ندوة استدعى فيها قواده ، وشرح لهم خطته التي صمم عليها ، ورسم لهم خطوطها ، بحيث تغادر القوى على الساعة 3 ليلا المعسكر، وتتجه نحو الهري في سكون ودعة ، وبدون جلبة ، بقيادة قرني الشيطان المذكورين اللذين صحبا معهما نحو 80 فارسا اختاراهما من أبطال المعسكر الراكبين في صفوفه .

فسار الجيش بمقدمته المذكورة ، قاصدين بطل الأطلس النائم في حفظ الله، فما كاد السّحر يطل ، حتى كان الجيش على غلوة من محطة محمد وحمو وكان من قدر الله ، أن إثنين من أصحاب ولده حوسا أسريا تلك الغدوة لغرض أكيد . فما أن تجاوزا الحلة «الدوار» حتى كالوجه أمام الجيش المباغث . فصاح صيحتهما البربرية ، منذرين بالخطر ، ولكن كان الأمر قد قضي . فإن الجيش أطلق شئابيب بنادقه النارية على الحلة ، بما فيها ، ورمتها رمية رجل

---

1 – تقول الرواية الشفوية أنهما اقترفا جريمة السرقة ، فطردهما القائد من قبيلته (أيت حركات) والتحقا بحامية خنيفرة للانخراط في صفوف الفرنسيين .

2 – اعتقد الكولونيل **Laverdure** أن الحظ ابتسم له ، لما قدم عليه ابنا أخت القائد موحا وحمو ، حيث اعتبرهما، كما يقول **Le Glay** (المصدر السابق ص45)«منجما لا ينفد من المعلومات التبوغرافية والاثنوغرافية» التي تحتاج إليها القيادة العسكرية بخنيفرة .

3 – الواقع أن الكولونيل وسوست له نفسه اختطاف القائد قبل مجيء عسيني وأخيه . فقد رأى ، منذ نهاية صيف 1914 ، أن يقوم بعملية عسكرية ضد المقاومة تخفيفا من الإرهاق الذي أصاب جنوده جراء الحصار ، ومما شجعه على ذلك تخييم موحا وحمو على مقربة منه. أنظر :**Général Gullaume, op.cit, p. 168**

4– كان ضابطا للمخابرات ، وكان من الذين كذبوا الأخبار التي روجها الخائنان الزيانيان عسيني وأخوه من أن المقاومة الزيانية ، آخذة في التفكك وأنها لا تستطيع الصمود أمام القوات الفرنسية . المرجع السابق ، ص . 168 .

واحد سقطت فيـــه النساء والأطفال ، فضلا عن الرجال الأبطال ، بينما الكتيبة من الفرسان التي يتقدمها قرنا الشيطان قصدت خيمة [1] محمد وحمو ، فدخلا سبقان كل أحد ، يبحثان عنه ليؤخذ أسيرا غنيمة ، للرئيس بالمعسكر "كما زعما"

ولكن هي الشجاعة النادرة والبسالة المنقطعة النظير ، والخفة في الروح والنشاط ، حتى في نسائهم فضلا عن رجالهم . فما كاد ضجيج الهيعة يصل لأذان النائمين الآمنين ، حتى هرعوا للسلاح [2] ، وهرعت إحدى نساء محمد وحمو لفرسه ، فاسرجته ، وأخرى ألجمته وحلت رباطه . وها هو البطل المسن البالغ من العمر حول الثمانين ، يطير كالفرخ على صهوة جواده ، ويلوي لجامه إلى وقاية طبيعية ، يجعلها درقته ، فيصلي المهاجمين بناره الحامية [3] .

ثم هناك أولاده ، صناديد أخرون ، منهم حوسا وأمهروق وباعدي ، وغيرهم تراكضوا للمعركة فابلوا فيها بلاء حسنا ، مما جعلهم يرتطمون مع العدو من كل ثنية ، ومنعرج ، وكانوا يتماسكون بالأيدي في حكايات لا نطيل بذكرها . وما هي إلا هنيهة حتى تراجعت الجيوش المهاجمة منهزمة [4] .

وكان من حسن الحظ ، أن أبناء أخ محمد وحمو ، وهم والعايدي ، وشقيقه ، موح وعقّي ، ومعمّى ابن الحاج حدو ، وشقيقه بنعقة ، كانوا لازالوا لم ينزلوا مع عمهم «بالهرى» ،

---

1 – قام الجنود تحت ارشاد الخائنين بنهب خيمة القائد ، وأسر اثنتين من نسائه. ثم اضرموا النار فيها وانتقلوا إلى خيام الأعيان ، فنهبوها كذلك ، ويصف أحد الضباط الفرنسيين هذا النهب قائلا :

« لقد تم نهب جميع الخيام بدون شفقة ، كما تم افراغها من النساء . وقد طال النهب أكثر من ساعة ونزل، الفرسان عن دوابهم لحمل الغنائم عليها » انظر : **J. Le Prevost, op.cit, p.164.**

2 – كانت المفاجأة كبيرة داخل المخيم الزياني . فقد صبت المدفعية نيرانها على القرية ونشرت فيها الرعب حيث خرج الزيانيون منذهلين ومندهشين لم يتمكنوا من أخذ سلاحهم وامتطاء خيولهم للدفاع عن أنفسهم . **J.Pichon, op.cit, p.93.**

3 – تجمع المصادر أن المغيرين على المخيم أحدثوا بلبلة وشتتوا المعسكر الزياني شذر مذر . يقول القبطان كنون :

«لقد نفذ الهجوم حسب التعليمات ، وكانت مفاجأة العدو كبيرة ، فقد استيقظ الزيانيون تحت وابل من نيران الرشاشات والمدفعية ، وفروا مذعورين في جميع الاتجاهات تاركين لجنودنا متاعهم وثرواتهم ، المصدر السابق ، ص . 95

4 – في الوقت الذي كان فيه الجيش الفرنسي يتأهب للانسحاب ، بعد نهب المخيم ، وجمع القطيع الموجود من الأغنام والنساء توهما بالنصر ، طلع رد المقاومة عنيفا وفي غاية من الانتظام ، مستعملة فيه البنادق والخناجر والحراب...الخ. واتسعت دائرة المقاومة بعد تدخل القبائل المجاورة كاشقيرن ، وآيت اسحاق وآيت احند...الخ. واخذت المعركة وجها آخر. وحوالي الساعة العاشرة صباحا تبين للكولونيل أن معظم القواد قتلوا، أوجرحوا كما يشير إلى ذلك الجنرال كيوم :

"كانت تنصب الطلقات النارية على الجيش من كل جانب ، وقد جرح القبطان Hornecka فسلم القيادة لـ Fages الذي سقط بدوره ، فتولى الكمندار Colonna de Lecca القيادة ولكنه أصيب هو أيضا برصاصة فسقط جريحا " .

وقد أحدث اختفاء الضباط من ميدان المعركة بلبلة وارتباكا في صفوف العدو وتعرض معظم الجيش للقتل ، كيوم ، المصدر السابق ، ص . 161-166 .

بل لم يزالوا في مراكزهم بأروكّو ، وأقلال ، يحاولون ، من عمهم الإقلاع من تلك المحطة الخطيرة . وما أن سمعوا دوي المدافع بسحر ، حتى علموا أنها الغدرة المتوقعة لعمهم ، فهبطوا من أطلسهم في أتباعهم الذين لا يقلون عن أتباع عمهم ، وحولهم قبائل من تلك الجبال ، كآيت شارط وآيت خوي ، وآيت بوهو الذين روعهم دوي المدافع المبكرة ، فنبل الجميع ، على أفراسهم من عوالي الجبال ، وأبناء أخيه يعرفون مكايد الحرب ، ومواقع الختل لشجاعة نادرة . فلم يتجهوا نحو عمهم ومواقع المعركة ، بل علموا أن الجيوش تزعزت عن مراكزها ، فهي تقصد المعسكر . وعلموا أيضا مواقع المدافع المنصوبة التي تحمي الجيوش الهاجمة .

لذلك قصدوا أن يقطعوا عنها خط الرجعة . فقصدوا المدفعية ورجالها . وفتكوا بكافرها ورجالها- ثم هاهي الحملة التي روعت الحلة ، وغزت خيامها ، تجد المنايا شاخصة خلفها وأمامها [1]، وقد ملأت آكامها وآجامها- في حين أن المدفعية أخمدت أنفاسها وأعدم ناسها ، فاختل نظامها وتوازنها ، وانفصم ترابطها فانعدم تعاونها ، فتخطفتها الفرسان ، ونظمتها مواضي السنان ، في جيد أطلسها الفينان ، كقلائد العقيان ، فتاه الجيش في مجاهل البرية ، تلتقطه أسنة الفرسان البربرية .

مرادهم حيث السلاح خمائل ومورِدهم حيث الدماء مناهل

ودون المنى فيهم جياد صوافي ومأثورة بيض وسُمر عوامل

كان ممن قصد رجال المدفعية معمّى ولد الحاج حدو ، وهو من أصدقائنا . فحكى لنا أنهم شنوا الغارات حتى وقفوا على أكتاف المدفعية ، فاصلوهم نارا حامية فقاوموا مقاومة شديدة ، غالبهم بالمسدسات . قال ، فأصبت بطلقة نارية في بطني ، سقطت منها أمعائي . وكان من شدة الهول في هذه المعركة أن مخدراتهم خرجن لصفوف المعركة ، جزعا على بطل الأطلس خصوصا أسرته الذين منهم ابن أخيه هذا الحاكي . قال ، فما أن سقطت من أعلى فرسي ، حتى وجدت أمامي أختي ، وهي تساعدني في إرجاع الأمعاء الخارجة . فحاولت إرجاعها بيدها بكل جهد ، فلم تستطع . فبينما هي على تلك الحال ، إذا بأحد الجرحى الساقطين بمقربة منا ، ينادي عليها نداء يهمسه من شدة الألم ، حتى دنت منه ، فقال لها ، ارفعي رجليه ، وادفعي الأمعاء بيدك الأخرى ترجع لمحلها . قال ، فصنعت ذلك ، فرجعت االأمعاء ، وأخذت تخيط البطن ويساعدها بعض الأخوان الذين وصلوا عليها ، فخاطوها بخيوط حريرية من سبنية فوق رأسها ، فكانت هذه المساعدة الأولى ، حتى تلاحق فرسانهم ، فحملوه وعولج علاج البرابر ، الذي هو الكي ، الكي في بعض عشوب تافهة . فما مرت عليه بضعة أيام حتى كان على فرسه في معارك أخرى .

---

1 - حاولت فلول الجيش المنهزم الهرب من المعركة نحو وادي بوزقور بحثا عن ملاذ في أشجار الدفلى ، ونحو خنيفرة مع قافلة الجرحى ، ولكن ، حوالي الساعة الحادية عشرة عرقل المجاهدون محاولة التراجع وحطموا الفلول الفارة عن آخرها ، في قتال انتهى وجها لوجه ، مات فيه لافردور.

وهذا شيء عاينته وشاهدته وسمعته من البطل المذكور ، فهو صديق وابن صديق لوالدنا . لم يفلت [1] من تلك الجيوش إلا الكبكبة التي دهمت خيمة محمد وحمو لتخطفه . فلم تعثر عليه فاكتفت باختطاف زوجتين له وبنت وخادمة، أو خادمتين، وبعض صناديق الذهب[2] ، كان يصحبها معه ، إحتياطيا واستعدادا للطوارق والحدثان ، وصندوقين من فضة . وهاذان ، كان بعث إلى الوالد بالاتيان للطوارق والحدثان ، وصندقين من فضة . وهـذان كان بعث إلى الوا لد بالإتيان بهما من قصره أفلكتور ، حيث خزائنه ، فراح بهما عليه يوم الأربعاء ، وبات معه ، وفي ظهر الخميس الذي تقع ليلته الحادثة ، بارحه وقد ترك الحلة "الدوار" يغلي من هذه النزلة المخوفة ، ولكن البطل لا يتزعزع لشيء من ذلك ، فكأن نزوله أمر عادي.

رجعت الكبكبة بالغنيمة التافهة دون أن يرى من بينها البطل محمد وحمو - فماذا عسى تجدي هذه التوافه إزاء الجيش الذي لازال لم يظهر له أثر . والطلقات النارية لاتزال تدوي ، ورعد المدافع يصم الآذان ، ثم ها هي المدافع تخفت والساعات تدق وتمر ، وطال الانتظار ، وانتظر القائد العسكر وانتظر ، ولا أثر للجيش يطل ولا خبر . وما هي إلا الطلقات تفزع ، ثم تخفت تارة ، فيهيمن صمت مرعب مفجع ، ويخيم الليل بظلامه ويرخي سدوله بشجونه وهمومه .

وليل كموج البحر يرخي سدوله " عليه " بأنوا ع الهموم ليبتلي

ليبتلي بخيول المسلمين على المعسكر تطل ، فتذهب به المذاهب حتى يكاد يجن ، بل يضل . وكيف وقد رأى جيشه لم تبق فيه باقية ، والشك في الذي بين يديه بالمعسكر كردا أو حامية ، فيختلط عقله ويجن كل الجنون ، ويتحقق أنه المغبون في خطته المافون ، إذ تيقن أنه فناء الجيش كله ، ضباطا وجندا عدة، وعدًا. الكل هدّته الأبطال هدا ، وأصبح المعسكر بيابا ، وقد أذاق المجاهدون رجاله ثكالا وعذابا.

فأصبح كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

هذا هو الهوان بل البؤس واليأس ، هذا هو الخسران بل الطالع النحس. إذا فما هو الخلاص ؟ الخلاص في الانتحار بإطلاق الرصاص ، وهكذا يصوب مسدسه ، وينتهي شريط القصة بختم أنفاسه . وهكذا يذهب الكلونيل لافوردير ضحية غدره المبير ، ويسلم الله بطل الأطلس ، عالي الرأس شامخ المعطس .

---

1 - وصف كَيوم وأخرون المعركة بأنها مأساة مؤلمة وهزيمة تامة ، لم يسبق للجيش الفرنسي أن مني بها في الشمال الإفريقي . فقد بلغ عدد القتلى 33 ضابطا و590 جنديا و200 جريحا من بينهم 5 ضباط . واستولى المغاربة على جميع الأسلحة (مدافع ، رشاشات ، بنادق ...) وكمية كبيرة من الرصاص . المصدر السابق ، ص . 166 . أنظر كذلك

2 - ذكر **J. le Prévost** أن الجنود أخذوا صندوقين مملوئين بالذهب، المصدر السابق، 163.

الخسائر

كانت خسائر المسلمين تقدر بنحو ثلاثمائة شهيد ، ونحو ألف من الجرحى . ونال جميع قبائل زيان حظهم فرحا وترحا ، فقد خف بهذه المعركة جميع القبائل من زيان ، واشقرن ، وآيت سخمان ، وبني مجليد حتى من حدود ملوية العليا ، مما عده الناس كرامة ، واستشهد أعيان ، ولكن لم يصب أحد بأذى من أولاد محمد وحمو وأبناء أخيه إلا أمهروق ، أصيب بجروح خفيفة ، وابن أخيه معمى . ولكن أصيب من أصحابهم كثير ، فمنهم الشريف سيدي محمد بن علي العلوي المضغري ، وكان من رفقاء محمد وحمو وخلصانه ، وكسفير للحضرة السلطانية ، ومنهم موح والمعطي الاسحاقي ، صهره ، على أخت له تسمى شريفة ، وغيرهما كثير، نقتصر على ثلاثة منهم وقعت لهم شبه كرامة .

وهم حدو وموسي من آيت موسي ، وحثاث بن فرجي ، ومحمد وباجي البومزيلي . هؤلاء كانوا أصدقاء ، ومن فرسان محمد وحمو ، يركبون بركوبه ، وينزلون بنزوله . وكان الأول منهم متزوجا بزوجة بغير عقد شرعي ، وقبل وقوع هذه المعركة بثلاثة أشهر ، فكر في زواجه ذلك ، وقارنه بما هو عليه من صفة المجاهد الذي سيلقى ربه شهيدا في يوم ما . فكر في ذلك كله وتذاكر مع صديقيه المذكورين ، فعابا عليه ، فأثرا عليه ، ففارق الزوجة لتستعد عدتها . وكان من قدر الله أنها تمت عدتها يوم الأربعاء ، قبل الواقعة بيوم ، وفي ليلها ، ليلة الخميس ، عقد له عليها عقد صحيح شرعي ، وبنى بها تلك الليلة ، وأصبح يوم الخميس في وجوههم ، وهو يوم سوق لهم . فبينما هم ثلاثتهم في اجتماعهم صبيحة الزفاف يوم السوق ، إذ فكروا في تلك النزلة التي نزلها بها قائدهم في هذا الموضع الخطير ، واتفقوا على أن غزوا من الغد قريبا يهددهم . فقالوا ، تعالوا نتهيأ له بل للشهادة . فاغتسلوا جميعا ، ولبسوا أحسن ثياب لهم ، وتطيبوا ، ولبست العروس كذلك ، وجددوا توبتهم ، وراح كل لخيمته ، في حلته مع قائدهم وبطلهم ، وباتوا على طهارة ، وما هي إلا ساعة الفجر ، حتى كانت الغدرة المتوقعة . وكان رد الفعل من المجاهدين الثلاثة وغيرهم . فكان من قدر الله أن استشهدوا جميعا ، ثلاثتهم ، وحتى العروس الجديدة رحمهم الله . وكذلك استشهد من أعيان أبناء أخيه والعايدي كثير ، ومن خلصانه الهواري ولد ابن علي ، والشريف سيدي واعلي ، وغيرهم ، وغيرهم لا نطيل بذكرهم .

أما خسائر الجيوش الفرنسية فكثيرة جدا . يكفي أنه لم يرجع منه إلا الثلة من الفرسان الأولى . واشتهر على ألسنة الجواسيس التي تأتي من ناحية المعسكر ، أن خسائر المعسكر تقدر بثلاثة آلاف وثلاثة عشر جندي وضابط . ويقولون ، إن الضباط تتجاوزوا المائة . أما الخسائر المادية من المعدات الحربية والمدافع ، فإنهم يتحدثون أن كل ما خرجوا به ، لم يرجع منه شيء . ويؤيد هذا قول الضابط سعيد إنه لم يبق بمعسكر خنيفرة إلا مدفع واحد ورشاشات .

وقد بقيت كل هذه التجاليد بالعراء مرتعا للنسور وللذئاب . وقد ملأت المنحدرات والمرتفعات والهضاب . كما بقيت جميع المعدات الثقيلة من مدافع وغيرها . ومن الغد توجه جماعات من أعوان محمد وحمو وأتباعه إلى محل المعركة فسحبوا منها كل ضابط ، وهم يعرفون الضباط بشاراتهم وبزاتهم ، سحبوهم وجعلوهم في مقربة من حللهم وتحت نظرهم وكذا بعض المدافع .

مساومة في استرجاع الموتى

جرت مساومة بين محمد وحمو وضباط المعسكر في استرجاع جثث الموتى التي احتفظوا بها على مال ، وعلى إرجاع المأسورات من عياله ، فأنف من أخذ المال واكتفى بإرجاع المأسورات فقط .

وفي يوم الإثنين 18 نونبر ، جاءت قوة عظيمة من المعسكر الكبير بمكناس ، فأمت مواقع المعركة ، تلتقط التجاليد الميتة من الشعاب والهضاب . وكنت ممن هرع من قصر أفلكتور ، حيث بلغتنا هذه الحادثة إلى مزكَوشن ، حيث محمد وحمو قد خيم . وفي يوم الإثنين هذا ، توجهنا لمرتفع من الجبال يشرف على مواقع القتال ، حيث كان الموعد على التقاطهم . فجاءت قوة هائلة من الجيوش ، وصارت تتجول في المنحدرات والمنعرجات والتلال ، حتى التقطت جميع الجثث ، وجرّت المدافع الثقيلة ، في حين أن ثلة من أعيان أسرته ذهبوا لضواحي خنيفرة ، حيث استلموا النساء المأسورات ، زوجتان له ، وبنته ، وإحدى هذه الزوجتين بنت خالي ، يامنة العطاوية ، وزهراء تاعرابت ، وبنته رابحة . وهذه الأخيرة هاجرت مع أخيها معمي ولد الفاسية إلى الصحراء فتزوجها سلطان تافيلالت بلقاسم النفادي .

أثر الفجيعة في نفوس الفرنسيين الوجيعة

طارت بحديث الفجيعة الركبان ، فصمت لفرنسا منا الآذان[1]، ولم يقف حديثها عند رجال الحرب ، وضباط الركض والضرب ، وجنرالات مكناس ، وذوي الإدارة والإقامة بالرباط الرءاس ، بل تجاوز حديث القصة إلى سلطات باريز ، فتجرعوها غصة غصة ، فقام مؤرخوهم يؤرخون الحادثة ، ونادبهم يندب الثكلى ويصف الكارثة، وعلى قدرما طاشت بالواقعة أحلامهم جرت بمددها أقلامهم. فلنقتصر على من عاش تلك الظروف الحربية العصيبة ، وطال مكثه بهذه الديار الأطلسية في الساعات الرهيبة ذاك هو القبطان سعيد كنون الجائري أصلا ، الفرنسي جنسية .كان من الضباط المشهورين بهذا الأطلس ، ومن المعتزين بأمثاله الفرنسيين . فهو إذ يتحدث ، يقول جيوشنا ، يعني الفرنسيين ويقول في المجاهدين " العدو" ،

---

1 – لقد عمل ليوطي على محاصرة الحدث اعلاميا خوفا من انتشار روح المقاومة في جميع أنحاء المغرب على غرار ما وقع في سنة 1912 غداة توقيع صك الحماية . فقد انحسرت في الحين الكتابات والأحاديث والبيانات والشهادات سواء في المغرب أو في فرنسا. أنظر: -Lyautey l'A fricain, op, cit; t2, p 301

ومن الضباط المشهورين بهذا الأطلس . وكان في خلال هذه الوقعة بخنيفرة ، ثم بزاوية آيت إسحاق ، ثم باتزر ، وخالط زيان ، بل والعائلة الشهيرة "إمحزان" وتنافس مع بعضهم ، وتصادق مع البعض الآخر ، مما أوقع له حزازات في قلوب البعض الآخر ، وخصوصا على أغراض غير شريفة . وذكر لي أهالي مدرسة أروكَو أنه كان في فترة قبل الحماية بمدرستهم كطالب مهاجر. ولما كان حاكما بإتْزر، حوالي سنة 1936، وهم تحت نفوذه ، ذكرهم في ذلك ، وفي الشريف العلوي الذي كان عونه ، وأحسن لبنت له ، هي التي خلفها الشريف ، وأخيرا انتقل لمكناس في بعض إدارتها . وهناك أدركته منيته حيث تشهد شهادة الإسلام ، وأوصى أن يدفن بضريح سيدي بنعيسى ، غفر الله لنا وله في 1357 هـ 1938 مسيحية ، ترجمته في الأصل صحيفة 207 . قال يصف الواقعة :

"وبعدما أعلن «يعني الجيش الفرنسي الهاجم» العودة إلى مغادرة ساحة القتال ، حول حلة محمد وحمو" انقض زيان على جيوشنا بعنف الحملة المضادة ، فسببت له في رمشة عين خسائر فادحة ، وتمسكت فرق المؤخر هذه بمراكزها ، وصارت تتأخر قدما بقدم ، للإلتحاق بمعظم الجيش الذي توقف بالحروش ، على بعد 6 كلم من مدينة خنيفرة ، لأجل إنضمام بعضها إلى بعض .

ولكن ويا للأسف، العدو، يعني المجاهدين لم يزد إلا تحمسا ، في جميع الجهات ، وقطع علينا خط الرجعة «موحا وعقة» ، ابن أخت محمد وحمو الذي جاء من أقلال ، على رأس آيت خوي ، وآيت بويشى ، وآيت شارط. وظهرت ملامح الهزيمة ، هزيمة كاملة ومؤلمة .

ورغم رباطة جأش الجيش العجيبة التي أظهرها ضباطنا ، فإن جيوشنا اندحرت ، وتحطمت وأغرقت من طرف أمواج الفرسان والراجلة ، الذين جاءوا حتى من ملوية ، ولم يبق لهؤلاء الجيوش إلا أن يلقوا حتفهم ، بأفضل كيفية ، وذلك ما -فعلوا بمرآى من رفاقهم القليل عددهم ، الذين تركوا في خنيفرة ، الذين لم يستطيعوأن يغيثوهم ، دون أن تكون هذه الإغاثة معناها تسليم المركز إلى العدو ، فكان مشهدا خاصا من أجل وحشية رجال ...

"وكثير من الرجال والنساء تحاملوا على الجثث وسلبوهم، ومثلوا بهم، وببعض الجرحى . وتبعهم العدو «يعني المجاهدين» من مسافة كيلوميتر إلى أربعة :"وهناك في وادي بوزقور ، تحت التلال المنورة ، التجأ أولائك المئات من الشجعان، حيث وجدوا الموت الأحمر موت الرجل الأعزل من السلاح يجابه «وحوشا شاردة» . وقد قتلوا تحت جدران قصبة محمد وحمو ، رغم المدفعين والرشاشات الثقيلة التي كانت آنذاك وحدها هي كل سلاح المعسكر" ، إلى آخر كلامه الذي يظهر منه أنه موتور يكاد يتميز غيظا . هذه مقالته المبكية المتحسرة .

وكما خلدوا هذه الواقعة في تاريخ الدفاتر ، نصبوا لها في مواطن المعركة نصبا كالتذاكير . وبدون حياء ولا خجل ، سموهم شهداء الشرف ، كأنما استشهدوا على أبواب باريز ، يدافعون عن شرف وطنهم وحريمهم . وما علموا أنهم بالعكس ذهبوا ضحية غزو أمة مستميتة على دينها ووطنها .

أسماء الضباط المقتولين

[لم يذكر المؤلف هذه الأسماء، وبقيت الصفحة بيضاء]

ألمانيا تساعد محمد وحمو .

لم يقف طنين هذه المعركة على آذان الفرنسيين خصوصا ، بل تجاوزهم إلى أعدائهم الألمان ، الذين كلهم آذان لما يجري لفرنسا. "وبه انتهت الجملة" .

وكان بطنجة بعض الخبراء منهم ، أو بالعرائش يدعى هارمان وله أنصار مثل السيد عبد المالك بن الأمير محيي الدين عبد القادر الجزائري ، الذي وجد الحال بالشمال آنذاك . ولعل الوزير السابق السيد المهدي المنبهي له يد تحرك من خفاء وتعين .

فاتخذ الألمان سياستهم اللبقة وحنكتهم الفائقة ليمكنهم أن يربطوا خطوطهم مع محمد وحمو وكيف وهو بالأطلس الشامخ البعيد ، عن كل طرق المواصلة ، والمدن ، بل وأرادوا أن يتصلوا بكل بربري أطلسي ، يناهض عدوتهم فرنسا ، كموحا وسعيد ، وسيدي رحو ومولاي أحمد السبعي، وسيدي عقه . ففكروا، وعزموا ، ثم شرعوا في تنفيذ الخطة كيفما كلف الأمر ، وبشرحها يتضح لكم الحقيقة وتتجلى الأمور الغامضة الدقيقة .

بينما محمد وحمو في أطلسه ، بمحل يدعى بوسادر ، بين جنان أماس وأسول ، على نحو 30 كلم ، شرقي خنيفرة ، إذا بأناس إثنين أو ثلاثة ، على هيئة رثة يسوقون حُمرا ، عليها جوالق كبعض المتجولين على الخيام ، وكعطارة ذكالة المعروفين بالمغرب ، فأموا عشية حلة محمد وحمو ، وقعدوا منها مزجر الكلب ، لا يُؤبهُ بهم ، حتى إذا ما جن الليل ، تقدموا لأحد أصحابه ، واسروا له أنهم يريدون مقابلته . فهز الصاحب كتفيه ، مقابلة القائد في هذه الساعة غير ممكنة، فأكدوا له أن لهم معه شأنا عظيما، فلا بد أن يوصل خبرهم إليه الساعة . فعلم الصاحب أن وراء الأكمة . فأسرع إليه وأخبره الخبر ، وكان الظن من الجميع أن شرا أهرّ ذا ناب ولكن لا يعدو شيئا من المعسكر الفرنسي. وللحين رجع الصاحب يقول ، تقدموا ، فتقدموا، ودخلوا على القائد، وهو منفرد في خيمته ولشد ما دهش حيث ألقوا إليه كتابا ، «رسالة» كأحد المكاتب التي اعتادها تأتيه من المخزن . ثم صرحوا له ، بأنهم رسل من «العثماني» . يعنون ملك الترك ولم يكتفوا بمد الكتاب ، حتى أردفوه بأكياس المال . وصرحوا له ببعض ما عندهم ، مما هو جلي . أما السر فينطوي عليه ذلك الكتاب . أمر القائد بضيافة الوفد وإنزاله المقام اللائق به إلى الغد . ومن الغد ، عقد ندوته المعروفة بين أولاده ، وأولاد أخيه ، والعايدي ومن إليهم . وقرئ الكتاب وبين الهمة المنوطة به فأكبروها . وأذكت فيهم حماسا زائدا . كيف وقد صار لهم ذكر وجاه ، عند الملك العثماني الذي وعدهم بأن يمدهم بالعتاد والمال ، وكل ما يحتاجون .

وبعد ثلاثة أيام حان إبان رجوعهم . فمن يجيب سلطان الأتراك ، لابد من عالم . وليس

لدينا إلا العالم سيدي عبد الرحمان النتيفي «شيخنا» .

وها هو الفقيه يقص علينا ما جرى ، جوابا عن سؤالي له بعد ذلك ، قال بينما أنا في المغْراض ، محل بالأطلس ، على نحو 30 كلم من خنيفرة ، إذا برسول محمد وحمو ، يطلبني للحضور لديه فورا . قال ، فركبت فرسي ، وسرت معه حتى وصلته ، ودخلت حينا . فهش وبش، وأطلعني على الكتاب ، الذي جاءه . وقال ليس لجواب هؤلاء العظماء ، إلا أنتم العلماء . فأخذته ، فإذا هو من سلطان الأتراك ، وكبير الألمان وفي الكتاب ما معناه " إن سلطان تركيا وخليفته بألمانيا سيمدانكم بكل ما تحتاجون إليه من قوة ، ومال ، وعتاد ، كما سيمدان كل من يساندكم ، على كبت عدوتكم فرنسا ، ومناهضتها ،من جميع رؤساء قبائلكم البرابر - قال شيخنا هذا مضمن الكتاب تقريبا ، ثم اقترح منى محمد وحمو الجواب ، بأننا على السمع والطاعة ، ولا نرضخ لعدو ديننا وعدو نبينا ، ولا تتراءى معه أعيننا ، فليطمئن خليفة الإسلام وخليفته بالألمان . هذا معنى ما أجاب به محمد وحمو ، وسألته هل كان على هذا الكتاب طابع لأحد الرئيسين فقال لم أعقل على شيء .

لم يحتفظ على هذين الكتابين لا أصلا ولا جوابا ، لأن القوم ليسوا رجال أقلام، بل رجال أقدام ، «كما قدمنا مرارا» .

بعد هؤلاء الرسل المجهولين تردد ما بينهم رسل من زيان ، يرسلهم محمد وحمو. ترددوا في وفادات ثلاث أو أربع . واحد منهم يسمى وعلاً الزارْعو ، وآخر يقال له عبد القادر الشقيرني .

تردد هؤلاء الرسل البواسل المغامرون لأقصى حد المغامرة . وناهيكم ممن يخرج من مدشر جنان أماس ، أو أروكَو في عوالي الأطلس المتوسط ، وقممه الشامخة ، فيقطعون مئات الأميال العامرة ، بجنود فرنسا وعسسها ، وجواسيسها المنبثة في كل مضيق وفسيح ، بكل مركز ، وثكنة وقرية ، ومدينة ، وعاصمة من الأطلس إلى طنجة ، أو إلى العرائش ، حتى يصلوا لاحداهما ، فيتصلوا بأصدقاء الألمان أو بدهقانهم العظيم هارلمان ،فيفشون لهم بالأسرار ، ثم يوقرون حمرهم العجاف بذلك المال العظيم ، والباهض ، فيرجعون إلى أن يودوا الأمانة إلى أهلها ، بدون تبديل ولا تغيير ، ولا زيادة ولا نقص ، فيا لله من هذه الشجاعة النادرة مرة وللأمانة التي فقدت أو كادت في زماننا هذه ألف مرة .

تردد هؤلاء الرسل في وفادات مرتين أو ثلاثة ، وسلمهم الله ، حتى استشعروا الخطر الداهم من العيون ، التي بثتهم فرنسا ، لاعتراض سبيلهم بكل ما يمكن . فقد أهمتها القضية وقضّت مضجعها . وتراسلت فيها ما بعض الدول المحايدة ، وبالأخص إسبانيا التي قد تكون لها يد ، ولابد في هذه الاتصالات ، بل لم تكتف بالمراسلة فكانت وفادات .

ومن جملة من أوفدته إلى العرائش لهذا الصدد ، على حذر ، القبطان "موريس لوكَلي" الكاتب العام للجنرال هريس رئيس معسكر مكناس . كان لوكَي هذا من الوافدين الأولين مع الجيش الفرنسي ، واستقر بمكناس ، ككاتب سياسي للجنرال هريس ، وكان من دهاقنة الساسة في دبلماسية نشيطة ، مع كل من يمت للأطلسيين وخصوصا زيان . فكان يستشرق لكل من يأتي من ناحيتهم ، وأول من حل بفاس من ناحية زيان ، هو أمين المحلة السلطانية بزيان ، السيد عباس بن الأمين السيد أحمد الشامي من الشاميين ، الأعيان والعلماء بفاس ، ولما علم بمكانته المخزنية الأولى ، وهو أول وافد منهم ، قربه وأمده ، وهو هذا الذي يحكي لنا رفقته معه للعرائش .

معسكر مكناس .

ولنستمع إلى الأمين السيد عباس به أحمد الشامي يحكي لنا رفقته لهذا القبطان إلى العرائش .

قال لما تردد هؤلاء الرسل بين الشمال ومحمد وحمو ، طار عقل الفرنسيين لذلك ، فسألني عنهم القبطان المذكور ، وعرفته بأسمائهم لأنهم كانوا «رقاقيص» لنا أيام المخزنية من زيان للمخزن . والرقاص في العرف المغربي ، الرسول المجد لتوصيل المكاتب ، أو الخبر المهم للطرف الآخر . وكانت لمحمد وحمو وقواد المحلة رقاقيص من هذا النوع ، ربما يوصلون الرسالة من خنيفرة لفاس في يوم وليلة على رجلهم . ولكنهم لم يهتد وا للطرق التي كانوا يسلكون ، وكيف كانوا يسلكون ؟ وأخيرا شد القبطان لوكَلي الرحلة للعرائش وأنا معه ، «على حذر شديد» . قال كنا على خوف ووجل من الساعة التي قطعنا « الماء البارد» ، يعني قطعوا عرباوة ، الحد ما بين منطقتي استعمار فرنسا وإسبانيا .

ولما دخلنا العرائش كنا على أشد الحذر ، فنزلنا في نزل ثمة ، وخرج هو في لباسه المدني كأحد الأوربيين ، وأوصاني أنا أن لا أبارح النزل بحال ، خشية أن يلقى علي القبض ، ويفتضح السر . واتصل هو بمن يهمهم الأمر من رؤساء أسبانيا . ولكن لا أدري ماذا جرى ولا كيف . وللحين غادرنا العرائش .

ومن هذا التاريخ أسدل الستار على هذه المحاولة ، وانقطعت خيوط المواصلة بين من في طنجة والشمال والأطلسيين . وكانت الإعانة توجه منها لبعض المقاومين الآخرين البرابر ، كموحا وسعيد ، وسيدي رحو ومولاي أحمد السبعي ، وسيدي عقه ولعل موحا وسعيد كانت له مع ألمانيا مواصلة أخرى على يد السيد أحمد المنبهي كما جاء لبعض الضباط الفرنسيين في كتابة له حول هذه المعارك .

هذا ما راج بين سلطان الأتراك وغليوم ألمانيا ، مع بطل الأطلس منذ سنة ، حتى يطلع علينا الاخ المؤرخ الأديب الأكبر الوزير سيدي محمد المختار السوسي ، بتاريخه المعسول فيطلعنا على شبه القصة ، مما جرى في القطر السوسي أيام السلطان بسوس ، سيدي أحمد

الهيبة رحمه الله . فلنستمع إليه ، إذ يقول في الجزء الرابع من معسوله «كانت الحرب العالمية قائمة على ساق ، والدنيا كلها براكين ، ترمي بشرر كالقصر ، كأنه جمالات صفر ، فكانت الدعاية تجدب الألفاق من الكفة الأخرى. التي تعادي الحلفاء حتى أطلت على الجهة البعمرانية ، فخرجت هناك في أوائل 1335 غواصة رمت إلى البر أناسا يزعمون أنهم تركيون ، فراسلوا الهيبة ، وأوعزوا له أن يصلهم بنفسه . ولكنه صار يرسل إليهم رجالات من أصحابه كالقائد أرْعا ، والقائد الطاهر الحماني ، وكبار القبائل . وقد كنا إذ ذاك بمدرسة تانكارت ، فمر بنا الذاهبون ، ومن بينهم الأخ سيدي محمد ، فلم ير أولائك الناس عاقلا يدخلون معه في المفاوضات التي جاءوا إليها . ولم يروا إلا الفوضى وذئابا في ثياب ، وتسابقا إلى احتجان درهم ، وقد أرسلوا إلى الهيبة هدية فيها آلاف من الأوراق البنكية الإسبانية ، ومرآة غالية من نوع المقربات للبعيد ، وسيفا محلى ومثل ذلك مما يتحف به الكبار من الملوك . وكانوا يحسبون أنهم سيجدون أمامهم عقلاء نظموا أمورهم ، فإذا هم برجال في عقول صبيان ، إلا ما قل ، ولا عبرة بالقليل ، فعرفوا أنهم ما جاءوا إليه لا يتم . فاحتالوا حتى نجوا بأنفسهم ممن يحومون حوله ، يحرقون الأرُمّ على ثيابهم التي على جلودهم ، ثم انطوت تلك الصحيفة ، بعدما فرق الهيبة في الناس بعض المال ، مما توصل به ، من أصحاب الغواصة . وقد أخبر الأخ محمد أنه رأى بعينه رسالة غليوم بطابعها المشهور ، ورسالة السلطان العثماني بطابعها أيضا ، يسلمان على الهيبة ، ويقولون له إننا أرسلنا إليك هذا التركي ، وهذا الألماني ، ومعهما كل شيء . وفي يدهما كل ما عسى أن يتوقف عليه ، ما يراد من قيامكم السريع . وهذا ما قال ثم خاب هذا المسعى .

وأما شاعرنا الأفراني فقد قال يخاطب الأمير بقوله يهنئه بهذا الوفد، في قصيدة مطلعها:

تاوب طيف من أميمة طـــارق   فشب لهيبا شاب منه المفارق

هذه القصيدة العصماء التي خلدها شاعر البيان السوسي الشلحي ، العلامة الطاهر الافراني الذي لو لم يكن لهذه الأسرة المائلعينية ، في هذه المملكة إلا أمثال هذه القصيدة منه لكفى فخرا وشرفا ، دون ما خلده غيره من السوسيين والشنجيطيين .

فمرحى لعلماء سوس وأدبائهم الذين خلدوا كل فخر ، ودونوا كل تاريخ مجيد ، مر على قبائلهم وفي بلادهم أيام الجهاد وغيرها، في حين أن ما جرى مثل هذه القصة لبطل الأطلس ، بل أكثر ، مع سلطان الأتراك وغليوم ، فلم يسجل من ذلك إلا ما عقلنا عليه واحتفظنا في مخيلتنا من أيام المراهقة ، وحتى الكتب الرائجة بينهما وبطل الأطلس، لم يحتفظ بشيء منها .

وعندما اتحفنا الأخ الوزير سيدي المختار بهذه الفرائد وشبهها من الفوائد رجعت لشيخنا العلامة سيدي عبد الرحمان النتيفي أسأله عن المكاتب وأجوبتها ، لأنه هو الذي تولى الجواب عن أحدها ، سألته فقال ، لا أعلم ، أين تأخرت ، لأن القوم لا يهتمون بشيء من ذلك ،

فسألته عن الكتابين ، بإمضاء سلطان الأتراك نفسه «رشاد» و«غليوم»، وطابعهما ؟ فقال لم أعقل على شيء ، إلا أنهما من العثماني وألمانيا ، وقد مر للقصة زهاء خمسين سنة .

أقول ليتني كان عقل اليوم ولسانه لأخلد لقوم زيان وبطلها شيئا كما خلده سيدي الطاهر الافراني ، ولكنها الأقسام منح إلاهية . فإن كان الاخوان السوسيون خلقوا للمحابر والأقلام فالاخوان البرابر الأطلسيون للحرب والأقدام "كما قدمنا مرارا".

فها أنت ترى هؤلاء الآخرين كيف يستميتون على ترابهم ووطنهم شبرا شبرا وذراعا ذراعا في خلال 27 سنة . أما إخواننا السوسيون فإن أخاهم وزيرنا يحكي عنهم خلاف ذلك . وهم ، وإن طال وقوف الاستعمار على أبوابهم سنين ، وكانت بعض الحروب ، فغالبها كان بين القبائل ، إلا نادرا كوقعة الجنرال دولاموط .

فلنستمع لمؤرخنا سيدي المختار يحكي لنا شجاعة هؤلاء – فيقول في حرب مربيه ربه والجيش الفرنسي على أبواب مراكش ، أرسل « يعني الجيش الفرنسي» شئبوبا من القذائف على رأس مربيه ربه ، وكان خليفة السلطان الهيبة بمراكش فلم يقف هو ولا أصحابه يوما كاملا يعذرون فيه ، بل انهار جدارهم بسرعة غريبة فتسابقوا نحو الحمراء (صحيفة 140 جزء رابع) . ثم قال بينما الهيبة والقائد عبد الرحمان الحاحي ... إذ د همت أخبار الانكسار التي لاشك سترتجف بها فرائص الهيبة ارتجافا ، تنسيه مرارته كل ما تملّى به من حلاوة الامارة ... فلا يخال ، وقد طرقه ما وقع لأصحابه من الرحامنة ، إلا أن نفسه تطير شعاعا ، وأن سحره ينتفخ حتى يملأ صدره ، وأن نفسَه سيتوالى لهثا . وقد جحظت عيناه ويسقط في يده فلا يدري ما يأتي، ولا يذر، وللبغتات روعات . صحيفة 140 .

ثم يقول عند وصفه الاحتلال النهائي لسوس سنة 1332 « وقد حكى لي الأخ أحمد ، رحمه الله أنه كان في ذلك النهار أحد الدالين لهم إلى الطريق . قال ، سرت مع رؤساء من الدولة الحامية ... فجاء رجل يجري ، يخبر بأن سملالة قدمت الطاعة . وقد أدت كل القبائل الطاعة وانقضى الأمر ... وهكذا تم الاحتلال بلا حرب ولا جرح أصلا ، إلا ما لا يذكر ، وقد تعجب بعض الناس من هذه السهولة . صحيفة 270 جزء 4 .

وسمعت مثل هذه السهولة في احتلال مراكز في الجنوب حكاها لي أحد الضباط الفرنسيين المسمى فرنسيس كيتى القبطان ، وعرف بالشاوي وهو ممن كان أيام نفي الوطنيين لاغبالو نكردوس بتلك الناحية ، وله مواقف عطف وإحسان ، يذكربها لحد الآن . وكانت له جولات في احتلال الجيوش الفرنسية سواء في القبائل الشلحية أو القبائل البربرية. فحدثني عن مقاومة هؤلاء الأخيرين ما يوجب الإعجاب بهم ، كما حدثني عن احتلال الجنوب بسهولة . فقال ، احتلت جيوشنا الفرنسية الجنوب بدون مقاومة تذكر ، بل لم تطلق علينا أي رصاصة ، كذا قال ، ففي سنة 1926 احتلت مركز تلوات حيث دار الأكلاوي . وفي

سنة 1929 احتلت وارزازات ، وقلعة مكونة وساورة ، وفي شهر نونبر 1930 من السنة احتلت أكَدز ، وفي 24 دجنبر من السنة ، احتلت بومال وأميض بعد شهر . وفي 18 نونبر 1931 احتلت تنغير ، وفي يناير 1932 احتلت زاكَورة ، وفي مارس 1931 احتلت فم زكَيط ، فأخذت مريرت في شتنبر 1931 . قال كل هذه المراكز إحتلتها الجيوش الفرنسية بدون أدنى طلقة نارية ، انتهى . فلنقف عند هذا الحد من الاستطرادات المناسبة للموضوع .

انعطاف لما يجري بمعسكر خنيفرة وزيان

بعد معركة الهرى التي استخذى لها الجيش الفرنسي أشد استخذاء ، حتى كاد ينسحب من المعسكر الكبير بخنيفرة ، بعد ذلك فإنه لزم وكره . ولم يجرؤ لخوض أي معركة ، فلا يكاد يفكر في أي جولة للخارج أو حركة ، والتفكير كله في تموين المعسكر .

وهنا يلقى المعسكر كلكله على القبائل التي يأتي من ناحيتها التموين الذي كان غالبا يأتي من ناحية أبي الجعد . فكان مركز وادي زم يحشر قبائل ورديغة وبني زمور وبني خيران والسماعلة ، ويلقي بهم في هاوية الحرب الضروس التي يصطدمون بها في طريقهم ، وخصوصا بعدما يتجاوزون مركز سيدي الأمين ، إلى أن يدخلوا خنيفرة . فكان المقدمة من خيل القبائل المذكورة ، وهي التي تتلقى الضربات وتصوب لها باردة الطلقات .

لذلك كانت هذه القبائل عندما تومر بالنفير العام لهذا البركان ، تراهم يتضاغون من الدهش والخوف مرة ، ومن سوء مغبة المصادمة مع إخوانهم المسلمين مرة أخرى ، لأنهم أو غالبهم يعدون أنفسهم كمحاربين لله ولرسوله ، وأولائك هم المجاهدون المستشهدون .

وكان ممن اشتهر من هؤلاء االضباط بوادي زم حاكم عسكري يقال له «بوشي»، ممن أبدا ، وأعاد في هذا المضمار ، مضمار التشديد ، والتنديد بمن يتهاون أو يختفي أو يفر . فكان إذا آب من المعركة ، يجمع جموعا منهم يرأسها قوادهم، وخلفاؤهم وأشياخهم، ويتقدم لمن فرّ منهم ، أو ظهر بمظهر الجزع والخوف فيسب ، ويقنع ويجدع أمام الجمهور وفي بعض الأحيان يقدم الفار فتحلق لحيته . وكان حلق اللحي سبة ومثلبة عند العرب . فمن أريد به الصغار والاذلال ، حلقت لحيته ، وما ذلك الا لأن اللحية شعار الوقار والهيبة . وقد صارت اللحية الآن شعار الذل والهوان ، تقليدا للغربيين من النصارى . وهو مصداق قول النبي صلى عليه وسلم :«لتتبعن سنن الذين من قبلكم ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه . قيل من يا رسول الله قال ، اليهود والنصارى»، قال وأعرف منهم من فعل به ذلك .

وكان بذلك الفرنسيون يذكون في بعض الأغمار حماسا ، بل تحرشا ، فينافسون فيما بينهم ، فيغتر بذلك بعض المغفلين . أما عقال القبائل منهم ، وكبراؤهم ، فإنهم كانوا يساقون لذلك كرها وهم يتأففون ويتحسرون . وفي هذا النفير لقى أعيان من تادلا ، أهل وادي زم ، وأبي الجعد مصائب ، ذهب فيها أعيان وأعيان ، كالخليفة ابن حيدة ، خليفة القائد الضاوي الخيراني .

هل عداد هؤلاء الخافرين من الكافرين

من سمع ما يصدر من رجال هؤلاء القبائل ، من حمايتهم ظهْر الجيوش الفرنسية , وتصديهم لضربات المجاهدين القاسية ، ربما يحكم على هؤلاء الخافرين أنهم من الكافرين . ولكن من علم نفسانيتهم ، في حال استنفارهم ، واستنهاضهم لهاته المعارك ، وهم يتأففون ويطلبون الافتداء بأي ثمن ، ويتخذون من الحيل للتخلص ، والتوسط بمن ومن ، ما يكون به عذرهم مقبولا ، ومنجيا أمام الله ، فهم لا يذهبون إلا مكرهين . وقد بلغنا وسمعنا من أقوالهم وأعمالهم وتحسرهم ، فيما يعتقدونه مصيبة وخسارة دين ودنيا ، الشيء الكثير كقولهم : «يا ولي موتا واحدا» أي ياويلي موتة وخسارة الآخرة .

نعم هناك طائفة من المغرورين ، قد تغرهم بعض المخاديع الدنيوية ، والمناصب الكاذبة ، والأوسمة الزائفة ، فيتقدمون بطيب خاطر للأغراض السافلة المذكورة . والمجاهدون البرابر لا فرق بينهم بين هذا وذاك ، إقتداء بفتاوي علمائهم التي قدمنا بعضها ، والله يتجاوز عن الجميع .

ورود القوافل من النوافل

في الحصار المضروب على خنيفرة ومعسكرها الذي لا تصله المؤن إلا بعد خوض معارك طاحنة . وكان غالبها يأتي على طريق أبي الجعد ، من معسكر تادلا . فارتأى رأي ساستهم مرة أن تأتي المؤن على مريرت ، من معسكر مكناس ، فجهزوا لذلك جيوشا جرارة ومعدات حربية ، وخفروا الجميع بحملات عظيمة ، حشدوها من البرابر المجاورين لمكناس من بني مطير وبني مجليد وزمور فجاءت القوافل موقرة بالتموين العظيم ، الذي يكفي لمدة بضعة أشهر . ولا تكاد تصل تلك القوافل لأطراف التراب الزياني ، حتى تدق أجراس غيبية ، سريعة بين القبائل ، فيتهيأ للقيها بكل حفاوة . فهم كما يقول شاعر الحكمة أبو الطيب المتنبي :

إذا لم تجد ما يدفع الفقر قاعدا   فقم واطلب الشيء الذي يبْتر العمرا
هما خلتان ثروة أو منية   لعلك أن تبقي بواحدة ذكرا

فكانوا يفرحون بسماع قدوم القوافل ، لما فيهامن النوافل . فما شئت من ذخيرة وزاد ، وما شئت من مكاحل ، وقرطوش وعتاد ، وتلك حظوظ وسعود من قافلة تسير ، وأخرى تعود . فهم منها على شغف ولهف ، آخذين بقول أبي دلف .

ومن يفتقر منا يعش بحسامه   ومن يفتقر من سائر الناس سئل
وإنا لنلهو بالسيوف كما لهت   فتاة بعقد أو سخاب قرنفل

وبينما هذه القافلة المخفورة بذلك الجيش العظيم ، قبائل وغيرها ، والتي لقيت مقاومة شديدة في منعرجات "تقط" ، وطاغات وغيرها. بينما هي على أبواب المعسكر بخنيفرة على قنطرة أم الربيع ، بالمحل المعروف بالبرج إذا بالحصار يضرب عليها من جديد . فيتزاحم على الجسر ، في المفر الضيق بغلان أدى بسقوط أحدهما في النهر ، يحمل صندوقين موقرين بشيء . وما كان من الممكن

أن ينقذ ذلك البغل وما يحمله ، ولو كان مؤونة ذلك الجيش لبضعة أشهر ، لأن ذلك الإنقاذ لا يمكن بحال لأنه من المحال . ولكن لما سكنت الروعة وهدأت الهيعة رجع بعض الأبطال الذين عاينوا الصندوقين الساقطين في النهر ، فنزلوا للنهر يغوصون على الساقط كما يقولون :

«لكل ساقطة في الحي لاقطة»

فغاصوا وجالوا في النهر جولات ، وهم كما يحسنون الرمي ، يحسنون السبح. وما هي دقائق ، حتى عثروا على الصندوقين محكمي القفل ، متقني الربط في حزمهما وشدهما ، لم تتسرب لداخلهما قطرة ماء . إنها لغنيمة عظيمة.

فماذا عسى يكون داخل هذين الصندوقين ؟ الظن أنه ذهب أو فضة أو على الأقل شحنة قرطوس . وأيا كان منها ، فهي كنز دفين وغنم ثمين . ولكن بعدما كسرت أقفالهما وفض ختامهم ، أخذتهم دهشة، كادت تكون رعشة ، واكفهرت الوجوه ، بعدما كان يعلوها هش وبش ، ذلك أن ما في الصندوقين إلا أوراق زرقاء مزوقة ، فنادوا يا للخسارة ، والخيبة بعد التعب وعظم المشقة . فسبوا ، وجدعوا ، وقرعوا سن الندم ، لأنها أوراق في ظنهم أنها كالعدم . ثم بعثروها ورفسوها وبأقدامهم وطؤوا عليها، فداسوها، ثم اخيرا تضاحكوا وقهقهوا وبأحدوثتهم الغريبة نوهوا ، وراحوا للخيام بسلام . ولكن أحدهم وهو المسمى موح والزين المرابطي ، رأى أن يحمل من هذه الأوراق فيئة يتلهى بها صبيانه ، فكان كذلك ، فجاء قول عمر:

«أبت الدراهم الا أن تمدّ أعناقها» .

ومن الغد كانت عمارة سوق ، بجوار خيام هذه الطائفة المحدوة حيث لم تكن محظوظة . فجاء أحدهم يحمل الورقات الشهباء ، وهو يعدها أنها هباء . وإذا ببعض التجار الذين خالطوا المدن ، والأمصار، يرمق الكنز الثمين بيد هذا البربري الغر ، يلوح بها لاعبا غير عابئ بما يحمل لاغيا . فسال لعابه ، واشتد عجابه ، وطار عقله ولبابه ، فتستر بالتجاهل ، حتى صار بين يديه ، وألح في الاستفهام . من أين هذه الأوراق ؟ وكيف ؟ مما استلفت الأنظار واسترعى الأبصار . فجاء آخر ثم آخر و..... «إن الطيور على أمثالها تقع» . فكثر الضجيج ، هذه أموال ، هذا ذهب هذه كنوز .

ثم تسابق الناس إلى ضفة الوادي ، إلى ذلك المال المبعثر المجهول ، عند أولائك الغواصين عليه ، ولكنه الكنز عند من يعرف قيمته ، مال مبعثر ، وصبيان البرابرة تتعثر ، بعضه تذروه الرياح ، وبعضه تمسح به نساء الاشلاح .

فتساقطوا عليه تساقط الذباب على فتات المائدة ، وازدحموا على أرضه حتى كادت تكون بهم مائدة . ومع ذلك لم تكن للبرابر ثقة كبيرة في تلك الأوراق ، فاختلفت بذلك الحظوظ والأرزاق ، فبعدما جمعوها وتخاطفوها فيما بينهم ، ووزعوها أموا بها السوق . وكل كالبقر لا يدري لما هو مسوق . فربما باع البربري الورقة من فئة خمسمائة فرنك بريال ، ويحسب

نفسه أنه حصل على رئبال، وربما لا يصل ليده في الرزقة منها الاقرش أو قرشان ، فهو بذلك أخسر صفقة من أبي غبشان ، ولكن الرجل الحضري ، كالفاسي القمين بمعرفة الدرهم ، الضر الذي لم يغص عليها في واد ، ولا جالت عليها منه خيول الطراد اقتنى منها ما اقتنى ، وجنى من تلك الغنيمة الباردة ما جنى . وهكذا الأرزاق بالحظوظ والجدود . وليست للمحروم المحدود بمجهود ، فقد ينعم البله ويحرم ذوو العقول ، ويرحم الله الشافعي إذ يقول :

لو أن بالحيل الغنى لوجدتني ... من دون أسباب السماء تعلقى

لكن من رزق الحجا حرم الغنى ... ضدان مفترقان أي تفرق

فإذا سمعت بأن محروما أتى ... ماء ليشربه فغاض فصدق

أو أن محظوظا غدى في كفه ... عود فاورق قي يديه فحقق

ومن الدليل على القضاء وكونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وكما يقول المعري :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ... فقير معري أو أمير مدوج

وقد يرزق المجدود أقوات أمة ... ويحرم قوتا واحد وهو أحوج

ولو كانت الدنيا عروسا وجدتها ... بما قتلت لزواجها لا تزوج

هذا ما كان من سنة 1914-1915-1916 . لم يتقدم فيها العدو في تراب زيان ، قبائل زيان ولا شبرا واحدا ، وكل المعارك التي كانت إنما هي على أبواب مدينة خنيفرة في القوافل التي تأتي بالمؤن . والمرة الوحيدة التي أراد أن يجرب فيها حظه ، في اليوم الذي تحرك فيه أمام الهرى ، فقد صفع على قفاه ، ودرس رسمُه وعفا . نعم كان له تحرك جاهد فيه بعض قبائل زيان ، ولكن كان من ناحية مكناس لناحية قبيلة بني مجليد المجاورين لزيان من الناحية الشرقية لأزرو.

استشهاد القائد أقبلي

كان هذا القائد محمد بن محمد بن الحسن أقبلي من أفذاذ القواد المخزنيين الذين تولوا قيادة إخوانهم على عهد السلطان مولاي الحسن .

ولعل تنصيبه كان بعد تنصيب محمد وحمو ، على زيان بمدة يسيرة . فعلى آيت شكَوكَو محمد والطالب ، وعلى آيت عبدوس هو القائد أقبلي ، وعلى المرابطين ، ابن عمر وسيدي يوسف . والأشهر فيهم هو القائد أقبلي . وهذه القبائل هم في عداد قبيلة زيان ، ومركزهم دائرة الحمام ، على نحو 45 كلم من خنيفرة . وكان من القواد المشاهير بهذه الناحية ، وله عقل وتودد ، ويتظاهر بالمروءة والرزانة ، ولا يلمز بطمع ، أو هلع ، أو فساد أخلاق . وسنه يقارب سن محمد وحمو . ومنذ الحادثة التي حدثت بينهما حوالي سنة 1300 مفتتح هذا القرن التي أدت إلى معارك دامية حتى اضطر محمد وحمو لقنبلة مدشره المسمى تيطيوين وفراره منه . وبعدها وقع الصلح بينهما . منذ ذلك التاريخ وهم أصدقاء يتعاشرون معاشرة الأقران ويتوادون ويتحابون .

ولما صارت الجيوش المحتلة تساوم الوطن العزيز ، وتروم احتلال أطلسهم الجبار، كانت كلمتهم واحدة ، وخصوصا لما عسكرت القوة المهاجمة بأفود الجامع متهيبة لاحتلال عاصمة زيان خنيفرة . فكان الجميع يدا واحدة على من عاداهم ، حتى هاجمتهم القوة الغاشمة ، واحتلت خنيفرة ، فهاجر كل إلى ناحية أطلسه . فيعترض السبل والقوافل ، ويقف متى تحرك الجيش المحتل في وجهه . وفي كل تلك القوافل ، التي ترد على طريق مكناس ، كان لهذا القائد بنفسه أو بإخوانه مواقف شريفة .

حتى كان لهذا الجيش حركة نحو بلاد بني مجليد في شعبان 1335 ، يوافق ماي 1917 حيث هاجمت تراب بني مجليد لتؤسس مركز البقريث وتيمحضيت ، [وهو] مركز بين أزرو وميدلت على نحو 40 كلم من أزرو في الطريق الرئيسية من مكناس لتافيلالت ، عبر الأطلس ، وهي في تراب بني مجليد والبقريث جنوبا منها في تراب بني مجليد أيضا ، فريق أيت محمد والاحسن ، وهي تخوم أيت سكوكو قبيل القائد أقبلي رحمه الله . فما كان خبر الهجوم يصل لأذن هذا البطل المجاهد حتى قام يصرخ في إخوانه وقبائله لمقاومة الجيوش الغاضبة المتجهة نحو البقريث من تيمحضيت .

توجه القائد في إخوانه وقبيلته ، ووقعت مقاتلة عظيمة ، على المركز الذي أرادوا تأسيسه بالبقريت . ولما جن الليل رجع المجاهدون من المقاتلة قريبا ليوجهوا شهداءهم تدفن، وجرحاهم تعالج ، ويستريحوا مما شاء الله إلى الغد . وفي الليل صار كل يستعد لخصمه . فالمجاهدون يستعدون ويستوصون بالثبات والصبر ، ابتغاء ما أعد الله لهم من الشهادة والجنة ، والجيوش الفرنسية تركز مدافعها ، وتصوبها نحو الأماكن التي كانت فيها المقاومة صلبة وشديدة . وما كادت الغزالة ترسل أشعتها من الغد ، حتى هرع المجاهدون نحو "مركز البقريث" ، الذي يؤسس . وبينما القائد الشهيد يهرع في ثلة من أعيانه وإخوانه بكبكبة من الفرسان ، إذا بالعدو يرسل عليهم من جدارن المركز قذائف مدفعيته ، فتطيح بهم جميعا . فاستشهد القائد المذكور ، وحدو أوقصو والد السيد المكي بوغيول.

ويظهر أن الجيش الفرنسي لم يستقر قراره بهذه الناحية ، في هذه المحاولة التي كانت سنة 1917 . وما تم استلاؤه على تمحضيت إلا في سنة 1340 ، يوافق شتنبر سنة 1921 .

وقد كتبوا على النصب التذكاري ، في مدخل مركز تيمحضيت ما ترجمته :"أيها الفرنسيون المارون ارجعوا بالذاكرة إلى ذكر أولائك الأبطال الذين سقطوا تحت رايتكم لعظمة الوطن "تيمحضيت البقريت" .

وذكرى الحروب القاسية التي قامت بها الجنود الفرنسية من ماي 1917 إلى شتنبر 1921– البقريث – لفْوكوا – رأسط الطرْشة – القبّات – أحْرون" .

هذه بعض حوادث وقعت تجاه قبيلة بني مجليد . فقد استطاع الجيش الفرنسي أن يتحرك "خلال الحرب العالمية" من ناحية مكناس إلى الأطلس ، في قبائل بني مجليد، حيث لم تكن هناك مقاومة تذكر كالتي في قبائل زيان . وما اقتحم القائد أقبلي وإخوانه هذه المعركة إلا

من أجل الجوار لبني مجليد ، من هذه الناحية ، المفروض عليه غيرة على الدين والوطن العام ، لا وطن زيان بالخصوص . أما الجيش المعسكر بالعاصمة الأطلسية «خنيفرة» فإنه لم يكن يتحرك قط "خلال الحرب العالمية" ، والحركة التي أراد أن يجرب حظه فيها هي التي «إلى الهرى» ، فأخذ الضربة القاسية كما تقدم . ومع ذلك فإنه بقي ما بين تيمحضيت والبقريت في مقاومة أربع سنين ، وهي مسافة نحو 20 كلم تقريبا . فكم يكون أدى عليه الجيش الفرنسي من ثمن رجالا وعتادا؟.

ولا تنازعوا فتفشلوا .

فبعد تلك الانتصارات ، وتكبيد العدو وخسارات ، وانكسارات ، وفوزهم بغنائم كثيرة ، استاء لها استياء ، اهتم بها صباح مساء ، بل اغتم لها وزاد مساء ، بدأت دسائس العدو تمد خيوطها وتستعمل سلاحها المادي وترسم خطوطها ، فترسل تارة سماسرتها، وتراة خطوطها لتصيد أحد الأعيان [1]، يكون لها عونا في همها وينقذ هذه السفينة الغارقة في يمها . وتركز حملتها الحربية على أنقاضه ، إذ يكون كالأسد في أرباضه ، فتقابل بهذا الباز الأشهب ، ذلك النسر الأصهب ، فظفرت بضالتها المنشودة ، بشتى الحبائل الممدودة . دخلت سنة 1917، فإذا بحادث يروج وصار بين أواسط المجاهدين بموج، فتحدثوا بأن أحد أولاد محمد وحمو ممن ترفقهم العين ، وتتجه إليهم الأنظار ، في هذه الأقطار ، ذاك الولد هو حسن . وهو من هو في أسرته وفي قبيلته ، وفي سطوته . راج هذا الخبر وهو أنه صار يربط صلة بينه وبين رؤساء المعسكر بخنيفرة ، وأن رسلا تسير بينهم سرا . صار هذا الخبر واستطار كالصاعقة، وصار الناس فيه ما بين مكذب ومصدق . وذهبت الأيام تحقق للناس فيه من آلام . فلم يبق شك في الاتصالات الرائجة بينه وبين رجال المعسكر ، برسل تذهب وتجيء في السر ، وأخيرا تحقق ذلك للناس أو لبعض الخواص .

بوعزة ولد محمد وحمو في المعسكر

كان هذا أحد أولاد محمد وحمو بطلا شجاعا ، ولكنه من الناحية الاجتماعية والمالية والسياسية ، لا ضلع له فيها ولا يد . وكان في المالية أفقر بني أبيه ، وهو الولد الوحيد اليتيم من قبل أمه ، دون سائر أولاده . وهذه المحيطات ، جعلته يتشوف لما يربأ به حاله . كان من الأقران في الصبا وإبان المراهقة ، فكان يتردد لنا كثيرا ، هو وأخ له يدعى الحاج حدو .

وبعد احتلال خنيفرة ، ونحن في شوامخ الأطلس ، رحت لخيمته مرة ، فرأيت بوادر

---

1 - في انتظار الوقت المناسب وريثما تضع الحرب أوزارها في أوربا ، فكر المستعمر في تفكيك المقاومة البطولية الزيانية . وهكذا بث جواسيسه في القبائل لالتقاط الأخبار عن أرضها ومواردها العسكرية والخصومات الأسرية . وبهذا تعرف عن الأعيان المتذبذبين الذين تكفي بعض الأكياس من الدراهم المشفوعة بالوعود لاستمالتهم إلى الجانب الفرنسي ، أنظر :. Lyautey l'Africain, op.cit t1 p. 134

القلة تلوح عليه . ومع ذلك ، كان عنده من المحال أن يمد يده للمعسكر الفرنسي . وقد كانت له مواقف حسنة في الأيام السالفة ، جهادا وكفاحا ، شجاعة نادرة يظهرها في الأيام الصعاب ومواقف الشدة ، وخاصة يوم جبل أبي موسى وأعظم منه ، يوم الهجوم على أبيه في الهري مع صغر سنه .

كل هذا ، كان ويكون ، دون أن يفكر في الاتصال بالنصارى ، ورؤيتهم التي تبعد من الجنة وتقرب من النار ، في اعتقادهم ، الذي هو اعتقاد أبيهم . ولكن ماذا جرى بعد؟ إن الناس يتحدثون بأعظم إخوانه يتصل بهم . ثم بعد الحديث الشك ، ثم بعد الشك الظن ، ثم هو اليقين، والحقيقة، التي لا مراء فيها . إذا فما لي لا أكون أنا الأحق بذلك ، مع قلتي ، وضعف ماليتي . وذاك أخي العظيم بجاهه وماليته ، صاحب الدخائر ، والخزائن ، والمئات من البغال ، والآلاف من الأغنام ، يتصل برؤساء المعسكر ويمد يده إليهم .

عند هذا الوقت سقط الغر على أم رأسه لهذه الأسباب، لا مما يقال من أن بينه وبين أبيه نفرة فالحق يقال ، كان أولاد محمد وحمو يحترمون أباهم أشد الاحترام ، ويطأطؤن أمامه ألهام .

ففي صفر 1336، يوافق 19 أكتوبر 1917، سقط هذا المافون سقوط الذباب في الماعون وبمجرد ما حصل الاتفاق بينه وبين رؤساء المعسكر بخنيفرة ، أصبح من الغد عليهم ، بفرسه وحشمه . وكان ضعيف الحمل ، «لأنه وزوجته فقط» قام الضباط لقدومه وقعدوا ، وتنفسوا الصعداء . وللحين أمدوه بما يربأ به حاله ، وأطاروا بخبره الاعلانات للمعسكر الاعلى بمكناس ، هذا ما كان من ناحية المعسكر فلنر ما عسى يقع من ناحيته هو . فما هو إلا أن ألقى عصاه واستقر به النوى حتى عقد مع الضباط جمعا ، وأبان لهم أن هذا الخنوع والاستكانة اللذين هم فيه ، لا يفسّر إلا بجبن لا يماثله جبن ، وعليه فيجب على القوة أن تتحرك ، فأجيب ، أما قوتنا نحن فلا يمكنها ، فهي تقف موقع الدفاع إن حزب الأمر الشديد ، وأما أنت فشأنك وما تريد . فأجاب :" المغامرة عندي كأكل الثريد ".

وللحين ركب في كبكبة اختارها من فرسان البرابر الذين تسللوا للصف الفرنسي . ركب فأغار في ضواحي خنيفرة ، خصوصا حول جبل أبي موسى و الذي كان لا يخلو من عيون للمجاهدين ، يترقبون كل حركة تبدو من طرف المعسكر ، فيتهافتون عليها. ويهتفون بها . أغار ، وجال ، وطاول ، واستطال ، مما جعله يلفت الأنظار من المحدقين والنظار . فمن يكون يا ترى صاحب هذه الجولة الذي أظهر فيها شجاعة وصولة ، خصوصا والكبكبة التي معه لا تتجاوز بضعة وثلاثين فارسا ، ذلك مما عجب له المجاهدون ، ومما جعلهم في البحث يجدون ، حتى تبين لهم أنه إبن بجدتهم، وواحد من جلدتهم . وهنا قال المعسكر الفرنسي قولته :"إليه لازالت تعزى ، لازلنا أذلاء حتى استسلم بوعزى".

فكاد المعسكر الفرنسي يستريح من أي محاولة بعد ، وتحمل الضيف الحال عليهم ، كل جريرة وعداء . في حين تنفس المعسكر الصعداء . وكان من بُلهه أنه لا يهدأ له بال حتى يهاجم ، فجاء على قومه أشأم من طويس *، أو أن الشقي وافرالبراجم *، فكان مبدأ دبيب التفرقة في الصفوف المتآلفة .

حادثة أخرى قاسية بين القبطان طاياد ومعمي ولد الفاسية

كان بجوار معسكر خنيفرة ، معسكرات أخرى صغيرة ، بتراب زيان ، منها معسكر مولاي بوعزة ، ومنها معسكر كَلموس ، ومنها معسكر سيدي الأمين ، على نحو 45 كلم في طريق أبي الجعد . وكل هذه المعسكرات سمعت بما تصيده المعسكر الكبير بخنيفرة ، من أمثال بوعزة ولد محمد وحمو .

فلم تتصيد هي بدورها أحد الأعيان. لذا أصبح رؤساء هاته المعسكرات يبثون رسلهم ، وينصبون مصائدهم بكل المغريات ، لعلهم يتصيدون بعض من ينافسون به معسكر خنيفرة أو يساويه . وهكذا ما كان من رئيس معسكر سيدي الأمين . وإن كنا لم نسمع شيئا عن المعسكرات الأخرى . فقد ظهر أن رئيس معسكر سيدي الأمين وهو القبطان طاياد ، راسل أحد أولاد محمد وحمو ، ذاك هو معمي ولد الفاسية .

[وقد] ظهر لنا أن نلم بترجمة لهذا الرجل «معمي ولد الفاسية» ، وإن كانت مختصرة ، لنلم ببعض حوادثه ووقائعه العظيمة ، فقد امتحن امتحانا شديدا ، في سبيل وطنه ودينه ، وكانت حادثة هذا القبطان أو لوم أبيه ، وتوبيخه له ، على فعلته تلك ، مما أذكى فيه حماسا جديدا ، ونفورا من المعسكر الفرنسي ، نفورا لا رجعة فيه .

معمي هذا ولد محمد وحمو ، شهر بابن الفاسية ، لأن أمه فاسية ، تزوجها والده بفاس ، في رحلة رحلها للسلطان مولاي الحسن حوالي سنة 1300 . فلقي منه حفوة وبرورا ، وبرفقته أمين المحلة الزيانية السيد أحمد الشامي «من الشاميين الاعلام بفاس» . فتزوج هو هذه ، وتسمى زينب بنت محمد بوشبشوب ، ينتسبون للمليانيين الأصل الجزائري ، ويقطنون بحومة القلقليين . وأبوها مقدم الطائفة الحمدوشية تزوجها، فنسل منها هذا الولد ، حوالي سنة 1308 ، وتربى في أحضان أبيه وأسرته في النعمة والترف ، ومواكب العز ، والشرف صولة وجولة وفروسية . وكان من المغرمين بالخيل المطهمة ، حتى أنه يتفوق على اخوانه في اكتسابها ، وكان من أجمل الناس وأشجع الناس . ورافق أخاه باشا فاس للسلطان مولاي عبد الحفيظ . فأولع بالحضر والتأنق أكثر .

---

*- «أشأم من طويس ، طويس من مخنثي المدينة ، وكان يقول : ولدتني أمي يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفطمتني يوم موت أبي بكر ، وبلغت الحلم يوم قتل عمر ، وتزوجت يوم قتل عثمان ، وولد يوم قتل علي»اهـ مؤلفه .

*- «الشقي وافر المراجم ، مثل قاله عمرو بن هند . مثل بأخيه مائة وتسعة وتسعين من بني درام ، وواحدا من المراجم . شم رائحة لحم حين أحرقهم ، فظنها وليمة ، فجاء فقتله ، وأتم به مائة أخرى » ا هـ مؤلفه .

وأخيرا ، جاءت حوادث الاستعمار ، فوقف المواقف المشرفة ، جهادا وبسالة . كل ما حزب أمر وهجم شر ، حتى وقعت له حادثته مع رئيس معسكر سيدي الأمين ، فاتهم بميلانه لفرنسا ، فجعلها أحدوثة الأبد عند الفرنسيين . فنفض يده منها ، ونفضت يدها منه .

وقد استطار لبهم بتلك الوقيعة ، وحزت في نفوسهم ، وعقدوا له محاكمهم العسكرية ، فحاكموه غيابيا وحكموا عليه بالإعدام . فلذلك ، لما رجع جميع إخوانه إلى فرنسا ، لم يكن هو ليطمع في الرجوع . فبقي في قبيلته زيان يقاوم ويعارك كلما سنحت فرصة ، حتى توجهت المقاتلة لناحية آيت بومزوغ ، فكان معهم في ناحية بوكدجي ، ثم كان في ناحية إتزر ، وملوية ، إلى أن ظهر ثائر تافيلالت سنة 1337 ، فتوجه نحو تافيلالت ، سالكا طريق الأطلس المتوسط ، ثم الأطلس الكبير ، بقبائل آيت مرغاد ، لمدشر تاديغوست . فوصل في هز وبز وخيول وأنعام وفرسان من أصحابه الأبطال ، مما اهتز له ذلك الصقع ووصل فركلة ، وطال مكثه في هذه الناحية ما بين تاديغوست ، وكَلميمة ، وأسرير وكانت سنون كسني يوسف ، فضاع ذلك المال كله . كذا حكى لي أهل كَلميمة . فإنهم تعجبوا من الخيول والأنعام والفرسان الذين جاءوا معه .

وفي هذه الأيام اتصل بالقائد العربي السريري ، قائد أسرير ، وكان هذا من قواد المخزن ، ويحب أن يتظاهر بشيء من النخوة ، فكان لما ضاق به الحال ممن يمدونه بما يربأ به حاله ، وقد وجد فيه عونا وأنسا ، بمرافقته له كثيرا وغالبا . ثم لما ظهر بلقاسم النقادي بتافيلالت ، واستبد بالأمر ، بعد مهلك الثائر . بعد ذلك اتصل بالنقادي كثيرا ، وتصاهر معه على أخته تسمى رابحة . فكان يتردد عليه كثيرا وكان يعينه أيضا . وعلى كل حال فقد كان بهذه الناحية في كفاف ، وإن ضاع جميع ماله .

ولما احتلت تافيلالت ، وفر بلقاسم النقادي ، فر هو بدوره . وهنا بدأت الأزمة الخانقة . حكى لي ولده محمد ، أنهم فروا أولا لمحل يقال له توغاش ، ثم إلى أسمام ، ثم أمثوس ، كل هذه الأماكن بآيت مرغاد . فلم يطب لهم قرار ، بل ولم يجدوا ما يتبلغون به . فواصل هجرته إلى الركَ بآيت عطه . ثم النيف منها . وقد وقعت معركة عظيمة مع الجيش الفرنسي ، حيث باغتهم بمحل يقال له مصيصي وانقض عليهم . وكاد يؤخذ هو وبلقاسم النقادي ، إلا أنهم ثبتوا ثباتا ، فأطاحوا بالضابط دورياد Du r i a de . ثم الحصبة منها ، ثم تازرين ، ثم زاوية سيدي صالح بوادي درى ، ثم محاميد الغزلان ، ثم الحمادة . ومن يوم بارحوا تافيلالت ، والشدائد تزداد يوما بعد يوم . وفي هذه الحمادة ، تاهوا خمسة عشر يوما ، فلقوا فيها من الشدة ما ليس بعده إلا الموت ، بل الموت أرفق وأوفق قال لي ولده قطعنا هذه الخمسة عشر يوما على ثمرات 5 صباحا ومثلها مساء.

هكذا قدر لك يا معمي وأنا أعرفك ، وأعرف عيشك الرغد . وهكذا بعد بُلهنية العيش الرغد ، ومن خرفان الغنم التي تشوى صباحا ومساء ، والرغيف الأبيض الشفاف المروق بالزبد والعسل المصفى ، والشاي الذي تعطس منه الأنوف ، والجياد المطهمة ، والاتباع الطبيعة ،

والحور في القصور أيام القصور ، وفي الخيام أيام الخيام . ها أنت الآن بالحمادة تتضوع من الجوع ، والسغب وتتلظى في حر الهجرة ، منهوك القوى وفي تعب . ولكن من عرف من قصد ، هان عليه ما وجد «وفي سبيل الله ما لقيت» .

قال ولده : مرت علينا في هذه الهجرة متاعب . ولكن ولا كمتاعب هذه الصحراء التي أضفنا لقلة الزاد ، قلة الماء أيضا . فقد كان يمر علينا أسبوع ، فلا نرى فيه من ينفخ نارا ، أو يسقي أوارا . فوصلنا يوما بعد جهد من عطش ، كدنا نفقد فيها أنفسنا . وصلنا إلى هاته البير ، فرأيت امرأة بجانبها ، تجود بنفسها عطشا . قال فأخذت نعلي ونزعت لها شربة ماء ، فبمجرد ما تذوقت منه قطرة فاضت نفسها ، ثم التفتنا ، فوجدنا جثة أخرى هامدة ، هي أشبه بأن يكون ولدها . ولشدة ما نحن فيه ، من الجهد والجوع والتعب لم نستطع دفنهما ، فرغبت منا زوجة معمي أن ندفنهما بحفنة من تمر ، فدفناهما . قال ، وبعد ، قطعنا لهذه الصحراء ، نزلنا بإد أوبلال ثم آيت مرببط ، ثم آيت أحماد ، ثم تاغجيجت ثم الزوافيط ، ثم كَلميم ثم لثلاثاء أصبويات قال ، وبعد تجاوزنا للمحاميد ، دخلنا لقبائل سوس ، حيث كانت الجيوش الفرنسية تحوم لاحتلالها . فكانت مناوشات قبلية وبعض معارك ، غالبها كذلك يتزعمها رؤساء من سوس ، المنضوون تحت لواء مربيه ربه ، وكان معنا بلقاسم النقادي ، فبقينا سنة وتزيد ، فهجمت الجيوش الفرنسية ما بقي لها من بلاد سوس . ولكن لم يلق مقاومة تذكر . ففر مربيه ربه من أكردوس .

وكنا نحن مع بعض ممن هاجر من آيت حمو ، وآيت خباش . وكان الجيش الفرنسي يحسب لنا حسابا عسيرا ، فثبتنا في تاغجيجت شيئا ما ، ولكن دهمنا بجيش عظيم من ناحية أقا . وعند ذلك لم يبق لنا دفاع أمام القوى الهائلة الآتية من عدة نواح ، وماذا عسى تجدي قوتنا في غير بلادنا ، خصوصا وقد كانت تقع من بعض آيت خباش حرب مع فريق من هذه القبائل تسمى «ايشت » ، فاحتلوها ، وأجلوا أهلها عنها ، وبقوا فيها . فلما جاءت الجيوش الفرنسية ، تيقنوا أن لابقاء لهم في هذه الناحية بوجه من الوجوه ، ففر الجميع . فر النقادي ومن معه إلى آيت باعمران ، وفررنا نحن كذلك إلى تلك الناحية ، فتبعتنا الطائرات والجيوش الفرنسية ، فردت الجميع إلا نحن «معمي» وخاصته . فإنه لم يرجع . وزاد في هجرته لوادي نول ، حيث السيطرة الاسبانية . فالتجأنا إليها فآوتنا ، ثم مكثنا هناك سنتين ، فارتحلنا إلى الصحراء ، ثم لطرفاية سنة . وكان هناك رئيس للإسبان هو الجنرال الكَاباص ، فرحب بنا وآوانا ثلاث سنين ، ثم نقلت إسبانيا الوالد إلى تطوان سنة 1937. وبقي إلى سنة 1939 ، فنقلته الى القصر الكبير . وبقي فيه إلى أن توفاه الله به ، في 17 صفر 1371 ، يوافق 17 نونبر 1951 رحمه الله رحمة واسعة ، وتقبل أعماله وجعلها خالصة لوجهه الكريم . فقد بلى بلاء حسنا . وكنا نسمع أنه حاول مرة الرجوع إلى بلاده ، فأجيب بأنه محكوم عليه بالإعدام ، من قبل المحاكم الفرنسية العسكرية لاغتياله الضابط «طاياد» ، ورئيس مركز سيدي الأمين .

وعند وفاته بهذا التاريخ المذكور صادفني الحال في سوق الأربعاء ، بجوار القصر الكبير ونظر ولايتي القضائية ، تمتد حتى إلى عرباوة ، التي لا تبعد عن القصر إلا ب 6 كيلوميترات ، وعرباوة كانت إلى مقاطعة وزان ، وكان رئيس هذه المقاطعة ضابط ، كلونيل يسمى «بولي دي بارو» ، وكان أول أمره ببلاد زيان ، ثم بنى مجليد ، ثم بالصحراء ، بناحية فركلة بتاديغوست ، حيث استقر معمي كثيرا بتلك الناحية ، وبإثر وفاته ، جمعتني الظروف بهذا الكولونيل ، فأجرينا مذاكرة على زيان ، ثم استطردنا لحديث معمي ، فقلت له إنه لم يسمح له بالرجوع من طرف فرنسا ، فأجابني بأنه لما احتلنا تاديغوست ، أجريت مذاكرة في رجوعه ، مع الدوائر المسؤولة فرخصوا لي في الاذن برجوعه ، ولكن لما تخابر رئيس معسكر قصر السوق مع رئيس مركز خنيفرة ، كان الجواب بالرفض ، معللا بأن أخويه حسن وأمهروق يرفضان .

هذا ما حدثني به المذكور ، وأظن أن الرفض جاء من المعسكر الفرنسي بخنيفرة وتشبثوا بأخويه تدليسا . وقد تغنى شعراء الأطلس بمعمّي هذا . كاد معمي يقع في الشبكة ، أو وقع . بيد أن هذا السر أو سر المراسلة تفشى بسرعة أكثر من سر أخيه الأول .

تفشى سر مراسلة معمي لرئيس مركز سيدي الأمين ، القبطان طاياد ، وبلغ إلى وقر والده ، بطل الأطلس ، فوجه له ذات يوم ، حتى كان بين يديه ، فصاح في وجهه: "أحقا ما عنك يقال وينقل ؟ قد حُدثت بأنك اتصلت بمعسكر سيدي الأمين فإن يكن كذلك فهو سخطي عليك ، السخط الأبدي ، المبعد من رحمة الله " . فأجاب :"كل ذلك لم يقع " ، وإن كانت بعض الامارات تدل على أن بعض ذلك وقع . ثم أراد أن يظهر لوالده كذب ما عنه يشاع ، وكذلك للقبائل التي تهمس فيما بينها بهذه الوصمة ، التي لا يرضاها .

ومن الغد أغذ السير في ثلة من فرسانه حتى كان على مقربة من معسكر سيدي الأمين ، فوجه لرئيسه القبطان طاياد ، أحد الفرسان ليأتي لملاقاته . فظن القبطان أنه جاء هذه المرة ليستيقن منه بعهود ، تُغنم من ورائها جهود ، لذلك طار إلى لقياه فرحا ، ظانا أنها الغنيمة الباردة أو الجوهرة الأمحزانية الثمينة ، التي يقدمها لمعسكر مكناس ، ينافس بها رئيس معسكر خنيفرة . ولكن ما كاد القبطان يستقر قراره أمام من كاد يعده كصديق جديد ، ما كاد يستقر حتى أطلق عليه أصحابه شئبوبا من الرصاص ت كه جثة هامدة . ثم أجهزوا على رأسه وقطعوها، فأسرع به معمي إلى والده ، وإلى القبيلة قائلا :" هذا رأس من تتهمونني بصداقته . فهل يستطيع أن يجعل كل المتهمين بصديقهم كما فعلت بصديقي ؟".

وقال الناس عنه آنذاك ، إن والده لم ينشط لهذه الفعلة التي هي كغدرة منه ودسيسة ، وإن كان قد رأى أن يقطع صلته به وبالمعسكر الفرنسي ، فليس على هذه الحال .

وأيا ما كان ، فقد انتهت هذه القصة بمن مات بها غصة . وعاد ولد الفاسية إلى صفوف المجاهدين ، والمهاجرين المغامرين من سنة 1917 إلى أن لقي ربه في 16 ربيع عام 1371 ، يوافق 17 نونبر 1951 ، أي مدة أربع وثلاثين سنة ، ولعلها كافية في أن تجعله من الشهداء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

طويت صحيفة معمي ، ولد الفاسية بانضمامه إلى أبيه وقبيلته المجاهدين ولكن الولدان الآخران اللذان إنضما لصف المعسكر الفرنسي ، فتح ثغرة بل هوة سحيقة[1] ، كان العدو يستريح من مجابهة المجاهدين لأنه سيكلهم إلى بعضهم بعضا . وهذا ما كان بالفعل . وجاء مصداق قول الله تعالى "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم "[2] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه إبن عساكر في التاريخ "ليت شعري كيف أمتي بعد حين تتبختر رجالهم وتمرح نساؤهم وليت شعري كيف هم ، حين يصيرون صفين صفا ، ناصبي نفوسهم في سبيل الله وصفا عمالا لغير الله" . وهذا ما كان فقد انقسمت صفوف المجاهدين لصفين ، صفا نصب نحورهم في سبيل الله ، وصفا عمالا لغير الله .

فقد قام منافسون للأخوين المذكورين من أبناء عمهم، وهم والعايدي وأخوه موح وعقّى وابن عمهما معمي ولد الحاج حدو ، قاموا يصرخون في القبائل ويحملون حملة شعواء بدون هوادة لاستنصار القبائل على "الحسن" بدعوى أنه رجع لصف العدو. فصارت تعقد جموع وجموع من كل القبائل ، فهؤلاء يحرضون على نصب العداء لأولائك ، وأولائك يتبرؤون مما ينسب إليهم ، وها هي الليالي حبلى .

وهذه ليالي الدهر حبلى أنينة ولادتها يوما وإن لم تكن تدرا

وذات عشية انطلقت الرصاصة الأولى بين الطرفين . لأدنى سبب تافه. فشبت نار حرب [3] شعواء بينهما ، أودت برجال من الطرفين عظماء . فمن طرف أولاد العم ، البطل الذي لا يصطلى له نار الشجاع المغوار ، موح وعقى ، ومن طرف أولاد محمد وحمو ، أخوهم البطل الوجيه حوسا "باشا فاس" سابقا . واستمرت المهاترات والمقاتلات سنتين كاملتين هما اللتان بقيت فرنسا في حربها مع ألمانيا ، ثم جاءت سنة 1919 ، فجاءت الهدنة بين ألمانيا وفرنسا وحلفائها، ووضعت الحرب أوزارها، فرفعت فرنسا من جديد لحرب زيان منارها [4] .
وهذا ما كان بالضبط ، فقد تفرغت فرنسا من عدوتها ألمانيا بتاريخ 11 نونبر 1918 ، يوافق

---

1 - صحيح أن استسلام أولاد القائد أحدث شرخا في صفوف المقاومة على المستوى القيادة ، غير أن نداءاتهم لوقف القتال لم ينل حظوة كبيرة لدى القبائل ، بل على العكس من ذلك صغرت في عيون الناس . وفي هذا الصدد يقول كَبوم الذي كان يحاربهم ما معناه : إذا كان العمل السياسي الذي قام به أولاد موحا وحمو قد أعطى بعض النتائج ، وفتح باب الأمل ، فإنه لم يغننا عن العمل الحربي . فقد بقيت قبائل زيان تحارب بشجاعة لا تتزعزع . وهكذا لم تقبل علينا أية قبيلة ما لم نهزمها بقوة السلاح " ، المصدر السابق ، ص . 187.

2 - سورة الأنفال : 45

3 - دامت حرب أبناء العمومة قرابة عامين (مايو 1918 - نهاية 1919) .

4 - نجح الفرنسيون في بذر الشقاق بين قادة زيان حيث أصبح الفتق غير قابل للرتق ، عند ذلك فقط انتقلوا إلى استعمال الوسائل العسكرية ، خصوصا وأن نهاية الحرب في أوربا مكنتهم من إعادة تجدد القوات والتوفر على الأسلحة ،انظر ، **Lyautet à Guerre Marrakech, 2 décembre, 1918;**
;carton n 45 Rapport n 397 ,AAE 3193.

12 صفر 1337 ، وشدت حيازمها لاحتلال قبيلة زيان ، وهي الجهة التي كانت تسميها ناحية أم الربيع أولا . هذا ما كان من عزم فرنسا . وقد أحست زيان بذلك ، خصوصا بعد انضمام من ذكر لمعسكر خنيفرة : بوعزة انضماما صريحا ، وأخوه إنضماما سريا . وكل ذلك لم يخضد شوكة المجاهدين ، فبقوا في مقاومتهم وكفاحهم . غير أن ركن أبناء العم والعايدي وأسرته صار يتزعزع ، فقد توالت عليه نكبات منها لأول المعارك ، مات أخوه موحى وعقى، وكان فارسا لا يصطلي له نار ، ولم تكسر له راية أبدا . ومنها أنه كان جمع ذخائره من مال ناض وعدة ، وحلي وحبوب ،كان ادخرها في مدشرهم المسمى جنان أمّاس، ولجأوا له بجميع مدخراتهم ، فلم يشعروا ذات ليلة حتى هوجموا من العدو بغدرة مبيتة ، دبرها بعض من لا خلاق من أبناء جلدتهم ، فما شعروا حتى فاجأتهم الرجال من داخل المدشر ، ففروا عن كل شيء ، فقلمت هذه الفعلة الشنعاء أظفارهم . فاتجهوا لناحية أخرى من قبيلة زيان ، ثم لم يزالوا يتزحلقون وينحدرون شيئا فشيئا من ترابهم ، حتى كانوا أخيرا خارج تراب زيان ، وفي تراب اشقيرن ، القبائل التي طالما تطاحنوا معهم قتالا ومحاربة ، اشقيرن التي طلت بينهم دماء، ودماء طيلة حوالي أربعين سنة . وقد خفف من حدة العداوة التي بينهم ، هجوم الجيوش الفرنسية شيئا ما ، بل خفف وخفف . ولكن ما دامت الكفتان متساويتان والاعين متباعدة ، فقد يمكن ذلك ، وحيث لا يحتاج واحد لآخر فينشد كل :

كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

أما إذا فقد كل هذا ، وكان أحدهما ولاء يلجأ إلى الآخر ، ويلز له ، فلابد من المغاقر والملاقر ، وهز الأكتاف ، وامـاع المنديات من الطرف المرتكز على ترابه وبلاده ، إلى الطرف اللاجئ ، أو الفار في نظره .

وهذا مع انتباههم من الصدمات التي أشرنا لبعضها من قتل أبطال لو العايدي ، كأخيه ، وابن عمه ، موحى ولد حمو بوحسوس ، ثم ولدان آخران ، هما حمو والحاج ، في معركة تاملاكوت ، واقتحامهم هذا المدشر عنوة ، وشقيقه محمد ، استشهد في معارك مع الجيش الفرنسي في طريق التموين قرب سيدي الأمين .

كل هذا جرى لوالعايدي ، وأكبر منه هضم جنابه ، من طرف اشقيرن لذا ها هو:

والعايدي يساوم في الميدان .

للأسباب المتقدمة ، ضاقت الأرض بما رحبت بوالعايدي ، وإخوانه ، فصار يفكر في مد يده إلى المعسكر الفرنسي بخنيفرة . ففي 24 محرم 1338 ، يوافق 20 أكتوبر 1919 ، صدرت أول رسالة مشؤومة من والعايدي لرؤساء معسكر خنيفرة .

وتوجهت رسائل من الأول إلى الآخرين ليعينوا له موعدا للقاء بينهم . هذه المراسلة لم يطر لها رؤساء معسكر خنيفرة فرحا ، كما طاروا لمراسلة الأولين السابقين . فلذلك لم تكن

بوادر سارة لوالعايدي ، في هذه المراسلة من الرئيس المسؤول بمعسكر خنيفرة ، وإن كان بعض الضباط يهشون ويبشون لوالعايدي . فكان من هذا القبيل ، ضابط يقال له "دالجى" ، ومن المعاكسين ، الضابط سعيد كنون وآخرون . ذلك أن رئيس المعسكر يعلم أن أبناء العم لا تتراءى نارهم ، وأن إجتماعهما ، لابد أن يسبب لهم مشاكل ، ولا داعي لذلك لأن شوكة والعايدي قد خوضدت ، والقوة ارتكزت أو كادت بيد المنافسين لهم ، حسن وإخوانه الذين اتضحت ميولهم للمعسكر . وأيضا أولاد محمد وحمو المذكورين ، انضموا للمعسكر بدون أي اشتراط يشترطونه ، في حين أن والعايدي ربما يشترط شروطا ، وأهمها أن يكون له مركز حكومي في زيان لا يبغي به بديلا .

راج كل هذا ثم راج ، وكان على رؤساء المعسكر ، لابد أن يقبلوا والعايدي ويضموه لصفوفهم ، ويفتح الله في تهدئة الأمور ، وتطمئن الخواطر والوفاق بينه وبين أبناء عمه .

وفي ربيع الأول 1338 دجنبر 1919 ، كان والعايدي في خنيفرة ، يده في يد المعسكر الفرنسي ، على غضاضة من الطرفين . دخل والعايدي إلى خنيفرة ، وإبن عمه معمي ولد الحاج حدو ، وأتباعهم وأشياعهم ، دخلوا وتركوا أموالهم من الأنعام عند حلفائهم الجدد إشقيرن ، على أساس أن تلحق بهم متى طلبوها . ولكن من سوء الطالع الذي جرى لوالعايدي ، في كل هذه المحاولات والماجريات ، من سوء حظه فيها ، أنه لم تكن تطأ رجلاه خنيفرة ، حتى تألبت اشقيرن على كل تلك الأموال ، وغدروه فيها ، فاقتسموها بينهم ، وكانت شيئا كثيرا . سألت ولده قايدي ، وقد كنت أتردد إليهم في مهاجرتهم، بل إقامتهم الإجبارية في مكناس ، أو غيره ، فسألته ، كم كانت هذه الأنعام ؟ فقال ، من الغنم اثنا عشر ألف رأس ، ومن البقر خمسمائة رأس ، ومن البغال ستون ، ولا مبالغة فيه ، لأني أعرف أكثر من ذلك عنده وحده ، أيام صولته ومكانته ، ولكن بعد هذه النكبات وبها يضيع الكثير والكثير جدا ، لذلك سألته عن الباقي فقط ، وكانت هذه من الصدمات أيضا .

أما إبن عمه معمي ، ولد الحاج حدو فإنه ترك أمواله عند بعض أصدقائه من ايت بويعقوب ، فحاول البعض من اشقيرن أو غيرهم أن يفعلوا مثل ما فعلوا بأنعام والعايدي ، ولكن الرجل الذي بقيت عنده وأسرته ، قالوا : "الموت دونها شهادة والله لن يصل أحد إلى ظفر منها أو كراع ، إلا إذا وطئ على جنازتنا" . وهكذا صمم العزم ، فلم يستطع واحد أن يخفر ذمته، حتى استقر صاحبها، فوجه عليها فجاءته ، في مأمن سالمة لم يضع منها كراع .

حل والعايدي بمعسكر خنيفرة ، وكان يعلق عليه أمل كبير من رجوع كل من يتزعمه

من قبائل زيان الباقية ، وغيرهم لأنه أحد الزعماء هناك . بقبيلة زيان. ولكن زيان بقيت في مقاومتها فلم يتبعه بادئ الأمر إلا أسرته ومن تيسر من أتباعه .

واستقبل من رئيس المعسكر بفتور شيئا ما . وكان والعايدي في طبيعته حدة في الأيام الأخيرة . فكان ثائرا على الوضعية كلها ، ويرى في هذا الانقلاب سبة له ، وأي سبة ، فكان يشترط على رؤساء المعسكر شروطا وشروطا ، وكان يجابهم بمكروه. فقد كان في حديث له مع رئيس معسكر خنيفرة ، سأله بعض الشيء ، فأجابه الرئيس بأنه لا شيء عندهم وقتئذ ، فكان جواب والعايدي :"الحمد لله الذي لم تترك لكم ألمانيا ما تعطون " .

وهذه حدّث بها الجنرال بْواميرو ، رئيس المعسكر بمكناس شيخنا سيدي الحاج عبد الرحمان ، وأنا حاضر حيث رجع شيخنا من زيان ، وطلب التخفيف من القساوة التي يعاملونه بها من نفي ونحوه .

هذه المعاملة التي كان يعامل بها والعايدي رؤساء المعسكر ، حيث أن السابقين من أولاد القائد لا يسمعون منهم إلا المجاملة بل الطاعة .

وهذا الذي ذكرنا هو مما زاده تنفيرا منهم ، وعدم طمأنينة . ومع ذلك فإن رئيس المعسكر الكبير بمكناس الجنرال هريس ، أمر بمعاملته معاملة حسنة . وكان وصل الابان لتسمية حسن باشا على خنيفرة ، وزيان ، وأخيه أمهروق قائدا على ناحية منها أو خليفة ، فأوصى بعدم الاسراع بهذه التسمية ، أو الترقية انتظارا لما يجيء من والعايدي ، الذي لا يبغي بغير قبيلة زيان بديلا ، فكانوا يعدنوه بتوليته على اشقيرن وما إليها فيأبى .

وكان من جملة الحوادث التي وقعت في أيام العداوة ، والقتال ، أن كبكبة من خيل أولاد القائد ، سرت ليلة وانقضت على إحدى زوجات والعايدي ، فاختطفتها ، وأدخلها حسن إلى عياله ، فكانت غصة على والعايدي ، لم يتجرعها قط ، ولما مد يده إلى المعسكر الفرنسي ، كان يقترح إرجاع زوجته ، بل إرغام حسن لإرجاع زوجته . فكان يجاب بأن ما وقع بينكم سالفا لا دخل لنا فيه ، وحتى لو أراد التدخل ، فمن أين له أن يرغم "في هذه الظروف "حسنا /135/ . وشيء من هذا وأمثاله جعلهم يستثقلون ظله .

ولكن ربما واعدوه بأن يفتح ما بقي من الأطلس بيد المجاهدين ، وخاصة آيت إسحاق واشقيرن ، فيكون له مركز هناك ، يشبه أن يكون مثل ما لمنافسيه ، فيقال "مستريح ومستراح منه" . فيجب أن ينتظر حتى تستأنف المعارك ، عند ما تقلع الأمطار ، وتجف الأقطار .

دخلت سنة 1920 ، وقد بدأت الحياة تدب في فرنسا من المعارك التي انهكت قواها مع ألمانيا . ولم يبق أمامها إلا هذا الأطلس الجبار الذي لم تعمل فيه أدنى شيء ، ولم تأخذ ولا شبرا منه ، منذ احتلت عاصمته خنيفرة .

وقد استبدل رئيس المعسكر بمكناس الجنرال هريس ، بالجنرال بواميرو الذي أراد أن يحتل

هذا الأطلس ، في نظره في بضعة أشهر ، بل بضعة أيام ، فلنبدأ وفي يناير 1920 ، جاءت حملة عظيمة [1] ، من الجنود المختلطة ، فرنسيين ، وسنغاليين ، وجزائريين ، في خفارة ثلاثة آلاف فارس من البرابر المجاورين لمكناس ، من بني مطير ، وجروان وبني مجليد ، وزمور . جاءوا على غرة ، فباغتوا قبائل من زيان ، وهم المرابطون ، وآيت اسكَوكَو ، بضواحي مريرت والحمام .

فوقعت معارك شديدة . وحيث كانت الحملة مباغتة لحلاتهم "دواويرهم" ، وفي هذا الوقت تكون جميع أنعامهم غنما وبقرا وإبلا معهم ، فإن المباغتة أثرت عليهم ، في انجلائهم على بعض الأنعام ، فساقتها خيول الخافرين . وزادت الحملة العظيمة فأسست شرقي مريرت :

معركة تاقة إيشيعان [2] .

على نحو خمسة عشر كلم . فعدها الجنرال بواميرو انتصارا باهرا . فصارت خيولهم وجنودهم تتجول ، وربما تصل من أفود الجامع إلى المركز الأول ، الذي أسسوه يوم احتلال خنيفرة إلى هذا المركز الجديد ، وبالطبع كان بعض المرتزقة من البرابر في الجيش الفرنسي . وهؤلاء يغريهم حب الظهور والطمع في استيلاب بعض المارة ، وغنم بعض رؤوس الأنعام . فصارت منهم خيول تتجول على هذا المثال .

قصة الاسيراب وبطلها ابراهيم الدكالي .

وفي بعض تجولات هذه الخيول مرة ، تقدمت إلى نحو الحلة "الدواوير" ، وباغتت غابة هناك . فوجدت نساء من الاطلسيات يحتبطن . وعادة هؤلاء البرابر ، أن النساء يخرجن للاحتطاب ، ولا معرة عندهم في ذلك . وتخرج الشابة والعذراء وغيرهما .

وجدت الخيول المتجولة هذه الفيتيات الزيانيات اللائي :

يسلبن ذا اللب حتى لا حراك له   وهن أضعف خلق الله أركانا .

فكأنما ظفرت بالجواهر المكنونة ، والكنوز المدفونة واليواقيت المصونة ، فساقوهن إلى

---

1 – في سنة 1920 دخلت الحرب الزيانية الفرنسية مرحلة ضراوة وحشية . فعندما تم تلغيم صفوف القبيلة وإجهاض تحالفها ، أصدر المقيم العام أوامره للجنرال بْواميرو لاخضاعها (15 أبريل 1920) وكسر شوكة البطل الأسطوري موحا وحمو الذي يجسد الروح الوطنية الشامخة في المغرب . فقد حشد عددا كبيرا من القوات مدججة بافتك الأسلحة : – فرقتان متحركتان أي 10 كتائب مشاة .– 6 كوكبة من الفرسان

– 9 سارية من الكَوم . – 6 بطاريات مدفعية من عيار 75 مم والمدفعية الجبلية عيار 80 مم .

– سربان من الطائرات الاستطلاعية .– سربان من الطائرات المقنبلة . أنظر : Rapport mensuel de Protectorat, mars 1920, p. 63

2 – في 18 أبريل 1920 اشتبكت قبائل آيت سكَوكَو مع قوات الجنرال بواميرو على مرتفعات تقا إيشيعان . ويقول P. Belot في وصف هذه المعركة :

"كان القتال ضاريا بشكل منقطع النظير . ففي هذه المعركة التي ارتفعت فيها المجابهةإلى درجة اشتباك الأجسام ، كان الإنسان يستطيع أن يشاهد الزيانيين وهم يحاولون أن يستولوا على مدفع رشاش عن طريق مهاجمته بالخناجر". المصدر السابق ، ص 41 .

المعسكر ، وكل منهم أمام رئيس يختال مِفَر مِكَرٍّ ، ولا تخلو الميادين المغربية من ذوى النفوس الأبية . وها نحن نرى أحدهم يظهر شهامة في هذا الموقف ، ويذود عن العرض والشرف ، حتى لا يمس من الرجال الأندال بسوء وليقع ما [illegible] .هذه الشجاعة والشهامة تأتينا ، هذه المرة من أحد الجنود "العساكرة" ، الذين في صف الجيش الفرنسي ، وهو البطل الدكالي ابراهيم .

فإن هذا البطل أخذته غيرة على الفتيات الزيانيات الأسيرات ، وفكر وقدر أن يمنعهن من الأيد الأثيمة الرجسة . فكر ، وقدر ، فنفذ الفكرة ، ولا أطيل بوصفي لها ، لأن الأخ العلامة القاضي سيدي محمد النتيفي عنده رواية فيها ، أخذها من أفواه من عاشوها بذلك الأطلس ، أيام إقامته ثمة . فلنستمع له يقول ، من خلال رحلته ،"ثنايا الأطلس وزيارة منابع أم الربيع" بتاريخ 13 حجة 1331 يوافق 8 أبريل 1933 قال في تغيير يسير واختصار : "مررنا في طريقنا على تاقة ايشيعان ورووا لنا رواية البطل الجندي الذي من أجل الذود عن الشرف أذل الأقران . بينما البطل المقدام ، يتضجّر مما يراه من استيلاب المحتل لأوطان الإسلام وغاراته على الحرم والمال والأنعام .

وفي يوم من أوائل سنة 1920 رآى هذا البطل الغيور كتيبة خرساء، انفصلت عن المركز لاصطياد الأنفس ، التي لم تكن جريمتها إلا أنها تدافع عن شرفها ، وتذود اليد المستبدة عن أوطانها :

لم تلبث الكتيبة ، حتى أتت بغنيمة ، هي سرب من ذووات الجلال ، وربات القرط والخلخال ، وجاءت بهن إلى الثكنات أسيرات ، بعدما كن في عزهن كالأميرات .

فكر الجندي البطل ، فيما يجب أن يفعله إزاء هذه المأساة المؤلة ، أيرتاد السلامة ويتركهن لأراذل الاجناد ، يعبثون بهن فتبيت الإنسانية منكمشة ، في ثوب الحداد ، وتفتض أبكار لم يطمثهن إنس ولا جان ، وينشد إن تحقق هذا وكان :

حب السلامة يثنى هم صاحبه عن المعالي ويغر المرء بالكسل

أو يثور ، ولو أدى إلى التضحية ، فهي شريفة نقية :

فإن نال عزا عاش في الناس سيدا وإن مات قال الناس بالغ في العذر

بدت هذه التموجات ، وهذه العوامل تنبعثان من قلبه ، وتغريانه على مصادمة الواقعة الرهيبة ، التي تنشق لها المرائر ، بأسرع ما يمكن ، قبل أن تذل الحرائر ، ولا تبقى أي فائدة بعد ، إذا انتهكت حرمة سعاد ودعد .

كان علال الدكالي ، يدبر خطته بحزم وثبات ، من دون أن يظهر حتى في ملامحه ما يدل على أنه ينوي أي شيء ، احترازا من أن يستطلعوا شيئا ، فتفوت الفرصة . وها هو ينتظر لتنفيذها ، مغيب قرص الشمس ، ليكون له الليل خير معين يشد أزره ، ويكتم سره . خرج علال بالأسيرات ، وقد أعد لكل عدته ، يستعرض قول الله تعالى :"إن الله اشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ". الاية . فلم يكن يفارق المركز بيسير حتى أحس به القوم ، وتلاحقوا به

، وكادت تتناوله أطراف السيوف فتقهقر أمامهم ، في حين أشار على النساء يتقدمن ، حتى كان وراء جميعهن ، فحشر بندقيته بمفتي النار ، والباعث للأعداء الدمار . فصار يلتقط رؤوس الفرسان ، ويفتت فلذات أكباد الشجعان ، وهو في كل ذلك متوار بين أشجار السنديان (شجر البلوط) والعرعار، فانجلت المعركة عن عدد من قتلاهم وثلة من جرحاهم .

ولم يصب بطلنا بأذى ، بعدما كان شجي في حلق الأعداء ، وفي أعينهم قذي. وأغذ السير بالأسيرات إلى أهلهن آمنـــات . فاجتمع رجال على إكباره ، وإجلاله ،وأنزلوه المنزل اللائق بحاله . وبعد ذلك زوجوه بإحدى الفتيات تكريما ، وما بخلوا عليه بلقب تعظيما ، وهو لا يأبه بذلك لأنه يرى أنه أدى مهمة من المهام ، وذاد عن شرف العروبة والإسلام ، ولا طموح له إلا في زيادة الإنتقام ، من الأعداء اللئام ، فكان يشنها عليهم غارات إثر الغارات ، ويكبرها عليهم ثارات ، فيرجع بالغنيمة من الأسلحة موقورا ، وانضم له آخرون غيرة ، صار نشاطهم به موفورا ، واستمروا على ذلك شهورا ، فحز ذلك في أنفس الأعداء المفاسد ، فصاروا يدبرون له الحيل والمكائد ، وينصبون الحبل والمصائد ، فتفاوضوا في ذلك مع بعض من عصابته ، ليفعلوا الفعلة ، الفعلة النكراء ، وواعد وهم بالبيضاء والصفراء .

فخرج على عادته ، مع هؤلاء الماكرين لتقليم أظفار العدو الكسير ، وبينما هو في وسطهم يسير ، إذ انقضوا عليه فأوثقوه أسرا ، وقد موه إلى المعسكر الفرنسي قسرا ، وباءوا بغضب من الله خسرا ، بينما تهلل بها رئيس المعسكر بشرا ، أوقف الضابط رئيس المعسكر البطل الشاب ، وهو لا ينزعج من الموت ، ولا يهاب ، وعدّد عليه الأعمال ، وأخيرا أمر بشنقه بالحبال .

رجعت عصابة السوء إلى المداشر والخيام ، ولكن أين بطلهم ، علال فأجابوا نكرا ، أنهم لم يروه منذ أيام بالأحرى ، فطار خبر القصة كل مطر ، واهتزت الجماعة المسلمة لهذا الأمر الخطير . وللحين شهر الله بالغادرين ، ومكروا ، ومكر الله ، والله خير الماكرين ، فافتضح سرهم ، وظهر شرهم . واجتمعت القبيلة لتقول كلمتها في هؤلاء الخائنين ، فاتفقت الكلمة على قتلهم في السوق ، والتشهير بأهل الخيانة والفسوق ، وأن يقتل كل فريق من الأعيان قريبه الخوان . وبعد ذلك يطرح الجميع في حفرة من نار ، جزءً لما ارتكبوه من الخيانة والغدر والعار ، فنفذوا الحكم على هذه الكيفية الشنيعة ، وفاقا لما جاءت به أحكام الشريعة ، وانتصرت العدالة والفضيلة على الظلم في مظاهر من الرذيلة ، واحمر بذلك وجه القبيلة ، وخلدها علال الدكالي من أعماله العظيمة الجليلة " .

هذا كل أو أشهر ما جرى في مفتتح سنة 1920 وفصل شتائها ، وها هو الجنرال الجديد رئيس المعسكر بمكناس ، يستعد كما قلنا لشق صياصي الأطلس ، فبدأ بمركز تاقة إيشيعان هي مفتتح السنة ، وبدأ المعسكر الفرنسي ، يمد المعسكر بخنيفرة بالمؤن والمعدات الحربية . وفي 2 شعبان عام 1338 ، 18 أبريل 1920 جاءت قافلة تموين فاعترض طريقها ، بمنعرجات "تقط" وطاغات ، ثم البرج على 10 كلم من خنيفرة. وكان في خفارة هذه القافلة

بعض أتباع والعايدي وفيهم ولده "علي وعرفة" فأصيب برصاصة أردته قتيلا . وبالأسف لا يزال في مستقبل العمر ، له نحو 13 سنة . وهذه أيضا من سوء طالع والعايدي .

وفي فاتح شعبان 1338 يوافق 30 أبريل 1920 منها ، جاء بنفسه يقود جيوشا جرارة ليفتح بها الأطلس ، من الناحية الشرقية ، فتلقته جموع المجاهدين ، في منعرجات تقط والمنحدرات التي تليها إلى ربوة طاغات ، والبرج على جسر لأم الربيع، على نحو 10 كلم من خنيفرة ، في طريق مكناس . وكان في صف المعسكر الفرنسي بالطبع ، قبائل ناحية مكناس ، من زمور ، وجروان ، وبني مطير ، وبني مجليد ، وغيرهم الذين يكونون غالبية ، في مقدمة الجنود الفرنسية . ورغم المقاومة الشديدة ، دخل الجنرال بواميرو لمعسكر خنيفرة بالجيوش التي جاءت خلفه . واستراح بضعة أيام، بل لم يسترح ، ولكن كان يدبر خطته ، مع رؤساء معسكر خنيفرة ، وينتظر جيوشا أخرى تأتي من تادلا . وعندما اجتمع الجميع ، عقدوا العزم على المحل الذي تجمعت فيه قبائل من المجاهدين الزيانيين ، كآيت بوحدو ، وآيت إسحاق ، واشقيرن ، وذلك نحو زاوية آيت اسحاق "الزاوية الدلائية" ، على 35 كلم شرقي خنيفرة ، وما إليها .

احتلال زاوية آيت إسحاق

وفي 2 ماي 1920 كان الهجوم على الزاوية المذكورة من وجهتين ، وجهة من ناحية جيوش الجنرال بواميرو، والوجهة الثانية من ناحية جيوش معسكر تادلا، ينقدمها قبائل تادلا، أهل وادي زم وغيرهم ، وقد استغل الجيشان اشتغال الناس بحصاد محصولاتهم ، فهاجمتهم الجيوش مهاجمة عنيفة بقوة هائلة ورغم استماتة المجاهدين استماتة لا توازيها استماتة فيما تقدم من معارك ، فإن جيوش الاحتلال احتلت الزاوية ، وانجلى عنها سكانها القليلون ، ولكن حمايتها كانت من القبائل المحيطة بها الآنفة الذكر .

حادثة أولاد سمير

كان من جملة القبائل الآتية من تادلا قبائل دائرة وادي زم ، ورديغة ، والسماعلة ، وبنو خيران . وكان من جملة ورديغة فريق أولاد سمير ، أهل وادي زم . احتلت الزاوية ، وانجلى عنها أهلها . ولكن قبائل الزاوية من آيت إسحاق ، وزيان الهاجرون إليهم ، كآيت بوحدو ، واشقيرن ، وغيرهم المحيطون بها ، والنازلون بأطرافها ، على 2 كلم إلى 10 كلم من ناحية واومنا ، ومن ناحية تيغسالين وأمثالهما . هؤلاء بقوا في معارك مع الجيش الفرنسي بل مع حاميته من المخازنية ، الذين يرأسهم "بوعزة" ، وهذه الفرقة كانت شديدة الشكيمة لمغامرة بوعزة إلى حد التهور . وهذه الحامية كلها فرسان ،ف بقيت المعارك ، في الحقيقة بين البرابر أنفسهم ، المجاهدين من جهة ، والحامية ، ومن معها من معسكر الجنرال بواميرو القادم من مكناس ، من جهة أخرى . أما الجيش الفرنسي القادم من تادلا ، والقبائل التادلية التي معه ، فإنهم لم يكونوا في حرب شديدة تذكر .

فانتبذت خيل أولاد سمير في ناحية ، ولعلها كانت تحاول أن تتناول بعض أكلات الصباح ، فما شعرت حتى حلقت فوقها طائرة ، فأصلتهم بقنابرها ، ظانة أنهم من فرسان المجاهدين . فنكلت بهم ، وأطاحت بكثير منهم ، نحو 15 فارسا من أعيانهم ، ذهبوا ضحية ، مكرهين مرغمين . وهؤلاء أسماء من عرفنا منهم أو من أعيانهم :

الشيخ محمد بن صالح الحديداني السميري ، ابن عم القائد الشهير السيد محمد بن نبيقة ، ابن عمه قدور بن المزف ، هرماش بن عمرو ، المكاوي البرهمي ، الحملاني بن العربي بن قدور المحموشي، المعطي بن العربي بن قدور النسب ، محمد بن عبد القادر ولد الخراطية ، أسلاوي"دوار أولاد السلاوي بوادي زم ، الطيبي بن صالح السلاوي العبد لقادري ، ابراهيم بن العربي الحدادي العمراوي ، كلهم من أولاد سمير ، الصالح بن قدور الحساني القدوري ، محمد بن الطيبي بن الحملاني النسب .

فهؤلاء الذين أطاحت بهم الطائرة الفرنسية ، الذين هم في ركابها غلطا ، في حين أن طائفة أخرى تطيح بهم الفئة المجاهدة ، فكانت محنة قبائل تادلا شديدة . فقد أطاحت بكثير وبأعيان ، منهم الخليفة ابن حيدة ، أخ القائد الضاوي الخيراني ، فقد لقى حتفه في ما بين العرعار ، والحجرة المثقوبة على نحو 10 كلم من طرف المجاهدين .

وقد كان يرأس هذا الاحتلال من الضباط الفرنسيين ، الكمندار طيفوني Thevenez من جهة ، ومن الحامية القائد بوعزة. وهذا تولى كبرها . فإن المجاهدين لما ذهبت الصدمة الأولى ، صدمة احتلال الزاوية ، ابتعدوا عنها قريبا ، فاستعادوا نشاطهم ، وصمموا العزم على استرداد الزاوية ، 394 فدامت معارك ، وكانت عظيمة ، استشهد فيها كثير من المجاهدين من القبائل التي ذكرنا آنفا . وأعظم ما كانت تكون من حامية بوعزة المتهور المستهتر وانتشرت شمال خنيفرة وشرقيها ، فكانت جيوشهم تتجاوز الزاوية ب 15 كلم ونحوها ، مما عده الجيش الفرنسي انتصارا باهرا ، فذكره بعض مؤرخيهم في معرض الانتصار والافتخار . فقال "وقد استولينا في آخر ماي على خمسين كلم من خنيفرة" ، فقد تقدم الجيوش الفرنسية العظيمة الهائلة في مدة ست سنين، من جوان 1914 إلى 1920 ، خمسين كلم ، أمام خنيفرة تقدما وانتصارا باهرا مما يظهر لنا شديد مقاومة الأطلسيين ، على ترابهم ، واستماتتهم عليه شبرا شبرا.

تمركزت الجيوش الفرنسية بالزاوية الدلائية ، أو "زاوية ايت اسحاق" وبالطبع كان والعايدي في هذه المعركة في صفوفهم . وبذلك ظن ضباط المعسكر الخنيفري . أن مشكلتهم أو مشكلة والعايدي ومنافسيه ، "حسن وأمهروق" انحلت ، أو كادت بتوليته قيادة هذه الناحية الشرقية ، فأسندوا له رئاسة أو قيادة هذه الناحية وجعلوه كقائد عليها. وقصدهم أن يضربوا عصفرين بحجر. فكانت رئاسة أو قيادة هذه الناحية الأهلية لوالعايدي . أما من الناحية الفرنسية ، على جيوشها ومعسكرها ، فإلى الضابط القبطان سعيد كنون الجزائري .

كان هذا الضابط كما قدمنا شامخ الأنف، به زهو، في ريعان شباب، ونخوة انتصار ، وكان يميل إلى منافسي والعايدي "حسن وأمهروق" . من أجل ذلك كان التنافر ، ثم التراشق بالكلام المرسل في المجالس . وأخيرا انزلقت بالقبطان رجلاه ، إلى ناحية خيمة والعايدي ، الخيمة العظيمة ، ذات العمد الرفيعة ، التي تحجب العيال الزياني ، بل الأمحزاني الشهير ، بحسنه الرائع البديع الفتان ، اتفاقا أو إجماعا .

وحسن أسرة محمد وحمو المسماة «إمحزان» ، نساء ورجالا ، أمام صولتهم مما يضرب به المثل . فما شئت من خدود موردة ، وعيون كأنها المها ، وحواجب مقوسة ، وشعور سوداء ، مسبلة وقدود مايسات، كالأغصان ، نساء ورجالا ، لا يتخلف هذا في فرد منهم . هذه أوصافهم ، كانت شاهدها أباؤنا ، وشهدناها ، طيلة تعايشنا معهم ، إلى أن فرق الدهر ، أو الجيش الفرنسي بيننا . فصرنا نرى، متى تلاقينا ، في النشئ الجديد منهم ما تقضي منه بالعجب ، وتكاد يرميهم بالريب . وكل شكل منهم عن عنصره ينبي ، فيذكرك بقول المتنبي : .

حولي بكل مكان منهم حلق تخطي إذا جئت في استفهامهم فمن

انزلقت رجلاه به إلى تلك الناحية ، ناحية الخيمة ، وستورها منكشفة . فلما أحس العيال أو خدمته بظل القبطان سعيد ، مقبلا أسدلوا ستور الخيمة . ولم يكتف الضابط بهذه الجرءة ، أو الجريرة التي ارتكبها نحو والعايدي الغيور ، بل عد تستر العيال ، وإسدال ستور الخيمة نحوه ، وهو من هو، عده نقصا في حقه، أو عدم اعتبار له ، فأسر بهذا لبعض بطانته . فسرى ذلك السر إلى أذن والعايدي ، فاستشاط غيظا ، وذهب إليه توا ، وأسمعه من عجره وبجره ، فتوترت العلائق أكثر وأشد .

ثم هو ، أي والعايدي ثائر في نفسه ، وعلى الوضعية ، من حيث هي ، وخاصة يرى منافسيه ، تفتح لهم الأعين ، وتقبل منهم المقترحات ، ويكادون يتمركزون على قبائل زيان ، أو يسمون قوادا ، وقد تأتيه هذه التنبؤات من بعض ضباط الجيش الفرنسي المنافسين لكبرائهم .

وهذه أشياء تثير أشجان والعايدي ، مما جعله ذات غداة يزم رحيله ، رغم القيادة أو الرياسة المسندة له ثمة ، ورغم تخوف المعسكر من حدوث هجوم جديد ، من المجاهدين ورغم ورغم . رغم ذلك زم رحيله ، وقصد خنيفرة ، وترك فراغا عظيما في تلك الناحية المهمة الآن في صيف سنة 1920 .

كيف يتلقى المعسكر بخنيفرة هذه الصدمة من والعايدي ؟ فلولا رزانة الفرنسيين ، لكان جزاؤه ، هو الزج بالسجن ، ولكن تحملوا منه ، على مضض ، وبدأوا يفكرون في شيء آخر ، حيث لم تحل المشكلة بتوليته على الزاوية وما إليها. وفي الحقيقة ، لو كان والعايدي غير ثائر ، أو غير موتور على الوضعية ، وكان يريد التصالح مع فرنسا ، فقد كان يرضى بهذه التولية بل وبأقل منها .

وليت أمر والعايدي يقف عند هذا الحد ، بل بدأت المنافسة من جديد مع أبناء عمه ، وأتباع كل . فمتى وقع التلاقي إلا انفض المجلس ، عن مشاجرة ، ومشاكسة . وأخيرا

انفجرت قنبرة ، كادت تؤدي إلى حرب جديدة أخرى بينهم ، ذلك أن كبكبة من فرسان والعايدي ، أغذت السير ليلا لتقتص من بعض أعدائهم ، المنحازين إلى حسن وأمهروق ، وهما إدريس بنعقه ، وولد محمد . أغذوا السير إلى خيامهم ، بجبل أقلال ليفتكوا بهما . ولكن فطن بهم ، فتثاوبوا الطلقات ، ولم تقع حوادث في الأنفس .

فأصبح حسن وأمهروق بالمعسكر يُزبدان ، ويُرعدان للحادثة ، وقامت ضجة كبيرة ، داخل المعسكر هدأوا من روعتهما ، وربما أشاروا أو صرحوا لهما بأن المعسكر سيجعل حدا لهذه القضية . هذا ما كان من آخر ماي إلى مفتتح أكتوبر سنة 1920 .

وفي هذا الشهر نفسه ، أشاروا على والعايدي بالاستراحة من التعب الذي لقيه طيلة هذه السنين ، وحببوا له زيارة بعض المدن ، كفاس ، ومكناس ، والدار البيضاء ، التي دبت فيها حياة جديدة ، وعمران بالحماية ، وزودوه بشيء من المال، وهو له مصارف كثيرة ، بكل هذه المدن ونواحيها .

فسافر على بركة الله ، في أكتوبر إلى الدار البيضاء ، على طريق أبي الجعد ، فتلقاه معارفه بحفاوة كبيرة ، وأكرموا وفادته ، في أبي الجعد كثيرا . ثم واصل سيره للدار البيضاء ، فلقي مثل ذلك ، ونزل ضيفا على السادة اليعقوبيين ، سيدي محمد الذي كان له صيت ثمة ، وإخوانه ، واحتفلوا به ، وتزود منهم بمدخرات من الأثاث الذي ضاع له في هذه السنين بلارا ، وزرابي ، ورايط شيئ أدى ثمنه وشيء أدان به ، فرجع موقورا ، بكل ذلك واسترد بعض نشاطه ، بهذه الزيارة للمدن ، وكل ذلك من سياسة الفرنسيين ، التي تنبني على إغراءات ، واطراءات غالبا . وقضى نحو شهر ، في هذه السفرة ، ورؤساء المعسكر ، ينتظرون بماذا سيؤوب به والعايدي ، مما رآه من حضر ، وملذات ، فلعل آفاقا أخرى تتفتح أمام عينيه ، فتحد من سورته ، بل تلين من حدته ، وتسكن من ثورته .. ولكن كل ذلك لم يفد. فهو ثائر على الأوضاع ، وكل ما فعلته معه فرنسا ضاع ، فلم يبق إلا أن تمد له الأيد بالسجن أو نحوه

ترحيل والعايـدي .

وأخيرا فكرت في نفيه ، أو إبعاده ، ارتكابا لأخف الضررين ، معه ومع سياستها ، مع هذا الأطلس الجبار ، الذي لازالت للحرب فيها أوارُ .

فما كان اليوم 16 ربيع الأول ، من عام 1339، الموافق 28 نونبر 1920، ينبلج صبحه ، حتى استدعي لمعسكر خنيفرة ، هو وولده الوحيد الذي فضل رغما عن القرطاس ، المسمى قايدي وابن أخيه معمي ولد الحاج حدو ، استدعوا ، وقيل لهم ، إنكم مطالبون بملاقاة مع بعض كبار الضباط ، من مكناس ، الذين ستجدونهم أمامكم ، بأحد المراكز في الطريق . فركبوا خيولهم ، ولكن للحين كان بجانبهم خفارة كبيرة من الجيش الفرنسي ، يرأسه أحد الضباط . فاسترابوا من ساعتهم لهذه الخفارة وظنوها غدرة .

حكى لي معمي ، وهو من الأصدقاء ، قائلا : "لما عاينت هذه الخفارة تصاحبنا تحققت بأنهم لا يريدون بنا خيرا " . قال :"وكنا في اليوم الأول ، على فرساننا وأسلحتنا بأيدينا .

فكنت أحادي عمي والعايدي ، وأقول له يجب أن نثور فإننا مغدور بنا ، فلنثر ، ولنقاتل على أنفسنا ، ولسان حاله ينشد :

فللموت خير من حياة كأنها معرّس يعسوب برأس سنـــــان

فيجيبني : لا ،لا ، إنهم لا يمكنهم أن يخفروا ذمتهم فينا . فسرنا ذلك اليوم وبتنا في "الحمام أو مريرت، الشك مني ، ومن الغد ما كدنا نركب فوارسنا حتى جردونا من السلاح ، فانشد لسان حاله ثانية :

أمرتـــهم أمر بمنعرج اللـــوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

كان هذا الضابط الموكل بهم موتورا ، على هذه الفئة والعايدي وإخوانه ، لأن أخاه كان ضابطا قبله فقتله "موح وعقه" ، أخو والعايدي الشهير ببطولته وشجاعته . فلذلك مكر بهم في طريقه ، هذا إلى أن وصلوا لمدينة مكناس ، ومكثوا به ، استراحة يومين ، أو ثلاثة ثم زادوا بهم إلى آسفي ، فمكثوا به ثمانية أشهر .

لكن في مدينة آسفي ألفوا ، ثمة أحد المواطنين من الأعيان الذين عاشرهم وعاشروه بصفة مخزنية ، بل هو كأحدهم ، ذلك هو السيد عباس بن الأمين الشامي.

وقد تحدثنا عنه مرارا ، كان هذا آنذاك ، في اسفي ، رافق الكمندار لوكّلي الذي كان بمكناس ، الكاتب السياسي للجنرال هريس . فانتقل رئيسا لمقاطعة آسفي ، بصفته رئيسا عليها ، وأصحب معه السيد عباسا هذا . وأسلم الضابط العسكري المرحّلين ، أو المنفيين الزيانيين لرئيس المقاطعة الذي يعرفهم جيدا ، وأعمالهم ومقاومتهم لجيوشه الفرنسية . وزاد السيد عباس في تعريفهم أكثر . فلذلك لقوا مجاملة ومعاملة حسنة من رئيس المقاطعة ، كما استأنسوا بمواطنهم الأريحي ، السيد عباس الذي كان يأويهم إلى داره ، ويكرمهم مرة بعد أخرى . وفي خلال إقامتهم بآسفي ، كان رئيس المقاطعة نفسه ، يستدعيهم لبعض الحفلات كالأعياد ، وأخرى لمكتبه ، يتحدث لهم ليستطلع ما عندهم في ذلك الأطلس .

وفي رجب 1339 ، مارس سنة 1921 ، سافر لوكّلي إلى العاصمة التجارية في الظاهر ، ولكن في الباطن لحضور جمع لرؤساء مدنيين ، وعسكريين فرنسيين ، حضره الجنرال اليوطي ، يتناولون فيه أمر الأطلسيين المجاهدين عموما وبطلهم محمد وحمو خصوصا ، وأحضروا ولديه "حسنا وأمهروق" ، وطلبوا منهم إنهاء هاته الحرب من الأطلس التي يذكي جذوة نارها والدهم ، ورغبوا منهما أن ينضم إليهما "أي ولديه" والدهما بأي صفة شاء ، تخول له قائدا أعلى ، شرفيا ، باشا على خنيفرة وكافة زيان ، واشقيرن إلى آخره ، بل من حدود بني مجليد إلى تخوم ملوية العليا وإن شاء الراحة لكبر سنه ، ففرنسا عند إشارته ، في تقديم ، وقيادة من شاء ، ونزع وتأخير من شاء. وهكذا في وعود معسولة ، وربما نفذوها له حقيقة ، مثل ما نفذوا مثلها للباشا الاكَلاوي.

ولعل هذه الوعود أغرت الولدين بعض الإغراء ، على الثقة ، بأن أباهم سيستجيب لهذه المغريات ، فواعدوا اليوطي باستنزال أبيهما ، لا محالة إلى خنيفرة. وانفض المجلس أو المؤتمر ، على هذا كشيء محقق . فرجع لوكَلي ، الذي هو من المؤتمرين معهم يطير بها فرحا إلى آسفي . وما كادت قدماه تستقر له حتى وجه على الداهية والعايدي ، وابن أخيه معمّي ، ويبشرهما هذه البشارة ، وربما حتى باليوم الموعود الذي سيحضر فيه بطل الأطلس . ليتلاقى مع المقيم العام الجنرال اليوطي. فعندما سمع والعايدي هذه البشارة، في ظن لوكَلي ، والخرافة في ظن والعايدي ، أكد للحين لرئيس المقاطعة استحالة هذا النزول ، من بطل الأطلس ، لأنه يعلم تصميمه على أن لا تتراءى ناره ونار الفرنسيين بحال ، وأنه لا يستسلم أبدا ، فلينتظر الجميع الغد ، وإن غدا لناظره قريب .

جاء اليوم الموعود للاجتماع، بوادي زم ، فجاء كل المؤتمرين ، ومن جملتهم لوكَلي فانتظروا ، وانتظروا . ولكن الانتظار كان بدون جدوى . ومن المعقول أن يصرح لوكَلي لرؤساء المؤتمرين بفكرة والعايدي ، وبعد غوره ، ونظره ، مما جعل الأعين ، تفتح إليه مرة أخرى . وقد حزت هذه الحادثة في نفوس ولديه ، "حسن وأمهروق" . ولذلك ما كان يوم 17 رجب 1339 ،27 مارس 1921 من هذا الشهر ، ومن هذا العام حتى استشهد بطل الأطلس كما سيأتي تفصيله إن شاء الله .

أما والعايدي ، فإن "لوكَلي" لما رجع لمقاطعته ، استدعاه ، وأظهر له شيئا من العناية ، وزاد فقال له :"إني ذكّرت فيك المقيم العام ، ولعل الوقت قد جاء لتقترب من أطلسك ، إن لم تكن فيه بنفسه". وكانت محادثة لوكَلي هذه صادقة ، فبعد شهر أو نحوه جاء اليوطي إلى آسفي، وأعلم المنفيون ، والعايدي وولده ، وإبن أخيه بالحضور في هيأة حسنة ، فحضروا ، وكانت لهم مقابلة معه ، ووعدهم خيرا .

تحويل والعايدي إلى مكناس

وفي يونيه من السنة جاء الأمر بانتقالهم ، من آسفي إلى مدينة مكناس ، حيث رؤساء المعسكر المتولون تدْبير إفتتاح الأطلس ، وسيجدون من عند والعايدي بعض الإرشادات ، فتفتح له الأعين من جديد . وصل والعايدي إلى مكناس ووفده ، فتنفس خناقهم يسيرا ، لأنهم اقتربوا من أطلسهم ، وصار إخوانهم ، وذوو قرابتهم يزورونهم، فربأت حالتهم شيئا فشيئا

وأعظم من ذلك وأكبر وجودهم في مكناس، أحد البرابر الاقحاح ، وهو القائد الاريحيي الكريم ، السيد علي ولد حادة ، القائد علي بن محمد أمزيان ، يعرف بولد حادة ، القرواني الإعزمي ، أحد القواد القدماء ، من عقد الحماية ، من أشهر قواد ضواحي مكناس ، بل هو أشهرهم .وكان الذي ينافسه هو القائد إدريس ورحو المطيري . ولكن بقدر ما كان الأول يصعد كان الأخير يهبط . كان هذا القائد رزينا متأنيا كريما ، ذا أخلاق طيبة ، إلى عقيدة في الدين الإسلامي ، يتعهد المساجد ، وخصوصا إذا كان بمكناس ويتمسك بالطريقة التجانية ، عادة قواد المغرب الكبار ، ومع هذا كان ملحوظا عند الدوائر الحكومية لجده ، وثباته ورزانته

ولما استصدرت السلطة الفرنسية الظهير البربري [1] ، وجده الحال انفصل عن مراقبة دائرة مكناس لدائرة الحاجب . فكان برابر هذه الدائرة ، من بني مطير ، وقروان الشرقية ممن انسحب عليهم حكم الظهير البربري ، فيتحاكمون لغير القضاة الشرعيين .

فلما قامت الضجة [2] على الحكومة الفرنسية ، من طرف الوطنيين ، وطن طنين القضية ، وطار حديثها في الأندية ، وصار يقال ، إن المتحاكمين إلى الأعراف البربرية ، خارجون عن دائرة الإسلام ، وشبه هذا ، مما كان يشنع به على الحكومة ، وتحدث الناس أمام القائد بهذا ، وخز ذلك في ضميره ، وأنبه ، واحتقر نفسه أن يكون قد خرج من دين الإسلام ، "كما يشاع" ، فصار يراود الرؤساء الفرنسيين في استخلاص قبيلته من هذه الورطة ، وضمها إلى دائرة مكناس ، لتتحاكم إلى قضاة الشرع ، فأصمت الحكومة أذنها من رغبته ، فبدأت المشادة ، والمشاكسة . ولما أغلق عليه باب الحكومة الفرنسية ، تردد إلى الدوائر المخزنية، فتطارح على أعتابها ، مستصرخا ، مستغيثا ، حتى لقد بلغنا أنه ذات مرة ، قصد الوزير السيد الحاج محمد المقري ، وتطارح على قدميه يقبلها وهو يبكي ، ويقول " أنظر في لوجه الله وانقذني ، وقبيلتي من هذه المصيبة". فلم يجد عنده وسيلة لذلك . وأخيرا اكفهر الجو بينه وبين رؤساء الحكومة الفرنسية، واشتدت الأزمة بينهم ، وتراشقوا بالكلام البذيء . وفي أحد الأيام توجه لمراقبة الحاجب ، فوقعت مشادة عنيفة ، أدت به إلى مغادرة المكتب ، ساخطا ، ناقما ، غاضبا ، لا يملك أعصابه لا يعقل . وركب سيارته وهو في تلك الحال يكاد قلبه ينفجر . وفي أثناء الطريق انقلبت حاله ، وتفجر قلبه كمدا ، وغيضا ، فما كاد يصل إلى داره ، بمكناس حتى لفظ نفسه الأخير ، حوالي سنة 1336 رحمه الله رحمة واسعة وكفر له السيئات .

هذا القائد يعرفونه (أي والعايدي وأتباعه) ويعرفهم جدا ، للصلة البربرية وللجوار ، وربما كان بعض اتصال أو تعاون ، عند عقد الحماية ، وفرار البعض من جروان . وقد كان

---

1 – لم يكن" الظهير البربري" ، الصادر في 16 ماي 1930 سوى حلقة من حلقات السياسة البربرية التي اعتمدتها الايديولوجية الاستعمارية لترسيخ الوجود الفرنسي في المغرب ، ذلك أن الفصول الثمانية التي يتكون منها هذا الظهير تخرج المناطق الأمازيغية عن القضاء الشرعي . ففي هذه القبائل يتوزع النظر في قضايا العدلية بين رؤساء القبائل لزجر المخالفات ، وبين محاكم العرف الابتدائية والاستئنائية ، للبث في المعاملات المدنية والتجارية والأحوال الشخصية ، وأمور الإرث، في حين تختص المحاكم الفرنسية في القضايا الجنائية . يتضح من خلال هذا التوزيع أن المناطق الأمازيغية لا تخضع لسلطة المخزن المغربي ، ولا لنفوذ الشريعة الإسلامية ، الأمر الذي يعد تمزيقا لوحدة المملكة ، وخرقا صريحا لمعاهدة الحماية ، التي التزمت باحترام «الوضعية الدينية ، وحرمة السلطان ، ومكانته المعتادة ، وتطبيق الدين الإسلامي ، وصيانة المؤسسات الإسلامية» أنظر : الحسن بوعياد ، الحركة الوطنية والظهير البربري ، دار الطباعة الحديثة ، الدار البيضاء ، 1979 ، ص . 6-7 .

2 – تصدى المغاربة قاطبة من غير تمييز" للظهير البربري" ، لأنهم أدركوا أن قصد الفرنسيين هو سحق الجميع . ولذلك هرعوا كلهم إلى المساجد بالدعاء واقام الصلوات ، كما قاموا بمظاهرات في مختلف المدن والقرى مستنكرين ما قام به المستعمر . ولم يقتصر الغضب على المغرب بل تعداه إلى العالم الإسلامي ، نفسه.

أحد الأصدقاء لهذا القائد مهاجرا في زيان، هو الشريف مولاي علي بن عبد الواحد الامراني ، كما قدمنا . ولعل هناك توصيات من حكام مكناس إليه بهم .

وأيا ما كان ، كانت التوصيات أم لا ، فإن هذا القائد الاريحيي ، الكريم ، تلقى ضيوف مكناس الأطلسيين، بكل حفاوة، لا حفاوة ضيافة بل حفاوة تكريم ومواسة ، ومؤازرة ، بحيث لا يفارقون مجلسه ، ولا تفارق يده يدهم ، في طعام أو شراب ، أو مجالسة ، طالما مكث في مدينة مكناس ، وإن خرج فغالبا يخرجهم معه ويركبهم على مراكبه الخاصة .

وبالجملة ، فإنهم في مكناس ، لم يفقدوا إلا كلمتهم المسموعة في إخوانهم زيان. أما كل شيء فقد استردوه ، من هذا القائد الأريحيي ، وكان غيورا ، ودينيا ، وفيه وطنية رحمه الله .

وكانوا يستدعون للمعسكر المكناسي ، فيجرون معهم مذاكرات ، وربما يشمون منه رائحة عودتهم إلى بلادهم ، ووطنهم ، خنيفرة بشيء من النفوذ .

بيد أن معسكر خنيفرة لا يكاد يفتح آذانه لهذا الحديث ، لأنه يرى أن لا مقابلة لهم مع أبناء عمهم البتة . وقد أدت التجربة الأولى إلى ما تقدم ، فبقوا بمكناس قرابة 20 سنة ، لم يضجروا فيها ضجرهم في اسفي 6 أشهر ، ولا ضجر ، بل تدمرهم الشديد في سطات سنتين .

بقوا في مكناس من نونبر 1921 إلى سنة 1940 ، حيث بدأت الحملة الوطنية تدب في جميع أنحاء المغرب . وقد كنت أزورهم في مكناس ، كلما وصلته . فكنا نقضي فترة نجدد فيها ذكريات زيان ، وكنت أجدهم في نشاط وسرور .

وزرتهم مرة من محل ماموريتي ، بتاوريرت . وصادف ذلك اليوم اضطرابات حصلت بمكناس ، في ملاح اليهود ، في آخر سنة 1939 ، عند افتتاح الحرب العالمية الأخيرة . ووقعت فيها بعض الضحايا . والسبب في ذلك إسلام بعض اليهود . وأقص القصة لأني عشتها وباشرتها بنفسي .

ذلك أن أحد اليهود جيء لي به ، وأنا بمجلس القضاء بتاوريرت ، والناس محدقون به . فقيل لي هذا اليهودي أسلم . فقلت مرحبا به ، فأدخلته للمحكمة وأحضرت عدلين ، فشهدا عليه بالنطق بالشهادتين حالا . في حين أن بعض العدول أسر إلي بأنه لا يقع الاشهاد عليه إلا بعد الترخيص من الوزارة ، كما هو المجرى المخزني آنذاك . ولكن كنت دائما أستشكل هذا وأشفق على بعض القضاة ، إن وقع منهم هذا التأخير ، مع المعلوم من الشريعة ، وبالأخص في مذهب مالك من التشديد ، حتى أنهم ، أي فقهاءنا ، عدوا من ردة الخطيب يخطب على المنبر ، يوم الجمعة إذا جاءه راغب في الإسلام ، يهودي أو نصراني ، لا يمهله حتى يتم الخطبة ، أو الصلاة ، بل يجب عليه أن يقبل منه الشهادة ، ويسمعها منه حينا . وإن أمهله ارتد . فحصل لي عند حدوث هذه القضية لأول مرة ، في تتوليتي القضاء إلهام من الله بشجاعة ، فأمرت الداخل للإسلام بالنطق بالشهادة حينا ، ويتلقى العدول لها حينا . وقلت ماذا عسى يقع، هذا الواجب الديني ، أما الواجب الإداري ، فسنشرع فيه . فكتبت للوزارة بذلك ، بعدما حصلت على الإشهاد الشرعي . وبقي الداخل للإسلام بتاوريرت يحضر الجماعة والجمعة ، والناس يحسنون إليه ، واليهود صامتون ، لم ينبس أحد منهم بكلمة أو نبس. فلم توجد أذن صاغية بل نبس حقيقة . ووجدت الأذن الصاغية ، ولكن من ناحية أخرى ، أما من ناحية القاضي والمحكمة فقد كانا محل تقدير واذعان لهما .

والحقيقة تكشف بعد . ذلك أن هذا الداخل للإسلام جرته رجله ، ذات يوم إلى وجدة ، عاصمة المغرب الشرقي، الى تاوريرت إلى نظرها. فأراد أن يجرب تجربته بمساجد تاوريرت ، فصلى العصر في أحد مساجدها ، وبعد السلام ، نطق بالشهادتين قائلا : خرجت من الدين اليهودي إلى الدين المحمدي، فما كاد يبرح المسجد حتى القي عليه القبض وأخذ إلى المراقبة ، واستنطق كيف كان إسلامه ، ومتى وعلى يد أي قاض، فأجاب بالواقع . وللحين كلموا رئيس دائرة تاوريرت ، واستفهموه ، وربما عتبوا عليه، وأنسبوه للتقصير ، حيث لم يعلم من هو فوقه رئيس الناحية المشهور في الدوائرالمغربية، "قُنطارْ" اسم رئيس ناحية وجدة.

فما كادت الساعة الثامنة تصل من الغد ، حتى هتف لي رئيس الدائرة ، يطلب مني أن أحضر عنده ، فذهبت ، فاستقبل بهش وبش ، ثم قال ، إن رئيس الناحية كلمني البارحة ليلا في أمر مهم جدا . وهي قضية الداخل للإسلام ، الذي أسلم عندك ، في المحكمة منذ شهر . وهو لا علم له فاستغربها لذلك . فقلت له لا عليك ، أخبره بالواقع وأحكي له كل ما راج عن صدق . وفيما يرجع للإخبار فلنجب فيه بالحقيقة ، بأن تقول أن القاضي فعل اللازم ، وكتب للوزارة ، وها الكتاب تحت اليد . وهذه الماجريات كلها اتخذت ، وقد ترجم كتاب القاضي ، وها هو يصلك . فالماجريات هي التي عطلت . فأحسست أنه خرج من المأزق الذي كان فيه ، وأجاب بذلك . وبهذا انكشفت الدسيسة التي اتخذها اليهود مع المراقب، بتواطئهم معه على عدم إرسال كتاب الوزير . عند هذا الحد أرغم الداخل للإسلام بمبارحة وجدة . فغادرها وجاء إليّ ، وقص عليّ الحادثة ، وقال لي إنه قابل مراقبة دائرة تاوريرت، فأمرته باللحاق إلى مقره مكناس، وأعطاني رقم عنوانه ، لأوجه إليه الشهادة عندما يأتي الجواب من الوزارة . فغادر تاوريرت إلى مقره مكناس .

وبعد يوم أو يومين ، ترخصت أنا ، قصد الاستراحة ، وبينما أنا بمكناس إذ وقعت حادثة ملاح مكناس ، وكنت ضيفا عند والعايدي وأسرته ، فلجأ إليهم بعض اليهود، فلما ظن والعايدي أن الهيعة هدأت ، أرفق اليهود بابن عمه معمّي ، وولده قايدى ، وبعض أتباعهم . فما كانوا يتوسطون قبة السوق ، حتى هرع عليهم العامة من كل ناحية ، فلولا تصلب الزيانيين ، لفتكوا بهم . وقد حدثني معمي قائلا علمت ما لاقيته في عمري ، من كفاح وقتال . وأن هذه الليلة من بعض ذلك . وقد هممت أن أفتك قتلا ، بالبعض من أولائك الغوغاء .

وعندما كشفنا النقاب عن سبب هذه الحادثة ، تبين أن الداخل للإسلام في تاوريرت هو السبب . ذلك أنه قصد المحل المعروف بالهديم ، حيث تجمع الخلق المشعوذة ، والراقصة ، وغيرها . فجاء وجعل يتبجح بالإسلام الجديد ، فصادف من بعض اليهود كلاما نابيا ، حيث قال له سيلبسك المسلمون التاج ، أو كلمة مثلها . وكان بجواره بعض الجنود الطائشين ، فارتموا على ذلك اليهودي ، صاحب المقالة ، ثم انتشرت الفتنة، في كل اليهود الموجودين بالهديم . ثم تصايح العامة ، يتقدمهم بعض الجنود ، إلى الملاح ، وقد "شاهدت هذا بنفسي" . فهرع الناس إلى الملاح، ضربا وفتكا، وتكسير متاجر، ونحو ذلك، حتى تدخلت السلطة بقوة ، فصدت الثائرين أو المتظاهرين . ووقعت حوادث قتل في اليهود دون الجرحى الكثيرين .

في هذه الزيارة وجدتهم قدّ حصل لهم قلق وسئموا المقام في مكناس ، ولهم اتصالات ببعض الوطنيين ، وقد عادت لهم حياة أخرى يستشعرون بها روح الوطنية ، والغيرة والجهاد . واستمرت

عليهم هذه الحالة ، وربما خرجت منهم بعض كلمات أمام من بلغها بأكثر مما قالوا للسلطة الفرنسية ، وخصوصا أن أقاربهم من زيان يقدمون عليهم كثيرا فتقع الاتصالات . وفرنسة إن كانت تهتم بالوطنيين والوطنية في المدن ، فإنها تهتم لها بالبوادي أكثرولا سيما بوادي البرابر الاطلسيين . وهذا ماجعل السلطة الفرنسية تقلب لهم ظهر المحنّ ، فنظرت لهم نظرة سوأى .

نقله من مكناس لسطات

وماكادت تدخل سنة 1940 ، حتى رحّلتهم الى مدينة سطات . ولاشك أنها أوصت عليهم ، بحيث كانوا في تقتير من معيشة، والزمان زمان حرب ، والقوت بورقة التموين ، والتموين لا يكون الا على يد السلطة ، والناس فيه مابين محظوظ ومحدود ، وبلا شك ، كانوا هم من هذا القبيل المحدود .

وحكى معمي ، بعدما سرحوا قائلا : إن ما لقوه بسطات من هضم ، ونظر شرر ، وعدم مبالات ، من كبيرهم وصغيرهم ، جعلهم يتمنون الموت . قال وحتى: آخر ايامنا التي خرجنا من وطننا لاشقيرن ، قائلا وأنت تعرف عداوتنا مع اشقيرن ، أبا عن جد ، ومع ذلك فإن مالقينا من أهالي سطات، أشق وأثقل من ذلك. وأيضا محنتنا وشدتنا في أشقيرن ، كنا مرتاحين لها ، لأنها في سبيل الله والجهاد على الدين والوطن . فقلت له وهذا أيضا في سبيل الله ، لأنها هجرة ومحنة ، ومنفى ، سببه هو غيرتكم على دينكم ، ووطنكم فاحتسبوا أجركم فيها لله ، فهمهم ولم يفصح .

هذه المحن الكثيرة والعظيمة والشاقة والطويلة والمؤلمة ، وخصوصا أيام منفاهم بسطات ، أوهنت قوى البطل الثاني للأطلس والعايدي ، الأنوف المجاهد الفحل الشجاع . فوقف منهوك القوى مقصوص الاظفار ، بعدما كان النسر المحلق في الأجواء ، أشبه مايكون بما يقصه علينا الشاعر أبو ريشة شاعر الشام اذ يقول: .

أصبح السفح ملعبا للنسور فاغضبى ياذرى الجبال وثورى
إن للجرح صيحة فابعثيها في سماع الدنى فحيح سعير الخ..

هذه الابيات ، تصور لنا حال مجاهد الاطلس، مقاومته مكافحته ، مهاجره في سطات ، نكبات توالت ، وتتابعت ومارحمت ، فذاق منيته منها ليلة الاحد ، عشر قعدة وأحد وستين وثلاثمائة والف ، يوافق ثلاثين من نوفنبر 1942 ، رحمه الله رحمة واسعة ، عن سن تناهز الثمانين .

كان من معارف والدنا وأصدقائهم ، ثم لما اشتهر شيخنا العلامة سيدي الحاج عبد الرحمان بزيان ، انحاش هو وأسرته الى مدرسته العلمية ، فآواه هو وبنو إخوانه معمى ، وابن عقه ، وموح وعقه ، وتلمذوا له ، علميا ، وطريقة ونصروه ، وعزروه ، وبث فيهم روح الغيرة والديانية ، والجهاد ، فاستشهد من أتباعه في الجهاد، معظمهم ، ومن اولاده حمو والحاج ومحمد ، وأعظم شخصية رزيء فيها ، أخوه موحى وعقه ، البطل الذي لم تكسر له راية، ولا حدثت في معركته هزيمة . وهو المشهور الذي تغنى به المغنون ، ومن سوء حظ والعايدي ، أنه مانشبت هذه الحرب حتى كانت عليه صدمات ، فلأ ول حرب طوحت ببطل يقارب موح وعقه، وهو موحا ولد حمو بوحسوس ثم للحرب الثانية، طوحت بفارس الفرسان ، أخيه موحا وعقه ، ثم في اخرى ، بابنه حمو والحاج ، فكانت مبادئ معاركه مع ابناء عمه ، كلها تنذر بسوء العاقبة والمغبة . وهنا جاء المثل الشهير" قاتل بسعد والا فدع " .

وقد سبق أن استشهد له في المعارك الجهادية ولده محمد ، وابن أخيه حماني ،

وابطال له اخرون كثيرون ، كانوا تلاميذ لشيخنا سيدي الحاج عبد الرحمان . ومن أشهرهم علي نميمونة ، وكان هذا اذا ركب فرسه للجهاد يتهادى فرحا ، بلقيا ربه حتى لقيه كذلك شهيدا ، ومنهم موحا نمسعودة ، وعبد الخالق والاحسن ، وهادي ، وعلي أملياز ، والهواري بن علي ، وكثير ، أشباه هؤلاء بطولة وشجاعة. أما من دونهم، فيعدون بالمئين رحم الله الجميع . فلنقف عند هذا الحدث من ترجمة والعايدي، لنعود الى ميدان المقاومة الزيانية، والجيوش الفرنسية المحتلة . استمرت المعارك بعد احتلال زاوية ايت اسحاق، في جميع ضواحي خنيفرة، بل في جميع قبائل زيان ، شرقا وجنوبا ويسارا . فبينما المعارك محتدمة في ناحية الزاوية ، مع قبائل ايت اسحاق ، وايت بوحدو ، واشقرن من جهة ، اذا هي محتدمة في ناحية اخرى بناحية منابع أم الربيع ، مع ايت معي ، وايت عمو عيسى ، وايت شارط . وكان في هذه الناحية قائد المعارك معمي ولد الفاسية ، باشارة والده بطل الاطلس .

وبدأت الاغراءات تدب الى هذه القبائل بواسطة الرؤساء ، فصاروا يتنصلون من صفوف المقاتلة . فاستمرت المقاومة على شدها ، من احتلال الزاوية في ماي سنة ، 1920 وجوان وجوي وغشت . وكانت شديدة ، بحيث لم تتقدم الجيوش الفرنسية في كل هذه النواحي الا بضعة كلميترات . وقد قاومت فرق اخرى من زيان أشد المقاومة ، وهم ايت بومزوغ ، وايت بوحماد وايت الاحسن ، وكان يرأس هذه المعارك بعض أعيانهم ، مثل محمد وعلا نا نْزّعيم . ومثل حدو ونعلا الزعيم ، ومعمي ولد الفاسية ، وابن حدو من ايت بومزوغ. وفي خلال بعض هذه المعارك ، كان الجيش الفرنسي قد لايتحرك ، لأنه كاد يستريح بالتحريشات بين القبائل ، فلا يكون في الجيش جيش المعركة ، الا بعض الضباط ، وياللأسف مما يحدثه الخلاف والتنازع ، وصدق الله العظيم " ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم "

وفي غشت وشتنبر ، تقوى المجاهدون في ضواحي زاوية ايت اسحاق ، وتألفت هناك جموع من زيان ، واشقيرن وتداولوا في الخطة التي تكون أفيد من هجوم قوي ، وعلى اي المراكز، فاتفقوا على هجوم " قصبة اىخسان " الشهيرة ، حيث هي ، ومن فيها انضموا للمعسكر الفرنسي . فكان هجوم قوي ، وقعت فيه معارك وضحايا من الطرفين ، ففكر الجيش الفرنسي أن يضايق هذه الناحية الاشقيرنية ، حيث يلجأون الى مداشرهم ، من الخريف الى مفتتح الربيع ، ومداشرهم التي لا تبعد عن مركز زاوية ايت اسحاق ، التي قد احتلت ، وتركزت فيها القوى الكثيرة ،لاتبعد الا بنحو 15كلم . فجهزت جيوشها العظيمة ، من جهتها ، وأعدت القبائل، فرق المخازنية والمنضمين اليهم وهو" بوعزة " . أعدت له كل شيء ، فجاءت القوى من الطريق الكبرى على خنيفرة ، والقوى الاخرى ، تسربت من غروب الزاوية الى الزاوية . فهاجم الجميع هذه المداشر ، تيغسالين ، وما اليها فقاوم اشقيرن وايمزينتن ، ومن انضم اليهم ، من مهاجري زيان ، مقاومة المستميت على ترابهم ومداشرهم .

وبالطبع المداشر لاتأويهم مع هذه الحرب، اذ سرعان ماتدكها القنابر، فانفرجوا عنها ، والتفوا حولها . وبقيت مسترسلة في هذه الناحية جدا جدا وقصد المستعمر أن يضايقهم ويجليهم عن هذه المداشر ، الى رؤوس الجبال المثلجة .

وفي ربيع الثاني عام 1339 دجنبر 1920، هاجموا مسارحهم ، فلم يلفوا من يقاوم ، فاختطفوا لهم بعض الانعام [1] . وقصدهم ، افقار هذه القبائل .

جاءت سنة 1921 ، فلم تفتر المعارك ، حتى في فصل الشتاء ، وماذلك الا لأن الرؤساء المنضوين والمنضمين للجيش ، وعلى رأسهم " بوعزة " ، كادوا يريحون الجيش الفرنسي ، وقد كثروا في هذه السنة المنصرمة سنة 1920 .

فبينما المعارك في ناحية الشرق مع اشقيرن وغيرهم ، فيما بين زاوية ايت اسحاق ، والقباب من جهة ، اذا بها في الشمال الشرقي لخنيفرة من جهة أخرى .

وفي آخر يناير 1921 ، كانت معارك مع ايت بوحماد [2] ، من زيان في مداشرهم ايضا ، وقد قصدوا اولا مدشر أحد كبارهم ، المسمى ابن حدو . واستمر القتال معهم ، ومع ايت بومزيل طيلة يناير وببراير . واستمر القتال حتى الى ايت ايحند ، أهل مركز كروشن ، وطرف من تراب بني مجيلد ، أهل ملوية .

وفي جمادي الثاني ، 1339 فبراير 1921 ، عقد الجيش الفرنسي لواءً لبوعزة ، وجعل تحت نظره قوة هائلة من فرقة الى من هم الى نظره من فرق المخازنية ، ومن اليهم من المستلمين ، فتوجه الجميع لناحية الشرق ، نحو زاوية ايت اسحاق ، فباغتوا بعض المسارح ، ليستلبوا بعض الانعام ، ثم خيمت تلك المحال ، بما فيها في المناطق التي يكونون فيها ، في هذه الوقت المطير . مما جعل المجاهدين يضطرون الى الصعود لأعالي الاطلس ، من جبالهم حول القباب ، وامهواش ، ومااليها ، فحصل ضيق كبير ، وكان العام مطيرا ومثلجا .فصبروا وا لكل ذلك، ولم يتبعدوا عن مركز الزاوية الدلائية الا نحو 20 كلم من جهة الشرق ، أما جهة الجنوب ، فلم يبتعدوا الا بنحو 10 طيلة سنة .

ثم انتقلت المعارك من ناحية زاوية ايت اسحاق ، واشقيرن الى الشمال – فبعد المعارك التي خاضتها القوة الفرنسية او بعبارة أصح ، خاضها بوعزة في تلك الناحية ، هو وفرسانه المخازنية ، رأى رئيس المعسكر بخنيفرة ، باتفاق مع القوة العليا بمكناس ، أن يصرف وجهته الى قبيلة زيان نفسها . فتجب البداءة بالمركز الاعظم ، جبل تاوجكالت على نحو 40 كلم من خنيفرة، حيث ممد القوة الروحية والحسية المجاهدة ، محمد وحمو الزياني، الذي لم يرضخ ، لا بقوة ولاباستمالة ، ولا باغراء ، حتى مما حققه الجنرال اليوطي اليه بواسطة أولاده في مؤتمر وادي زم .

استشهاد بطل الأطلس محمد وحمو

ففي يوم الاحد ، 17 رجب 1339 يوافق 27 مارس 1921 ، بينما بطل الاطلس ، ذات غداة آمن في سربة ، لا يفكر في العدو ، ولا في حربه ، اذا بكبكبة فرسان تهاجمه ، بين حريمه، وأولاده . فارتمى البطل الغيور على صهوة جواده، وتسارع لرد غارات العدو المنازل ، الذي كان يصل الى الخيام والمنازل ، ويروع الصبيان والنساء الغوازل.

---

1 ـ 3000 رأس من الاغنام والابقار . انظر :

Rapport mensuel du protectorat , décembre 1920 , p 63

2 – بالاضافة الى تدمير مداشر هذه القبيلة ، اختطف الجيش الفرنسي 973 رأسا من الاغنام الماعز . انظر . **Rapport mensuel op cit, p . 63.**

فخب فيها شيخ السبعين ووضع ، وصوّبها الى الاعداء ، طلقات نارية ، وهو يقول خذوها " وأنا ابن الاكوع واليوم يوم الرضع ".ولكنها كانت له فيها خاتمة المطاف ، في تلك المصاف ، ليحصل له أجر الشهادات في عاقبة مسألة وحسن الخاتمة لحاله ، فهو شهيد دون أهله ، شهيد دون ماله ، لحديث النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه وآله : " إن من مات دون أهله فهو شهيد ، ومن مات دون ماله فهو شهيد " ، ثم الشهادة الكبرى في ساحة الوغى . قال الله تعالى " ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولاهم يحزنون".

فقد أصيب بطلقة نارية صادفته بين صدره ونحره ، دليلا على أنه استشهد وهو مقبل ، ولم يستشهد وهو مدبر. أصابته من يد أثيمة ، قذرة ، فخر منقذ الاطلس شهيدا ، وراح الى ربه سعيدا ، يتضرج في دم أزكى ، وأطهر ، " اللون لون دم ، والريح ريح مسك أذفر "، وحمل بأيد كريمة ، غير مهينة ، من رجاله المجاهدين ، يذرفون عليه الدموع السخينة ، ويودعونه بقلوب مكلومة حزينة ، لا أسفا على موته ، الشهادة التي طالما رجاها ، والمنية التي طالما تمناها ، ليقابل بوجه طاهر يتوقد ، وجه حبيبه ، محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كان يعبر عن ذلك طول حياته ، ولكنهم كانوا يذرفونها لفقدانهم سندا ، كان يسندهم ، وقائدا محنكا بآرائه ، وماله وعتاده كان يمدهم .. وأباً حنونا ، في المدلهمات كان يسعدهم .

استشهد رحمه الله يوم الاحد سابع عشر رجب الفرد ، يوافق 17 مارس سنة 1921 ، بمحل يقال له " أزلاك نتْزمّورْت "بجبل " تاوْجكالت "، شرقي جنوب خنيفرة، على نحو 35 كلم منها . وحملوه ، وعند ماشاع خبر استشهاده ، كادت تتفتت كمدا للقصة أكباد أولاده ، للكيفية التي استشهد عليها وبها ، وسوء سمعة ، ومعرة اكتووا بشهابها ، واستطارت القلوب لميتته ، وحزنت النفوس لمصيبته ، وهرعت اليه القبائل البربرية ، من كل صوب ينسلون ، وخفّت الجموع من أطلسهم ينزلون ، وتصالح في مماته الاعداء ، وتصالح في مركب جنازته الخصوم الالداد . وبكاه الكبير والصغير ، وشق عليه الجيوب ، العزيز والحقير :

فاذا رأيت ، رأيت نائحة وصا ئحة وطائحة لغير مراد

واتفق رأي أسرتهم ، على أن يدفنوه بمقابر الاجداد القدماء ، في مدشر تاملاكوت ، مدفن الاسلاف الاكرمين .

وهناك ، في ثنايا الاطلس المعمم باشجار السنديان ، والارز الجميل ، المكلل بتيجان الثلج الابيض اللماع ، يشق قبر في عرض شبر ، وطول ذراع ، لفارس المضمار ، وبطل الاطلس الجبار . ويوضع لحد من صخور ، على رفاة ذلك الاسدالهصور. وقد طالما جرّ ذيل أرضها الزاهي الفخور ، ودق عليها أوتاد خيامه الرفيعة ، ومشت خيلاء في قبابها نساؤه ، الفتانة ، البديعة ، وهي سامعة مطيعة. وواعجبا كيف تضم تلك اللحود ، على أعضاء ذلك الشجاع العنود . وطالما صك صيته الآذان ، وأذهل فكره الاذهان ، وكان شمس القبائل البربرية وضحاها ، وفي الهيجاء قطب دائرة رحاها ، فان شاء طواها وإن شاء طحاها × . كيف وهو الباسل المجالد، والمكافح المجاهد الذي بُهت الفرنسيون لمقاومته الشديدة ، وفتّت عدتهم العتيدة ، فاستمالوه بالرنان والنظار ، وواعدوه بالمراتب المستلفتة الانظار . فلم يلفت

نظره من ذلك ذهب ولامال ، وما أصغى لترّهاتهم ، ولامال ، استعاضة بما عند الله ومواعده الصادقة من حور وولدان عُربا أترابا متناسقة ، في جنات أغصانها متعانقة باسقة ، حتى طلّ دمه الزكي الطاهر ، على دينه المحمدي ، ووطنه الزاهر ، فخلدها في المفاخر للأوائل ، والاواخر ، وخص الجيل البربري الآتي منه والحاضر .

هذا ، وقد كان الفرنسيون رغم مقاومته لهم وعدم رضوخه لسطوتهم " يكبرونه ، ويعجبون لشهامته وشجاعته ، وأكثروا فيه من المقالات ، والمقامات ، وخصوا بعض كتابتهم في الاطلسيين باسمه ، كالضابط فرنْسوا برْجي في كتاب له سماه " موحا وحمو وقال فيه الكاتب الضابط مورس لوكْلي انه شبيه بتريبوم فيرا Triumvirat

قولة الضابط سعيد كنون .

" مما يؤسف له أن معركة وقعت في 27 مارس 1921 في تاوجكالت، ولكن سرعان ماكان مصابهم عظيما ، حيث رأوا والدهم ، الشيخ الهرم ، يسقط تحت رصاص أولاده ، الذي إنما جاء ليراقب مدى المعركة وآثارها ، فلم يستقر قراره على ربوة ، حتى رموه برصاصة جاءت عليه ، وكان مصاب أولاده عظيما ، وهدأ مصابهم تعازي حارة ، كان المرشال اليوطي هو أول من عزاهم في والدهم .

وفي صحيفة 199 قال : " كانت وفاته حادثا هاما ، وانتشرت بسرعة غريبة ، وكاد الناس كلهم ، آيت أمالو : زيان ، اشقيرن ، آيت سخمان ، آيت يسرى ، بني مجليد ، لم يصدقوها ، حيث أن هذا الرجل العظيم ، الذي انتصر على جميع القبائل ، لايمكن أن يموت ، على عادة الناس في موت الاكابر ، ولكن لما جاء أولاده ، حسن وامهروق ، وبوعزة ، وباعدّي ، وباقي أولاده الى جنازته بتا ملاوكت ، كانت دهشة عظيمة ، في جميع القبائل . وبكاه ايت امالو كافة واطفئت النيران ، وهدمت الخيام ، علامة على حزنهم الكبير " .

" ومما زاد في التأثر بموته ، حيث شاء القدر أن يكون قتل هذا السيد في معركة بالضبط ، خصوصا في هذه المعركة التي شارك فيها اولاده ، في صفوف الاعداء ، ومن أجل الكفار . وهذه الحادثة مضافة الى موقفه السامي الذي وقفه ، جعل في المعسكر الفرنسي أن تكون تعازيه لحسَن واخوانه عظيمة " .

وإن كثيرا من واحد تساءل ، وعن صواب ، هل موحى وحمو الذي بقي دون استسلام الى آخر نفس ، لم يعط أي اشارة او امارة عن شيء من صداقته لفرنسا؟" وأخيرا وأخيرا .

" وكان تشييع جنازته في تاملاوكت ، في وسط جمهور غفير من المستسلمين وغير المستسلمين الذي تصالحوا في مصابهم المشترك ".

ومن القصر الذي شهد عدة حوادث ، هو تاملاوكت ، مدشر لزيان على نحو 45 كلم شرقي خنيفرة، وهو المركز الأول للاسرة الامحزانية ، وبه مدفن أسلافهم وجدودهم الاقدمون ، ولكن بعدما وطأوا أقدامهم في خنيفرة وضواحيها ، صار مدفنهم بمدشر أروكو ، وقد شهد هذا القصر ، والمدشر عدة حوادث آخرها معركة أولاد العم أنفسهم ، اولاد 413 القائد من جهة ، وابناء عمهم والعايدي ، من جهة أخرى ، حيث هجم والعايدي وقومه هذا المدشر واحتلوه ، كما احتلوا بالقوة أيضا مدشر أفلْكتور ، من هذه المقبرة المتواضعة التي لايراها

المارة بسبب شجرة Genevrier ، ألوف من الرجال والنساء ، يتسلسلون كل قد غطى رأسه بقبّه وثيابهم ملطخة بالوحل الاصفر التقليدي لأيام الحزن ". وهنا في هذا الاطار الجاف والخلاب ايضا من الجبال الزيانية ، بعيدا عن كل لغط ، ومن الدسائس ، وتحت الحاد متواضعة ، استوذن له من الصخور المجاورة في إرقاد هذا البربري الابي الذي عرف الى حد وفاته كيف ، يرغم بل يأخذ رغما إعجاب جميع معاصريه ومن جملتهم أعداؤه " انتهت قولة هذا الضابط ، وان دلت على شيء فإنما تدل على عظمة الرجل الى حد بعيد وكفى .

نظرة اجمالية على حياة بطل الاطلس الاجتماعية .

كان هذا البطل أبيض ، مشرب بحمرة ربعة ، نقي الشيبة ، يتكلم بالعربية جيدا ، كريم المائدة ، طعامه غالبا الشواء والكسكوس ، نهاره في المؤتمرات والجموع من القبائل غالبا . وان خلا من الجموع فمع أصدقائه ، وان كان في قصره في خنيفرة ، فمع قواد المحلة المخزنية ، وخاصة رأسها الوالد ، وان حزب أمر، فيأخذ برأيهم غالبا ، ينتجع للمرعى بأزغار ، وهو ماكان غروب خنيفرة ، فيركب نساؤه البغال الفخمة ويتقدمنه للمنزل الذي يعينه في خفارة من أصحابه ، ويركب لركوبه ، وينزل لنزوله أصحابه " الشّناقطة " يكونون نحو المائة ، وقد يتجاوزونها ، وكلهم بخيامهم وعيالهم ، في رغد من العيش ، ويستميتون دونه عند الوغى . مراكبه الخيل الجياد المختارة- ينتجع في فصل الشتاء كما قلنا لأزغار، حتى يقارب مولاي بوعزة ، وربما وصل لمنْت ، ويكون انتجاعهم هذا كنزهة . فهم دائما في سهل منبسط ، والربيع والازهار والانوار باسقة ، في أحراجها وماشيتهم ، غنما ، ومعزا ، وبقرا ، وجمالا يتصايح أمامهم ، وقد يكسبون في كسبه من الغنم نحو 10000 رأس ومن البقر نحوالالف ، ومن الجمال الى 100 ، وينتجع في الصيف الى الجبال الباردة ، وغالبا يكون بأروكو ، على نحو 20 كلم شرقي خنيفرة ، حيث الماء العذب وخيامه رفيعة فسيحة تركض فيها الفوارس . وكان مزواجا كثيرا ، ومأن تلد المرأة ، مرة او مرتين حتى يعزل لها خيمتها وحدها ، هي وولدها واحد او اثنين ، ورغم وجود القاضي الشرعي بعاصمة خنيفرة ، فانه هو وأولاده ، بل وأسرته لايعقدون بالعدول والاداء على القاضي ، وانما هي الجماعة وكذلك في الطلاق ، وكن زهاء العشرين ، أعرف جلهن ، للاتصال بين الاباء ، والاتصال بين أقراننا من الابناء ، وللمصاهرة ، على بنت الخالة . ولم أسمع أنه طلق واحدة فيما أعلم ، وانما كان يعزل لهن خيامهن ، ولايقرب منهن بعد ، وهو شيء لم نتفهم مغزاه ، فيحكم عليه شرعيا . فنكله فيها الى الله والكامل من عدّت فلتاته " ، كفي المرء نبلا أن تعد معايبه " .

هذه نبدة اجمالية ، والله يجازيه على جهاده ، ومقاومته ، وغيرته ، والشهادة الاخيرة ، عنوان قبوله عند الله. .هذا وإسمه الحقيقي الذي كان يدعي به ، ويعرف من يكاتب به في الرسائل المخزنية وهي طابعه هو محمد وحمو . وأما موحا وحمو ، فانما كان يطلقه عليه اولاده ، وأسرته كحنان منهم عليه ، فأخذه منهم الرؤساء الفرنسيون، فأطلقوه عليه وعليهم أخذه الغير تقليدا لهم .

استشهد بطل الاطلس في 17 رجب 1339 ، يوافق 27 مارس 1921 . فمر شهر أبريل ونعيه شهر مارس ، ولم يقع شيء يذكر ، اشتغالا بمأساة محمد وحمو التي عمت أصدقاءه ، بل أعداءه كما مر . وفي شهر ماي بدأت المعارك من جديد ، في القبائل الزيانية ، التي لازالت لم ترضخ .

معارك ايت بومزوع بقيادة محمد وعلا ن الزعيم

هذه القبيلة او هذا الفخد من زيان " ايت بومزوع " ، من أشدهم شكيمة وأشجعهم استماتة ، ومن أغنى عمائر زيان غنما ، ونعما ، وافراسا ، وكان بها شجعان وأبطال فرسان ، من أشهرهم السيد بوعباد ، وقد استشهد في معارك " ورغوس " ببلاد السماعلة كما قدمنا .

ومن أمثلهم " محمد وعلا نازعيم " ، اي محمد بن علا بن الزعيم وآخرون ، وكان يعلم المعسكر الفرنسي شهامة هاته القبيلة ، وزعامة رجالها ويعلمها بوعزة ، ومن لفّ لفه ، الموالون للمعسكر الفرنسي . كانوا يعلمون ذلك حيث حوصروا في مد شرهم بوكدجي . وهو في الجبال الاطلسية المثلجة ، حوصروا فيها صيفا وربيعا وشتاء ، حيث لايستطيعون التعيش أيام الشتاء بأنعامهم الابمشقة ، وبتضحية منها كبيرة وكثيرة ، وكذلك كان فلم يستسلموا وبعد أن صفوا الحساب مع الزعيم الأكبر ، فلم يبق الا تصفية الحساب مع دونه أمثال من ذكرنا ، وقد جربوا معهم تجاريب قاسية لقوا فيها الموت الاحمر.

وفي شهر رمضان من السنة ماي 1921 ، تحركت لهم القوة الهائلة قاصدة مدشرهم الذي التجأوا اليه ، المدشر المسمى بوكَدْجي على نحو 50 كلم من خنيفرة ، شمال شرقي خنيفرة .

جاءت القوة العظيمة ، وفيها خيول بوعزة ورجاله من الزيانيين أنفسهم ، الذين تولوا كبرها ، وكادوا يريحون المعسكر الفرنسي من عناء وويلات الحرب . فتلقتها أبطال هذه القبيلة خارج المدشر ووقعت معارك عظيمة ، وأخيرا اضطروا لعظمة القوة ، اضطروا للالتجاء الى داخل المدشر ، فضيقوا عليهم الخناق وصبوا وابلا من القذائف الجهنمية ، رجالا ونساءا وأطفالا وأنعاما ، مما كادوا يفنون معه . فرأوا مغادرة المدشر واجبة ، فشقوا الجيوش المحدقة بهم ليلا بشجاعة نادرة ، وتوجهوا في منعرجات وتلال من الاطلس ، نزلوا محلا يسمى تاملال ، بين اجدير وبلادهم ، فتبعتهم قوة الشر ، وتقابلوا وجها لوجه ، يدافعون عن دينهم قبل دفاعهم عن حريم، حتى كاد الفناء يجيء على آخرهم، وردوا الجيوش على أعقابها ، واسترجعوا مدشرهم ، ولكن بعدما استشهد منهم أبطال ، ومن أعيانهم سعيد نتهامي ، حماني نكْنت ، من آيت بوزمور ، ابن احماد وهنيني ، حم الفيل ، من ايت ابن ميمون ، محمد وعسو ، من آيت بوزمور من آيت شارط ، محمد وعسو نشمرتل ، وقائدي علي ، وفضول ، وعلي بن عمر ، ابن يحيى نبوهو من ايت اللحياني ، ابن يحيى نيطو محمد ، عمر وعزوز ، ومن آيت بوعريف اخوان القائد أقبلي جماعة .

وفي جوان من السنة ، عاود العدو هجومه عليهم بقوة أكثر وأشد ، ووجدهم الحال قد وهنت قواهم هذه المرة لكثرة ماتقاتلوا ، وضيق عليهم واستشهد من رجالهم أعاظمهم ، وزاد استشهاد كثير ايضا هذه المرة .

ومن أعيانهم حماني نْعمر، من ايت بوزمور، وخوي نحلو وعلا ، ووَلدا ولد اعنسيس ، واسترسلوا في إطلاق المدافع على المدشر وخارجه بالطائرين فرأوا أن لإبقاء في المدشر هذه المرة أكثر .

وفي غسق من الليل ، اقتحموا الجيوش المحدقة ، وفروا جميعا رجالا ونساءا ، وصبيانا ، بجميع مايمكن من التخفيف ، وخرج النساء يسقن الرواحل ، والرجال يخفرنهن

من بعيد ، وبينما النساء يسرن في أدغال الغابة ، اذ بقبيلة ايت بومزيل ، تعترض سبيلهن ، من دون أن يخطر ذلك على بال واحد منهم ، رجالا ونساء ، لأنهم تركوا العدو ، فيما يظنون ، وراءهم تجاه مدشرهم بوكدجي . فاذا بالشر يواجههم من أمام . وكانت هذه القبيلة ، آيت بومزيل ، قد استسلمت ووالت الجيوش الفرنسية ايضا .

اعترضت هذه القبيلة النساء الهاربات ، بما تيسر من الرحيل ، وبالانعام التي فضلت عن الموت ، بالثلوج والضيق ، وشظايا القنابر، وطلقات الرصاص فساقت الانعام وجردت النساء حتى من ملابسهن .

فتلاحق النساء سلبيات من كل شيء . وعندما بلغ رجالهم هذ ا الخبر المحزن لم يبق لهم الا الفرار بأنفسهم على أفراسهم ، يسوقون النساء والاطفال المجردين . ولحقوا بقبيلة بني مجيلد ، في عمارة ايت الياس ، وهناك استقروا ماشاء الله ، على مضض من العيش ، وفي إحدى هاته المعارك، جوان 1921 أصيب حم نُعقّي، أحد أولاد محمد وحمو، برصاصة في ضواحي أروكو، فتضاير من جرائها شدة، لم يجد له علاج الى أن توفي في دجنبر 1921 .

من المقطوع به أنه لايستطيع كثير التعيش على هذه الحال ، وهذا هو الواقع ، فانهم بعدها ، مكثوا بضعة شهور ، صار البعض يتراجع ، لأن المعيشة ضاقت به، وعليه وعلى أسرته ولعل هذا أعذر قائم في رجوعهم .

فرجع الجل والمعظم ، واستمر الصابرون المحتسبون أجرهم لله ، فواصلوا هجرتهم وخرجوا من قبيلة زيان ، ثم الى قبيلة بني مجليد ، وكانوا في كروشن ، ببلاد ايت احند ، ثم كانوا في ملوية ، ثم كانوا في ايت يحيى ، " مركز تونفيت " ، دائرة ميدلت ثم واصلوا سيرهم لناحية الصحراء ، فكانوا في ايت مرغاد بنواحي كلميمة ، وفي ايت حديدو ، ثم توجهوا لناحية تزكزاوت ، فاستشهد منهم البعض ، ولم يبق الا القليل ، لطول المدة ، وضيق المعيشة ، وقوة المقاتلة والجهاد يوما بعد يوم .

وعند استسلام المجاهدين بتازكزاوت لم يبق منهم او من أعيانهم الا رئيسهم محمد وعلا نْزعيم ، وابن عمه حدو نعلا نزعيم ، فرجعوا في حالة يرثى لها .

كنت أعرف الرجلين ، وأعرف فيهما الفروسية والشهامة في الخيل المطهمة والخيام السوداء الرفيعة الاعمدة ، في الزرابي الزيانية الوثيرة ، والانعام التي تعد بالالآف ، وكذا المعز والبقر ، والوجوه البيضاء الموردة الخدود ، هذا ماأعرف فيهما ، وفي كثير من أمثالهما . وقد كانا يترددان لشيخنا سيدي الحاج عبد الرحمان ، وكان هما وكثير من هذه القبيلة ، هم أصدقاؤه بل عيبة سره ، فعرفتهما كما قدمت في وصفهما .

فبماذا رجعا من هجرتهما ؟ رجعا بالوجوه السوداء ، والنعال الرثة ، والثياب المزقة ، أو المرقعة ، وكل شيء ضحوا به في سبيل الله " وفي سبيل الله مالاقيت "

رجعا سنة 1352، هما والقليل الباقي من قبيلتهم ، فتوفي حدو ونعلا ، حوالي سنة 1374 يوافق 1934 ، وتوفي محمد وعلا حوالي سنة 1375 / 1934، وتوفي محمد وعلا حوالي سنة 1956/1375 ، رحمهما الله رحمة واسعة ، وتقبل اعمالهما وأعمال أمثالهما المجاهدين المهاجرين .

تحول معارك زيان الجهادية الى جهة القبائل الاشقيرنبة الشرقية

بانتهاء هذه المعارك التي كانت بقبيلة ايت بومزوغ ومدشرهم بوكدجي انتهت المعارك او كادت من بلاد زيان ، فلم يبق الاشذرات من حين لآخر في اعتراض سبل قوافل التموين ، وشيء قليل نحو اروكو ، بايت احند ، وكروشن ، على تخوم بني مجيلد وملوية ، وواقعة ترأسها الجنرال افرندافرك بنفسه ، نحو مزكوشن ، سنذكرها بعد .

نعم رجال من زيان، بل بعض قبائل كآيت بوحدو، وآيت اسحاق ، لازالوا في الميادين ، وكذلك قبيلة آيت ايحند " ايت يحند " ، والبعض من هنا وهنا هاجروا الى قبائل اشقيرن وغيرها ، وفي مقدمتهم معمّي ولد الفاسية .

دور أولاد سيدي علي أمهاوش في هذه الناحية وقيادتهم لقبائلها هجرة وجهادا

قدمنا نبذة على هؤلاء السادة المهاوشيين ، كترجمة موجزة لهم ، كمقدمة في هذا القسم الكفاحي ، وأرجينا انجاز تراجمهم الى القسم العلمي إن شاء الله .

وقلنا إن قبائل الاطلس المتوسط ، تنقاذ لهم ، وتسمع كلمتهم ، كشيوخ للطريقة الدرقاوية التي تقلدوها ، من الشيخ سيدي محمد العربي المضغري ، بعد ما كان اوائلهم متقلدين للطريقة الناصرية . ولعل اول من تقلد الدرقاوية هو الشيخ سيدي علي بن المكي الذي تلمذ لسيدي محمد العربي ، وصاهره فترعرعت الطريقة الدرقاوية ، في هاته القبائل ، واعتقدوا أو زادوا اعتقادا في داعيتها سيدي علي هذا ، بعدما كانوا معتقدين.فيمن تقدمه منهم .

ومن المشهور المعلوم ، أن واقعة مولاي سليمان الشهيرة ، يقال كانت بإغراء أحد هاته الأسرة ، وهو سيدي بوبكرأمهاوش ، وايا ماكان فقد كان لهم نفوذ وصولات وجولات ، ومن أعاظمها مامرّ لهم ، مع القائد محمد وحمو الزياني . وأخيرا- وأخيرا - ووحّدهم في الله دين وملة ، ووطد اسلام شعائره شاءت مشيئة الله أن يدخر لهاته الطائفة ، أو يمد لها في عمر بعض نويها ، حتى تحمل راية الجهاد ، وتدافع عن القرآن ، وحوزة الاسلام ، وتستميت في سبيل الله ، وتصبر على أحر من الجمر ، في مضض من العيش وتقتير، وصبر على القرّ ، والثلج في الكهوف ، والغيران ، أنفة أن تتقابل أعينهم مع أعين النصارى ، الذين يعدونهم من أعداء الدين والاسلام .

يصبرون على كل ذلك حتى يستشهدوا أشقاء إخوانا ، هم وأسرتهم فيعبق روح الجنة على مشاهدهم ، وفي مضاجعهم ، يشهد بذلك اعداؤهم ، من قبل أن يشهد به أقرباؤهم . استشهدوا ، او معظمهم في المعركة الفاصلة بتازكزاوت رحمهم الله . وهذا ماعسى يكفر الله لهم به من سيئات ، ويعوضهم بها حسنات ، ويرفع لهم بها درجات .

لم يزل سيدي علي كبير الأسرة الداعية ، يلقن الأسرة والقبائل محبة الجهاد ، والاستماتة في سبيل الله قولا وفعلا ، إقتداء بشيخه سيدي محمد العربي المضغري الذي قدمنا شيئا عليه في هذا الباب، وقدمنا استنفاره للجهاد ، عند حوادث بوذنيب سنة 1907/ 1325 ، وذهابه يقود ألآف المجاهدين لناحية تافيلالت ، وبوذنيب ، ولكن لما وصل الى مضغرة بقيت الجموع مجتمعة ، ولم تتفق كلمة على غزو ، مما أضر بالشرفاء أهل مضغرة ثم لما هجمت القوة الفرنسية عاصمة الاطلس خنيفرة ، واحتلتها جمع قبائله وتقدمهم الى ضفاف

وادي سرو ، وربطوا هناك ، فكانت تقع بعض مناوشات وفي رمضان 1332 غشت 1914 وقعت معركة في ضواحي خنيفرة ، حول جبل ابي موسى ، والحجرة المثقوبة ، وأبلوا فيها بلاء حسنا ، واستشهد من قبائله الكثير ، ولم يلبثوا بعدها أن انقلبوا الى بلادهم .

وفي هجوم الجيش الفرنسي على محمد وحمو في الهرى ، يوم الوقعة الشهيرة ، تحدرت كل القبائل الموالية له ، اشقيرن وغيرهم ، وخاضوا تلك المعركة مع زيان أيضا .

ثم بعض معارك عارضة من بعض المغامرين ، الذين يعترضون السبل لقوافل التموين . هذا ماكان أو بعض ماكان منهم، قبل أن تطأ أقدام الجيوش الفرنسية بلادهم الى سنة 1338 ، حيث احتلت الزاوية الدلائية " زاوية ايت اسحاق " .

ففي شوال 1338 ماي 1920، ابتدا المعارك مع هاته القبائل ، التي يحمل لواء مقاومتها أسرة سيدي علي امهاوش ، ولم تشأ القدرة أن يحضرها كبيرهم وداعيتهم سيدي علي ، فقد استأثر الله بروحه ، قبل ذلك سنة 1334 يوافق 1918 .

وكان مع أسرة أمهاوش أسرة أخرى درقاوية منضوية تحت جناحه ، وهي أسرة أولاد سيدي الهواري ، أبناء السيد المتبرك به ، الداعية الدرقاوية سيدي الطيب بن الهواري ، وكانوا كتلاميذ لسيدي علي أمهاوش ، وربما أخيرا شاء بعض أولاده يزاحمهم ، ولكن لم ينل ، واولاده هؤلاء هم سيدي محمد وسيدي عبدالمالك ، وسيدي نوح ، وسيدي الشيخ . وكلهم ، لهم ضلع في الجهاد ، وحث الناس عليه ، سيدي عبد المالك بالسلاح وسيدي محمد بالقلم والافتاء . وسنوفيهم ترجمتهم إن شاء الله .

معارك حول مدشر واومنا

واومنا ، مدشر بين الزاويتين ، زاوية ايت اسحاق ، وزاوية الشيخ ، في تراب ايت اسحاق ، على نحو 15 من الاولى ، وهو من المعاني التي كان ولايزال ، يلمح بها الشيخ الامام اليوسي ، بعد مغادرته للزاوية الدلائية . قال في المحاضرات ، وجرى يوما ذكر البيتين اللذين أنشدهما سيدنا بلال رضي الله عنه .

بعد استشهاد بطل الاطلس بيسر ، رأى المعسكر بخنيفرة أنه وصل الابّان، أو خلا الجو لتسليم القيادة لابنائه ، فبدأ أول مابدا باسناد الرياسة الكبرى لولده بوعزة على الفرق الخيالة والمخزن الذين هم منضوون تحت لوائه والرابطون على حدود اشقيرن ، بزاوية ايت اسحاق . وقصد واوْمنا ، جنوب هذه ، على نحو 15 كلم من جهة أيت يسرى ، أهل زاوية الشيخ وشرقا اشقيرن ، اسندوا اليه الرئاسة " فأراد أن يؤدي ثمنها ، فطار في خيله ورجله ومن انضم إليه ، الى هذا المدشر ، وقد لجأ كثير من أيت اسحاق وزيان المهاجرون اليهم فوقعت معارك شديدة ، استماتوا على مدشرهم أكبر استماتة ، وردوا العدو غير محتل له هذه المرة . ولكن في آخر شتنبر من السنة ، عاود الجيش الفرنسي بقيادة بوعزة الكرة عليهم ، فاحتلوا هذا المدشر.

اتجاه آخر لجبل مزكوش

بقي المجاهدون ، في طرف من قبيلة زيان ، على حدوداشقيرن ، من جهة شرقي الجنوب لخنيفرة ، فرأت الجيوش الفرنسية أو قائد معاركها بوعزة ، أن يوجه وجهة أخرى

ليتفرغ من زيان تماما في الجبل المجاور لهم ، وهو جبل مزكوشن . فشد الرحلة هذه المرة جنرال عظيم بجيوشه ، ومعداته الثقيلة ، وقصد هذا الجبل المسمى مزكوشن ، على نحو 35 كلم من خنيفرة ، هذا الجنرال هو افريد امبيرك .

وجاء يتقدمه بوعزة ومن انضم اليه ، فاحتلوا هذا الجبل ، وأسسوا فيه مركزا . وقد بدأ الضيق على اشقيرن يقترب كما بدأ المجال على القوة الفرنسية يتسع ، وشمت رائحة الانتصار بموت بطل الاطلس الجبار. وهذه قبيلة زيان لوت لواء الجهاد تحت طي جناحها، واستراحت الاعداء من ضرباتها القاسية وكفاحها، فوجب التفكير بمجازاة من تولاهم بتبكير .

باشوية حسن على قبيلة زيان وخنيفرة

وبعد هذا الاحتلال بأيام ، شد الرحلة الجنرال اليوطي ، مقيم فرنسا العام بنفسه الى المعسكر الفرنسي بخنيفرة ، ليجازي العاملين ، فينصب حسنا باشا لخنيفرة وزيان ، وأخاه امهروق خليفة له ، ويقلد أخاهم بوعزة وسام جوقه الشرف من نوع شوفالي وعند هذا الحد ، وفصل الشتاء مقبل لم يشأ الجش الفرنسي ، إلا أن يضيق أكثر على بقية أيت اسحاق ، وقبيلة اشقيرن نفسها ومن اليها .فشمروا الذيل لهذه الجهة الاشقيرنية ، فهاجموهم بقوة هائلة ، ألجأوهم الى تسلق الجبال المثلجة ، وسارت المعارك هذه المرة ، نحو الشمال في تراب أيت احند ، وأروكو ، ثم انحدروا الى ناحية شرفاء تاسكارت ، وتاسفلالت ، ومركز القباب عاصمة أيت مشان ، فقاوموا على هذه المداشر ، والمراكز اربابها مقاومة المستميت فقنبلوها عليهم بالمدافع والطائرات فالتهمتها النيران ، مما اضطر المجاهدين الى مغادرتها ، وتركها لشآبيب المدافع والنيران تلتهمها ، فتتركها قاعا صفصفا . وكان هذا في فصل الشتاء، حوالي شهر دجنبر، حيث يبتدأ الثلج الخاشف .

وما استطاعت القوة الفرنسية ، ومن معها ان تركز جيوشها ، رغم ذلك كله في هذه المداشر، والمراكز خوفا من انقضاض المجاهدين عليها ثانية ، لذلك عاودها أهلها واستقروا فيها الى صيف 1922 .

وقد دارت رحى حرب أخرى في آخر سنة 1921 ، حول مدشر واومنا المتقدم ، فبعد احتلاله لم تفارقه قبائل ايت اسحاق واشقيرن الا بنحو 6/5 كلم ، بقيت تقاوم وتكافح ، ولم تشأ أن تصعد للجبال الاطلسية ، واختارت أن تستميت على ترابها أفضل من صعودها للجبال . ولكن رئيس المعسكر الفرنسي بخنيفرة ، رأى أن يضيق عليهم ، عساهم يستسلمون ، فوجه لهم قوى كبيرة من خيول المخازنية وغيرهم ، واختطفوا لهم ماشيتهم ، فصمدوا في وجوههم ، ووقعت معركة طاحنة ، ثم بعد ذلك واصلت هجومها نحو جبل سيد سعيد ، على نحو 10 كلم شرقي الزاوية الدلائية ، "زاوية ايت اسحاق ".

احتلال قصبة موحا وسعيد

وهكذا استمرت المعارك ، الى مفتتح سنة 1922 ، حيث التفت القبائل الانفة الذكر ، على اولاد شيخها سيدي علي أمهاوش ، وأتباعه ، اولاد سيدي الطيبي الذين كانوا يزاحمون

اولاد سيدي علي أمهاوش في المقاومة ، كسيدي عبد المالك ، وفي الرياسة الدينية والدعاية للجهاد ، كالفقيه سيدي محمد الطيب. وقد شد الرحلة اليهم هذا الاخير ، ونزل في قبائلهم . فاحتفوا به والتفوا حوله ، كمرشد عالم ، وخصوصا آيت يعقوب وعيسى ، في حين أن أخاه سيدي عبد المالك يتجول في ناحية اخرى بقبائل ايت يسرى ، وهم ايت هودي وماإليهم ، أهل قصيبة موحى وسعيد، وما اليهم حيث ابتدأت التكهنات تروج بأن الجيوش الفرنسية ستتجه الي ناحية قائد آخر ، له صيت يقارب صيت محمد وحمو ، الا وهو موحا وسعيد الويرّاوي .
وفي شعبان عام 1340 يوافق ، 9 ابريل 1922 ، هيأ الجنرال افريد انبركَ قوة هائلة ، وهبط بها من ناحية تادلا ، تخفرها فرسان قبائل تادلا ، آيت الربع ، بني معدان ، دائرة بني ملال ، وبني زمور ، ورديغة ، السماعلة ، بني خيران من دائرة وادي زم . أما ناحية خنيفرة ، فجميع القوة العسكرية تخفرها القبائل والمخزن برياسة بوعزة . جاءت كل محلة من ناحيتها لاحتلال القصيبة " قصبة موحا وسعيد " . ولكن للمجاهدين اسلاك كهربائية روحية يتعجب منها ، فقد نقلت لهم اخبار هذه المحلات العظيمة ، التي تنوي احتلال هذا المركز ، فتقدم سيدي عبد المالك بن الطيبي الهواري فرسان المجاهدين ورجالتهم ، وهبط من مدشر " ناوور " مسكن القائد موحا وسعيد .

أما القائد نفسه ، فانه كان قد كبر سنه وضعفت حركته . جاء سيدي عبد المالك مستنهضا كل من يسمع له ، من قبائل هذا الدير ، واعترض سبيل المحلات بالمحل المسمى تيغبولا ، بين القصيبة وزاويةالشيخ ، على نحو 20 كلم من هذه ، في بلاد ايت بوملال . وفي ليلة الهجوم على القصيبة اختلف بوعزة مع الجنرال افريدامبركَ ، في الوجهة التي يتجهون فيها لاحتلال القصيبة ، وأخيرا غلبت فكرة الجنرال ، فاتجهت المحال من الناحية التي شاء ليلا ، وما انطلق الصبح حتي كانوا وجها لوجه أمام المجاهدين فتهافتوا عليهم من التلال والمنعرجات ، وأصولهم نارا حامية ، ضلوا فيها السبيل ، وفقدوا فيها التوازن وألجأوا فيها بوعزة الى رأس جبل ، يطل فيه على حافة كبيرة ، فقصدوه . ولكن كان في المعارك ذا مهارة وبطش ، فإنه لما عاين الموت المحقق ، في القاصدين نحوه، ركض فرسه فوثب به من أعلى الجبل ، الي الحافة السحيقة ، ونجا من الموت الاحمر ، وانكسرت المحلات شر كسرة ، وتشتت شذر مذر ، واشوى المجاهدون رجالا ، وفرسانا من المغيرين، ومنهم اخ لبوعزة ، يسمى باسّو: فقد بقي جثة هامدة، بين يدي المجاهدين، ولما عرفوه، أخذوه وأحرقوا جثته .

فانقلبت المحلة لزاوية ايت اسحاق ، وهناك اخذ بوعزة في تقريع رؤساء المحلات ، بما فيهم رئيسها الجنرال ، افريدابيركَ ، فلم يفه منهم احد امامه ببنت شفة ، مما جعله يشمخ بأنفه شموخا ، بلغ به اعلا قمة الكبر والعظمة .

لذلك فكر في رد الفعل وحده وبدون استشارة اي رئيس ، حتى الجنرال المذكور نفسه . فلما جن الليل أمر خيوله واتباعه بالنهوض بدون أن يذكر لأي واحد منهم الى أين ، وكأنه مغاضب للجيوش الفرنسية بجنرالها ، ولم يجرؤ أحد على استفهامه الي أين ، فسار ،يتقدم ناسه متجها الي ناحية القصيبة من حيث كان ينوي الهجوم عليها من ناحية بعيدة الغور، غير متهمة بالهجوم . وقد ظل الناس في شغل من دفن موتاهم ، وقسم غنيمتهم ، وافتخار بنشوة الانتصار ، وتفرقوا ، ظننا منهم أنه لايعود أولا يعيد الكرة ، الا بعد حين أو شهور . فماراعهم

مع الفجر إلا وبوعزة ينقض من ثنايا على القصيبة ، ولايلقى في الطريق من يقاومه ، لأن الناس تفرقوا ، فلم يلق إلا مقاومة طفيفة ممن خيامهم على طريقه ، ولاطريق الا الجبال . وماهي الا جولات يسيرة ، حتى كان داخل القصيبة ، مما أرعب به وأغرب . فتمكنت قوى الشر ، وتمركزت تمركزا لاقبل للمجاهدين في استرجاعه . وعند ذلك كشف السر للمحال بجنرالها ، فجاءوا يكبرون بوعزة ، المافون في اعماله ، ومغامراته الحمقاء .

وبينما الحرب هذه تدور في ناحية القصيبة برياسة بوعزة الاهوج ، اذا بحرب اخرى تدور في ناحية الشرق من قبائل بني مجيلد ، فاحتلت الجيوش الفرنسية تيمحضيت .

وفي هذا الوقت نفسه ، رأى رئيس المعسكر الفرنسي بمكناس الجنرال بْواميرو ، ورئيس المعسكر بتادلا الجنرال افريدامبيرك ، أن بوعزة قد حقق لهم المعجزة ، وأنهم كادوا يطمئنون على تفوقهم وظفرهم ، اذاً يجب أن يقع احتفال "فيشْطا " كبيرة عظيمة ، يتذوق فيها هؤلاء البرابر أنواع الزهو والسرور والفرح ، فنادوا على إقامة مهرجان عظيم في عاصمتهم خنيفرة .

فأقاموا حفلات ضخمة ، وجعلوا فيها " فوكلور " بربريا فائقا ، واحتشدت فيه زيان بما فيها نساء ورجالا ، وجاء الجنرلان ، أنفسهما ، فعلقا وسام جوقة الشرف الفرنسية للباشا حسن ، وسميا بوعزة قائدا على قبيلة بوحسوسن مركز، مولاي بوعزة ، وسميا ابن عمه بنعقى ، قائدا على آيت عمو عيسى ، وآيت شارط ، ومكناهما من ظهيري توليتهما على من ذكر . وكان هذا كله بشهر شعبان 1340 يوافق ابريل 1922 .

استرداد مدشر الوادي " خلفون "

بينما هذه الاحتفالات تجري بعاصمة زيان ، اذا بالمجاهد السيد عبد المالك بن الطيبي الهواوي يغتنمها فرصة فيجمع قبائله ، ويهاجم مدشر الوادي ، [الذي] جاء بين زاوية آيت اسحاق ، وزاوية الشيخ ، على نحو5 كلم من هذه على يسار الجائي منها إلى خنيفرة ، في وهاد وشعاب علي حافة نهر أم الربيع ، وهذا المدشر هو الذي كان فيه الامام اليوسي بعد مغادرته الدلائية ، وكان يسمى خلفون ، وقد تردد ذكره على لسان اليوسي شعرا ونثرا .

قال اليوسي في المحاضرات ، ولما كنت " بخلفون " على ام الربيع ذكرت من كان معنا في الزاوية الدلائية من المعارف والاحباب ، وكانوايومئذ قد شرّقوا لناحية تلمسان .

من نثره ، في خلفون ماكتب به للامام احمد بن عبد القادر . ونصه : " بسم الله الرحمان الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله ، وعلى ثمرة الفؤاد ، وفلذة الأكباد ، الفاضل النبيه ابي العباس سيدي احمد بن عبد القادر السلام التام والرحمة والبركة على الدوام، وعلى جميع الدار ذكورا وإناثا ، كبارا وصغارا، أحرارا، ومماليك ، جبر الله كسرها ، وفكها من جميع الأفات أسْرها، وفيض خيرها حتى يشمل غيرها ، وعمرها بالعلم والتقوى ، وبناها على الاساس الاقوى . فاني احمد إليكم الله الذي لا إلاه الا هو ، أما بعد فإني لم أغب غفلة عنك ، ولاعدم مبالات . معاذ الله ، وإني لأسأل الطير ، لو تتكلم عنكم وماخفيت عني أخباركم ، من كثرة السؤال ، وقل المساعد علي القدوم عليكم بغير كزازة في قلبه لما عم القلوب من الرهب . وتالله لولا العيال في الخلا ، ماتأخرت عن كتابتكم ، طرفة عين بنفسي ، وقد ذكرت ذلك لولدكم ".

"وقد وقع في أمر عظيم حين قرأته ؛ ثم فوضت الامر الى الله واكتفيت بالدعاء عن ظهر الغيب ، ثم نزلت بنا أهوال ، وأشغال ، ومات من مماليكنا ومن تعلق بنا من بلغكم ، ومات من طلبتنا جماعة رحمة الله على الجميع ، وقد عظم وجدى على الطلبة ، ثم خفف الوجد ، بل أوجب السرور ، والطرب ماشهدنا فيهم من الخير بحمد الله . فما ظنك بجماعة ، شباب اجتمعوا على غير نسب ، ولاقرابة ، فيقيمون الدين ومن مات منهم ، ومن جيرانهم جهزوه أحسن جهاز، وصبروا حتى إذا مات آخر جهزوه ولافزع ، ولافرار ، بل صابرون محتسبون ، مذعنون لأمر الله . وقد صح في قلبي أنهم كلهم أولياء الله ، وأعتقد أن جمع الله الشمل بهم ، زيارتهم وتمييزهم ، ولم يزالوا الى الآن على هذا الامر . فادع الله لهم برفع البلاء ، ونحن قد نقَر في أطرافنا، ولم يصل الينا ، فادع الله لنا باللطف ، والدفع لجميع المومنين ، ويصلك مع حامل الكتاب ، نصيبكم من تمر دار الشيخ ، وسنصرف ابن عبد الله عن قريب " والزاوية الخلفونية " ، لم تزل عامرة بحمد الله ، يطعم فيها الطعام ، ويؤذن في مسجدها، وتقام الصلاة ، وفيها كان هذا الموت فادع الله بالرفع . وإن زاد أكلك ، وجماعك فأبشر ، فان الصوفية يأكلون وينكحون ، والله يفتح عليك بامرأتين بارعتي الجمال ، إحداهما لقالبك من بنات آدم ، والاخرى لقلبك من بنات ماء الغيب . وادع الله لي أنا أيضا بذلك . ونحن الآن قد تجنبنا الدار وكل مافيها من أجل ماحدث هناك . ولكن فضل الله سابغ علينا بلا هي ، حيث ماكنا نسأل الله تعالى دوام الستر والبرء لنا ولكم من هذا الأمر ، ليس بيني وبينه الا ضحوة وربما أقول ينبغي أن أرحل ، فادع الله لي أن يختار لي ، وأن يدفع شره ، وشر كل ذي شر والسلام " .

انتهت هذه الرسالة ، والظن أنه كتبها بعد رجوعه من مراكش ، فقد رحل لمراكش في ربيع الثاني 1092 ، وسكنه ثلاث سنين ، وخرج منه في يوم الاثنين 72 صفر 1095، فنزل بالزاوية البكرية ومكث ثلاث سنين وأربعة شهورا ، فخرج أوائل رجب 1098 ، فعلها كتبت في هذه الاقامة . انظر الرحلة لولده ، وملخصها في أعلام القاض سيدي عباس بن ابراهيم ج 10 ص 391 .

هاجم السيد عبد المالك بن الطيبي الهواري مدشر الوادي في 19 رمضان 1340 ، 17 ابريل 1922 . لقد خاطر هذا المجاهد مخاطرة عظيمة ، فقد جاء في قبائل ، وحرضهم على اقتحام هذا المدشر ، بكل ما يمكن ، وأوصاهم أن لايتراجع واحد منهم ، ومن تراجع فهو طريد من رحمة الله . فحمل الراية هو الأول وتقدم . والمدشر محصن بالعدة والمدافع ، وجاء في شعاف الجبال ، وبين المنعرجات ، فجعل المجاهدون يقتحمون ، ويتقدمون ، حتى وقفوا على المدشر ، ولم يكفهم الوقوف والاحاطة به ، بل جعلوا ينصبون السلاليم ، ويصعدون للتسلق داخل المدشر ، والمدافع تحصدهم ، والقدطوش والقنابل اليدوية حتى أطاحت بالكثير ، بل وكادوا يفنون ، فاقتحموا المدشر ، ولكن ماوراء هذا المدشر ، وما الفائدة في اقتحامه ، بهذا الثمن من الصناديد والابطال . فالمدشر جاء ، كما قلت في شعاف وشعاب ، وبعيد عن الطريق وبحافة نهر أم الربيع . والداخل اليه كأنما سجن نفسه بيده ، اذ لايستطيع أن يبقى فيه يوما ، وبمجرد ماتأتي أدنى قوة تحاصرهم ، فيموتون جوعا بدون قتال ، وهذا ماكان طبعا ، لذلك لم يستقر فيه هؤلاء الا يوما حتى غادروه بدون قتال ولامقاومة ، فضاعت تلك النفوس هدرا الا مايرجونه من الله ، وكانت هذه المغامرة من التهور المبين ، أوقعهم فيه حسن النية ، ورجاء الشهادة فقط .

المعارك تحتدم في قلب بلاد اشقيرن

بعد الاحتفالات التي مرت بخنيفرة في أبريل ، وبعد المعركة التي كانت على مدشر الوادي ، وقد جفت الامطار ، وأينعت الازهار ، وصفا جو الاطلس المثلج لم يبق الا أن تتوجه الجيوش من المراكز الكبيرة والصغيرة ، خنيفرة وزاوية آيت اسحاق ، وواوْمنا ، بل ومن تادلا نفسها ، برياسة الجنرال افريدامببرك ، من هذه الناحية ، وبرياسة رئيس معسكر خنيفرة الكمندار بوفرو Bouvrot وأعوانه بوعزة ومن اليه .

جاءت هذه المحال عازمة على الصمود للأطلس الاشقيرني ، وذلك بتاريخ شوال 1340 ، 16 ماي 1922 ، فقصدت مدشر تينتغالين ، أحد مداشير اشقيرن .

وكان هؤلاء الاطلسيون " اشقيرن " عندهم من أقوال سيدي ابي بكر أمهاوش ، مايسمونه بالتقديمات " أي علم الحدثان " عندهم شيء يدل على ان جهادا ، سيكون في هذه المحلات ، فطوبى لمن يستشهد منه هناك ، او شيء هذا معناه . فلما جاءت هذه المحال العظيمة القوية ، وقصدت هذا المدشر وماحوله ، تيقنوها ، فتصلبوا في مواقعهم ، ودفاعهم واستماتوا على ترابهم ، وصمدوا في وجوه الاعداء ، صمود الابطال الاشداء ، وتترّسوا بالاشجار العظام ، والاحجار الكبار ، وبدأوا يشوون الجيوش الفرنسية والمتعاونين معهم شيًا، ويطوون صحائف الاحياء منهم طيا ، فاطاحوا برؤوس كبيرة ، واشخاص عظيمة إلا أن القوة الهائلة كاثرتهم ، وصابرتهم ، حتى ضاقت معيشتهم ، وكادت أو فنيت ماشيتهم ، فغادروا المدشر ، وتوجهوا إلى جبالهم ، حيث لهم مداشر أخرى مثل بوتْسوانين ، وأزرْزو ، وتافساست ، ومولاي يعقوب ، وغير ذلك ، وهذه كلها أماكن ، ومداشر في بلاد اشقيرن ، آيت يعقوب وعيسى ، وآيت احماد وعيسى ، ولاتبعد عن بعضها الا ببضع كلمترات .

وبعد بضعة أيام ، توجهت المحال التي تمركزت في مدشر تينتغالين ، مع بوعزة ومن معه من المستسلمين ، توجهوا الى حيث هؤلاء المجاهدين الى بوتسوانين ، فهاجموهم هجوما عنيفا ، فثبت المجاهدون في مراكزهم ، واستماتوا استماتة الأبطال ، حتى صدوا الاعداء ، ولم يتزحزحوا ، عن مراكزهم ، وكان هذا الهجوم في شوال 1340 ، يوافق 22 ماي 1922 . وبقيت المعارك دائرة طيلة شهر ماي وأوائل جوان ، والجيوش تتلقى الامدادات ، وتكثر الاغارات ، والمجاهدون يمدهم الله بعونه ونصر من لدنه ، حتى كان أواسط جوان .

وفي 18 جوان توجهت محال أخرى يرأسها الكلونيل دوكلا Ducla من سفح جبل هناك ، بمدشر تيمْدغاس ، هبطوا على مراكز لشرفاء علويين ، يسمون أهل تاسكارت ، فقنبلوا مداشرهم ، وخاصة مدشر تاسفْلالت الصغيرة ، فقنبلوا عليهم مداشرهم ، فخرج الشرفاء العلويون ، ومن يحميهم من قبائل ايمزينتن ، يدافعون عن شرفهم ، ودينهم ويواجهون الجيوش وجها لوجه ، ولكن ماذا عسى يغني هذا الدفاع ، وهذه الاستماتة والنساء والصبيان في المداشر تتساقط عليهم القنابر المحرقة بدون شفقة ولارحمة . وهذا ماجعلهم يرجعون الى مداشرهم ليخرجوا النساء والاطفال ، وماستطاعوا من متاع من تلك الانيار المحرقة التي تلتهم البيوت والمساكن ، فليتصور المتأمل هذه الحالة ، ويقرأ لها حساب العاقبة

والمآل ، ويكبر هؤلاء الرجال ، وماتجرعوه من محن على دينهم ، ووطنهم وشرفهم وعرضهم ، لعله يجد لهم عذرا متى رجعوا ، اذ فعلوا فوق الطاقة ومن فعل الطاقة لايلام .

اضطر المجاهدون الشرفاء لمغادرة مراكزهم ومداشرهم ، فاحتلتها القوة الغاشمة ، وقد كان قصدهم التضييق على المدشر الاعظم ، بل القرية العظمى لقبيلة اشقيرن ، أو قلت عاصمتهم القباب ، عاصمة اشقيرن عامة وآيت مشان خاصة . آيت مشان ، احدى العمائر من قبيلة اشقيرن . وهم أهل قرية القباب ، احدى قرى الاطلس على 35 كلم ، شرقي خنيفرة ، ومع كونهم من قبيلة اشقيرن ، فإنهم يساندون القائد محمد وحمو اكثر ، بل يناهضون اخوانهم اشقيرن غالبا . ويذكر التاريخ الشرقي " مشان " بليدة صغيرة بالعراق ، قرب البصرة ، وكان ابو محمد القاسم بن علي المشهور بالحريري، صاحب المقامات من هذه البليدة " مشان " ، ولذا يقول في هجره علي بن افلح .

شيخ لنا من ربيقة الفـــرس ينْتـف عثنونـه من الهـــوس
انطقه الله " بالمشان " كما رماه وسط الديوان بالخـــرس

وللبيتين قصة ، وهي أن الحريري لما عمل المقامات المشهورة وهي أربعون مقامة ، وحملها من البصرة الى بغداد ، ونسبها الى نفسه ، لم يصدقه جماعة الأدباء ببغداد " عادة الله في خلقه " ، وقالوا انها ليست له.

الفقيه سيدي محمد ولد سيدي عمرالمرابطي في الميدان

وإنما هي لرجل مغربي، من أهل البلاغة، مات بالبصرة، فوقعت أوراقه الى الحريري ، فادعاها . فاستدعاه الوزير الى الديوان ، وسأله عن صناعته . فقال أنا رجل منشىء ، فاقترح عليه انشاء رسالة في واقعة عينها ، فانفرد في ناحية من الديوان ، ومكث زمانا طويلا ، فلم يفتح الله عليه بشيء فقام وهو خجلان، وكان من جملة الأدباء الذين أنكروا عليه دعواه ، على بن أفلح الشاعر المذكور فانشدهما ، اهـ.. من تاريخ ابن خلكان جزء ثاني صحيفة 166. استمرت الحملتان ، الجنرالان افريدامبيرك من ناحية تادلا ، وبواميرو من ناحية مكناس ، بكل مالاهما من قوة وعتاد ، وفرق فرنسية ، وسينغالية فقد ضيقوا عليها من فوق ، حيث تمركزوا ببوتْسوانين ، ثم ضيقوا من أسفل فلم يبق لقرية القباب ، وقبيلة ايت مشان الا الاستسلام وجزائرية ، الى القبائل المستسلمة من زيان وغيرهما ، استمر الجميع أمام استبسال المجاهدين ، واستماتتهم على دينهم ووطنهم ، ذراعا بذراع ، وشبرا بشبر حتى اسسوا مركز " المسيد " ، بين اشقيرن ، وآيت سخمان ، في آخر جوي سنة 1922 ، فرجعت القوتان العظيمتان وأبقت حراسات بمراكز صغيرة ، وظنت أنها لم تترك لمتحرك مجالا يتحرك فيه بل ظنت أنها استراحت أو كادت فلم يبق للمجاهدين إلا الإستسلام .

ولكن المجاهدين استراحوا ، شهر شتنبر فقط ، فظهر لهم أن يجعلوها جذعة ثانية على الجيوش الفرنسية . فقام سيدي محمد بن عمر هذا ، وجماعة من زيان المهاجرين كمحمد وعلان الزعيم، وابن عمه حدو نعلا، ومحمد بن عبد الرحمان، ولد أحمام المرابطي ومن معهم ، يرأسهم سيدي ابن عمر ، قامـــوا يصرخون وينعون على المجاهدين سكونهم، أو سكوتهم فاجتمعت على الفقيه المذكور قبائل وقالوا ها نحن وراءك ، فما تشير به نمتثله ، ولو كان فيه

الموت الأحمر . فاتفقت كلمتهم على الهجوم على مركز المسّيد ، فنفذوا الخطة . وفي 15 نونبر 1922 هاجموا المركز المحصن العظيم ، الهجوم الأول ، فحصدتهم القنابر والمدافع حصدا . فتزحزحوا قليلا ثم عاودوا الهجوم الثاني ، فكانت النتيجة كالأولى . ثم هكذا ظلوا النهار كله حتى فصل بينهم الليل ، فاستشهد كثير وكثيرجدا . وكان من الأليق أن لا يهوروابهذه الهجومات التي لا فائدة فيها ولكن حب الشهادة .

فرّ أيت مشان والمتساكنون معهم في القباب ، وتمركز فيها الجيش الفرنسي بقدمه الهائلة الآتية مع الجنرال أفريد أمبيرك من ناحية تادلة ، ومن الجنرال بْواميو من مكناس ، على معسكر خنيفرة والقبائل المستسلمة . فالتجأ اشقيرن الى الجبال، وتوجهوا نحو أزرزو، والمسيد، وتافساست ومولاي يعقوب ، والمرْس وغير ذلك ، فاشتدت المعارك في هذه الناحية والتجأ المهاجرون من زيان ، وأيت إحند الى محل يقال له بوطّاس . فأشار المستسلمون برياسة بوعزة على أنه لابد من تركيز مركاز عظيما في داخل قبيلة اشقيرن ، أو في تخوم حدودها مع أيت سخمان ، مادامت قواهم منهوكة ، فأخذت برأيهم الجيوش الفرنسية ، فذهبت حتى توغلت في ترابهم ، وأسست مركز عظيما بأزرْزو ، ثم بالمسيد على الحدود بينهم وبين أيت سخمان . فكان هو المركز العظيم لهم .

في حين أنها اتخذت على كل نقب مركزا صغيرا تضييقا عليهم ، وهي المراكز التي ذكرنا ، وبين كل مركز وآخر ، نحو 8 الى 10 كلم .

بقي المجاهدون يستميتون على ترابهم خلال هذه المراكز ويذيقون عدوهم متى مكنتهم الفرصة نكالا وبيلا ، يتحينون الفرص لذلك . وهم بين الجبال ، والشعاب ، والمنعرجات ، طيلة شهر ونصف ماي ، وجوان ونصف جوي . وعند ذلك رجعت الجيوش الفرنسية برياسة الجنرال افريدامبيرك ، رئيس المعسكر التادلي ، ورجعت الجيوش المكناسية . وبقيت المراكز بمن فيها والمستسلمون من القبائل . فكانت كل يوم تقريبا تقع معارك .

استمرت الحال على هذا المنوال بقية السنة ، والمعارك بين أخذ ورد ، ولكن لم تقع حوادث تذكر . ولجأ غالب المجاهدين والمهاجرين الى بلاد يقال لها بوطاس ، وقد تكبد العدو خسائر في سنة 1922، في المغامرات التي غامر مع هؤلاء المجاهدين ، وخسر كثيرا من العتاد والرجال ، في حين أن المجاهدين والمهاجرين كذلك .

وقد لجأت فئة كبيرة من زيان الصابرين المحتسبين ، أمثال محمد وعلا نزعيم البومزّوغي ، في طائفة من إخوانه أيت بومزوغ ، وأمثال محمد أحمام المرابطي ، في جماعة من إخوانه المرابطين ، وكان في جملة المرابطين الفقيه سيدي محمد ولد سيدي ابن عمر .

الاطاحة برأس الشر بوعزة

لجأ المهاجرون الزيانيون لهذه الناحية فجاولوا فيها الجيوش الفرنسية والمستسلمة . ونفخوا روحا جديدة في المجاهدين ، وتطاولوا ، حتى الى قبائل الدير لناحية ناوور ، حيث القائد المجاهد موحا وسعيد . فلذلك كان المجاهدون بقية سنة 1922 في شبه اطمئنان واستقرار على الاصح ، بناحية بوطاس حيث تجمعوا هناك . ومرت الشهور الأولى من سنة 1923 ، وفي ليلة التاسع من شعبان 1341 يوافق 27 مارس 1923 تكلم بالهاتف ، على الساعة الثالثة نهارا رئيس مركز المسّيد الى رئيس مركز خنيفرة ، يخبره بأن طائفة من مجاهدي أيت

سخمان ، واشقيرن وفئة قليلة من إمهواش ، نزحوا لناحية مركزه ، منتجعين للمرعى بمواشيهم ، وأنهم طعمة باردة ، فليسرع المغامر بوعزة في فرسانه فما هو إلا الزبد والعسل ، فأسر بها رئيس معسكر خنيفرة للأهوج ، فركب للحين في جيشه وفرسانه ، فأسرى ليلا حتى وصل لمركز المسيد ، البعيد عن خنيفرة بنحو مائة كلم ولما وصل ، أعاد اليه المقالة رئيس مركز المسيد ، وقرب كل بعيد . فلم يكتف بوعزة برأيه ، فوجه جواسيسه للاستطلاع على الماشية ، أين هي ، فانكشفت لهم بعيدة جدا عن المركز ، وتبين لهم خطأ رئيس المركز بهذه الفكرة . فجعل بوعزة يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، وبما أن المأفون اعتاد المخاطرة ، بل والمغامرة وكل مرة يسلم الجرة . وكيف وهو الذي لايقال عنه إنه يخاف أو يخشى ، ولايرهب موتا ولابطشا .

لذلك صمم العزم على الهجوم بدون وجوم . في حين أن كل من معه حذره سوء المغبة . صمم ونفذ وهجم القوم ، أو رعاتهم ليستلبهم ماشيتهم ، فأغار أشواطا طويلة ، وفرسانه معه، وتوغلوا ، في صميم هؤلاء المجاهدين ، حتى وصلوا الهدف ، وساقوا الشاة والانعام ، فاقتفى آثارهم المجاهدون ، وهم قليلون ، ولكنهم أبطال حرب وفرسان وغى ، فلحقوا بهم فتبادروا الطلقات، وحمي الوطيس وتسامع المستشرفون من أعالي الاطلس وقننه بالطلقات ، فاعترضوا سبيل الناهبين الغاصبين ، وكان بهذه الجهة بعض سيدي علي أمهاوش ، وفيهم ولده سيدي الشيخ وابن عمه سيدي محمد وناصر ، وكان هذا أشل من احدى يديه . فاعترضا سبيل المذكورين ، وعرفا من بينهم بوعزة فصوبا له طلقا تهما ، فأصيب إصابة قاتلة . وكان الرجل شجاعا بكل ماتحمل هذه اللفظة من شجاعة متفوقة .

فماذا كان قوله وماذا كان عمله بعد الاصابة القاتلة، كان أول ماقال، إنها الموت.

وماكانت هذه الكلمة تخرج من فيه قط أصلا ، لولا الاصابة المميتة ، ولكنه أحس بها في الصميم ، ثم صاح في فرسانه ، ارموا ، ارموا ، وهو يركض فرسه ، ويجري اطلاقا ، وأصحابه محدقون به ، يرمون ، ويجدون في الطلقات السريعة بدون حساب .

وقد يئسوا من الغنيمة ، ولازالوا لم يطمعوا في السلامة . وجدوا في الرمي والتصلب حتى فتحوا فجوة أمام المعترضين سبيلهم المجاهدين. سلك منها المغبون ، هو وأحد أصحابه ، يسايره على فرس يشبه فرسه في الجري .

" وقد كان هو وإخوته ، بل الاسرة كلها الإمحزانية ، لايركبون الا الافراس الفارهة المنقطعة النظير ، في الجري والتي لاتلحق ، وسار بأثره بقية فرسانه . فوصل هامان المعركة الى مركز المسيد ، وحكى لي بعض المعارف وهو من أعوان والدنا الذين بقوا في خنيفرة . وكان كمخزني عند بوعزة ، قال لما خلص من المجاهدين بالفجوة ، والثغرة التي عمل أصحابه لنا حتى سلكنا ، التفت الي وقال إني في خطر ، وكاد يسقط من أعلى جواده ، فركبت وراءه وضممته الى صدري ، وأسرعت به الى المركز ، لعل الطبيب يجد له علاجا ، فلما وصل للمركز وصل في حال لاترضي ، فالتف عليه رئيس المركز ، واعوانه الضباط ، يندبون ويبكون ، وبالطبع ، الطبيب الذي بالمركز غير كاف ، فاستجلبوا له الطبيب الاكبر من معسكر خنيفرة ، في الطيارة . وبمجرد ماوصل غرز إبرة قرب المحل المصاب وجد به ، فالتفت الى المحدقين به من الضباط الفرنسيين قائلا : لاطمع في حياته . وماهي الا دقائق حتى فاضت روحه على الساعة 18 ، عشية اليوم

التاسع من شعبان 1341- 27 مارس 1927. وكانت إصابته بمحل يقال له " تاوريرت الملوك " ، أي ربوة الملوك . فحمل الى العاصمة الزيانية جثة هامدة ، حيث التف عليه رؤساء المعسكر الفرنسي ، كبيرهم وصغيرهم ، وندبوه ، وبكوه ورثوه وأبّنوه ، وفقدوا لموته ركنا من أركانهم ، وقد أطالوا العويل ، والنحيب عليه ، ونوهوا به ، في مقالات شتى كقصص لبطولته ، واستماتته ، وضربوا به المثل في الاخلاص للعلم الفرنسي الذي حمل منذ سنة 1917 ، الى حين وفاته مارس 1927 أي عشر سنين . ويكفي من حمق هذا الأهوج ، أنه كان لايتشوق على مايبذله من غال ونفيس الى شيء من ماليتهم ، ولامدخراتهم ، ولو كان من الطامعين لأثرى ، ولو كان من المتشوفين للرياسة لركز مكانته أتم تركيز وناهيك به حمقا ، وبلادة ، أنه في الوقت الذي كان يجود فيه بنفسه ، كان يقول لمن حوله من رؤساء المعسكر الفرنسي ، إني لاآسف على شيء أسفي على مبادرة الموت اليّ قبل أن يستسلم الاطلس كله على يدي (1). ولكن يكفي أني مت على راية فرنسا ، وشيء من أقواله وأفعاله ، في الموضوع كبير وكبير جدا جدا جدا .

وقد أطال في مفاخره الفاجرة الكافرة ، أحد الضباط الذين عاشروه وعاشروا معه أيام كفاح المجاهدين ، من أوائل احتلال خنيفرة الى النفس الاخير من حياته ، وهو القبطان سعيد ، فكتب فيه صحائف طويلة ولنكتف بنبذة منها ، فهي دليل على ماقام به هذا الأهوج ، لتكون حجة قائمة على من يدعي أن فيما حكيناه عنه مبالغة .

قال :" إن الضربات التي حملها " أي بوعزة الى اعدائنا " يعني المجاهدين " لاتعد ، إن جيشه زرع الرعب في جميع الناحية ، والكمائن والغزوات والمساعدات الواحدة تلو الاخرى ، بخفة كبيرة ونجاح ، حيث كان الثوار " المجاهدون " يبتعدون عن المركز التي يحوم حولها . فقد كان بوعزة يذهب اليهم ، يبحث عليهم ، على بعد 25 كلم . ولكي يتصل بهم يغير كرات متعددات وبذلك تهيأت له فرق من قومه، يصلحون لاستعمال المفرقعات اليدوية ، والبنادق الرشاشة ، التي تدربوا عليها بكيفية عجيبة، وسلم لهذه الفرق سلاحا استرده من الثوار " المجاهدين " ."وباختصار في أوائل سنة 1920 ، حيث كانت عملية فرقة كلها ناجحة نجاحا باهرا ، قررت القيادة بانصاف واستحقاق ، أن تمنح لهذه الفرق مؤنا وإعانات ، ولجميع المخازنية ".

"وزيادة ، فان رئيسهم " بوعزة "، الذي كان له طموح ليحمل رمز ضابط ، فقد سوعد ، رسميا على منحه رتبة ملازم أول" سوليوطنا "، وأن يلقب من طرف رجاله "موليطْنا " .

---

1 ـ ساق المؤلف رواية ذكر فيها أن بوعزة بن موحا وحمو انضم إلى الفرنسيين وقاتل إلى جانبهم . وكان قد قتل أكثر من 150 نفسا من المغاربة ، وعندما أصيب برصاصة قاتلة من قبل المجاهدين في منطقة ألْسيد حمل إلى المعسكر الفرنسي وقال لمن كان يحيط به من الضباط وهو يحتضر بأنه يأسف على موته قبل أن يستسلم الأطلس للفرنسيين ، وأنه يكفيه أنه مات على راية فرنسا . وهذا الموقف برهان على ردته وكفره عياذا بالله . ومما يدل على ذلك أن زوجته وهي والدة عمتي تحكي بأنه أوتي به إلى منزله وهو جثة هامدة في المساء، ووضعوه في غرفة مسجي ليأخذوه إلى المقبرة في الغد . وفي الصباح وجدوا جثته مرمية في رحبة المنزل وعليه أثر الضرب وإصابات شديدة في وجهه ومن خلفه . وهذا شاهد على أن المرتد الذي يصد عن سبيل الله ويوالي أعداء الإسلام تُعجل له العقوبة بعد موته والدليل على ذلك قوله تعالى" فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ..."محمد أمحزون.

"وفي ماي 1920 ، حيث تحسنت الحالة السياسية بسبب انضمام بعض القبائل ، قرر بوعزة آنذاك أن يتسع في عملياته باستجلاب فرسان من سائر القبائل ، التي انضمت الينا . ويحمل الحرب بنفسه الى سفح جبال اشقيرن ، فنجح في بعض الغزوات وكبد الاعداء " المجاهدين " خسائر لم يبق لهم معها الا تحطيم ماشيتهم في الجبال او الاستسلام ... "

ثم قال بعد اسهاب واطناب ، "وكان تأثيره على العدو " المجاهدين " باهرا والنتائج الباهرة التي حصل عليها ، جعلت القيادة توصل أمنية بوعزة الى غايتها فقررت رفع فرقته الي مائة فارس " .

"وهذه الفرقة " المخزن " بعد أن تعززت ، رجعت لها السيادة الغير المتنازع فيها في منطقة الجبهة وصار " البرْنس " ، السلهام الازرق الذي خلف السلهام الكاموني ، الذي كان يستعمله جيوشنا شعارا لرعب من طرف أعدائنا الذين صار همهم الوحيد اتخاذ رقاقيصهم ، أعوان استخبار لمراقبة حركات ، وسكنات بوعزة وفرقه ".

"ورغم هذه الحراسة التي هي أكبر دليل على فخر هذه الفرقة ورئيسها رغم ذلك ، فإن بوعزة لم يزد إلا في تسجيل نجاحاته الباهرة حيث كان يهجم هجومات ، كان صداها تهز سفوح الجبال الاطلسية التي كان الثوار " المجاهدون " يظنونها حصنهم الحصين ، الذي لايهتك وهي سفوح واوْمنا ، ابن خليل ، اورْير ، تيغسّالين ، ملوية ".

"هذه صفحات مجد خالدة مخلدة في تاريخ المجد لهذا البربري الصغير ، وفليقه الشجعان ".

"وعلاوة على عملياته الحربية التي لايمكن أن تؤخذ عنها صورة الا بواسطة الشهادات، التي سلم له على إثرها صليب الشجعان " لاكروا " ، فإن بوعزة ولد موحا وحمو ، لعب دورا من أهم الأدوار الرئيسية في استتباب أمن بلاد زيان " الى آخر مقالته الطنانة الرنانة بالنسبة اليه .

ثم قال أخيرا ، "إنه قتل اكثر من مائة وخمسين نفسا ، وجرح أكثر واكثر ، واستسلم على يده اكثر من الف عائلة ". انتهت مقالاته مختصرا ، وهي كافية ، فيما قام به هذا المأفون او الغِرّ المغبون . وقد قام بهذه الاعمال الضخمة المخجلة العظيمة خزيا ووبالا ، وعمره نحو 19 سنَة الى يوم وفاته سنة 1927 ، فيكون عمرَه 29 سنة .

ومن عجيب الاتفاق أنه لم يولد له إلا ولد لازال طفلا ، وماكاد يصل الى عاصمته خنيفرة جثة هامدة حتى سبقه هذا الطفل جثة هامدة كذلك . فانحسم الاصل وتبعه النسل ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر .

مصــادر التحقيق

أ- المصادر العربية

1 ابن ابداهيم عباس المداكشي.
- الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام ، 10 أجزاء الرباط 1983.

2 ابن عبد الملك المراكشي.
- الذليل والتكملة ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت 1965.

3 ابن عباس مصطفي الرسام.
- تراجم الشعراء والأدباء ، الرباط 1994.

4 ابن زيدان عبد الرحمان العلوي
- إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ، 5 اجزاء ، الرباط 1933.
- الدرر الفاخرة بأثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط 1937.

5 ابن خلكان أبو العباس احمد
- وفيات الأعيان ، 8 أجزاء ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت 1972.

6 ابن المواز أحمد
- حجة النذرين علي تنطع المنكرين ، طبعة حجرية فاس.
- خطوة الأقلام في التعليم والتربية في الإسلام.

7 ابن الزيات يوسف التادلي
- التشوف إلي رجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق ، 1984.

8 ابن أبي زرع أبو العباس أحمد
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط 1933.

9 ابن خلدون عبد الرحمان
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، 6 أجزاء ، بيروت 1959.

10 ابن غازي محمد العثماني
- روض الهتون في التعريف بأخبار مكناسة الزيتون ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور

11 ابن عسكر محمد بن علي
- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، دار المغرب ، تحقيق محمد حجي ، الرباط 1977.

12 أسد محمد
- الإسلام علي مفترف الطرق ، دار العلم للملايين ، بيروت دون سنة .

13 بنسعيد سعيد العلوي :
- الاجتهاد والتجديد ، دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، 1992.

14 بنعبد الله عبد العزيز :
- الموسوعة المغربية ، دار النشر ، الرباط ، 1976.

15 الباش حسن :
- منهج الجهاد القرآني ، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس 1992.

16 بن منصور عبد الوهاب :
- قبائل المغرب ، جزءان ، المطبعة الملكية ، الرباط 1986.
17 بوعياد الحسن :
- الحركة الوطنية ، دار الطباعة الجديدة ، البيضاء 1979.
18 التازي عبد الهادي :
- الحماية الفرنسية بدءها نهايتها حسب إفادات معاصرة ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء 1980.
19 التاودي محمد بن عمر بن سودة :
- قبيلة زعير قديما وحديثا ، الجزء الثاني ، دار النشر المغربية دون سنة .
20 التوفيق أحمد :
- المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ، اينولتان (1850-1912) ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط.
21 الجراري عباس :
- الإغتباط في تراجم أعلام الرباط ، تحقيق عبد الكريم كريم ، الرباط 1978.
22 الحجوي الثعالبي محمد بن الحسن :
- الرحلة الوجدية ، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم ج 123.
- تقرير تاريخي عن حال المغرب بعد الحماية ، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط ج 254.
23 حجي محمد :
- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي ، الطبعة الثانية ، الدار البيضاء 1988
24 حركات ابراهيم :
- المغرب عبر التاريخ 3 أجزاء ، دار الرشاد الحديثة 1986.
25 لخديمي علال :
- التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ، أفريقيا الشرق 1991.
26 روم لاندرو :
- تاريخ المغرب في القرن العشرين ، ترجمة نقولا زيادة ، دار الثقافة بيروت 1980.
27 الزركلي خير الدين :
- الاعلام قاموس تراجم ، 10 أجزاء ، الطبعة السادسة ، بيروت 1984.
28 الزياني أبو القاسم :
- الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب ، مخطوطة الخزانة العامة .
- الترجمانة الكبرى ، تحقيق عبد الكريم الفلالي، الرباط .
29 الزيادى أحمد :
- انتفاضة الشاوية سنة 1907 ، دار قرطبة الدار البيضاء 1986.
30 السوسي محمد المختار :
- المعسول ، ج 4 ، الدار البيضاء 1960.
31 الضعيفي محمد :
- تاريخ الضعيفي ، تحقيق أحمد العماري ، دار المأثورات 1986.
32 الاعرج محمد السليماني :
- زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ ، مخطوطة الخزانة العامة ، الرباط ، تحت رقم د 3657 ج 2 .

33 العلمي محمد :
- محمد الخامس ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1975.
34 عياش البير :
- المغرب والاستعمار ، حصيلة السيطرة الفرنسية ، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي ، دار الخطابي ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء 1985.
35 الغزالي محمد :
- تراثنا الفكري في ميزان الشرع ، دار الشرق ، بيروت دون تاريخ .
36 الفاسي الطاهر :
- الرحلة الابريزية إلى الديار الانجليزية ، تحقيق محمد الفاسي ، الرباط 1963.
37 فارس محمد خير :
- تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب (1912-1939) ، دمشق 1972.
38 فروخ عمر :
- التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، المكتبة العصرية ، بيروت 1986.
39 القادري محمد بن الطيب :
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، تحقيق محمد زروق.
40 الكتاني محمد جعفر :
- نصيحة أهل الاسلام ، مكتبة بدر الرباط 1989.
41 الكتاني الباقر بن محمد :
- ترجمة محمد الكتاني ، مطبعة الفجر 1960.
42 كردية ابراهيم :
- ثورة أحمد الهيبة بن ماء العينين .
43 لوشاتولي :
- الغارة على العالم الاسلامي ، ترجمة محي الدين الخطيب مكتبة أسامة بن زيد بيروت ، دون تاريخ .
44 لوطورنوروجي :
- فاس قبل الحماية ، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر ، جزءان ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1987.
45 لفي بروفانصال :
- مؤرخو الشرفاء ، تعريب عبد القادر الخلادي مطبوعات دار المغرب ، 1977.
46 المنوني محمد :
- مظاهر يقظة المغرب الحديث ، مطبعة المتوسط بيروت 1985 ، جزءان.
47 الميداني أبو الفضل أحمد :
- مجمع الامثال ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر بيروت 1972.
48 مخلوف محمد بن محمد :
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، بيروت 1930.
49 المنصوري أحمد بن قاسم :
- تاريخ بلدة خنيفرة ، تحقيق محمد امحزون ، دار الثقافة ، 1986.
50 المقري أحمد :
- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس 8 اجزاء.
51 المعزوزي محمد :
- الكفاح المغربي المسلح في حلقات من 1900 إلى 1934 ، الرباط 1986.

52 الناصري أحمد بن خالد :
- الاستقصاء لاخبار المغرب الاقصى ، 9 أجزاء ، الدار البيضاء 1954.
53 الوفراني محمد الصغير :
- نزهة الحادي باخبار القرن الحادي ، مكتبة الطالب الطبعة الثانية ، الرباط 1988.
54 الوديع محمد الاسفي :
- السلفي المناضل الشيخ محمد بن العربي العلوي ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء، 1986.

ب - المصادر الأجنبية

- Bernard(A), Le Maroc, Alcan, Paris 1932.
- Bernié (G), Moha ou Hamou guerrier berbère, ed . Gautey, Casablanca 1945.
- Coutard (capitaine), " Au Maroc contre la montagne insoumise", dans revue d'infanterie, décembre 1920, mars 1921, avril 1921.
- Foucault (Ch .de), Reconnaissance au Maroc (1883-1884), Chalamelle, Paris1888.
- Gouraud (géneral), Au Maroc (1911-1914), souvenir d'un africain, Plon, Paris 1949.
- Glay (M.le) :
* " Les Bèrbères du Maroc" dans renseigments coloniaux, 1916.
* Les sentiers de la guerre et de l'amour, recits marocains, 1930.
- Guillaume (A), Les Bèrbères marocains et la pacification de l'Atlas central (1912-1933), Julliard 1946.
- Guennoun (S), La montagne bèrbère ou les ait Oumalou, ed. Omnia, Rabat 1933.
- Jamai (K) " Moha ou Hamou", dans mémorial du Maroc, tome 5, 1985.
-Kenbib (M), " Protection, Protectorat, Nationalisme" (1904-1939) dans hesperis tamuda, vol xVIII, 1978.
- Lyautey (genéral) :
*Choix de lettres (18882-1919), Colin, Paris 1947.
* Vers le Maroc, lettres du sud Oranais (1903-1906), Paris 1937.
-Lyautey (P), Lyautey l'Africain, 3 tones, Paris 1954.
- Martin (A.G.P), Quatres siecles d'histoire marocaine, ed. Laporte, Paris 1923.
-Moattassim(M), Les bérbères et l'évolution politique au Maroc, these de doctorat d'état non publiée, Paris I, 1974.
-Prévost (J.le), Jusqu'à l'usure des sabres, manuscrit.
-Pichon (J), El Herri, ed. Charles lavauzelle, Paris 1936.
- Peyronnet (R), Tadla-pays zaian-Moyen Atlas, imp. alger 1923.
-Rivet (D), Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc (1912-1925), ed. l'Harmattan, Paris 1988,3t.
-Reyniers(F), Taougrat ou les Bérbères racontés par eux -mêmes , ed . GentHner, Paris 1930.
-Vallerie (capitaine), pénétration militaire au Maroc, Domat Mont Chrestien, Hachette, Paris 1938.
- Voinot (L), Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc, Paris 1939

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني

المحقق



هو: محمد بن لحسن بن سيدي لحسن من قبيلة آيت سكوكو، إحدى قبائل زيان الشمالية،

ولد سنة 1945، وتلقى دراسته الأولى بمدينة خنيفرة، ثم دخل كلية الآداب بالرباط حيث نال شهادة الإجازة في التاريخ والجغرافيا سنة 1972. ثم دكتوراة الدولة سنة 1997، وقد درس في الثانوي لمدة عشرين سنة، ثم التحق بكلية الآداب ببني ملال سنة 1991، له بعض التآليف:

1- معركة لهري، (13 نونبر 1914) صفحات من الجهاد الوطني -مطبعة أنفو برانت 2001، فاس.

2- Moha ou Hamou Zayani l'âme de la résistance marocaine à la pénétration Française dans le moyen Atlas. Imp. Infoprint, 2003, Fès.

